نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣هـ

الجزء العشرون

تحقيق

الأستاذ عماد علي حمزة

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه توفيقي

ذكر خلافة علي بن أبي طالب
رضي الله عنه

هو أبو الحسَن عليُّ بن أبي طالب بن عبد المُطَّلِبِ بن هاشِم، أُمُّه فاطمة بنت أسَد بن هاشم، أسلمتْ، وهاجرتْ، وهي أوَّلُ هاشِميَّة ولدت هاشميًا، وهو أوَّل خليفة أبَواه هاشميَّان، ثم ابنه الحسَن، ثم محمد الأمين، رضي الله عنهم[1].

ذكر صفته
رضي الله تعالى عنه

قال ابن الأثير الجَزَريّ[2] في تاريخه: كان رضي الله عنه شديدَ الأُدْمَة[3]، قَصيرَ القامة[4]، كبيرَ البطن، أصْلَعَ الرأس، عريضَ اللحية.

---

(١) فاطمة بنت أسد، «أول هاشمية ولَدت لهاشمي، وهي أيضًا أول هاشمية ولدت خليفة، ثم بعدها فاطمة بنت رسول الله ﷺ ولدت الحسن [والحسين] ثم زبيدة امرأة الرشيد ولدت الأمين». راجع: أسد الغابة في معرفة الصحابة جـ٥ ص٥١٧.

(٢) علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري، كنيته أبو الحسن؛ ابن الأثير الجزري ـ بفتح الزاي ـ شهرتُه، له في التاريخ كتاب الكامل. توفي ٦٣٠هـ.

(٣) الأدمة: الأُدْمة، بالضم، في الإبل لونٌ مشربٌ سوادًا. راجع القاموس المحيط للفيروزأبادي جـ٤، باب الميم.

(٤) النص من الكامل في التاريخ جـ٣ ص٣٩٦ و«هو إلى القصد أقرب» أثبتت بدل «قصير القامة» عبارة النويري.

وقال أبو عمر بن عبد البر[١] رحمه الله: أَحْسَنُ ما رأيتُ في صفته رضي الله عنه أنه كان رَبْعَةً[٢] من الرجال، إلى القِصَر ما هو، أَدْعَجَ[٣] العينَيْن، حسَن الوجه، كأنَّه القمرُ ليلةَ البَدْر حُسْنًا، ضَخْمَ البطن، عرِيضَ المَنْكِبَيْن[٤]، شَثْنَ[٥] الكفَّين، أَغْيَدَ[٦]، كأنَّ عُنُقَه إبريقُ فضَّة، أَصْلَعَ ليس في رأسه شعرٌ إلاَّ مِن خَلْفِه، كبير اللحية، لِمَنْكِبَيْه مُشاشٌ[٧] كمُشاشِ السبع الضارِي، لا يَبِينُ عَضُدُه مِن ساعِده، قد ادَّمَجَت ادِّماجًا إذا مشَى تكفَّأَ[٨]، وإنْ أَمْسَك بذراع رجل أمسك بنفسه فلا يستطيع أن يتنفَّس، وهو إلى السِّمَن ما هو، شديدُ الساعد واليد، إذا مشَى إلى الحربِ هَرْوَلَ[٩]، ثَبْتُ الجنَان[١٠] قويّ شجاع، منصور علَى مَن لاقاه، رضي الله عنه.

ذكر نبذة من فضائله
رضي الله تعالى عنه

هو ـ رضي الله عنه ـ أوَّلُ من أسلم، عند بعضهم، على ما في ذلك من الاختلاف فيه وفي أبي بكر، رضي الله عنهما، وأيّهما سبق إلى الإسلام... وقد ذكرنا ذلك كله في ابتداء السيرة النبويّة، في السِّفْر الرابعَ عشرَ من هذه النسخة، فلا فائدة في إعادته، فلنذكر من فضائله خلاف ذلك:

أجمعوا على أنه ـ رضي الله عنه ـ صلَّى إلَى القبلتَين، وهاجر وشهد جميعَ المَشاهد مع رسول الله ﷺ، إلاَّ غَزْوَةَ تَبُوكَ[١١]، فإنَّ رسول الله عليه الصلاة والسلام

(١) ابن عبد البر: يوسف بن عبد الله بن محمد القرطبي المالكي، لقب بحافظ المغرب لشدة حفظه، مؤرخ وأديب وبحّاثة، ولد بقرطبة وتوفي بشاطبة من أعمال المغرب. راجع الأعلام للزركلي.

(٢) الذي لا يحسب في الطوال أو القصار.

(٣) الدعج: شدة سواد العين على سعة.

(٤) الكتفين.

(٥) الشثن: الغلظة.

(٦) أغيد: للعنق خاصة وهو فيها الميلان من دون عيب.

(٧) مشاش العظم: مقدمه أو رأسه.

(٨) تكفأ في مشيه: إذا سار متحدرًا، وفي الحديث أنه ﷺ كان يسير كأنه يتحدر من صبب.

(٩) الهرولة: دون الركض وأعلى من المشي، وفيه أنها سرعة المشي.

(١٠) الجنان: الفؤاد أو القلب.

(١١) تبوك: بالفتح ثم الضم، موضع بين وادي القرى والشام. راجع معجم البلدان لياقوت ج٢ ص١٤.

خلَّفه بالمدينة علَى عِياله، وقال له: أنت مِنِّي بمنزلة هارُونَ من موسَى إلاَّ أنَّه لا نبيَّ بعدي. رواه جماعة من الصحابة[١].

ورُوِيَ أنَّ رسول الله ﷺ لمَّا آخَى بين المهاجرين، ثم آخَى بين المهاجرين والأنصار، قال في كل واحد منهما لعليّ: «أنت أخي في الدنيا والآخرة»، وآخَى بينه وبين نفسه. ولذلك قال عليٌّ لأصحاب الشُّورَى[٢]: أَنْشُدُكم اللّهَ، هل فيكم أحدٌ آخى رسولُ الله ﷺ بينه وبينه ـ إذ آخَى بين المسلمين ـ غيري؟ قالوا: اللهمَّ لا ورَبِّنا. وكان يقول: أنا عبدُ الله وأخو رسولِ الله، لا يقولُها أحدٌ غيري إلاَّ كذَّاب.

وروى بُرَيدة وأبو هُرَيرة وجابر والبَرَاءُ بن عازِبٍ وزَيد بن أرْقَمَ، كلٌّ منهم، عن رسول الله ﷺ أنه قال يوم غَدير خُمّ[٣]: «من كنتُ مَولاهُ فعليٌّ مَولاه» وفي رواية بعضهم «اللهُمَّ والِ مَن والاه، وعادِ مَن عاداه»[٤].

وقد ذكرنا في غزوة خَيْبَر أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لأُعْطِيَنَّ الرايةَ غدًا رجلاً يحبُّ اللّهَ ورسولَه، ويحبُّه اللّهُ ورسولُه ليس بفرّار، يفتحُ اللّهُ على يدَيه»[٥] وأنَّه أعطى الرايةَ لعليّ، ففتح الله علَى يدَيه.

وبعثه رسولُ الله ﷺ إلى اليمن، وهو شابٌّ، ليَقضيَ بينهم، فقال: يا رسولَ الله إنِّي لا أدري ما القضاء؟ فضربَ رسولُ الله عليه الصلاة والسلام صدرَه بيده وقال: «اللهُمَّ اهْدِ قلبَه وسدِّدْ لسانَه»[٦] قال عليٌّ: فواللّهِ ما شككتُ بعدها في قضاء بيْنَ اثنَيْن.

ولما نزل قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝٣٣﴾ [الأحزاب: ٣٣] دعا رسول الله ﷺ فاطمةَ وعليًا وحسَنًا وحُسَينًا في

---

(١) صحيح مسلم جـ١٥ ص١٧٥، والرياض النضرة جـ٢ ص١٦٢، ومظان الحديث كثيرة لا تحصى.

(٢) أصحاب الشورى ستة وهم إلى علي عثمان بن عفان، وطلحة التيمي، والزبير بن العوام، وعبد الرحمٰن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص.

(٣) خم: السم موضع فيه غدير بين مكة والمدينة بالجحفة، وروى الحازمي أن خم وادٍ بين مكة والمدينة عند الجحفة به غدير، خطب عنده الرسول ﷺ آخر خطبة وقد عرفت بخطبة حجة الوداع. معجم البلدان ج٢ ص٣٨٩.

(٤) راجع الحديث في صحيح مسلم جـ١٥ ص١٧٩.

(٥) راجع صحيح مسلم بشرح النووي جـ١٥ ص١٧٦ بتخريج فتح الله ورفعت الهيئة العامة للكتاب، نهاية الأرب جـ٢٠، القاهرة ١٩٧٥.

(٦) راجع سنن أبي داود، الوتر ٢٥ باختلاف في الرواية.

بيت أُمّ سَلَمة وقال: «اللهُمَّ إنَّ هؤلاء أهلُ بيتي فأذهِبْ عنهم الرجس[(١)] وطهِّرْهم تطهيرًا»[(٢)].

قال أبو عمر: وروت طائفةٌ من الصحابة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لعليّ: «لا يحبُّك إلاَّ مؤمنٌ ولا يُبْغِضُكَ إلاَّ منافقٌ»[(٣)].

وقال له رسول الله عليه الصلاة والسلام: «يَهْلِكُ فيك[(٤)] رجُلانِ: مُحِبٌّ مُطْرٍ[(٥)] وكذَّاب مُفْتَرٍ»[(٦)].

وقال له: «تفترقُ فيك أمَّتي كما افترقتْ بَنُو إسرائيلَ في عيسى».

ورُويَ عن رسول الله ﷺ: «أنا مَدِينةُ العِلم، وعليٌّ بابُها، فمن أراد العلْمَ فلْيَأْتِهِ مِن بابِه»[(٧)].

وقال في أصحابه: «أقضاهم عليٌّ»[(٨)].

وقال عُمر رضي الله عنه: «عليٌّ أقْضانا»[(٩)].

وكان عُمر يتعوَّذُ بالله مِن مُعْضِلَةٍ ليس لها أبو حَسَن[(١٠)]!

وقال عليٌّ في التي وضعَتْ لستَّةِ أشهُرٍ، فأراد عُمر رجْمَها: إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] ويقول: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤].

وكان ـ رضي الله عنه ـ أعلمَ الناسِ بالفَرائض[(١١)]، وله في ذلك أخبار.

---

(١) الرجس: القَذَر، وقال الفرّاء: إنه العقاب والغضب.

(٢) راجع سنن الترمذي بشرح النووي جـ١٥ ص١٩٤.

(٣) راجع الحديث في اختلافات يسيرة، لابن أبي الحديد في نهج البلاغة جـ١ ص٣٧٢، وفي نهج البلاغة جـ٣ ص٣٠٦.

(٤) راجع: الاستيعاب لابن عبد البر جـ٣ ص٣٧ باختلاف يسير.

(٥) مطر: التكثُّر في المدح والتوسُّع فيه، ومنه الإطراء: المبالغة في المديح.

(٦) مفتر: ومنه الافتراء، وهو اختلاق ما لم يكن حتى لكأنه كذب.

(٧)(٨) راجع ترجمة الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه في أسد الغابة جـ٤ ص١٦.

(٩)(١٠) راجع ترجمة عمر بن الخطاب بن نفيل رضي الله عنه في أسد الغابة جـ٤ ص٥٣.

(١١) الفرائض: علم قسمة المواريث.

منها ما رواه أبو عمر بن عبد البر[١] بسنده عن زِرِّ بن حُبَيْشٍ قال: جلس رجلان يتغدّيان، مع أحدهما خمسة أرغفة، ومع الآخر ثلاثةُ أرغفة، فلما وضعا الغَداء بين أيديهما مَرَّ بهما رجلٌ، فسلَّم، فقالا له: اجلسْ للغَداء. فجلس وأكل معهما، واستوفَوْا في أكلهم الأرغفة الثمانية، فقام الرجلُ وطرح إليهما ثمانيةَ دراهم، وقال خذا هذه عوضًا ممَّا أكلتُ لكما ونِلْتُه من طعامكما. فتنازعا، وقال صاحبُ الخمسةِ الأرغفة: لي خمسة دراهم ولك ثلاثة. فقال صاحب الأرغفة الثلاثة: لا أرضَى إلا أن تكونَ الدراهمُ بيننا نصفين. فارتفعا إلى أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب، فقصَّا عليه قصَّتَهما، فقال لصاحب الثلاثةِ الأرغفةِ: قد عرَضَ عليك صاحبُك ما عَرَض وخُبْزُه أكثرُ من خبزك فارْضَ بالثلاثة. فقال: لا واللّهِ لا رضِيتُ منه إلاَّ بمُرِّ الحق. فقال عليٌّ: ليس لك في مرِّ الحق إلا درهمٌ واحد وله سبعة. فقال الرجل: «سُبْحانَ اللّهِ يا أميرَ المؤمنين! هو يَعرض عَلَيَّ ثلاثة فلم أرْضَ وأشرتَ عَليَّ بأخذها فلم أرْضَ، وتقول لي الآن: إنه لا يجب لك إلاَّ درهمٌ واحد!» فقال له عليٌّ: «عرَض عليك صاحبُك أن تَأخذ الثلاثةَ صلحًا، فقلت: لا أرضى إلا بمرِّ الحق، ولا يجبُ لك في مر الحق إلا واحد» فقال له الرجل: فعرِّفْني الوجهَ في مر الحق حتَّى أقبلَه. فقال: «أليس للثمانيةِ الأرغفةِ أربعةٌ وعشرون ثُلُثًا؟ أكلتموها وأنتم ثلاثةُ أنفس، ولا نَعلَمَ الأكثرَ منكم أكلاً ولا الأقلَّ، فتُحْمَلون في أكلكم علَى السواء». قال: بَلَى. قال: فأكلتَ أنت ثمانيةَ أثلاث، وإنما لك تسعةُ أثلاث، وأكل صاحبُك ثمانيةَ أثلاث، وله خمسةَ عشرَ ثُلُثًا، أكل منها ثمانية وتبقى له سبعة، وأكل لك واحدًا من تسعة، فلك واحدٌ بواحدك، وله سبعةٌ بسبعته. فقال له الرجل: رضِيتُ الآن!

وأَتَتْه امرأةٌ وهو على المنبر فقالت: تَرَكَ أخي سِتَّمِائة دينار وأُعطيتُ دينارًا! وتظلمتْ من ذلك فقال: لعل أخاكِ تَرَكَ زوجةً وأمًّا وبنتَيْن واثنَيْ عشر أخًا وأنتِ. قالت: نعم. فقال: أستَوْفَيتِ حقَّك. وهذ المسألة مشهورة مسطورة في كتب الفقه، وتسمى «الدِّيناريَّة» و«المنبرية»[٢].

وهو ـ رضي الله عنه ـ مِمَّن جَمَع القرآنَ علَى عهْد النبي ﷺ، هو وعثمانُ بن عفَّان وعبد الله بن مسعود وسالمٌ مولَى أبي حُذيفةَ بن عُتْبَةَ بن ربيعة.

---

(١) راجع ابن عبد البر في الاستيعاب جـ٣ ص٤١ ـ ٤٢.

(٢) وعليه فللزوجة الثمن خمسة وسبعون دينارًا، وللأم السدس مائة دينار، وللبنتين الثلثان أربعمائة دينار. فيبقى خمسة وعشرون دينارًا، للإخوة أربعة وعشرون ولها دينارٌ واحد.

وعن محمد بن سيرينَ(١) قال: لما بويع أبو بكر الصدِّيقُ رضي الله عنه أبطأ عليٌّ عن بيعته وجلس في بيته، فبعث إليه أبو بكر: ما بَطَّأ بك عنِّي؟ أكرِهْتَ إمارتي؟ فقال: ما كرِهتُ إمارتَك، ولكنِّي آلَيتُ أن لا أرتديَ رِدائي - إلاَّ إلَى صلاة - حتى أجمعَ القرآن(٢)! قال ابنُ سِيرِينَ: فبلغني أنه كتبه علَى تنزيلِه، ولو وُجد ذلك الكتابُ لَوُجِد فيه علمٌ كثير.

وفي عليٍّ رضي الله عنه يقول إسماعيلُ بن محمد الحِمَيريُّ من أبيات: [من البسيط]

سائلْ قُرَيشًا بها إن كنتَ ذا عَمَهٍ(٣) ... مَن كان أثبَتَها في الدِّين أوتادا؟
مَن كان أقْدمَها سِلْمًا(٤) وأكثرَها ... عِلْمًا وأطْهرَها أهلاً وأولادا؟
مَن وحَّدَ اللّهَ إذْ كانت مُكذِّبةً ... تدعو مع الله أوثانًا وأندادا؟
مَن كان يُقْدِمُ في الهَيْجاءِ(٥) إنْ نكَلُوا(٦) ... عنها وإن بَخِلُوا في أزْمةٍ جادا؟
مَن كان أعْدلَها حُكْمًا وأبْسَطَها ... علمًا وأصْدقَها وعدًا وإيعادا؟
إن يَصْدُقوك فلن يَعْدُوا أبا حسنٍ ... إنْ أنت لم تَلْقَ لِلأبرار حُسَّادا!
إن أنت لم تَلْقَ أقوامًا ذوي صَلَفٍ ... ذَوي عِنَادٍ لحقِّ اللّهِ جُحَّادا(٧)!

وفضائلُه - رضي الله عنه - ومآثرُه كثيرة، وفيما أوردْناه منها وما نُورِدُه بعدُ - إن شاء الله - كفايةٌ عن بَسْط... فلنذكر بَيْعَتَه رضي الله عنه.

---

(١) محمد بن سيرين: أبو بكر محمد بن سيرين البصري الذي كان له اليد الطولى في تعبير الرؤيا. أبوه كان عبدًا لأنس بن مالك. وكان له في تأويل الرؤيا طريقتان الأولى بمطابقة الرؤيا مع ما يشاكلها من الحقائق، والثانية بما يستأنس به من القرآن الكريم، توفي سنة ١١٠هـ. راجع الكنى والألقاب للقمي جـ١ ص٣١٩.

(٢) راجع الاستيعاب جـ٢ ص٥٣٤، والسيوطي في الإتقان جـ١ ص٥٩، وفي الرياض النضرة جـ١ ص١٦٨.

(٣) التخبط في الجادة.

(٤) في أسد الغابة، جاءت بلفظ: من كان أقدم إسلامًا وأكثرها جـ٤ ص٤٠.

(٥) الهيجاء: الحرب ونارها بخاصة.

(٦) النكول: الخنس والتأخر.

(٧) جحادًا: جمع مكاثرة على جاحد ومنه الجحود، أي النكران.

ذكر بيعة علي
رضي الله تعالى عنه

بُويع له ـ رضي الله عنه ـ بالخلافة يومَ قُتل عثمان[1] وقيل: بل بُويع له يومَ الجمعة لخمسٍ بقِينَ من ذي الحجّة سنة خمس وثلاثين.

وقد اختُلِفَ في كيفية بيعته:

فقيل: إنه لما قُتل عثمان رضي الله عنه اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، فأتَوْا عليًا، وقالوا له: إنه لا بُدَّ للناس مِن إمام، فقال: لا حاجةَ لي في أمركم، مَن اخترتم رضيته. قالوا: لا نختارُ غيرَك. فقال: لا تفعلوا، فإني أكون وزيرًا خيرًا من أن أكون أميرًا. فقالوا: واللّهِ ما نحن بفاعلين حتى نبايعَك. قال: ففي المسجد، فإنَّ بَيْعتي لا تكون خفيا، ولا تكون إلاً عن رضا المسلمين[2].

وكان في بيته، وقيل: في حائط[3] لبني عَمرو بن مَبْذول[4]، فخرج إلى المسجد يتوكَّأ علَى قَوس، فبايعه الناس.

وكان أوّلَ مَن بايعه طَلْحةُ بن عُبَيد الله، فنظر إليه حبيب بن ذُؤَيب، فقال: «إنَّا للّه! أوّلُ مَن بَدَأ البَيْعة يَدٌ شَلاَّء[5]! لا يتمُّ هذا الأمر». وبايعه الزُّبير، فقال لهما: إنْ أحبَبْتما أن تُبايعاني وإنْ أحببتما بايعْتُكما. فقالا: بل نُبايعُك. وقالا بعد ذلك: إنَّما فعلْنا ذلك خَشْيةً علَى نفوسنا، وعرفْنا أنَّه لا يُبايعُنا.

وبايَعَه الناسُ، وجاؤوا بسَعْد بن أبي وَقَّاص، فقال له علِيٌّ: بايعْ. فقالا: «لا، حتَّى يُبايعَ الناسُ، واللّهِ ما علَيك منِّي بأسٌ» قال: خلُوا سبيلَه.

وجاؤوا بابْنِ عُمَر[6]، فقال مثلَ قوله، فقال: ائتني بكَفِيل[7]، فقال: لا أرى كَفيلاً. قال الأشْتَرُ: دَعْنِي أضرِبْ عُنقَه! قال عليٌّ: «دعُوه، أنا كَفيلُه، ـ إنَّك ـ ما علمتُ ـ سَيِّءُ الخُلقِ صغيرًا وكبيرًا!».

---

(١) في أكثر الروايات أنه قُتل رضي الله عنه يوم الجمعة لثماني عشرة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين هـ.

(٢) قارن في الكامل وابن الأثير جـ٣ ص١٩٠.

(٣) حائط: كناية عن البستان فيه زرع ونخيل، وسمي حائط لتحوطه بسور.

(٤) قوم من الأنصار.

(٥) وكان طلحة قد وقى بيده الرسول ﷺ يوم أحد من النبل فأصيب فشلّت.

(٦) عبد الله بن عمر بن الخطاب.

(٧) أراد من يضمن حياده وسلوكه.

وبايعه الأنصارُ إلا نَفَرًا يَسيرًا، منهم حَسَّانُ بن ثابت، وكَعْبُ بن مالك، ومَسْلَمة بن مُخَلَّد، وأبو سعيد الخدْري ومحمد بن مَسْلمة، والنُّعْمان بن بَشِير، وزَيد بن ثابت، ورافع بن خَدِيج، وفَضالة بن عُبَيْد، وكَعْب بن عُجْرَة، كانوا عُثْمانِيَّة[١].

ولم يبايع أيضًا عبد الله بن سَلاَم، وصُهَيب بن سنان، وسَلَمة بن سَلامة بن وَقْش، وأُسامة بن زَيد، وقُدَامة بن مَظْعون، والمُغِيرة بن شُعْبة.

وأخذ النُّعمانُ بن بَشِير قميصَ عُثْمانَ الَّذي قُتِلَ فيه وأصابعَ امرأَتِهِ نائلة، وسار بهم إلى الشام[٢].

وقيل في بَيعته: إنَّ عُثمان لمَّا قُتِل بقيت المدينةُ خمسةَ أيَّام وأميرها الغافقي بن حَرْب، وهم يلتمسون مَن يُجيبهُم إلى القيام بالأمر فلا يجدونه، فأتَى المصريّون عليًّا فباعَدَهم، وأتَى الكوفيُّونَ الزُّبَيرَ فباعَدَهم، وأتى البصريُّون طَلحةَ فباعَدَهم؛ وكانوا مجتمعين علَى قَتْل عُثْمان مختلفين فيمن يَلي الخلافةَ، فأرسلوا إلى سَعْدٍ[٣] يطلُبونه فقال: إنِّي وابْنَ عُمر لا حاجةَ لنا فيها، وأتوا ابْنَ عُمر فلم يُجِبْهم، فبقوا حَيارَى، وقال بعضُهم لبعضٍ: لَئِنْ رجعَ النَاسُ إلَى أمصارهم بِغَير إمام لم نأمَن الاختلافَ وفسادَ الأُمَّة، فجمعوا أهلَ المدينة وقالوا لهم: يا أهلَ المدينة، أنتم أهلُ الشُّورَى، وأنتم تَعْقِدون الإمامة، وحكمُكم جائزٌ على الأمة، فانظروا رجلًا تنصبونه، ونحن لكم تبعٌ، وقد أجلناكم يومكم، فوالله لئن لم تَفْرُغوا[٤] لنقتُلَنَّ عليًّا وطَلحة والزُّبير وأناسًا كثيرًا. فغشِيَ الناسُ عليًّا، فقالوا: نُبايعُك فقد ترَى ما نَزَل بالإسلام وما ابْتُلِينا به مِن بين القُرَى! فقال عليٌّ: «دَعُوني والْتَمِسُوا غَيري، فإنَّا مستقبلون أمرًا له وُجوهٌ وله أَلْوانٌ، لا تقومُ به القلوبُ، ولا تثبُت عليه العقولُ» فقالوا: «نَنْشُدك اللّهَ! ألاَ تَرَى ما نحن فيه؟ ألاَ تَرَى الإسلامَ ألاَ تَرَى الفِتْنة؟ ألاَ تخافُ الله؟» قال: «قد أجَبْتُكم، واعْلموا أني إن أجبْتُكم رَكِبْتُ بكم ما أعلم، وإنْ تركتموني فإنَّما أنا كأحدِكم إلاَّ أنِّي مِنْ أَسْمَعِكم وأَطْوَعِكم لمَن ولَّيْتموه»[٥]... ثمَّ افترقوا علَى ذلك، واتعدَوا[٦] الغدَ.

---

(١) أي ممن يتولى عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٢) قاصدًا معاوية بن أبي سفيان وكان واليًا على الشام.

(٣) أراد سعد بن أبي وقاص.

(٤) أي تنتهوا إلى من تقيمونه إمامًا.

(٥) راجع ابن أبي الحديد، باختلاف يسير، جـ١ ص٥٦، وجـ٢ ص١٧٠.

(٦) جعلوا لهم من الغد ميقاتًا يتوافون في تمامه.

وتشاوَرَ الناسُ فيما بَيْنَهم، وقالوا إنْ دخل طلحةُ والزُّبَيرُ فقد استقامت، فبعث البصريُّون إلى الزُّبَير حُكَيْمَ بن جَبَلة، ومعه نفر فجاؤوا به يحْدُونه[١] بالسَّيف، فبايَع. وبعثوا إلى طلحةَ الأشْتَرَ في نفر، فأتاه فقال: دَعْني أنظرْ ما يصنعُ الناسُ، فلم يدَعْه، فجاء به يَتُلُّه[٢] تلاً عنيفًا فبايع.. فكان الزبير يقول: جاءني لصّ من لصوص عَبْد القَيْس فبايَعْتُ والسَّيفُ علَى عنقي!.

وأهلُ مصر فرِحون لِما اجتمع علَيه أهلُ المدينة، وقد خشَعَ أهْلُ الكوفةِ والبصرة أنْ صاروا تَبَعًا لأهل مصر، وازدادوا بذلك علَى طَلحةَ والزُّبَيرُ غَيْظًا.

قال: ولمَّا أصبحوا يومَ البَيْعة ـ وهو يوم الجمْعة ـ حَضَر الناسُ المسجدَ، وجاء عليٌّ رضي الله عنه، فصعِد المِنبرَ وقال: «أيُّها الناسُ عن مَلأٍ وإذْن[٣] إنَّ هذا أمْرُكم، ليس لأحدٍ فيه حقٌّ إلاَّ مَن أمَّرْتم، وقد افترقْنا بالأمسِ علَى أمر، وكنتُ كارهًا لأمركم، فأبَيْتُم إلاَّ أنْ أكون علَيكم، ألاَ وإنَّه ليس لي دونَكم إلاَّ مفاتيحُ مالِكم معي وليس لي أنْ آخُذَ درهمًا دُونكم، فإنْ شِئْتم قعدتُ لكم، وإلاَّ فلا أجِدُّ علَى أحد» فقالوا: نحن علَى ما فارقْناك علَيه بالأمس. فقال: اللهُمَّ اشْهَدْ[٤].

قال: ولما جاؤوا بطَلحةَ ليُبايعَ قال: إنما أبايعُ كَرْهًا. فبايَعَ.. ثم جِيءَ بالزُّبَير، فقال مثْلَ ذلك وبايع، وفي الزُّبَير اختلاف.. ثم جِيءَ بَعْدَه بقوم كانوا قد تخلَّفوا، فقالوا: نُبايع علَى إقامةِ كتابِ الله في القريب والبَعيد والعزيز والذليل. فبايَعهم... ثمَّ قام العامَّةُ فبايَعوا.. وتفرَّقوا إلَى منازلهم.

ورجع عليٌّ إلَى بيته، فدخل عليه طلحةُ والزُّبَير في عَدد من الصحابة، فقالوا: «يا عليُّ، إنَّا قد اشترطنا إقامةَ الحُدود، وإنَّ هؤلاء القومَ قد اشتركوا في قتْل هذا الرجل» فقال: «يا إخْوَتاه، إني لست أجْهَلُ ما تعلمون، ولكنْ كَيف أصنع بقوم يَملكوننا ولا نملكُهم؟ ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عُبْدانُكم[٥]، وثابتْ[٦] إليهم أعرابكم وهم خلالكُم[٧] يسُومونكم[٨] ما شاؤوا، فهل ترَوْن موضعًا لقدرةٍ علَى شيءٍ مِمَّا تريدون؟» قالوا: لا. قال: «فلا واللّهِ لا أرَى إلاَّ رأيًا ترَوْنه أبدًا إلاَّ أنْ يشاء الله،

(١) حدا به: ساقه. (٢) التلّ: الدفع بشدة.
(٣) كناية عن وضوح الاختيار ومبادرة الناس إلى مبايعته كرّم الله وجهه أمام الناس.
(٤) راجع ابن الأثير في الكامل جـ٣ ص١٩١. (٥) جمع عبد.
(٦) ثاب إلى الشيء: رجع إليه. (٧) بينكم.
(٨) يكلفونكم.

إنَّ هذا الأمرَ أمْرُ جاهليّة، وإنَّ لهؤلاء القَوم مادّةً[١]. إنَّ الناسَ من هذا الأمرِ - إنْ حُرِّكَ - علَى أمور: فرقة ترَى ما ترَوْن، وفرقةٌ ترَى ما لا ترَون، وفرقةٌ لا ترَى هذا ولا هذا حتَّى يهدأ الناسُ، وتقعَ القلوبُ مَواقِعَها، وتؤخذَ الحقوق. فاهْدَؤُوا عنّي، وانظروا ماذا يأْتيكم، ثم عُودوا».

واشتدَّ عليٌّ علَى قريش، وحال بينهم وبين الخروج وتركها علَى حالها، وإنَّما هيَّجه على ذلك هرَبُ بني أمَيَّة وتفرُّق القوم.

وحكى أبو عمر بن عبد البر[٢] قال: لمّا بايع الناسُ عليَّ بنَ أبي طالب دخل عليه المغيرةُ بن شُعْبة، فقال له: «يا أميرَ المؤمنين، إنَّ لك عندي نصيحةً». قال: وما هي؟ قال: «إنْ أردتَ أن يستقيمَ لك الأمرَ فاسْتعمِلْ طَلحةَ علَى الكوفة، والزُّبَيْرَ على البصرة، وابعثْ إلى معاويةَ بعهده علَى الشام حتى تُلزِمَه طاعتَك، فإذا استقرَّت لك الخلافةُ فادْرَأْهم[٣] كيف شئتَ برأيِك». فقال عليّ: «أمَّا طلحةُ والزُّبَيْر فسأرَى رأيي فيهما، وأمَّا مُعاويةُ فلا يَراني اللّهُ مُستعملاً له ولا مستعينًا به ما دام علَى حاله، ولكنِّي أدعُوه إلَى الدخولِ فيما دخلَ فيه الناسُ، فإنْ أَبَى حاكمْتُه إلَى اللّهِ تعالى». فانصرف عنه المُغيرةُ مُغْضَبًا لمَّا لم يَقْبل منه نصيحتَه.. فلمَّا كان الغَدُ أتاه فقال: «يا أميرَ المؤمنين، نظرتُ فيما قلتُ بالأمس وما جاوبتَني به، فرأيتُ أنَّك قد وُفِّقْتَ لِلخيرِ وطلبتَ الحق». ثم خرج عنه، فلقِيَهُ الحسَنُ وهو خارجٌ، فقال لأبيه: ما قال هذا الأعْوَر؟ يعني المُغيرة، وكان المغيرة قد أصيبتْ عَيْنُه يومَ اليَرْمُوك قال: أتاني أمسِ بكذا وأتاني اليومَ بكذا. قال: نَصَحك واللّهِ أمس وخَدَعك اليومَ. فقال له عليٌّ: إنْ أقررتُ معاويةَ علَى ما في يده كنتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُدًا[٤].

وقال المُغيرةُ في ذلك: [من الطويل]

نصَحتُ عليًا في ابْن هِند[٥] نصيحةً ... فـرَدَّ فـلا يـسـمـعُ لـهـا الـدهـرَ ثـانـيـه
وقـلـتُ لـه: أرسِـلْ إلَـيْـه بـعـهـدِه ... عـلَـى الـشـامِ حـتَّـى يـسـتـقـرَّ مُـعـاويَـة
ويَـعـلَـمَ أهـلُ الـشـامِ أنْ قَـدْ مَـلَـكْـتَـه ... فـأُمُّ ابْـن هِـنـدٍ بَـعْـدَ ذلِـك هـاويَـة

---

(١) ومنه المدد: أي العون يأتيهم.
(٢) راجع النص في الاستيعاب جـ٣ ص٣٩٠ باختلاف يسير.
(٣) ادرأ: ادفع.
(٤) استئناسًا بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝٥١﴾ [الكهف: ٥١].
(٥) ابن هند: كناية عن معاوية بن أبي سفيان.

وتحكُمُ فيه ما تُريدُ فإنَّه لداهيَةٌ ـ فارْفُقْ بهِ ـ وابْنُ داهِيَهْ
فلَمْ يَقْبَلِ النُّصحَ الَّذي جئْتُه به وكانت له تلك النصيحةُ كافيَهْ

ورُوِيَ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما نحوُه، إلاّ أنّه قال[١]: «أتَيْتُ عليًّا بعد قتْل عُثمان، عند عَوْدي[٢] من مكّة، فوجدتُ المُغيرةَ بن شُعبة مسْتخليًا به، فخرج مِن عنده، فقلتُ له: ما قال لك هذا؟ فقال: قال لي قبْلَ مَرَّتِه هذه «إنَّ لك حقَّ الطاعة والنصيحة، وأنت بقيَّة الناس، وإنَّ الرأيَ اليَومَ يُحْرَزُ[٣] به ما في غَدٍ، وإن الضَّياع اليومَ يَضِيعُ به ما في غد، أقْرِرْ مُعاويةَ وابْنَ عامرٍ وعُمّالَ عُثمان علَى أعمالهم، حتَّى تأتِيَك بَيْعَتُهم ويَسْكُنَ الناسُ ثُمَّ اعزِلْ مَن شِئت» فأَبَيْتُ عليه ذلك، وقلتُ: لا أُداهِنُ في دِيني ولا أعطَى الدَّنِيَّةَ[٤] في أمْري. قال: «فإنْ كنتَ أبَيْتَ علَيَّ فاعْزِلْ مَن شِئتَ واتْرُكْ مُعاوية، فإنَّ في مُعاويةَ جُرْأةً، وهو في أهل الشام يُسْتَمَعُ منه، ولك حجةٌ في إثباته، فإنَّ عُمرَ بن الخطَّاب كان قد ولاَّه الشام» فقلتُ: لا واللّهِ لا أستعملُ مُعاويةَ يومَيْن. ثمَّ انصرف مِن عندي وأنا أعرفُ فيه أنّه يرَى أنّي مُخطِئٌ، ثم عاد إليَّ الآنَ فقال: «إنّي أشرتُ عليك أوَّلَ مرَّةٍ بالّذي أشرْتُ، وخالفتَني فِيه، ثمَّ رأيتُ بعد ذلك أن تصنعَ الّذي رأيتَ، فتعزِلهم وتستعينَ بمَن تَثِقُ به، فقد كفى الله، وهم أهْوَنُ شَوْكةً ممَّا كان»... قال ابْنُ عبّاس: فقلت لعليّ: أمَّا المَرَّةَ الأُولَى فقد نَصَحك، وأمَّا المَرَّةَ الثانية فقد غَشَّك. قال: ولِمَ نصحني؟ قلتُ: لأنَّ مُعاويةَ وأصحابَه أهلُ دنيا، فمتى تُثبتْهم لا يُبالُوا من وَلِيَ هذا الأمر، ومتى تعزلهم يقولوا «أخذ هذا الأمر بغيْر شُورَى، وهو قتَلَ صاحبنا» ويُؤلبوا[٥] عليك، فيَنْتَقِضُ[٦] عليك أهلُ الشام وأهلُ العراق، مع أنّي لا آمَنُ طلحةَ والزُبَيْر أن يكُرّا عليك وأنا أشيرُ علَيك أن تُثبتَ مُعاوية، فإنْ بايَعَ لك فعلَيَّ أن أقلَعَه من منزله. قال عليّ: والله لا أُعطيه إلا السيْفَ! ثم تمثَّل: [من الطويل]

وما ميتةٌ إنْ مُتها غيْرَ عاجزٍ بعارٍ إذا ما غالت النفس غولُها

فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين، أنت رجل شجاع، لستَ صاحبَ رأيٍ في الحرب، أمعا سمعتَ رسولَ الله ﷺ يقول: «الحربُ خَدْعَة»[٧]؟ فقال: بَلَى. فقلت: أمَ[٨] والله

---

(١) راجع ابن الأثير في كامله جـ٣ ص١٩٧ باختلافات يسيرة.
(٢) رجوعي.
(٣) يحرز به: يتوقى به.
(٤) الدنية: المذموم من كل خصلة.
(٥) يؤلبوا عليك: يقيّدوا عليك.
(٦) ينكثون عليك.
(٧) راجع صحيح البخاري، باب الجهاد ١٥٧.
(٨) حذفت الألف على غير شيوع والأصل فيه (أما) وتفيد الاستفتاح.

لَئنْ أطعتَني لأُصْدِرنَّهم[١] بعد وُرُود[٢]، ولأتركنَّهم ينظرون في دُبر الأُمور لا يعرفون ما كان وجْهُها، في غير نُقصان عليك ولا إثم لك. فقال: يا ابْنَ عباس، لستُ مِنْ هُنَيَّاتِك[٣] ولا من هُنَيَّات مُعاوية في شيء، فقلتُ له: أطِعْني، والْحَقْ بمالِكَ بِيَنْبُع[٤]، وأغلِقْ بابَك عَليك، فإنَّ العربَ تجولُ جَولةَ وتضطربُ ولا تجدُ غَيْرَك، فإنَّك واللّهِ لَئن نهضْتَ مع هؤلاء اليومَ لَيُحَمِّلَنَّك الناسُ دَمَ عُثمان غدًا!.. فأبَى عليّ، وقال: تُشير عَليَّ وأرَى فإذا عصَيْتُك فأطِعْني قال: فقلتُ: «أفعلُ، إنَّ أيْسَر ما لَكَ عندي الطاعةُ» فقال له عليٌّ: تسير إلَى الشام فقد ولَّيْتُكَها. فقال ابْنُ عباس: «ما هذا برأي، مُعاويةُ رجلٌ من بني أمَيَّة، وهو ابن عم عثمان، وعامِلُه، ولستُ آمَنُ أنْ يضربَ عُنقي بعثمان، وإنَّ أدنى ما هو صانعٌ أن يحبسنيَ فيتحكَّمَ علَيّ لقرابتي منك. وإن كلَّ ما حُمِلَ علَيَّ حُمل علَيك، ولكن اكتُبْ إلى مُعاوية فمَنِّه وعِدْه». فقال: لا واللّهِ لا كان هذا أبدًا!

وخرج المُغيرةُ فلَحِقَ بمكة.

ذكر تفريق عليّ عماله وخلاف معاوية رضي الله عنهما

وفي سنة ست وثلاثين فرَّقَ عليٌّ رضي الله عنه عُمَّالَه علَى الأمصار، فبعث عُثمانَ بن حُنَيْف على البصرة، وعُمارة بن شِهاب على الكوفة، وعُبَيْد الله بن عبّاس على اليمن، وقَيْس بن سعد علَى مصر، وسَهْل بن حُنَيْف على الشام.

فأما سَهْلٌ فإنه خَرَج، حتى إذا كان بِتَبُوكَ[٥] لِقيَتْه خَيْلٌ فقالوا: مَن أنت؟ قال: أميرٌ. قالوا: علَى أيِّ شيء؟ قال: علَى الشام. قالوا: إنْ كان عُثمان بَعثك فَحَيَّ هَلاً[٦] بك، وإن كان بَعَثك غَيْرُه فارجعَ. قال: أوَ ما سمعتم بالَّذي كان؟ قالوا: بلَى... فرجع إلَى عليٍّ.

---

(١) صدر عن الماء: رجع منه. (٢) ورد الماء: إذا أتى موضع الماء مستقيًا.
(٣) تصغير (هنات) و(هنوات) أراد الخصال والسيئة منها بخاصة.
(٤) ينبع: بالفتح ثم السكون، وهو حصن به نخيل وماء وزرع، وبها وقوف (أوقاف) لعلي بن أبي طالب وهي بين مكة والمدينة. معجم البلدان لياقوت ج٥ ص٤٤٩.
(٥) مرَّ التعريف بها. (٦) حي هلا: احتفاءً بالشيء والإقبال عليه.

وأمَّا عُمارة[١] فلمَّا بلغ زُبالة[٢] لقيه طُلَيْحَةُ بن خُوَيلد، وكان قد خرج يطلب بثأر عُثمان، فقال له: ارْجِعْ فإنَّ القومَ لا يريدون بأميرِهم بَدَلاً، فإنْ أبَيْتَ ضربت عنقك. . . رجع إلَى عليٍّ.

وأمَّا قَيْس بن سعد[٣] فإنَّه لما انتهَى إلَى أيْلَةَ[٤] لقِيَتْه خَيْلٌ، فقالوا: مَن أنت؟ قال: قَيْس بن سعد. قالوا: امْضِ. فمضَى حتى دخل مصر، فافْترق أهْلُ مصر فِرَقًا: فِرقةٌ دخلتْ في الجماعة فكانوا معه، وفرقةٌ اعتزلتْ بخربتا[٥]، وقالوا: «إنْ قُتلَ قَتَلةُ عثمان فنحن معكم، وإلاّ فنحن علَى جَدِيلتنا[٦] حتَّى نُحْرَك[٧] أو نصيبَ حاجتنا»، وفرقةٌ قالت نحن مع عليٍّ ما لم يُقِدْ[٨] مِن إخوانِنا وهم في ذلك مع الجماعة. . . فكتب قَيْسٌ إلى عليٍّ بذلك.

وأمّا عُثمان بن حُنَيْف فسار حتَّى دخل البَصْرة، ولم يرُدّه أحد ولا وجد لابْنَ عامر[٩] في ذلك رأيًا ولا استقلالاً بحرب، وافترق الناس بها: ففِرْقة دخلتْ في الجماعة، وفرقةٌ اتَّبعَت القومَ، وقالت فرقة «ننظرُ ما يقول أهلُ المدينة فنصنَعُ ما صنعوا».

وأمَّا عُبَيْد الله بن عبّاس فانْطلق إلى اليمن، فخرج يَعْلَى بن مُنْيَة[١٠] بعد أنْ جمع المالَ ـ ولحِق بمكة، وأنفق المالَ في حرب الجمل.

---

(١) عمارة بن شهاب والي علي كرّم الله وجهه إلى الكوفة.

(٢) زبالة: بضم أوله، منزل معروف بطريق مكة من الكوفة. وهي قرية عامرة فيها أسواق بين واقصة والثعلبية. راجع معجم البلدان جـ٣ ص١٢٩.

(٣) واليه كرّم الله وجهه على مصر.

(٤) أيلة: بالفتح، مدينة على ساحل بحر القُلزُم مما يلي الشام، وقيل هي آخر الحجاز وأنزل الشام. راجع معجم البلدان جـ١ ص٢٩٢.

(٥) خربتا: اختلف في اسمها وذكرها ياقوت بالهمز: خربناء، ولكنها غير معروفة بمصر، والمعروف خربتا، وفيه أن الأولى صقع في الطريق بين حلب والروم. راجع معجم البلدان جـ٢ ص٣٦٢.

(٦) جديلتنا: كناية؛ أي نحن على ما نحن عليه.

(٧) نحرك: نُزال وفيه كناية مليحة يشتم منها معنيين أن نحرك من الدنيا أو مواقعنا والأول هو المقصود.

(٨) يقِد من: يأخذ من.

(٩) وهو عبد الله بن عامر بن كريز، وكان ابن خال عثمان بن عفان، وقد ولاه الأخير البصرة.

(١٠) وهو ابن أبي عبيدة بن همام بن الحارث الحنظلي حليف قريش، عمل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه على بعض اليمن فلم يكن على ما ينبغي أن يكون عليه العمال، فعزله عمر، ثم استعمله عثمان بن عفان رضي الله عنه على صنعاء من أعمال اليمن. راجع الإصابة جـ٣ ص٦٦٨.

قال: ولمَّا رجع سهل بن حُنَيْف دعا عليٌّ طلحة والزُّبَير فقال «إنَّ الأمرَ الذي كنتُ أحذِّركم قد وقع، وإنَّ الَّذي قد وَقع لا يُدرَك إلاَّ بإماتة[١]، وإنَّها فِتْنةٌ كالنار كلما سُعِرتْ ازدادت اضْطِرامًا، واستثارت». فقالا: ـ إئذن لنا نخرج من المدينة، فإما أن نكاثرَ، وإما أن تدعنا. فقال: سأمسكُ الأمر ما أستمسك، فإذا لم أجد بدًّا فآخر الداءِ الكيّ[٢]!

وكتب إلى معاوية وإلى أبي موسى[٣]، فأجابه أبو موسى بطاعة أهل الكوفة، وبيَّن الكارِهَ منهم للذي كان والراضِيَ ومَن بيْن ذلك، حتى كان عليّ كأنَّه يشاهدهم.. وكان رسوله إلى أبي موسى معبد الأسلمي.

وكان رسوله إلى مُعاوية سَبْرة الجُهَني، فلم يُجبْه مُعاوية بشيءٍ وكلَّما تنجَّز جوابَه لم يزِدْه علَى قوله: [من البسيط]

أدِمْ إدامــةَ حِـصْـنٍ أو خُـذا بِـيَـدِي ... حرْبًا ضَرُوسًا تشبُّ الجَزْلَ[٤] والضَّرَمَا[٥]

فـي جـارِكُـم وابْـنِـكُـم إذْ كـان مَـقْـتَـلُـه ... شَنْعَاءَ[٦] شَيَّبَتِ الأصْداغَ[٧] واللِمَما[٨]

أعْـيَـى الـمَـسُـودُ بـهـا والـسَّـيِّدون فـلـم ... يـوجَـدْ لـهـا غـيـرُنـا مَـوْلًـى ولا حَـكَـمَـا

حتى إذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان في صَفَر دعا مُعاويةُ رجلًا من بني عَبْس، اسمه قَبِيصة، فدفع إليه طُومارا[٩] مختومًا، عنوانه «مِن مُعاويةَ إلى عليّ» وقال له: إذا دخلتَ المدينةَ فاقْبِضْ علَى أسْفل الطُومار. وأوصاه بما يقول، وأعاد رسول عليٍّ معه، فقدما المدينةَ في شهر ربيع الأوّل، ودخل العَبْسيُّ كما أمره مُعاوية، والناسُ تنظر إلَى الطُومار، حتَّى دفعه إلَى عليٍّ، ففَضَّه، فلم يجِد فيه كتابًا فقال للرسول: ما وراءك؟ قال: وأنا آمِنٌ؟ قال: نعَم، إن الرُسُل لا تُقْتَل. قال: تركتُ قومًا لا يرضَوْن إلاَّ بالْقَوَد[١٠]. قال: مِمَّنْ؟ قال: «مِنْ خَيْط رَقَبَتِك! وتركتُ ستِّين ألف

---

(١) أراد الحرب.

(٢) النص باختلاف يسير عند ابن الأثير في الكامل. انظر ج٣ ص٢٠٢.

(٣) أبو موسى الأشعري. (٤) الجزل: الحطب اليابس الغليظ.

(٥) الضرم: عيدان من سعف اضطرمت فيها النار فباتت رؤوسها كالجمر.

(٦) فظيعة.

(٧) ما بين العين والأذن.

(٨) مفردها اللمة بالكسر وهو الشعر الذي يجاوز شحمة الأذن.

(٩) صحيفة.

(١٠) الأخذ بالمثل، وأراد القصاص من قتلة عثمان.

شَيخ يَبكي تحت قميص عُثمان، وهو منصوبٌ لهُم، قد أَلْبَسُوه مِنْبَرَ دِمَشق!» قال: «أمِنّي يطلبون دَمَ عُثمان؟ ألستُ مَوْتورًا بتِرَةِ[١] عُثمان؟ اللهُمَّ إنّي أبرَأُ إلَيْكَ من دَم عُثمان! نجا ـ والله ـ قتلةُ عُثمان إلاّ أنْ يشاءَ الله فإنه إذا أراد أمرًا أصابه! اخْرُجْ» قال: وأنا آمِنٌ؟ قال: وأنت آمِن. فخرج العَبْسيّ، فقالوا: «هذا الكَلْبُ رسولُ الكلبِ! اقتُلوه!» فنادى: يا آلَ مُضَر. يا آلَ قَيس، الخيل والنبل، وبالله أُقسم لَيَرُدَّنَّها عليكم أربعةُ آلافِ خَصِيّ! فانظروا كم الفُحول والرِكاب؟» وتعاوَوا علَيه، فمنعتْه مُضَر، وجعلوا يقولون له: «اسْكتْ» فيقول: «لا واللّهِ، واللّهِ لا يُفلح هؤلاء أبدًا، أتاهم ما يُوعَدون، لقد حَلَّ بهم ما يَحْذَرُون، انتهت واللّهِ أعمالُهم وذهَبَت ريحهم[٢].

قال: وأظهر عليٌّ العزْمَ علَى قِتال مُعاوية، وكتب إلى عُمّاله أنْ ينتدبوا الناسَ إلى الشام.

ثم استأذنَه طلحةُ والزُبيرُ في العُمْرة، فأذِنَ لهما.

ودعا عليٌّ ابْنَه محمد ابن الحَنَفِيَّة، فدفع إليه اللِواءَ، وولى عبدَ الله بن عباس مَيْمَنَته، وعَمْرو بن أبي سَلَمَة ـ أو عَمرو بن سُفْيان بن عبد الأسد ـ مَيْسَرته، وجعل أبا لَيْلَى بن عمر بن الجَرَّاح (ابن أخي أبي عبيدة) علَى مقدّمته، واستخلف على المدينة قثَم بن العبّاس.

ذكر ابتداء وقعة الجمل
ومسير عائشة وطلحة والزبير ومن معهم إلى البصرة
وما كان من الحرب إلى أن استقروا بها
وإخراج عثمان بن حنيف عامل علي رضي الله عنه

كان ابتداء وقعة الجمل أنَّ عائشة رضي الله عنها كانت قد خرجتْ إلَى الحجِّ وعُثمانُ مَحْصورٌ ـ كما ذكرنا ـ فلمّا قضت الحجَّ وعادت أتاها الخبرُ بقتْلِه وخلافة عليٍّ، وهي بسَرِف[٣]، فرجعتْ إلى مكة وهي تقول: «قُتِل ـ واللّهِ ـ عُثمانُ مظلومًا! واللّهِ لأطْلُبَنَّ بِدَمِه!» وطلبتْ مكة، فقصدت الحجْر، فسمرت فيه، واجتمع الناس

(١) أراد أنه مصاب بقتل عثمان.

(٢) مستأنسًا بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

(٣) بفتح أوله وكسر ثانيه، موضع على ستة أميال من الكوفة، وفيه تزوج رسول الله ﷺ ميمونة بنت الحارث. راجع معجم البلدان ج٣ ص٢١٢.

إلَيها، فقالت: «أيُّها الناس، إنَّ الغَوْغاءَ[١] مِن أهل الأمصار وأهل المياه وعَبيد أهل المدينة اجتمعوا علَى هذا الرجلِ المقتولِ ظُلمًا بالأمس، ونقَموا[٢] عليه استعمالَ مَنْ حدَثَتْ سنُّه، وقد استعمَلَ أمثالَهم مَنْ قبْلَه، ومَواضِعَ مِن الحِمَى حَماها لهم، وهي أمور قد سُبِق بها لا يصلُح غيْرُها، فتابَعهم، ونَزَع لهم عنها (اسْتصلاحًا لهم)، فلمَّا لم يَجِدوا حُجَّة ولا عُذْرًا بادرُوا بالعُدْوان، فسفَكوا الدمَ الحرامَ، واستحلُّوا البلَدَ الحرامَ والشهْرَ الحرَام، وأخذوا المال الحرام، واللهِ لإصبعٌ من عُثمانَ خيرٌ من طِباق الأرض أمثالهم! وواللّهِ لو أنَّ الَّذي اعْتَدَوْا به عليه كان ذنبًا لخلَصَ منه كما يخْلُص الذَّهبُ من خَبَثه[٣] أو الثَّوبُ من دَرَنه إذ مَاصُوه كما يُماصُ الثَّوْبُ بالماء!»[٤] فقال عبدُ الله بن عمْرو بن الحَضْرَمي وكان عامِلَ عُثمانَ علَى مكة: «ها أنا ذا أوّل طالب»[٥]، فكان أوّلَ مُجيب، وتبعه بنو أميَّة علَى ذلك، وكانوا قد هرَبوا من المدينة إلَى مكة بعد قتل عُثمان، وتبعهم سَعيد بن العاص والوَليد بن عُقْبة.

وقَدم عليهم عبدُ الله بن عامر من البَصْرة بمال كثير ويَعْلى بن أُمَيَّة وهو ابنُ مُنْيَة مِن اليمن ومعه ستمائة بعير وستمائة ألف، فأناخ بالأبْطَح.

وقدِم طَلحةُ والزُّبَيْر من المدينة، فلقيا عائشة فقالت: ما وراءكما؟ فقالا: «إنَّا تحمَّلْنا هُرَّابًا[٦] من المدينَة من غَوْغاء وأعراب، وفارقْنا قَومًا حَيارَى لا يعرفون حَقًّا ولا يُنكرون باطلاً ولا يمنعون أنفسَهم»، فقلت: انْهَضوا إلى هذه الغَوْغاء. فقالوا: نأتي الشام. فقال ابنُ عامر: «قد كفاكم مُعاويةُ الشَامَ، فأْتُوا البَصرة، فإنَّ لي بها صنائع، ولهم في طَلحةَ هَوًى»، قالوا: «قَبَّحك الله! فواللّهِ ما كنتَ بالمُسالم ولا بالمُحارب، فهلاَّ أقمتَ كما أقام مُعاويةُ فنكتفِيَ بك، ثم نأتِيَ الكوفةَ فنسدَّ علَى هؤلاء القوم مَذاهبَهم». فلم يجدوا عنده جوابًا مقبولاً.

حتَّى إذا استقام لهم الرأيُ علَى البصرة قالوا: «يا أُمَّ المؤمنين، دَعِي المدينة، فإنَّ مَنْ مَعنا لا يُطيق مَن بها من الغَوْغاء، واشْخَصي معنا إلَى البَصرة، فإنَّا نأْتي بلدًا مضيعًا، وسيحتجُّون علينا فيه ببَيْعة عليٍّ فتُنْهضينهم[٧] كما أنْهضتِ أهلَ مكة، فإنْ

---

(١) الجم الغفير من الناس من دون قائد أو غاية.

(٢) أنكروا.

(٣) ما كان في الذهب خامًا قبل أن يصفى.

(٤) كناية عن غسله لإزالة ما علق به من أوساخ.

(٥) راجع النص باختلاف يسير عند الطبري ج٣ ص٤٦٨.

(٦) هاربين، على عجلة.

(٧) فتشيدنهم.

أصلح اللّهُ الأمرَ كان الذي أردنا، وإلاَّ دَفعنا عن هذا الأمر بجهدنا، حتَّى يقضيَ اللّهُ ما أراد» فأجابتْهم إلَى ذلك.

ودعَوا عبدَ الله بن عمر ليَسيرَ معهم، فأبَى، وقال: «أنا رجلٌ من أهل المدينة، أفعَلُ ما يفعلون» فتركوه.

وكان أزواجُ النبيِّ ﷺ مع عائشة على قَصْد المدينة، فلما تغيَّرَ رأيُها إلَى البَصْرة تَرَكْنَ ذلك. وأجابَتْها حَفْصَةُ علَى المَسِير معها، فمنَعَها أخوها عبدُ الله.

وجهَّزهم يَعْلَى بن مُنْيَة بستِّمِائة ألف وستمائة بعير، وجهَّزهم ابنُ عامر بمال كثير.

ونادَى مُناديها: «إنَّ أمَّ المؤمنين وطَلحة والزُّبير شاخِصون إلى البَصرة، فمن أراد إعزازَ الإسلام وقتالَ المُحِلين[١] والطلبَ بثأر عُثمان وليس له مَركَب ولا جَهاز فليَأتِ». فحملوا ستَّمِائة علَى ستمائة بعير، وساروا في ألف - وقيل في تسْعِمائة - من أهل المدينة ومكة، وتلاحقتْ بهم الناس، فكانوا في ثلاثة آلاف رجل.

وأعان يَعْلَى بن مُنْيَة الزُّبَيْر بأربعمائة ألف، وحمَل سبعين من قُرَيش، وأعطَى عائشةَ جَمَلاً، اسْمُه «عَسْكر»، واشتراه بمِائتَيْ دِينار، وقيل: بثمانين دينارًا، وقيل: كان لرجل من عُرَيْنة، فابْتِيع منه بمَهْرِيّة[٢] وأربعِمائة درهم أو ستمائة درهم.

وخرجتْ عائشة من مكة ومعها أُمَّهات المؤمنين[٣] إلى ذات عِرْق[٤] فبكَوْا علَى الإسلام، فلم يُرَ يوم كان أكثرَ باكيًا وباكيةً مِن ذلك اليوم، وكان يُسَمَّى «يَوْم النَّحِيب».

وكتبتْ أُمُّ الفَضْل[٥] بنتُ الحارث أُمُّ عبد الله بن عبَّاس إلَى عليٍّ بالخبر.

ولما خرجتْ عائشةُ مِن مكة أذَّن مَرْوانُ بن الحَكَم[٦]، ثمّ جاء حتَّى وقف علَى طَلحة والزُّبيرْ فقال: علَى أيِّكما أسَلِّمُ بالإمْرة وأُؤَذِّنُ بالصلاة فقال عبدُ الله بن الزُّبيْر: علَى أبي عبدِ الله - يعني أباه - وقال محمد بن طَلحة: علَى أبي محمدٍ - يعني أباه - فأرسلتْ

(١) الذين أحلُّوا ما حرَّم الله.
(٢) جنش من الإبل السريعة.
(٣) لم يثبت أنه رافقها من أمهات المؤمنين أحد، على ما في الروايات المعتبرة.
(٤) ذات عرق: وضع على مرحلتين من مكة.
(٥) لبابة بن الحارث الهلالية. راجع أسد الغابة ج٥، ص٥٣٩.
(٦) القرشي الأموي أبو عبد الملك: طريد رسول الله وهو ابن عم عثمان رضي الله عنه وكاتبه في خلافته.

عائشةُ إلى مَرْوانَ فقالت: أتريد أنْ تفرِّق أمْرَنا، لِيُصَلِّ بالناس ابْنُ أخْتي - تعني عبدَ الله بن الزُّبَيْر - وقيل بل صَلَّى بالناس عبدُ الرحمٰن بن عَتَّاب بن أسِيد[١] حتَّى قُتِل.

ولما انتهَوْا إلَى ذاتِ عِرْقٍ لَقِيَ سعيد بن العاص[٢] مَرْوانَ بن الحكم وأصحابه فقال: أيْن تذهبون وتتركون ثَأْرَكم علَى أعْجاز الإبل وراءكم؟ - يعني عائشة وطَلحة والزُّبَيْر - اقْتُلُوهم ثمَّ ارْجِعوا إلَى مَنازِلِكم! فقالوا: نَسيرُ فَعَلَّنا نقتُلُ قَتَلَةَ عُثمان. . فخلا سعيد بن العاص بطَلحة والزُّبير، فقال: اصْدُقاني إنْ ظَفِرتما لمن تجعلان الأمر؟ قالا: نَجعلُه لأحدِنا أيّنا اختاره الناس. قال: بل تجعلونه لولد عُثمان فإنَّكم خرجتم تطلبون بِدَمِه فقالا: نَدَعُ شُيوخَ المهاجرين ونجعلُها لأبنائهم! قال: فلا أراني أسعَى إلاَّ لإخراجها من بني عبد مَناف فرجع، ورجع عبد الله بن خالد بن أسِيد[٣]، فقال المُغيرة بن شُعبة: «الرأي ما قال سعيد، من كان هاهنا من ثَقيف فليرجع»، ورجع.

ومضَى القومُ، ومعهم أبَانُ والوَليد ابنا عُثمان، وكان دليلهم رجلاً من عُرَيْنة، وهو الَّذي ابْتِيع منه الجملُ، - على أحد الأقوال - قال العُرَنيُّ[٤]: فسِرْتُ معهم، فلا أمرُ على وادٍ إلاَّ سألوني عنه، حتى طَرَقْنا الحَوْأَبَ[٥] - وهو ماء - فنبَحَتْنا كِلابُه فقالوا: أيُّ ماءٍ هذا؟ قلتُ: هذا ماءُ الحَوْأب، فصرختْ عائشة بأعلَى صوتها، واسترجعتْ[٦] وقالت: إنّي لَهِيَهْ[٧]! سمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول لنسائه: «لَيت شِعري أيَّتكُنَّ تَنْبَحُها كلابُ الحَوْأب!»[٨] ثم ضربتْ عَضُدَ بَعيرها فأناخته، وقالت: «رُدُّوني! أنا والله صاحبةُ ماءِ الحَوْأب!» فأناخوا حَولَها يومًا وليلة، فقال لها عبد الله بن الزُّبَير: «إنه كذب، وليس هو ماء الحَوأب» ولم يزل بها وهي تمتنع حتَّى قال لها: النَّجاءَ النَّجاءَ! قد أدرككم عليُّ بن أبي طالب» فارتحلوا نحوَ البصرة، فلما كانوا بفنائها لَقِيَهم عُمَير بن عبد الله التميمي فقال: يا أُمَّ المؤمنين، أنشُدكِ اللّهَ أن تقدمي اليومَ على قوم لم تُراسلي منهم أحدًا، فعجِّلي ابْنَ عامر فإنَّ له بها صَنائع، فليذهب إليهم» فأرسلته.

---

(١) أموي، واختلف في صحبته، وقيل إنه تابعي. راجع الإصابة لابن حجر جـ٣ ص٧٢.

(٢) ابن سعيد بن العاص بن أمية.

(٣) أموي: وهو ابن عم عبد الرحمٰن بن عتاب المار ذكره.

(٤) بنسبته إلى عرينة.

(٥) الحوأب: بالفتح ثم السكون، موضع في طريق البصرة فيه ماء. راجع ياقوت وتفصيل نباح كلاب الحوأب على عائشة رضي الله عنها والحديث في ذلك. معجم البلدان جـ٢ ص٣١٤.

(٦) أن تقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٧) أين هي. واللام للتأكيد، والهاء المسكنة للتلهف والأسف.

(٨) راجع مسند أحمد جـ٦ ص٥٢ (المعجم المفهرس).

وكتبتْ عائشةُ إلَى رجال من أهل البصرة، وإلَى الأحْنَف بن قَيس وأمثالِه، وأقامت بالحَفِير[١] تنتظر الجواب.

ولما بلَغ ذلك أهل البصرة دعا عثمانُ بن حُنَيف عِمْرانَ بن حُصَيْن وأبا الأسْوَد الدُّؤليّ وقال: انطَلِقا إلَى عائشة واعْلَما عِلْمَها وعِلْمَ مَن معها، فأتَياها وقالا: إنَّ أميرَنا بعَثَنا إليكَ ليسألَكِ عن مَسِيركِ فهل أنتِ مُخْبِرَتُنا؟ فقالت: «واللّهِ ما مِثْلِي يَسِيرُ بالأمرِ المكتوم إنَّ الغَوْغاءَ من أهل الأمصار ونُزَّاع[٢] القبائل غزَوْا حَرَمَ رسولِ الله عليه الصلاة والسلام وأحدثوا فيه الأحداث[٣]، وآوَوْا فيه المُحْدِثين، فاسْتَوْجبوا لعنة الله ولعنة الرسول، مع مَا نالوا مِن قَتْل إمامِ المسلمين بلا تِرَةٍ ولا عُذْر، فاستحلُّوا الدمَ الحرامَ فسفَكوه، وانْتَهبوا المالَ الحرامَ، وأحلُّوا البلدَ الحرام والشهرَ الحرام، ومزَّقوا الأعراضَ والجلود، وأقاموا في دار قَوم كارِهين لمُقامِهم ضارِّين مُضِرِّين غير نافعين ولا مُنتفعين، لا يَقدرون علَى امتناع ولا يأمنون، فخرجتُ في المسلمين أُعْلمهم ما أتَى هؤلاء، وما فيه الناس وراءنا، وما ينبغي لهم أنْ يأتُوا في إصلاح هذه القصّة» وقـــــرأتْ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤] ثم قالت: «نهض في الإصلاح فيمن أمر الله وأمر رسوله الصغير والكبير والذكر والأُنثَى، فهذا شأنُنا إلَى معروفٍ نأمرُكم به ونحضُّكم علَيه، ومُنكرٍ نَنهاكم عنه ونحثُّكم علَى تغييره فخرجا مِن عندِها، فأتَيا طلحةَ فقالا له: ما أقْدَمَكَ؟ قال: الطَلَبُ بدم عُثمان. فقالا: ألَمْ تُبايعْ عليًّا؟ قال: «بلَى، والسَّيفُ علَى عنقي، وما أستقيلِ عليًّا البَيْعة إنْ هُوَ لم يحلْ بَيْننا وبين قَتَلة عُثمان». ثم أتَيا الزبَير فقالا له وقال مثْلَ ذلك. فرجعا إلَى عائشة فودَّعاها، فودَّعت عمْرانَ، وقالت: يا أبا الأسْوَد، إيَّاكَ أنْ يَقودَكَ الهوَى إلَى النار ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨] وسَرَّحَتْهما، ونادَى مُناديها بالرَّحيل.

ومضَيا حتَّى أتَيا عُثمانَ بن حُنَيْف، فَبَدَرَ أبو الأسْوَد عِمرانَ فقال: [من الرجز]

* يـا ابْـنَ حُـنَـيْـفٍ قـد أُتِـيـتَ فـانْـفِـرِ[٤] *

* وطـاعِـنِ الـقَـوْمَ وجـالِـدْ واصْـبِـرِ *

* وابْـرُزْ لـهُـمْ مُـسْـتَـلْـئِـمًـا[٥] وشَـمِّـرِ *

---

(١) ماء حفره أبو موسى الأشعري على طريق البصرة من مكة. وفي معجم البلدان لا ذكر لأبي موسى هذا. راجع معجم البلدان جـ٢ ص٢٧٦.

(٢) نازع مفردها وهو كل من نزع من أهله إلى سواهم.

(٣) حدث مفردها، وهو المستجد من الأمر، المنكر لما سلف وكان ستة.

(٤) نفر الرجل إذا قام إلى الحرب ومضى فيها. (٥) لبس اللامة عدةً للحرب.

فاسْتَرْجع عُثمان، وقال: دارَتْ رَحَى الإسلام[(١)] ورَبِّ الكعبة! ونادَى في الناس، وأمَرَهم بلبْسِ السلاح.

وأقبلتْ عائشةُ فيمن معها حتَّى انْتَهَوا إلَى المرْبَد[(٢)]، فدخلوا مِن أعْلاه، ووقفوا حتَّى خرج عُثمان بن حُنَيْفٍ فيمن معه، وخرج إلَى عائشة مِن أهل البَصْرة مَن أراد أن يكونَ معها، فاجتمع القومُ كلُّهم بالمِرْبَد: عائشةُ ومَن معها في مَيْمَنته، وعُثمان ومَن معه في مَيْسَرته.

فتكلَّم طَلحةُ، فأنْصتوا له، فحمِد اللّهَ وأثنَى عليه وذكرَ عُثمان وفضْلَه وما استُحِلَّ منه[(٣)]، ودعا إلَى الطلَب بدَمِه، وحثَّهم عليه. وتكلَّم الزُّبَيْر بمثل ذلك. فقال مَن في مَيْمَنة المِرْبَد: صَدَقا وبَرَّا! وقال مَن في مَيْسَرته: «فجَرا، وغَدَرا، وأمَرا بالباطل! بايَعا عليًّا ثم جاءا يقولان ما يقولان!» وتحاثَى[(٤)] الناسُ وتحاصَبُوا[(٥)].

فتكلَّمتْ عائشة، فحمِدت الله وأثْنت علَيه، وقالت: كان الناس يتجنَّوْن علَى عُثمان، ويَزْرُون[(٦)] علَى عُماله، ويَأتوننا بالمدينة فيسْتَشيروننا فيما يُخْبروننا عنهم، ويَرَوْن حَسَنًا مِن كلامِنا في إصلاح بَيْنِهم، فننظرُ في ذلك فنجِدُه بَرِيًّا تَقِيًّا وَفِيًّا، ونجدهم فَجرَةً غَدَرة كَذِبَة، وهم يُحَاوِلون غَيْرَ ما يُظهِرون، فلمَّا قدَروا علَى المُكاثرة كاثروه، فاقْتَحموا علَيه دارَه، واسْتحلُّوا الدمَ الحرام والمالَ الحرام، والبلَدَ الحرام، بِلا تِرَةٍ ولا عُذْر، ألاَ إنَّ فيما ينبغي، لا ينبغي لكم غيرُه، أَخْذَ قَتَلَةِ عُثمان،وإقامَةَ كتاب الله، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ٢٣].

فافترق أصحابُ عُثمان بن حُنَيْف فِرقتَين: فقالت فرقةٌ: صدَقَتْ واللّهِ وبَرَّت وجاءت بالمعروف، وقالت فرق خِلافَ ذلك. فتحاثَوْا وتحاصَبُوا وأرْهَجوا[(٧)]، فلمَّا رأت عائشة ذلك انْحدرتْ وانحدر أهلُ المَيْمنة مُفارِقين لعُثمان بن حُنَيْف، حتَّى وقفوا

---

(١) أراد ابتداء الحرب وتلف الأنفس فيها.

(٢) بكسر فسكون ففتح، والمربد أشهر محال البصرة، وفيه سوق الإبل قديمًا ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء. راجع معجم البلدان جـ٥ ص٩٧ - ٩٨ - ٩٩.

(٣) بالرجوع إلى الطبري أراد بما استحل من عثمان رضي الله عنه.

(٤) تراموا بالتراب.

(٥) تراموا بالحصى.

(٦) زرى عليه فعله إذا عابه وأنكر عليه.

(٧) تعالى صياحهم وتدافعوا.

في المِرْبد موضع الدبّاغِين، وبقِيَ أصحاب عُثمان علَى حالهم، يتدافعون حتَّى تحاجزوا، ومال بعضهم إلى عائشة[١].

وأقبل حُكَيم بن جَبَلة[٢]، وهو علَى خَيْل ابن حُنَيْف، فأنْشَب القِتال، فأشْرَع أصحاب عائشة رماحَهم، وأمسكوا ليُمْسِك، فلم يَنْتَهِ ولم يَنْثَنِ، وأصحابُ عائشة كافُّون إلاَّ ما دافعوا عن أنفسهم ثمَّ اقتتلوا على فَم السِّكَّة، وأشرف أهل الدُّور ممن كان له في أحَد الفريقين هَوًى، فرمَوْا في الأُخرَى بالحجارة. وأمرت عائشة أصحابَها فتيامَنوا، حتَّى انتهَوْا إلَى مَقْبرة بني مازِن، فوقفوا بها مَلِيًّا، وثاب[٣] إلَيْهم الناس، فحجز الليل بينهم. ورجع عُثمان إلَى القَصْر، ورجع الناس إلَى قبائلهم، وأتى أصحابُ عائشة إلى ناحية دار الرزْق وباتوا يتأهَّبون، وبات الناس يأتونهم، واجتمعوا بساحة دار الرزق.

وأصبح عُثمان فغاداهم[٤]، وخرج حُكَيْم، فاقتتلوا قِتالاً شديدًا من حين بَزَغت الشمس إلَى أن زالت، وقد كثُر القتل في أصحاب ابن حُنَيْف، وفشت الجِراحة في الفريقَين، ومُنادي عائشة يُناشِدهم ويدعوهم إلَى الكفِّ، فيأبَوْن، حتَّى إذا مسَّهم الشرُّ وعضَّتْهم الحربُ نادَوْا أصحاب عائشة إلَى الصلح، فأجابوهم وتداعَوْا وكتبوا بينهم كتابًا[٥] علَى أن يبعثوا رسولاً إلَى المدينة يسألُ أهلَها، فإن كان طَلْحة والزُّبَير أُكْرِها علَى مُبايعة عليٍّ خرج ابْنُ حُنَيْفٍ عن البصرة وأخْلاها لهم، وإنْ كانا لم يُكْرَها على البَيْعة خرج طَلْحةُ والزُّبَير.

فسار كَعْب بن سُورٍ[٦] حتَّى أتَى المدينةَ، فقدِمَها يومَ جُمعة فسأل أهلَها هل أُكْرِهَ طَلْحةُ والزُّبَير علَى بَيْعة عليٍّ أمْ أتَيَاها طائعَيْن؟ فلَم يُجِبْه أحد إلا أُسامة بن زَيد فإنه قال: اللهمَّ إنَّهما لم يُبايعا إلاَّ وهما مُكْرَهان. فواثَبَه سَهْل بن حُنَيْف والناسُ، وثار صُهَيْبٌ وأبو أيُّوبَ في عِدَّة من الصحابة، منهم محمد بن مَسْلَمة، حين خافوا أن يُقْتَلَ أسامة، فقالوا: اللهمَّ نَعَمْ. فتركوه، وأخذ صُهَيْب أسامةَ بيَدِه إلَى منزله.

وبلغ عليًّا الخبرُ، فكتَب إلى عُثمان بن حُنَيف أنَّهما لم يُكْرَها علَى البَيْعة.

---

(١) راجع أيضًا الطبري ج٣ ص٤٨٢.

(٢) العبدي من بني عبد القيس، صحابي تولى السند لعثمان رضي الله عنه.

(٣) رجع إليهم.

(٤) إذا أتاهم غدوة أي اليوم من أوله.

(٥) راجع الطبري في تاريخه للإطلاع على مضمون الكتاب ج٣.

(٦) تولى قضاء البصرة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو من التابعين.

فلمّا عاد كَعْب بن سُورٍ أمرَ عثمانَ بالخروج عن البَصرة، فامْتَنع، واحتجَّ بكتاب عليٍّ، فجمع طَلحة والزُّبَير الرجالَ في لَيلة مُظْلمة ذاتِ رِياح ومطر، وقصدوا المسجدَ واقتتلوا، فقُتِل من أصحاب ابن حُنَيْفٍ أربعون رجلاً، ودخل الرجال على ابن حُنَيْفٍ فأخرجوه إلَيْهما، فما وصل وفي وجهه شَعْرةٌ، فاستعظَما[1] ذلك، وأرسلا إلَى عائشة في أمره، فأرسلتْ أنْ خلُّوا سبيلَه، وبقِيَ طَلْحةُ والزُّبَيْر بالبصرة ومعهما بَيْتُ المال والحرس، واستتر مَن لم يكن معهما.

وبلغ حُكَيْمَ بن جَبَلَة ما حَلَّ بعُثمان بن حنَيْف فقال: لستُ أخافُ الله إنْ لم أنصُرْه. فجاء في جماعة من عبْد القَيْس ومن تبعه من رَبيعة - وكان بَيْنه وبين عبد الله بن الزُّبَيْر محاورات[2] - ثمّ الْتَقوْا واقتتلوا قتالاً شديدًا، فكان حُكَيْمٌ بحِيال طَلْحة، وذَريح بحيال الزُّبَير، وابن المُحَرِّش[3] بحيال عبد الرحمٰن بن عَتّاب، وحُرْقُوص بن زُهَير بحِيال عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام، فقُتِل حُكَيْم وابْنُه وأخوه، وقُتِل ذَرِيح، وأَفْلَتَ حُرْقُوص في نَفَر من أصحابه وجيء إلى طلحة والزبير بمن كان فيهم ممن غزا المدينة، فقتلوا.

وكانت هذه الوَقْعة لخمسٍ بَقِينَ من شهر ربيع الآخِر من السنة وبايَعَ أهلُ البصرة طَلْحَةَ والزُّبَير.

ذكر مسير عليّ إلى البصرة وما اتَّفق له في مسيره ومن انضمَّ إلَيه ومراسلته أهل الكوفة

قال: وكان عليٌّ رضي الله عنه قد تجهَّز لقصدِ الشام لقتال مُعاوِيةٍ، لما أظهر الخلاف عليه، كما تقدم، فبينما هو علَى ذلك أتاه الخبرُ عن طَلْحة والزُّبَيْر وعائشة من مكة بما عزموا عليه، فلما بلغه ذلك وأنهم يريدون البَصرة سرَّه[4] ذلك، وقال: إن الكوفة فيها رجال من العرب وبَيُوتاتُهم. فقال له ابن عبّاس رضي الله عنهما: «إنَّ الَّذي سَرَّكَ من ذلك لَيَسُوءُني، إنَّ الكوفة فُسْطاط فيه من أعلام العرب ولا يزال فيها

(١) استهولاه.

(٢) راجع المحاورات في مظانها من كتابي الكامل لابن الأثير وابن جرير الطبري في تاريخه.

(٣) خويلد بن عمرو بن صخر.

(٤) كذا في النص وكأنه كرّم الله وجهه اغتبط بقتالهم. وفي ذلك حطٌّ من كرامته كرّم الله وجهه إن لم يكن في ذلك تصحيف.

مَن يَسْمُو إلَى أمرٍ لا ينالُه، فإذا كان كذلك شَغَبَ[١] علَى الَّذي قد نال ما يُريد، حتَّى يكسِرَ حِدَّته» فقال عليٌّ: إنَّ الأمرَ لَيُشْبِهُ ما تقول.

وتهيَّأ للخروج إلَيهم، فنَدَب أهلَ المدينة للمَسِير معه، فتثاقلوا فبعث إلَى عبد الله بن عمر كُمَيْلاً النَّخعي[٢]، فجاء به، فدعاه إلى الخروج معه، فقال: «إنَّما أنا من أهل المدينة، وقد دخلوا في هذا الأمر، فدخلتُ معهم، فإنْ يخرُجوا أخرجْ معهم وإنْ يقعدوا أقعُدْ» قال: فأعطِني كَفيلاً. قال: لا أفعل. فقال له عليٌّ: لولا ما أعرِف مِن سُوءِ خُلقك صغيرًا وكبيرًا لأنكرْتَني! دعُوه فأنا كَفيله. فرجع ابنُ عُمَر إلى أهل المدينة وهم يقولون: «واللّهِ ما ندرِي كيف نصنع؟ إنَّ الأمرَ لَمُشْتَبِهٌ علَينا، ونحن مقيمون حتَّى يُضيءَ!»[٣] فخرج مِن تحت لَيلته، وأخبر أمَّ كُلثوم، ابنَةَ عليٍّ، وهي زوجةُ عُمر، بالَّذي سمِع وأنَّه يخرُج مُعْتمرًا مُقيمًا علَى طاعة عليٍّ ما خلا النهوض[٤]. فأصبح عليٌّ فقيل له: حَدَثَ الليلة حدثٌ هو أشدُّ من أمْرِ طَلْحة والزُّبَيْر وعائشة ومُعاوية! قال: وما ذاك؟ قالوا: خرَج ابنُ عُمر إلى الشام! فأتى السوقَ، وأعدَّ الظَّهر[٥] والرِّحال، وأعدّ لكل طريقٍ طُلاَّبًا، وماجَ الناس، فسمِعتْ أمُّ كُلثوم، فأتت عليًّا فأخبرته الخبر، فطابت نفسُه، وقال: «انصرِفوا، والله ما كذَبتْ ولا كذَب، وإنَّه عندي ثِقَة» فانصرَفوا.

ثم أتَى عليًّا الخبرُ بمَسِير طَلحةَ والزُّبيرِ وعائشة من مكة نحوَ البَصرة، فدعا وجوهَ أهلِ المدينة وخَطَبهم، فحمِد اللّهِ وأثنَى علَيه وقال: «إنَّ آخِرَ هذا الأمرِ لا يصلُح إلاَّ بما صلَح أوَّله، فانصُروا اللّهَ ينصرْكم ويُصلِحْ لكم أمركم» فتثاقلوا، فلمَّا رأى زِياد بن حَنْظَلة[٦] تثاقُلَ الناس انْتَدَب إلَى عليٍّ رضي الله عنه وقال له: مَن تثاقَلَ عنك فإنَّا نَخِفُّ معك فنقاتل دُونَك. وقام أبو الهَيْثم بن التَّيِّهان[٧] وخُزَيْمَة بن ثابت[٨]. قال

---

(١) شغب: تهييج الشر.

(٢) كُمَيْل بن زياد النخعي له دعاء عظيم يعرف باسمه، وكان من أعاظم خواص الإمام علي كرّم الله وجهه، توفي ٨٣هـ.

(٣) الأمر فيتضح. (٤) قصد القتال معه.

(٥) الظهر: كناية عن ظهور المراكب ومتونها من إبل وخيل وبغال وحمير.

(٦) زياد بن حنظلة التميمي صحب النبي ﷺ وكان منقطعًا إلى علي كرّم الله وجهه وشهد معه مشاهده كلها. راجع أسد الغابة جـ٢ ص٢١٣.

(٧) مالك بن التيهان الأنصاري صحابي. راجع ترجمته في أسد الغابة جـ٤ ص٢٧٤.

(٨) خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة بن ساعدة بن عامر الأنصاري من بني أوس، لقبه الرسول بذي الشهادتين. راجع أسد الغابة جـ٢ ص١١٤.

ابن الأثير[١]: «قال الحكم: ليس بِذي الشهادتَين، مات ذو الشهادتين أيّامَ عُثمان رضي الله عنه». وقال أبو عُمر بن عبد البر في ترجمة[٢] خُزَيْمة بن ثابت ذي الشهادتين: إنه شهد مع عليٍّ حرب الجمل وصِفِّين فدلَّ علَى أنه هو، والله أعلم. فأجابا عليًا إلى نصرته.

وقال أبو قَتادة الأنصاري[٣] لعليٍّ: «يا أميرَ المؤمنين، إنَّ رسولَ الله ﷺ قَلَّدني هذا السيفَ، وقد أغمدتُه زمانًا، وقد حان تجريدُه علَى هؤلاء القوم الظالمين الَّذين لم يألُوا الأمةَ غِشًّا، وقد أحببتُ أن تقدِّمَني، فقدِّمْني».

قال: ولما أراد عليٌّ المَسِيرَ إلَى البصرة وكان يرجو أن يُدرِكَ طَلحة والزُّبَيْرَ فيرُدهما قبل وصولهما إلَى البصرة، فلمَّا سار استخلف علَى المدينة تمَّام بن العبَّاس، وعلَى مكة قُثَمَ بن العَبّاس، وقيل: أمَّرَ علَى المدينة سَهْلَ بن حُنَيْف، وسار في تَعْبِئَته الَّتي كانت لأهل الشام، وذلك في آخر شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين[٤].

وخرج معه مَن نشطَ[٥] من الكوفيين والبصريين متخففين في تسعمائة، فلقِيَه عبد الله بن سَلاَم فأخذ بعِنانه، وقال: «يا أميرَ المؤمنين، لا تخرُجْ منها، فوالله لئن خرجت منها لا يعودُ إليها سلطانُ المسلمين أبدًا!» فسَبُّوه، فقال: «دعُوه، نِعْمَ الرجلُ من أصحاب محمد ﷺ»[٦]. وسار حتَّى انتهَى إلَى الرَّبَذة[٧]، فأتاه خبر سَبْقِهم إلَى البَصرة، فأقام بها يأْتَمِر ما يفعل.

ذكر إرسال عليّ إلى أهل الكوفة وعَوْد رُسله وإرسال غيرهم وما كان من إخراج أبي موسى الأشعري عن الكوفة وانضمام أهل الكوفة إلى عليّ وما كان في خلال ذلك من الأخبار

قال: ولما أقام عليٌّ رضي الله عنه بالرَّبَذة أرسل منها محمدَ بن أبي بكر الصديق ومحمدَ بن جعفر رضي الله عنهم إلَى أهل الكوفة، وكتب إليهم: «إني قد

(١) راجع ابن الأثير في كامله ج٣ ص٢١٢.
(٢) راجع الاستيعاب ج١ ص٤١٨.
(٣) الحارث بن ربضي، وقيل هو النعمان أو عمرو الأنصاري. صحابي، ذكر الذهبي وفاته عام ٥٤٠هـ.
(٤) من وجد في نفسه قوة وطاقة.
(٥) راجع النص باختلاف يسير في تاريخ الطبري ج٤ ص٤٥٥.
(٦) راجع الكامل في التاريخ ج٣ ص٢٢٢.
(٧) الربذة: بفتح أوله وثانيه، من قرى المدينة على ثلاثة أيام على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكة، وبهذا الموضع قبر أبي ذر الغفاري. راجع معجم البلدان ج٣ ص٢٤.

اخترتكم علَى الأمصار، وفزِعتُ إلَيكم لما حدَث، فكونوا لدين الله أعْوانًا وأنصارًا، وانْهضوا إلينا، فالإصلاحَ نريدُ، لتعودَ هذه الأمَّةُ إخوانًا» فمضَيا.

وأقام بالرَّبَذة، وأرسل إلَى المدينة، فأتاه ما يُريد من دابّة وسلاح.

ثم قام في الناس فخطَبهم وقال: إنَّ الله تبارك وتعالى أعَزَّنا بالإسلام ورفَعَنا به، وجعَلَنا إخوانًا بعد ذِلَّة وقِلَّة وتباغُض وتباعُد، فجرَى الناس علَى ذلك ما شاء الله، الإسلامُ دِينُهم، والحقُّ فيهم، والكتابُ إمامُهم، حتَّى أصيبَ هذا الرجلُ بأيدي هؤلاء القوم الَّذين نَزَغهم الشيطانُ[1]، لينزَغَ بين هذه الأمَّة، ألاَ وإنَّ هذه لا بُدَّ مفترقة كما افترقَت الأمم قبلها، فنعوذ باللّهِ من شر ما هو كائن.

ثم عاد ثانية فقال: إنَّه لا بد مما هو كائن أن يكون، ألا وإن هذه الأمّة ستفترق علَى ثلاث وسبعين فِرقةً[2]، شرُّها فرقةٌ تنتحلني ولا تعمل بعملي، وقد أدركتم ورأيتم، فالْزَموا دِينَكم، واهْدُوا بهَدْيي، فإنه هَدْي نبيّكم، واتَّبعوا سُنَّته، وأعْرِضوا عمَّا أشكل علَيكم حتَّى تَعرضوه علَى القرآن، فما عرفه القرآنُ فالْزَموه، وما أنْكره فرُدُّوه، وارْضَوا بالله ربًّا، وبالإسلام دِينًا، وبمحمد نبيًّا، وبالقرآن حَكمًا وإمامًا.

قال: ثمَّ أتاه جماعة من طيّىء، وهو بالرَّبذة، فقيل له: هذه جماعة قد أتتك، منهم مَن يُريد الخروجَ معك، ومنهم من يُريد التسليمَ عليك. فقال: جزى اللّهُ كُلاً خيرًا ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥]. فلمَّا دخلوا علَيه قال لهم: ما شهِدتمونا قال به[3]؟ قالوا: شهِدْناك بكلِّ ما تُحب. فقال: «جزاكم الله خيرًا! قد أسلمتم طائعين، وقاتلتم المرتدين، ووافَيْتم بصدقاتكم المسلمين». فنهض سعيد بن عبيد الطائي فقال: «يا أمير المؤمنين، إنَّ من الناس مَن يُعبِّر لسانُه عن قلبه، وإنِّي، واللّهِ، ما كلّ ما أجد في قلبي يعبّر عنه لساني، وسأجْهَد وبالله التوفيق، أمّا أنا فسأنصح لك في السر والعلانية، وأقاتل عدوَّك في كل موطن، وأرَى من الحقِّ لك ما لا أراه لأحد من أهل زمانك لفضلك وقرابتك» فقال: «يرحمك الله! قد أدَّى لسانك عما يُجِنُّ ضميرُك».

قال: ثم سار عليٌّ رضي الله عنه من الرَّبَذة، وعلَى مقدّمته أبو ليلى بن عمرو بن الجراح، والراية مع ابنه محمد ابن الحنفيّة، وعليٌّ على ناقة حمراء يقود فرسًا

---

(١) إذا أفسد الشيطان وأغرى بينهم.

(٢) تواتر ما يشبه هذا الحديث باختلاف العدد عن رسول الله ﷺ. راجع مسند أحمد جـ٢ ص٣٣٢.

(٣) النص غير واضح، وفيه تصحيف أو نقص، والمراد أين أنتم منا على ما ترون؟.

كُمَيْتًا[١]، فلمَّا نزل بِفَيْد[٢] أتته أسد وطيِّىء، فعرَضوا عليه أنفُسَهم فقال: في المهاجرين كفاية. وعرضتْ عليه بَكْرُ بن وائل أنفسها، فقال لها كذلك.

قال: وانْتَهَى إلَى ذي قار[٣] أتاه عُثمان بن حُنَيْفٍ وليس في وجهه شعرة[٤]، وقيل: إنَّه أتاه بالرَّبَذة فقال: يا أمير المؤمنين بعثْتَني ذا لحْية وقد جئتُكَ أمْرَد! قال: أصبتَ أجرًا وخيرًا! وأقام بِذِي قار ينتظرُ جوابَ أهل الكوفة.

وكان مِن خَبر محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر أنَّهما أتَيا أبا موسَى الأشْعَرِيَّ بكتاب عليٍّ، وقاما في الناس بأمره، فلم يُجابا بشيءٍ، فلما أيسُوا دخلَ ناس من أهل الحجا[٥] على أبي موسى فقالوا: ما تَرَى في الخروج؟ فقال: «كان الرأيُ بالأمس ليس اليوم، إن الَّذي تهاونتم به فيما مضَى هو الذي جَرَّ عليكم ما ترَوْن، إنَّما هما أمران: القعودُ سبيلُ الآخرة، والخروجُ سبيلُ الدنيا، فاختاروا» فلم يَنْفِرْ إلَيه أحدٌ، فغضب محمد، فأغلظا لأبي موسى، فقال لهما: «واللّهِ إنَّ بَيْعة عُثمان في عُنقي وعُنق صاحِبكما، فإنْ لم يكن بُدٌّ مِن قِتالٍ لا نُقاتلْ أحدًا حتَّى نَفْرُغَ من قَتَلة عُثمان حيث كانوا».

فانطلقا إلَى عليٍّ فأخبراه الخبر وهو بذِي قار، فقال للأشْتَر وكان معه: «أنت صاحبنا في أبي موسى والمعترض في كل شيء، اذهبْ أنت وابن عبّاس فأصلِحْ ما أفسَدْتَ».

فخرجا، فقدِما الكوفةَ، فكلَّما أبا موسى، واستعانا عليه بنَفَر من أهل الكوفة، فخطَبهم أبو موسى فقال «أيُّها الناس، إنَّ أصحاب النبي ﷺ الَّذين صحِبوه في المَواطِن أعلَمُ بالله ورسوله ممَّن لم يصحَبْه، وإنَّ لكم علَيْنا حقًّا، وأنا مُؤَدٍّ إلَيكم نصيحة، كان الرأي ألاَّ تستخفُّوا بسلطان الله، وألا تجترئوا علَى الله، وأن تأخذوا مَن قدِم علَيكم من المدينة فتردُّوهم إلَيها حتَّى يجتمعوا فهم أعلمُ بمن تصلُح له الإمامة

---

(١) الكميت: ضم ففتح، الذي خالط حمرته سواد.

(٢) فيد: فتح فسكون، بليدة في نصف طريق مكة من الكوفة وكانت عامرة حتى زمن ياقوت صاحب معجم البلدان. راجع معجم البلدان جـ٤ ص٢٨٢.

(٣) مكان معروف بالقرب من الكوفة، وفيه جرت معركة ذي قار المشهورة بين بني بكر وكسرى ملك الفرس. وقيل إنه واد على ثلاث ليالٍ من منى، متاخم للعراق. راجع كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار للحميري ص٢٦٠.

(٤) حيث نتف جند عائشة رضي الله عنها وقادة جيشها على ما في وجهه من شعر.

(٥) الحجا: العقل.

منكم، وهذه فِتنةٌ صمَّاء[١]، النائم فيها خَير من اليقظان، والْيَقظانُ خَير من القاعد، والقاعدُ خَير من القائم، والقائمُ خَير منَ الراكب، والراكبُ خير من الساعي، فكونوا جُرْثُومةً[٢] من جراثيم العرب، فأغْمِدوا السُّيوف، وأنْصلوا[٣] الأسنَّة، واقطعوا الأوْتار[٤]، وآوُوا المظلوم والمُضْطَهَد، حتَّى يَلتئِمَ هذا الأمر، وتنجليَ هذه الفِتْنة».

فرجع ابنُ عبّاس والأشترُ إلَى عليٍّ، فأخبراه الخبر.

فأرسل ابْنَه الحسَنَ وعَمَّارَ بن ياسِر، رضي الله عنهما، وقال لعَمّار: انطلِقْ فأصلِحْ ما أفسدتَ. فأقبلا حتَّى دخلا مسجد الكوفة، فكان أوّل مَن رآهما مسروق[٥] بن الأجْدع، فسلَّم عليهما، وأقبل علَى عَمّار فقال: يا أبا اليَقظان عَلامَ قتلتم عُثمان؟ قال: علَى شتْم أعراضِنا وضَرْبِ أبْشارِنا[٦]! قال: فَوَاللّهِ ما عاقبتم بمثل ما عُوقبتم به ولا صبَرتم فكانَ خيرًا للصابرين[٧]!

فخرج أبو موسى فلقِيَ الحسَنَ فضمَّه إلَيه، وأقبل علَى عَمّار فقال: يا أبا اليَقْظان أعَدَوْتَ علَى أمير المؤمنين فيمن عدا فأحْلَلْتَ نفسك مع الفُجّار؟ فقال: لم أفعلْ ولم يَسؤني! فقطع الحسَنُ عليهما الكلام، وأقبل علَى أبي موسى فقال له: «لِمَ تُثَبطُ الناسَ عَنَّا؟ فَوَاللّهِ ما أردْنا إلاَّ الإصلاحَ، ولا مِثْلُ أمير المؤمنين يُخافُ علَى شيء!» قال: صدقتَ، بأبِي أنت وأُمِّي! ولكن» المُستشارُ مُؤْتَمَن[٨]، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول «إنها ستكونُ فِتنة، القاعدُ فيها خَيْرٌ من القائم، والقائمُ خير من الماشي، والماشي خيرٌ من الراكب»[٩] وقد جعلَنا الله إخوانًا، وحرَّم علينا دماءنا وأموالنا.

فغضب عَمّار، وسَبَّه، وقام فقال: يا أيُّها الناسُ إنَّما قال له وحْدَه «أنتَ فيها قاعدًا خيرٌ منك قائمًا»!

---

(١) فتنة صماء: أي فتنة لا مخرج منها، ووجه الحق فيها ضائع.

(٢) جرثومة الشيء: أصله.

(٣) نصل: مادة ضَرَبَ، ومنه نصل السهم خرج نصله. والمراد انزعوا أسنة الرماح.

(٤) أراد الأقواس فاختار جزءها الوتر الذي يدفع السهم.

(٥) راجع ما قيل فيه مختصرًا في أسد الغابة جـ٤ ص٣٥٤.

(٦) مفردها بشر وهو ظاهر الجلد.

(٧) استئناسًا بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦].

(٨) راجع سنن أبي داود، ص١١٤.

(٩) في صحيح البخاري. راجع الحديثين (المعجم المفهرس) ٦٦٥٤، ٦٦٥٥.

فقام رجل من بني تميم، فسَبَّ عَمّارًا وقال: أنت أمسِ مع الغَوْغاء واليومَ تُسَافِهُ أميرنا!

وثار زَيد بن صُوحان وأمثالُه، وثار الناس، وقام زَيْدٌ علَى باب المسجد، ومعه كتابٌ من عائشة إلَيه تأمرُه بملازمة بَيته أو نُصْرتها، وكتابٌ إلَى أهل الكوفة بمعناه، فأخْرَجَهما فقرَأهما على الناس، فلما فَرَغ منهما قال: «أُمِرَتْ أنْ تقَرَّ في بَيْتها[١]، وأمِرْنا أنْ نقاتِلَ حتَّى لا تكونَ فِتْنة[٢]، فأمَرَتْنا بما أُمِرَتْ به، ورَكِبَتْ ما أُمِرْنا به!».

فقال له شَبَث بن رِبْعِيّ: يا عُمَانيّ، سرقتَ بِجَلُولاء[٣] فقطعت يدك! وعصيْتَ أمَّ المؤمنين فقتلك الله!

وتهاوى الناس. قام أبو موسى فقال: أيُّها الناس، أطيعوني، وكونوا جُرْثُومة مِن جراثيم العرب، يأوِي إلَيكم المظلوم، ويأْمَنُ فيكم الخائفُ إنَّ الفِتنة إذا أقبلتْ شَبَّهتْ[٤]، وإذا أدبرتْ بيَّنَتْ، وإنَّ هذه الفِتْنة بَاقِرة[٥] كَدَاءِ البَطْن، تجري بها الشَّمال والجَنوبُ والصَّبا والدَّبور، تَذَرُ الحكيمَ وهو حَيْران كابْنِ أمْس[٦]، شيمُوا سُيوفَكم[٧]، واقصِدوا رِماحَكم[٨]، وقطِّعوا أوْتارَكم والْزَموا بيوتَكم، خلُّوا قريشًا إذ أبَوْا إلاَّ الخروجَ مِن دار الهجرة وفِراقَ أهل العلم، استنصحوني[٩] ولا تستغشوني، أطيعوني يسلمْ لكم دينكم، ودنياكم ويشقى بحرُ هذه الفتنة من جناها.

فقام زيد، فشال يَدَه المقطوعة، فقال: يا عبد اللّهِ بن قَيْس[١٠] رُدَّ الفُراتَ عن أدراجه، ارْدُدْهُ مِن حيثُ يجيءُ حتَّى يعودَ كما بدأ فإنْ قدَرتَ علَى ذلك فستقدرُ علَى ما تريد، فدَعْ عنك ما لستُ مُدْرِكَه، سيروا إلَى أمير المؤمنين وسيّد المسلمين، انْفِروا إلَيه أجمعين تُصيبوا الحقَّ!

فقام القَعْقاعُ بن عَمْرو[١١] فقال: «إنِّي لكم ناصح، وعلَيكم شَفيق، أحِبُّ لكم

(١) استئناسًا بقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾.
(٢) استئناسًا بقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾.
(٣) جلولاء: موضع في طريق خراسان، بينها وبين خانقين سبعة فراسخ، كانت بها الوقعة المشهورة على الفرس للمسلمين سنة ١٦. راجع معجم البلدان جـ٢ ص١٥٦.
(٤) شبهت: اختلط حقها بباطلها.
(٥) قاطعة.
(٦) كناية عن السفه والبعد عن الحلم والتجربة.
(٧) أراد اغمدوها.
(٨) كناية عن كسرها.
(٩) اعتبروا نصحي لكم ولا تظنوا الغش بي.
(١٠) أبو موسى الأشعري.
(١١) القعقاع بن عمرو صحابي نصر عليًا كرّم الله وجهه. راجع الكامل جـ٣ ص٢٣٢.

أن تَرشُدوا، ولأقولَنَّ لكم قولاً هو الحقّ، أمّا ما قال الأميرُ فهو الحقُّ لو أنَّ إلَيه سبيلاً، وأمّا ما قال زَيْد فزَيْدٌ عدوُّ هذا الأمير فلا تستنصِحوه، والقولُ الَّذي هو الحق أنه لا بُدَّ من إمارةٍ تنظمُ الناس، وتَزَعُ[1] الظالم، وتُعِزُّ المظلومَ وهذا أميرُ المؤمنين مَلِيءٌ بما وَلِي، وقد أنصف في الدعاء، وإنما يدعو إلَى الإصلاح، فانْفِروا وكونوا مِن هذا الأمر بمرْأىً ومَسْمَع».

وقال عَبْدُ خَيْرِ الخَيْواني: يا أبا موسى هل بايعَ طَلحةُ والزبير عليًا؟ قال: نَعَمْ! قال: هل أحدَث عليٌّ ما يحلّ به نقْض بَيعته؟ قال: لا أدري. قال: «لا دَرَيْتَ! نحن نتركك حتّى تدركَ! هل تعلمُ أحدًا خارجًا من هذه الفتنة؟ إنما الناس أربعُ فرَق: عليٌّ بظَهْر الكوفة، وطَلحة والزُّبَير بالبصرة، ومُعاوية بالشام، وفرقة بالحجاز لا غَناءَ بها ولا يقاتَل بها عدوّ» فقال أبو موسى: أولئك خَيْرُ الناس وهي فتنةٌ! فقال عَبْدُ خَير: غَلَب عليك غشُّك يا أبا موسى!

فقال سَيْحان بن صُوحان: إنَّه لا بُدَّ لهذا الأمرِ وهؤلاء الناس مِن والٍ، يَدْفَع الظلم، ويُعِزُّ المظلوم، ويجمع الناس، وهذا ولِيكم وهو يدعوكم لتنظروا فيما بَيْنَه وبَين صاحبَيه، وهو المأمونُ على الأمّة، الفقيه في الدين، فمن نَهَض إليه فإنّا سائرون معه.

فلما فرغ سَيْحان قال عَمّار: «هذا ابْنُ عمِّ رسول الله عليه الصلاة والسلام، يستنفِركم[2] إلَى زوجة رسول الله وإلى طَلحة والزُّبَير، وإنّي أشهَدُ أنها زوجتُه في الدنيا والآخرة، فانظروا ثم انظروا في الحقّ، فقاتِلوا معه». فقال له رجل: أنا مع مَن شهِدْتَ له بالجنة علَى مَن لم تشهَدْ له! فقال له الحسَن: اكْفُفْ عنّا يا عَمّار فإنَّ للإصلاح أهلاً!

وقام الحسَنُ رضي الله عنه، فقال: أيُّها الناس أجِيبوا دَعْوَةَ أميركم، وسِيروا إلَى إخوانِكم، فإنه سَيُوجَد لهذا الأمر مَن يَنْفِرُ إلَيه، واللّهِ لأنْ يَلِيَه أولُو النُّهَى أمْثَلُ في العاجِل والآجِل، وخَيرٌ في العاقبة، أجيبوا دعْوَتنا، وأعِينونا على ما ابْتُلِينا به وابْتُلِيتُم، وإنَّ أمير المؤمنين يقول: «قد خرجتُ مَخْرجي هذا ظالمًا أو مظلومًا، وإني أُذَكِّرُ اللّهَ رجلاً رعَى حقَّ الله إلاَّ نَفَرَ، فإنْ كنتُ مظلومًا أعانَني، وإن كنتُ ظالمًا أخذ مني، واللّهِ إنَّ طَلحة والزُّبَير لأوَّلُ مَن بايَعني وأوّلُ مَن غَدَر فهل استأْثرتُ بمالٍ أو بدَّلتُ حُكمًا؟» فانْفِرُوا، فمُرُوا بالمعروف وانْهَوْا عن المنكر.

---

(١) تردع.

(٢) يدعوكم إلى النفر كناية عن القتال.

فسامح الناس وأجابوا ورضُوا، وتكلم عَدِيُّ بن حاتم، وهِنْد بن عَمرو، وحُجْرُ بن عَدِيّ، وحثُّوا الناسَ على اللحاق بعليٍّ وإعانته، فأذعَنَ الناسُ للمَسِير.

فقال الحسَنُ رضي الله عنه: «أيُّها الناس، إنِّي غادٍ، فمن شاء منكم أن يخرُج على الظَّهر(١)، ومَن شاء في الماء»، فنفَرَ معه تسعةُ آلاف، أخذ في البَرِّ ستَّةُ آلاف ومِائتان، وبقيّتهم في الماء.

وقيل: إنَّ عليًّا رضي الله عنه أرسل الأشْتَرَ بعد ابنه الحسَن وعَمّار - إلَى الكوفة، فدخلها والناسُ في المسجد، وأبو موسى يخطُبهم ويُثَبِّطُهم، والحسَنُ وعَمّار معه في مُنازعة، وكذلك سائر الناس، كما تقدم، فجعل الأشْتَر لا يَمُرُّ بقبيلة فيها جماعة إلاَّ دعاهم ويقول: اتَّبِعوني إلَى القصر، فانتهَى إلى القصر في جماعة من الناس، فدخلوا وأبو موسى في المسجد يخطُبهم ويُثَبِّطهم، والحسَن يقول له: اعتزِلْ عملَنا لا أمَّ لك وتَنَحَّ عن مِنْبَرنا! وعمّار يُنازعه فأخرج الأشْتَرُ غِلْمان أبي موسى مِن القصر، فخرجوا يَعْدُون ويُنادُون: «يا أبا موسى، الأشتر قد دخل القصر، فضربَنا، وأخرجَنا» فنزل أبو موسى، فدخل القصرَ، فصاح به الأشْتَرُ: «اخرُجْ لا أُمَّ لك! أخْرَج الله نفسك!» فقال: أجِّلْني هذه العشِيَّةَ. فقال هي لك ولا تبيتَنَّ في القصر الليلةَ. ودَخل الناسُ ينهبون متاع أبي موسى، فمنَعَهم الأشترُ، قال: أنا له جارٌ. فكفوا عنه.

فنفَرَ الناسُ في العدد المذكور. وقيل: إنَّ عدد من سار من الكوفة اثنا عشَر ألف رجلٍ ورجلٌ، قال أبو الطُّفيل: سمعتُ عليًّا رضي الله عنه يقول ذلك قبل وصولهم، فقعدتُ فأحصَيْتُهم، فما زادوا رجلاً ولا نقَصوا رجلاً!

وكان على كِنانة وأسَد وتميم والرباب ومُزَينة مَعْقِل بن يَسار الرِّياحي(٢)، وعلى سُبْع قَيْس سعدُ بن مسعود الثَّقفي عمُّ المختار(٣)، وعلى بكر وتَغْلِب وَعْلَةُ بن مَحْدوج الذُّهْلي(٤)، وعلى مَذْحِج والأشعَريين حُجْرُ بن عَدِيّ، وعلى بَجِيلة وأنمار وخَثْعَم والأزْد مِخْنَف بن سُلَيم الأزدي، فقدِموا على عليّ رضي الله عنه بِذِي قار، فلقِيَهم في ناسٍ فرحَّب بهم، وقال: «يا أهلَ الكوفة، وليتم ملوك العجم وفضَضْتم جُموعَهم، حتى صارت إلَيكم مَواريثهم، فأغنَيْتم حَوْزتكم، وأعَنْتم الناسَ على عدوّهم، وقد

(١) كناية عن ظهور المطايا وهي المراكيب من إبل وخيل وسواهما.
(٢) لعله معقل بن قيس الرياحي من تميم. راجع الإصابة ج٣ ص٤٩٩.
(٣) وهو المختار بن أبي عبيد الثقفي يلتقي مع قيس عند جدهم مسعود.
(٤) ينتهي نسبه إلى بكر رضي الله عنه.

دعَوْتُكم لتشهدوا معنا إخوانَنا من أهل البصرة، فإن يَرجعوا فذاك الَّذي نريد، وإن يلجُّوا[١] داويناهم بالرفق حتى يبدؤونا بظلم، ولم ندعْ أمرًا فيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد، إن شاء الله تعالى».

قال: وكان رؤساءُ الجماعةِ من الكوفيين: القعْقاعَ بن عمرو وسعدَ بن مالك وهندَ بن عمرو والهَيْثم بن شهاب، وكان رؤساء النُّفَّار زيدُ بن صُوحان والأشْتَر وعَدِيّ بن حاتم والمسيّب بن نَجَبَة ويزيد بن قَيس وأمثال لهم ليْسوا دونهم إلاَّ أنهم لم يُؤَمَّروا، منهم حُجْر بن عَدِيّ.

ذكر مراسلة علي طلحة والزبير وأهل البصرة في الصلح وإجابتهم إليه وانتظام الصلح وكيف أفسده قتلة عثمان

قال: وأقام عليٌّ رضي الله عنه بذي قار، فأرسلِ القَعْقاعَ بن عمرو إلى أهل البصرة وقال له: الق هذين الرجلين وادعهما إلى الألفة والجماعة وعظِّمْ عليهما الفُرقة. وكان القعقاع من أصحاب النبي ﷺ.

فخرج حتَّى قدِم البَصرة، فبدأ بعائشة فسَلَّم عليها وقال: أيْ أُمَّهْ، ما أشْخَصَكِ وما أقْدَمَكِ هذه البلد؟ قالت: أيْ بُنَيَّ، الإصلاح بَيْن الناس. قال: فابعثي إلَى طَلحة والزُّبَير حتَّى تسمعي كلامي وكلامهما، فبعثتْ إلَيهما، فجاءا، فقال لهما: إنِّي سألتُ أمَّ المؤمنين ما أقْدَمَها؟ فقالت الإصلاح، فما تقولان أنتما؟ أمُتابعان أم مُخالفان؟ قالا: مُتابعان. قال: فأخبراني ما وَجْهُ هذا الإصلاح فوالله لئن عَرَفناه ليصلحنَّ ولئن أنكرناه لا يصلح. قالا: قَتَلَة عُثمان، فإنَّ هذا إنْ تُرِكَ كان تَرْكًا للقرآن! قال: «قد قتلتما قَتَلَةَ عُثمان من أهل البصرة، وأنتما قبل قتْلهم أقربُ إلَى الاستقامةِ منكم اليوم! قتلتم ستّمائة رجل فغضبتْ لهم ستةُ آلاف واعتزلوكم، وخرجوا من بَيْن أظهُركم، وطلبتم حُرْقوصَ بن زهير فمنعه ستة آلاف فارس، فإنْ تركتموهم كنتم تاركين لِما تقولون، وإن قاتلتموهم والَّذين اعتزلوكم فأُدِيلُوا[٢] عليكم فالَّذي حذرتم وقويتم به هذا الأمرَ أعظمْ مِمَّا أراكم تكرهون[٣]، وإن أنتم منعتم مُضَر ورَبيعة من هذه البلاد اجتمعوا علَى حربكم وخذلانكم نُصْرةً لهؤلاء، كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدَث العظيم والذنب

---

(١) اللجاج: التمادي في الخصومة والعناد. (٢) انتصروا عليكم.

(٣) راجع النص باختلاف في البداية والنهاية لابن كثير جـ٣ ص٢٣٧.

الكبير!» قالت عائشة فما تقول أنت قال[1] «أقول إنَّ هذا الأمرَ دواؤه التسكين، فإذا سكن اخْتُلِجُوا، فإن أنتم بايَعتمونا فعلاً خيرَ وتَباشيرُ رَحمة ودَرك بثأر، وإن أبَيْتم إلاَّ مُكابَرةَ هذا الأمر واعْتسافه كانت علامة شرّ وذهاب هذا الثأر، فآثِروا العافية تُرْزَقوها، وكونوا مفاتيحَ خَير كما كنتم، ولا تُعرِّضونا للبلاء فتتعرّضوا له فيَصْرَعَنا وَإيّاكم، وأيْمُ اللّهِ إنّي لأقولُ هذا القولَ وأدعوكم إلَيه وإني لخائفٌ أن لا يتمّ حتّى يأْخذَ الله حاجته من هذه الأُمّة التي قَلَّ متاعها ونزل بها ما نزل، فإنَّ هذا الأمر الَّذي حدثَ أمرٌ ليس يُقدر، وليس كقتل الرجلِ الرجلَ ولا النَّفَر الرجلَ ولا القبيلة الرجلَ قَالوا: «قد أصبْتَ وأحسنتَ، فارجِعْ، فإن قدِم عليٌّ وهو علَى مثل رأيك صلَح هذا الأمر».

فرجع إلَى عليّ، فأخبره، فأعجبه ذلك، وأشرف القومُ على الصلح، كرِهَ ذلك مَن كرهه، ورضِيَه من رضيه.

وأقبلتْ وُفود العرب من أهل البصرة نحو عليّ بذي قار، قبل رجوع القَعْقاع، لينظروا ما رأى إخوانهم من أهل الكوفة، وعلَى أيِّ حال نهضوا إلَيهم، وليُعلموهم أنَّ الذي عليه رأيُهم الإصلاح، ولا يخطُر لهم قتالُهم علَى بال.

فلما لقُوا عشائرَهم من أهل الكوفة قال لهم الكوفيون مثل مقالتهم، وأدخلوهم علَى عليّ فأخبروه بخبرهم.

ورجعتْ وُفود أهل البصرة برأي أهل الكوفة، ورجع القَعقاع من البصرة.

فقام عليّ رضي الله عنه خطيبًا، فحمدَ اللّهَ وأثنَى عليه، وذكر الجاهلية وشقاءها، والإسلامَ والسعادة، وإنعامَ الله علَى الأُمّة والجماعة بالخليفة[2] بعد رسول الله ﷺ، ثم الَّذي يَليه[3]، ثم الَّذي يليه[4]، ثم حدَثَ هذا الحدثُ الَّذي جَرَّه علَى هذه الأمّة أقوام طلبوا هذه الدنيا وحسَدوا مَن أفاءَها الله علَيه وعلى الفضيلة الَّتي مَنَّ الله بها، وأرادوا رَدَّ الإسلام والأشياء علَى أدْبارها، والله بالِغٌ أمرهُ. ثم قال: ألاَ وإنِّي راحل غدًا، فارْتحِلوا، ولاَ يَرْتَحِلَنَّ معنا أحدٌ أعان عَلى عثْمان بشيءٍ من أمور الناس، ولْيُغْنِ السفهاءُ عنّي أنفسهم. والله أعلم بالصواب.

ذكر اجتماع قتلة عثمان بذي قار وتشاورهم وما اتفقوا عليه من المكيدة التي اقتضت نقض الصلح ووقوع الحرب

قال: ولما قال عليٌّ رضي الله عنه مَقالَته بذِي قار، وأمَرَ ألاَّ يرتحلَ معه أحد

(١) والنص في تاريخ الطبري ج٤ ص٢٢٤.
(٢) أراد أبو بكر الصديق رضي الله عنه.
(٣) أراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
(٤) أراد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

مِمَّن أعان علَى عُثمان بشيء اجتمع نفَرٌ منهم عِلْباء بن الهَيْثَم وعَدِي بن حاتم وسالم بن ثَعْلَبة القَيْسي وشُرَيْح بن أبي أوْفَى[١] والأشْتَر، في عِدَّة مِمَّن سار إلَى عثمان أو رضِي بسَير من سار إليه وجاء معهم المصريون وابن السوداء[٢] وخالد بن مُلْجم، فتشاوَرُوا فقالوا[٣] «ما الرأيُ؟ هذا عليٌّ وهو واللّهِ أبْصَرُ بكتاب الله مِمَّنْ يطلب قَتَلَة عُثمان، وأقربُ إلَى العمل بذلك، وهو يقول ما يقول، ولم يَنْفِر إلَيْه إلاَّ هم والقليلُ من غَيرهم، فكيف به إذا شامَّ القومَ وشامّوه[٤] ورأوْا قِلَّتنا في كثرتهم؟ وأنتم اللّهِ تُرادون، وما أنتم بالحيّ[٥] من شيء!» فقال الأشتر: «قد عرفْنا رأيَ طَلحة والزُّبَيْر فينا، وأمّا رأيُ عليّ فلم نعرف رأيَه إلَى اليوم، ورأيُ الناسِ فينا واحدٌ، فإن يصطلحوا مع عليّ فعلَى دمائنا، فهَلُمُّوا بنا نَثِبْ علَى عليّ فنُلْحِقه بعثمان، فتعود فتنةٌ يُرْضَى مِنّا فيها بالسكون» فقال عبد الله بن السوداء «بئس الرأيُ والله رأيتَ، أنتم يا قَتَلَةَ عُثمان بذِي قار ألفان وخمسُمائة، أو نحوٌ من سِتِّمائة، وهذا ابْن الحَنْظَليَّة ـ يعني طَلحة ـ وأصحابُه في نحو خمسة آلاف بالأشواق[٦] إلى أن يجدوا إلى قتالكم سبيلًا!» فقال عِلْباء بن الْهَيْثَم «انصرفوا بنا عنهم، ودَعُوهم،فإن قلُّوا كان لعدُوِّهم علَيهم، وإن كثُروا كان أحْرَى أن يصطلحوا علَيكم، ودعُوهم وارْجِعوا فتعلَّقوا ببلدٍ من البلدان حتَّى يأتِيَكم فيه من تقْوَوْن به، وامتنِعوا من الناس» فقال ابن السوداء «بئس والله ما رأيتَ، وَدَّ واللّهِ الناسُ أنَّكم انْفَردتم ولم تكونوا مع أقوام بُرَآء[٧]، ولو انفردتم لتخطَّفَكم الناسُ وكُل شيء!» فقال عَديّ بن حاتم: «واللّهِ ما رَضِيتُ ولا كرهتُ، ولقد عجِبْتُ من تردُّد مَن تردَّد عن قتله في خَوض الحديث، فأمَّا إذْ وقع ما وقع ونزَل من الناس بهذه المنزلة فإنَّ لنا عتَادًا من خيول وسلاح، فإنْ أقدمتم أقدمْنا، وإن أمسكتم أمسكنا!» فقال ابن السوداء: أحسنت! وقال سالم بن ثَعْلَبة[٨]: «مَن كان أراد بما أتَى الدنيا فإني لم أردْ ذلك، ووالله لئن لقيتُهم غدًا لا أرجع إلى شيء وأحلف بالله إنكم لتفرقون[٩] الناسَ بالسيف فرْقَ قوم لا تصير أمورُهم إلاَّ إلَى السيف!» فقال ابن

---

(١) أثبته الطبري في تاريخه، شريح بن أوفى. (٢) يريد: عبد الله بن سبأ.

(٣) راجع الطبري جـ٤ ص٤٩٣. (٤) إذا اختبر بعضهم بعضًا.

(٥) كناية عن قلتهم إلى الجمع. راجع الكامل لابن الأثير جـ٣ ص٢١٨.

(٦) لشدة حماسهم للقتال.

(٧) أصحاء أقوياء أشداء ولا يستقيم المعنى بغير ذلك.

(٨) راجع الطبري جـ٣ ص٥٠٨ باختلاف يسير، وابن الأثير في الكامل جـ٣ ص٢٣٦.

(٩) تخيفون.

السوداء: قد قال قولاً. وقال شريح بن أبي أوفى: «أبرموا[١] أمرَكم قبل أن يخرجوا، ولا تؤخروا أمرًا ينبغي لكم تعجيلُه، ولا تعجِّلوا أمرًا ينبغي لكم تأخيرُه فإنَّا عند الناس بِشَرِّ المنازل، ولا أدري ما الناسُ صانعون إذا ما هم التقَوْا!» وقال ابن السوداء: «يا قوم، إنَّ عِزَّكم في خلط الناس، فإذا التقَى الناسُ غدًا فأنشِبوا القتال، ولا تُفرغوهم للنظر، فمن أنتم معه لا يجدُ بُدًّا من أن يمتنعَ، ويشغلُ الله عليًّا وطَلحة والزُّبَير ومَن رأى رأيَهم عمَّا تكرهون!».

فأبصروا الرأي، وتفرّقوا عليه، والناسُ لا يشعرون.

ذكر مسير عليّ رضي الله عنه
ومن معه من ذي قار إلى البصرة ووقعة الجمل

قال: ولما أصبح عليُّ رضي الله عنه سار من ذِي قار وسار معه الناس حتَّى نزل علَى عبد القَيْس، فانضمُّوا إليه، ثم سار فنزل الزاوية[٢]، وسار من الزاوية يريدُ البصرةَ، وسار طَلحة والزُّبَير وعائشة من الفُرْضة[٣]، فالتقَوْا عند موضع قصر عبيد الله بن زياد، وذلك في النصف من جمادَى الآخِرة سنة ست وثلاثين[٤]، حكاه ابن الأثير، وقال أبو جعفر[٥]: كانت وقعةُ الجمل في يوم الخميس لعشرِ خَلَوْن من جمادَى الآخر سنة ست وثلاثين.

وسبق عليّ أصحابه، وهم يتلاحقون به، فلما نزل قال أبو الجرباء للزُّبَير: الرأي أن تبعث الآن ألف فارس إلَى عليّ قبل أن يتوافَى إليه أصحابه. فقال: «إنَّا لَنعرف أمورَ الحرب، ولكنَّهم أهل دعْوَتنا، وهذا أمر حدَث لم يكن قبل اليوم، من لم يلْقَ الله فيه بعذر انقطع عذرُه يومَ القيامة! وقد فارقنا وافدهم علَى أمر، وأنا أرجو أن يتمَّ لنا الصلحُ، فأبشروا، واصبروا».

وأقبل صبرة بن شيمان[٦] فقال لطلحة والزُّبير: انتهزا بنا هذا الرجل، فإنَّ الرأي

---

(١) احكموا.

(٢) الزاوية: موضع قرب البصرة. راجع معجم البلدان جـ٣ ص١٢٨.

(٣) وفي معجم ياقوت أنها قرية في البحرين ينسب إليها هبة الله الفرضي المقرىء، «وكان من أهل البصرة» جـ٤ ص٢٥١.

(٤) انظر الكامل في التاريخ جـ٣ ص٢٣٦.

(٥) ابن جرير الطبري صاحب تاريخ الأمم والملوك. قارن النص فيه جـ٤ ص٥٣٤.

(٦) صبرة بن شيمان الأزدي القحطاني، رأس الأزد. كان في حرب الجمل قائد قومه إلى جانب عائشة رضي الله عنها.

في الحرب خَيْرٌ من الشدّة! فقالاَ: «إنَّا وهم مسلمون، إن هذا أمرٌ لم يكن قبل اليوم فينزِل فيه قرآن أو تكونَ فيه سنَّة رسول الله ﷺ، وقد زعم قوم أنه لا يجوز تحريكُه اليوم، وهم عليّ ومن معه، وقلنا نحن: لا ينبغي لنا أن نتركه اليوم ولا نؤخره، وقد قال عليّ: تركُ هؤلاء القوم شرٌ وهو خيرٌ من شر منه، وقد كاد يبينُ لنا، وقد جاءت الأحكام بين المسلمين بإيثار أعَمِّها منفعةً.

وقال كعب بن سُور[١]: يا قوم اقطعوا هذا العنقَ من هؤلاء القوم. فأجاباه بنحو ما تقدم.

قال: ولما نزل عليٌ ونزل الناس أرسل شقيق بن ثور إلى عمرو بن مرحوم العبدي أن اخرجْ فإذا خرجت فمِلْ بنا إلى عسكر عليّ، فخرجا في عبد القَيس وبَكر بن وائل، فعدلوا[٢] إلى عسكر عليّ، فقال الناس من كان هؤلاء معه غلب. وأقاموا ثلاثة أيام لم يكن بينهم قتال، إنما يرسل عليّ إليهم يكلمهم ويدعوهم.

قال: وقام عليّ فخطب الناس، فقام إليه الأعور بن بُنان المِنْقَري فسأله عن إقدامهم علَى أهل البصرة، فقال له عليّ: علَىٰ الإصلاح وإطفاء النار لعل اللّهَ يجمعُ شملَ هذه الأمة بنا ويضَع حربهم. قال: فإن لم يجيبوا. قال: تركناهم ما تركونا. وقال: فإن لم يتركونا. قال: دفعناهم عن أنفسنا. قال: فهل لهم في هذا مثل الذي عليهم؟ قال: نعم.

وقام إليه أبو سلام الدالاني فقال: أترَى لهؤلاء القوم حجةً فيما طلبوا من هذا الدم إن كانوا أرادوا الله بذلك؟ قال: نعمْ. قال: فترَى لك حُجَّةً بتأخيرك ذلك؟ قال: نعمْ، إنَّ الشيء إذا كان لا يُدرَك فالحكم فيه أحْوَطه وأعمُّه نفعًا. قال: فما حالُنا وحالُهم إن ابتلينا غدًا؟ قال: إني لأرجو ألا يُقتل منا ومنهم أحد نقَّى قلبَه لله إلاَّ أدخله اللّهُ الجنةَ.. وقال في خطبته: «أيُّها الناس املكوا أنفسَكم، وكُفُّوا عن هؤلاء القوم أيديكم وألْسِنتكم، وإيَّاكم أن تسبقونا، فإن المخصومَ غدًا من خصم اليوم».

وبعث إليهم حكيمَ بنَ سلام ومالكَ بنَ حبيب، يقول: إن كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع فكُفُّوا حتى ننزل فننظر في هذا الأمر.

(١) كعب بن سور بن بكرة الأزدي، ولاه عمر بن الخطّاب رضي الله عنه قضاء البصرة، وكان لا يزال في منصبه هذا حتى قتل يوم الجمل مع عائشة رضي الله عنها.
(٢) مالوا.

وخرج إليه الأحنَف بن قَيس وبنو سعد مشمّرين، قد منعوا حُرقوص بن زُهَير وهم معتزلون. وكان الأحنَف قد بايَع عليًا بالمدينة بعد قتْل عثمان، لأنه كان قد عاد من الحج فبايع، فلما قدِم طلحة والزُّبَير اعتزل بالجَلحاء[١] ومعه زُهاء ستة آلاف، والجلحاء من البصرة على فَرسخَين فقال لعليّ: إنَّ قومنا بالبصرة يزعُمون أنَّك إن ظفِرْت علَيهم غدًا قتلتَ رجالهم وسبَيْتَ نساءهم! قال: «ما مِثْلي يُخاف هذا منه! وهل يحِلُّ هذا إلاَّ لمن تَوَلّى وكفر؟ وهم قوم مسلمون» قال: اخْتَرْ منّي واحدةً من اثنتَين: إمَّا أن أقاتلَ معك، وإمَّا أن أكُفَّ عنك عشرة آلاف سَيف[٢]. قال: اكففْ عنَّا عشرة آلاف سَيف. فرجع إلَى الناس، فدلهم إلَى القعود، ونادَى: «يا آلَ خِنْدِف»، فأجابه ناس، ثم نادى: «يا آل تَمِيم»، فأجابه ناس، ثم نادى: «يا آل سَعْد»، فلم يَبْقَ سعديٌّ إلاَّ أجابه، فاعتزل بهم، ونظر ما يصنعُ الناس، فلما كان القتالُ وظفر عليّ دخلوا فيما دخل فيه الناس وافرين.

قال: ولما تراءى الجمعان خرج الزُّبَيْر علَى فرس وعلَيه سلاح، فقيل لعليّ: هذا الزُّبَير فقال: أمَا إنَّه أحْرَى الرجلَين إنْ ذُكِّر بالله أنْ يذكر وخرج طلحة، فخرج إلَيهما عليّ، فدنا منهما حتى اختلفتْ أعناقُ دوابِّهم، فقال لعمري لقد أعددتما سلاحًا وخَيلاً ورجالاً، إن كنتما أعددتما عُذرًا عند الله فاتَّقِيَا الله، ولا تكونا ﴿كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا﴾ [النحل: ٩٢]، ألَمْ أكُنْ أخاكما في دينكما تُحرِّمان دمي وأحرِّمُ دماءكما؟ فهل من حَدَثٍ أحلَّ دمي؟ فقال طلحة: اللبثُ[٣] علَى دم عثمان. فقال عليّ رضي الله عنه: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥] يا طلحة، تطلب بدم عُثمان فلعن الله قَتَلةَ عثمان! يا طلحة، أتَيْتَ بعِرْسِ رسول الله ﷺ تقاتل بها وخبَأْت عِرسك في البيت! أما بايعتني؟ قال: بايعتُك والسيفُ علَى عُنقي! ثم قال للزُّبير: ما أخرجك؟ قال: أنت، ولا أراك لهذا الأمر أهلاً ولا أولَى به منَّا. فذكَّره عليٌّ رضي الله عنه بأشياء ثم قال: أتذكُرُ يوم مَررتَ مع رسول الله ﷺ في بني غَنْم، فنظر إليّ، فضحك وضحكتُ إلَيه، فقلتَ: لا يَدَعُ ابنُ أبي طالب زهوه! فقال لك رسول الله عليه الصلاة والسلام: «إنَّك لَتُقاتِلُه وأنت ظالمٌ له»؟! فقال: اللهُمَّ نعمْ ولقد كنت أُنسيتها ولو ذكرتُ ما سرت مسيري هذا، والله لا أُقاتلُك أبدًا!

---

(١) الجلحاء.

(٢) راجع الرواية بكاملها في الكامل ج٣ ص٢٣٧.

(٣) أي التحديث في الأخذ من قتلة عثمان.

وقيل: إنَّه قال له: كَيف أرجعُ وقد الْتقتْ حَلْقَتا البَطَان[١]؟ هذا واللّهِ العارُ الَّذي لا يغسِله الدهر! قال: يا زُبَير ارجعْ بالعارِ خَيرٌ من أن ترجع بالعار وبالنار.

فرجع الزُّبَير إلَى عائشة فقال لها: يا أُمَّاه، ما شهِدتُ مَوطِنًا إلاَّ ولي فيه رأيٌ وبصيرة غَيْرَ مَوطني هذا! قالت: وما تريد أن تصنعَ قال: أدعُهم وأذهب، ثم قال لابْنِه عبد الله: علَيك بحربك وأما أنا فأرجعُ إلَى بيتي. فقال له: ما يُرُدُّك؟ قال: ما لو علِمْتَه لكسَرَك[٢]. فقال له ابْنُه: بل رأيتَ عُيونَ بني هاشم تحت المغافِر[٣] فراعَتْك[٤]، وعلمتَ أنَّ سيوفَهم حِدادٌ تَحملُها فِتيَةٌ أنْجاد[٥]. فغضِب الزُّبير ثم قال: أمِثلي يفزَّع بهذا؟ وأحفظَه ذلك، وقال: إنِّي حلفتُ إلاَّ أقاتله. قال: فكفِّرْ عن يمينك وقاتِلْه، فأعتَقَ غلامه مكحُولاً، وقيل: أعتق سرجس.

ففي ذلك يقول عبد الرحمٰن بن سليمان التميمي: [من الرجز]

لم أرَ كاليوم أخا إخْوانِ　　　أعجبَ من مكفِّرِ الأيمانِ

في أبيات أُخر.

وقيل: إن الزُّبَير نَزَع سِنانَ رُمحه، وحمل علَى جَيْش عليّ، فقال عليّ لأصحابه: أفْرِجوا له فإنه قد أُغْضِب، وإنَّه منصرفٌ عنكم فقالوا: إذن واللّهِ لا نبالي بعد رجوعه بجمعهم وما كنا نتَّقي سِواه.

وقيل: إنَّ الزُّبَيْر إنَّما عاد عن القتال لمَّا سمع أنَّ عَمَّار بن ياسِر مع عليّ، فخاف أن يُقتل عمار، وقد قال رسول الله ﷺ: «يا عَمَّار تقتلُك الفِئةُ الباغية»[٦] فردَّه ابْنُه عبدُ الله.

وافترق أهلُ البصرة ثلاث فِرَق: فِرْقةٌ مع طَلحة والزُّبَير وفرقة مع عليّ، وفرقة لا ترَى القتال، منهم الأحْنفُ بن قَيْس وعِمْران بن حُصَيْن[٧].

---

(١) البطان: كل حزام يُشد على الدابة لتثبيت سرجها أو حملها من تحت بطنها، وعند طرفي الحزام حلقتان، بالتقائهما يكون الإحكام قد بلغ غايته. كناية عن الأمر وقد بلغ أقصاه. راجع المثل في مجمع الأمثال للميداني ج٢ ص١٣٥.

(٢) أراد ثناك وردك خائبًا.

(٣) المغفر مفردهما، آلة من حديد يتدرع بها المحارب لحفظ رأسه فلا يبين منه سوى عينيه يصنع من الحديد المزرَّد.

(٤) أخافتك.

(٥) ومنه نجاد السيف، وتستعمل غالبًا كناية عن الطول والقوة.

(٦) راجع الحديث عند البخاري باب الصلاة بنص: «ويح عمار تقتله الفئة الباغية».

(٧) من خزاعة، أرسله عمر رضي الله عنه إلى البصرة ليفقه أهلها. توفي سنة ٥٢هـ.

وجاءت عائشة فنزلتْ في مسجد الحُدَّان[١] في الأزْد، ورأْسُ الأزْد يومئذ صَبِرة بن شَيمان، فقال له كَعْب بن سُور: إنَّ الجموع إذا تراءت لم تستطعْ[٢]، إنَّما هي بحور تَدَفَّق، فأطِعْني ولا تشهَدْهم واعتزلْ بقومك، فإني أخاف ألاَّ يكونَ صُلح، ودَعْ مُضَر وربيعة فهما أخَوانِ، فإن اصطلحا فالصلحَ أرَدْنا، وإن اقتتلا كنَّا حُطَامًا علَيهم غدًا، وكان كَعْب في الجاهلية نصرانيًّا. فقال صَبرة: أخشَى أن يكون فيك شيءٌ من النصرانيَّة! أتأمرُني أن أغيبَ عن إصلاح بين الناس، وأنْ أخذُلَ أمَّ المؤمنين وطَلحة والزُّبَيْر إن رَدُّوا عليهم الصلح، وأدَعَ الطلبَ بدم عُثمان، واللّهِ لا أفعلُ هذا أبدًا! فأطبَقَ أهل اليمن على الحضور.

وحضر مع عائشة المِنْجابُ بن راشد[٣] في الرِّباب[٤] وهم تَيْم وعَدِيّ وثَوْر وعُكْل، بنو عَبْد مَناة بن أُدّ بن طابِخَة بن إلْياس، مُضَر، وضَبَّةَ بن أُدّ بن طابخة، وحضر أيضًا أبو الجَرْباء في بني عمرو بن تميم، وهلال بن وَكيع في بني حنظلة، وصَبِرة بن شَيمان على الأزْد، ومُجاشع بن مسعود السُلَمي علَى سُليم، وزُفَر بن الحارث في بني عامر وأعْصُر بن النعمان علَى غطفان، ومالك بن مِسْمَع على بكر، والخِرِّيت بن راشد على بني ناجية، وعلى اليمن ذو الأجرة الحميري.

قال: ولما خرج طلحة والزبير نزلت مُضَرُ جميعُها وهم لا يشكُّون في الصلح، ونزلت رَبيعة فوقهم وهم لا يشكُون في الصلح، ونزلت اليمن أسفلَ منهم وهم كذلك، ونزلت عائشة في الحُدَّان، والناس بالزَّابُوقة[٥] على رؤسائهم.

هؤلاء، وهم أصحاب عائشة، ثلاثون ألفًا، وهؤلاء، وهم أصحاب عليّ، عشرون ألفًا.

وردُّوا حكيمًا ومالكًا[٦]: «أنَّا على ما فارقْنا عليه القَعْقاع». ونزل عليٌّ بحِيالهم، ونزلت مُضَر إلى مُضَر، وربيعة إلى رَبيعة، واليَمَن إلَى اليَمَن، وكان بعضهم يخرجُ

---

(١) أحد منازل البصرة.

(٢) كأنه أراده من السطوع. فتمتنع الرؤية المميَّزة.

(٣) راجع عنه في أسد الغابة جـ٤ ص٤١٦.

(٤) الرباب: في أصل التسمية خلاف، ولكن حلفًا قام بين بني عبد مناة بن أد فعرف أهله بالرباب، وقال بعضهم: إن التسمية جاءت لاجتماع القوم بعد تفرقهم، فالربة تعني الفرقة، وجمعت على رباب.

(٥) ناحية من نواحي البصرة.

(٦) أراد حكيم بن سلام، ومالك بن حبيب وافدا علي كرّم الله وجهه، على أصحاب الجمل.

إلى بعض لا يذكرون إلاَّ الصلح، فخرج عليّ وطَلحة والزُّبَير فتواقفوا فلم يَرَوْا أمرًا أمْثل من الصلح ووضعِ الحرب، فافترقوا علَى ذلك.

وبعث عليّ رضي الله عنه من العَشِيّ عبدَ الله بن عباس إلى طلحة والزُّبَير، وبعثا إلَيه محمدَ بن طَلحة، وأرسل عليّ وطلحةُ والزُّبَير إلَى رؤساء أصحابهم بأمر الصلح، فباتوا بلَيْلةٍ لم يَبيتوا بمثلها للعافية الَّتي أشرفوا علَيها والصلح، وبات الَّذين أثاروا أمْرَ عُثمان بشرِّ ليلة، وباتوا يتشاورون، فاجتمعوا علَى إنشاب الحرب، فغَدَوْا مع الغَلَس(١) وما يشعُر بهم أحد، فخرجوا متسَلِّلين، فقصد مُضَرُهم إلَى مُضَرِهم، ورَبيعتهم إلَى ربيعتِهم، ويَمَنَهم إلَى يمنِهم، فوضعوا فيهم السلاح، فثار أهلُ البصرة، وثار كلُّ قوم في وجوه أصحابهم الَّذين أتَوْهم، وذلك في يوم الخميس لعشر خلَوْن من جمادَى الآخِرة.

قال: وبعث طَلحة والزُّبَير إلَى المَيْمنة وهم ربيعة أميرًا عليها عبدَ الرحمٰن بن الحارث بن هشام، وإلى المَيْسَرة عبدَ الرحمٰن بن عَتَّاب، وثبتا في القلب، وقالا: ما هذا؟ قالوا: طرقَنا أهلُ الكوفة لَيْلًا! قالا وقد علِمنا أنَّ عليًّا غَيْرُ مُنْتَهٍ حتَّى يَسْفِكَ الدِّماءَ وأنَّه لن يطاوعَنا! فردَّ أهل البصرة أولئك الكوفيين إلَى عسكرهم، فسمع عليّ وأهلُ الكوفة الصَّوتَ، وقد وضع السَّبَئِيَّةُ رجلًا قريبًا منه، فلما قال عليٌّ ما هذا قال ذلك الرجلُ: ما شعَرنا إلاَّ وقومٌ منهم قد بيَّتونا(٢) فردَدْناهم فوجدْنا القومَ علَى رِجْل، فركبوا، وثار الناسُ، فأرسل عليٌّ صاحب المَيْمَنة إلَى الميمنة، وصاحبَ المَيْسَرة إلَى المَيْسَرة، وقال: لقد علمتُ أنَّ طَلحة والزُّبَيْر غيرُ مُنْتَهِيَين حتَّى يَسْفِكا الدماء وأنهما لن يطاوعانا(٣). والسَّبَئِيَّة لا تفترُ، ونادى عليّ في الناس: كُفُّوا فلا شيءَ! وكان من رأيِهم جميعًا في تلك الفتنة ألاَّ يقتتلوا حتَّى يُبْدَؤُوا يطلبون بذلك الحجَّة وألاَّ يَقْتُلوا مُدْبِرًا، ولا يُجْهِزُوا علَى جريح، ولا يستحلُّوا سَلَبًا، ولا يَرْزَؤُوا بالبصرة سلاحًا ولا ثيابًا ولا متاعًا.

وأقبل كعب بن سُور حتى أتَى عائشةَ فقال: «يا أُمَّ المؤمنين، أدركي الناسَ، فقد أبَى القومُ إلاَّ القتالَ، لعلَّ اللّهَ يُصلح بكِ» فركبتْ وألبسوا هَوْدَجَها الأدراع، فلما برزتْ من البيوت وهي علَى الجمل وكانت بحَيْثُ تسمع الغَوْغاء وقفت، واقتتل الناسُ وقاتل الزُّبَيْر، فحمل عليه عَمَّار بن ياسِر، فجعل يحُوزُه(٤) بالرُّمح الزُّبَيْر كافٌّ عنه،

(١) ظلمة الليل من آخره.

(٢) أتونا بغتة عند البيات وهو ساعة النوم.

(٣) راجع النص في الكامل جـ٣ ص٢٣٩.

(٤) يرده معترضًا سبيله.

وقال له: أتقتلني يا أبا اليَقْظان[١]؟ قال: لا يا أبا عبد الله! وإنَّما كفَّ الزُّبَيْرَ عنه لقول رسول الله ﷺ «تقتل عَمَّارَ بن ياسر الفئَةُ الباغية»، ولولا ذلك لقتله.

قال: ثم اعتزل الزُّبَيْر الحربَ وانصرف، وصَلِيَها[٢] طَلحة، فأصابه سَهْم غَرْبٌ[٣] شَكَّ رجْلَه بصَفْحة الفَرس، ثم دخل البَصرة ومات بها. وسنذكر إن شاء الله أخباره وأخبار الزبير بعد نهاية وقعة الجمل.

وانهزم القوم يريدون البصرة، فلمَّا رأوا الخيلَ أطافت بالجمل عادوا قلبًا كما كانوا حَيْثُ الْتقَوْا وعادوا في أمر جديد.

فقالت عائشة لكعب بن سُور وهو آخذ بخِطام الجمل: خَلِّ عن الجمل وتقدَّمْ بالمُصْحف فادْعُهُم إلَيه. وناولتْه مصحفًا من هَوْدجها فاستقبل القومَ بالمصحف، والسَّبَئيَّة أمامَهم يخافون أن يجري الصلح، فرشقوه رشْقًا واحدًا، فقتلوه ورمَوْا أمَّ المؤمنين في هَوْدجها، فجعلتْ تُنادي: «البقيَّةَ البقيَّةَ يا بَنِيّ!» ويعلو صوتها «اللّهَ اللّهَ! اذكرُوا اللّهَ والحساب!» فيأبَوْن إلاَّ إقدامًا، فكان أوَّل شيء أحدثته حين أبَوْا أن قالت: «أيُّها الناس الْعنوا قَتَلَةَ عُثمان وأشياعَهم!» وأقبلتْ تدعو، فضجَّ الناسُ بالدعاء، فسمع عليّ فقال: ما هذه الضَّجّة؟ قالوا: عائشة تدعو علَى قَتَلة عُثمان وأشياعِهم. فقال: اللهُمَّ الْعَنْ قَتَلة عُثمان!

وأرسلتْ إلى عبد الرحمٰن بن عتَّاب وعبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام: أن اثْبُتا مكانكما. وحرَّضَتِ الناسَ حين رأت القومَ يريدونها ولا يكُفُّون، فحملتْ مُضَرُ البصرة حتى قَصَفتْ[٤] مُضرَ الكوفةِ، حتى زُحِم عليٌّ، فنَخَس قفا محمدٍ ابنه، وكانت الرايةُ معه، وقال له: احمِلْ. فتقدَّمَ حتَّى لم يجد متقدَّمًا إلاَّ على سِنان رمح، فأخذ عليٌّ الرايةَ من يده، وقال: يا بُنَيَّ بَيْنَ يَدَيَّ. وحملتْ مُضرُ الكوفة فاجْتَلَدوا[٥] قُدَّامَ الجمل حتَّى ضَرسوا[٦]، والمُجنِّبات[٧] علَى حالها لا تصنع شيئًا، واشْتدَّت الحَربُ، فأصيب زَيد بن صُوحان[٨]، وأخوه سَيْحان، وارْتُثَّ[٩] أخوهما صَعصَعة، فلما رأى عليٌّ ذلك بعَث إلَى رَبيعة وإلَى اليمن: أن اجْمَعوا مَن يَليكم.

---

(١) كنية حمار بن يسار رضوان الله عليه.
(٢) ذاق صليها أي لهيبها.
(٣) مجهول الرامي.
(٤) قوة الدفع والقتال.
(٥) الجلاد: الضراب بالسيف خاصة.
(٦) كناية عن شدة اندلاع الحرب.
(٧) قصد الميمنة والميسرة لأنها على جانبي الجيش.
(٨) جريح العراك الخائر القوى.
(٩) من خيار أتباع الإمام علي كرّم الله وجهه هو وأخيه سليمان. انظر الإصابة جـ١ ص٥٨٢.

فقام رجل من عبد القَيْس من أصحاب عليّ فقال: ندعوكم إلَى كتاب الله، فقالوا: كيف يَدْعونا إلَيْه مَن لا يستقيمُ ولا يُقيم حدودَ الله؟ وقد قُتِل كَعْب بن سُور داعي الله ورمتْه رَبيعة رَشْقًا واحدًا فقتلوه! ودعتْ يَمَنُ الكوفة يَمَنَ البصرة فرشقوهم، وأبَى أهلُ الكوفة إلاَّ القتال، ولم يُريدوا إلاَّ عائشَة، فذكَّرتْ أصحابَها، فاقتتلوا، حتى تنادَوْا فتحاجَزوا، ثم رجعوا فاقتتلوا، وتزاحَف الناس، فظهرتْ يَمَنُ البصرة علَى يَمَنِ الكوفة فهزمتْهم ورَبيعةُ البصرة علَى رَبيعة الكوفة فهزمتْهم، ثم عاد يَمَنُ الكوفة فقُتل علَى رايتهم عشرة: خمسة من هَمْدان وخمسة من سائر اليمن، فلما رأى ذلك يَزيدُ بن قَيْس أخَذَها فثبَتتْ في يده. ورجعتْ رَبيعة الكوفة فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فقُتل علَى رايتهم وهم في الميسرة زَيد وعبد الله بن رقبة وأبو عبيدة بن راشد بن سُلْمى وهو يقول: «اللهمَّ أنت هدَيْتنا من الضلالة، واستنقذتنا من الجَهالة، وابتلَيْتنا بالفتنة، فكنَّا في شُبْهة وعلَى رِيبة» حتى قتل.

واشتدَّ الأمر حتَّى لزقَتْ مَيْمَنةُ أهل الكوفة بقَلْبهم، ومَيْسَرةُ أهل البصرة بقَلْبِهم، ومنعوا مَيْمنة أهل الكوفة أن يختلطوا بقَلْبهم وإنْ كانوا إلَى جَنْبهم، وفَعَل مثلَ ذلك مَيْسرةُ أهل الكوفة بمَيْمَنة أهل البصرة.

فلما رأى الشُّجعانُ من مُضَرِ الكوفة والبصرة الصبرَ تنادَوْا: طَرِّفوا[1] إذا فرَغ الصبر. فجعلوا يقصدون الأطراف الأيدِيَ والأرْجُلَ، فما رُؤي وقعة كانت أعظمَ منها قبلها ولا بعدها ولا أكثَرَ ذِراعًا مقطوعة ورِجلاً مقطوعة! وأُصيبتْ يَد عبد الرحمٰن بن عَتَّاب قبلَ قتْله.

فنظرتْ عائشةُ عن يَسارها، فقالت: مَن القومُ عَن يَساري؟ فقال صَبِرة بن شَيْمان: بَنُوكِ الأزْد. قالت: يا آل غَسَّان حافظوا اليوم فجِلادكم الَّذي كنَّا نسمع به! وتمثَّلتْ: [من الطويل]

وجالَدَ من غسَّانَ أهلُ حفاظِها وهِنْبٌ وأوسٌ جالدتْ وشبيبُ[2]

فكانت الأزْدُ يأْخذون بَعَرَ الجمل فيشَمُّونه ويقولون: بَعْرُ جَمل أُمِّنا رِيحُه ريحُ المِسك!

وقالت لمَن عن يَمينها: مَن القومْ عن يَميني؟ قالوا بكْر بن وائل. قالت: لكم يقول القائل: [من الطويل]

وجاؤوا إلَيْنا في الحديد كأنَّهم من العِزَّةِ القَعْساء بَكْرُ بْنُ وائلِ[3]

---

(١) يريد استهداف أطراف المحارب من يد أو رجل.
(٢) رواه ابن الأثير في الكامل. انظر جـ٣ ص٢٤٧.
(٣) القعس: الراسخ الثابت.

إنّما بإزائكم عبد القيْس. فاقتتلوا أشدَّ من قتالهم قبل ذلك.

وأقبلتْ علَى كتيبة بَيْن يَدَيْها فقالت: مَن القوم؟ قالوا بَنُو ناجية. قالت: بَخٍ بَخٍ[١]! سُيوفٌ أبْطحِيَّةٌ[٢] قُرَشية! فجالدوا جِلادًا يُتفادَى منه.

ثم أطافت بها بنو ضبة، فقالت: وَيْهًا[٣]! جَمْرة الجَمَرات[٤] فلما رقُّوا خالطهم بنو عَدِيّ بن عبد مَناة، وكثروا حَولها، فقالت: مَن أنتم؟ قالوا: بنو عَدِيّ خالطنا إخواننا، فأقاموا رأسَ الجمل، وضربوا ضربًا ليس بالتعذير[٥]، ولا يَعْدِلون بالتَّطْريف[٦]، حتَّى إذا كثر ذلك وظهر في العسكرين جميعًا رامُوا الجمل، وقالوا: لا يزولُ القومُ أو يُصْرَعَ الجمل. وصارت مَجَنِّبَتا[٧] عليّ إلَى القَلْب، وفعل ذلك أهلُ البصرة، وكره القَوْمُ بعضُهم بعضًا.

وأخذ عَمِيرَةُ بن يَثْربيّ رأسَ الجمل، وكان قاضي البصرة، فقال عليّ: مَن يَحمل علَى الجمل؟ فانْتَدب له هِنْد بن عمرو الجملي المُرادي، فاعترضه ابْنُ يَثْربيّ، فاختلفا ضربتين، فقتله ابن يثربي ثم حمل عِلْباءُ بن الهَيْثَم، فقتله ابن يَثْربيّ، وقُتل سَيْحان بن صُوحان، وارْتُثَّ صَعْصَعة، فنادَى عَمار بنُ ياسر ابْنَ يَثْرِبيّ: لقد عُذْتَ بحَرِيز[٨] وما إلَيك من سبيل فإن كنتَ صادقًا فاخرُجْ من هذه الكتيبة إلَيّ. فترَكَ الزِّمامَ في يد رجل من بني عَدِيّ وخرج، حتَّى إذا كان بَيْن الصفَّين تقدَّم عَمّار، وهو ابنُ تسعين سنة، وقيل أكثر من ذلك، وعلَيْه فَرْوٌ قد شَدَّ وسطه بحبل من لِيف، وهو أضعف من بارَزه، فاسْتَرْجَع الناسُ وقالوا: هذا لاحقٌ بأصحابه! فضربه ابْنُ يَثْربيّ، فاتّقاه عمّار بدَرَقته[٩]، فنشِبَ سَيفُه فيها، فعالجه فلم يخرجُ، وأسَفَّ[١٠] عمّار لرجلَيْهِ فضربه فقطَعَهما، فوقع علَى اسْتِه وأُخذ أسيرًا، فأُتِيَ به إلى عليّ، فقال: اسْتَبقِني! فقال: أبَعْدَ ثلاثة تقتلُهم؟ وأمر به فقُتل، وقيل: إنَّ المقتول عَمْرو بن يَثْرِبيّ[١١] وإنَّ عمِيرة بقِيَ حتَّى وليَ قضاءَ البصرة مِن قَبل مُعاوية.

---

(١) كلمة تقال للتهنئة والتبريك.

(٢) ليست النسبة للسيوف ولكن لحملة السيوف من مكة، الأبطح موضع بين جبلي مكة.

(٣) تقال للإغراء والحث.

(٤) قيل إن جمرات العرب ثلاث، منهم بنو ضبة، والتجمير اللحمة في الجماعة، راجع خزانة الأدب جـ١ ص٣٦.

(٥) التعذير: التقصير، أراد لم يقصروا.

(٦) أي لم يثنهم تقطيع أطرافهم.

(٧) أراد الميمنة والميسرة.

(٨) حريز: من الحرز أي الحصن.

(٩) الدرقة: آلة حرب مصنوعة من الجلد المقوى أو المحشو تقوم للمحارب مقام الترس.

(١٠) أسف: الطائر إذ حاذى الأرض بطيرانه، وأراد أنه انحنى.

(١١) انظر الترجمة لعمرو في الإصابة جـ٣ ص١١٩.

قال: ولما قُتل ابنُ يَثربيّ تَرك العَدَوِيُّ الزِّمامَ بيد رجل من بني عَدِيّ، وبرز، فخرج إلَيْه رَبيعة العُقَيْليّ، فاقتتلا، فأثْخَنَ كلٌّ واحد منهما صاحبه، فماتا جميعًا.

وقام مقام العَدَوِيّ الحارث الضَّبِّيُّ، فما رُؤي أشدّ منه، وجعل يقول: [من الرجز]

* نحن بني ضَبَّةَ أصحابُ الجَمَلْ *

* نُبارِزُ القِرْنَ إذا القِرْنُ نَزَلْ *

* نَنْعَى ابْنَ عَفَّانَ بأطرافِ الأَسَلْ *

* المَوتُ أحلَى عندنا من العَسَلْ *

* رُدُّوا علَيْنَا شَيْخَنا ثُمَّ بَجَلْ[1] *

وارْتُجِزَ غَيرُ ذلك.

فلم يَزَل الأمرُ كذلك حتَّى قُتِل علَى خِطام الجمل أربعون رجلًا، قالت عائشة: ما زال جملي معتدلاً حتَّى فقدت أصوات بني ضَبَّة. قال[2]: وأخذ الخِطام سبعون رجلًا من قُرَيش، كُلُّهم يُقْتَلُ وهو آخذٌ بخطام الجمل.

وكان محمد بن طَلْحة[3] مِمَّن أخذ بخِطامه، وقال: يا أُمّاه مُريني بأمرِكِ. قالت: آمُرُكَ أن تكونَ كخَيْرِ ابْنيْ آدَمَ إنْ تركت[4]. فجعل لا يَحمل عليه أحدٌ إلاَّ حمل وقال: «حمٓ لا ينحصَرون»[5] واجتمع علَيه نَفَرٌ كُلُّهم ادَّعَى قتْلَه، فأنفذه بعضهم بالرُّمح، ففي ذلك يقول: [من الطويل]

وأشْعَثَ قَوَّامٍ بآياتِ ربِّه قليلِ الأذَى فيما تَرَى العَيْنُ مُسْلِمِ

---

(١) نسبت هذه الأبيات في الإصابة جـ٣ ص١١٩ إلى عمرو بن يثربي الضبي، وليست مذكورة في أسد الغابة جـ٤ ص١٣٠. بجل: حسب.

(٢) راجع تاريخ الطبري جـ٤ ص٥١٨.

(٣) محمد بن طلحة بن عبيد الله القرشي. كان كثير الصلاة، شديد الاجتهاد في العبادة، قتل يوم الجمل مع أبيه سنة ست وثلاثين، وكان هواه مع علي كرّم الله وجهه إلاّ أنه أطاع أباه فلما رآه الإمام علي قتيلاً قال كرّم الله وجهه: هذا السجاد قتله برب بأبيه. راجع أسد الغابة جـ٤ ص٣٢٢.

(٤) المعنى غير واضح الدلالة، فإذا أرادت أن أحد ولدي آدم قال له: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ ...﴾ [المائدة: ٢٨] فالمقام لا يستدعي ذلك، وحالها معروف من إثارة الناس ودفعهم للطلب بدم عثمان.

(٥) ﴿حمٓ﴾ استفتاح للسور غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية والأحقاف وكلها الآية ١.

هتَكْتُ لـه بـالـرمح جَيْبَ قـمـيصـه فـخَرَّ صَـرِيـعًـاف لِـلْـيـدَيْـنِ ولِـلْـفَـم

يُذَكِّرُني حامِيمَ[1] والرمْحُ شاجِرٌ[2] فـهَـلاَّ تَـلاَ حَـامِـيـمَ قَـبْـلَ الـتـقـدُّمِ

علَى غَيْرِ شيءٍ غَيْر أنْ لَيْسَ تابعًا علـيًـا، ومَـن لا يَـتْـبَـعِ الـحَـقَّ يَـنْـدَمِ

قال: وأخذ الخطام عمرو بن الأشرف، فجعل لا يدنو منه أحد إلا خَبَطه بالسَّيف، فأقبل إليه الحارث بن زهير وهو يقول: [من الرجز]

* يـا أُمَّـنـا[3] يـا خَـيْـرَ أُمٍّ نـعـلـمُ *

* أمَـا تَـرَيْـنَ كـم شـجـاعٍ يُـكْـلَـمُ[4] *

* وتُـخْـتَـلَـى هـامَـتُـهُ[5] والـمِـعْـصَـمُ *

فاخْتلفا ضربتَيْن، فقَتَل كلُّ واحد منهما صاحِبَه. وأحْدَق أهلُ النَّجدات والشجاعة بعائشة، فكان لا يأخذ الخطام أحدٌ إلاَّ قُتِل، وكان لا يأخذه والراية إلاَّ معروفٌ، فينتسب: «أنا فلان ابن فلان»، فإنْ كانوا لَيُقاتلون علَيْه وإنَّه لَلْمَوْتُ لا يُوصَل إلَيْه إلاَّ بطَلبه[6]! وما رامَهُ[7] أحدٌ من أصحاب عليّ إلاَّ قُتِل أو أفلت ثمَّ لم يَعُد، وحمل عديّ بن حاتم عليهم ففُقِئتْ عينه. وجاء عبد الله بن الزُّبَيْر ولم يتكلم، فقالت عائشة: مَن أنت؟ قال ابْنُكِ وابنُ أُختِكِ. قالت: واثُكْلَ أسماء! فانتهى إلَيه الأشْتَر فضربَه الأشترُ علَى رأسه، فجرحه جرحًا شديدًا، وضربه عبدُ الله ضربةً خفيفة، واعْتَنَق كلُّ واحدٍ منهما صاحِبَه، وسقطا علَى الأرض يعتركان، فقال عبدُ الله بن الزُّبَير: «اقْتُلُوني ومالكًا»[8] فلو يعلمون مَن «مالِكٌ» لقتلوه، إنَّما كان يُعْرَف بالأشْتَر[9] فحمل أصحابُ عليّ وعائشة فخلصوهما.

---

(١) إشارة إلى الاستفتاح القرآني بـ ﴿حمٓ﴾ قد دلل محمد بن طلحة له.

(٢) منه تشاجرت الرماح إذا اختلف القوم وتنازعوا برماحهم، واشتجرت الرماح تنازع بأيدي أصحابها.

(٣) أراد أم المؤمنين رضي الله عنها. (٤) من الكلم وهو الجرح.

(٥) أخلاه من هامته إذا قطعها.

(٦) تصحيف لا يعني بمداد الكلام على ما هو عليه. وكأنه أراد أنه مجاز إلى الموت.

(٧) طلبه.

(٨) وتتمته في الكامل جـ٣ ص٢٥١ واقتلوا مالكًا معي.

(٩) الأشتر النخعي: مالك بن الحارث بن عبد يغوث بن مسلمة بن ربيعة النخعي، والأشتر لقبه، قيل إنه شج باليرموك فقاح جرحه إلى عينه فشُترت، راجع لباب الآداب للأمير أسامة بن منقذ ص١٨٧ ـ ١٨٨.

قال: وأخذ الخِطامَ الأَسْوَدُ بن أبي البَخْتَرِيّ القرشي فقُتل[١] وأخذه عمرو بن الأشرف الأزدي فقتل، وقتل معه ثلاثة عشر رجلاً من أهل بَيْته، وجُرح عبد الله بن الزُّبَير سبعًا وثلاثين جراحة من طعنة ورمية وضربة، وجُرح مَرْوانُ بن الحَكَم.

فنادَى عليّ: اعْقِروا الجملَ فإنَّه إن عُقِرَ تفرَّقوا. فضربه رجل، فسقط، فما سُمع صوتٌ أشدُّ من عَجِيجه.

وقيل في عَقْر الجمل: إنَّ القَعْقاع لقِيَ الأَشْتَرَ وقد عاد من القتال عند الجمل، فقال: هل لك في العَوْد؟ فلم يُجِبْه، فقال: يا أَشْتَرُ بعضُنا أعلمُ بقتال بعضٍ منك. وحمَل القَعْقاعُ، والزِّمامُ مع زُفَرَ بن الحارث الكِلابيّ، وكان آخِر من أخذ الخِطامَ، فلم يَبْقَ شَيخ من بني عامر إلاَّ أُصيب قُدَّام الجمل، وزحَف القعْقاع إلى زُفَرَ بن الحارث، وقال لبُجَيْر بن دُلَجَة ـ وهو من أصحاب عليّ ـ: يا بُجَيْرُ صِحْ بقولك فلْيَعْقِروا الجمل قبل أن يُصابوا أو تُصابَ أمُّ المؤمنين. فقال بُجَيْر: «يا آل ضَبَّة، يا عمرو بن دُلَجَة، ادْعُ بي إلَيْك» فدعاه، فقال: أنا آمِن حتَّى أرجعَ عنكم؟ قالوا: نعم. فاجتَثَّ ساقَ البَعير، فرمَى بنفسه علَى شِقِّه وجَرْجَر[٢] البَعيرُ، قال القَعْقاع لمن يَليه: أنتم آمِنون واجتمع هو وزُفَرُ علَى قطْع بِطَان الجَمل وحملا الهَوْدَجَ فوضعاه، وإنه كالقُنْفُذِ لما فيه من السِّهام، ثم أطافا به، وفرَّ مَن وراء ذلك من الناس.

فلمَّا انْهزموا أمر عليٌّ مناديًا فقال: ألاَ لا تتبعوا مُدْبرًا، ولا تُجهزُوا عَلَى جَريح[٣] ولا تدخلوا الدُّور.

وأمر عليّ نفرًا أن يحملوا الهَوْدَج من بَيْنِ القتلَى، وأمر أخاها محمد بن أبي بكر أن يضرب علَيْها قُبَّة، وقال انظُرْ: هل وصل إليها شيءٌ من جِراحة؟ فأدخل رأسَه هَوْدجها، فقالت: مَن أنت؟ فقال: أبْغَضُ أهلِكِ إلَيْك. قالت ابْنُ الخَثْعَمِيَّة[٤]؟ قال: نعمْ. قالت: الحمد لله الذي عافاك.

---

(١) جاء في الطبري روايتان متناقضتان إحداهما جـ٤ ص٥١٩ تقول بقتله، وأخرى جـ٤ ص٥٥٥ تقول بنجاته. وفي الإصابة جـ١٠ ص٤٢ ما يؤيد ذلك.

(٢) جرجر البعير إذا ردد صوته في حنجرته غيظًا.

(٣) أي أن لا يتبع فارٌ، ولا يقتلُ من به رمق.

(٤) يعني أمه أسماء بنت عميس، هاجرت إلى الحبشة وكانت زوجة لجعفر بن أبي طالب الطيار رضوان الله عليه، تزوجها أبو بكر رضي الله عنه بعد استشهاد جعفر الطيار بمؤتة. راجع ترجمتها بالتفصيل في أسد الغابة جـ٥ ص٣٩٥.

وقيل: لما سقط الجمل أقْبَلَ محمد بن أبي بكْر وعَمّار بن ياسر إلَيْه، فاحتملا الهَوْدَج، فنحَّيَاه، فأدخل محمد يَدَه فيه، فقالت: مَن هذا؟ قال: أخوكِ البَرّ قالت: عُقُق! قال: يا أُخَيَّةُ هل أصابكِ شيءٌ؟ قالت: ما أنتَ وذاك؟ قال: فمَنْ إذًا الضُّلاَّل؟ قالت: بل الهُداة! وقال لها عَمّار: كيف رأيتِ بَنِيكِ اليومَ يا أُمّاه؟ قالت: لستُ لك بأُمّ! قال: بَلَى وإنْ كرهْتِ. قالت: فَخَرْتم أنْ ظَفِرْتُم وأتَيْتُم مِثلَ الَّذي نَقَمْتُم هَيْهات واللّهِ لن يَظفَرَ مَن كان هذا دَأْبه! فأبرزوا هَوْدَجها، فوضعوها لَيْس قُرْبَها أحد.

وأتاها عليّ فقال: كَيف أنتِ يا أُمَّه؟ قالت: بخَيْر. قال: يَغْفِرُ اللّهُ لَكِ. قالت: ولَكَ.

وجاء أعين بن ضُبيعَة المُجاشِعِيّ حتى اطَّلع في الهودج، فقالت إلَيْكَ لَعَنَك الله! فقال: والله ما أرَى إلا حُمَيْراء[1]. فقالت هَتَكَ اللّهُ سِتْرَك وقَطَع يَدَك وأبْدَى عَوْرتك! فقُتل بالبصرة وسُلِبَ وقُطِعَتْ يَدُه ورُمِيَ عُرْيانًا في خَرِبةٍ من خربات الأزْد!

ثم أتَى وُجوهُ الناسِ إلَى عائشة، وفيها القَعْقاع بن عمرو، فسلَّم علَيها، فقالت: واللّهِ لَوَدِدْتُ أني متُّ قبْلَ هذا اليوم بعشرين سنة!

وكان عليّ يقول بعد الفراغ من القتال: [من الرجز]

* إلَيْكَ أشْكو عُجَرِي وبُجَرِي[2] *
* ومَعْشَرًا أغْشَوا عَلَيَّ بَصَرِي *
* قتلتُ منهم مُضَرِي بِمُضَرِي *
* شفَيْتُ نَفْسِي وقتلتُ مَعْشَرِي! *

قال: ولمّا كان الليلُ أدخل محمدُ بن أبي بكر عائشةَ البصرة، فأنزلها في دار عَبد الله بن خَلَفِ الخُزاعي[3] ـ وهي أعظمُ دارٍ في البصرة ـ علَى صَفِيَّةَ بنت الحارث بن طَلْحة بن أبي طَلْحة بن عبد العُزَّى، وهي أمّ طَلْحَةِ الطَّلَحاتِ بن عبد الله بن خَلَف.

وتسلَّل الجرحَى من بَيْن القَتْلى فدخلوا البصرة.

---

(١) كناية عن قول رسول الله ﷺ لعائشة «حميراء».

(٢) العجر: عروق منعقدة في الظهر، والبجر عكسها وتستخدمان كناية عن الهم ظاهره وباطنه. ولم يثبت هذا القول عن علي كرّم الله وجهه، لأنه يناقض سيرته ومذهبه في القول.

(٣) راجع ترجمته في أسد الغابة جـ٣ ص١٥١.

وأقام عليّ بظاهِر البصرة ثلاثًا، وأذِنَ للناس في دفن مَوْتاهم، فخرجوا إلَيْهم فدفنوهم، وطاف عليّ في القتلَى، فلما أتَى كَعْبَ بن سُور قال: «أزَعَمتم أنّما خرج معهم السفهاءُ وهذا الحبْرُ قد ترَون!» وجعل كلَّما مَرَّ برجل فيه خَيْر قال: «زَعَم مَن زَعَم أنه لم يخرج إلينا إلا الغوغاء وهذا العابدُ المجتهدُ فيهم!» وصلى عليّ على القتلى مِن بَيْن الفريقَيْن، وأمَرَ فدُفِنَت الأطراف في قبر عظيم، وجَمع ما كان في العسكر من شيء وبعث به إلَى مسجد البصرة، وقال: مَن عرف شيئًا فلْيأْخذْه إلاّ سلاحًا كان في الخزائن علَيْه سِمَةُ السلطان.

قال[١]: وكان جميع القتلَى عشرة آلاف، نصفُهم من أصحاب عليّ، ونصفُهم من أصحاب عائشة، حكاه أبو جعفر الطبري. وقال غيره: ثمانية آلاف. وقيل: سبعةَ عشرَ ألفًا. قال أبو جعفر: وقُتل من ضَبَّة ألفُ رجل، وقُتل من عَدِيّ حَول الجمل سبعون كلُّهم قد قرأ القرآن سوَى الشباب ومَن لم يقرأ.

قال: ولمّا فرغ عليّ من الواقعة أتاه الأحنَفُ بن قَيس في بني سعد، وكانوا قد اعتزلوا القتال، كما ذكرنا، فقال له عليّ: لقد تربَّصْتَ. فقال: ما كنتُ أراني إلاّ قد أحسنت، وبأمرك كان ما كان يا أميرَ المؤمنين، فارْفُقْ، فإنَّ طريقَكَ الّذي سلكتَ بعيد، وأنت إليَّ غدًا أحْوَجُ منكَ أمسِ، فاعْرِفْ إحساني، واستَصْفِ مَوَدَّتي لِغَدٍ، ولا تقُلْ مِثْلَ هذا فإنّي لم أزَلْ لك ناصحًا[٢].

ثم دخل عليّ البَصرةَ يومَ الاثنين، فبايَعه أهلُها، حتَّى الجرحَى والمُسْتأمِنة، واستعمل عليّ عبدَ الله بنَ عبّاس علَى البَصْرة، وولَّى زيادًا الخراجَ وبَيتَ المال، وأمرَ ابْنَ عبّاس أن يسمعَ منه ويُطيعَ وكان زياد معتزِلاً.

ثم راح عليّ رضي الله عنه إلَى عائشة في دار عبد الله بن خَلَفٍ الخُزاعي، فوجد النساءَ يبكِين علَى عبد الله وعُثمانَ ابْنَيْ خَلَف، وكان عبد الله قتل مع عائشة، وعثمان قتل مع علي، وكانت صفية زوجة عبد الله مختمرة تبكي، فلما رأته قالت له: يا علي، يا قاتل الأحبّة، يا مُفرقَ الجمع، أيْتَم اللّهُ منك بَنِيكَ كما أيْتَمْتَ ولَدَ عبدِ الله منه. فلم يرُدّ علَيها شيئًا، ودخل علَى عائشة فسلّم علَيها وقعد عندها، ثم قال: جَبَهَتْنا صفيّة. أمَا إنّي لم أرَها منذ كانت جارية! فلما خرج أعادت علَيه القول، فكفَّ بَغلتَه، وقال: لقد همَمْتُ أن أفتَحَ هذا الباب ـ وأشار إلَى باب في الدار ـ وأقتُلَ مَن فيه وكان فيه ناس من الجرحَى فأُخبر بمكانهم، فتغافلَ عنه.

---

(١) يعني ابن الأثير في الكامل ج٣ ص٢٥٥.

(٢) راجع النص باختلاف يسير عند الطبري ج٤ ص٥٣٥.

قال: ولمّا خرج مِن عند عائشة قال له رجل من الأزد: واللّهِ لا تغلِبُنا هذه المرأة! فغضب وقال: «مَهْ[1]، لا تَهْتِكُنَّ سترًا، ولا تدخلُنّ دارًا، ولا تَهيجُنَّ امرأةً بأذًى، وإنْ شتَمْنَ أعراضَكم، وسفَّهْنَ أُمراءَكم وصلَحاءَكم، فإنَّ النساء ضعيفات، ولقد كنّا نُؤمَرُ بالكفِّ عنهنَّ وهنَّ مُشركات، فكَيْفَ إذا كُنَّ مسلمات؟» ومضى، فلحِقه رجل فقال: يا أميرَ المؤمنين، قام رجلان علَى الباب فتناولا مَن هو أَمَضُّ شتيمة لك من صفيّة. فقال: وَيْحك لعلّها عائشة! قال: نعمْ، قال أحدُهما: [من الرجز]

* «جُـزِيـتِ عَـنّـا أُمَّـنـا عُـقـوقـا» *

وقال الآخر: [من الرجز]

* «يـا أمَّـنـا تُـوبـي فـقـد خَـطِـيـتِ» *

فبعث القعقاعَ بْنَ عَمرو إلَى الباب، فأقبلَ علَى مَن كان علَيه، فأحالوا علَى رجلَيْن من أَزْد الكوفة، وهما عجْلانُ وسعد ابنا عبد الله فضربهما مائةَ سَوط، وأخرجهما من ثيابهما.

قال: وسألتْ عائشةُ رضي الله عنها عَمَّنْ قُتل من الناس معها وعلَيها، فكُلَّما نُعِيَ واحدٌ من الجميع قالت: رحمه الله! فقي لها كيف ذلكِ؟ قالت: كذلك قال رسول الله ﷺ فلان في الجنة وفلان في الجنة.

ثم جهَّز عليّ رضي الله عنه عائشةَ بكُلّ ما ينبغي لها من مَرْكب وزادٍ ومتاع وغيرِ ذلك، وبعث معها كُلَّ مَن نجا ممَّن خرج معها إلاَّ من أحبَّ المقام، واختار لها أربعين امرأة من نساء البصرة المعروفات، وسيَّر معها أخاها محمدَ بن أبي بكر رضي الله عنهم. فلمَّا كان اليومَ الذي ارتحلتْ فيه أتاها عليّ فوقف لها، وحضر الناس، فخرجتْ وودعوها وودَّعَتْهم وقالت: يا بَنيَّ، لا يعتِب بعضُنا على بعض، إنه والله ما كان بيني وبين عليّ في القديم إلاَّ ما يكون بين المرأة وأحْمائها، وإنه علَى مَعْتَبتي لَمِنَ الأخيار. فقال عليّ رضي الله عنه: صدقتْ والله ما كان بيني وبينها إلا ذاك، وإنَّها لَزَوجة نبيِّكم في الدنيا والآخرة.

وكان خروجها من البَصرة يَومَ السبت غُرَّةَ شهر رجب سنة ستٍّ وثلاثين، وشيَّعها عليّ أميالاً، وسَرَّح بَنيه معها يَومًا. وتوجَّهتْ إلى مكّة، فأقامت إلَى الحجّ، فحجَّت، ثُم رجعتْ إلَى المدينة.

---

(١) للزجر.

قال: ولمّا فرغ عليّ من بَيْعة أهل البصرة نظَر في بيت المال، فرأى فيه ستّمِائة ألفٍ وزيادة، فقسمها علَى من شهد معه، فأصاب كلَّ رجل منهم خمسُمِائة درهم، فقال لهم: إنْ أظفركم اللّهُ بالشام فلكم مثلُها إلَى أعْطياتكم، فخاض في ذلك السَّبَئِيَّة، ووطعَنوا علَى عليّ مِنْ وراءَ وراءَ[1]، وطعنوا فيه أيضًا حين نهاهم عن أخذ أموالهم، فقالوا: يُحِلُّ لنا دماءهم ويُحرِّم علَيْنا أموالَهم!

قال: وأراد عليّ رضي الله عنه المُقامَ بالبَصرة لإصلاح حالها، فأعجَلَته السَّبَئِيَّة عن المُقام، فإنَّهم ارتحلوا بغَيْر إذْنه، فارتحل في آثارهم، لِيقْطعَ علَيهم أمرًا إنْ أرادوه.

فلْنَرجعْ إلَى مَقْتَل طلحة والزبير.

ذكر مقتل طلحة
رضي الله عنه وشيءٍ من أخباره

هو أبو محمد طَلْحةُ بن عُبَيْد الله بن عُثمانَ بن عَمرو بن كَعْب بن سعد بن تَيْم بن مُرَّة بن كعب بن لُؤَيّ بن غالب القرشي التَّيْمِي.

وهو أقرب العشرة إلَى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، يجتمع نسبُه مع نسب أبي بكر في عَمْرو بن كعب بن سعد.

ويجتمع نَسَبُه ونسبُ رسول الله ﷺ، في مُرَّة بن كعب.

وأم طلحة: الحَضْرَمِيَّة، وهي الصَّعْبة بنت عبد الله بن عباد بن مالك بن ربيعة بن أكبر بن مالك بن عويف بن مالك بن الخَزْرَج بن إياد بن الصَّدِف من حَضْرَمَوْتَ من كِنْدَةَ، يعرف أبوها عبدُ الله بـ«الحَضْرَمِيّ».

ويعرف طَلحة بـ«طَلْحة الخَير» و«طلحة الفيّاض». قيل سُمِّيَ بالفيَّاض لأنَّه اشترَى مالاً بموضع يقال له «بيسَانَ»[2]، فقال رسولُ الله ﷺ: «ما أنت إلا فيَّاض»، فسُمِّيَ بذلك من يومِئذ.

---

(١) وراء وراء: يراد منها الدس والنم، والقول بدون إظهار.

(٢) بيسان: موضع بالحجاز، وبيسان يعني الملح. مرَّ به رسول الله ﷺ فقال نعمان وهو طيب. واشتراه طلحة وتصدّق به فقال رسول الله ﷺ لطلحة: «ما أنت يا طلحة إلا فياض» راجع كتاب الروض المعطار للحميري، تحقيق عباس ص١٢٠.

وهو رضي الله عنه أَحَدُ العشرة المشهود لهم بالجنَّة، وأَحَدُ الستة أصحاب الشُورَى الذين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ[(١)].

وآخَى رسولُ الله ﷺ بَيْنَه وبَيْن كَعْب بن مالك[(٢)] حين آخَى بين المهاجرين والأنصار، وقسم له سهمه وأجره يومَ بَدر. وقد تقدم خبره في ذلك.

ثم شهِد أحُدًا وما بعدها، وأبْلَى يَوْمَ أحُدٍ بَلاءً حسنًا، ووقَى رسولَ الله عليه الصلاة والسلام بنفسه، اتَّقَى عنه النَّبْلَ بِيده حتى شُلَّت إصبعُه وضُرب في رأسه، وحَمل رسولَ الله عليه الصلاة والسلام علَى ظهره حتى صعِد الصخرةَ، فقال عليه السلام لأبي بكر رضيَ الله عنه: «اليوم أَوْجَبَ طَلحةُ[(٣)] يا أبا بكر»[(٤)].

يُروَى أنَّ رسولَ الله ﷺ نظرَ إلَيه فقال: «مَن أحبَّ أن ينظرَ إلَى شهيد يمشي علَى وجه الأرض فلْيَنْظُرْ إلَى طَلحة»[(٥)].

وحكى أبو عُمر بن عبد البر رحمه الله فقال: زعم بعضُ أهله العلم أنَّ عليًا رضي الله عنه دعاه يومَ الجمل، فذكَّره أشياءَ مِن سوابقه وفضْلِه، فرجع طَلحةُ عن قتاله، علَى نحو ما صنعَ الزُّبَير واعتزل في بعض الصفوف، فرُمِيَ بسهم، فقطع من رجله عِرْقَ النَّسا، فلم يزل دمُه ينزفُ حتَّى مات. ويقال: إنَّ السهم أصاب ثُغْرة نَحْره، وإنَّ الذي رماه مَرْوانُ بن الحَكَم وقال: لا أطلبُ بثأري بعد اليوم. وذلك أنَّ طلحة - فيما زعموا - كان مِمَّن حاصَرَ عُثمان واشتد عليه. قال ابن عبد البر: ولا يختلفُ العلماءُ في أن مَرْوانَ بن الحكم قَتَل طلحةَ يومَئِذٍ، واستدلَّ على ذلك بأخبار رواها من قول مروان تدل علَى أنه قاتِلُه[(٦)].

قال: وقد رُوي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: واللّهِ إنِّي لأرجو أن أكونَ أنا وعثمانُ وطَلحةُ والزُّبَيرُ مِمَّن قال الله تبارك وتعالى فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ۝٤٧﴾ [الحجر: ٤٧].

---

(١) برواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
(٢) كعب بن مالك بن عمرو بن القين الأنصاري من بني سلم، وهو من الخزرج صحابي شاعر.
(٣) في الحديث حذف، أراد ﷺ منه أن الجنة قد وجبت له.
(٤) راجع الحديث في الرياض النضرة ج٢ ص٢٥١ بتخريج فتح الله، رفعت من نهاية الإرب.
(٥) راجع ابن ماجة مقدمة صفحة ١١ (المعجم المفهرس).
(٦) وهذه أقرب الروايات إلى الصواب نظرًا لما عرف من مروان بن الحكم وحبه للانتقام وميله إلى سفك الدماء.

وروى أبو عمر بسنده إلَى قَيْس بن أبي حازم قال: رمَى مَرْوانُ طَلْحةَ يَومَ الجمل بسهم في رُكبته، فجعل الدّمُ يَسيل، فإذا أمسكوه استمسك وإذا تركوه سال، فقال: دَعُوه فإنَّما هو سهم أرسله الله. قال فمات، فدفَنَّاه علَى شاطىء الكَلاَّء[1]، فرأى بعضُ أهله أنه أتاه في المنام فقال: «ألاَ تريحونني من هذا الماء فإني قد غرقتُ!» ثلاثَ مِرَار يقولها، قال: فَنَبَشوه فإذا هو أخضر كأنَّه السِّلْق، فنَزَحوا[2] عنه الماءَ، فاستخرجوه، فإذا ما يَلِي الأرضَ مِن لحيته ووجهه قد أكلته الأرض، فاشتَرَوْا له دارًا من دُور آل أبي بكر بعشرة آلاف، فدفنوه فيها.

وروي أيضًا بسنده إلَى عليّ بن زيد عن أبيه أن رجلاً رأى فيما يَرَى النائمُ أنَّ طَلحة بن عُبَيد الله قال: «حَوِّلُوني عن قبري فقد آذاني الماء!» ثم رآه، حتَّى رآه ثلاث ليال، فأتَى ابْنَ عبّاس فأخبره، فنظروا فإذا شِقُّه الذي يَلِي الأرضَ في الماء، فحوَّلوه، قال: فكأني أنظر إلَى الكافُور في عينَيْه لم يتغيَّر إلاَّ عَقِيصته[3] فإنها مالت عن موضعها.

وقتل رضي الله عنه وهو ابنُ ستِّين سنة، وقيل: ابن اثنتين وستِّين، وذلك يَوم الجَمل، لعَشْرٍ خَلَوْنَ من جُمادَى الآخِرةِ سنة ستٍّ وثلاثين.

وكان رضي الله عنه رجلاً آدَمَ، حَسَن الوجه، كثيرَ الشَّعر، ليس بالجعد القطط[4] ولا بالسَّبْط[5] وكان لا يغيّر شعره.

وسمع عليٌّ رجلاً يُنشد: [من الطويل]

فتىً كان يُدْنيه الغِنَى من صديقه ... إذا ما هو اسْتغْنَى، ويُبْعِدُهُ الفَقْرُ

فقال: ذاك أبو محمد طَلحةُ بن عُبَيد الله.

وحكى الزُّبَيْر[6] أنَّه سمع سُفْيان بن عُيَيْنة[7] يقول: كانت غَلَّةُ طَلحة بن عُبَيد الله ألْفًا وافيًا كلَّ يَوم! قال: والوافي وزنه وزن الدِّينار، وعلَى ذلك وزن دراهم فارس التي تُعرف بالبغلية.

---

(١) مرفأ للسفن على شاطىء النهر بالبصرة. (٢) نزح الماء من البئر إذا أفرغها أو رفعها.
(٣) الشعر إذا عقص وهو إدخال أطراف الشعر في أصوله.
(٤) إذا كان كثير التجعيد. (٥) إذا كان منبسطًا مرسلاً.
(٦) عنى الزبير بن بكار صاحب الرياض النضرة. راجع الرياض النضرة جـ٢ ص٢٥٨.
(٧) أبو محمد الهلالي، راوٍ ومحدّث. توفي سنة ١٩٨هـ.

ذكر مقتل الزبير بن العوام
رضي الله عنه وشيء من أخباره

هو أبو عبد الله الزُّبَيْر بن العَوَّام بن خُوَيْلد بن أسَد بن عبد العُزَّى بن قُصَيّ، القرشي الأسَدي.

وأمُّه صفِيّة بنت عبد المُطَّلب، عَمَّةُ رسول الله ﷺ.

وهو أحَدُ العشرة المشهودِ لهم بالجنة، وأحدُ الستَّة أصحاب الشُّورَى، وهو قديم الإسلام، واختُلف في سنِّه يَوم أسلم، فقيل: خمسَ عشرةَ سنة، وقيل ست عشرة، وقيل: اثنتي عشرة سنة، وقيل: ثماني سنين. والأول أصح.

وآخَى رسولُ الله ﷺ بَيْنه وبين عبد الله بن مسعود[١] حين آخَى بين المهاجرين، ولما آخَى بين المهاجرين والأنصار آخى بينه وبين سَلمة بن سَلاَمَة بن وَقْش[٢].

وكان له رضي الله عنه من الولَد ـ فيما حكاه بعضهم ـ عشرة، وهم: عبد الله وعُرْوَة ومُصْعَب والمُنْذِر وعمرو وعبيدة وجعفر وعامر وعمير وحمزة.

وكان الزُّبَيْر رضي الله عنه أوّل من سَلَّ سَيفًا في سبيل الله، وذلك أنه نُفِخَتْ فيه نَفْخةٌ مِن الشَّيطان: «أُخِذَ رسولُ الله علَيه الصلاة والسلام»، فأقْبَلَ يشُقُّ الناسَ بسَيفه، والنبيُّ ﷺ بأَعْلَى مكَّة، فقال له رسولُ الله: ما لَكَ يا زُبَير؟ قال: أُخْبِرْتُ أنك أُخِذْتَ! فصلَّى علَيه ودعا له.

ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الزُّبَيْر ابْنُ عَمَّتي وحَوارِيِّي مِن أمَّتي»[٣]. وقال: «لِكُلِّ نَبيٍّ حَوارِيّ، وحَوارِيِّي الزُّبير». وسمع ابن عُمَر رضي الله عنه رجلاً يقول: «أنا ابن الحَوارِيّ»، فقال إن كنتَ ابْنَ الزُّبَيْر وإلاَّ فلا.

وذكر[٤] في معنى «الحَوارِيّ»: الخالص، وقيل الخَليل، ولذلك قال جرير:

أفبعدَ مقتلهم خليلُ محمد[٥] ترجو القُيونُ مع الرسول سبيلا

---

(١) ابن غافل بن حبيب بن شمخ بن فار بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل... راجع ترجمته في أسد الغابة جـ٣ ص٢٥٩.

(٢) ابن زغبة بن زعوراء بن عبد الأشهل الأنصاري. راجع ترجمته في أسد الغابة جـ٢ ص٣٣٦.

(٣) راجع صحيح البخاري باب الجهاد ٤٠ و٤١، وكذا باقي الأحاديث (المعجم المفهرس).

(٤) عن ابن عبد البر في الاستيعاب.

(٥) قصد: الزبير والبيت من قصيدة ذكر المحققان في طبعة الهيئة العامة للكتاب لنهاية الأرب أن قيل هذا البيت:

إني تذكرني الزبير حمامة تدعو بمجمع نخلتين هديلا

وقيل: الحَوَارِيّ: الناصرُ. وقيل: الصاحبُ المستخلص.

وجَمَع رسولُ الله ﷺ أبَوَيْه للزُّبَيْر مَرَّتَين: يَوْمَ أُحُد ويَوْمَ بني قُرَيْظة، فقال: «ارْمِ فداك أبي وأُمِّي!»[١].

قال أبو عمر بن عبد البر: وكان الزبير تاجرًا! مَجْدودًا[٢] في التجارة، قيل له يَومًا: بِمَ أدركتَ في التجارة ما أدركتَ؟ فقال: لأني لَمْ أشترِ غَبْنًا[٣] ولم أردُدْ رِبْحًا واللّهُ يُبارك لمن يشاء.

ورُوي عن كعب قال: كان للزُّبَيْر ألفُ مملوك يؤدُّون إلَيه الخَراج فما يُدخِل بَيْتَه منه درهمًا واحدًا. يعني أنه كان يتصدق بذلك.

وكان سبب قتله رضي الله عنه أنَّه لما انصرف من وقعة الجمل وفارَق الحرب مرَّ بالأَحْنَف فقال: هذا الذي جمع بَيْن المسلمين حتَّى ضرب بعضُهم بعضًا ثم لحق ببَيْته! ثم قال للناس: مَن يأْتيني بخبره؟ فقال عَمْرو بن جُرْمُوز: أنا.

وقيل: إنَّ الزُّبَيْر لمَّا انصرف نزل بعَمْرو بن جُرْمُوز، فقال له: «يا أبا عبدِ الله، جنَيْتَ حربًا ظالمًا أو مظلومًا ثمَّ تنصرف! أتائبٌ أم عاجز؟» فسكت عنه الزُّبَيْر، ثم عاودَه، فقال: ظُنَّ فيَّ كلَّ شيءٍ غَيْرَ الجبْن. فانصرف عنه ابْنُ جُرْمُوز وهو يقول: «والَهْفي علَى ابن صفيّة! أضرمها نارًا ثم أراد أن يلحَقَ بأهله! قتلني اللّهُ إن لم أقتُلْه!» ثم رجع إليه كالمتنصِّح[٤]، فقال: «يا أبا عبدِ الله دُونَ أهلِكَ فَيافٍ، فخذْ نَجيبي[٥] هذا وخَلِّ فرسَك ودِرْعَك، فإنهما شاهدان علَيك بما نكره». وأراد بذلك أن يلقاه حاسِرًا[٦]، ولم يَزَلْ به حتَّى تركهما عنده وأخذ نَجيبَه، وسار معه ابْنُ جُرْمُوزٍ كالمُشَيِّع له، حتَّى انتهَيَا إلَى وادي السِّباع[٧]، فاسْتَغْفله ابْنُ جُرْمُوز وطعَنه. وقيل: إنَّه اتبعه إلَى الوادي فقتله وهو في الصلاة. وقيل: بل قتله وهو نائم.

---

(١) راجع صحيح البخاري باب الجهاد ص٨٠.
(٢) من الجد وهو الحظ أي كان كثير الحظ.
(٣) لم أخدع في الشراء.
(٤) الناصح.
(٥) بعيري السريع.
(٦) المحارب الحاسر: الذي لا درع ولا لامة تقيه.
(٧) وادي السباع: موضع بالبصرة على طريق المدينة. راجع كتاب الروض المعطار للحميري ص٦٠٣.

وفي ذلك تقول عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نُفَيل العَدَوية زوجته ترثيه[١]: [من الكامل]

غَـدَرَ ابـنُ جُـرْمُـوزٍ بـفـارسِ بُـهْـمَـةٍ يَـومَ الـلـقـاءِ وكـان غَـيْـرَ مُـعَـرِّدِ[٢]

يـا عَـمْـرُو لـو نـبَّـهْـتَـه لـوَجـدتَـه لا طائشًا رَعِشَ الجَنانِ[٣] ولا اليَدِ

كـم غَـمْـرةٍ[٤] قـد خـاضـهـا لـم يَـثْـنِـهِ عنها طِرادُكَ يا ابْنَ فقعٍ[٥] القردد[٦]

ثَـكِـلَـتْـكَ أُمُّـكَ إن ظَـفِـرْتَ بـمـثْـلـه فـيـمـا مـضـى مِـمَّـنْ يَـروحُ ويَـغـتـدي

الـلّـهِ رَبِّـك إنْ قَـتَـلْـتَ لَـمُـسْـلِـمًـا حَـلّـتْ عـلـيـك عُـقـوبـةُ الـمُـتـعـمِّـدِ[٧]

قال: فلمّا رجع برأسه وسَلَبِه قال له رجل من قومه: «فضَحتَ واللّهِ اليَمَنَ أوّلَها وآخِرَها بقتلك الزُّبَيْرَ رأسَ المهاجرين وفارسَ رسول الله ﷺ وحَوارِيَّه وابْنَ عَمَّتِه! واللّهِ لو قتلتَه في حرب لَعَزَّ ذلك علَينا ولَمَسَّنا عارُك! فكيف في جِوارِك وحرمك؟!».

قال: وأتَى ابْنُ جُرْمُوزٍ عَلِيًّا، فقال لحاجبه: استأْذِنْ لقاتل الزُّبَيْر. فقال عليّ رضي الله عنه ائْذَنْ له وبَشِّرْهُ بالنار، قد سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: بَشِّرْ قاتِلَ ابْنِ صَفِيَّةَ بالنار! فقال ابْنُ جُرْموزٍ: [من المتقارب]

أتَـيْـتُ عـلـيًّـا بـرأسِ الـزُّبَـيْـ ـرِ أرجـو لَـدَيْـه بـه الـزُّلْـفَـةْ[٨]

فـبَـشَّـرَ بـالـنـار إذْ جـئـتُـهُ فَـبِـئْـسَ بِـشـارةُ ذِي الـتُّـحْـفَـةِ

وسِـيـانِ عـنـدي قـتْـلُ الـزُّبَـيْـرِ وضَـرْطَـةُ عَـيْـرٍ بِـذِي الـجُـحْـفَـةِ[٩]

وحكى أبو عمر بن عبد البر في كتابه المترجم بـ«الاستيعاب»[١٠] من رواية عمرو بن جاوان عن الأحنف بن قيس قال: لما بلغ الزبير سَفَوان موضعًا بالبصرة

---

(١) انظر الأغاني جـ٦ ص١٢٦.

(٢) على خلاف ما ذكر أكثر المفسرين من أن المعرِّد تعني الهارب، فإنني أجد أن المعنى لا يستقيم إلاّ باعتبار المعرد: الصلب القوي وفيه مجاز حيث إن الزبير لم يكن لابسًا للحرب لبوسها، ويؤكد ذلك أن أكثر معاني مادة ع ر د تعني الغلظ والشدة، لا سيما وأن الاشتقاق الصرفي للكلمة لا يساعدنا على اعتبار الهرب والنكول.

(٣) الجنان: الفؤاد. (٤) الغمرة: المعمعة.

(٥) الفقع: الكمأة، أو أردأ أنواعها.

(٦) أرض مستوية غليظة مرتفعة. والمراد أنه لم يكن ذليلًا أو هينًا.

(٧) القاتل العمد. (٨) القربى.

(٩) أورد ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة الأبيات بتغيير واضح. راجع شرح نهج البلاغة جـ١ ص٧٩.

(١٠) انظر الاستيعاب جـ١ ص٥٨٥.

كمكان القادسيّة من الكوفة لقِيَهُ النعر[١] رجل من بني مُجاشع فقال: «أين تذهب يا حَوارِيَّ رسولِ الله؟ إلَيَّ، فأنت في ذِمَّتي لا يوصَل إلَيك»، فأقبل معه، وأتَى إنسان الأحنفَ فقال: هذا الزُّبَير قد لُقِيَ بسَفَوان، فقال الأحْنَف: «ما شاء اللّهُ كان، قد جمع بَيْن المسلمين حتَّى ضرَب بعضهم حواجِبَ بعضٍ بالسُّيوف، ثم يلحق ببَيْته وأهله!!» فسمعه عميرة بن جُرمُوزٍ[٢] وفَضالة بن حابس ونُفَيْعٌ في غُواة[٣] من غُواة بني تَميم، فركبوا في طلبه، فلقوه مع النعر، فأتاه عميرةُ بن جُرْمُوزٍ مِن خَلْفه وهو علَى فَرَس له ضعيفة فطعنه طعنة خفيفة، وحمل علَيه الزُّبَيْرُ علَى فرس له يقال له «ذو الخِمَار»[٤]، حتى إذا ظنَّ أنه قاتله نادَى صاحبَيْه: «يا نُفَيْعُ يا فَضالة» فحملوا علَيه حتَّى قتلوه... قال[٥]: وهذا أصحُ مما تقدَّم.

وكان مقْتَلُه يَومَ الخميس لِعشرٍ خَلَوْنَ من جُمادَى الآخِرة سنةَ ست وثلاثين.

وكانت سِنُّه يومَ قُتِلَ سبعًا وستِّين سنة، وقيل ستًّا وستين.

وكان الزُّبَيْر رضي الله عنه أسمر رَبْعَةً معتدِلَ اللحم خفيفَ اللحية.

وقال حَسّان بن ثابت يمدح الزُّبَيْر ويفضِّله: [من الطويل]

أقـامَ عـلَـى عَـهْـدِ الـنـبـيِّ وهَـدْيِـهِ ... حَـوَارِيُّـهُ والـقَـوْلُ بـالـفـعـلِ يُـعْـدَلُ
أقـامَ عـلَـى مِـنـهـاجِـهِ وطـريـقِـه ... يُـوَالـي ولـيَّ الـحـقِّ والـحـقُّ أعْـدَلُ
هو الفارِسُ المشهورُ والبطلُ الذي ... يـصُـولُ إذا مـا كـان يَـوْمٌ مُـحَـجَّـلُ[٦]
وإن امْـرَأً كـانـتْ صَـفِـيـةُ أُمـهُ ... ومَـنْ أسَـدٌ فـي بَـيْـتـه لَـمُـرَفَّـلُ[٧]
لَـهُ مِـن رَسُـولِ الـلّـهِ قُـرْبَـى قَـريـبَـةٌ ... ومِنْ نُصْرة الإسلام مَجْدٌ مُؤَثَّلُ[٨]
فـكَـمْ كَـرَّةٍ ذَبَّ[٩] الـزُّبَـيْـرُ بـسـيْـفِـه ... عن المُصْطَفى واللّهُ يُعْطِي ويُجْزِلُ
إذا كشَفَتْ عن ساقها الحربُ حَشَّها[١٠] ... بأبْيَضَ سَبّاقٍ إلَى الموتِ يُرْقِلُ[١١]
فـمـا مِـثْـلُـهُ فـيـهـم ولا كـان قـبـلَـهُ ... ولَيْسَ يكونُ الدَّهرَ ما دام يَذْبُلُ[١٢]

---

(١) النعر بن الزمام المجاشعي.
(٢) عمرو وعميرة وعمير بن جرموز واحد.
(٣) غاوٍ، مفردها، وهي الضال السادر.
(٤) فرس الزبير بن العوام يوم الجمل.
(٥) ابن عبد البر في الاستيعاب.
(٦) معروف.
(٧) الرافل: المتبختر الزاهي بنفسه.
(٨) مؤثل: طيب الأعراق.
(٩) ذبّ: دافع ناصرًا.
(١٠) حش: والصواب فيها أحش، والمعنى أشعل.
(١١) ومنه الناقة المرقال، أي السريعة.
(١٢) رووا أنه جبل في صحراء نجد والمراد ما دام الجبل.

ورُوِيَ عن عبد الله بن الزُّبَيْر رضي الله عنهما أنه قال: لـمَّا وقف الزُّبَيْر يَوْمَ الجَمَل دعاني، فقُمتُ إلَى جَنْبه، فقال: «يا بُنَيَّ: إنَّه لا يُقْتَلُ اليوم إلاَّ ظالـمٌ أو مظلوم، وإنِّي لا أراني إلاَّ سأُقتل اليَومَ مظلومًا، وإنَّ مِن أكبر هَمِّي لَدَيْني، أفَتَرَى دَيْنَنا يُبْقِي من مالِنا شَيئًا؟ وقال: يا بُنَي بع ما لنَا واقْضِ دَيْني. وأوْصَى بالثُّلث وثُلثه لِبَنِيه ـ يَعني بَني عبد الله بن الزُّبير ـ يقول: الثلث إليك فإنْ فَضَلَ مِن مالِنا فَضْلٌ بَعْدَ قضاءِ الدَّيْن فثُلثُه لوَلَدك. قال هشامٌ وكان بَعْضُ وَلَدِ عبدِ اللَّهِ قد وازَى بعضَ بَنِي الزُّبَيْر: خُبَيْبٌ وعَبَّاد[1]، وله يومَئِذٍ تسعةُ بَنين وتِسْعُ بنات. قال عبد الله فجعل يُوصِيني بدَيْنه ويقول: يا بُنَيّ إن عجزتَ عن شيءٍ منه فاستعِنْ علَيه مَولاي. قال[2]: فَوَاللَّهِ ما دَرَيْتُ ما أراد، حتَّى قلتُ: يا أبَتِ مَن مَوْلاك؟ قال: الله تعالى. فَوَاللَّهِ ما وقعتُ في كُرْبَةٍ من دينه إلاَّ قلتُ: «يا مَوْلَى الزُّبَيْر اقْضِ عنه دَيْنَه» فيَقْضِيَه.

فقُتل الزُّبَيْر رضي الله عنه ولم يَدَعْ دِينارًا ولا دِرهمًا إلا أرضِينَ[3] منها الغابةُ[4] وإحدَى عشرةَ دارًا بالمدينة ودارَيْن بالبصرة ودارًا بالكوفة ودارًا بمصر.

قال[5]: وإنَّما كان دَيْنُه الذي علَيه أنَّ الرجلَ كان يأْتيه بالمال فيَستودعُه إيّاه، فيقول الزُّبَيْر رضي الله عنه لا، ولكنَّه سَلَفٌ[6]، فإنِّي أخشَى علَيه الضَّيْعَة.

وما وَلِيَ إمارةً قَطُّ ولا جِبايَة خَرَاج ولا شَيْئًا إلاَّ أنْ يكون في غَزْوة مَعَ النبي ﷺ أو معَ أبي بكر أو عُمر أو عثمان رضي الله عنهم.

قال عبد الله بنُ الزُّبَيْر: فحسَبْتُ ما علَيه من الدَّين فوجدتُه ألْفَيْ ألْفٍ ومِائتَيْ ألْفٍ.

قال: فلقي حَكِيمُ بن حِزام عبدَ الله بنَ الزُّبَيْر فقال: يا ابْنَ أخي كَمْ علَى أخي من الدَّيْن؟ فكتَمه وقال: مِائةُ ألْفٍ. فقال حَكيمٌ: واللَّهِ ما أرَى أمْوَالَكم تَسَعُ لهذه. فقال له عبدُ الله: أفرأيْتَكَ إنْ كانت ألْفَيْ ألْفٍ ومِائتَيْ ألْفٍ؟ قال: ما أراكم تطِيقون هذا فإنْ عجزتم عن شيء منه فاستعينوا بي.

قال: وكان الزُّبَيْر رضي الله عنه اشترَى الغابةَ بسبعين ومِائةِ ألْف، فباعَها عبدُ الله بألْفِ ألفٍ وستمائةِ ألْف، ثم قام فقال: من كان له علَى الزُّبَيْر حقٌّ فلْيُوافِنا بالغابة. فأتاه عبد الله بن جعفر، وكان له علَى الزُّبَيْر أرْبَعَمِائة ألْف، فقال لعبد الله: إن شئتم تركتُها لكم. قال عبد الله: لا. قال: فإن شئتم جعلتموها فيما تؤخِّرون إن أخَّرتم.

---

(١) ولد عبد الله بن الزبير بن العوام. (٢) يعني عبد الله بن الزبير.

(٣) جمع أرض على أرضين والمداد بقاع من الأرض.

(٤) ضيعة للزبير في ضواحي المدينة المنورة.

(٥) عبد الله بن الزبير. (٦) قرض.

فقال عبد الله: لا. قال: فاقْطَعوا لي قطعةً. فقال عبد الله لك من هَهُنا إلى هَهُنا. فباع منها فقضَى دَيْنَه فأوْفاه، وبقِيَ منها أربعةُ أسْهُم ونصفٌ، فقدِم على مُعاويةَ وعنده عَمرُو بن عُثمان والمُنْذر بن الزبَير وابن زَمْعَةَ[١]، فقال له مُعاوية: كم قُوِّمَت الغابةُ؟ قال: كلُّ سهم بمائة ألف. قال: كم بَقِيَ؟ قال: أربعةُ أسْهُم ونصفٌ. فقال المُنْذِرُ بن الزُّبَير: قد أخذتُ سَهْمًا بمِائةِ ألف. وقال عَمرو بن عثمان: قد أخذتُ سهمًا بمِائةِ ألفٍ. وقال ابن زَمْعَةَ: قد أخذت سهمًا بمائة ألف. فقال مُعاوية: كم بَقِيَ؟ فقال: سهمٌ ونصفٌ. قال: أخذتُه بخمسين ومائة ألف. قال وباع عبد الله بن جَعْفر نصيبه مِن مُعاوية بستِّمِائة ألف.

قال: فلمَّا فَرَغ ابنُ الزُّبَير من قضاء دَينه قال بَنُو الزُّبَير: اقْسِمْ بَيْنَنا مِيراثَنا. قال: لا واللّهِ لا أقْسِمُ بَيْنكم حتَّى أُناديَ بالموْسِم أربعَ سِنين: «ألاَ مَن كان له علَى الزُّبَيْر دَيْنٌ فَلْيَأْتِنا فَلْنَقْضِه».

قال: فجعل كلَّ سنة ينادي بالموْسِم، فلمّا مضَى أربعُ سِنينَ قَسَم بَيْنَهم. قال: وكان للزُّبَير أربَعُ نسْوَةٍ، ورَفَعَ الثُّلث، فأصاب كلَّ امرأةٍ ألفُ ألفِ ومِائتا ألْفٍ، فجَمِيعُ مالِه خمسون ألفَ ألفٍ ومِائتا ألفٍ. هكذا أورده البُخاريُّ رحمه الله في صحيحه، وعَقَدَ جُملةَ المال في آخِره على ما ذكرنا[٢].

والذي دلّ علَيه الحسابُ أنَّ جُملةَ المال تسعةٌ وخمسون ألْفَ ألفٍ وثمانُمِائة ألف، وذلك أنَّ نصيبَ الزوجاتِ الأربع وهو الثُّمُنُ بعد وفاء الدَّيْن ورفْع الثلث الذي أوصَى به لبني عبد الله اشتمل علَى أربعة آلاف ألف وثمانِمِائة ألف، يُضْرب في ثمانية فتكون ثمانية وثلاثين ألْفَ ألفٍ وأرْبَعمِائة ألفٍ، ويكون ثُلُثُ الوصية وهو نصف هذه الجملة تسعةَ عشرَ ألْفَ ألفٍ ومائتي ألف، والدَّين ألفي ألف ومائتي ألف، فتخرج الجملة على ما ذكرناه.

ذكر وقعة صفين وابتداء أمرها

كانت وقعةُ صِفِّين[٣] في أواخِرِ سنة ست وثلاثين وأوائل سنةِ سبع وثلاثين.

---

(١) عبد الله بن زمعة.

(٢) ملاحظتان: الأولى تكوُّن الحلف الذي مهد للأموية، والثانية: البتراء الفاحش الذي تمتع به نفر من المسلمين الأوائل.

(٣) موضع معروف بالعراق على الفرات، يقال فيه صفون أيضًا، وجوّز بعضهم صفون في الرفع فقط، وهي أرض صحراوية فيها تلال وأكمات. راجع الروض المعطار للحميري تحقيق عباس ص٣٦٣.

وذلك أنه لما فرغ عليٌّ رضي الله عنه من حرب الجمل أقام بالبصرة، ثمَّ انتقل إلى الكوفة، وأرسل إلَى جرير بن عبد الله البَجَلي ـ وكان عثمانُ قد استعمله على هَمَذان ـ وإلَى الأشعَث بن قَيْس ـ وكان على أذْرَبِيجان ـ فأمَرهما بأخذ البيْعة والحضورِ إلَيه، ففعلا ذلك.

أراد عليٌّ أن يُرسلَ إلى مُعاوية رسولاً، فقال جَرير: أرسِلْني إلَيْه فقال الأشْتَرُ لعليّ: لا تفعلْ فإنَّ هَواه مع معاوية فقال عليّ دَعْهُ حتى نَنظُرَ ما يرجعُ به. فبَعَثه، وكتب معه إلَى مُعاوية يُعلمه باجتماع المهاجرين والأنصار علَيْه، وما كان مِن نكْثِ طَلحة والزُّبَيْر وحرْب الجملِ، ودعاه إلَى البَيْعة والدخولِ فيما دخل فيه المُهاجرون والأنصار.

فلما قدِم جَريرٌ عَلى مُعاويةُ ماطَلَه بالجواب، واستشار عَمْرَو بْنَ العاص، وكان قد قدِمَ علَيْه وانْضمَّ إلَيه، علَى ما نذكر ذلك إن شاء الله في أخبار مُعاوية، فأشار عمروٌ علَيه أن يجمعَ أهلَ الشام ويُلزمَ عَلِيًا دَمَ عُثمان، ففعل، فأجمع أهلُ الشام علَى حزب عليّ.

فعاد جرير إلى عليّ وأعلَمه ذلك، وأنَّ أهلَ الشام يبكون علَى عُثمان ويقولون: إنَّ عليًا قَتَله، وآوَى قتَلَته، وإنهم لا ينتَهُون عنه حتَّى يقتُلَهم أو يقتلوه. فقال الأشْتَرُ لعليّ: كنتُ نهَيْتُك عن إرسال جَرير، وأخبرتُك بعداوته وغِشه، فأبَيْتَ إلا إرسالَه. ثم تقاوَلَ الأشْتَرُ وجَرير مُقاولةً أدَّتْ إلى مُفارقة جَرير لعليّ ولَحاقه بمعاوية.

قال: وخرج عليّ رضي الله عنه، فعسكر بالنُّخَيلة[١]، وتخلَّف عنه نَفَرٌ من أهل الكوفة، منهم ميسرة الهمداني ومسعود[٢] أخذا أعْطِياتِهما وقصدا قَزْوين[٣]. وقدِمَ علَيه عبدُ الله بن العباس في أهل البَصْرة.

وبلَغ ذلك مُعاوية، فاستشار عمرَو بن العاص، فقال له: «أمّا إذا سار عليّ بنفسه في الناس فسِرْ بنفسك، ولا تغِبْ عنه برأيك ومَكِيدتك». فتجهَّز مُعاوية بأهل الشام، وقد حَرَّضَهم عَمرو وضعَّف عليًا وأصحابه، وقال: «إنَّ أهل العراق قد فرَّقوا جَمْعَهم ووهَّنوا شَوْكتهم، وفَلُّوا حَدَّهم، وأهلُ البَصرة مخالفونَ لعليٍّ بمن قُتِل منهم،

---

(١) موضع بالكوفة، مصغرًا باللفظ، وكثيرًا ما كان الإمام علي كرّم الله وجهه يخرج إليه فيخطب الناس. راجع الروض المعطار ص٥٧٦.

(٢) ذكر ابن الأثير ج٣ ص٢٧٩ مسروق بدلاً من مسعود.

(٣) ناحية من بلاد الديلم، وبينها وبين الري سبعة وعشرون فرسخًا. راجع كتاب الروض المعطار ص٤٦٥.

وقد تفانت صَنادِيدُهم وصناديدُ أهل الكوفة يَوْمَ الجمَلِ، وإنَّما سار عليٌّ في شِرْذِمة[١] قليلة، وقد قُتِلَ خَليفتُكم، فاللّهَ اللّهَ في حقِّكم أن تُضيِّعوه، وفي دَمِكم أنْ تُطِلُّوه!»[٢] وكتب معاوية في أجناد[٣] أهل الشام، وعَقد لِواءَ لعَمرو، ولواءَ لابنَيْه: عبدِ الله ومحمد، ولِواءَ لغُلامه وَرْدَان. وسار مُعاوية وتأنَّى في مَسيره.

قال: وبعث عليّ رضي الله عنه زيادَ بن النَّضر الحارثيّ في ثمانية آلاف، وبعث شُريْح بن هانىء في أربعة آلاف، وسار عليّ من النُّخَيْلَة، وأخذ معه مَن بالمَدائن[٤] من المُقاتلة، وولَّى علَى المدائن سعْدَ بن مسعود عَمَّ المختار بن أبي عبيد الثَّقفي، ووجه من المدائن مَعْقل بن قَيس في ثلاثة آلاف، وأمره أن يأخذ على المَوْصِل[٥] حتَّى يُوافِيَه علَى الرَّقَّة[٦].

فلما وصل عليّ الرقة قال لأهلها ليعملوا جِسْرًا يَعْبُر علَيه إلَى أهل الشام، فأبَوْا، وكانوا قد ضَمُّوا سُفُنَهم إلَيهم، فنهض مِن عندهم لِيعْبُر علَى جِسْر مَنْبِجَ، وخلف عليهم الأشْتَرَ، فناداهم الأشْتَرُ: «أُقْسِم باللّهِ لَئن لم تعملوا جِسرًا لأمير المؤمنين يَعْبُر علَيه لأجَرِّدَنَّ فيكم السَّيف، ولأقتُلَنَّ الرجال ولآخُذَنَّ الأموالَ!» فلقِيَ بعضُهم بعضًا وقالوا: «إنَّه الأشْتَرُ، وإنَّه قَمِنٌ[٧] أن يَفيَ لكم بما حَلَفَ علَيْه أو يأتيَ بأكثَرَ منه!» فنصَبوا جِسْرًا فعَبَرَ علَيه عليٌّ وأصحابُه.

قال: ولما بلَغَ عليّ الفُراتَ دعا زيادَ بن النَّضْر وشُرَيح بن هانىء فيمَن معهما فسرحهما أمامه نحو معاوية علَى حالهما الَّتي خرجا علَيها من الكوفة[٨]، وكان سبب

---

(١) الجماعة القليلة من الناس. (٢) تذهبونه هدرًا.

(٣) أجناد الشام خمسة: الأردن، حمص، دمشق، فلسطين وقنسرين. والواحد من الأجناد جند، تسمى كذلك لإقامة الجند المقاتلين فيها وهي آنذاك ما يعرف في أيامنا اليوم بالثكنات.

(٤) دار مملكة الأكاسرة وهي على سبعة فراسخ من بغداد منتشرة على حافتي دجلة، وفيها إيوان كسرى الذي وصفه البحتري الشاعر. انظر الروض المعطار ص٥٢٦.

(٥) الموصل: مدينة على الجانب الغربي من دجلة، وسميت كذلك لأنها وصلت بين الفرات ودجلة، وهي من أجناد العراق. راجع الروض المعطار ص٥٦٣.

(٦) الرقة: مدينة بالعراق، وهي واسطة بلاد مضر من مدنها الرها، وتقع على شارعة الفرات الشمالية. والرقة كل واد ينبسط عليه الماء أوان المد. راجع الروض المعطار ص٢٧٠ ومعجم ما استعجم ج٢ ص٦٦٦.

(٧) جدير.

(٨) الكوفة: أول المدن التي أقامها المسلمون، وهي مدينة كبرى، بنيت سنة ٥١٤ تمتد على معظم شاطىء الفرات، وتبعد عن بغداد ثلاثين فرسخًا. أخذ اسمها من جبل فيها يقال له عوفان. راجع الروض المعطار ص٥٠١.

عَوْدِهما أنَّهما أخذا مِن الكوفة علَى شاطىء الفُرات مما يَلِي البَرَّ، فلمّا بلغا عاناتِ[١] بَلَغَهما أنَّ مُعاوية قد أقبلَ في جُنود الشام، فقالا: «واللّهِ ما هذا لنا برأي، أن نسير وبيننا وبين المسلمين وأمير المؤمنين هذا البحر، وما لنا خَيْرٌ أن نَلْقَى جنودَ الشام بِقِلَّةِ مَن مَعنا» فذهبوا ليعبُروا من عانات، فمنَعَهم أهلُها، فرجعوا! حتَّى عبَروا مِن هيت[٢]، فلحِقوا عليًّا دُونَ قَرْقِيسيا[٣]، فقال عليّ: مُقَدِّمَتي تأتيني مِن وَرائي! فأخبره شُرَيح وزياد بما كان، فقال: سُدِّدْتُما. فلمّا عَبرَ الفُراتَ سَيَّرهما أمامَه.

فلمّا انْتَهَيا إلَى سُور الرُّوم لقيَهما أبو الأعور السُّلَمِيُّ في جُند من أهل الشام، فأرسلا إلَى عليّ فأعلماه.

فأرسل عليّ إلَى الأشتر، وأمره بالسرعة، وقال: «إذا قدمْتَ فأنت علَيهم، وإيَّاك أن تبدأ القومَ بقتال إلاَّ أن يبدؤوك، حتَّى تلقاهم فتدعُوَهم، وتسمعَ منهم، ولا يحمِلْك بغْضُهم علَى قتالهم قبل دُعائهم والإعذارِ إلَيهم مَرَّةً بعد مرة، واجعلْ علَى مَيْمنتك زِيادًا، وعلَى مَيْسرتك شُرَيحًا[٤]، ولا تَدْنُ منهم دُنُوَّ مَن يُريد أن يُنْشِبَ الحرب، ولا تَباعَدْ تَباعُدَ مَن يهاب البأس، حتَّى أُقْدِمَ علَيك، فإنِّي حَثِيثُ السَّير في أثرك إن شاء الله تعالى». وكتب إلَى شُرَيح وزياد بذلك، وأمرهما بطاعة الأشتر.

فسار الأشترُ حتَّى قدِم علَيهم، وكفَّ عن القتال، ولم يَزالوا مُتوقفين حتَّى إذا كان عند المساء حَمَل علَيهم أبو الأعْور، فثبَتوا له واضْطربوا ساعة، ثمَّ انصرف أهل الشام، وخرج إلَيهم من الغَد هاشمُ بن عُتبة المرقال[٥]، وخرجَ إلَيْه أبو الأعْوَر، فاقْتَتلوا يَومَهم، وصبرَ بعضُهم لبعض، ثمَّ انْصرفوا، وحمَل علَيهم الأشتر، وقال أَرُوني أبا الأعْوَر! فتراجَعوا، ووقف أبو الأعْوَر وراء المكان الذي كان فيه أوَّلَ مَرَّة،

---

(١) ناحية صغيرة قريبة من الفرات فيها أسواق وأعمال. للاستزادة راجع الروض المعطار ص٤٠٥، ومعجم ما استعجم جـ٣ ص٩١٤.

(٢) هيت: مدينة على الفرات بين الرحبة وبغداد، سميت هيت لأنها في هوة منخفضة. وقيل لغير ذلك. راجع الروض المعطار ص٥٩٧، ومعجم ما استعجم جـ٤ ص١٣٥٧.

(٣) قرقليسيا: موضع أو قرية بين الحيرة والشام، على الجانب الشرقي من الفرات. راجع الروض المعطار ص٤٥٥.

(٤) شريح بن هانىء بن يزيد الحارثي من الرجاز، شجاع مقدام، ومن أصحاب الإمام علي المقدَّمين، قتل غازيًا بسجستان. راجع الإصابة، ترجمة ٣٩٦٧.

(٥) هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، صحابي، خطيب، وهو ابن أخي سعد بن أبي وقاص، شهد القادسية مع سعد عمه، وفقد عينه يوم اليرموك، وفتح جلولاء، شهد حروب الإمام علي، كرّم الله وجهه، وقاد الرجالة في صفين وفيها قتل سنة ٣٧هـ. راجع رغبة الآمل جـ٣ ص١١٢ - ١١٣.

وجاء الأشترُ فصَفَّ أصحابه مَكانَ أصحاب أبي الأعوَر بالأمس، وقال الأشتر لسِنان بن مالك النَّخعِيّ: انْطَلِقْ إلَى أبي الأعْوَر فادْعُه إلَى البِراز. فقال: إلَى مُبارزتي أو مبارزتك؟ فقال: للأشتر لو أمرتك بمبارزته لفعلت. قال: «نَعَمْ واللّهِ لو أمرتَني أن أعْتَرِضَ صَفَّهم بسَيفي لَفعلتُ. فدعا له، وقال: إنَّما تدعو لمبارزتي. فخرج إلَيهم فقال: أمِّنوني فإنِّي رسول. فأمَّنوه، فانْتَهَى إلَى أبي الأعْوَر فقال له: إنَّ الأشترَ يدعوك إلَى أن تبارزَه. فسكت طويلاً، ثم قال: إنَّ خِفَّة الأشتر وسُوء رأيه حملاه عَلى إجلاء عُمَّال عُثمانَ عن العراق وتقبيح محاسِنه، وعلَى أنْ سار إلَيْه في داره حتَّى قتله وأصبح متَّبَعًا بدمه، لا حاجةَ لي في مُبارزته. فقال له سِنانٌ: قد قلتَ فاستمِعْ مِنِّي أُجِبْكَ. قال: لا حاجةَ لي في جوابك، اذْهَبْ عنِّي. فصاح به أصحابُه، فانصرفَ عنه، ورجع إلَى الأشتر فأخبَرَه، فقال: لنفسه نَظَرَ. فوقفوا حتَّى حجزَ اللَّيلُ بَيْنَهم وعاد[1]، الشاميُّون من الليل.

وأصبح عليّ رضي الله عنه غُدْوَةً عند الأشتر، وتقدَّم الأشترُ ومَن معه فانْتَهَى إلَى مُعاوية، فواقفه، ولحق بهم عليّ، فتَواقَفوا طويلاً.

ثمّ إنَّ عليًا طلب لعَسْكَره مَوضعًا ينزِلُ فيه، فكان مُعاوية قد سبق فنزل منزلاً اختاره بَسيطًا واسعًا أفْيَحَ، أخَذَ شَريعة[2] الفُرات، ولَيْس في ذلك الموضع شَرِيعةٌ غَيْرُها، وجعل مُعاوية علَى الشَّريعة أبا الأعْوَر.

فأتَى الناسُ عليًا، فأخبروه بفعلهم، وتعطَّشَ الناس، فدعا صَعْصَعةَ بن صُوحان[3]، فأرسله إلَى مُعاوية يقول: «إنَّا سِرْنا مَسِيرَنا هذا ونحن نَكْرَهُ قِتالَكم قبل الإعذار إلَيْكم، فقدَّمْتَ إلَيْنا خَيْلَك ورجالك فقاتلتنا قبل أن نُقاتلك، وبدأْتَنا بالقتال ونحن مِن رأيِنا الكفُّ حتَّى ندعُوَك ونحتجَّ علَيْك، وهذه أخرَى قد فعلتموها، منعتم الناسَ من الماء، والناسُ غيرُ مُنْتَهِينَ أو يشربوا، فابْعَثْ إلَى أصحابك فلْيُخَلُّوا بَيْنَ الناس وبين الماء، ولْيَكُفوا لِنَنْظُرَ فيما بَيْنَنا وبَيْنكم وفيما قَدِمْنا له، فإنْ أردتَ أن نترك ما جئنا له ونقتتِلَ علَى الماء حتّى يكونَ الغالِبُ هو الشاربَ فعَلْنا». فجاء صَعْصَعةُ إلَى مُعاوية وقصَّ علَيْه الرسالةَ، فاستشار مُعاويةُ أصحابه وقال: ما تَرَوْن؟ فقال الوَلِيدُ بن

---

(١) رجعوا وتركوا القتال. راجع الطبري جـ٤ ص٥٦٨.

(٢) على مورد يُستقى منه الماء الجاري كالنهر وسواه.

(٣) صعصعة بن صوحان بن حجر بن الحارث العبدي الكوفي، سيد من أسياد عبد القيس، خطيب بليغ عاقل شاعر. من أصحاب الإمام علي كرّم الله وجهه، شهد معه صفين، ونفاه المغيرة من الكوفة بعد استتباب الأمر لمعاوية إلى جزيرة (أوال) في البحرين ويبدو أن قبره ومسجدًا باسمه لا يزالا معروفين في بلدة الكلابية البحرانية. وفيه أنه توفي سنة ٥٦هـ. راجع التهذيب لابن عساكر جـ٦ ص٤٢٣.

عُقْبَةَ[١] وعبد الله بن سَعْد: امْنَعْهم الماء كما منعوه ابْنَ عَفَّان، اقْتُلْهُمْ عَطَشًا قَتَلَهم اللّٰهُ! فقال عَمرو بن العاص: «خلِّ بَيْنَ القوم وبين الماء فإنَّهم لن يَعْطَشوا وأنت رَيَّان، ولكن بغير الماء فانظر فيما بَينك وبَينهم» فأعاد الوَلِيدُ وابْن سَعد مَقالتهما، قالا: «امْنَعْهم الماءَ إلَى الليل، فإنْ هم لم يَقدِرُوا علَيْه رجعوا، وكان رجوعهم هزيمة، امنَعْهم الماء منعهم اللّٰهُ يَوْمَ القيامة! قال صَعْصَعة: إنَّما يمنعه اللّٰهُ الفَجَرَةَ وشَرَبَةَ الخمر، لَعَنك الله ولعن هذا الفاسق ـ يعني الوَليد بن عقبة ـ فشتموه وتهدَّدُوه. وقد قيل: إنَّ الوليد وابن أبي سَرْح[٢] لم يَشْهدا صِفِّين.

ورجع صَعْصَعةُ فَأَخْبَرَ بما كان... وسَيَّر مُعاويةُ الخيلَ إلَى أبي الأعْور لِيَمْنَعَهم الماء. فلمّا سمع عليّ ذلك قال لأصحابه: قاتِلوهم علَى الماء!

فقال الأشعَثُ بن قَيْس الكِنديّ[٣]: أنا أسير إلَيْهم. فسار إلَيهم، فلما دَنَوْا منهم ثاروا إلَى وجوههم يَرْمُونهم بالنَّبْل، فترامَوْا ساعة، ثم تَطاعنوا بالرِّماح، ثم صاروا إلَى السيوف فاقتتلوا بها ساعة.

وأرسل مُعاوية يَزيدَ بن أسَدِ البَجَليّ القَصْري[٤]، جَدَّ خالدِ بن عبد الله في الخَيل إلَى أبي الأعْوَر، فاقتتلوا. وأرسل عَليّ شَبَثَ بن رِبْعِيّ الرياحي فازداد القتال.

---

(١) ابن أبي معيط الأموي القرشي، كنيته أبو وهب، هو أخو عثمان بن عفان لأمه، عرف بظرفه ومجونه ولهوه، أسلم يوم فتح مكة، ولاه عثمان الكوفة سنة ٢٥هـ وقد شهد عليه جماعة عند عثمان بشرب الخمر. قيل إنه اعتزل الفتنة بعد قتل عثمان، ولكنه رثاه وحرّض معاوية على الأخذ بثأره. توفي سنة ٦١هـ، ويبدو أنه لم يعتزل الفتنة لوجوده في جيش معاوية كما يتبين من النص أعلاه. راجع الإصابة ترجمة ٩١٤٩.

(٢) ابن أبي سرح بن الحارث بن حبيب القرشي العامري. وهو أخو عثمان من الرضاعة ويعرف باسم ابن أبي سرح. راجع أسد الغابة جـ٣ ص١٧٣.

(٣) الأشعث بن قيس بن معدي كرب الكندي، كنيته أبو محمد، أمير كندة في الجاهلية والإسلام، تولى حضرموت، امتنع عن تأدية الزكاة لأبي بكر، فحوصر فحصر وجيء به إلى أبي بكر، فزوجه أخته أم فروة. شهد من الفتوحات اليرموك وأصيبت عينه. كان مع الإمام علي في صفين على راية كندة، وله مواقف محيرة خلال تلك الحقبة، حتى أنه لا يُعلم على وجه الحقيقة سلامة موقفه، والآراء متضاربة فيه. ابنته جحدة زوجة الإمام الحسن بن علي، سمته باغراء من معاوية. والشعث تلبد الشعر. راجع خزانة الأدب للبغدادي جـ٢ ص٤١٥.

(٤) يزيد بن أسد بن كُرَز بن عامر، من بني الكاهن (شق) البجلي القسري يماني قحطاني، في صحبته اختلاف. كان من خاصة ثقات معاوية، وهو الذي كان على رأس البعثة لنجدة عثمان من معاوية، وقد تأخر بالدخول إلى المدينة للدفع عن عثمان يوم حُصر حتى (قال حاجزه قدِ) شهد صفين مع معاوية ومات قبله حوالي سنة ٥٥هـ. راجع أسد الغابة جـ٥ ص١٠٣.

فأرْسل مُعاوية عَمرو بن العاص في جند كثير، فأخذ يَمُدُّ أبا الأعْور ويزيدَ بن أسد.. وأرسل عليّ الأشْتَرَ في جمع عظيم وجعل يَمُدَّ الأشعث وشَبَثًا..

فاشتدَّ القِتالُ حتى خَلَّوا بَيْنهم وبين الماء، وصار في أيدي أصحاب عليّ، فقالوا: والله لا نسْقيه أهل الشام، فأرسل عليّ إلَى أصحابه أنْ خُذوا من الماء حاجتَكم، وخَلُّوا عنهم، فإن الله تعالَى نصرَكم علَيهم بِبَغْيِهم وظُلمهم.

ومكث عليّ رضي الله عنه يومَيْن لا يُرسلُ إلَيهم أحدًا ولا يأْتيه منهم أحد.

ذكر إرسال علي إلى معاوية وجوابه

قال: ثمّ دعا عليٌّ رضي الله عنه أبا عمْرَةَ بَشيرَ بن عَمْرو بن مِحْصَن الأنصاري وسعيدَ بن قيس الهَمَداني[1] وشَبثَ بن رِبْعِيّ التميمي[2]، فقال لهم: ائتوا هذا الرجلَ وادعوه إلَى الله تعالى وإلَى الطاعة والجماعة. فقال له شَبَث: يا أميرَ المؤمنين ألاَ نُطْمِعُه في سُلطانٍ تُوليه إيّاه ومَنْزلةٍ يكون له بها عندك أثَرَةٌ إنْ هو بايَعك؟ قال: انطلِقوا إليْه واحْتجُّوا عليه وانظروا ما رأيه. وكان ذلك أوّل ذي الحجة من سنة ست وثلاثين.

فأتَوْه فدخلوا علَيه، فابتدأ بَشِير بن عمرو الأنصاريُّ فحمد اللّهَ وأثنَى علَيْه، ثمّ قال: «يا معاوية إنَّ الدنيا عنك زائلة، وإنك راجع إلَى الآخرة، وإنَّ الله مُحاسِبُك بعملك ومُجازيك علَيه، وإني أنْشُدُك الله أن لا تفرِّقَ جماعةَ هذه الأمّة وأن لا تَسْفكَ دماءها بَيْنها». فقطع علَيه مُعاوية الكلامَ وقال: هلاَّ أوصَيْتَ بذلك صاحبَك؟ فقال «صاحبي ليس مِثْلَك، إنَّ صاحبي أحقَّ البريَّة كُلِّها بهذا الأمر في الفضل والدِّين والسابقةِ في الإسلام والقرابةِ بالرسول ﷺ» قال: فماذا تقول؟ قال: نأمرك بتقوَى الله وإجابةِ ابن عمِّك إلَى ما يدعو إلَيه من الحق فإنّه أسلمُ لك في دنياك وخَيْرٌ لك في عاقبة أمرك. قال معاوية: «ونترُكُ دَمَ عُثمان! لا واللّهِ لا أفعلُ ذلك أبدًا!»[3].

---

(١) ابن زيد بن مريب الهمداني. فارس نبيه جواد، من سلالة ملوك بني همدان. ثقة من خواص الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه. قاتل معه يوم صفين، وإليه رجع الهمدانيون في العراق. توفي حوالي سنة ٥٠هـ. راجع وقعة صفين.

(٢) شبث بن ربعي التميمي اليربوعي، من أهل الكوفة، كنيته أبو عبد القدوس. خرج مع المختار الثقفي. توفي حوالي سنة ٧٠هـ في الكوفة.

(٣) راجع النصوص أعلاه باختلاف عند ابن الأثير جـ٣ ص٢٨٥.

قال: فذهب سعيد بن قيس يتكلَّم، فبادره شَبَث بن رِبْعِيّ، فحمِد اللّهَ وأثنى عليه، ثم قال: «يا معاوية، قد فهمتُ ما ردَدْتَ عَلَى ابن مِحْصَن، وإنَّه واللّهَ لا يخفَى علَينا ما تطلب، إنك لم تجِدْ شَيْئًا تَسْتَغْوي به الناسَ، وتستميلُ به أهواءهم، وتستخلِصُ به طاعتَهم، إلاَّ قَوْلَك: قُتِلَ إمامُكم مظلومًا فنحن نَنطلب بدَمِه، فاستجاب لك سُفهاءُ طَغام[1]، وقد علمنا أنك أبطأت عليه بالنصر، وأحببت له القتلَ، لهذه المنزلة التي أصبحتَ تطلُب، ورُبَّ مُتَمَنّي أمرٍ وطالبه يحول الله دونه، وربما أوتيَ المتمني أمنيته وفَوق أُمْنِيَّته، وواللّهِ ما لَكَ في واحدة منها خير، واللّهِ إن أخطاك ما ترجو إنَّك لَشَرُّ العرب حالاً، وإنْ أصبْتَ ما تتمنَّاه لا تُصيبه حتَّى تستحقَّ مِنْ ربِّك صُلِيَّ[2] النار، فاتَّق اللّهَ يا مُعاويةُ، ودَعْ ما أنت علَيه، ولا تُنازع الأمرَ أهْلَه».

قال: فَحمِد اللّهَ مُعاويةُ، ثم قال: «أمَّا بَعدُ، فإنَّ أوَّلَ ما عرفتُ به سَفَهَك وخِفَّةَ حلْمِك أنَّك قطَعْتَ علَى هذا الحَسِيبِ الشريفِ سيِّدِ قوْمِه مَنْطِقَه، ثمَّ اعترضتَ بَعْدُ فميا لاَ عِلْمَ لك به، فقد كَذَبْتَ ولَؤُمْتَ أيُّها الأعرابيُّ الجلْفُ الجافي في كلِّ ما ذكرتَ ووصفتَ! انصرِفوا مِن عندي فلَيْس بَيْني وبَيْنَكم إلاَّ السَّيفُ!» وغضب، وخرج القَوْمُ، فقال له شَبَث «أتَهولُ بالسَّيف؟ أُقسم باللّهِ لَنُعَجِّلَنَّها إلَيك!».

فأتَوْا عليًّا رضي الله عنه فأخبروه بذلك. فكان عليٌّ يأمر الرجلَ ذا الشرف فيخرج ومعه جماعة من أصحابه، ويخرج إليه آخر من أصحاب معاوية ومعه جماعة، فيقتتلان في خَيْلهما، ثُمَّ ينصرفان. وكرهوا أنْ يُلقوا جمع أهل العراق بجمع أهل الشام خَشْيَةَ الاستئصال والهلاك.

فكان عليّ يُخرج مَرَّةً الأشْتَرَ، ومَرَّةً حُجْرَ بن عَدِيّ الكِندي[3]، ومرة شَبَث بن ربْعِيّ، ومَرَّةً خالد بن المعمّر، ومَرَّةً زِياد بن النَّضْر الحارثي، ومَرَّة زياد بن خَصَفة

---

(١) أوغاد الناس، وسواءٌ فيه الواحد والجمع.

(٢) حريقها.

(٣) حجر بن عدي بن معاوية بن جبلة الكندي ويعرف بحجر الخير، من مقدمي الصحابة شجاع. شهد القادسية من الفتوحات، وشهد مع الإمام علي الجمل وصفين. اعتقله زياد ابن أبيه في الكوفة، غب استتباب الأمر لمعاوية، وأرسله إلى هذا الأخير في دمشق وقتله في مرج عذراء من أعمال دمشق مع ثلة من أصحابه. راجع طبقات ابن سعد جـ٦ ص١٥١، وأسد الغابة جـ١ ص٣٨٥.

التَّيْميَّ، ومَرّة سعيد بن قيس الهَمْداني، ومرَّة مَعْقِل بن قَيْس الرِّياحي، ومَرَّة قيس بن سعيد الأنصاري. وكان الأشتر أكثر خروجًا.

وكان معاوية يخرج إلَيْهم عبد الرحمٰن بن خالد بنِ الوليد، وأبا الأعور السُّلَمي، وحبيب بن مَسْلَمة الفهري، وابن ذي الكَلاع الحميري، وعُبَيد الله بن عُمر بن الخطاب، وشرحْبِيل بن السِّمْط الكِندي، وحمزة بن مالك الهَمْداني.

فاقتتلوا أيّامَ ذي الحِجَّة كلّها، ورُبَّما اقْتتلوا في اليوم الواحد مرَّتَين.

ذكر الموادعة بين علي ومعاوية في شهر المحرم وما كان بينهما من المراسلة والأجوبة في الشهر

قال: وفي شهر المحرم سنة سبع وثلاثين جرت مُوادَعة[١] بين عليّ رضي الله عنه ومُعاويةَ بن أبي سفيان، توادَعا علَى ترْك الحرب بَيْنهما حتَّى ينقضِي الشهر، طمعًا في الصلح.. واختلفتْ فيه بَيْنهما الرسائل.

فبعث علي رضي الله عنه عَدِيَّ بن حاتم[٢] ويَزيد بن قَيْس الأرْحَبي وشَبَث بن رِبْعِيّ وزياد بن خَصَفَة.

فَتكلَّم عَدِيُّ بن حاتم، فحمد الله، فقال: «أمَّا بَعْدُ، فقد جئناك ندعوك إلَى أمْرٍ يجمع اللَّهُ به كلمتَنا وأُمَّتَنا، ويَحْقِن به الدماء، ويُصلح به ذاتَ البَيْن، إنَّ ابن عمِّك سيِّد المسلمين أفضلُها سابقة، وأحسنُها في الإسلام أثرًا، وقد استجمع له الناس، ولم يبْقَ أحدٌ غَيْرك وغير مَن معك، فاحذَرْ يا معاوية لا يُصيبك وأصحابك مثلُ يَوْم الجمل» فقال له مُعاوية: «كأنك جِئتَ مُهَدِّدًا لم تأت مُصْلحًا، هَيْهاتَ يا عَدِيّ، كلاَّ! واللّهِ إنِّي لابْنُ حَرْب[٣]، ما يُقَعْقَعُ لي بالشِّنان[٤]! وإنَّك واللّهِ لمِن المجلِبين[٥] علَى عُثمان، وإنك من قَتَلَتِه، وإني لأرجو أن تكونَ مِمَّنْ يقتله الله به».

---

(١) اتفاق على ترك الحرب بشروط وأوان.

(٢) ابن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي، صحابي من أمراء قومه، جودا عاقل، سيد بني طيىء في الجاهلية والإسلام. أسلم سنة ٩هـ. شارك في فتوح العراق، وشهد معظم فتوح علي، وفي يوم صفين فقئت عينه. توفي في الكوفة حوالي سنة ٦٨هـ، وقد عمر حتى ناهز المائة. أبو حاتم الطائي الجواد العلم. راجع الإصابة، الترجمة ٥٤٧٧.

(٣) جده الأعلى، لأنه معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب وفيه تورية لأن الاسم مرادف للحرب وهي نقيض السلم.

(٤) كناية عن الخامل يبحث بما لا خير له فيه رغبة أو رهبة. والشنان جمع شن وهي القربة البالية، والقعقعة: إحداث الصوت بالقرع أو التحريك.

(٥) المحرِّضين الذين أجلبوا على عثمان الرجال، وجلبوا له ما أتاه.

فقال شَبَث وزياد بن خصفَة جوابًا واحدًا: أتَيْناك فيما يُصْلحنا وإيَّاك، فأقبلْتَ تضرِب لنا الأمثال، دَع ما لا ينفع، وأجِبْنا فيما يعُمُّ نفعُه.

وقال يَزيدُ بن قَيس: إنَّا لم نأتِ إلاَّ لِنُبلِّغَك ما أُرسلْنا به إلَيك ونُؤَدِّيَ عنك ما سمِعْنا منك، ولم نَدَعْ أنْ ننصَحَ لك، وأن نذكُرَ ما تكونُ به الحُجَّةُ علَيك، ويَرجعُ إلَى الألفة والجماعة، إنَّ صاحِبَنا من قد عرف المسلمون فضيْلَهُ، ولا يخفَى علَيك، فاتَّقِ اللّهَ يا معاويةُ ولا تخالِفْه، فإنَّا واللّه ما رأينا في الناس رجلاً قَطُّ. أعْمَلَ بالتقوَى ولا أزْهَدَ في الدُّنيَا ولا أجْمَعَ لِخصال الخَير كلِّها منه».

فحمِد اللّهَ معاوية، ثم قال: أمّا بَعْدُ، فإنّكم دعَوتم إلَى الطاعَة والجماعة، فأمَّا الجماعة الَّتي دعوتم إلَيها فَنِعِمَّا هِيَ[١]، وأمّا الطاعة لصاحِبكم فإنَّا لا نراها، لأنَّ صاحِبَكم قتل خليفتَنا، وفرَّق جماعتَنا، وآوَى ثأْرَنا، وصاحِبُكم يزْعُمُ أنَّه لم يقتله، فنحن لا نرُدُّ علَيه ذلك، فلْيَدْفعْ إلَيْنَا قَتَلَةَ صاحِبنا لِنقتلهم ونحن نُجيبكم إلَى الطاعة والجماعة.

فقال شَبَث بن رِبْعِيّ: يا مُعاويةُ أيسُرُّك أن تقتل عَمّارًا؟ قال «وما يمنعني مِن ذلك؟ واللّهِ لو تمكَّنتُ مِن ابْن سُمَيَّةَ[٢] لقتلْته بمولَى عُثمان!» فقال شَبَثُ: «والذي لا إلهَ غيرُه لا تصلُ إلَى ذلك حتّى تَنْدُرَ الهامُ[٣] عن الكواهِلِ[٤] وتضيقَ الأرضُ الفضاء علَيك!» فقال مَعاوية: «لو كان كذلك لكانت علَيك أضْيَقَ!» وتفرَّقَ القَوم.

وبعث مُعاوية إلَى زياد بن خَصَفة، فخلا به، وقال له: «يا أخا رَبيعة، إنَّ عليًا قطع أرْحامَنا، وقتل إمامَنا، وآوَى قَتَلَةَ صاحِبنا، وإنِّي أسألك النصرَ علَيه بعشيرتك، ثم لَكَ عَهْدُ الله وميثاقُه أنْ أُولِّيَك إذا ظهرتُ[٥] أيَّ المِصْرَيْن أحببْتَ» فقال زِياد: «أمّا بَعْدُ، فإنِّي على بَيِّنَةٍ مِن ربِّي، وبِما أنْعَمَ اللّهُ علَيَّ فلَنْ أكونَ ظَهيرًا للمجرمين!»[٦] وقام فقال مُعاوية لعَمرو بن العاص: ليس تكلَّم رجلاً منهم فيُجيب إلَى خَيْر، ما قلوبُهم إلاَّ كقلب واحد!

وبعث مُعاوية إلَى عليٍّ حَبِيبَ بن مَسْلَمة الفِهْرِيّ[٧] وشُرَحْبِيلَ بن السِّمْط،

---

(١) أراد مدحها.
(٢) أراد عمار بن ياسر الصحابي النقي العلم.
(٣) ندر الشيء من باب نصر. شذّ منه وسقط، وأندره أسقطه. أراد قطع الرؤوس.
(٤) الأكتاف.
(٥) انتصرت.
(٦) استئناسًا بقوله تعالى ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.
(٧) حبيب بن مسلمة بن مالك الفهري القرشي. من أصحاب الفتوحات لا سيما الرومية منها، خلص لمعاوية فأجزاه ولاية أرمينية التي توفي فيها حوالي سنة ٤٢هـ. راجع أسد الغابة جا ص٣٧٤.

ومَعْنَ بن يزيد بن الأخنس، فدخلوا علَيه، فحمِد اللّهَ حبيبٌ وأثنَى علَيْه، ثم قال: «أمَّا بَعْدُ فإنَّ عُثمانَ كان خليفَة مَهْديًا، يعمل بكتاب الله ويُنيبُ إلَى أمْره، فاسْتثقلتم حياتَه، واستبطأتم وَفاتَه، فعَدَوْتم علَيْه فقتلتموه، فادْفَعْ إلَيْنا قَتَلَةَ عُثمان إنْ زَعَمتَ أنك لم تقتلْه، ثم اعْتزل أمْرَ الناس، فيكونَ أمرُهم شُورَى بَيْنَهم، يولُّونَه مَن أجمعُوا علَيه» فقال له عليّ رضي الله عنه: «ما أنتَ ـ لا أُمَّ لك ـ والعَزْلَ وهذا الأمر؟ اسكتْ! لستَ هنالِكَ ولا بأهلٍ له» فقال: واللّهِ لَتَرَيَنِّي بحَيْثُ تكرَهُ! فقال عليٌّ: «وما أنتَ؟ لا أبقَى اللّهُ علَيك إن أبقيتَ علَينا، اذْهَبْ فصَوِّبْ وصَعِّدْ[1] ما بَدا لَكَ!» وقال شُرَحْبيل: «ما كلامي إلاَّ مثلُ كلام صاحبي، فهل عندك جواب غَير هذا!!» فقال عليّ نعم، عندي جواب غَيْرُه.

ثم حَمِدَ اللّهَ وأثنَى علَيه وقال: (أمَّا بَعْدُ، فإنَّ اللّهَ تعالى بعث محمدًا بالحق، فأنقذ به من الضلالة والهَلَكة، وجمع به من الفُرْقة، ثم قبضه اللّهُ إلَيه، فاستخلف الناسُ أبا بكر، ثم استخلف أبو بكر عُمر، فأحسنا السيرة، وعدلا في الأمة[2]، وقد وجَدْنا علَيهما أنْ تولَّيا الأمور دوننا ونحن آلُ رسول الله ﷺ، فغفرنا لهما ذلك، وولَى الناسَ عُثمان، فعمل بأشياء عابها الناس، فسَاروا إلَيه فقتلوه، ثم أتاني الناس وأنا مُعتزلٌ أمورَهم، فقالوا لي: بايعْ. فأبَيْتُ، فقالوا: بايعْ فإنَّ الأمَّة لا ترضَى إلاَّ بك، وإنَّا نخاف إن لم تفعل أن يتفرَّق الناس. فبايعتُهم، فلم يَرُعْني إلاَّ شِقاقُ رجُلَيْن قد بايعاني! وخلافُ مُعاويةَ الذي لم يجعل اللّهُ عزَّ وجلَّ له سابقةً في الدِّين، ولا سَلَفَ صِدْقٍ في الإسلام، طَلِيقٌ ابن طَليق[3]، وحزبٌ مِن الأحزاب، لم يَزَلْ حَرْبًا لله ولرسوله هو وأبوه حتَّى دخلا في الإسلام كارهَيْن، ولا عَجَبَ إلاَّ من خِلافِكم معه، وانقيادِكم له، وتتركون آل بيت نبيّكم الذين لا ينبغي لكم شقاقُهم ولا خِلافُهم، ألاَ إنِّي أدعوكم إلَى كتاب الله وسُنَّة نبيّه، وإماتة الباطل وإحياء الحق ومَعالِم الدين، أقول قَوْلي هذا وأستغفرُ اللّهَ لي ولكم وللمؤمنين».

فقالا: تشهَد أنَّ عُثمان قُتِل مظلومًا. قال: لا أقولُ «إنَّه قُتِل ظالمًا أو مظلومًا» قالا: مَنْ لم يزعُمْ أنه قُتِل مظلومًا فنحن منه بَرَاء. وانصرَفا فقال عليّ رضي الله عنه:

---

(١) امضِ كيف شئت وافعل ما تريد.

(٢) راجع النص باختلاف وزيادة عند ابن مزاحم في وقعة صفين ص٢٢٦.

(٣) لقد كان معاوية وأبو سفيان من أكثر المؤلبين على رسول الله ﷺ وعقب فتح مكة أطلقهما رسول الله وغيرهم من بني حرب وألَّف قلوبهم لعلو خلقه وترفعه عن الانتقام وعفوه عند اقتداره.

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النمل: ٨٠، ٨١]. ثمَّ قال لأصحابه: لا يكُنْ هؤلاءِ في الجدِّ في ضَلالِهم أجَدَّ مِنكم في الجِدِّ في حَقِّكم.

قال: ولما انسَلَخَ شَهْرُ اللّهِ المحرَّمُ وانقضت مُدَّةِ الموادَعة أمَر عليٌّ رضي الله عنه مُناديًا فنادَى: «يا أهلَ الشام، يقول لكم أميرُ المؤمنين: قد استدَمْتُكم[(١)] لتُراجعوا الحقَّ وتُنيبُوا إلَيْه، فلم تنتهُوا عن الطُّغيان، ولم تُجيبوا إلَى الحقِّ، وإني قد نَبَذْتُ إلَيْكُمْ عَلَى سَواءٍ، إنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ الخائنين»[(٢)].

قال: واجتمع أهلُ الشام إلَى أُمَرائهم ورُؤسائهم، وخرج مُعاويَة وعَمرو بن العاص يُكَتِّبانِ الكَتائب[(٣)] ويُعَبِّئانِ الناسَ، وكذلك فعل عليّ رضي الله عنه.

وقال عليّ للناس: لا تقاتِلوهم حتَّى يُقاتلوكم، فأنتم بحمدِ اللّهِ علَى حُجَّة، وترْكُكُم قتالَهم حتَّى يَبْدَؤُوكم حُجَّةٌ أخرَى فإذا هزَمتموهم فلا تقتُلوا مُدْبرًا، ولا تُجْهزوا على جريح، ولا تكشفوا عَورة، ولا تُمَثِّلُوا بقتيل، فإذا وصلتم إلى رحال القَوم فلا تَهْتِكُوا سِترًا، ولا تدخلوا دارًا إلاَّ بإذن، ولا تأخذوا شيْئًا من أموالهم إلاَّ ما وجَدتم في عسْكرهم، ولا تَهيجوا امْرأةً بأذًى، وإن شتَمْنَ أعراضَكم، وسبَبْن أمراءكم وصلحاءكم، فإنَّهُنَّ ضِعافُ القُوَى، والأنفس[(٤)].

وحرَّض أصحابَه فقال رضي الله عنه: عِبادَ اللّهِ، اتَّقُوا اللّهَ، وغُضُّوا الأبْصارَ، واخْفِضُوا الأصواتَ، وأقِلُّوا الكلامَ، ووَطِّنوا أنفُسَكم علَى المُنازَلة والمجاولة والمزاولة والمناضلة والمعانقة والمكادمة والملازمة[(٥)]، ﴿فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٥، ٤٦] اللهُمَّ ألهِمْهُم الصبْرَ، وأنزلْ علَيهم النصر، وأعْظِمْ لهم الأجْر.

---

(١) أبقيتكم.

(٢) استئناسًا بقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

(٣) الكتيبة: الجماعة في الجيش تحت قائد مخصوص، وتكتيب الكتائب تجميعها وقينها.

(٤) راجع النص باختلاف وزيادة عند ابن مزاحم في وقعة صفين ص٢٣٠، وفي الكامل لابن الأثير جـ٣ ص٢٩٣.

(٥) وهذا أرقى الكلام وأوجزه وأبلغه في علم الحرب، والمنازلة نزال الفارس للفارس، والمجاولة في الحرب المداورة فيها. والمزاولة إزالة العدو أثناء قتاله. المناضلة رمي السهام نضلاً. والمعانقة، من الصراع والاصطراع باليد وكل الجسد. والمكادمة التعاض بأدنى الفم، والملازمة كالمعانقة قتال الأجساد.

وأصبح عليّ رضي الله عنه فجعل على خَيْل الكُوفة الأشْتَر، وعلى خَيْل البَصرةِ سَهْلَ بن حُنَيف[١]، وعلَى رَجَّالة الكُوفة عَمَّار بن ياسِر، وعلَى رَجَّالَةِ البَصْرة قَيْس بن سعد بن عُبَادة، وهاشِم بن عُتْبَة بن أبي وَقَّاص المعروف بالمِرْقال وجعل معه الراية، وجعل مسْعَر بن فَدَكِيِّ علَى قُرَّاء أهل الكوفة وأهل البصرة.

وبعث مُعاوية علَى مَيْمَنته ابن ذي الكَلاَع الحِمْيَريّ، وعلَى مَيْسَرته حَبيب بن مَسْلمة الفِهْريّ، وعلَى مُقدِّمته أبا الأعور السُّلمي وكان علَى خَيْل دِمَشق، وعمرو بن العاص علَى خيول الشام كلها وعَلَى رَجَّالة دمشق مُسلم بن عُقْبة المُرّي، وعلى رَجَّالة الناس كلهم الضحاك بن قَيْس[٢] وبايع رجالٌ من أهل الشام علَى الموت، فعَقَلوا أنفُسهم بالعمائم، فكانوا خمسة صفوف.

والْتَقَوْا أوَّلَ يَوم من صفر سنة سبع وثلاثين، وكان الذي خرج في هذا اليوم الأشْتر علَى أهل الكوفة، وحَبيبُ بن مَسْلمة علَى أهل الشام، فاقتتلوا عامَّةَ النهار، ثمَّ تراجعوا وقد انْتصف[٣] بعضُهم من بعض.

ثمّ خرج في اليوم الثاني هاشم بن عُتْبة في خيل ورجال، وخرج إلَيه من أهل الشام أبو الأعْوَر السُّلمي، فاقتتلوا يومَهم ذلك، ثمَّ انصرفوا.

وخرج في اليوم الثالث عمّار بن ياسِر، وخرج إلَيه عَمرو بن العاص، فاقتتلوا أشدَّ قتال، وقال عمّار لزياد بن النَّضر وهو علَى الخَيل: احمِل علَى أهل الشام، فحمل، وقاتله الناس وصبروا له، وحمل عمار فأزال عمرو بن العاص عن موضعه، وبارَزَ يومَئذٍ زِيادُ بن النَّضْر أخاه لأُمِّه واسمه: عَمرو بن معاوية من بني المُنْتَفِق، فلمَّا الْتَقَيا تعارفا، فانصرف كلّ واحد منهما عن صاحبه، وتراجع الناس.

---

(١) ابن وهب الأنصاري الأوسي، كنيته أبو سعد، صحابي سابق، شهد بدرًا وثبت يوم أحد ولم يفته مشهد من مشاهد الرسول ﷺ كان من خيار المسلمين وخواص أصحاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وقد استخلفه على البصرة بعد وقعة الجمل، توفي بالكوفة سنة ٣٨هـ.

(٢) الضحاك بن قيس بن خلاد الفهري القرشي، كنيته أبو أمية. شهد صفين مع معاوية وولاه الأخير الكوفة بعد وفاة زياد، صلّى على معاوية بعد وفاته، وعندما خلع معاوية بن يزيد نفسه راح صاحب الترجمة يدعو إلى عبد الله بن الزبير. وفي مرج راهط حيث جيش ضد مروان بن الحكم طريد رسول الله ﷺ الذي سار إليه وقتله سنة ٦٥هـ.

(٣) إذا أخذ كلٌّ من صاحبه ما يجده حقًا وعدلاً.

وخرج من الغد في اليوم الرابع محمد بن عليّ، هو «ابن الحَنَفِيَّة»[١] وخرج إلَيْه عُبَيْد الله بن عُمر بن الخطّاب، في جمعَيْن عظيمَين، فاقتتلوا أشدَّ القِتال، وأرسل عُبَيد الله إلَى محمد يدعوه للمُبارَزة، فخرج إلَيه، فحرَّك عليٌّ دابَّتَه، ورَدَّ ابْنَه، وبَرَز عليٌّ إلَى عُبَيد الله، فرجع عُبَيد الله، وتراجع الناس.

وخرج في اليوم الخامس عبدُ الله بن عبّاس، فخرج إلَيْه الوَليد بن عُقبة، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، وطلب ابنُ عبّاس الوَليدَ ليُبارِزَه فأبَى، ثم انصرفا.

وخرج في اليوم السادس قَيْس بن سعد الأنصاري وخرج إلَيْه ابن ذي الكلاع الحِمْيَرِيّ، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، ثم انصرفوا.

قال: ثم عاد الأشْتَرُ يَومَ الثلاثاء، وخرج إليه حَبيب، فاقتتلا قتالاً شديدًا، وانصرفا عند الظهر[٢].

ثم إنَّ عليًّا رضي الله عنه قال: حَتَّى مَتَى لا نُناهِضُ هؤلاء القومَ بأجمعنا؟ فقام في الناس عَشِيةَ الثلاثاء ليلةَ الأربعاء خطيبًا، فحمد الله وأثنَى علَيه وقَال: الحمد لله الذي لا يُبْرَم ما نقَض، وما أبْرَم لم ينقُضْه الناقضون، ولو شاء الله ما اختلف اثْنانِ مِن خَلْقه، ولا اختلفت الأُمَّة في شيءٍ، ولا جَحَدَ المفضولُ ذا الفَضلِ فَضْلَه، وقد ساقتنا وهؤلاء القوم الأقدارُ، فنحن بمرأًى من ربِّنا ومَسْمع، فلو شاء عجَّل النِّقْمة، وكان منه التغيير، حتى يُكذبَ الظالمَ، ويُعْلِمَ المُحِقَّ[٣] أينَ مَصِيرُه، ولكنَّه جعل الدُّنيا دار الأعمال، وجعل الآخرةَ دار القَرار ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، ألاَ وإنكم لاقُون[٤] القَوْم غَدًا، فأطِيلوا الليلةَ القِيامَ، وأكثروا تلاوةَ القرآن، واسألوا اللّهَ النصرَ والصبر، والقَوْهُمْ بالجِدِّ والحَزْم، وكونوا صادقين.

---

(١) ابن أبي طالب، الهاشمي، أبو القاسم كنيته، وهو أخو الإمامين الحسن والحسين - لأبيهما كرّم الله وجهه - سبطي رسول الله ﷺ من بضعته الزهراء، سلام الله عليها، أمه خولة بنت جعفر الحنفية. كان واسع العلم شجاعًا مقدامًا. سئل مرّة: لماذا يدفع أبوك بك إلى مقدم الحرب ويؤخر ولديه الحسن والحسين؟ فأجاب: إنما الحسن والحسين عينا أبي وأنا يمينه والمرء يذب عن عينيه بيمينه. توفي إلى رضوان الله ورحمته سنة ٨١هـ في الطائف.

(٢) في النص زيادة مأخوذة من ابن الأثير ج٣ ص٢٩٥.

(٣) النص باختلاف يسير عند ابن أبي الحديد في شرح النهج ج١ ص٤٨١.

(٤) كذا في النص.

فقام القومُ يُصلحون سِلاحَهم، فمر بهم كَعْب بن جُعَيْل[١] فقال: [من الرجز]

أصبَحَتِ الأُمّةُ في أمرٍ عَجَبْ والمُلْكُ مجموعٌ غدًا لِمَنْ غَلَبْ
فقلتُ قَوْلاً صادقًا غيرَ كَذِبْ: إنَّ غدًا تَهْلِكُ أعلامُ العَرَبْ!

ذكر الحروب التي كانت بصفين بعد الأيام الستة في يومي الأربعاء والخميس وليلة الهرير ويوم الجمعة إلى أن رُفِعت المصاحف وتقرَّر أمر الحكمَيْن

قال: وعَبَّأ عليّ رضي الله عنه النَاسَ ليلتَه حتَّى الصباح، وزحَف بالناس، وخرج إلَيه مُعاوية في أهل الشام، فسأل عليٌّ عن القبائل من أهل الشام، فعرف مواقِفَهم، فقال للأزْد: اكْفُونا الأزْدَ، وقال لخَثْعَم: اكْفُونا خَثْعَم، وأمَرَ كُلَّ قبيلة أن تَكفِيَه أختهَا من الشام، إلاّ أنْ تكونَ قبيلة لَيس منها بالشام أحَدٌ فيصرِفها إلَى قبيلة أُخرى لَيس بالعراق منهم أحد، مثل بَجِيلة، لم يكن بالشام منها أحد إلاّ القليل، فصرفهم إلى لَخْم.

فتناهض الناسُ يَومَ الأربعاء، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، ثم انصرفوا عند المساء وكلٌّ غَيْرُ غالب.

فلمّا كان يوم الخميس صلَّى عليٌّ بغَلَس[٢]، وخرج بالناس إلَى أهل الشام، وجعل عليٌّ رضي الله عنه علَى مَيْمنَته عبد الله بن بُدَيْل بن وَرَقاء الخُزَاعيّ[٣] وله صحبة، وكان مِمَّنْ أسلم يَوْمَ الفَتْح، وقيل: قبْله، وجعل علَى مَيْسَرته عبدَ الله بن عبّاس، والقُرَّاء مع ثلاثة نفَر: عَمَّار بن ياسر وقَيْس بن سعد وعبد الله بن بُدَيْل، والناس على راياتهم ومَراكزهم، وعليٌّ رضي الله عنه في القَلْب في أهل المدينة بين

---

(١) كعب بن جعيل بن قمير بن عجرة التغلبي، مخضرم. صحب معاوية وشهد معه صفين وذبَّ عنه متطاولاً على الأئمة وكبار الصحابة. غير أنه أبى أن يهجو الأنصار ودل يزيد بن معاوية على الأخطل. راجع الشعر والشعراء لابن قتيبة ص٦٣١ ـ ٦٣٢.

(٢) الغلس: ظلمة آخر الليل.

(٣) صحابي، نجيب، فصيح، قوي شجاع، سيد بني خزاعة، شهد من الحروب حنين والطائف وتبوك، كان من أصحاب الإمام علي الشجعان، قاد الرجّالة، وفي صفين بلغ من شجاعته أنه اقتحم مع نفر جيش معاوية فأزالهم حتى انتهى إليه فتكاثرت عليه الرجال فلاقى وجه ربه. راجع الإصابة ترجمة ٤٥٥.

أهل الكوفة والبَصرة، وأكثر مَن معه من أهل المدينة الأنصار، ومعه عدد من خُزَاعة وكِنانة وغيرهم من أهل المدينة.

وزحَف عليٌّ رضي الله عنه بهم إلَى أهل الشام، ورفع مُعاوية قُبَّة عظيمة، وألْقَى عليها الثياب(١)، وبايعه أكثَرُ أهل الشام علَى الموت، وأحاط بقُبَّته خَيْلُ دمشق، وزحف عبد الله بن بُدَيْل في المَيْمنَة نحو حبيب بن مَسْلَمة وهو في المَيْسَرة، فلم يزل يَحُوزُهم(٢) ويكشِفُ(٣) خيْلَهم حَتَّى اضْطَرَّهُم إلَى قُبَّة مُعاوية عند الظُّهر.

وحرَّض عبدُ الله بن بُدَيْل أصحابَه، فقال بعْدَ أن حمِد اللّهَ وأثنَى علَيه، وصلَّى علَى النبيّ علِيه الصلاة والسلام: ألا إنَّ مُعاوية ادَّعَى ما لَيس له، ونازَعَ الحقَّ أهلَه، وعانَد مَن لَيس مثْلَه، وجادَل بالباطل لِيُدْحِضَ به الحقَّ، وصال علَيكم، بالأعراب(٤) والأحزاب(٥) الذين زَيَّنَ لهم الضَّلالة، وزرَع في قلوبهم حبَّ الفِتنة، ولَبَّسَ علَيهم الأمر، وزادهم رِجْسًا إلَى رِجْسِهم، وأنتم والله على الحق، على نور من ربكم وبرهان مبين، فقاتلوا الطُّغاة الجُفاة ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ١٤﴾ [التوبة: ١٤]، قاتِلوا الفِئة الباغِيَة الَّذِينَ نازَعوا الأمْرَ أهله، وقد قاتلْتُموهم معَ رسول الله ﷺ، فواللّهِ ما هم في هذه بأزْكَى ولا أتْقَى ولا أبَرّ(٦)، قوموا إلَى عَدُو الله وعدُوِّكمْ رحمكم الله.

وقال الشَّعْبِي: كان عبد الله بن بُدَيْل رحمه الله في صِفِّين عَلَيه دِرْعانِ وسَيْفانِ، وكان يَضْرِبُ أهلَ الشام ويقول: [من الرجز]

لَم يبقَ إلاّ الصَّبرُ والتوكُّلْ ... مع التمشي في الرعيل الأولْ
مشيُ الجمال في حياض المنهل ... والله يقضي ما يشاء ويفعلْ

ولم يَزَلْ يضربُ بسَيْفه حتَّى انْتَهَى إلَى مُعاوية فأزاله عن مَوْقِفه وأزال أصحابه الذين كانوا معه، وسنذكر خبر مَقتله في هذا اليَوْم في موضعه إن شاء الله تعالى.

---

(١) إذا كان ذلك أبدًا أسلوب معاوية، استخدام مال الله في غير سبيله والثياب كانت إحدى نفائس المعطيات والهبات.
(٢) تقرر وجهتهم. (٣) يزيلها.
(٤) الذين هم ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾.
(٥) الأحزاب ردًا إلى الأحزاب التي حزبها أبو سفيان ضد رسول الله ﷺ.
(٦) إشارة إلى أن عناصر الشقاق والخروج على أحكام الدين بإزكاء الفتنة على قواعد قبلية هم نفسهم العناصر التي شاقّت الرسول ﷺ.

قال: وحَرَّض عليٌّ رضي الله عنه أصحابَه، فقال رضي الله عنه في كلام له: فسَوُّوا صفوفَكم كالبُنْيَان المَرْصُوص[١]، وقَدِّموا الدَّارع[٢]، وأخروا الحاسِر[٣]، وعَضُّوا علَى الأضراس، فإنَّه أنبَى[٤] للسُّيُوف عن الهَام، والْتَوُوا في أطراف الرِّماح، فإنَّهُ أمْوَرُ[٥] للأسِنَّة، وغُضُّوا الأبصار، فإنه أرْبَطُ للجَأش، وأسْكَنُ للقلوب، وأمِيتُوا الأصوات، فإنَّه أطْرَدُ للفشل، وأوْلَى بالوَقار، راياتِكم فلا تُمِيلُوها ولا تُزيلوها ولا تَجعلوها إلاَّ بأيْدِي شُجْعانِكم، واستعينوا بالصدق والصبر، فإن بعد الصبر ينزل النصر.

قال: وقام يَزيدُ بن قَيْس الأرْحَبِيُّ[٦] يُحَرِّض الناس، فقال: إنَّ المسلم من سلم في دينه ورأْيه، وإن هؤلاء القوم واللّهِ ما يقاتلوننا إلا علَى هذه الدنيا ليكونوا جَبَّارين فيها[٧] مُلوكًا، فلو ظَهروا عَلَيكم، لا أراهم الله ظُهُورًا ولا سُرورًا، لَرَمَوْكم بمثْلِ سَعِيد والوَلِيد وابْنِ عامر السَّفِيه الضَّالِّ، يُجِيزُ أحَدَهم بمثل دِيَتِه ودِيَة أبيه وجده في مجلسه، ثم يقول: «هذا لي ولا إثْمَ عَلَيّ»، كأنما أُعْطِيَ تُراثه عن أبيه وأمِّه، وإنما هو مالُ اللّهِ أفاءه اللّهُ عَلَينا بأرماحنا وسيوفنا، فقاتلوا عِبادَ الله القوم الظالمين، فإنَّهم إن يَظْهَروا عَلَيكم يفْسِدوا عَلَيكم دِينكم ودُنْياكم، وهم مَن قد عرَفتمْ وخَبَرْتم، واللّهِ ما ازْدادوا إلَى يومِهم إلاَّ شرًّا.

قال: ولما انْتَهَى عبد اللّهِ بن بُدَيل بمَن معه إلَى قُبَّةِ مُعاوية؛ أقبل الذين تَبايَعوا علَى الموت إلَى مُعاوية، فأمرهم أنْ يَصْمدوا لابْنِ بُدَيْل في المَيْمَنة، وبعث إلى حبيب بن مَسْلَمة فحَمَل بالمَيْسرة علَى مَيْمَنةِ عليٍّ فهزمهم، وانْكَشَف أهل العِراق مِن

---

(١) استئناسًا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف: ٤].

(٢) الذي يلبس الدرع اتقاء السيوف والرماح والنبال.

(٣) الذي ليس عليه ما يتقي به آلة الحرب.

(٤) نبا السيف إذا لم يعمل، وارتد دون جرح أو نفاذ.

(٥) باب مور، أكفأ، لأنها تجيء بدون غاية ولا تحقق مرامًا.

(٦) ابن تمام بن حاجب الأرحبي، من بني صعب من دومان من همدان من عظماء اليمانيين. أقام في الكوفة وولاه أهلها أمرهم بعد ثورتهم على سعيد بن العاص. شهد مع الإمام علي حروبه، وتولى شرطته، وتولى له أصبهان والري وهمذان. خطيب فصيح شجاع. استشهد في صفين سنة ٣٧هـ. راجع الإصابة ترجمة ٩٤٠٩.

(٧) ولعمر الله صدق.

قِبَل المَيْمَنة حتَّى لم يَبْقَ إلاَّ ابنُ بُدَيْل في مِائتين أو ثلاثِمِائةِ من القُرَّاء، قد اسْتَند بعضُهم إلَى بعض، وانجفل[١] الناس.

وأمر عليٌّ سهْل بن حُنَيْف فاسْتقدم فيمن كان معه من أهل المدينة، فاستقبلتهم جُموع عظيمة لأهل الشام فاحتملتهم حتَّى أوقفتهم في المَيْمنَة، وكان أهل اليمن فيما بَين المَيْمَنة إلَى مَوْقِف عليّ في القَلْب، فلما انكشفوا انتهت الهزيمة إلَى عليّ رضي الله عنه، فانصرف يمشي نحو المَيْسَرة، فانكشف عنه مُضَر من المَيْسَرة، وثبَتَتْ ربيعة، ودنا أهل الشام منه فما زاده قربهم إلا إسراعًا[٢].

وكان الحسن والحُسَين ومحمد بنو عليّ رضي الله عنه معه، والنَّبْلُ يَمُرُّ بَيْن عاتِقِه ومَنْكِبِه، وما مِنْ بَنِيهِ أحدٌ إلاَّ يَقِيه بنفسه، فبَصُر به أحمر مولى أبي سفيان أو عُثمان، فأقبل نحوه، فخرج إليه كَيْسان مولى عليّ فاختلفا ضربتَيْن، فقتله أحْمَر، فأخذ عليّ بجنب[٣] دِرْع أحْمَر فجذبه وحمله علَى عاتِقِه ثم ضرب به الأرضَ فكسر مَنْكِبَيه وعضديه.

قال: ولما دنا منه أهلُ الشام قال له الحسن رضي الله عنه: ما ضَرَّكَ لو سَعَيْت حتَّى تَنْتَهِيَ إلَى هؤلاء القوم من أصحابك؟ فقال: يا بُنَيَّ إنَّ لأبيك يومًا لا يَعْدوه ولا يُبطِىءُ به عنه السَّعْيُ، ولاَ يعجِّل به إلَيْه المَشْيُ، إنَّ أباك والله لا يبالي أوقع علَى الموت أم وقع الموت عليه.

قال: ولما وصل إلَى رَبيعة نادى بصوت عالٍ كغير المُكْتَرِث لما فيه الناس: لمنْ هذه الرايات؟ قالوا: رايات ربيعة. قال: بل راياتٌ عَصَم اللَّهُ أهلَها، فصبَّرَهم وثبَّتَ أقدامَهم. وقال لحُضَيْن بن المُنْذِر[٤]: يا فتى ألاَ تُدْنِي رايتَك هذه ذراعًا؟ قال: والله عشرة أذْرُع فأدناها حتَّى قال عليّ رضي الله عنه: حسْبُك مَكانُك.

قال: ولمَّا انْتَهَى عليٌّ إلَى رَبيعة تنادَوْا بَيْنَهم: إنْ أُصِيبَ فيكم أمِيرُ المؤمنين وفيكم رجل حيٌّ افْتضحتم في العرب! فقاتلوا قتالاً شديدًا ما قاتلوا مثله، فلذلك قال علي رضي الله عنه: [من الطويل]

لِمَنْ رايَةٌ سَوداءُ يَخْفِقُ ظِلُّها ... إذا قيلَ «قَدِّمْها حُضَيْنُ»[٥] تَقَدَّما

---

(١) ارتدوا.

(٢) أراد نحوهم غير خائف أو وجل، وهذه صفته كرّم الله وجهه.

(٣) بطرف.

(٤) ابن الحارث بن وعلة الذهلي الشيباني الرقاشي، كنيته أبو اليقظان: سيد ربيعة وأحد شجعانهم. حصيف بليغ، كانت له راية الإمام علي كرّم الله وجهه في صفين. وقد ولاه الإمام إصطخر. توفي سنة ٩٧هـ.

(٥) صاحب الترجمة، والقصة أعلاه.

ويُقْدِمُها في المَوْتِ حَتَّى يُزيرَها حياضَ المَنايا تَقْطُرُ المَوتَ والدَّمَا
أَذَقْنَا ابْنَ حَرْبٍ[١] طَعْنَنَا وضِرَابَنا بأسْيافِنَا حَتَّى تَوَلَّى وأحْجَمَا[٢]
جَزَى اللّهُ قَوْمًا صابَرُوا في لِقَائهِمْ لَدَى المَوْت قومًا ما أعَفَّ وأكْرَمَا!
وأطْيَبَ أخْبَارًا وأكْرَمَ شيمَةً إذا كان أصْواتُ الرِّجال تَغَمْغُمَا[٣]
رَبيعَةَ أعْني أهْلَ بَأْسٍ ونَجْدَةٍ إذا ما هُمُو لاقَوْا خَميسًا عَرَمْرَمَا[٤]

قال: ومَرَّ الأشْتَرُ بعليّ وهو يقصد المَيْسَرة، والأشْتَرُ يركُض نحو الفَزَع[٥] قِبَلَ المَيْمَنة، فقال له عليٌّ: إيتِ هؤلاءِ القَومَ فقل لهم «أيْن فِرارُكم مِن الموت الذي لن تُعْجِزوه إلَى الحياة التي لا تبقَى لكم؟». فمضى الأشتر فاستقبل الناس مُنهزِمين، فقال لهم ما قال عليٌّ، ثم قال: «أيُّها الناس أنا الأشتر، إلَيّ أنا الأشتر»، فأقبل إلَيه بعضُهم وذهب البعض، فنادى: «أيُّها الناس، ما أقْبَحَ ما قاتلتم مُنْذُ اليوم! أخلِصوا إليَّ مَذْحجًا» فأقبلتْ مَذْحِج إلَيْه، فقال لهم: «ما أرضَيْتم رَبَّكم، ولا نصحتم له في عَدُوِّكم، وكيف ذلك وأنتم أبناءُ الحرب، وأصحاب الغارات، وفِتْيان الصياح، وفُرْسان الطِّراد[٦]، وحُتُوف الأقران[٧]، ومَذْحج الطِّعَان الذين لم يكونوا يُسْبَقون بثأرهم، ولا تُطَلُّ[٨] دماؤهم، وما تَفعلون هذا اليومَ فإنه مأثور عنكم بعده، فانصَحُوا واصْدُقُوا عدُوَّكم اللِقاء، فإن الله مع الصادقين، والذي نفسي بِيَدِه ما مِن هؤلاء، وأشار إلَى أهل الشام، رجلٌ علَى مِثْل جَناح بَعُوضة مِن محمد، اجلوا سواد وجهي يرجع فيه دمه، علَيكم بهذا السواد الأعظم، فإن الله لو قد فضَّه تَبِعه مَن بجانبيه!»[٩]. قالوا: تَجِدُنا حيْث أحببتَ. فَقصد نحو عُظْمِهم[١٠] مِمَّا يَلِي المَيْمَنة يَزْحَف إلَيْهم ويرُدُّهم.

واستقبله شباب من هَمْدان، وكانوا ثمانِمائة مقاتل يومَئِذ، وكانوا صبروا في المَيْمَنة حتَّى أُصيب منهم ثمانون ومائةُ رجل، وقتِل منهم أحَدَ عشَرَ رئيسًا: كان أوّلُهم

---

(١) معاوية بن أبي سفيان كناه بجده الأعلى. (٢) تراجع وانكفأ.
(٣) الغمغمة: كلام لا يفهم ولا يفصح قائله توجسًا أو جبنًا.
(٤) الجيش الكثير.
(٥) أراد حيث كان الالتحام الأكبر وحكمن الانهزام في جيشه.
(٦) أولو البأس في اتباع الشجعان من الخصوم.
(٧) البطل الكفء. (٨) لا تذهب دماؤهم هدرًا.
(٩) انظر النص باختلاف يسير شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد جا ص٤٨٧.
(١٠) كذا، ولعله أراد الجم الكثير منهم.

ذُؤَيب بن[١] شُرَيْح، ثم شُرَحْبِيل، ثم مَرْثَد، ثم هُبَيْرة، ثم يَرِيم، ثم سُمَير، أولاد شُرَيْح قُتِلوا، ثم أخذ الراية عميرة ثم الحارث ابنا بشير فقُتلا، ثم أخذها سُفْيان وعبد الله وبَكر بَنُو زَيد فقتِلوا جَميعًا، ثم أخذ الراية وَهْب بن كُرَيْب فانصرف هو وقومُه وهم يقولون: «لَيْت لنا عِدَّتَنا من العرب، يُحالفوننا علَى الموت، ثمَّ نَرجِع، فلا نَنصرف أو نُقتلَ أو نَظْفَرَا!»، فسمعهم الأشْتَر فقال لهم: أنا أُحالفكم علَى ألاَّ نَرْجِعَ أبدًا حتَّى نَظْفَرَ أو نَهْلِكَ جميعًا! فوقفوا معه.

قال: وزحَف الأشتر نحو المَيمَنة، وثاب إليه الناس وتراجعوا من أهل البصرة وغيرهم، فلم يقصد كَتيبة إلاَّ كشفها، ولا جمعًا إلاَّ حازَه وردَّه، وقاتل قتالاً شديدًا، ولزمه الحارث بن جُمهان الجُعفِيّ، فما زال هو ومَن رجَع إلَيه يُقاتلون حتَّى كَشَف أهلَ الشام، وألحَقهم بمعاوية والصفِّ الذي معه[٢]، وذلك بين صلاة العصر والمغرب، وانتهى إلَى عبد الله بن بُدَيْل بن وَرْقاء وهو في عِصابة من القُرَّاء نحو المِائتَيْن أو الثلاثِمِائَة قد لصِقوا بالأرض كأنَّهم جُثًا[٣]، فكشف عنهم أهلَ الشام فأبصروا إخْوانَهم، فقالوا: ما فَعل أميرُ المؤمنين قال: حيٌّ صالح في المَيْسَرة يُقاتل الناس أمامَه. فقالوا: الحمد لله قد كنَّا ظننَّا أنْ قد هَلَكَ وهلكتم. ثم قال عبد الله بن بُدَيْل رحمه الله لأصحابه: اسْتقْدِموا بنا. فقال له الأشتَر: «لا تفعلْ، واثبُتْ مع الناس، فقاتلْ، فإنه خيرٌ لهم وأبقَى لك ولأصحابك»، فأبَى، ومضَى نحو مُعاوية وحولَه كأمثال الجبال، وخرج عبد الله أمامَ أصحابه فقتَل مَن دنا منه، حتَّى قَتَلَ جماعة، ودنا مِن مُعاوية، فنهض إلَيه الناس من كل جانب، وأُحيطَ به وبطائفة من أصحابه، فقاتل حتَّى قُتِل، وقتِل ناسٌ من أصحابه، ورجعتْ طائفةٌ منهم مُجرحين، فبعَث الأشتر الحارث بْنَ جُمْهان الجُعْفِيَّ، فحمل علَى أهل الشام الذين يتبعون مَن انهزم من أصحاب عبد الله، حتَّى نَفَّسُوا عنهم[٤]، وانتهَوْا إلَى الأشتر.

وحكى أبو عُمَر بن عبد البر عن الشعبي في قتل عبد الله: أنَّه لما انتهَى إلَى مُعاوية أزاله وأزال أصحابَه عن مَواقفهم، وكان مع معاوية يومَئذ عبد الله بن عامر، فأقبل أصْحاب معاوية علَى عبد الله بن بدَيْل يرجُمونه بالحجارة حتَّى أثْخَنوه، وقُتِل، فأقبل مُعاوية وعبد الله بن عامر معه، فألقَى علَيه ابنُ عامر عِمامتَه غَطَّى بها وجهه،

---

(١) الهمداني، شريف شجاع، وسيد من سادات همدان، كان من أصحاب الإمام علي كرّم الله وجهه، وقتل معه في صفين. راجع الكامل لابن الأثير جـ٣ ص١١٩.

(٢) أراد مؤخرة الجيش، حيث معاوية وجنده الذين كان في المؤخرة.

(٣) ما اجتمع من التراب، والواحدة جثوة.

(٤) أراحوهم، آخذين عنهم ما ثقل عليهم في القتال.

وترحَّم علَيه[١]، فقال معاوية: اكشفوا وجهه. فقال ابن عامر: والله لا تمثلْ[٢] به وفيَّ روح! فقال معاوية: اكشفوا عن وجهه فقد وهبناه لك. ففعلوا، فقال معاوية: هذا كبشُ[٣] القوم وربِّ الكعبة، اللهم أظفر بالأشتر والأشعث بن قيس، والله ما مثل هذا إلا كما قال الشاعر[٤]: [من الطويل]

أخُو الحرب إنْ عَضَّتْ به الحرْبُ عَضَّها ... وإنْ شَمَّرَتْ[٥] يَومًا به الحربُ شَمَّرَا[٦]

كَلَيْثِ هِزَبْرٍ[٧] كان يَحمي ذمارَهُ ... رَمَتْهُ المَنَايَا قَصْدَها فَتَقَطَّرَا

ثمَّ قال مُعاوية: إنَّ نساء خُزاعة لو قَدَرَتْ أنْ تُقاتلَني فَضْلاً عن رجالها لفعلتْ. انتهى كلام الشَّعْبي.

قال: وزحَف الأشترُ لعَكٍّ والأشعَريِّين، وقال لمَذْحج: اكْفُونا عكًّا. ووقف في هَمْدان وقال لكنْدَة: اكْفُونا الأشعريِّين. فاقْتتلوا قِتالاً شديدًا إلى المساء، وقاتلهم الأشترُ في هَمْدان وطوائف من الناس، فما زال أهل الشام عن مواضعهم حتى ألحقوهم بالصفوف الخمسة المُعَقلة بالعَمائم[٨] حَوْل مُعاوِية، ثم حمل عليْهم حملةً أُخرَى فصَرعَ أربعة صفوف من المُعَقَّلين بالعمائم.

ودعا مُعاوية بفرسه فركبه، وكان يقول: أردتُ أنْ أنهزِمَ فذكرتُ قول ابن الإطْنابة[٩] وكان جاهليًا: [من الوافر]

أبَتْ لي عفَّتي وأبَى بَلائي ... وإقْدامي عَلَى البَطَل المُشِيحِ[١٠]

وإعطائي عَلَى المكروه مالي ... وأخْذي الحَمْدَ بِالثَّمَنِ الرَّبِيحِ

وقَوْلي كُلَّمَا جَشَأَتْ وجاشَتْ[١١]: ... مَكانَكِ تُحْمَدي أوْ تَسْتَرِيحي

---

(١) في شرح النهج لابن أبي الحديد زيادة راجعها جا ص٤٨٦.

(٢) التمثيل بالميت: اضطهاد جثة الميت. (٣) كبيرهم.

(٤) هو حاتم الطائي كما في رواية الطبري ج٥ ص٢٤.

(٥) مشت. (٦) استعد وسار.

(٧) الأسد القوي.

(٨) وكان بضع مائتين وقيل أكثر عقلوا ـ شدوا ـ عمائمهم إلى بعضها، وعاهدوا على الموت.

(٩) عمرو بن عامر بن زيد مناة الكعبي الخزرجي، شاعر جاهلي، معدود من الفرسان، اشتهر بنسبته إلى أمه الإطنابة بنت شهاب من بني القين. راجع الأغاني ج١١ ص١٢١.

(١٠) البطل المشيح: الذي يدور في حلبة الصراع إبرازًا لشجاعته.

(١١) أراد أنه يقول لنفسه كلما دفعها الخوف للتوق إلى الفرار اتقاءً وحرصًا دعاها إلى التثبت لما ستلاقيه من التقدير حال الفوز، أو الراحة التي لا بد سائرة إليها كل نفس.

قال: فمنعَني هذا القول من الفرار، ونظر إلى عمرو فقال له: «اليَوْمَ صَبْرٌ، وغدًا فخْر». فقال: صدقت.

قال[١]: وتقدم عُقْبة بن حديد النميري وهو يقول: «ألا إن مَرْعَى الدُّنيَا أصبح هَشِيمًا[٢]، وشجرها حَصِيدًا[٣]، وجَديدها سَمِلاً[٤]، وحُلْوها مُرّ المَذاق، وإني قد سئِمْتُ الدنيا، وإنّي أتمنى الشهادة وأتعرضُ لها في كل جَيشٍ وغارة، فأبى اللّهُ إلا أنْ يُبلغني هذا اليَوم، وإنّي متعرِّضٌ لها مِن ساعتي هذه، وقد طمِعْتُ ألا أُحْرَمَها، فما تنتظرون عبادَ اللّهِ بجهاد من عادَى الله! في كلام طويل[٥]، وقال: يا إخْوَتي، قد بِعْتُ هذه الدارَ بالتّي أمامَها، وهذا وجهي إلَيها! فتبِعَه إخوتُه عُبَيد الله وعَوْف ومالك، وقالوا: لا نطلُبُ رِزق الدنيا بعدَك! فقاتلو حتى قُتلوا، وهم من أصحاب عليّ.

وكان مِمنْ قُتِل في هذا اليَوْمَ من أصحاب عليّ أبو شداد قيْس بن المَكْشُوح[٦]، واسْمُ المَكْشوح: هُبَيْرة بن هِلال[٧] عند أكثرهم، وكان قيْسٌ يَوْمَئِذٍ صاحِبَ راية بَجيلة، وذلك أن بَجِيلة قالت له: يا أبا شداد خُذْ رايتنا اليَوم. فقال: غيْري خيْرٌ لكم. قالوا: ما نُريد غيْرَك. قال: فوالله لئِن أعطيْتُمونيها لا أنتهي بكم دُونَ صاحب التُّرس المُذْهَب، وكان على رأس مُعاوية رجلٌ قائم معه تُرسٌ مُذْهَب يستُر به مُعاوية من الشمس، قالوا: اصْنعْ ما شِئْت. فأخذ الراية ثم زحف بها، فجعل يُطاعِنُهم حتى انْتهَى إلى صاحب التُّرس، وكان في خيْل عظيمة، فاقْتتل الناسُ قتالاً شديدًا، وشدّ أبو شداد على صاحب التُّرس وقيل: كان صاحب التُّرس المُذْهَب عبد الرحمٰن بن خالد بن الوَليد[٨] فاعْترضه دُونه مَوْلًى رُوميّ لمُعاوية، فضرب قدَمَ أبي شدّاد فقطعها، وضربه أبو شدّاد فقتله، وأُشْرِعَتْ إليه الرماح فقتلوه، وأخذ الراية عبدُ الله بن قَلْع الأحْمَسِي، فقاتل حتى قُتل، ثم أخذها عَفِيف بن إيَاس فلم تزلْ في يَدِه حتى تحاجَز الناس. وقُتل غيْرُ هؤلاءِ مِمّنْ له صحبة.

---

(١) أي ابن الأثير.
(٢) اليابس من العشب.
(٣) الشجر المقطوع.
(٤) الرث البالي.
(٥) راجع الطبري باختلاف في نسبه جـ٥ ص٢٥.
(٦) قيس بن هبيرة الملقب بمكشوح بن هلال البجلي، صحابي، شجاع، شاعر، وهو سيد بجيلة وفارسها في الجاهلية. كنيته أبو شداد. شارك في فتوح القادسية، ونهاوند، وكان من أصحاب الإمام علي كرّم الله وجهه، وقتل في صفين. عمرو بن معد يكرب خاله، وله نقائض معه في الجاهلية. توفي إلى ربه سنة ٣٧هـ.
(٧) أبوه قيس بن هبيرة الملقب بالمكشوح وهو الذي ضرب على كشه.
(٨) لاحظ ما الذي فعله معاوية بالناس قبل أن يتأمّر، فهذا عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد سيف الله، يحمل ترسًا مذهبًا ليرد الشب عن معاوية كأي عبد مسترق.

قال: وخرجَتْ حِمْيَر في جمعها ومَن انْضم إليْها من أهل الشام، وتقدمَهم ذو الكلاع[١]، ومعهم عُبَيْد الله بن عُمَر بن الخطاب وهم مَيْمَنة أهل الشام، فقصدوا رَبيعة مِن أهل العراق، وكانت رَبيعة مَيْسَرة أهل العراق، وفيهم ابن عبّاس، فحملوا على رَبيعة حملةً شديدة، فتضعْضعَت رايةُ رَبيعة، وكانت الراية مع أبي ساسان حُضيْن بن المُنْذر، فانْصَرَف أهلُ الشام عنهم، ثم كرّ عُبَيْد الله بن عمر وقال: يا أهل الشام، إن هذا الحي من أهل العراق قتلةُ عُثمان وأنصارُ عليّ، فشدوا على الناس شدَّة عظيمة، فثبتت رَبيعة وصبرَت صبرًا حسنًا إلاّ قليلاً من الضُعَفاء والفَشَلة، وثبت أهلُ الرايات وأهل الصبر والحفاظ وقاتلوا قتالاً حسنًا، ثم تراجع مَن انْهَزَم مِن رَبيعة، واشتد القتال حتّى كثُرَت القَتْلى، فقُتل سُمَيْر بن الريان العِجْليّ، وكان شديدَ البأس، وأتى زِياد بن خَصَفة عَبْدَ القيس فأعلمهم بما لقِيَتْ بَكرُ بْن وائل مِن حِمْيَر، وقال: يا عَبْد القَيْس لا بَكرَ بَعْدَ اليَوم! فقاتلوا معهم، فقُتِلَ ذُو الكلاع الحِمْيَري وعُبَيْد الله بن عُمر بن الخطاب، وجرح عمَّار بن ياسِر فقال: «اللهمَّ إنَّك تعلمُ أنّي لو أعلَم أن رِضاك في أنْ أضَعَ ظُبَة[٢] سيفي في بطني ثم أنحَني علَيْها حتّى تخرُجَ مِن ظهري لفعلتُه! وإنّي لا أعلَم اليوم عملاً هو أرضَى لك من جِهاد هؤلاء الفاسقين، ولو أعلم عملاً هو أرضَى لك منه لَفعلتُه! واللّهِ إنّي لأرَى قومًا ليضرُبُنَّكم ضربًا يَرْتابُ منه المُبْطلون، وأيْمُ اللّهِ لو ضربونا حتّى يَبْلُغوا بنا سَعفاتِ[٣] هَجَرَ لعلِمْتُ أننا علَى الحق وأنَّهم علَى الباطل!» ثم قال: «مَن يَبْتغي رِضْوانَ رَبِّه فلا يرجع إلَى مال ولا ولد!» فأتاه عصابة فقال: «اقْصِدوا بنا هؤلاءِ القَوْمَ الذين يطلبون دَمَ عُثمان، واللّهِ ما أرادوا الطلَبَ بدَمِه، ولكنَّهم ذاقوا الدنيا واستحبُّوها، وعلِموا أنَّ الحقَّ إذا لزِمَهم حالَ بَيْنَهم وبَيْنَ ما يتمرَّغون فيه مِنها، ولم تكن لهم سابِقة يستحقُّون بها طاعةَ الناسِ والولايةَ علَيْهم، فخدَعُوا أتْباعَهم أنْ قالوا: إمامُنا قُتِلَ مَظلومًا، ليكونوا بذلك جَبابِرة مُلوكًا، فبلغوا ما تَرَوْن، ولولا هذه ما تبِعَهم من الناس رجُلانِ، اللهمَّ إن تنصُرْنا فطال ما نصرتَ، وإن جعلت لهم الأمر فادَّخِرْ لهم بما أحدثوا في عبادك العذابَ الأليم!» ثم

---

(١) وهو غير ذي القلاع الأكبر المشهور، والذي بالنص يعرف بذي الكلاع الأصغر، سميفع بن ناكور بن عمرو بن يعفر بن ذي الكلاع الأكبر، أبو شراحيل الحميري. كان في جيش معاوية أيام صفين وفيها قتل سنة ٣٧هـ. راجع تهذيب ابن عساكر جـ٥ ص٢٦٦.

(٢) ظبة السيف: رأسه.

(٣) جمع سعفة وهي غصن النخل، وهجر بفتح أوله وثانيه، والهجر بلغة حمير القرية، وهجر مدينة في البحرين ولعله البحرين كلها تجوزًا من باب تسميت بالكل بالجزء، وقد أرادها عمار رضوان الله عليه للمباعدة.

مضَى ومعه تلك العِصابة، فكان لا يمُرُّ بادٍ من أودِية صِفِّين إلاَّ تَبِعَه مَن كان هناك من أصحاب النبيّ ﷺ.

ثم جاء إلَى هاشم بن عُتْبة بن أبي وَقَّاص - وهو المِرْقال - وكان صاحبَ راية عليّ رضي الله عنه، فقال: «يا هاشم، أعَوَرًا وجُبْنًا؟ لا خيْرَ في أعْوَرَ لا يَغشى البَأْس، ارْكب يا هاشم» فركب معه وهو يقول: [من الرجز]

أعْـوَرُ يَـبْـغـي أهْـلَـه مَـحَـلاً قـد عـالـج الـحـيـاةَ حـتَّـى مَـلاً
لا بُـدَّ أنْ يَـفُـلَّ[1] أو يُـفَـلاً يَـتُـلُّـهـم[2] بـذِي الـكُـعُـوبِ[3] تَـلاً

وعَمَّار يقول: «تقدَّمْ يا هاشم، الجنَّةُ تحت ظلال السيوف[4]، والمَوْتُ في أطراف الأسل، وقد فُتِحَتْ أبوابُ السماء، وتَزَيَّنَت الحُورُ العِين، اليَوْم ألقَى الأحِبَّة، محمَّدًا وحِزبه[5]!».

وتقدَّم حتَّى دنا مِن عَمْرو بن العاص، فقال له: «يا عَمْرو، بِعْتَ دِينك بمصر! تبًّا لَك! تبًّا لك!» فقال: لا ولكن أطلبُ دَمَ عُثمان. قال: «أشهد علَى عِلْمِي فيك إنَّك لا تطلب بشيءٍ مِن فِعْلك وَجْهَ الله، وأنك إنْ لم تُقْتَل اليَوْمَ تَمت غدًا، فانظرْ إذا أُعْطِيَ الناسُ علَى نِيَّاتِهم ما نِيَّتُك؟ لقد قاتلْتُ [و][6]صاحبَ هذه الراية ثلاثًا مع رسول الله ﷺ، وهذا الرابعة ما هي بأبَرَّ ولا أتْقَى!».

ثم قاتل عَمَّار فلم يرجع، وقُتِل، وقال قَبْلَ أن يُقْتَلَ: ايتُوني بآخِرِ رزقٍ لي من الدنيا! فأُتِيَ بِضَياح[7] من لَبَن في قَدَح، وكان رسول الله ﷺ قال: «تقتُل عَمارًا الفِئَةُ الباغية، وإنَّ آخِر رِزقه ضَياحٌ مِنْ لَبَن»[8] والضياح: الممزوجُ بالماء من اللبن.

---

(١) الفلل: انكسار السيف أو تشعب حده.

(٢) يتلهم: يزعزعهم ويقلقلهم.

(٣) ذي الكعوب: من أسماء الرمح.

(٤) «واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» راجع صحيح البخاري باب الجهاد ص١١٢.

(٥) واصفًا حال الشهيد الذي وعد بالجنة وما فيها.

(٦) إضافة يقتضيها السياق، لأن في النص إلفات، وعمار ينتقل من خطابه لعمرو بن العاص والحديث عنه إلى الحديث عن نفسه [و] هي واو المعية، فيقول: لقد قاتلت أنا وصاحب الراية أراد به الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه ثلاثًا.. وهذه الرابعة أي يوم صفين كغيرها من أيام الرسول ضد الأحزاب.

(٧) الضياح: اللبن رائبًا يُمزج ماءً.

(٨) راجع الحديث في صحيح البخاري باب الصلاة ص٦٣.

قال: وقَتَلة أبو الغادِيَة[١]، واحتَزَّ رأسَه ابن حُوَيٍّ[٢]، السَّكْسَكِيّ، وقد كان ذو الكَلاَع سَمِع عَمْرو بن العاص يقول: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام لِعَمّار: «تقتلُك الفِئَةُ الباغية وآخِرُ شَرْبَةٍ تشرَبُها ضَيَاحٌ مِنْ لَبَن». فكان ذو الكَلاَع يقول لعَمْرو: ما هذا وَيْحَكَ يا عَمْرو! فيقول: إنَّه يَرْجِع إلَيْنا، فقُتِل ذُو الكَلاع قبل عَمَّار مع مُعاوية، وأُصِيبَ عَمَّار بَعْدَه مع علي، فقال عَمْرو لمُعاوية: «والله ما أدري بقتل أيِّهما أنا أشدُّ فَرَحًا: بقتْلِ عَمَّار أو بقتْلِ ذي الكَلاع، واللّهِ لو بَقِيَ بَعْدَ قتل عَمَّارٍ لمَالَ بعامَّة أهل الشَام إلَى عليّ!». فأتَى جماعة إلَى مُعاوية، كُلُّهم يقول: «أنا قتلتُ عَمارًا»، فيقول عَمْرو: فما سمعتَه يقول؟ فيَخْلِطون، فأتاه ابْنُ حُوَيّ فقال: أنا قتلتُه فسمعتُه يقول «اليَوْم ألْقَى الأحبَّه، محمَّدًا وحِزْبَه». فقال له عَمْرو: أنت صاحبُه. ثم قال «رُوَيْدًا، واللّهِ ما ظفرت يداك، ولقد أسْخَطْتَ رَبَّك!».

وقيل: إنَّ أبا الغادِيَة قَتَل عَمَّارًا وعاش إلَى زمن الحَجَّاج، فدخل علَيه، فأكرَمَه الحَجَّاج وقال: أنت قتلتَ ابْنَ سُمَيَّة[٣]؟ - يعني عمارًا - قال: نعَمْ. قال: مَنْ سَرَّه أن ينظرَ إلَى عَظيم الباع يَوْم القِيامة فلْينْظرْ إلَى هذا الذي قتَل ابْنَ سُمَيَّة. ثم سأله أبو الغادية حاجَةً فلم يُجِبْه إلَيها، فقال: نُوَطِّىء لهم الدنيا ولا يصلُونا منها ويزعُم أنِّي عظيمُ الباعِ يَوم القِيامة! فقال الحَجّاج: أجَلْ واللّهِ مَن كان ضِرْسُه مِثْلَ أُحُدٍ، وفخِذُه مِثْلَ جَبَل وَرِقانَ، ومَجْلِسُه مِثْلَ المَدينة والرَّبَذَة، لَعَظِيمُ الباعِ يَوْمَ القيامة، واللّهِ لَوْ أنَّ عَمَّارًا قَتَله أهلُ الأرض لدخلوا كلُّهم النار!.

وقال أبو عبد الرحمٰن السلمي: لمَّا قُتِلَ عَمّار دخلتُ عَسْكرَ معاوية لأنظرَ هل بَلَغ منهم قتْلُ عَمّار ما بلغ مِنّا - وكُنّا إذا تركْنَا القِتال تحدَّثوا إلَيْنا وتحدثنا إلَيهم - فإذا مُعاوية وعَمْرو وأبو الأعور وعبد الله بن عَمْرو يتسايرون، فأدخلتُ فَرَسي بَيْنَهم لِئلاَّ يفوتَني ما يقولون، فقال عبد الله بن عَمْرو لأبيه: يا أبَتِ قَتَلْتم هذا الرجلَ في يومكم هذا وقد قال رسولُ الله ما قال! قال وما قال؟ قال: ألَمْ يَكُنْ المسلمون ينقُلون في بناء مسجد النبيّ ﷺ لبنَةً[٤] لَبِنَةً وعَمارٌ ينقل لَبِنَتَيْن لَبِنَتَيْن؟ فغُشِيَ علَيه، فأتاه رسولُ الله

(١) يسار بن سبع الجهني.
(٢) ابن جود بن ماتع بن زرعة بن ينحض بن حبيب بن ثور بن خداش العامري. راجع جمهرة أنساب العرب ص٤٠٥.
(٣) تأمّل بقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ وهذا الحجاج ينبز المؤمن ويخالف القرآن لم يتشفَّ بما يلي من السطور أعلاه بقتله وعظم باع قاتله.
(٤) حجر البناء.

عليه الصلاة والسلام، فجعل يمسَحُ الترابَ عن وجهه ويقول: «وَيْحَكَ يا ابْنَ سُمَيَّةَ! الناسُ ينقلون لَبِنَةً لَبِنَةً، وأنت تنقُل لَبِنَتَيْنِ لَبِنَتَيْن رغبةً في الأجْر، وأنت مَع ذلك تقتلك الفِئَةُ الباغِيَةُ!». فقال عَمْرو لمُعاوية: أمَا تسمع ما يقول عبدُ الله؟ قال: وما يقول؟ فأخبره، فقال مُعاوية: أنحن قتلناه؟ إنَّما قتَلَه مَن جاء به[1]! قال فخرج الناسُ من أخْبِيَتِهم وفَساطِيطهم[2] يقولون: إنَّما قتَله مَن جاء به. فلا أدْرِي مَنْ كان أعْجَبَ؟ أهُوَ أم هم؟

قال: ولمَّا قُتِلَ عمار قال عليٌّ رضي الله عنه لِرَبيعة: أنتم دِرْعِي ورُمْحِي. فانتدب له نحو من اثني عشر ألفًا، وتقدمهم عليٌّ على بغلة، فحملوا معه حمَلَةَ رجل واحد، فلم يَبْقَ لأهل الشام صفٌّ إلا انْتَقَض، وقتلوا كُلَّ من انْتَهَوْا إلَيه، حتَّى بلَغُوا مُعاوية، فناداه عليّ: فقال عَلامَ يُقْتَلُ الناسُ بَيْنَنا؟ هَلُمَّ أُحاكمْكَ إلَى الله، فأيُّنا قَتَلَ صاحِبَه استقامت له الأُمور. فقال عَمْروٌ: أنصَفَك. فقال مُعاوية لعَمْرو: ما أنصفْتَ، إنك لَتَعْلَمُ أنه لم يَبْرُزْ إلَيه أحدٌ إلا قَتَله. فقال عَمرو: ما يحسُنُ بك ترْكُ مُبارَزَته، فقال مُعاوية: طمِعْتَ فيها بعدي[3]!

قال[4]: وكان أصحاب علي قد وكَلوا به رجُلَين يحفظانه، لِئلا يُقاتِلَ، فكان يحمِل إذا غفَلا فلا يَرجع حتى يَخْضِبَ سَيفه، وإنه حمل مَرَّة فلم يرجع حتَّى انثنى سيفه، فألقاه إلَيهم، وقال: لولا أنَّه انثنَى ما رجعتُ إلَيكم. فقال الأعمش لأبي عبد الرحمٰن: هذا والله ضرب غيرُ مُرتاب[5]!

قال: وأما هاشم بن عُتْبة بن أبي وَقَّاص فإنَّه دعا الناسَ عند المساء وقال: ألا من كان يريد اللّهَ والدارَ الآخرة فإليّ. فأقبل إليْه الناس، فحمل على أهل الشام مِرارًا، ويصبرون له، وقاتل قتالاً شديدًا، وقال لأصحابه: «لا يَهُولنَّكم ما ترَوْن من صبرهم، فواللّهِ ما هو إلاَّ حَمِيَّةُ[6] العرب وصبْرُها تحت راياتها، وإنهم لَعَلَى الضلال وإنَّكم لعَلَى الحق» ثم حَرَّض أصحابه، وحمل في عِصابة من القُرَّاء فقاتل قِتالاً شديدًا، فقتل يَوْمَئِذٍ تسعة أو عشرة، وحمل عليه الحارث بن المنذر التَّنُوخي، فطعنه فسقط، وأرسل إليه عليّ: أن قدِّمْ لِواءَك، فقال لرسوله: انظر إلى بطني! فنظر إليه، فإذا هو قد انشق!

---

(١) انظر إلى هذا، وكأنما عمار طفل لا يدرك وجهته، يحتاج لمن يقلّه ويدلّه.

(٢) خيامهم.

(٣) أي الإمرة، ويتبدى لنا هنا أن الطلب بدم عثمان كان وسيلة دنيوية لاعتلاء رقاب المسلمين.

(٤) سليمان بن مهران الأسدي ولاءً كنيته أبو محمد، تابعيٌّ عالم بالقرآن والحديث.

(٥) أي أنه لا يشك بأنه على سلامة من دينه. (٦) عصبية العرب.

قال[١]: ومَرّ عليٌّ بكتيبة من أهل الشام فرآهم لا يزولون عن مَوْقفهم ـ وهم غسَّان ـ فقال: «إنَّ هؤلاءِ لا يزولون إلاَّ بطعن وضرْب يَفْلِق الهامَ ويُطِيحُ العِظام، وتسْقُط منه المَعاصِمُ والأكُفُّ، وحتى تُقْرع جِباههم بعُمُد الحديد، أيْن أهلُ النصر والصبر وطُلاَّبُ الأجر؟» فأتاه عصابة من المسلمين، فدعا ابنه محمدًا فقال: «تقدَّمْ نحْوَ هذه الراية مشيًا رُوَيْدًا على هِينَتِك»[٢]، حتَّى إذا أشرعت في صدورهم الرماح فأمسكْ حتَّى يأتِيَك أمري». ففعل، وأعدّ لهم عليّ مثلهم وسيَّرهم إلى ابنه محمد، وأمره بقتالهم، فحمل عليهم فأزالهم عن مواقفهم، وأصابوا منهم رجالاً.

قال[٣]: ومرَّ الأسْوَد بن قيس المُرادي بعبد الله بن كعب المُرادي وهو صَرِيع[٤]، فقال له عبد الله: يا أسوَد. قال: لبَّيْك. وعَرَفه ونزل إليه وقال له: «عَزَّ عليَّ مَصْرَعك! إنْ كان جارُك ليَأمَنُ بَوائِقك[٥]، وإنْ كُنت لمِن الذاكرين الله كثيرًا! أوْصني رحمك الله!» قال: «أُوصيك بتقوَى الله، وأنْ تُناصحَ أمير المؤمنين[٦]، وتُقاتل معه المحلين[٧]، حتَّى يظهَرَ أو يَلحَق بالله، وأبلِغه عنِّي السلام وقل له: قاتِلْ على المعركة حتَّى تجعلها خلْف ظهرك، فإنه من أصْبح غدًا والمعركة خلف ظهره كان العالي». ثمَّ لم يلبث أن مات، فأقبل الأسْود إلى عليّ فأخبره، فقال: «رحمه الله! جاهد عدوَّنا في الحياة، ونصح لنا في الوفاة!».. وقيل: إن الذي أشار على عليّ بهذا عبد الرحمٰن بن حَنْبَل الجمحي[٨].

قال: فاقتتل الناس تلك الليلة كُلَّها إلى الصباح، وهي ليلة الهَرِير، فتطاعَنوا حتى تقصَّفت الرماح، وترامَوْا حتى نفِد النَّبْل، وأخذوا السيوف، وعليٌّ يسير بين المَيْمنة والمَيْسَرة، ويأمر كلَّ كتيبة أن تقدَّمَ على التي تليها، فلم يَزلْ يفعل ذلك حتَّى أصبح، والمعركة كلُّها خلْف ظهره، والأشتر في الميْمَنة، وابن عباس في المَيْسَرة، وعليٌّ في القلْب، والناس يقتتلون من كل جانب وذلك يَوْم الجمعة، وأخذ الأشتر

---

(١) ابن الأثير.

(٢) أي على سكن واهدأ ما تستطيع.

(٣) ابن الأثير.

(٤) الطريح في المعركة مغشيًا عليه وبه رمق في الغالب.

(٥) البائقة: الداهية، وتدور على معانٍ من الشدود والغوائل.

(٦) يعني الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه.

(٧) في النص (المخلين) بالخاء، والصواب ما أثبتنا. وقد مرّ شرحها في صفحات سابقات.

(٨) عبد الرحمٰن بن حنبل الجمحي، صحابي شاعر. يماني الأصل، مكي المولد، شارك بفتوح دمشق، شارك مع الإمام علي كرّم الله وجهه في وقعة الجمل، وصفين وفيها قتل شهيدًا سنة ٣٧هـ. راجع الإصابة جـ٤ ص١٥٥.

يَزْحَف بالمَيْمَنة، وكان قد تولاها عَشِيَّة الخميس وليْلة الجمعة إلى ارتفاع الضحَى، وهو يقول لأصحابه: ازْحَفوا قِيدَ[١] هذا الرمح. ويزحَف بهم نحْوَ أهل الشام، فإذا فعل ذلك بهم قال: ازحَفوا قِيدَ هذا القوس. فإذا فعلوه سألهم مِثل ذلك، حتَّى ملَّ أكثر الناس الإقدام، فلما رأى الأشتر ذلك دعا بفرسه فركبه وترك رايته مع حيان بن هَوْذة النَّخعي، وخرج يسير في الكتائب ويقول: مَنْ يَشْرِي نفسَه ويقاتِل مع الأشتر حتَّى يظهَرَ[٢] أو يلحَقَ بالله؟ فاجتمع إلَيه جمع كثير، فيهم حيّان بن هَوْذة النخعي وغيره، فرجع بهم إلى المكان الذي كان فيه، وقال لهم: «شُدُّوا شدَّة - فِدًى لكم خالي وعمِّي - تُرْضُون بها الربَّ، وتُعِزُّون بها الدين» ثمّ نزل فضرب وجه دابَّته، وقال لصاحب رايته: أقدِمْ بها. وحمل بالقوم فضرب أهلَ الشام حتَّى انْتهى بهم إلى عسكرهم، فقاتلوه عند العسكر قتالاً شديدًا، وقُتِل صاحب رايته، فلمّا رأى عليٌّ الظَّفر من ناحيته أمَدَّه بالرجال.

فقال عَمْرو لِوَرْدان[٣]: تدرِي ما مَثلي ومَثلك ومَثل الأشتر؟ قال: لا. قال «كالأشقر إن تقدّم عُقر وإن تأخَّر عُقر[٤]! لئن تأخَّرت لأضربِنَّ عُنقك!» قال: أمَا واللّهِ يا أبا عبدِ الله لأُورِدَنَّك حِياض المَوت ضعْ يَدَك على عاتقي. ثم جعل يتقدّم ويتقدّم ويقول: والله لأُورِدَنَّك حِياض المَوت. واشتد القتال.

فلمّا رأى عَمرو أنَّ أمر أهل العراق قد اشتدَّ، وخاف الهلاك، قال لمُعاوية: هل لك في أمر أعرِضُه عليك لا يزيدنا إلاً اجتماعًا ولا يَزيدُهم إلاَّ فُرْقة؟ قال: نعم. قال: «نرْفع المصاحف، ثم نقول لما فيها هذا حكمُ الله بَيننا وبَينكم، فإنْ أبى بعضُهم أنْ يَقْبَلها وجدت فيهم من يقول: ينبغي لنا أن نقبل. فتكون فُرْقة بينهم، فإنْ قبِلوا ما فيها رفعْنا القتال عنَّا إلى أجَل».

ذكر رفع أهل الشام المصاحف
وما تقرر من أمر التحكيم وكتاب القضية

قال: ولما أشار عَمْرو بن العاص على مُعاوية برفع المصاحف أمر برفْعها، فرُفِعَتْ بالرماح، وقال: «هذا كتاب الله بَيْننا وبَينكم، مَن لِثُغُور الشام بعد أهله؟ مَن لِثُغور العراقَ بعد أهله؟»

فلما رآها الناس قالوا: نُجيب إلى كتاب الله! فقال لهم عليٌّ رضي الله عنه:

---

(١) قيد الشيء: قدره.

(٢) ينتصر.

(٣) مولى عمير وابن العاص.

(٤) صواب الثانية نحر.

«عِبَادَ الله، امْضُوا على حقكم وصِدْقكم قتالَ عدوِّكم، فإن مُعاوية وعَمْرًا وابْن أبي مُعَيْط وحبيبًا[(١)] وابن أبي سَرْح والضحاك[(٢)] ليْسوا بأصحاب دِين ولا قُرآن، أنا أعْرَف بهم منكم، قد صحِبْتُهم أطفالاً ثم رجالاً، فكانوا شر أطفال وشر رجال! وَيْحَكم! واللّهِ ما رفعوها إلا خديعةً ووهنًا[(٣)] ومَكيدة!» فقالوا له: لا يَسَعُنا أن نُدْعَى إلى كتاب الله فنأبى أن نقْبَله! فقال لهمْ عليٌّ رضي الله عنه: «فإنِّي إنما أقاتلهم ليَدِينوا بحُكم الله، فإنهم قد عصَوُا اللّهَ فيما أمرهم، ونسُوا عهده، ونبَذوا كتابه!» فقال مِسْعَر بن فدَكيّ التميمي وزيد بن حُصَين الطائي في عصابة من القُراء الذين صاروا خوارج بعد ذلك: «يا علي، أجبْ إلى كتاب الله عزّ وجل إذْ دُعِيت إليه، وإلا دفعناك بِرُمَّتِك[(٤)] إلى القوم أو ونفعلُ بك كما فعلنا بِابْنِ عَفان!» قال: «فاحفظوا عنِّي نهْيي إياكمْ، واحفظوا مقالتكم لي، فإنْ تُطيعوني فقاتلوا، وإنْ تعْصُوني فاصْنعوا ما بَدا لكم!».

قالوا: ابعثْ إلى الأشتر فلْيَأْتِك. فبعث عليٌّ يَزيد بن هانىء إلى الأشتر يستدعيه، فقال: «ليست هذه الساعة بالساعة التي ينبغي لك أن تُزيلني فيها عن مَوْقِفي، إني رجَوتُ أن يفتح اللّهُ لي!» فرجع يزيد فأخبره، وارتفعت الأصوات، وارتفع الرهْجُ[(٥)] من ناحية اوشتر، فقالوا: واللّهِ ما نراك إلا أمرته أن يُقاتل! فقال: «هل رأيتموني ساررْتُه؟ أليس كلمته على رؤوسكم وأنتم تسمعون؟» فقالوا: «ابعث إليه فلْيَأْتك، وإلا واللّهِ اعتزلناك!» فقال: «ويْلك يا يزيد! قل له أقْبِلْ إليَّ، فإن الفتنة قد وقعت!» فأبلغه ذلك، فقال الأشتر: ألِرَفْعِ المصاحف؟ قال: نَعَمْ. قال: «واللّهِ لقد ظننتُ أنها ستوقع اختلافًا وفُرْقة، إنها مشورة ابن العاص، ألا ترى إلى الفتح؟ ألا ترى ما يَلْقوْن؟ ألا ترى ما صنع الله لنا؟ أينبغي أن أدَعَ هؤلاءِ وأنصرفَ عنهم؟» فقال له يزيد: أتحب أن تظفرَ وأميرُ المؤمنين يُسلَّمُ إلى عدوِّه أوْ يُقتل؟ قال: «لا واللّهِ! سُبْحان الله!» فأعلمه بقولهم، فأقبل إليهم الأشتر وقال: «يا أهل العراق، يا أهل الذُّلّ والوَهن، أحِين عَلوْتُم القوم وظنُّوا أنكم لهم قاهرون رفعوا المَصاحف يدعونكم إلى ما فيها؟ وهم واللّهِ قد تركوا ما أمَر اللّهُ به فيها وسُنة مَن أُنزلت عليه! فأمهِلوني

---

(١) ابن مسلمة.

(٢) الضحاك بن قيس.

(٣) ضعفًا.

(٤) أرادوا به كله، وهو تعبير عن الحبل الذي يُشد بها الأسير أو سواه وكان يترك مع المشدود به إذا أعيد أو غير ذلك.

(٥) الغبار وما يصاحبه ويسببه من ضجيج وحركة.

فوَاقًا[١] فإنِّي قد أحسست بالفتح، قالوا: لا. قال: أمهِلوني عَدْوَ الفرَس فإني قد طمِعتُ في النصر، قالوا: إذن ندخُلَ معك في خطيئتك! قال: «فخبِّرُوني عنكم متى كنتم مُحِقِّين؟ أحِين تُقاتلون وخِيارُكم يُقْتلون؟ فأنتم الآن إذا أمسكتم عن القتال مُبْطِلون! أم أنتم الآن مُحقُّون؟ فقتْلاكم الذين لا تُنكرون فضْلهم وهم خيْرٌ منكم في النار!» فقالوا: «دَعْنا منك يا أشْتر، قاتلناهم لله، وندَعُ قتالهم لله!» فقال: «خُدعْتم فانْخدَعتم ودُعِيتم إلى وضْع الحرب فأجَبتم، يا أصحاب الجِباهِ السُّود[٢]، كنا نظنُّ صلاتكم زهادةً في الدنيا وشوقًا إلى لقاء الله، فلا أرَى مرادكم إلا الدنيا، ألا قبْحًا يا أشباه النِّيب الجلاَّلة[٣]، ما أنتم بِرائِين بعدها عزًّا أبدًا، فابْعدُوا كما بَعِهدَ القوْم الظالمون!» فسبوه وسَبهم، وضربوا وجه دابته بسياطهم، وضرب وجوهَ دوابهم بسَوطه، فصاح به وبهم عليٌّ رضي الله عنه، فكفُّوا.

وقال الناس: قد قبلْنا أن نجعل القرآن بَيننا وبَينهم حَكمًا. فجاء الأشعث بن قيْس إلى علي فقال له: أرَى الناسَ قد رضُوا بما دعَوْهم إليه من حُكم القرآن، فإن شئت أتيتُ مُعاوية فسألتُه ما يريد. قال: ايتِه. فأتاه فقال: يا مُعاوية لأيِّ شيءٍ رفعتم هذه المَصاحف؟ قال: «لِنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به في كتابه، تبعثون رجلاً ترضون به، ونبعث رجلاً نرضى به، نأْخذ عليهما أن يعمَلا بما في كتاب الله لا يَعْدُوَانِه، ثم نتبعُ ما اتفقا عليه». فقال له الأشعث: «هذا الحق، هذا الحق». فعدا إلى علي فأخبره، فقال الناس: قد رضينا وقبِلْنا.

فقال أهل الشام: قد رضِينا عَمْرًا. فقال الأشعثُ وأُولئك القومُ الذين صاروا خوارج: فإنا قد رضِينا بأبي مُوسَى الأشْعَري. فقال عليٌّ رضي الله عنه: «قد عصَيْتموني في أول الأمر، فلا تعصُوني الآن، لا أرَى أن أُوَلِّيَ أبا موسى» فقال الأشعث وزيد بن حصين ومِسْعَرُ بن فدَكِيّ: لا نرضى إلا به فإنه قد حذّرنا ما وقعْنا فيه! قال علي «فإنه ليس لي بثقة، قد فارقني وخذَّل الناس عني، ثم هرَب مني حتى آمنتُه بعد أشهر، ولكنْ هذا ابنُ عباس أُولِّيه ذلك». قالوا: «واللّهِ ما نُبالِي أنت كُنت أم ابن عبّاسْ، لا نُريد إلا رجلاً هو منك ومن مُعاوية سَواء» قال علي: فإني أجعل الأشتر. قالوا: وهل سَعَّرَ[٤] الأرض غيْر الأشتر؟ قال: قد أبَيْتم إلا أبا موسَى. قالوا:

(١) اليسير من الوقت الذي يقتضيه راحة الناقة ما بين حلبتين.

(٢) كناية عن كثرة سجودهم وتشفيها.

(٣) الناقة المسنة التي ترعى النفايات.

(٤) كناية عن إشعال نار الحرب.

نعم، قال: فاصنعوا ما أردتم! فبعثوا إليه وقد اعتزل القتال وهو بعُرْض[١] فأتاه مَوْلًى له فقال: إن الناسَ قد اصطلحوا. فقال الحمد لله. قال: قد جعلوك حَكَمًا. قال: إنا لله وإنا إليْه راجعون، وجاء أبو موسَى حتى دخل في العَسْكر.

وجاء الأشترُ عَلِيًّا فقال: أَلِزَّني بعَمْرو بن العاص، فوالله لئن ملأْت عَيْني منه لأقتُلنه!.

وجاء الأحْنف بن قيْس فقال: «يا أميرَ المؤمنين، إنك قد رُمِيت بِحَجَر الأرض[٢]، وإنِّي قد عَجَمْت[٣] أبا موسَى وحَلبْتُ أشْطُرَه[٤]، فوجدته كلِيلَ الشفْرة[٥] قريبَ القعْر[٦]، وإنه لا يصلُح لهؤلاء القوم إلا رجل يدنو منهم حتى يصيرَ في أكُفِّهم ويبعُد عنهم حتى يصير بمنزلة النجم منهم، فإن أبيت أن تجعلني حكمًا فاجعلني ثانيًا أو ثالثًا، فإنه لن يَعقِد عُقْدة إلا حَللْتُها، ولا يَحُلُّ عُقدة أعقِدها إلا عقدت أخرَى أحكمَ منها!» فأبى الناس إلا أبا موسَى والرضا بالكتاب، فقال الأحنف بن قيْس: إنْ أبَيْتم إلا أبا موسَى فأدفئوا ظهره بالرجال[٧].

وحضر عمرو بن العاص عند عليّ لتُكْتَب القضيَّة بحضوره، فكتبوا «بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذا ما تقاضَى عليه أمير المؤمنين» فقال عمرو: هو أميركم أمَّا أميرنا فلا. فقال له الأحنف: لا تَمْحُ اسْمَ أمير المؤمنين فإني أتخوّف إنْ محَوْتَها ألاَّ ترجعَ إلَيْك أبَدًا، لا تَمْحُها وإنْ قتل الناسُ بعضهُم بعضًا، فأبَى ذلك عليٌّ مَلِيًّا من النهار، ثم قال الأشعث بن قيْس: امْحُ هذا الاسم. فمُحي، فقال عليّ رضي الله عنه: «الله أكبر! سُنَّة بسنة، والله إنِّي لكاتِبُ رسول الله ﷺ يوم الحُدَيْبية، فكتبتُ: «محمد رسول الله» فقالوا: لستَ برسول الله ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فأمرني رسول الله عليه الصلاة والسلام بمَحْوِه، فقلت: لا أستطيع. فقال أرِنيه. فأرَيْتُه فمحاه بيده وقال: إنَّك ستُدْعَى إلَى مثلها فتُجيب!». فقال عمرو: «سُبْحانَ الله! أنُشبَّه بالكُفَّار ونحن مؤمنون؟» فقال عليٌّ رضي الله عنه: يا ابن النابغة[٨] ومَتى لم تكن للفاسقين وليًّا وللمؤمنين عدُوًّا؟ فقال عمرو: والله لا يجمع بَيْني وبَيْنك مجلس بعد هذا اليوم أبدًا! فقال عليّ: إني لأرجو أن يطهِّر الله مجلسي منك ومن أشباهك.

---

(١) عرض: بضم أوله وسكون ثانيه، بليدة في برية الشام تدخل في أعمال حلب بين تدمر والرصافة. راجع معجم البلدان جـ٤ ص١٠٣.

(٢) كناية عن الداهية التي تنزل نزول الصخر. (٣) خبرت.

(٤) كناية عن معرفته بحلوه ومره كما يعرف الناقة راعيها وحالبها.

(٥) من السيف حده الذي لا يقطع. (٦) كناية عن قرب مرماه وخفة أمره.

(٧) ليكونوا له سندًا. (٨) نبغت المرأة إذا اشتهرت بسوء في عرضها.

وكتب الكتاب: هذا ما تقاضَى عليه عليّ بن أبي طالب ومُعاوية بن أبي سفيان، قاضى عليٌّ على أهل الكوفة ومن معهم، وقاضى مُعاوية على أهل الشام ومن معهم، أنّا ننزل عند حكم الله وكتابه، وألاّ يجمع بَيننا غيره، وأنَّ كتاب الله بَيننا من فاتحته إلى خاتمته، نُحْيي ما أحيا ونُمِيت ما أمات، فما وجد الحَكمَان في كتاب الله، وهما أبو موسَى عبد الله بن قَيْس وعَمرو بن العاص، عمِلا به، وما لم يجدا في كتاب الله تعالى فالسُّنَّة العادلة الجامعة غير المفرِّقة. وأخذ الحَكَمان من عليّ رضي الله عنه ومن مُعاوية ومن الجند من العهود والمواثيق أنهما آمِنان علَى أنفُسهما وأهلهما، والأُمَّةُ لهما أنصارٌ علَى الذي يتقاضيان عليه، وعلى عبد الله بن قيس عمرو بن العاص عهدُ الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمَّة ولا يردَّاها في حرب ولا فُرقة حتَّى يعصيا، وأجّلا القضاء إلى رمضان، وإن أحبّا أن يؤخرا ذلك أخَّراه، وإن مكان قضيَّتهما مكانُ عدلٍ بين أهل الكوفة وأهل الشام. وشهد جماعة من الطائفتين.

وقيل للأشتر: لتكتبْ[1] فيها. فقال: «لا صحبَتْني يَميني ولا نفعتْني بعدها شِمالي إن خُطَّ لي في هذه الصحيفة خطٌّ! أوَلستُ على بَيِّنَةٍ من ربِّي من ضلال عدوّي؟ أوَلستم قد رأيتم الظّفر؟» فقال له الأشعثُ[2]: ما رأيت ظَفَرًا هَلُمَّ إلَينا فإنه لا رغبةَ بك عنّا. فقال: «بلَى والله الرغبةُ عنك في الدنيا للدنيا وفي الآخرة للآخرة! ولقد سفك الله بسَيْفي دماء رجال ما أنت عندي خَيْر منهم ولا أحْرَم دمًا!».

قال: وخرج الأشعث بالكتاب يقرؤه على الناس حتى مَرَّ علَى طائفة من بني تميم، فيهم عُرْوَة ابن أُدَيَّة[3] أخو أبي بِلال، فقرأه عليهم، فقال عروة: تحكِّمون في أمر الله الرجال، لا حُكمَ إلاّ لله. ثم شَدَّ بسَيفه فضرب به عَجُزَ دابّة الأشعث ضربةً خفيفة، واندفعت الدابّة، وصاح به أصحاب الأشعث فرجع.

وكُتِب الكتاب يوم الأربعاء لثلاثَ عشرةَ خلت من صفر سنة سبع وثلاثين..

---

(١) أي ليوقِّع كما وقع غيره من قادة الجند.

(٢) حيث يظهر في كثير من النصوص ميل الأشعث إلى معاوية للاقتدار الأخير على شراء الرجال بالمال وسواه.

(٣) عروة بن حدير التميمي، وأديّة أمه، وسيفه أول سيف سلّ ضد التحكيم، بعد أن فرضوه فرضًا على إمام زمانه علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، شارك في النهروان وكان من العشرة الناجين. عاش حتى زمان عبيد الله بن زياد ابن أبيه وقتله هذا الأخير سنة ٥٨هـ. راجع تلبيس إبليس لابن الجوزي ص٩١.

واتفقوا أن يكون اجتماع الحَكمين بِدُومَة الجَنْدَل[١]، أو بِأذْرَح[٢]، في شهر رمضان.

قال: وقيل لعليّ: إن الأشتر لا يُقِرُّ بما في الصحيفة ولا يرَى إلاَّ قتالَ القَوم. فقال عليّ رضي الله عنه: «وأنا والله ما رضِيتُ ولا أحببتُ أن ترضَوْا، فإذْ أَبَيْتُم إلاَّ أن ترضَوْا فقد رضِيت، وإذْ رضِيتُ فلا يصلح الرجوع بعد الرضا ولا التبديلُ بعد الإقرار، إلاَّ أن يُعصَى اللّهُ ويُتعدَّى كتابُه، فتقاتلوا مَن ترك أمرَ الله. وأمّا الذي ذكرتم مِن تَرْكه أمري وما أنا علَيه فليسَ من أُولئك، ولستُ أخافه علَى ذلك، يا لَيْتَ فيكم مِثْلَه اثنين، يا لَيْتَ فيكم مثله واحدًا يرَى في عدوي ما أرَى، إذَن لخفَّتْ عليّ مؤنتكم، ورجوت أن يستقيم لي بعض أَوَدكم[٣]، وقد نَهَيْتكم فعصَيتموني، فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن[٤]:

وهــل أنــا إلاَّ مِــن غَــزِيَّــةَ إنْ غَــوَتْ غَــوَيْــتُ وإنْ تَــرْشُــدْ غَــزِيَّــةُ أرْشُــدِ

والله لقد فعلتم فعْلةً ضَعْضَعَت قوَّة، وأسقطت مُنَّة[٥]، وأوْرثتْ وَهْنًا وذلَّة، ولما كنتم الأعلَيْن، وخاف عدوُّكم الاجْتياح، واستَحَرَّ[٦] بهم القتل، ووجدوا أَلَمع الجِراح، رفعوا المصاحف فدعَوْكم إلَى ما فيها ليَفْتنوكم عنهم، ويقطَعوا الحرب، ويتربّصوا بكم رَيْبَ المَنُون، خَدِيعةً ومَكيدة، فأعطَيْتموهم ما سألوا، وأبَيْتم إلاَّ أن تُدْهِنوا وتحيروا، وأيْمُ اللّهِ ما أظنُّكم بعْدَها توفَّقون لرشد، ولا تصيبون بابَ حزم».

قال: ثم تَراجع الناس عن صِفِّين.

هذا ما أورده أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تاريخه، وهو الذي اعتمد عليه عز الدين علي بن محمد بن الأثير الموصلي في تاريخه الكامل، من حرب صِفِّين، وقد أسقطنا بعض ما أورداه، وأتيْنا بألفاظ لم يأْتِيا بها نسبناها إلَى من حكاها.. وأخبار أيام صِفِّين كثيرة، قد بسَط أهلُ التاريخ فيها القول، وذكروا ما اتفق

---

(١) دومة لجندل: حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طيىء. راجع معجم البلدان ج٢ ص٤٨٧.

(٢) أذرح: بالفتح ثم السكون وضم الراء. اسم بلد من أطراف الشام، قبلي فلسطين من ناحية الشراة. راجع معجم البلدان ج١ ص١٢٩.

(٣) اعوجاجكم.

(٤) كنى به دريد بن الصمة ينتهي بنسبه إلى هوازن، شاعر فارس مخضرم غير أنه لم يسلم. وقد ظاهر المشركين يوم حنين وفيه قتل على شركه. راجع الأغاني ج١٠ ص٨ وما بعدها.

(٥) المُنة بالضم: القوة.

(٦) أخذ بهم كل مأخذ.

في أيامها يَوْمًا يَوْمًا، رأينا تَرْك ذلك والإغضاء عنه أوْلَى، وكنا نُؤْثِر ألاَّ نُلِمَّ بذكر أيام صِفِّين ولا وقعة الجمل، وإنما ضرورة التاريخ دعت إلَى ذلك.

وحكى أبو عمر بن عبد البر[(١)] في ترجمة بُسْر بن أرطأة[(٢)] من كتابه الاستيعاب: أنَّ مُعاوية أمر بُسْر بن أرطأة بن أبي أرطأةَ، وكان معه بِصِفِّين أن يَلْقَى عَلِيًّا في القتال، وقال له: «سمعتك تتمنَّى لقاءه، فلو أظفرك الله وصرَعْتَه حصَلت علَى دنيا وآخرة»، ولم يزل يشجِّعه ويمنِّيه، حتَّى رآه فقصده في الحرب، قال: وكان بُسر بن أرْطأة من الأبطال الطُّغاة، فالْتَقَيَا، فصرعه عليٌّ، وعرَض له معه مثل ما عرض ـ فيما ذكر ـ لعليّ معْ عَمرو بن العاص. قال وذكر ابن الكلبي[(٣)] في كتابه في أخبار صِفِّين أن بُسْر بن أرْطأة بارَز عليًّا يَوْم صِفِّين، فطعَنه عليُّ فصرعه، فانكشف له[(٤)]، فكفَّ عنه، كما عرض له، فيما ذكروا، مع عمرو بن العاص، ولهم فيها أشعار مذكورة في موضعها من ذلك الكتاب، منها فيما ذكر ابن الكلبي والمدائني[(٥)] قول الحارث بن النضر السَّهْمي[(٦)] ـ وكان عدوًّا لعَمرو[(٧)] بن العاص وبُسْر بن أرْطأة ـ: [من الطويل]:

أفـي كُـلِّ يَـوْم فـارسٌ لَـيس يَـنْـتـهـي ... وعَـوْرَتُـهُ بَـيْـن الـعَـجـاجـة[(٨)] بـاديَـهْ[(٩)]

يَـكُـفُ لَـهـا عَـنْـهُ عـلـيٌّ سـنـانَـه ... ويـضـحـك مـنـه فـي الـخَـلاءِ مُـعـاويَـهْ

بَـدَتْ أمْـسِ مِـن عَـمْـرِو فَـقَـنَّـع رأسَـه ... وعَـوْرة بُـسْـرٍ مِـثْـلُـهـا حَـذْوَ حـاذيَـهْ

---

(١) صاحب الاستيعاب جـ١ ص١٦٠.

(٢) بسر بن أرطأة العامرة القرشي، كنيته أبو عبد الرحمٰن. تبع معاوية على متّبع، حتى أنه حلف بقتل من يراه من أصحاب علي ففعل، وتولى البصرة لمعاوية، وقد عمر حتى ناهز تسعين عامًا وقد التاث قبل موته بزمن. ومات سنة ٨٦هـ. راجع تهذيب ابن عساكر جـ٣ ص٢٢٠.

(٣) هشام بن محمد بن السائب بن بشر من كلب، كنيته أبو المنذر، واشتهر بابن الكلبيي، له الأنساب وفيه شك وتدليس، وله الأصنام وهو أجود.

(٤) انكشف له: أراد أظهر بسر عورته، وكان من عادة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه أن يشيح بوجهه فلا ينظر إلى عورات الآخرين فأتيح لبس هذا النجاة وحصل الأمر ذاته مع عمرو بن العاص حتى أن أبي فراس وكثير من الشعراء قد عيّروا عمرو وبسر بها.

(٥) علي بن محمد بن عبد الله كنيته أبو الحسن، راوٍ ومؤرخ. ذكر ابن النديم نيف ومائتين من مصنفاته، سكن المدائن وإليها نسب وتوفي سنة ٢٢٥هـ.

(٦) صحابي شاعر. راجع الإصابة جـ١ ص٢٩١.

(٧) لاحظ كيف ينتقد النويري متحيرًا المؤرخ أو الشاعر بنقل الحدث.

(٨) العجاج: الغبار. (٩) ظاهرة.

فقُولا لعَمْرو ثم بُسْرٍ: ألا انْظُرَا سَبِيلَكما، لا تلقَيَا الليثَ[١] ثانِيَهْ
ولا تَحْمَدَا إلاَّ الحَيَا وخُصَاكُما[٢] هُمَا كانتا واللّهِ للنَّفسِ وَاقِيَهْ
ولَوْلاهُما لم تَنْجُوَا مِن سِنَانِه وتِلْكَ بما فيها عَنِ العَوْدِ نَاهِيه
وكُونَا بعيدًا حيثُ لا تبلُغُ القَنَا نُحُورَكُما إنَّ التَّجَارِبَ كافِيَهْ

قال أبو عمر: إنَّما كان انصراف عليٍّ عنهما وعن أمثالهما من مَضْرُوع أو مُنهزِم؛ لأنه كان لا يرَى في قتال الباغين علَيْه من المسلمين أن يَتَّبع مُدْبِرًا ولا يُجْهِز علَى جَريح ولا يقتُل أسِيرًا، وتلك عادته في حروبه في الإسلام، رضي الله عنه.

وروى أبو عمر بن عبد البر أيضًا بسند يرفعه إلى يَزيد بن حبيب قال: اصطحب قَيْس بن خَرَشَة، وكعب الأحبار[٣]، حتَّى إذا بلَغا صِفِّين وقَفَ كعبٌ ثم نظر ساعة فقال: «لا إله إلا الله، ليُهْرَاقَنَّ بهذه البُقْعَة من دِماء المسلمين شيءٌ لم يُهْرَق ببقعة من الأرض» فغضب قَيْسٌ وقال: «وما يُدريك يا أبا إسحاق؟ فإنَّ هذا من الغَيْب الذي اسْتأثر الله به» فقال كعب: ما من شِبْر من الأرض إلاَّ وهو مكتوبٌ في التَّوراة التي أنزل اللّهُ علَى نبيِّه موسَى بن عِمْرانَ عليه السلام ما يكون عليه إلَى يوم القيامة.

واخْتُلف في عِدّة من شَهِد صِفِّين، فقيل: كان جَيش عليٍّ رضي الله عنه تسعين ألفًا، وجَيش مُعاوية مِائة وعشرين ألفًا، وقيل: أقل من ذلك.

وقُتِل من العِراق خمسة وعشرون ألفًا، منهم عمّار بن ياسر وخمسة وعشرون بَدْرِيًّا، وقُتِل من عسكر معاوية خمسة وأربعون ألفًا.

قال: ولمَّا رجع عليٌّ رضي الله عنه إلَى الكوفة خالفه الحَرُورِيّة وأنكروا تحكيمَ الرجال، وكان من أمرهم ما نذكره إن شاء الله في أخبار الخوارج علَى عليٍّ، وكان فيما بين رجوع عليٍّ واجتماع الحَكَمَيْن ما نذكره إن شاء الله تعالى في حوادث السنين.

---

(١) كناية عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه.

(٢) أنثيا الرجل وكنّي بهما عن العورة وفي هذا البيت هجاءٌ مقذع لأن الحارث بن النضر لم يذكر ذكرهما ـ أداة نسلهما ـ لاقتضاء الفحولة. فانتخب لفظ (الخصى) لتحصيلها معنى (الخصي) و(الإخصاء) تداعيًا وجناسًا ذهنيًا.

(٣) كعب بن مانع بن ذي هجن الحميري، كنيته أبو إسحاق، تابعي، كان من أحبار اليهود قبل أن يسلم في زمن أبي بكر رضي الله عنه ويجيء المدينة في زمن عمر رضي الله عنه في كتب الأحاديث ما لا يحصى من أخبار الأمم الغابرة التي رواها كعب للمسلمين، حتى أن الدارسين ينسبون إليه كل هرطقة تتعلق بما يناقض الكتاب، عمر طويلاً وتوفي في حمص من أعمال الشام حيث كان قريبًا من معاوية.

ذكر اجتماع الحكمين

قال: ولما جاء وقت اجتماع الحَكَمين أرسل عليٌّ رضي الله عنه أربعَمِائة رجل علَيْهم شُرَيْح بن هَانِيء الحارثي، وأرسل عبدَ الله بن عباس يصلي بهم ويَلِي أُمورهم، ومعهم أبو موسَى الأشعري. وأرسل مُعاوية عمْرو بن العاص في أربعمِائة من أهل الشام، حتى تَوَافَوْا من دُومَة الجَنْدَل بأذْرُح.

وكان عمْرو إذا أتاه كتاب من مُعاوية لا يَدري أحدٌ ما جاء فيه، ولا يسْأله أهل الشام عن شيء، وكان أهلِ العراق يسألون ابنَ عبَّاس عن كلِّ كتاب يصل إلَيه من عليٍّ، فإن كتمه ظَنُّوا به الظُّنون وقالوا: نراه كتب بكذا وكذا، فقال لهم ابنُ عبّاس رضي الله عنه: «أما تعقلون، أما ترون رسولَ مُعاوية يجيءُ فلا يعلمُ أحدٌ ما جاء به ولا يُسمع لهم صياح؟ وأنتم عندي كُلَّ يوم تظنُّون الظُّنون».

قال وحضر معهم عبد الله بن عُمر بن الخطاب، وعبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق، وعبد الله بن الزُّبَير، وعبد الرحمٰن الحارث بن هشام، وعبد الرحمٰن بن عبد يَغُوثَ الزهري، وأبو جَهْم بن حُذَيفة العَدَوي، والمغِيرة بن شُعْبةَ. وكان سَعْد بن أبي وَقَّاص على ماء لبني سُلَيْم بالبادية، فأتاه ابنه عمر فقال له: «إنَّ أبا موسَى وعَمرًا قد شهدَهم نفرٌ من قُريش فاحضر معهم، فإنَّك صاحب رسول الله ﷺ وأحد أصحاب الشُّورَى، ولم تدخل في شيء كرِهتْه هذه الأُمّة، وأنت أحقُّ الناس بالخلافة» فلم يفعل، وقيل: بل حضرهم سعد وندِم علَى حضوره، فأحرم بعُمْرة من بيت المقدس.

قال: ولما اجتمع الحَكَمان قال عمرو بن العاص: يا أبا موسَى ألستَ تعلم أنَّ عُثمان قُتل مظلومًا؟ قال: أشهَد. قال: ألستَ تعلم أنَّ مُعَاوِيَة وآلَ مُعاوية أوْلِياؤه؟ قال: بلى.. قال: فما يَمنعك منه وبَيْتُهُ في قُريش كما قد علمتَ؟ فإن خِفت أن يقول الناس ليستْ له سابقة فقل: وجدتُه وليَّ عثمان الخليفةِ المظلوم، والطالبَ بدمه، الحسَنَ السياسة والتدبير، وهو أخو أُم حَبِيبَة زَوْج النبيّ عليه الصلاة والسلام، وكاتِبه، وقد صحبه» وعرَّض له عَمرو بسُلطان، فقال أبو موسَى: «يا عَمرو، اتَّقِ الله! أمَّا ما ذكرتَ من شرف مُعاوية فإن هذا لَيس علَى الشرف يُوَلاَّه أهله، ولو كان علَى الشرف لكان لآلِ أبْرَهَة بن الصّبّاح، إنَّما هو لأهل الدِّين والفضل، مع أني لو كنتُ مُعطِيَه أفضل قُريش شرفًا أعطيتُه علي بن أبي طالب، وأمّا قَولُك إنَّ معاوية وليُّ دم عُثمان فوَلِّهْ هذا الأمر، فلم أكن لأوَلِّيَه مُعاوية وأدعَ المهاجرين الأوَّلين، وأمَّا تعريضك لي بالسلطان؛ فَوَاللّهِ لو خرج لي مُعاويةُ من سلطانه كُلِّه ما وَلَّيْتُه، وما كنتُ لأرتشِيَ في حكم الله، ولكنك إن شئت أن تُحْيي اسم عُمر بن الخطاب» قال له عمرو: فما

يمنعك من ابني عبد الله وأنت تعلم فضله وصلاحه؟ فقال له: إن ابنك رجل صِدْقٍ، ولكنك قد غَمَسْتَه في هذه الفتنة. فقال عمرو: إن هذا الأمر لا يصلح إلا لرجل يأكل ويُطعم[١]. وكانت في ابن عمر غفلة، فقال له ابن الزبير: افْطَنْ وانْتَبِهْ، فقال: والله لا أرشو عليها شيْئًا أبدًا. وقال: يا ابن العاص إنَّ العرب قد أسندتْ إلَيك أمرها بعدما تقارعوا بالسيوف فلا تَرُدَّنَّهم في فتنة.

وكان عمرو قد عَوّد أبا موسَى أن يقدِّمه في الكلام، يقول له: أنت صاحبُ رسول الله ﷺ وأسَنُّ منِّي فتكلم. فتعوّدَ ذلك أبو موسَى، وأراد عَمرو بذلك كلِّه أن يقدِّمه في خَلْع علي. فلمّا أراده عمرو علَى ابنه وعلَى معاوية فأبَى، وأراد أبو موسَى عَمْرًا علَى ابن عُمَر فأبَى عَمْرو، قال له عَمْرو: خبِّرْني ما رأيك؟ قال: «أرى أن نخلعَ هذين الرجلَين ونجعلَ الأمر شُورَى، فيختار المسلمون لأنفسهم من أحَبُّوا» فقال عمرو: الرأْي ما رأيتَ.

فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون، فقال عَمرو: يا أبا موسى أعْلِمْهم أن رأْينا قد اتفق. فتكلم أبو موسَى فقال: إن رأينا قد اتفق علَى أمر نرجو أن يُصلح الله به أمر هذه الأُمة. فقال عمرو: صَدَقَ وبَرّ، تقدمْ يا أبا موسَى. فتقدَّمَ أبو موسَى، فقال له ابن عباس: «ويْحك! والله إني لأظنُّه قد خَدَعَك، إن كنتما قد اتفقتما علَى أمر فتقدِّمْه فليتكلَّمْ به قبلك، فإنه رجل غادِر، ولا آمَنُ أن يكون قد أعطاك الرضَى بَيْنكما، فإذا قمتَ في الناس خالفك!» وكان أبو موسى مُغَفَّلاً[٢]، فقال: إنا قد اتفقنا، فتقدَّمَ فقال: «أيُّها الناس، إنَّا قد نظرنا في أمر هذه الأُمّة، فلم نر أصْلَحَ لِأمرها ولا ألَمَّ لشَعَثِها من أمرٍ قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه، وهو أن نخلَع عليًا ومُعاوية ويولِّي الناسُ أمرَهم مَن أحبُّوا، وإني خلعتُ عليًا ومعاوية، فاستقبِلوا أمْرَكم وولُّوا علَيكم من رأيتموه أهلاً». ثم تنحَّى، وأقبل عمرو فقام وقال: «إن هذا قد قال ما سمعتموه، وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه، وأُثْبِتُ صاحبي معاوية، فإنه وَليُّ عثمان بن عفَّان، والطالِبُ بدمه، وأحقُّ الناس بمقامه»، فقال سعد: ما أضعَفَك يا أبا موسَى عن عمرو ومكايده! فقال أبو موسى: فما أصنع؟ وافقني على أمر ثم نَزَع عنه!

---

(١) لاحظ قوله يأكل (من مال الله) ويطعم (من مال الله) من دون الرجوع إلى كتاب الله وسنّة رسوله.

(٢) هكذا أجمع المؤرخون بنقل واحد، والظاهر أن أبا موسى كان بخلاف ذلك تشهد له شهرته وتوليه أعمالاً إسوةً بغيره من الصحابة، ولعل تغفيل أبا موسى كان أمثل المخارج لبناء الأمويين على نتائج التحكيم.

فقال ابن عبّاس: لا ذنبَ لك يا أبا موسَى الذنبُ لمن قدّمك في هذا المقام! قال: غدر فما أصنع؟ قال ابن عمر: انظروا إلَى ما صار أمر هذه الأُمة: إلى رجل لا يبالي ما صنع وآخر ضعيف. وقال عبد الرحمٰن بن أبي بكر: لو مات الأشعَريّ قبل هذا اليوم كان خيرًا له. وقال أبو مُوسَى لعمرو: «لا وفَّقك الله، غدرتَ وفجرتَ، إنما مثلك ﴿كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾ [الأعراف: ١٧٦] فقال له عمرو: إنما مثلك ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ [الجمعة: ٥].

قال: والتمس أهلُ الشام أبا موسَى فهرب إلى مكة، ثم انصرف عمرو وأهل الشام إلَى مُعاوية فسلَّموا عليه بالخلافة، ورجع ابن عباس وشُرَيْح إلَى عليٍّ رضي الله عنه، فكان عليّ إذا صلَّى الغَداة يقْنُتُ فيقول: اللهم العن معَاوية وعمرًا وأبا الأعور وحَبِيبًا وعبدَ الرحمٰن بن خالد والضحاك بن قَيس والوَليد. فبلغ ذلك مُعاوية، فكان إذا قَنَتَ لَعَن عليًا وابن عبّاس والحسَن والحُسين والأشتر.

وقيل: إن معاوية حضر الحكمين، وأنه قام عشية في الناس فقال: أما بعد، من كان متكلمًا في هذا الأمر فَلْيُطلعْ لنا قرنَه. قال ابن عُمر: فأطلقت حُبْوَتي[١] وأردتُ أن أقول: «يتكلمُ فيه رجال قاتلوك وأباك على الإسلام» فخشِيتُ أن أقول كلمة تفرِّق الجماعة ويُسْفَك بها دَمٌ، فكان ما وعد الله في الجِنَان أحَبَّ إلَي من ذلك، فلما انصرفت إلَى المنزل جاءني حبيب بن مَسْلَمة فقال: ما منعك أن تتكلمَ حين سمعتَ هذا الرجلَ يتكلمُ؟ قلتُ: أردت ذلك ثم خشيتُ. فقال حبيب: وفِّقْتَ وعُصِمْتَ. وقد ورد ذلك في الصحيح[٢].

ذكر أخبار الخوارج
الذين خرجوا على عهد عليّ وما كان من أمرهم

كان أوّلُ من خرج علَى عليٍّ رضي الله عنه حَسَكَة بن عَتَّاب الحَبَطيّ، وعِمْران بن فُضَيْل البُرْجُميّ، خرجا في صعاليك من العرب بعد الفراغ من وقعة الجمل، حتى نزلوا زَالِقَ[٣] من سِجِسْتَان، وقد نَكَبُوا أهلها فأصابوا منها مالاً، ثم أتوا

(١) الثوب يُتلفع به، وأطلقت حبوتي استعددت للقول.
(٢) لاحظ كيف ابتداء التنظير لسنة جديدة مخالفة لسنة الله ورسوله ﷺ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
(٣) من نواحي سجستان، وفيها قصور وحصون. راجع معجم البلدان ج٣ ص١٢٧.

زَرَنْج[١] وقد خافهم مرزَبَانُها فصالَحهم ودخلوها، فبعث عليٌّ عبد الرحمٰن بن جَزْو الطائي فقتله حَسَكَة، فكتب عليٌّ إلى عبد الله بن عبّاس يأمره أن يولي سِجِسْتان رجلاً، ويسيِّره إليهَا في أربعة آلاف، فوَجّه رِبْعِيّ بن كأس العَنبري[٢]، ومعه الحصين بن أبي الحُرّ العنبري، فلمّا ورَد سجِسْتان قاتلهم حَسَكَة فقتلوه وضبط ربْعِي البلاد.

قال ابن الأثير وكان فَيْرُوز حُصَيْن ينسب إلى الحصين بن أبي الحُر هذا، وهو من سجستان.

ذكر خبرهم بعد صفين

قد ذكرنا في وقعة صفين أنه لمّا رُفِعت المصاحف، تكلَّم أولئك القوم مع عليٍّ بما ذكرناه، وأبَوْا إلاَّ تزْكَ الحرب والرجوعَ إلَى كتاب الله، وموافقة عليٍّ رضي الله عنه لهم فيما رأوْه، على كُرْه منه. فلما رجع عليٌّ من صِفِّين بعد كتابة الصحيفة، خالفت عليه الحَرُوريّة[٣] وأنكروا تحكيم الرجّال، ورجعوا علَى غير الطريق الذي أقبلوا فيه، أخذوا على طريق البرّ وعادوا وهم أعداء متباغضون، يقطعون الطريق بالتشاتم والتضارب بالسياط، يقول الخوارج: يا أعداءَ الله أذهنتم في أمر الله! ويقول الآخرون: فارقتم إمامنا وفرّقْتُم جماعتَنا! فلمَّا انتهَى عليٌّ إلَى الكوفة فارقتْه الخوارج وأتت حَرُوراء فنزل بها منهم اثنا عشر ألفًا، ونادى مُناديهم: «إن أميرَ القتال شَبَثُ بن رِبْعيّ التميمي، وأميرَ الصلاة عبد الله بن الكوّاء اليَشْكري، والأمرُ شورَى بعد الفتح، والبيعة لله عزّ وجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». فلما سمع عليٌّ رضي الله عنه وأصحابُه ذلك، قامت إليه الشِّيعَة فقالوا له: «في أعناقنا بَيعة ثابتة نحن أولياء من واليْت وأعداء من عادَيت». فقالت الخوارج: «استبقتم أنتم وأهلُ الشام إلى الكفر كفَرَسَيْ رهَان، بايع أهل الشام مُعاوية علَى ما أحبّ وكرهوا، وبايعتم أنتم عليًا أنكم أولياء من والَى وأعداء من عادى» فقال لهمْ زِياد بن النَّضْر: «واللّهِ ما بسَط عليٌّ يده فبايعناه قطُّ إلاَّ علَى كتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، ولكنكم لمّا خالفتموه جاءته شيعته فقالوا: نحن أولياء من والَيتْ وأعداء من عادَيت، ونحن

(١) زرنج مدينة من مدن سجستان. راجع معجم البلدان جـ٣ ص١٣٨.

(٢) ربعي بن عامر التميمي، وكأس أمه.

(٣) هي قرية بظاهر الكوفة على ميلين منها نزل بها قوم من الخوارج كما ستفهم من النص أعلاه، وإلى هذه القرية انتسبوا وبها عرفوا. راجع معجم البلدان جـ٢ ص٢٤٥.

كذلك، وهو على الحق والهدى، ومن خالفه ضال مُضِل». قال: وبعث عليٌّ رضي الله عنه عبدَ الله بن العبَّاس إلَى الخوارج، وقال له: لا تعجلْ إلى جوابهم وخصومتهم حتَّى آتيك. فخرج إليهم، فأقبلوا يكلِّمونه، فلم يصبر حتَّى راجعهم، فقال: «ما نَقَمتم من الحَكَمين، وقد قال الله عزّ وجل: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النساء: ٣٥] فكيْف بأمَّة محمد ﷺ؟» فقالت الخوارج: «أمَّا ما جعل الله حُكمه إلَى الناس وأمرهم بالنظر فيه فهو إليهم، وما حكَم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه، حكم في الزَّاني مِائة جلدة، وفي السارق القطْع، فليس للعباد أن ينظروا في هذا». قال ابن عبّاس: فإن الله تعالى يقول: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥] فقالوا: وتجعل الحكم في الصيد والحَدَث بَيْن المرأة وزوجها كالحكم في دماء المسلمين؟ وقالوا له: أعَدْلٌ عندك عَمرو بن العاص وهو بالأمس يقاتلنا؟ فإن كان عدْلاً فلسنا بعدول، وقد حكَّمتم في أمر الله الرجال، وقد أمضَى الله حكمه في معاوية وأصحابه أن يُقْتَلوا أو يَرْجِعوا، وقد كتبتم بينكم وبينهم كتابًا وجعلتم بينكم الموادَعَة، وقد قطع الله الموَادعَة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت «براءة»[1] إلاَّ مَن أقَرَّ بالجزية.

وبعث عليٌّ رضي الله عنه زيادَ بن النَّضْر فقال: انظر بأيّ رؤوسهم هم أشد إطاقة[2]. فأخبره أنه لم يَرَهم عند رجل أكثرَ منهم عند يَزيد بْن قَيس، فخرج عليٌّ رضي الله عنه في الناس حتَّى أتَى فُسْطاط يَزيد بن قَيس، فدخله، فصَلَّى فيه ركعتين، وأمَّره على أصْبِهَان والرَّيّ، ثم خرج حتَّى انتهَى إلَيْهم وهم يخاصِمون ابن عباس، فقال له: ألم أنْهَك عن كلامهم؟ ثم تكلم فقال: اللهم هذا مقام من يَفْلِج فيه كان أولى بالفَلْج[3] يوم القيامة. ثم قال لهم: من زعيمكم؟ قالوا: ابن الكواء، قال: فما أخرجكم علَينا؟ قالوا: حكومتكم يوم صِفّين. قال: «أنْشدكم الله، أتعلمون أنهم حَيْثُ رفعوا المصاحف، وقلتم: نجيبهم، قلت لكم: إني أعلم بالقوم منكم، إنهم ليسوا بأصحاب دين!» وذكر ما كان قال لهم، ثم قال «وقد اشترطتُ على الحَكَمَيْن أن يُحْيِيا ما أحْيَى القرآن وأن يُميتا ما أمات القرآن، فإن حكما بحكم القرآن فليس لن أن نخالف، وإن أبيَا فنحن من حكمهما بَرَاء» قالوا: فخبِّرنا أتراه عدلاً تحكيمُ الرجال في

---

(١) براءة، آيات كريمات أنزلها الله تعالى إلى رسوله ﷺ يتبرأ فيها من المشركين وقد كلف أبو بكر رضي الله عنه بتبليغها للمشركين في موسم الحج ثم أوحي إلى النبي أنه لا يبلغها إلاّ أنت أو رجل منك، فردّه وكلّف الإمام عليًا كرّم الله وجهه به. والآية ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

(٢) أراد نظر لأيٍّ من قوادهم هم أكثر طاعة. (٣) النجاة والفلاح إذا صُحفت.

الدماء؟ فقال: «إنا لسنا حكَّمنا الرجال، إنما حكَّمْنا القرآن، وهذا القرآن إنما هو خَطٌّ مسطور بين دَفَّتين، لا ينطق، إنما يتكلم به الرجال» قالوا: فأخبرنا عن الأجل لِمَ جعلتَه بينكم؟ قال: «ليعلم الجاهل، ويَثْبت العالِمُ، ولعلَّ الله عزّ وجل يُصلح في هذه الهُدْنَة هذه الأُمة، ادخلوا مصركم رحمكم الله». فدخلوا من عند آخرهم.

ذكر خبرهم عند توجيه الحكمين

قال[١]: لما أراد عليٌّ رضي الله عنه أن يبعث أبا موسَى للحكومة أتاه رجلان من الخوارج، وهما زُرْعَة بن بُرْج الطائي وحُرْقُوص بن زُهَيْر السعدي[٢]، فقالا له: لا حكمَ إلاَّ لله تعالى، فقال علي رضي الله عنه: لا حكمَ إلا لله تعالى، قال حُرْقُوص: «تُبْ من خطيئتك، وارجعْ عن قضيتك، وارجعْ بنا إلى عدونا نقاتلْهم حتَّى نلقَى ربنا». فقال علي: قد أردتكم علَى ذلك فعصيتموني، وقد كتبْنا بَيننا وبين القوم كتابًا، وشرطنا شروطًا، وأعطَينا عليها عهودًا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١] فقال حُرْقُوص: ذلك ذنب ينبغي أن تتوب منه. فقال عليٌّ رضي الله عنه: ما هو ذنبٌ ولكنه عجْزٌ من الرأي، وقد نهيتكم، فقال زُرْعة: يا علي لئن لم تدع تحكيم الرجال لأُقاتِلَنَّك أطلبُ وجهَ الله. فقال عليٌّ: «بُؤْسًا لك! ما أشقاك! كأني بك قتيلاً تَسْفِي[٣] عليك الرياح!» قال: وددت لو كان ذلك، فخرجا من عنده يُحكِّمان[٤].

وخطب عليٌّ رضي الله عنه يومًا، فحكَّمت المحكِّمة[٥] في جوانب المسجد، فقال عليٌّ: «الله أكبر! كلمة حقٍّ أُريدَ بها باطل إن سكتوا غمَمْناهم[٦]، وإن تكلموا حَجَجْناهم وإن خرجوا علينا قاتلناهم». فوثب يزيد بن عاصم المحاربي فقال: «الحمدُ لله غَير مودَّع ربنا ولا مستغنى عنه، اللهم إنَّا نعوذُ بك من إعطاء الدَّنِيّة في ديننا، فإن إعطاء الدَّنية في الدين إذهانٌ في أمر الله وذُلٌّ راجع بأهله إلَى سخَط الله، يا عليُّ

---

(١) راجع ابن الأثير في الكامل جـ٣ ص٣٣٤.

(٢) الملقب بذي الخويصرة، صحابي من بني تميم، في سيرته اضطراب كثير يرجع في مجمله إلى حدة في شخصه وسلوكه، قد شهد صفين مع الإمام علي كرّم الله وجهه ثم خرج عليه، وقتل في النهروان سنة ٣٧هـ.

(٣) أي تذري عليك الريح ما تحمل من تراب وسواه.

(٤) أي يقولان: لا حكم إلاّ لله.

(٥) أي الخوارج الذين يقولون إن الحكم لله. (٦) سترناهم.

أبالقتل تُخوِّفنا؟ أمَا إني لأرجو أن نضربكم بها عمًّا قليل غيرَ مُصْفَحات، ثم لتعلمْ أيُّنا أولَى بها صِلِيًا»[١]. ثم خرج هو وإخوة له ثلاثة، فأُصيبوا مع الخوارج بالنَّهْرَوَان، وأُصيب أحدهم بعد ذلك بالنُّخَيْلَة.

ثم خطب عليٌّ رضي الله عنه يومًا آخر، فقام رجل فقال: لا حكمَ إلا لله، ثم تَوالى عِدّة رجال يحكِّمون، فقال عليٌّ: «الله أكبر كلمةُ حق أُرِيدَ بها باطل، أمَا إنَّ لكمْ عندنا ثلاثًا ما صحِبتمونا: لا نمنعكم مساجدَ الله أن تذكروا فيها اسمه، ولا نمنعكم الفَيْءَ ما دامت أيْديكم مع أيْدينا، ولا نقاتلكم حتى تبدأُونا، وإنما ننظرُ فيكم أمر الله». ثم رجع إلى مكانه من الخطبة.

ذكر اجتماع الخوارج بعد الحكمين وتوليتهم أمرهم عبد الله بن وهب وخروجهم عن الكوفة وانضمام خوارج البصرة إليهم، وما كاتبهم عليٌّ به وجوابهم وغير ذلك

قال: ولمّا كان من أمر الحكمين ما ذكرناه، لقي بعض الخوارج بعضًا واجتمعوا في منزل عبد الله بن وهب الراسبي[٢]، فخطبهم، فزهّدهم في الدنيا، وأمرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم قال اخرُجوا بنا من هذه القَرية الظالمِ أهلُها إلَى بعض كُوَر الجبال أو بعض هذه المدائن منكرين لهذه البِدَع المضلّة، فقال حرقوص بن زُهَيْر: «إن المتاع بهذه الدنيا قليل، وإن الفراق لها وَشِيك، فلا تدعُوَنَّكم زينتُها وبَهْجتُها إلَى المقام بها، ولا تلفتنكم عن طلب الحق وإنكار الظلم، فإن الله مع الذين اتَّقَوا والذين هم مُحسنون».

وقال حمزة بن سنان الأسدي: «يا قوم، إن الرأي ما رأيتم فولُّوا أمركم رجلاً منكم، فإنه لا بدَّ لكم من عِمَاد وسِناد ورايةٍ تحفون بها، وترجعون إليها» فعرضوها على زيد بن حصين الطائي فأبى، وعرضوها على حُرْقُوص فأبى، وعلى حمزة بن سنان وشُرَيح بن أوْفَى العبسيّ فأبَيا، وعرضوها على عبد الله بن وَهْب فقال:

---

(١) أي النار.

(٢) عبد الله بن وهب الراسبي الأزدي، شارك في فتوح العراق مع سعد بن أبي وقاص. وحارب الإمام علي، ثم انقلب عليه وتأمّر على الخوارج في النهروان وفيها قتل. راجع الكامل للمبرد جـ٣ ص١٦٣.

«هاتوها، أمَا والله لا آخذُها رغبةً في الدنيا، ولا أدعها فَرَقًا من الموت» فبايعوه لعشر خلَوْن من شوال سنة سبع وثلاثين. وكان يقال له: ذو الثفِنات[1].

ثم اجتمعوا في منزل شريح بن أبي أوفى العبسي، فقال ابن وهب: اشْخَصوا بنا إلَى بلدة نجتمع فيها لإنفاذ حكم الله فإنكم أهل الحق. قال شُريح: «نخرجُ إلى المدائن، فننزلها، ونأخذ بأبوابها، ونُخرج منها سكانها، ونبعث إلَى إخواننا من أهل البصرة فيقدمون علينا» فقال زيد بن حصين: «إنكم إن خرجتم مجتمعين تُتُبِّعتم، ولكن اخرجوا وِحدانًا مستَخفين، فأمّا المدائن فإن بها من يمنعكم، ولكن سيروا حتى تنزلوا من جسر النهروان[2]، وتكاتبوا إخوانكم من أهل البصرة». قالوا: هذا الرأي.

وكتب عبد الله بن وهب إلَى من بالبصرة منهم يُعلمهم ما اجتمعوا عليه، ويحثهم على اللَّحاق بهم، وسيَّر الكتّابَ إليهم، فأجابوا.

قال: ولما عزم مَن بالكوفة من الخوارج على الخروج، تعبّدوا لَيلتهم ـ وكانت ليلة الجمعة ـ ويَومَ الجمعة، وساروا يوم السبت، فخرج شُريح بن أوفى العبسي وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص: ٢١ و٢٢].

قال: وخرج معهم طرفة بن عدي بن حاتم الطائي، فأتبعه أبوه ليرده فلم يقدر عليه، فانتهى إلى المدائن ثم رجع.

وأرسل عدي إلَى سعد بن مسعود عامل عليٍّ على المدائن يُحذِّره أمرهم، فحَذِر، وأخذ أبواب المدائن، وخرج في الخَيل، واستخلف بها ابن أخيه المختار بن أبي عبيد، وسار في طلبهم فأُخبر عبد الله بن وهب خبره، فترك طريقه وسار على بغداد، ولحقهم سعد بن مسعود بالكَرْج في خمسمائة فارس عند المساء، فانصرف إليهم عبد الله في ثلاثين فارسًا، فاقتتلوا ساعة وامتنع القوم منهم، وقال أصحاب سعد لسعد: «ما تريد من قتال هؤلاء ولم يأتك فيهم أمر، خلِّهم فليذهبوا، واكتب إلى أمير المؤمنين، فإن أمرك باتِّباعهم فاتَّبعهم، وإن كفاكهم غيرُك كان في ذلك عافية لك» فأبَى علَيهم، فلما جَن علَيهم الليل عَبَر عبد الله بن وهب دجلة إلى أرض جَوْخَى[3]، وسار إلى النهروان، فوصل إلى أصحابه وقد أيِسوا منه.

---

(١) جمع ثفنة وهي الركبة.

(٢) نهروان وهي قرية واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي. راجع معجم البلدان جـ٥ ص٣٢٤.

(٣) جُوخَا: كذا أثبتها ياقوت في معجمه جـ٢ ص١٧٩ وقال بالقصر أيضًا. وهي قرية واسعة في سواد بغداد.

وسار جماعة من أهل الكوفة يريدون الخوارج ليكونوا معهم، فردهم أهلوهم كرهًا، منهم القَعْقاع بن قيس الطائي عم الطِّرِماح بن حكيم[١]، وعبد الله بن حكيم بن عبد الرحمٰن البكائي.

قال: ولما خرجت الخوارجُ من الكوفة أتَى عليًا أصحابُه وشيعتُه فبايعوه، وقالوا: نحن أوْلياء من والَيت وأعداء من عاديت. فشرط لهم فيه سنَّةَ رسول الله ﷺ.

وأمّا خوارج البصرة فإنهم اجتمعوا في خمسمائة رجل، وجعلوا عليهم مسعر بن فَدَكِي التميمي، فعلم بهم ابن عباس، فأتبعهم أبا الأسْود الدُّؤَلي، فلحق بهم بالجسر الأكبر، فتواقفوا حتى حجز بينهم الليل، وأدْلَج[٢] مسعر بأصحابه، وسار حتى لحق بعبد الله بن وهب.

قال: ولما خرجت الخوارج وهرب أبو موسى الأشعري إلَى مكة، ورَدّ عليٌّ ابن عباس رضي الله عنهما إلَى البصرة، قام عليٌّ بالكوفة خطيبًا فقال: «الحمدُ لله وإن أتى الدهرُ بالخَطْب الفَادِح والحِدْثان الجليل، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، أمّا بَعْدُ، فإن المعصية تُورِث الحَسْرة، وتُعقِب الندم، وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين وفي هذه الحكومة أمْري، ونَحَلْتُكم[٣] رأيي، لو كان لقَصِير أمر[٤]، ولكن أبَيْتم إلا ما أردتم، فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هَوَازن:

أمرتُهمو أمْري بمنْعَرج اللِّوَى فلم يَسْتَبِينوا الرُّشْدَ إلا ضُحَى الْغَدِ

ألا إن هذين الرجلين اللذين اخترموهما حَكَمَيْن، قد نبذا حكم القرآن وراء ظهورهما، وأحيا ما أمات القرآن، واتبع كلُّ واحد منهما هَوَاه بغير هُدًى من الله، فحكما بغير حُجّة بيِّنةٍ ولا سنَّة ماضية، واختلفا في حكمهما وكلاهما لم يرشُدْ، فبرىء الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين، استعِدُّوا وتأهّبوا للمسير إلَى الشام، وأصبحوا في معسكركم إن شاء الله يَوم الاثنين» ثم نزل.

وكتب إلى الخوارج بالنَّهْرَوَان: «بسم الله الرحمٰن الرحيم، من عبد الله عليٍّ أمير المؤمنين إلى زيد بن حصنٍ وعبد الله بن وهب ومن معهما من الناس، أمَّا بعدُ فإن الرجلين اللذَين ارتضينا حَكَمَيْن قد خالفا كتاب الله تعالى، واتَّبعا أهْواءهما بغير

---

(١) الطرمّاح بن حكيم بن الحكم الطائي. شامي النشأة، خارجي المذهب على بدعة الأزارقة، أصحاب نافع بن الأزرق قرض الشعر وهجا. توفي سنة ١٢٥هـ. راجع الأغاني جـ١٠ ص١٤٨.

(٢) سار ليلاً.

(٣) أعطيتكم إياه بلا مقابل.

(٤) راجع المثل في مجمع الأمثال للميداني ص٢٣٥.

هُدًى من الله، فلم يعملا بالسنَّة، ولم يُنْفِذا للقرآن حكمًا، فبريء الله منهما ورسولُه والمؤمنون، فإذا بلغكم كتابي هذا فأقبلوا إلَيْنا، فإنا سائرون إلَى عدوِّنا وعدوِّكم، ونحن علَى الأمر الأول الذي كنَّا عليه».

فكتبوا إليه: «أمّا بعْدُ فإنك لم تغضبْ لربّك، وإنما غضبت لنفسك، فإن شهِدتَ على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة، نظرنا فيما بيننا وبينك، وإلاَّ فقد نابذناك علَى سَواءِ إن الله لا يحبّ الخائنين».

فلما قرأ كتابه أيِس منهم، ورأى أن يدَعَهم ويمضِيَ بالناس حتَّى يناجز أهل الشام فقام في أهل الكوفة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أمّا بعدُ فإنه من ترك الجهاد في الله ودَاهَن في أمره كان على شَفا هَلَكة، إلا أن يتداركَه الله بنعمته، فاتقوا الله تعالى، وقاتِلوا من حَادَّ[1] الله، وحاول أن يطفيء نورَ الله، وقاتلوا الخاطئين الضالين القاسطين، الذين ليسوا بقرّاء القرآن ولا فُقَهاءَ في الدين، ولا عُلماءَ بالتأْويل، ولا لهذا الأمر بأهل في سابقة الإسلام، والله لو وُلُّوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كِسْرَى وهِرَقْل، تيسّروا للمسير إلَى عدوِّكم من أهل المغرب، وقد بعثنا إلى إخوانكم من أهل البصرة ليَقْدَموا عليكم، فإذا اجتمعتم شخصنا إن شاء الله تعالى، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

وكتب إلَى ابن عباس رضي الله عنه: «أمّا بَعْدُ فإنا خرجنا إلَى معسكرنا بالنُّخيلةَ، وقد أجمعنا علَى المسير إلَى عدوّنا من أهل المغرب، فاشْخَص إلى الناس حتى يأتيك رسولي، وأقم حتى يأْتيك أمري، والسلام عليك».

فقرأ ابن عباس الكتاب على الناس، وندبهم مع الأحنف بن قيس، فشخص ألف وخمسمائة، فخطبهم وقال: «يا أهل البصرة، أتاني كتابُ أمير المؤمنين، فأمرتكم بالنفير إليه، فلم يشخص منكم إلا ألف وخمسمائة، وأنتم ستون ألْف مقاتل سِوَى أبنائكم وعبيدكم. ألاَ انْفِروا مع جارية بن قُدَامة السعْديّ[2]، ولا يجعلن رجلٌ على نفسه سبيلاً، فإنِّي موقع بكلّ من وجدته متخلفًا عن دعوته، عاصيًا لإمامه، فلا يلُومَن رجل إلا نفسه». فخرج جارية واجتمع إلَيه ألف وسبعمائة، فوافَوْا عليًّا وهم ثلاثة آلاف ومِائتان.

---

(١) شاقّه.

(٢) راجع ترجمته في أسد الغابة جـ١ ص٢٦٣ والنص في الكامل لابن الأثير جـ٣ ص٣٤٠.

فجمع علي رضي الله عنه رؤوس أهل الكوفة ورؤوس الأسْباع ووجوه الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «يا أهل الكوفة، أنتم إخواني وأنصاري وأعواني على الحق، وأصحابي إلى جهاد المحلين، بكم أضرب المُدْبِر، وأرجو تمام طاعة المُقْبل، وقد استنفرت أهل البصرة، فأتاني منهم ثلاثة آلاف ومائتان، فلْيكتب لي رئيس كلّ قبيلة ما في عشيرته من المقاتلة وأبناء المقاتلة الذين أدركوا القتال، وعُبْدان عشيرته ومواليهم، ويرفع ذلك إلينا.

فقام إلَيه سعيد بن قَيْس الهَمْداني فقال: يا أمير المؤمنين، سمعًا وطاعة، أنا أولُ الناس أُجاوب بما طلبت وقام مَعْقِل بن قيس، وعَديّ بن حاتم، وزياد بن خَصَفة، وحُجْر بن عديّ، وأشراف الناس والقبائل، فقالوا مثل ذلك، وكتبوا له ما طلب، وأمروا أبناءهم وعبيدهم ومواليهم أن يخرجوا معهم، فرفعوا له أربعين ألف مقاتل وسبعة عشر ألفًا من الأبناء ممن أدرك، وثمانية آلاف من مواليهم وعبيدهم، فكان جميع أهل الكوفة خمسة وستين ألفًا، سوى أهل البصرة وهم ثلاثة آلاف ومائتا رجل.

وكتب إلى سعد بن مسعود بالمدائن يأمره بإرسال من عنده من المقاتلة، وبلغ عليًا رضي الله عنه أن الناس يقولون: «لو سار بنا إلَى قتال هذه الحَرُورية فإذا فرغنا منهم توجهنا إلَى قتال المحلين». فقال لهم: «بلغني أنكم قلتم كَيْتَ وكَيْتَ! وإن غير هؤلاء الخارجين أهمُّ إلينا، فدَعُوا ذكرهم، وسيروا إلَى قوم يقاتلونكم، كيما يكونوا جَبّارين ملوكًا، ويتخذوا عبادَ الله خَوَلاً»[1].

فناداه الناسُ أنْ سِرْ بنا يا أمير المؤمنين حَيثُ أحببت. وقام إلَيه صَيفي بن نُشيل الشيبانيّ فقال: «يا أمير المؤمنين، نحن حزبك وأنصارك، نعادي من عاداك، ونشايع من أناب إلى طاعتك، فسر بنا إلى عدوك من كانوا وأينما كانوا، فإنك إن شاء الله لن تُؤتَى من قلةِ عدد، ولا ضعفِ نية أتباع». وقام إليه محرز بن شهاب التميميّ فقال: «يا أمير المؤمنين، إن قلب شيعتك كقلب رجل واحد في الاجْتماع على نُصرتك، والجدّ في جهاد عدوّك، فابشر بالنصر، وسر بنا إلَى أيّ الفريقين أحببت، فإنًا شيعتك الذين نرجو في طاعتك وجهادِ من خالفك صالحَ الثواب، ونخاف في خِذلانك والتخلف عنك شدةَ الوَبال».

---

(١) عبيدًا.

وأجمع على المسير عليٌّ إلى الشام، فشغله عن ذلك أمر الخوارج وقتالهم على ما نذكره.

ذكر قتال الخوارج

قيل: كان سبب ذلك أن الخوارج من البصرة لما دنوا من النَهْروان رأوا رجلًا يسوق بامرأة على حمار، فدعوه وانتهروه فأفزعوه، وقالوا له: من أنت؟ قال: أنا عبد الله بن خَبّاب صاحب رسول الله ﷺ. فقالوا له: أفزعناك! قال: نعم. قالوا: لا رَوْع[١] علَيك، حَدِّثنا عن أبيك حديثًا سمعه من رسول الله ﷺ تنفعنا به، فقال: حَدثني أبي عن رسول الله ﷺ أنه قال: تكون فتنةٌ يموت فيها قلبُ الرجل كما يموتُ فيها بدنُه، يُمسي فيها مؤمنًا ويصبح كافرًا، ويُصبح مؤمنًا ويُمسي كافرًا، قالوا: لهذا الحديث سألناك، فما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى علَيهما خيرًا. فقالوا: ما تقول في عُثمان في أوّل خلافته وفي آخرها؟ قال: إنه كان محقًّا في أولها وآخرها، قالوا: فما تقول في عليّ قبل التحكيم وبعده؟ قال: أقول إنه أعلَمُ بالله منكم، وأشَدُّ تَوَقِّيًا علَى دينه، وأنفذُ بصيرةً. قالوا: إنك تتبع الهوَى وتُوالي الرجالَ علَى أسمائها لا علَى أفعالها، والله لنقتلنك قِتلَة ما قتلناها أحدًا، فأخذوه وكتفوه، ثم أقبلوا بامرأته وهي حُبْلَى مُتِمٌ[٢] حتى نزلوا تحت نخل مَوَاقر، فسقطت رُطبة[٣]، فأخذها أحدهم فتركها في فيه، فقال له آخر: أخذْتها بغير حلها وبغير ثمن. فألقاها، ثم مرَّ بهم خِنزيرٌ لأهل الذمة، فضربه أحدهم بسَيفه، فقالوا له: هذا فسادٌ في الأرض. فلقِيَ صاحبَ الخنزير فأرضاه. فلما رأى عبد الله بن خَبّاب ذلك منهم قال: «إن كنتم صادقين فيما أرَى فما عليّ منكم من بأس، إنّي مسلم ما أحدثتُ في الإسلام حدَثًا، ولقد أمنتموني، فقلتم: لاَ روعَ عليك» فأضجعوه فذبحوه، وأقبلوا إلى المرأة فقالت: أنا آمرأة، ألا تتَّقون الله. فبقروا[٤] بطنها وقتلوا ثلاث نسوة من طيىء، وقتلوا أمّ سِنان الصيْداوية.

فلما بلغ عليًّا رضي الله عنه ذلك بعث إليهم الحارث بن مُرّة العبديّ ليأْتيهم، وينظرَ ما بلغه عنهم، ويكتبَ به إليه، فلما دنا منهم يسألهم قتلوه. وأتى الخبر إلَى عليّ، فقال له الناس: «يا أمير المؤمنين علام نَدَعُ هؤلاء وراءنا يخلفوننا في عيالنا وأموالنا! سرْ بنا إلى القوم فإذا فرغنا منهم سرنا إلَى عدوّنا من أهل الشام». فأجمع

(١) لا خوف عليك.
(٢) أتمت حملها وأوشكت على الوضع.
(٣) ثمر النخيل قبل أن يصبح تمرًا.
(٤) شقوا.

عليٌّ رضي الله عنه علَى ذلك، وخرج وسار إليهم. فأرسل إلَيهم أن ادفعوا إلينا قَتلة إخواننا منكم أقتلهم بهم، ثم أنا تارككم وكافٌّ عنكم حتَّى ألقى أهل المغرب[(١)]، فلعل الله يقبل بقلوبكم، ويردّكم إلَى خير مما أنتم عليه من أمركم فقالوا: كُلُّنا قَتلهم، وكلُّنا مُستحلٌّ لدمائكم ودمائهم. فراسلهم مرة بعد أُخرى.

وخرج إليهم قيس بن سعد بن عُبادة[(٢)]، فكلَّمهم ونصحهم، وأشار عليهم بالمراجعة والدخول فيما خرجوا منه، فأبَوْا. وخطبهم أبو أيوب الأنصاري[(٣)] رضي الله عنه وحذَّرهم تعجيل الفتنة. وأتاهم عليّ رضي الله عنه فكلَّمهم ووعظهم وذكرهم. فتنادوا: «لا تخاطبوهم ولا تكلّموهم، وتهيؤوا للقاء الله، الرواح الرواح إلى الجنة». فعاد عليّ عنهم.

ثم إن الخوارج قصدوا الجسر، فقال أصحاب عليّ له: إنهم عبروا النهر، فقال: لن يعبروه، فأرسلوا طليعة، فعاد. وأخبر أنهم عَبَروا النهر، وكان بينهم وبينه عَطْفة من النهر، فلخوفِ الطليعة منهم لم يقربْهم فعاد، فقال: قد عبروا النهر. فقال عليّ رضي الله عنه: «والله ما عبروه، وإن مصارعهم لدون الجِسر، ووالله لا يُقْتَل منكم عشرة، ولا يَسْلَم منهم عشرة». وتقدم عليّ إليهم فرآهم عند الجسر لم يعبروه، وكان الناس قد شكُّوا في قوله وارتاب به بعضهم، فلما رأوهم لم يعبروا كَبّروا وأخبروا عليًا رضي الله عنه بحالهم، فقال: والله ما كَذَبْتُ ولا كُذِبت.

ثم عبَّأ أصحابه، فجعل على ميمنته حُجر بن عديّ، وعلى مَيْسرتهِ شَبَث بن رِبْعيّ أو مَعْقل بن قَيس الرِّياحي، وعلى الخيل أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه، وعلى الرَّجالة أبا قتادة الأنصاريّ رضي الله عنه، وعلى أهل المدينة ـ وهم سبعمائة أو ثمانمائة ـ قيس بن سعد بن عُبادة رضي الله عنه.

---

(١) معاوية وصحبه في الشام.

(٢) قيس بن سعد بن عبادة بن دليم الأنصاري الخزرجي المدني. جواد وصاحب نجدة وشرف ورأي. وروى البخاري أنه كان بين يدي النبي ﷺ بمنزلة الشرطي من الأمير. صحب الإمام علي كرّم الله وجهه فأحسن له الصحبة والنصيحة، وكان بعد استشهاد الإمام مع ولده الحسن رضوان الله عليه، ثم اعتزل بعد الصلح إلى المدينة هربًا من شر معاوية. توفي حوالي سنة ٦٠هـ. راجع بدائع الزهور لابن إياس جا ص٢٦.

(٣) أبو أيوب الأنصاري خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة، من بني النجار، شهد مشاهد الرسول كلها، وغدا في أخريات أيامه بعد انتقاله من المدينة إلى الشام ودفن بوصية له عند أصل حصن في القسطنطينية سنة ٥٢هـ. راجع أسد الغابة ج٢ ص٨٠.

وعبأت الخوارج فجعلوا على ميمنتهم زيد بن حصين الطائي، وعلى الميسرة شُرَيح بن أبي أوفى العبسيّ، وعلى خيلهم حمزة بن سِنان الأسديّ، وعلى رَجّالتهم حُرقوص بن زُهَير السَّعْديّ.

وأعطى عليّ رضي الله عنه أبا أيُّوب الأنصاريّ راية أمان، فناداهم أبو أيوب فقال: «من جاء هذه الرايةَ فهو آمِنٌ ممَّن لم يقتل ولم يتعرض[١]، ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن، لا حاجةَ لنا بعد أن نُصِيب قَتَلة إخواننا منكم في سفك دمائكم». فقال فَرْوة بن نوفل الأشجعيّ: «واللّهِ ما أدري على أي شيء نقاتل عليًا؟ أرى أن أنصرف حتى تتضح لي بصيرتي في قتاله، أو أُتابعه». فانصرف في خمسمائة فارس، حتى نزل البَنْدَنِيجَيْن[٢] والدَّسْكرة[٣]، وخرجت طائفة أخرى متفرقين فنزلوا الكوفة.

وخرج إلَى عليّ رضي الله عنه نحو مائة، وكان الخوارج في أربعة آلاف؛ فبقي مع عبد الله بن وهب ألف وثمانمائة، فزحفوا إلى عليّ رضي الله عنه وكان قد قال لأصحابه: كُفُّوا عنهم حتى يبدؤوكم. فتنادوا. الرواح إلى الجنة. فحملوا على الناس فافترقت خيل عليّ فرقتين، فرقة نحو الميمنة، وفرقة نحو الميسرة، فاستقبلت الرماة وجوههم بالنبل، وعطفت عليهم الخيلُ من الميمنة والميسرة، ونهض إليهم الرجال بالرماح والسّيوف فما لبثوا أن أناموهم، فلما رأى حمزة بن سنان الهلاك نادَى أصحابه أن انزِلوا، فذهبوا لينزلوا فلم يلبثوا حتى حمل عليهم الأسود بن قيس، وجاءتهم الخيلُ من نحو عليّ فأهلكوا في ساعة، فكأنما قيل لهم موتوا فماتوا.

قال: وأخذ عليّ ما في عسكرهم من شيء[٤]، فأما السِّلاح والدّواب وما شُهِرَ عليه فقسمه بين المسلمين، وأما المتاعُ والعبيدُ والإماء فإنه ردّه على أهله حين قدم.

وطاف عديّ بن حاتم في القتلى على ابنِ طَرفة، فدفنه، ودفن رجال قتلاهم، فقال عليّ حين بلغه ذلك تقتلونهم ثم تدفنونهم! ارتحلوا. فارتحل الناس ولم يُقْتَل من أصحاب عليّ إلا سبْعة؛ منهم يزيد بن نويرة وله صحبة وسابقة.

---

(١) كل من جاء الراية فهو آمن إلاّ الذي ساهم بقتل بريء أو تعرض لمسلم.

(٢) البندنيجن بلفظ التثنية وهي بلدة مشهورة على طرف النهروان لناحية الجبل من أعمال بغداد. راجع ياقوت جـ١ ص٤٩٩.

(٣) الدسكرة: قرية كبيرة بنواحي نهر الملك من غربي بغداد. راجع ياقوت جـ٢ ص٤٥٥.

(٤) أي كل شيء.

وهؤلاء الخوارج هم الذين ورد في أمرهم في الصحيح الحديث عن رسول الله ﷺ: «إن قومًا يخرجون يَمْرُقون من الدِّين كما يَمْرُق السَّهْم من الرَّمِيَّة علامتهم رجل مُخْدَج اليد»[1] فالتمسه عليّ في القتلى فوجده، فنظر في عضده فإذا لحم مجتمع كثدي المرأة، وحَلَمة عليها شَعَرات سُود، فإذا مُدَّت امتدت حتى تُحاذِي يده الطُّولَى، ثم تُترك فتعود إلى مَنْكِبه. وكان عليّ رضي الله عنه يحدِّث الناس بهذا الحديث قبل وقعة الخوارج.

وقيل: كانت هذه الوقعة في سنة ثمان وثلاثين.

قال: ولمّا فرغ عليّ رضي الله عنه من هذه الوقعة حمد الله وأثنَى عليه، ثم قال: إنَّ الله قد أحسن بكم، وأعزَّ نصركم، فتوجهوا من فوركم هذا إلَى عدوّكم. قالوا: «يا أمير المؤمنين، نَفِدت سهامنا، وكَلَّت سيوفُنا، ونَصَلت[2] أسنةُ رماحنا وعاد أكثرها قصدًا[3]، فارجعْ إلَى مصرنا، فنلستعدّ بأحسن عُدّتنا ولعل أمير المؤمنين يزيد في عِدَّتنا فإنه أقوى لنا على عدوّنا». وكان الذي تولَّى كلامَه الأشعث بن قيس[4].

فأقبل حتَّى نزل النُّخَيْلة، فأمر الناس أن يلزموا عسْكرهم، ويوطِّنوا على الجهاد لعدوهم أنفسهم، وأن يُقلوا زيارة أبنائهم ونسائهم حتَّى يسيروا إلى عدوّهم. فأقاموا فيه أيامًا ثم تسللُوا من معسكرهم، فدخلوا إلاَّ رجالاً من وجوه الناس وترك العسكر خاليًا. فلما رأى عليّ ذلك دخل الكوفة، وانكسر عليه رأيه في المسير. وخطبهم مرة بعد أخرى، وحثَّهم على الخروج إلى الشام فلم يتهيأ له ذلك. وحيث ذكرنا أخبار الخوارج فلنذكر أخبار من خرج بعد أصحاب النَّهْروان. والله الموفق للصواب.

ذكر أخبار من خرج بعد أصحاب النهروان

قال[5]: ولما قُتِل أهلُ النَّهْروان خرج أشْرَس بن عوف الشَّيْبانيّ علَى عليّ رضي الله عنه بالدَّسْكَرة في مِائتين، ثم سار إلى الأنبار[6] فوجه إلَيْه عليّ رضي الله عنه

---

(١) ناقصها أو قصيرها.

(٢) إذا انفصل رأس الرمح أو حربته عنه.

(٣) عادت الرماح مقطعة من كعب وثقان ونصل...

(٤) لهوىً كان فيه لمعاوية كما بيَّنَّا سابقًا.

(٥) راجع ابن الأثير الكامل جـ٣ ص٣٧٢.

(٦) الأبنار: مدينة قرب بلْخ على جبل، فيها كروم وبساتين، أبنيتها من طين. راجع معجم البلدان جـ١ ص٢٥٧.

الأبرش بن حسان في ثلاثمائة فواقعه، فقتل الأشرس في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين.

ثم خرج هلال بن علقمة من تَيْم الرِباب ومعه أخوه مجالد، فأتى ماسَبَذان[١]، فوجه إليه عليّ مَعْقل بن قيس الرِّياحيّ فقتله وقتل أصحابه وهم أكثر من مائتين، وكان قتلهم في جُمادَى الأُولى منها.

ثم خرج الأشهب بن بشر، وقيل الأشعث، وهو من بَجِيلة في مائة وثمانين رجلاً، فأتى المعركة التي أصيب فيها هلال وأصحابه فصلَّى عليهم، ودَفَن من قدر عليه منهم، فوجه عليّ إلَيه جارية بن قدامة السَّعديّ، وقيل حُجْر بن عدي؛ فاقتتلوا بجَرْجَرايا[٢] من أرض جُوخَى فقتل الأشهب وأصحابه في جُمادَى الآخرة منها.

ثم خرج سعيد بن قفل التيميّ من تَيم الله بن ثعلبة في شهر رجب بالبَنْدَنِيجَيْن ومعه مائتا رجل، فأتى دَرْزَيجَانَ[٣] وهي من المدائن على فرسخين، فخرج إليهم مجيعد بن مسعود فقتلهم في الشهر المذكور.

ثم خرج أبو مريم السَّعديّ التميميّ فأتى شَهْرَذورَ[٤] وأكثر من معه من الموالي.

وقيل: لم يكن معه من العرب غير خمسة نفر، واجتمع معه مائتا رجل، وقيل: أربعمائة. وجاء حتَّى نزل على خمسة فراسخ من الكوفة[٥]، فأرسل عليّ إلَيه يدعوه إلى بيعته ودخول الكوفة، فلم يفعل، وقال: ليس بيننا غير الحرب، فبعث إليه شُرَيح بن هانىء في سبعمائة، فحمل الخوارج على شريح وأصحابه فانكشفوا وبقي شريح في مائتين، فانحاز إلَى قرية فرجع إليه بعض أصحابه، ودخل الباقون الكوفة، فخرج عليّ بنفسه، وقدّم بين يديه جارية بن قدامة السَّعديّ، فدعاهم جارية إلى طاعة

---

(١) ماسَبَذان: بفتح السين والباء والذال. الأصل فيها ماه سبذان. راجع ياقوت جـ٥ ص٤١.

(٢) جَرْجَرايا: بفتح الجيم وسكون الراء. من أعمال النهروان السفلى بين واسط وبغداد من الجانب الشرقي. انظر معجم ياقوت جـ٢ ص١٢٣.

(٣) دَرْزِيجان: بفتح أوله وسكون ثانيه وزايه مكسورة. قرية كبيرة تحت بغداد على دجلة لجهة الغرب، وأصلها درزيندان فعربت على درزيجان. انظر ياقوت جـ٢ ص٤٥٠.

(٤) شَهْرَزُور: بالزاي، لا بالذال كما أثبتها النويري أو الناسخ. قرية واسعة في الجبال بين إربل وهمذان أحدثها زور بن الضحاك، ومعنى شهر بالفارسية المدينة. راجع معجم البلدان جـ٣ ص٣٧٥.

(٥) الكُوفة: مصر مشهور بأرض بابل من سواد العراق ويسميها قومه ضد العذراء، وقيل إنها سميت الكوفة لاستدارتها. مصّرت سنة ١٧هـ في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. انظر تعريف مفصل لها في معجم البلدان جـ٤ ص٤٩٠.

عليّ وحذَّرهم القتل، فلم يجيبوا، ودعاهم عليّ أيضًا فأبوا عليه، فقتلهم أصحاب عليّ ولم يسلم منهم غير خمسين رجلًا استأمنوا فأمَّنهم. وكان في الخوارج أربعون رجلًا جرحى فأمر عليّ بإدخالهم الكوفة ومداواتهم حتى برئوا. وكان قتلهم في شهر رمضان المعظم سنة ثمان وثلاثين.

ذكر خلاف الخريت بن راشد التميمي وبني ناجية على عليّ رضي الله عنه وما كان من أمرهم

قال(١): وفي سنة ثمان وثلاثين أظهر الخِرِّيتُ بن راشد الناجي(٢) الخِلافَ علَى عليّ رضي الله عنه، وكان قد شهد مع عليّ الجمل وصِفِّين في ثلاثمائة من بني ناجية خرجوا إليه من البصرة، وأقاموا معه بالكوفة إلى هذه السنة، فجاء إلَى عليّ في ثلاثين راكبًا، فقال له: «يا عليّ والله لا أُطيع لك أمرًا، ولا أُصلِّي خلفك، وإني غدًا مفارقٌ لك». فقال له عليّ: «ثكلتك أمّك! إذًا تعصى ربَّك، وتنكث عهدَك، ولا تضر إلا نفسك؛ خبّرني لم تفعل ذلك؟» قال: «إنك حكَّمت الرِّجال، وضعُفت عن الحق، وركنت إلى القوم الذين ظلموا، فأنا عليك زارٍ(٣) وعليهم ناقم، ولكم جميعًا مُبَاين». فقال له عليّ: «هَلمّ أُدارسك الكتاب، وأُناظرك في السُّنَن، وأُفاتحك أُمورًا أنا أعلم بها منك، فلعلك تعرف ما أنت له الآن منكر». قال: فإني عائدٌ إليْك. قال: «لا تستهوينَّك الشياطين، ولا يَستخفنك الجهّال، والله لئن استرشدتَني وقبلتَ مني لأهدينك سبيلَ الرّشاد». فخرج من عنده منصرفًا إلى أهله، وسار من ليلته هو وأصحابه.

فقال زياد بن خَصَفة البكريّ: «يا أمير المؤمنين، إنه لم يَعظم عَلينا فَقدُهم فنأْسَى عليهم، إنهم قلما يزيدون في عددنا لو أقاموا، ولَقَلما ينقصون من عددنا بخروجهم عنا، ولكنا نخاف أن يفسدوا علينا جماعة كثيرة ممن يقدمون عليه من أهل طاعتك، فأْذنْ لي في اتباعهم حتى أردّهم عليك». فقال: تدري أين توجهوا؟ قال: لا، ولكني أسأل وأتبع الأثر، فقال له: اخرج يرحمك الله، وأنزل دَيْر أبي موسى، وأقم حتى يأْتيك أمري.

---

(١) ابن الأثير جـ٣ ص٣٦٤.

(٢) الخريت بن راشد الناجي، صحابي من بني ناجية. تشيع لعلي كرّم الله وجهه في أول أمره، ثم خرج إلى بلاد فارس بعد التحكيم. وقال مقولة المحكمة، ثم إنه قُتل في الأهواز حيث عسكر مع نفر من أصحابه سنة ٣٩هـ. راجع أسد الغابة في معرفة الصحابة جـ٢ ص١١٠.

(٣) زارٍ: معيب.

فخرج زياد فأتى داره وجمع أصحابه من بكر وائل، وأعلمهم الخبر فسار معه منهم مائة وثلاثون رجلاً. فقال: حسبي. ثم سار فأتى دَيْر أبي موسى فنزله ينتظر أمر عليّ.

وأتى عليًا كتاب من قَرظَة بن كَعْب الأنصاريّ يخبره أنهم توجهوا نحو نِفَّر[١]، وأنهم قتلوا رجلاً من الدهّاقين، كان قد أسلم، فأرسل عليٌّ رضي الله عنه إلَى زياد يأمره باتباعهم ويخبره خبرهم، وأنهم قتلوا رجلاً مُسلمًا، ويأمره بردّهم إليه، فإن أبَوْا يناجزهم. وسيَّر الكتّاب مع عبد الله بن وَأْل، فاستأذنه في المسير مع[٢] زياد، فأذن له، وسار بالكتّاب إلى زياد.

وساروا حتى أتوا نِفَّر، فقيل: إنهم ساروا نحو جَرْجَرايا[٣]، فتبعوا آثارهم حتى أدركوهم بالمذَاد[٤] وهمْ نزول، قد أقاموا يومهم وليلتهم واستراحوا، فأتاهم زياد وقد تقطَّع أصحابه وتعبوا، فلما رأوهم ركبوا خيولهم، وقال لهم الخِرِّيت: أخبروني ما تريدون؟ فقال له زياد ـ وكان مجربًا رفيقًا ـ: «قد ترَى ما بنا من التعب، والذي جئناك له لا يصلحه الكلام علانية، ولكن ننزل ثم نخلو جميعًا، فنتذاكر أمرنا، فإن رأيت ما جئناك به حظًا لنفسك قبلته، وإن رأينا فيما نسمع منك أمرًا نرجو فيه العافية لم نرده عليك». قال: فانزل. فنزل زياد ومن معه على ماء هناك، فأكلوا شيئًا وعلفوا دوابهم، ووقف زياد في خمسة فوارس بين أصحابه وبين القوم وقال: إنَّ عِدّتنا كعِدّتهم[٥]، وأرى أمرنا يصير إلى القتال فلا تكونوا أعجز الفريقَين. وخرج زياد إلى الخرِّيت، فسمعهم يقولون: جاءنا القومُ وهم كالُّون تَعِبُون فتركناهم حتَّى استراحوا، هذا واللّهِ سوءُ الرأي. فدعاه زياد وقال: ما الذي نقمته علَى أمير المؤمنين وعلَينا حتَّى فارقتنا؟» فقال: «لم أرْضَ صاحبكم إمامًا، ولا سيرتكم سيرة، فرأيت أن أعتزل وأكون مع من يدعو إلى الشُّورَى». فقال له زياد: «وهل يجتمع الناس على رجل يُداني صاحبك الذي فارقْته علمًا بالله وسنَّته وكتابه، مع قرابته من رسول الله ﷺ وسابِقته في

(١) نفَّر: قرية من نواحي بابل بأرض الكوفة. راجع ياقوت جـ٥ ص٢٩٥.

(٢) صوابها (إلى) وزياد هو زياد بن خصفة البكري.

(٣) جَرْجَرايا: بلد من أعمال النهروان بين بغداد وواسط. انظر ياقوت جـ٢ ص١٢٣.

(٤) وصوابها المذار بالفتح والراء لا بالدال كما هو مثبت لأن المذاد بالدال موضع بالمدينة حيث حفر الخندق. والمذار موضع في ميسان بين واسط والبصرة، وبينها وبين البصرة مقدار أربعة أيام. انظر معجم البلدان جـ٥ ص٨٨.

(٥) آلة حربنا كآلة حربهم.

الإسلام»؟ فقال له: «ذلك ما قال لك». فقال له زياد: ففيم قتلتَ ذلك الرجل المسلم؟ قال: ما أنا قتلته إنما قتله طائفة من أصحابي. قال: فادفعهم إلينا. قال: ما إلَى ذلك سبيل. فدعا زياد أصحابه، ودعا الخِرِّيت أصحابه، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فتطاعنوا بالرماح حتَّى لم يبقَ رمح، وتضاربوا بالسيوف، حتى انحنت، وعُقِرت عامّة خُيولهم، وكثرت الجراحة فيهم، وقُتل من أصحاب زياد رجلان، ومن أولئك خمسة وجاء الليل فحجز بينهم، وقد كَرِه بعضُهم بعضًا، وجرح زياد. فسار الخِرِّيت من الليل، وسار زياد إلى البصرة.

وأتاهم خبر الخِرِّيت أنه أتَى الأهواز فنزل بجانب منها، وتلاحق به ناس من أصحابه فصاروا نحو مائتين، وكتب زياد إلى عليّ رضي الله عنه بخبرهم، وأنه مقيم يداوي الجرحَى وينتظر أمره.

فلما قرأ عليٌّ كتابه قام مَعقِل بن قيس[1] فقال: «يا أمير المؤمنين، كان ينبغي أن يكون مع من يطلب هؤلاء مكان كل واحد عشرة، فإذا لحقوهم استأصلوهم وقطعوا دابرهم، فأما أن يلقاهم عددهم[2] فلعمري لَيَصبرُنَّ لهم، فإن العِدّة تَصْبر للعِدة». فقال عليّ تَجهز يا مَعْقِل إليهم، وندب معه ألفين من أهل الكوفة منهم يزيد بن مَعْقِل الأزدي.

وكتب عليّ إلى ابن عباس يأمره أن يبعث من أهل البصرة رجلاً شجاعَ معروفًا بالصلاح في ألفي رجل إلَى مَعْقِل، وهو أمير أصحابه حتَّى يأتي مَعْقِلاً، فإذا لقِيَه كان مَعْقِلٌ الأمير، وكتب إلى زياد بن خَصفة يشكره ويأمره بالعود.

قال: واجتمع علَى الخِرِّيت عُلُوج[3] كثيرٌ من أهل الأهواز أرادوا كسر الخراج، ولصوصٌ وطائفة أخرى من العرب تَرى رأيه، وطمع أهل الخراج في كسره، فكسروه، وأخرجوا سهل بن حنيف من فارس وكان عاملاً لعليّ في قول من يزعم أنه لم يمت في سنة سبع وثلاثين.

فقال ابن عبّاس لعليّ: أنا أكفيك فارس بزياد؛ يعني ابن أبيه فأمره بإرساله إليها، فأرسله في جمع كثير، فوطىء بلاد فارس، فأدّوا الخراج واستقاموا.

---

(١) معقل بن قيس الرياحي اليربوعي، كنيته أبو عبد قيس، بشر عمر بفتح تستر، شارك في حرب الجمل إلى جانب الإمام علي كرّم الله وجهه، وتولى شرطته، وكان من الأجواد الشجعان والقادة الفرسان. توفي سنة ٤٣هـ.

(٢) أراد عدد الرجال من كليهما.

(٣) مفردها علج وهو الواحد من كفار العجم.

قال: وسار مَعْقِل بن قَيْس، وقَدم الأهواز، وأقام ينتظر مدد البصرة، فأبطؤوا عليه، فسار يطلبُ الخِرِّيت، فلم يسرْ يومًا حتى أدركه المدد مع خالد بن مَعْدان الطائي، فساروا جميعًا فلحقوهم بقرب جبل من جبال رامَهُرْمُز[١]، فصفَّ مَعْقِل أصحابه، فجعل علَى مَيْمنته يزيد بن المغفِل، وعلَى مَيْسَرته مِنْجاب بن راشد الضَّبيّ من أهل البصرة. وصَفَّ الخرِّيت أصحابه، فجعل من معه من العرب ميمنَة، ومن معه من أهل البلد والعُلوج ميسرة ومعهم الأكراد، فحرّكَ مَعْقِل دابّته مرتين، ثم حمل في الثالثة، فصبروا له ساعة ثم انهزموا، فقتل أصحابُ مَعْقِل منهم سبعين من بني ناجية ومن معهم من العرب، وقتلوا نحوًا من ثلاثمائة من العُلوج والأكراد.

وانهزم الخرِّيت فلحق بأسياف البحر[٢] وبها جماعة كبيرة من قومه، فما زال يسير فيهم ويدعوهم إلَى خلاف عليّ، ويخبرهم أن الهدى في حربه، حتى اتبعه منهم ناس كثير.

وأقام مَعْقل بأرض الأهواز، وكتب إلى عليّ رضي الله عنه بالفتْح فقرأ عليّ الكتاب على أصحابه واستشارهم، فقالوا كلهم: نرى أن تأمر مَعْقِلاً يتبع آثار الفاسق حتَّى يقتله أو ينفيه، فإنَّا لا نأمنُ أن يُفسد عليك الناس. فكتب إلَى مَعْقِل يُثني علَيه وعلى من معه، ويأمره باتباعه وقتله أو نفيه.

فسأل مَعْقِل عنه فأُخبر بمكانه بالأسياف، وأنه قد ردّ قومه عن طاعة عليّ وأفسد من عنده من عبد القَيس وسائر العرب. وكان قومه قد منعوا الصَّدَقة عام صِفَّين وذلك العام، فسار إليهم مَعْقِل وأخذ على فارس فانتهى إلى أسياف البحر، فلما سمع الخرِّيت بمسيره قال لمن معه من الخوارج: أنا على رأيكم وإن عليًا لم ينبغِ له أن يحَكِّم. وقال للآخرين من أصحابه: إنّ عليًا حَكَّم ورضي فخلعه حَكَمُه الذي ارتضاه. وقال سِرًا للعثمانية: أنا والله على رأيكم، قد واللّهِ قُتِل عثمانُ مظلومًا. فأرضى كلَّ صنف منهم. وقال لمن منع الصدقة: شُدُّوا أيديكم على صدقاتكم، وصِلُوا بها أرحامكم، وكان فيها نصارَى كثير قد أسلموا؛ فلما اختلف الناس قالوا: والله لديننا الذي خرجنا منه خير من دين هؤلاء الذي لا ينهاهم دينهم عن سفك الدماء، فقال لهم الخرِّيت، ويْلكم، لا يُنْجيكم من القتل إلا قتال هؤلاء القوم

(١) رامَهُرْمز: ورام بالفارسية تعني القصد أو المرام، هرمز اسم أحد الأكاسرة، ورامهرمز مدينة مشهورة بنواحي خوزستان، فيها النخل والجوز والأترنج. انظر معجم البلدان جـ٣ ص١٧.

(٢) لعله اسم قرية مجاورة في نواحي الأهواز.

والصبر، فإنّ حكمهم فيمن أسلم ثم ارتد أن يُقتَل ولا يقبلون منه توبةً ولا عُذرًا. فخدعهم وجمعهم وأتاهم من كان من بني ناجية وغيرهم خلق كثير.

فلما انتهى مَعقل إليه نَصَب راية أمان؛ وقال: «من أتاها من الناس فهو آمن إلاَّ الخرِّيت وأصحابه الذين حاربونا أول مرة». فتفرق عنِ الخرِّيت جلُّ من كان معه من غير قومه. وعبَّأ مَعْقِل أصحابه، وزَحَف بهم نحو الخرِّيت ومعه أصحابه مسلمهم ونصرانيهم ومانع الزكاة منهم، وحَرَّض كلُّ واحد منهما أصحابه، ثم حَملَ معْقل ومن معه فقاتلوا قتالاً شديدًا وصَبروا، ثم إن النُّعمان بن صُهْبان الراسبي بَصُرَ بالخرِّيت، فحمل عليه فطعنه، فصُرع عن دابّته، ثم اختلفا ضربتَين، فقتله النعمان؛ وقتِل معه في المعركة سبعون ومِائةُ رجل، وذهب الْباقون يَمينًا وشمالاً، وسَبى معْقِل من أدركه من حَريمهم وذَراريهم، وأخذ رجالاً كثيرًا، فأما من كان مسلمًا فخلاَّه وأخذ بَيعته وترك له عياله، وأمّا من كان ارتدَّ فعرض علَيهم الإسلام، فرجعوا، فخلَّى سبيلهم وسبيل عيالهم، إلاَّ شيخًا نصرانيًا منهم يقال له الرُّمَاحِس لم يُسلم فقتله.

وجمع مَن منعَ الصدقة، وأخذ منهم صدقة عامين.

واحتمل الأُسارَى وعيالهم وأقبل بهم، وشيّعهم المسلمون، فلما ودّعوهم بكى الرجال والنساء بعضُهم إلى بعض حتَّى رحمهم الناس. ثم مرَّ بهم حتى أقبل علَى مَصْقَلة بن هُبَيْرة الشَّيْباني[(١)]، وهو عامل عليٍّ علَى أرْدَشِيرخُرَّة[(٢)]، وهم خمسِمائة إنسان، فبكَى النساء والصبيان وصاح الرجال: «يا أبا الفضل[(٣)]، يا حامِيَ الرجال، ومأْوَى العُضْب[(٤)] وفَكّاك العُناة[(٥)]، امْنُنْ[(٦)] علَينا فاشْترنا وأعتقنا»[(٧)]. فقال مَصْقلة: أُقسم بالله لأتصدَّقَنَّ علَيكم إنَّ الله يجزي المتصدقين. فاشتراهم من مَعْقِل بخمسِمائة ألف، فقال له معقل: عَجِّل المالَ إلَى أمير المؤمنين. فقال: أنا باعث الآن بعضه ثم أبعث كذلك حتى لا يبقَى منه شيء؛ وأقبل مَعْقِل إلَى عليّ فأخبره بما كان منه فاستحسنه.

---

(١) مصقلة بن هبيرة بن شبل الثعلبي الشيباني البكري الوائلي. شايع الإمام عليًا كرّم الله وجهه، وتولى له بعض قرى الأهواز. ثم تحوّل إلى معاوية بن أبي سفيان تخلصًا عن حق واغترارًا بدنيا فولاه طبرستان وقد مات قذفًا بالحجارة حينما أوغل في طبرستان لإحكام السيطرة عليها ولم يحفظ طريق رجوعه، حوالي سنة ٥٠هـ.

(٢) أردشير خرّة: وخرّة بالفارسية تعني براء، وأردشير اسم أحد الأكاسرة تمتد على البحر، شديدة الحر، كثيرة الثمار. راجع معجم البلدان جـ١ ص١٤٦.

(٣) يعني مصقلة بن هبيرة.

(٤) الذليل المستضعف.

(٥) مفردها عانٍ وهو الأسير.

(٦) تفضل علينا.

(٧) حرِّرنا: والعتيق هو العبد الذي أطلقه سيده.

وبَلَّغ عليًا أنَّ مَصْقَلة أعتق الأُسارى ولم يسألهم أن يُعينوه بشيءٍ، فقال: ما أظنُّ مَصْقَلة إلاَّ قد تحمل حَمالة سترونه عن قريب منها مُبلدًا[١]، وكتب إليه بحمل المال أو يحضر عنده، فحضر عنده، وحمل من المال مِائتي ألف.

قال ذُهْل بن الحارث: فاستدعاني مَصْقَلة ليلة فطَعمنا، ثم قال: إن أمير المؤمنين يسألني هذا المال ولا أقدر عليه. فقلت: والله لو شئت ما مضت جُمعة حتى تحمله. فقال: «واللّهِ ما كنت لأُحمِّلها قومي: أَمَا والله لو كان ابن هُند[٢] ما طالبني بها، ولو كان ابن عَفَّان[٣] لوهبها لي». قال فقلت: إن هذا لا يرَى ذلك الرأي، لا يترك منها شيئًا. فهرب مَصْقَلة من ليلته فلحق بمعاوية.

وبلغ عليًا ذلك فقال: ما له أقرحه الله! فعَل فِعْل السيِّد وفَرَّ فرار العبد، وخان خِيانة الفاجر، أما إنه لو أقام فعجز ما زدنا على دينه، فإن وجدنا له شيئًا أخذناه وإلاَّ تركناه». ثم سار عليّ إلى داره فهدمها، وأجاز عِتْق السَّبْي، وقال: أعتقهم مُبْتاعهم وصارتْ أثمانهم دَيْنًا على مُعْتِقهم[٤].

وكان أخوه نُعَيم بن هُبَيرة شيعةً لعليّ، فكتب إليه مَصْقَلة من الشام مع رجل من نصارَى تَغْلِب، اسمه حُلْوان يقول له: «إن معاوية قد وعدك الإمارة والكرامة، فأقبِلْ ساعةَ يلقاك رسولي والسلام عليك، فأخذه مالك بن كعب الأرحبيّ فسرحه إلى عليّ رضي الله عنه، فقطع عليّ يده، فمات. وكتب نُعَيم إلى أخيه يلومه على لَحَاقه بالشام، وما فعله من هربه. . وأتاه التغلبيون فطلبوا منه دِيَة صاحبهم فَوَداه لهم. وقال مَصْقلة: [من المتقارب]

لَعَمري لَئن عابَ أهلُ العرا ... ق عَلَيَّ انتعاشَ بني ناجيهْ
لأعظمُ من عتقهم رقَّهم ... وكَفِّي بعتقهمو حاليهْ
وزايدتُ فيهم لإطلاقهم ... وغاليتُ إن العُلا غاليهْ

وحيث ذكرنا من أخبار عليّ ما قدمناه، فلنذكر ما وقع في مدة خلافته خلاف ذلك على حكم السنين.

---

(١) إذا عجز عن الوفاء وثقل عليه.
(٢) معاوية بن أبي سفيان لأنه كما هو معروف كان يتصدق بمال الله من دون حق.
(٣) عثمان بن عفان رضي الله عنه.
(٤) أي مصقلة بن هبيرة، فهو العاتق، والمال مال الله مرقبته إلى يوم يبعثون.

ذكر ما اتفق في مدة خلافته رضي الله عنه

خلاف ما قدمنا ذكره على حكم السنين مما هو متعلق به خاصة، خلاف ما هو مختص بمعاوية فإنا نذكره في أخباره إن شاء الله تعالى.

سنة ست وثلاثين:

ذكر ولاية قيس بن سعد مصر

وما كان بينه وبين معاوية من المكاتبة وما أشاعه معاوية عنه حتَّى عزله عليّ رضي الله عنه عن مصر واستعمل محمد بن أبي بكر الصِّديق رضي الله عنهما.

قال: وفي سنة ست وثلاثين في ثالث صفر بعث عليّ رضي الله عنه قَيس بن سعد بن عُبادة[1] أميرًا على مصر، وقال له: «سر إلَى مصر قد وَلَّيْتُكَها واخرج إلى رَحلك، واجمع إلَيك ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتّى تأتيها ومعك جند؛ فإن ذلك أرعبُ لعدوك وأعزُّ لوليك، وأحسنْ إلى المحسن، واشْدُدْ على المريب، وارفُق بالعامّة والخاصّة، فإن الرِّفق يُمْنٌ». فقال له قَيس: «أمّا قولك أخرج إليهَا بجند فواللّهِ لئن لم أدخلها إلاَّ بجند آتيها به من المدينة لا أدخلها أبدًا، فأنا أدع ذلك الجند لك، فإن كنت احتجت إليهم كانوا قريبًا منك وإن أردت أن تبعثهم إلَى وجه من وجوهك كانوا عُدَّة».

وخرج قيس حتى دخل مصر في سبعة من أصحابه كما ذكرنا ذلك. ولما قدم صعد المنبر وجلس عليه، وأمر بكتاب عليٍّ رضي الله عنه فقرىء عَلى أهل مصر بإمارته عليهم، ويأمرهم بمتابعته ومساعدته وإعانته على الحقّ. ثم قام قيس فقال: «الحمد لله الذي جاء بالحق، وأمات الباطل وكَبَت[2] الظالمين، أيُها الناس: إنا قد بايعْنا خيرَ من نعلم بعد نبينا، فقوموا أيها الناس فبايعوه علَى كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، فإنْ نحن لم نعملْ لكم بذلك فلا بَيعةَ لنا عليكم». فقام الناس فبايعوه.

واستقامت مصر، وبعث قَيس عليها عُمّاله إلاَّ قرية يقال لها خِرْبتا فيها ناس قد أعظموا قتل عثمان، عليهم رجل من بني كِنانة ثم من بني مُدْلِج اسمه يزيد بن الحارث. وكان مَسْلَمة بن مُخَلَّد أيضًا قد أظهر الطلب بِدَمِ عُثمان، فأرسل إلَيه قَيس»:

---

(١) راجع ترجمته في صفحات سابقات. (٢) كظمهم.

ويحك! أعليَّ تَثِبُ[١]؟! فوالله ما أُحبُّ أن لي ملك الشام إلَى مصر وأني قتلتُك».
فبعث إليه مَسْلَمة: إني كافٌّ عنكَ ما دمتَ أنت واليَ مصر. وبعث قيس إلى أهل خِربتا إني لا أُكرِهُكُم على البَيْعة، وإني أكفُّ عنكم. فهادنهم وجَبَى الخراج، ليس أحد ينازعه.

فكان قَيْس أثقَل خلق الله علَى معاوية، لقربه من الشام ومخافةَ أن يُقبِل عليٌّ في أهل العراق، وقيس في أهل مصر، فيقعَ بينهما، فكتب معاوية إلى قيس: «سلام عليكم؛ أمّا بعد، فإنكم نَقَمتم على عثمان ضَرْبَةً بسوط، أو شَتْمةً لرجل، أو تسيير آخر، أو استعمال فتى، وقد علمتم أن دمه لا يحلُّ لكم؛ فقد ركبتم عظيمًا وجئتم أمرًا إدًّا[٢]، فتب إلَى الله يا قيس، فإنك من المُجْلِبين على عثمان، فأمَّا صاحبك، فإذا استيقنَّا أنه أغرَى به الناس، وحملهم حتَّى قتلوه، وأنه لم يسلم من دمه عُظْمُ قومك[٣]، فإن استطعتَ يا قَيس أن تكون ممن يَطْلب بدم عثمان فافعل، وتابِعْنا على أمرنا، ولك سلطان العراقَين إذا ظهرتُ ما بقيت، ولمن أحببتَ من أهلك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان، وسَلْني ما شئتَ فإني أُعطيكه، واكتب إلَيَّ برأيك».

فلما أتاه الكتاب أحبّ أن يدافعه ولا يبدي له أمره، ولا يتعجلُ إلى حربه، فكتب إليه: «أمّا بعد، فقد بلغني كتابُك وفهمتُ ما ذكرتَه فيه، فأمّا ما ذكرتَ من قتل عثمان، فذلك شيء لم أُقارفه[٤]، وذكرت أن صاحبي هو الذي أغرَى به حتَّى قتلوه فهذا ما لم أطَّلِعْ عليه، وذكرت أن عُظْم عشيرتي لم تَسلم من دم عثمان فأوَّلُ الناسِ كان فيها قيامًا عشيرتي، وأمّا ما عَرضتَه من متابعتك فهذا أمر لي فيه نظر وفكرة، وليس هذا مما يُسْرَع إليه، وأنا كافٌّ عنك، وليس يأتيك من قبلي ما تكرهه حتى ترى ونرى إن شاء الله تعالى».

فلما قرأ معاوية كتابه رآه مقاربًا مباعدًا، فكتب إليه: «أمّا بعد، فقد قرأتُ كتابَك فلم أرَك تدنو فأعدَّكِ سِلْمًا، ولا تتباعد فأعدَّك حَرْبًا، وليس مثلي يُصانِعُ المخادِعَ وينخدعُ للمكايد ومعه عَدَدُ الرجال وأعنَّةُ الخيل، والسلام.

فلما قرأ قيسٌ كتابه ورأى أنه لا تفيد معه المدافعة والمماطلة أظهر له ما في نفسه، فكتب إليه: «أما بعد، فالعجبُ من اغترارك بي وطمعك فيّ، واستسقاطك رأيي[٥]، أتسومني الخروجَ من طاعة أوْلَى الناس بالإمارة، وأقْولهم بالحق، وأهداهم

---

(١) كنى بها عن الحرب.
(٢) الأمر الفظيع.
(٣) عظامهم وكبراؤهم.
(٤) أرتكبه.
(٥) استسفالك إياه.

سبيلاً، وأقربهم من رسول الله ﷺ وسيلة، وتأمرني بالدخول في طاعتك، طاعة أبْعَد الناس من هذا الأمر، وأقْوَلهم بالزُّور، وأضلِّهم سبيلاً، ولد ضالين مضلين، طاغوت من طواغيت إبليس. وأمّا قولك: إنِّي مالىءٌ عليك مصر خيلاً ورجلاً[١]، فوالله إنْ لم أشغلك بنفسك حتى تكون أهمَّ إليك إنك لذو وجد، والسلام.

فلما رأى معاوية كتابه أَيِس منه، وثقل عليه مكانه، ولم تنجعْ حيله فيه فكاده، من قبل عليّ، فقال لأهل الشام: لا تَسبُّوا قَيس بن سعد، ولا تدعوا إلى غزوه، فإنه لنا شيعة، تأتينا كتبه ورسله ونصيحته لنا سرًّا، ألا ترَون ما يفعل بإخوانكم الذين عنده من أهل خربتا، يُجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم، ويُحسن إليهم. وافتعل كتابًا عن قَيس بالطَّلب بدم عثمان، والدخول معه في ذلك، وقرأه على أهل الشام.

فبلغ ذلك علي فأعْظَمه وأكْبَره، ودعا ابنيه وعبد الله بن جعفر[٢] فأعلمهم ذلك، فقال ابن جعفر: يا أمير المؤمنين، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك اعزل قيسًا عن مصر. فقال: والله إني لا أصدّق بهذا عنه. فقال عبد الله: اعزله، فإن كان هذا حقًّا لا يعتزل لك.

فبينما هم كذلك إذ جاء كتاب قيس يخبر بحال المعتزلين وكفّه عن قتالهم، فقال ابن جعفر: ما أخوفني أن يكون ذلك ممالأة منه، فَمُره بقتالهم، فكتب إليه يأمره بقتالهم، فأجابه: «أما بعد، فقد عجبت لأمرك! تأمرني بقتال قوم كافّين[٣] عنك، مُفْرغيك لعدوّك ومتى حادَدْناهم[٤] ساعدوا عليك عَدُوّك؛ فأطعني يا أمير المؤمنين، واكفف عنهم، فإن الرأي تركهم، والسلام.

فلما قرأ الكتاب قال ابن جعفر: يا أمير المؤمنين؛ ابعث محمد بن أبي بكر على مصر واعزل قيسًا. فبعث محمدًا إلى مصر ـ وقيل: بعث الأشتر النَّخَعيّ فمات بالطريق فبعث محمدًا ـ فقدم محمد على قَيس بمصر، فقال له قيس: «ما بال أمير المؤمنين؟ ما غَيَّره؟ أدَلَ أحدٌ بيني وبينه؟» قال: لا، وهذا السلطان سلطانك. قال: لا، والله لا أُقِيم.

---

(١) المشاة من الجيش.

(٢) عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي، أبوه جعفر الطيار. ولد في الحبشة وهو أول مسلم يولد هناك. صحابي جواد لقبه معاصروه ببحر الجود، مدحه كثير من الشعراء، تولى إمارة بعض الفرق لعمه الإمام علي كرّم الله وجهه في صفين. انتقل إلى رحمة ربه تعالى في المدينة حوالي سنة ٨٠هـ. راجع الإصابة ترجمة ٤٥٨٢.

(٣) وهو حديث للرسول ﷺ راجعه في البخاري باب البيوع ص٣.

(٤) أي رفعوا عنك أذاهم.

وخرج إلى المدينة وهو غضبان، فأخافه مروان بن الحكم فخرج من المدينة هو وسهيل بن حُنَيْف إلَى عليّ رضي الله عنه فشهدا معه صِفّين، فبعث معاوية إلى مروان يتغيظ عليه ويقول له: لو أمددت عليًا بمائة ألف مقاتل كان أيسر عندي من قَيْس بن سعد في رأيه ومكانه.

ولما قدم قيس على عليّ وأخبره الخبر، علم أنه كان يقاسي أُمورًا عظامًا من المكايد وعَظُم محلّ قَيْس عنده وأطاعه في الأمر كله.

قال: وأما محمد بن أبي بكر فإنه لما قدم مصر قرأ كتاب عليّ رضي الله عنه إلى أهل مصر عليهم، ثم قام فقال: «الحمد لله الذي هدانا وإياكم لِما اخْتُلِف فيه من الحقّ، وبصرنا وإياكم كثيرًا مما كان عَمِيَ عنه الجاهلون، ألاَ إنّ أمير المؤمنين وَلاّني أمرَكم، وعهد إليَّ ما سمعتم، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أُنيب، فإن يكن ما تَرون من إمارتي وأعمالي طاعةً لله فاحمدوا الله على ما كان من ذلك، فإنه هو الهادي له، وإن رأيتم عاملاً لي بغير الحقّ فارفعوه إليَّ وعاتبوني فيه، فإني بذلك أسعدُ وأنتم جديرون، وفقنا الله وإياكم لصالح الأعمال برحمته» ثم نزل.

فلم يلبث إلا شهرًا حتى بعث إلى أُولئك القوم المعتزلين الذين كانوا قد وادَعَهم قيْس بن سعد، فقال لهم: إما أن تدخلوا في طاعتنا وإما أن تخرجوا عن بلادنا. فأجابوه: إنّا لا نفعل، فدعنا حتى ننظرَ إلى ما يصير أمرنا إليه، ولا تَعْجَل بحربنا. فأبى عليهم، فامتنعوا وأخذوا حِذْرهم، وكانت وَقعَة صِفّين وهم هائبون لمحمد، فلما رجع عليّ ومعاوية وصار الأمر إلى التحكيم طمعوا فيه، وأظهروا له المبارزة، فبعث محمد الحارث بن جُهْمان الجُعْفي إلى أهل خِربتا فقاتلهم فقتلوه، فبعث إليهم رجلاً من كَلْب يُدعى ابن مضاهم فقتلوه. ثم كان من خبر محمد بن أبي بكر ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفي هذه السنة قدم أبراز مرْزبان مرْوَ إلى عليّ رضي الله عنه بعد الجمل مقرًّا بالصلح، فكتب له كتابًا إلى دهاقين مَرْو والأساورة ومن بمرو، ثم إنهم كفروا وأغلقوا نَيسابور، فبعث عليّ خُلَيْد بن قُرَّة ـ وقيل: ابن طريف ـ اليَرْبوعيّ إلى خُراسان.

وفيها مات حُذَيْفة بن اليمَان[١] قبل وقعة الجمل.

---

(١) حذيفة بن حسل بن جابر العبسي كنيته أبو عبد الله. صحابي ثقة أسدله الرسول ﷺ أسماء المنافقين. تولى المدائن لعمر رضي الله عنه فأحسن وفيها توفي سنة ٣٦هـ. راجع أسد الغابة جـ٢ ص١٠٧.

وفيها مات سلمان الفارسيّ في قول بعضهم، وكان عمره مائتين وخمسين سنة هذا أقلّ ما قيل فيه، وقيل: ثلاثمِائة وخمسين سنة، وكان قد أدرك بعض أصحاب المسيح عليه الصلاة والسلام.

وفيها استعمل عليّ رضي الله عنه على الرّيّ يزيد بن حُجَيَّة التَّيميّ - تَيم اللاَّت - فكسر من خراجها ثلاثين ألفًا، فكتب إليه عليّ يستدعيه، فحضر فسأله عن المال، وقال: أين ما غَلَلْته من المال؟ فقال: ما أخذت شيئًا؛ فخفقه بالدِّرة خَفَقات وحبسه، فوكل به سعدًا مولاه فهرب منه يريد الشام، فسوغه معاوية المال، فكان ينال من علي، وبقي بالشام إلى أن اجتمع الأمر لمعاوية، فسار معه إلى العراق فولاَّه الريّ. وقيل: إنه شهد مع عليّ الجمل وصِفّين والنَّهْروان، ثمّ وَلاَّه بعد ذلك الريّ وهو الصحيح.

سنة سبع وثلاثين:

فيها بعث عليّ رضي الله عنه جَعْدة بن هُبيرة المخزومي إلى خراسان بعد عودته من صِفّين، فانتهى إلى نَيسابور، وقد كفروا وامتنَعوا فرجع إلى عليّ، فبعث خُلَيد بن قرّة اليَرْبوعي، فحاصر أهلها حتى صالحوه وصالحه أهل مَرْو.

وحَجَّ بالناس في هذه السّنة عُبيد الله بن عباس رضي الله عنهما.

سنة ثمان وثلاثين:

في هذه السنَة ملك عمرو بن العاص مصر، وقتل محمد بن أبي بكر علَى ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في أخبار معاوية.

ذكر خبر عبد الله بن الحضرمي
حين بعثه معاوية إلى البصرة وما كان من أمره إلى أن قتل

وفي هذه السنة بعد مقتل محمد بن أبي بكر بعث معاوية عبد الله بن عمرو الحضرميّ إلَى البصرة، وقال له: إنَّ جُلَّ أهلها يرَون رأيَنا في عثمان، وقد قُتلوا في الطلب بدمه، فهم لذلك حَنِقون يودّون أن يأتيهم من يجمعهم، وينهض بهم في الطلب بثأرهم ودم إمامهم، فانزل في مضَر وتَودَّدْ للأزد فإنهم كلُّهم معك، وَادِعْ ربيعةَ فلن ينحرفَ عنك أحدٌ سواهم؛ لأنهم تُرَابيّة[1] كلُّهم وأحذرهم.

---

(١) نسبة إلى أبي تراب وهي كنية الإمام علي بن أبي طالب كناه بها رسول الله ﷺ وهي أحب كناه إليه.

فسار ابن الحَضْرميّ حتى قدم البصرة، وكان ابن عباس قد خرج إلَى علي بالكوفة، واستخلف زياد ابن أبيه على البصرة، فنزل ابن الحضرميّ في بني تميم، فأتاه العثمانية وحضره غيرهم، فخطبهم وقال: «إن إمامكم إمام الهدى قُتِل مظلومًا، قتله عليّ فطلبتم بدمه، فجزاكم الله خيرًا».

فقام الضحاك بن قيس الهلاليّ وكان على شُرْطة ابن عباس فقال: قَبَّح اللّهُ ما جئتَنا به، وما تدعونا إليه، وسَبَّه، وذكر فضل عليّ رضي الله عنه.

فقال عبد الله بن خازم السُّلَميّ(١) للضحاك: اسكت، فلست بأهل أن تتكلم، ثم أقبل على ابن الحضرميّ فقال: نحن أنصارك ويدك، والقول قولك، اقرأْ كتابك. فأخرج كتاب معاوية إليهم يُذكِّرهم فيه آثار عثمان، ويدعوهم إلى الطلب بدمه، ويضمن أنه يعمل فيهم بالسُّنَّة، ويعطيهم عطاءين في كلّ سنة.

فلما فرغ من قراءته قام الأحنف، فقال: لا ناقتي في هذا ولا جملي. واعتزل القوم.

وقام عمرو بن مرجوم العبديّ(٢) فقال: أيها الناس، الزموا طاعتكم وجماعتكم، ولا تنكثوا بيعتكم فتقعَ بكم الواقعة.

وكان العباس بن صُحار العبديّ مخالفًا لقومه في حبّ عليّ، فقام وقال: لننصرنّك بأيدينا وألسنتنا. فقال له المثنى بن مُخَرِّبة العبديّ: والله لئن لم ترجع إلى المكان الذي جئتنا منه لنجاهدنك بأسيافنا ورماحنا، ولا يغرنك هذا الذي تكلم. يعني ابن صحار.

فقال ابن الحضرميّ لِصَبْرة بن شَيْمان: أنت نابٌ من أنياب(٣) العراب فانصرني. فقال: لو نزلت في داري لنصرتك.

فلما رأى زياد ذلك خاف، فاستدعى حضين بن المنذر ومالك بن مِسْمَع، وقال: أنتم يا معشر بكر بن وائل أنصار أمير المؤمنين وثقاته، وقد كان من ابن الحَضْرميّ ما تَرَوْن، وأتاه من أتاه، فامنعوني حتى يأتي أمرُ أمير المؤمنين». فقال

---

(١) عبد الله بن حازم ابن أسماء بن الصلت السلمي البصري. كنيته أبو صالح، وهو من أغدية العرب لشدة سواده، له صحبة. تولى إمرة خراسان لبني أمية. وناصر عبد الله بن الزبير حين انتفض مما تسبب بعد إخفاق الأخير بقتله حوالي سنة ٧٢هـ.

(٢) من بني عبد القيس، وكلهم كانوا على ولاء الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه إلاّ من شد وباع آخرته بدنياه.

(٣) أراد عماداً من أعمدتهم.

حُضَيْن بن المنذر: نعم. وقال مالك ـ وكان يميل إلى بني أمية ـ هذا أمْر لي فيه شركاء أستشير فيه وأنظر.

فلما رأى زياد تثاقلَ مالك أرسل إلى صَبْرة بن شَيمان الحدَّانيّ الأزديّ يطلب أن يُجيره وبيت مال المسلمين، فقال: إن حملْته إلى داري أجرتكما، فنقله إلى داره بالحُدّان[1] ونقل المنبر، فكان يُصلّي الجمعة بمسْجد الحدّان.

وكتب زياد إلى عليّ رضي الله عنه بالخبر، فأرسل إليه أعْيَن بن ضُبَيْعة المجاشعيّ ثم التميمي، ليفرّقَ قومه عن ابن الحضرمي، فإن امتنعوا قاتل بمن أطاعه من عصاه، وكتب إلى زياد يُعلمه ذلك.

فقدم أعْيَن فأتى زيادًا فنزل عنده، وجمع رجالاً وأتى قومه، ونهض إلى ابن الحضرميّ ومن معه فدعاهم فشتموه، وواقفهم نهاره، ثم انصرف عنهم، فدخل عليه قوم، قيل: إنهم من الخوارج، وقيل: وضعهم ابن الحضرمي على قتله، فقتلوه غيلَة، فلما قُتِل أعْيَن أراد زياد قتالهم، فأرسلت تميمُ إلى الأزد: إنَّا لم نتعرضْ لجاركم فما تريدون إلى جارنا؟ فكرهت الأزدُ قتالهم، وقالوا: إن عرضوا لجارنا منعناه.

وكتب زياد إلى عليّ بخبر أعْيَن وقتله، فأرسل عليّ جارية بن قُدَامة السَّعديّ[2] وهو من بني سعد من تميم، وبعث معه خمسين رجلاً من تميم، وقيل: خمسمائة رجل، وكتب إلى زياد يأمره بمعونته والإشارة عليه.

فقدم جاريةُ البصرة، فحذَّره زياد ما أصاب أعْيَن، فقام جاريةُ في الأزد وجزاهم خيرًا، وقال: عرفتم الحقَّ إذ جهله غيركم. وقرأ كتابَ عليّ إلى أهل البصرة يُوبِّخهم ويتهددُهم ويعنفُهم ويتوعدُهم بالمسير إليهم والإيقاع بهم وقعةً تكون وَقْعة الجمل عندها هَباءً. فقال صَبْرة بن شَيْمان: سمعًا لأمير المؤمنين وطاعة: نحن حربٌ لمن حاربه، وسلمٌ لمن سالمه. وصار جارية إلى قومه فقرأ عليهم كتاب عليّ رضي الله عنه ووعدهم، فأجابه أكثرهم.

فسار إلى ابن الحضرميّ ومعه الأزد ومن تبعه من قومه، وعلى خيل ابن الحضرميّ عبد الله بن حازم السُّلَميّ، فاقتتلوا ساعة، وأقبل شَرِيك بن الأعور فصار

(١) حدّان: إحدى محال البصرة القديمة. راجع معجم البلدان جـ٢ ص٢٢٧.

(٢) لعله شريك بن جديد من أصحاب علي كرّم الله وجهه. توفي سنة ٦٧هـ.

مع جارية، فانهزم ابن الحضرميّ فتحصن بقصر سنْبيل ومعه ابن خازم[١]، فأتته أُمه[٢] عَجْلى وكانت حبشية، فأمرته بالنزول فأبى، فقالت: والله لتنزلنَّ أو لأنزعنَّ يابي. فنزل ونجا، وأحرق جارية القصر بمن فيه، فهلك ابن الحضرميّ وسبعون رجلاً منهم معه، وعاد زياد إلى القصر.

قال: وكان قصر سنْبِيل لفارس وصار لسنْبِيل السعديّ، وحوله خندق. وكان فيمن احترق دراع بن بدر أخو حارثة بن بدر، فقال عمرو بن العَرَنْدَس: [من المتقارب]

رَدَدْنَا زيادًا إلَى داره ... وجارُ تميم دُخانًا ذَهبْ
لَحا اللّهُ قومًا شَوَوْا جارَهم ... ولم يَدْفعُوا عنه حَرَّ اللّهبْ[٣]

وقال جرير[٤]: [من الوافر]

غَدَرْتُمْ بالزُّبَيْر فما وَفيْتُمْ ... وَفاءَ الأزدِ إذ مَنعوا زيادَا
فأصبح جارُهُم بنَجاةِ عِزٍّ ... وجارُ مُجاشعٍ أمْسَى رَمادَا[٥]
فلو عاقدتَ حَبْلَ أبي سعيدٍ ... لَذادَ القومَ ما حَمَلَ النِّجادَا[٦]
وأدْنَى الخيلَ مِنْ رَهَجِ المنايَا ... وأغشاها إلا سِنَّةَ والصِّعادَا[٧]

قال: وحَجَّ بالناس في هذه السَّنة قُثَم بن العبّاس[٨] من قبل عليّ رضي الله عنهم.

سنة تسع وثلاثين:

في هذه السَّنة بَثَّ معاوية سراياه في بلاد عليّ رضي الله عنه، فكان من خبرهم ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار معاوية.

---

(١) يعني عبد الله بن خازم السلمي. (٢) أي عبد الله بن خازم.

(٣) كناية عن حرق ابن الحضرمي في قصر سنبيل.

(٤) جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي بن بدر الكلبي اليربوعي التميمي ثبت مع معاصريه الفرزدق والأخطل المثلث الأموي وخلفوا من النقائض الشعرية ثروة فنية ولغوية مذهلة. ولد وتوفي في اليمامة حدود ١١٠هـ. راجع الأغاني جـ٨ ص١٠.

(٥) كناية عن حرق ابن الحضرمي أيضًا. (٦) نجاد السيف كناية عنه.

(٧) الصعاد: صعدة واحدتها وهي قناة الرمح.

(٨) قثم بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي: له صحبة، وتولى للإمام علي كرّم الله وجهه المدينة فظل عليها حتى استشهد أمير المؤمنين كرّم الله وجهه، وعندما تولى معاوية خرج قثم إلى سمرقند وبها استشهد. توفي سنة ٥٧هـ. راجع الأنساب للسمعاني ص١٦.

وفيها استعمل عليّ رضي الله عنه زياد ابن أبيه على كِرْمان وفارس فضبطها بعد أن اضطربت أُمورها.

وحَجَّ بالناس في هذه السَّنة عُبيد الله بن عباس من قبل عليّ، وقيل: قُثَم بن العباس، وقيل: إن معاوية بعث يزيد بن شَجْرة الرَّهاويّ ليحجّ بالناس فاختلف هو وعبيد الله بن عباس، ثم اتفقا على أن يحجَّ بالناس شَيْبة بن عثمان فحجّ. والله أعلم.

وفيها تَوجّه الحارثُ بن مُرَّة العبدي إلى بلاد السِّنْد غازيًا متطوعًا بأمر عليّ رضي الله عنه فغنم وأصاب سبيًا كثيرًا، وقسم في يوم واحد ألف رأس وبقي غازيًا إلى أن قُتِل بأرض القيقان هو ومن معه إلا قليلاً في سنة اثنتين وأربعين.

سنة أربعين:

في هذه السَّنَة بعث معاوية بُسْر بن أرْطأة[1] إلى الحجاز واليَمَن، ففعل من الأفعال القبيحة وسفك من الدماء المحرمة ما نذكره في أخبار معاوية.

وفيها جرت مهادنة بين عليّ ومعاوية بعد مكاتبات طويلة على وضع الحرب، ويكون لعليٍّ العراق ولمعاوية الشام لا يدخل أحدهما بلد الآخر بغارة، واتفقا على ذلك.

وفيها فارق عبد الله بن عباس البصرة ولحق بمكة في قول أكثر أهل التاريخ، وسبب ذلك أنه مر بأبي الأسود فقال له: «لو كنت من البهائم لكنت جَمَلاً، ولو كنت راعيًا لما بلغت المرعى». فكتب أبو الأسْوَد[2] إلَى عليّ رضي الله عنه: «... إن ابن عمك قد أكل ما تحت يده بغير علمك، ولم يسعني كتمانك رحمك الله، فانظر فيما هناك واكتبْ إليَّ برأيك فيما أحببتَ والسلام».

فكتب إليه عليّ: «أما بعد فمثلك من نصح الإمام والأُمة، ووالى على الحقّ، وقد كتبتُ إلى صاحبك فيما كتبتَ إليّ، ولم أُعلمه بكتابك فلا تدعْ إعلامي بما يكون بحضرتك مما النظر فيه للأمة صلاح، فإنك بذلك جدير، وهو حقٌ واجبٌ عليك والسلام.

---

(١) بسر بن أرطأة عامري قرشي، كنيته أبو عبد الرحمٰن وقد مرت ترجمته.

(٢) أبو الأسود الدؤلي: ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الدؤلي الكناني. وضع علم النحو إذ أسس له قواعده الإمام علي كرّم الله وجهه، وقد ولاه الإمام علي البصرة وشهد معه صفين. وهو إلى جانب ذلك شاعر ظريف. توفي في البصرة سنة ٦٩هـ. راجع الإصابة ترجمة ٤٣٢٢.

وكتب إلى ابن عباس في ذلك، فكتب إليه ابن عباس: «أمّا بعد فإن الذي بلغك باطل، وإني لما تحت يدي ضابط، وله حافظ، فلا تُصدِّق الظَّنين والسلام. فكتب إليه عليّ: أمّا بعد، فأعلمني ما أخذت من الجزية، ومن أين أخذت، وفيما وضعت».

فكتب إليه ابن عباس: «أمّا بعد، فقد فهمت تعظيمك مَرْزأة[1] ما بلغك أني رَزَأْتُه من أهل هذه البلاد، فابعث إلى عملك من أحببت فإنِّي ظاعن[2] عنه والسلام».

واستدعى أخواله بني هلال بن عامر، فاجتمعت معه قيس كلها، فحمل مالاً وقال: هذه أرزاقنا اجتمعت، فتبعه أهل البصرة، فلحقوه بالطَّف[3] يريدون أخذ المال فقال قيس: والله لا يوصَل إلَيه وفينا عين تَطْرِف. فقال صَبْرة بن شَيْمان الحُدَّانيّ: «يا معْشر الأزد إن قيسًا إخواننا وجيراننا وأعواننا على العدوّ، وإن الذي يصيبكم من هذا المال القليل، وهم لكم خيرٌ من المال» فأطاعوه، فانصرفوا وانصرف معهم بكر وعبد القيس.. وقاتلهم بنو تميم فنهاهم الأحنف، فلم يسمعوا منه، فاعتزلهم، وقاتلهم بنو تميم فحجز الناس بينهم.. ومضى ابن عباس إلى مكة المشرفة.

وقيل بل أقام بالبصرة إلى أيام الحسن رضي الله عنه وأرضاه، وشهد صلح الحسن ومعاوية.

والأول أصح، والذي شهد الصلح عُبيد الله بن عباس.

ذكر مقتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه وشيء من سيرته

كان مقتله في شهر رمضان سنة أربعين ليلة الجمعة. قيل: لسبع عشرة ليلة خلت منه، وقيل: لإحدى عشرة ليلة. وقيل: في شهر ربيع الآخر. والأول أصح.

وقاتله عبد الرحمٰن بن مُلْجَم المراديّ ثم التَّجُوبيّ[4]، وأصله من حِمْير، ولم يختلفوا في أنه حليفٌ لمُراد، وعداده فيهم.

---

(١) الرزء: المصاب.
(٢) راحل: تارك.
(٣) الطف: أرض من ضاحية الكوفة في طريق البرية، فيها كان للإسلام صدع كبير باستشهاد ابن بنت الرسول الأعظم ﷺ السبط الحسين عليه السلام. راجع ياقوت جـ٤ ص٣٥.
(٤) عبد الرحمٰن بن ملجم التدؤلي الحميري. خارجي، ثلم في الإسلام ثلمة لم يرأب صدعها وهو أشقى الأولين والآخرين بقتله غيلة أميرَ المؤمنين علي بن أبي طالب هو راكع يصلي في مسجد الله بين يدي الله. قتل مذمومًا سنة ٤٠هـ.

وكان سبب قتله أن عبد الرحمٰن هذا، والبُرَك بن عبد الله التَّميمي الصريمي واسمه الحجاج، وعمرو بن بكر التَّميميّ السَّعديّ وهم من الخوارج، اجتمعوا فتذاكروا أمر الناس، وعابوا وُلاتهم، ثم ذكروا أهل النَّهروان، وقالوا: «ما نصنع بالبقاء بعدهم؟ فلو شَرَيْنا[1] نفوسنا، وقتلنا أئمة الضَّلالة، وأرحنا منهم البلاد!». فقال ابن مُلْجَم: أنا أكفيكم عليًا. وقال البُرَك: أنا أكفيكم معاوية.

وقال عمرو بن بكر: أنا أكفيكم عمرو بن العاص. فتعاهدوا على ذلك، وسمُّوا سيوفهم واتَّعَدُوا لسَبْعَ عشرةَ من رمضان، وقصد كل منهم الجهة التي يريدها.

فأما البُرَك بن عبد الله فإنه توجه إلى معاوية، فلما خرج للصلاة ضربه بالسيف فوقع في ألْيته، وأُخذ فقتل. وقيل: لم يقتله وإنما قطع يده ورجله. وبعث معاوية إلى الساعديّ، وكان طبيبًا، فقال له: «اخترْ إمّا أن أحمّي حديدةً فأضعُها موضع السيف، وإما أن أسقيك شَرْبة تقطع منك الولد» فقال: «أمّا النار فلا صبر لي عليها، وأما الولد ففي يزيد وعبد الله ما تَقَرُّ به عيني. فسقاه شربة فبرىء ولم يولَد له بعدها.

وأما عمرو بن بكر ـ فإنه جلس لعمرو بن العاص في تلك الليلة، فما خرج لشكاية نالته في بطنه، فأُمر خارجة ابن حبيبة ـ وكان صاحب شُرْطته ـ أن يصلي بالناس، فخرج ليصلّي، فشَدَّ عليه وهو يَرَى أنه عمرو بن العاص فقتله. فأُتي به إلى عمرو فقال: من هذا؟ قالوا: عمرو. قال: ومن قتلتُ؟ قالوا: خارجة. قال: أما والله ما ظننته غيرك. فقال: أردتَني وأراد الله خارجة؛ وقتله عمرو. هكذا نقل ابن الأثير في تاريخه الكامل[2] في هذه الواقعة في القاتل والمقتول.

وقال أبو عمر بن عبد البر: إن القاتل اسمه زادويه رجلٌ من بني العَنْبر بن عمرو بن تميم، قال وقيل: مولى لبني العَنْبر. وفي المقتول إنه خارجة بن حُذَافة بن غانم بن عامر بن عبد الله بن عبيد بن عويج بن عديّ بن كعب القرشيّ العدويّ، وأُمه فاطمة بنت عمرو بن بُجْرة العَدويّة. وقال في ترجمته: كان أحد فرسان قريش، يقال: إنه كان يعدل بألف فارس، قال: وذكر بعض أهل النسب والأخبار أن عمرو بن العاص كتب إلى عمر ليمدَّه بثلاثة آلاف فارس، فأمدَّه بالزُّبير بن العوام، والمِقداد بن الأسْود، وخارجة بن حُذافة هذا، وقال: إنه لما قُتِل وأُدخل القاتلُ على عمرو فقال: من هذا الذي تدخلوني عليه؟ فاقلوا: عمرو بن العاص، فقال: ومن قتلته؟ قيل:

---

(١) أراد بعنا. الشراء من الأضداد في العربية إذ تعني الكلمة ضدها في وقتٍ. وللمتكلم حق الاختيار.

(٢) راجع الكامل جـ٣ ص٣٩٤.

خارجة، فقال: أردت عمرًا وأراد الله خارجة، وقيل: إن ذلك من كلام عمرو كما تقدم. وفي ذلك يقول عبد الجيد بن عبدون: [من البسيط]

وَلَيْتَها إذ فَدَتْ عَمْرًا بخارجةٍ فَدَتْ عليًا بمن شاءت من البشر

وأمّا عبد الرحمٰن بن مُلْجَم ـ لعنه الله تعالى آمين ـ فإنه أتى الكوفة واشترى سيفًا بألف، وسقاه السم حتى لقطه، وكان في خلال ذلك يأتي عليًا رضي الله عنه فسأله فيعطيه، ويستحمله فيحمله، إلى أن وقعت عينه على قَطَام بنت علقمة، وهي تَيْم الرِّبَاب، وقيل هي من بني عِجْل بن لُجَيْم، وكانت تَرى رأيَ الخوارج، وكان عليٌّ قد قتل أباها وإخوتها بالنَّهْرَوان، وكانت امرأةً رائعةً جميلة، فأعجبته وأخذت بمجامع قلبه، فخطبها، فقالت: لقد آلَيْت أن لا أتزوج إلاَّ على مهر لا أريدُ سواه. فقال: وما هو؟ فقالت: ثلاثة آلاف درهم وعبد وقَيْنة وقتل علي بن أبي طالب. فقال: «والله لقد قصدت لقتل علي بن أبي طالب والفتك به، وما أقدمني إلى هذا المصر غيرُ ذلك، ولكني لما رأيتك آثرت تزويجك». فقالت: ليس إلاَّ الذي قلت لك. فقال لها: «وما يَغْنيك أو يعنيني[١] منك قتلُ عليٍّ؟ وأنا أعلم أني إن قتلته لم أُفت» فقالت: «إن قتلته ونجوتَ فهو الذي أردت، تبلغ شفاء نفسي ويهنيك العيش معي، وإن قُتلت فما عند الله خيرٌ من الدنيا وما فيها» فقال لها: لك ما اشترطتِ.

ففي ذلك يقول ابن مُلْجَم: [من الطويل]

ثلاثةُ آلافٍ وعبدٌ وقينَةٌ وضربُ عليٍّ بالحُسام المصَمَّم
فلا مَهْر أغلى من عليٍّ وإن غلا ولا فَتْك إلاَّ دُونَ فَتْكِ ابن مُلْجم

[وقد رويت هذه لغيره[٢]، وأولها:][٣] [من الطويل]

فلم أر مهْرًا ساقه ذو سماحةٍ كمهر قطامٍ من فَصيحٍ وأعْجَمِ

وقالت قَطَامِ له: إني سألتمس لك من يَشُدّ ظهرك. فبعثت إلى ابن عم لها يدعى وَرْدَان بن مجالد، فأجابها.

ولقي ابن مُلجم شَبِيبَ بن بَجَرة الأشجعي فقال له: يا شَبِيب هل لك في شرف

(١) راجع الاستيعاب جـ١ ص٤٢٠ وما بعدها.

(٢) وفي الاستيعاب جـ٣ ص٥٨ وردت العبارة على الشكل التالي: «وما يغنيني وماذا يغنيني منك».

(٣) وهو الأصوب.

الدنيا والآخرة؟ قال: وما هو؟ قال: تساعدُني على قتل عليِّ بن أبي طالب، فقال: «ثكِلَتْك أُمُّك! لقد جئت شيئًا إدًّا، كيف تقدر على ذلك؟» قال: «إنه رجل لا حَرَسَ له، ويخرج إلى المسجد منفردًا دون من يحْرُسه، فنكمنُ له في المسجد، فإذا خرج إلى الصلاة قتلناه، فإن نجونا نجونا، وإن قُتلنا سَعِدنا بالذكر في الدنيا وبالجنة في الآخرة». فقال: «ويلك! إن عليًّا ذو سابقة في الإسلام وفَضْل، واللّهِ ما تنشرح نفسي لقتله». قال: «ويلك! إنه حكَّم الرجال في دين الله، وقَتَل إخواننا الصالحين، فنقتله ببعض من قَتل، فلا تشُكَّن في دينك» فأجابه، وأقبلا حتى دخلا على قَطَام، وهي معتكفة في المسجد الأعظم في قُبَّة ضربتْها لنفسها، فدعتْ لهم[١].

وأخذوا أسيافهم وجلسوا قُبَالَة السُّدّة التي يخرج منها عليٌّ رضي الله عنه، فخرج إلى صلاة الصبح يوم الجمعة، فبدره شَبِيب فضربه فأخطأه، ووقع سيفه بعِضَادة الباب، وضربه عبد الرحمٰن بن ملجم على رأسه، وقال: الحكمُ لله يا عليُّ لا لك ولا لأصحابك. فقال عليّ رضي الله عنه: فُزْتُ وربِّ الكعبة! لا يفوتنكم الكلب!.

وهرب شبيب خارجًا من باب كِنْدَة، فلحقه رجل من حَضْرَمَوْت يُقال له: عُوَيْمِرَ، فصرعه، وأخذ سيفه، وجلس على صدره فصاح الناس: عليكم بصاحب السيف، فخاف عويمر على نفسه فتركه ونجا، فهرب شبيب في غمار الناس.

وهرب وَرْدَان إلى منزله، فأتاه رجل من أهله، فأخبره وَرْدان بما كان، فانصرف وجاء بسيفه وقتل وردان.

وأما ابن ملجم فإنه لما ضرب عليًّا حمل على الناس، فأفرجوا له، فتلقَّاه المغيرة بن الحَكَم بن الحارث بن نوفل بن عبد المطلب، فرمى عليه قَطِيفَة[٢] واحتمله وصرعه وقعد على صدره.

واختلفوا: هل ضربه في الصلاة؟ أو قبل الدخول فيها؟ وهل استخلف من أتمّ بهم الصلاة أو هو أتمها؟ قال أبو عمر بن عبد البر[٣]: والأكثر أنه استخلف جَعْدَة بن هُبَيْرة[٤]، فصلّى بهم تلك الصلاة.

قال: ثم قال علي رضي الله عنه لأصحابه حين أخذوا ابن ملجم: احبسوه فإن مِتُّ فاقتلوه ولا تمثلوا به، وإن لم أمت فالأمر إليَّ في العفو أو القصاص.

---

(١) فقد نسبت هذه الأبيات إلى ابن مياس المدادي.

(٢) ثوب أو مثله.

(٣) في الاستيعاب جـ٣ ص١٥٩.

(٤) لعله ابن أخت الإمام علي كرّم الله وجهه، أم هانىء.

وقيل: إنه قال لهم: «النفس بالنفس، إن هلكتُ فاقتلوه وإن بقيتُ رأيت فيه رأيي، يا بني عبد المطلب لا ألفيتكم[١] تخوضون دماء المسلمين، تقولون: قتل أمير المؤمنين، ألا لا يُقْتَلَنَّ إلاَّ قاتلي».

وأتتْ أم كلثوم ابنة عليّ رضي الله عنهما إلى ابن مُلْجَم وهو مكتوف فقالت: «أي عدو الله، إنه لا بأس على أبي، والله مُخزيك» قال: فعَلَى من تبكين؟ والله لقد شريته بألف وسمّمته بألف، ولو كانت الضربة بأهل مصر ما بقي منهم أحد».

قال: ثم أوصَى عليّ رضي الله عنه أولاده بتقوى الله، ولم ينطق إلا بقول «لا إله إلا الله» حتى مات رضي الله عنه وأرضاه.

رُوي عن صُهَيْب أن رسول الله ﷺ قال لعليّ رضي الله عنه: من أشقَى الأولين؟ قال: الذي عَقَر الناقة. قال: فمن أشقى الآخرين؟ قال: لا أدري. قال: «الذي يضربك علَى هذا» يعني يافُوخه، «فيَخْضب هذه»[٢] يعني لحيته.

وعن ثعلبة الجُمَاني قال: سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: والذي فلق الحبَّة وبرأ النَّسَمة لتُخضبن هذه، يعني لحيته، من دم هذا، يعني رأسه.

وروى النسائي[٣] من حديث عمار بن ياسر عن النبي ﷺ أنه قال: أشقى الناس الذي عقر الناقة والذي يضربك على هذا، ووضع يده على رأسه، حتى تُخضب هذه، يعني لحيته.

وعن ابن سِيرين[٤] عن عَبِيدة قال: كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذا رأى ابن ملجم قال: [من الوافر]

أُريد حياته ويريد قتلي عَذِيرَكَ من خليلك من مراد[٥]

---

(١) الصواب: لا ألفينّكم، أي لا أجدنّكم. (٢) راجع مسند أحمد جـ١ ص٩١.

(٣) أحمد بن علي بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار، كنيته أبو عبد الرحمٰن النسائي: صاحب السنن، قاضٍ، حافظ، أصله من نسا قرية بخراسان، استوطن مصر، والرملة من فلسطين، وهناك سئل عن فضائل معاوية فلم يجد شيئًا ليقوله فضربوه في المسجد وأهانوه وأخرجوه فمات لوقته ودفن منبوذًا ببيت المقدس على رواية سنة ٣٠٣هـ. راجع وفيات الأعيان جـ١ ص٢١.

(٤) محمد بن سيرين البصري، الأنصاري ولاءً، كنيته أبو بكر، عالم من علماء البصرة، اشتهر بتعبير الرؤيا، كتب لأنس بن مالك ولد وتوفي في البصرة سنة ١١٠هـ. راجع حلية الأولياء جـ٢ ص٢٦٣.

(٥) الشعر من قصيدة لعمرو بن معد يكرب قالها لابن أخته قيس بن مكشوح المرادي. وقد نقلها البغدادي في خزانة الأدب جـ٤ ص٢٨١ بقوله: أريد حباءه ويريد قتلي، والحباء: العطية. عذيرك: منصوب وهو مبدل من الفعل، وتقديره: اعذرني عذرًا منه.

وكان عليّ رضي الله عنه كثيرًا ما يقول: ما يمنع أشقاها، أو ما ينتظر أشقاها أن يخضب هذه من دم هذا، ويشير إلى لحيته ورأسه، خِضابَ دمٍ لا خِضابَ عِطْرٍ ولا عَبِيرٍ؟

وروى عمر بن شَبَّة[١] عن أبي عاصم النَّبِيل[٢] وموسى بن إسماعيل عن سُكَيْن بن عبد العزيز العبدي، أنه سمع أباه يقول: جاء عبد الرحمٰن بن ملجم يستحمل عليًا فحمله، ثم قال: [من الوافر]

أُريدُ حياتَه ويُريدُ قَتْلي ... عَذِيرَكَ مِن خَلِيلِكَ مِن مُراد

أما إن هذا قاتلي. قيل: فما يمنعك منه؟ قال: إنه لم يقتلني بعدُ.

وأُتِي عليٌّ رضي الله عنه فقيل له: ابن مُلْجَم يَسُمُّ سيفه، ويقول: إنه سيفتِك به فَتْكَةً يتحدّث بها العرب. فبعث إليه فقال له: لِمَ تَسُم سيفَك؟ قال لعدوِّي وعدوِّك. فخلَّى عنه.

وفي كلام علي رضي الله عنه يقول بكر بن حماد[٣]: [من الطويل]

وهَزَّ عليٌّ بالعراقَيْن لحيةً ... مصيبتُها حلت علَى كلِّ مُسلِمِ
فقال: سيأتيها من الله حادثٌ ... ويَخْضِبها أشقَى البريَّة بالدَّمِ
فباكَرَه بالسيف[٤]، شُلَّتْ يمينُه، ... لِشُؤْم قَطَام[٥] عند ذاك ٱبن مُلْجَمِ
فيا ضربةً من خاسر ضَلَّ سَعْيُه ... تَبَوَّأ منها مَقْعَدًا في جهنَّمِ
ففاز أميرُ المؤمنين بحَظِّه ... وإن طَرَقَت فيه الخطُوب بمعظمِ
ألا إنما الدنيا بلاءٌ وفِتنةٌ ... حلاوتُها شِيبَتْ[٦] بِصَابٍ[٧] وعَلْقَمِ

وحُكيَ عن عثمان بن المغيرة قال: لما دخل رمضان، كان علي رضي الله عنه يتعشى ليلة عند الحسن[٨] رضي الله عنه، وليلةً عند الحسين[٩]، وليلةً عند ابن

---

(١) عمر بن شبة بن عبيدة بن ريطة النميري البصري، كنيته أبو زيد، شاعر، مؤرخ، راوٍ، حافظ للحديث من أهل البصرة، وتوفي بسامراء سنة ٢٦٢هـ. راجع بغية الوعاة ص٣٦١ه.

(٢) الضحاك بن مخلد بن الضحاك الشيباني.

(٣) لعله بكر بن حماد بن سمك الزناتي، كنيته أبو عبد الرحمٰن التاهرتي، شاعر، عالم بالحديث ورجاله، رحل إلى البصرة وتلقى فيها العلوم، ثم عاد إلى قاهرت بالجزائر وتوفي سنة ٢٩٦هـ. راجع البيان المغرب جا ص١٥٣.

(٤) ابن ملجم عبد الرحمٰن.

(٥) قطام بنت الأخضر، مرَّ ذكرها.

(٦) شيبت: خلطت.

(٧) الصاب: المر.

(٨) الحسن بن علي بن أبي طالب كرّم الله جهه.

(٩) الحسين بن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه.

جعفر[١] رضي الله عنهم، لا يزيد على ثلاث لُقَم، ثم يقول رضي الله عنه: يأتيني أمر الله وأنا خَمِيصٌ[٢]، وإنما هي ليلةٌ أو ليلتان، فلم يمضِ قليل حتى قتل.

وقال الحسن بن كثير عن أبيه قال: خرج عليّ رضي الله عنه من الفجر، فأقبل الإوَزُّ يصحن في وجهه، فطردوهن عنه، فقال: ذَرُوهُنَّ فإنَّهن نَوَائِح[٣]، فضربه ابن ملجم في ليلته.

وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما يوم قُتل علي: خرجت البارحة وأبي يصلّي في مسجد داره، فقال لي: «يا بني إني بِتُّ أوْقَظ أهلي لأنها ليلة الجمعة صبيحة بدر فملكتني عيناي فنمت، فسنَحَ[٤] لي رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله ماذا لقيتُ من أُمتك من الأوَدِ واللَّدد، فقال لي: ادع عليهم، فقلت: اللهم أبدلني بهم من هو خير منهم وأبدلهم بي من هو شرٌّ مني» فجاء ابن النَّبّاح[٥] فآذَنَه بالصلاة فخرج، وخرجت خلفه، فضربه ابن ملجم فقتله.

وروى أبو عمر بن عبد البر بسنده إلى عبد الله بن مالك قال: جُمِع الأطبَّاء لعليّ رضي الله عنه يوم جُرِح، وكان أبصرهم بالطب أُثَير بن عمْر السَّكُوني، وكان يقال له: أُثَير بن عمريا، وكان صاحب كِسرَى يتطبَّب له، وهو الذي يُنسب إليه صحراء أُثَير[٦]، فأخذ أُثير رئةَ شاة حارَّة[٧]، فتتبع عرقًا منها فاستخرجه فأدخله في جراحة عليّ، ثم نفخ العرق فاستخرجه فإذا عليه بياض دماغ. وإذا الضربة قد وصلت إلَى أُمِّ رأسه، فقال: يا أمير المؤمنين اعهدْ عهدَكَ[٨] فإنك ميِّتٌ.

وفي ضربة ابن ملجم يقول عِمْران بن حِطَّان الخارجي[٩] يمدح ابن مُلْجَم: [من البسيط]

لِلّه دَرُّ المُراديِّ[١٠] الذي سفكَتْ	كَفَّاه مُهْجَة شرِّ الخلق إنسانا
أمْسَى عَشِيَّةَ غَشَّاه بضربته	مِمَّا جناه من الآثام عريانا
يا ضربةً من تَقيٍّ ما أرادَ بها	إلا ليبلغَ من ذي العرش رِضْوانا
إني لأذكرُهُ حينًا فأحسبه	أوْفَى البرية عند الله ميزانا

(١) عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الطيار رضوان الله عليهم.
(٢) جائع.
(٣) البواكي على الميت.
(٤) خطر عارضًا.
(٥) الأود: الاعوجاج، واللدد: الخصومة.
(٦) مؤذنة: عامر بن النباح.
(٧) استخرجت لتوها.
(٨) أوص بوصاتك.
(٩) عمران بن حطان بن ظبيان السدوسي الشيباني الوائلي خطيب الصفرية من الخوارج وشاعرهم.
(١٠) عبد الرحمٰن بن ملجم.

فقال بَكْر بن حماد التَّاهَرْتي[(١)] معارضًا له: [من البسيط]

قل لابن مُلْجَمَ والأقدارُ غالبةٌ ... هدمتَ ويحك للإسلام أركانا
قتلتَ أفضلَ من يمشي على قدم ... وأوّلَ الناس إسلامًا وإيمانا
وأعلمَ الناسِ بالقرآن ثم بما ... سَنَّ الرسول لنا شرعًا وتبيانا
صهرَ النبيِّ[(٢)] وَمَولاه وناصرَه ... أضحت مناقبُه نورًا وبرهانا
وكان منه على رغم الحَسُودِ له ... مكان هارون من موسَى بن عمرانا[(٣)]
وكان في الحرب سيفًا صارمًا ذكَرا ... ليثًا إذا لقِيَ الأقران أقرانا
ذكرتُ قاتله والدمع مُنْحَدرٌ ... فقلت: سبحانَ رَبِّ الناس سبحانا
إني لأحسبه ما كان من بشر ... يخشى المعاد ولكن كان شيطانا
أشقى مُرادٍ إذا عُدَّت قبائلها ... وأخسَر الناس عند الله ميزانا
كعاقرِ الناقة الأولَى[(٤)] التي جلَبت ... علَى ثَمُودَ بأرض الحِجْر خُسْرانا
قد كان يخبرهم أن سوف يَخْضِبها ... قبل المنيَّة أزمانًا فأزمانا[(٥)]
فلا عفا الله عنه ما تحمَّله ... ولا سَقَى قبر عِمران بن حِطَّانَا[(٦)]
لقوله في شقيٍّ ظلّ مُجْتَرمًا ... ونال ما ناله ظلمًا وعدوانا
«يا ضربةً من تقيٍّ ما أراد بها ... إلاّ ليبلغَ من ذي العرشِ رِضْوانا»
بل ضربة من غويٍّ أوردتْه لَظًى ... فسوف يلْقَى بها الرحمٰنَ غَضبانا
كأنه لم يُرِدْ قصْدًا بضربته ... إلاّ لِيصْلَى عذابَ الخُلْد نيرانا

وقالت أم الهيثَم بنت العريان النخعية، ومنهم من يرويها لأبي الأسود الدؤلي[(٧)]: [من الوافر]

ألا يا عَيْنُ وَيْحَكِ أسْعِدينا ... ألاَ تَبكي أميرَ المؤمنينا

---

(١) مرت ترجمته آنفًا.
(٢) زوج ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام.
(٣) استئناسًا بحديث رسول الله ﷺ: «يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي».
(٤) ناقة صالح وفيه قال الله تعالى: ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ۝﴾.
(٥) وقد مرّ معنا علم الإمام كرّم الله وجهه من قبل رسول الله ﷺ بكيفية استشهاده.
(٦) الذي امتدح ابن ملجم في الأبيات السالفة.
(٧) مرّت ترجمة أبي الأسود، ومعظم الأبيات موجودة في ديوان أبي الأسود ص١١٧. وفي مقاتل الطالبيين نسبت الأبيات إلى أم الهيثم بنت الأسود. فتأمّل.

تُبَكّي أمّ كُلثُومٍ[١] عليه — بعَبْرتها فقد رَأتِ اليقينا
ألا قُلْ للخوارج حيثُ كانوا — فلا قَرّتْ عيونُ الشامتينا
أفي شهر الصيام فجَعْتُمُونا — بخَير الناس طُرًّا[٢] أجْمَعينا
قتلتم خيرَ مَنْ ركب المَطَايَا — وذَلَّلها ومَن ركب السَّفِينا
ومَن لَبِسَ النعال ومن حَذَاها — ومن قَرأ المثَانِيَ والمبينا[٣]
وكلُّ مَناقِب الخَيرات فيه — وحبُّ رسولِ ربِّ العالمينا
لقد عَلِمَتْ قُرَيْشٌ حَيْثُ كانت — بأنَّك خيرُهمْ حسبًا ودينا
إذا استقبلتَ وَجْه أبي تُرَاب[٤] — رأيت البَدْر فوق الناظرينا
وكنَّا قبلَ مقتَلِهِ بخَيْرٍ — نَرَى مَوْلَى رسول الله فينا
يُقِيمُ الحقَّ لا يَرتابُ فيه — ويَعْدِلُ في العِدَا والأقْرَبينا
وليس بكاتم عِلْمًا لَدَيْه — ولم يُخْلَقْ من المتجبِّرينا
كأنَّ الناسَ إذْ فَقَدوا عليًّا — نَعَامٌ حَارَ[٥] في بَلَدٍ سِنِينا
فلا تشمَتْ مُعاويةَ بن صَخْرٍ — فإنَّ بقيَّة الخلفاء فينا

قال: ولما مات عليٌّ رضي الله عنه غسله ابناه الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر، وكُفِّن في ثلاثة أثْوَاب لَيس فيها قميص، وصلَّى علَيه ابنه الحسن، وكبَّر سبع تكبيرات.

قال: ولمَّا قُبِضَ رضي الله عنه بَعَث الحسنُ رضي الله عنه إلى ابن مُلْجَم فأحضره، فقال للحسن: «هل لك في خصلة؟ إني واللّهِ أعطَيْتُ اللّهَ عهدًا أن لا أُعاهد عهدًا إلاَّ وفيتُ به، وإني عاهدت الله عند الحَطِيم[٦] أن أقتل عليًا ومُعاوية أو أموتَ دونهما، فإن شئتَ خلَّيْتَ بَيْني وبَيْنه، ولك عَهْدُ الله على أني إن لم أقتله أو قتلته ثم بقيت أن آتيك حتَّى أضع يدي في يدك». فقال له الحسن: لا واللّهِ. ثم قدّمه فقتله، فأخذه الناس فأدرجوه[٧] في بوَارِي[٨] وحَرّقوه بالنار.

(١) بنت الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه.
(٢) أي بأجمعهم.
(٣) كناية عن الكتاب الكريم ومحكم آياته.
(٤) كنية الإمام علي كرّم الله وجهه.
(٥) نعام: الحيوان المعروف، وهو مشهور بخفة عقله وقلة ذكائه. وحار: أي ضاع عن القصد.
(٦) الحطيم: ركن بمكة بين المقام والركن وزمزم والحجر. راجع معجم البلدان جـ٢ ص٢٧٣.
(٧) لفّوه.
(٨) مفردها بوري، وهو البسط المعمولة من قصب.

واختلف في موضع قبر عليٍّ رضي الله عنه، فقيل: دفن في قصر الإمارة بالكوفة، وقيل: في رحْبَة الكوفة، وقيل: دفن بنَجَفِ[١] الحيرة في موضع بطريق الحيرة، وقيل: عند مسجد الجماعة، وقال الواقدي[٢]: دُفن ليلاً وأُخفي قبره.

وكانت مدة خلافته خمس سنين إلاَّ ثلاثة أشهر، وقيل: أربع سنين وتسعة أشهر وستة أيام، وقيل: وثلاثة أيام، وقيل: وأربعة عشر يومًا.

وكان عمره ثلاثًا وستين سنة، وقيل: خمسًا وستين، وقيل: تسعًا وخمسين، والأول أصح.

وأما سيرته رضي الله عنه في خلافته فقد تقدّم من فضائله ما قدّمناه في صدر هذا الفصل.

وكان من سيرته رضي الله عنه أنه يسير في الفَيءِ[٣] بسيرة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه في القسم، وإذا ورد عليه مال لم يُبق منه شيئًا إلا قسمه، ولا يترك في بيت المال إلا ما يَعْجِز عن قسمته في يومه ذلك، ويقول: يا دنيا غُرِّي غيري، ولم يكن يستأثر من الفَيْءِ بشيءٍ، ولا يخصُّ به حميمًا ولا قريبًا.

وروى أبو عمر[٤] بسنده إلى مُجَمِّع التميمي أن عليًّا رضي الله عنه قسم ما في بيت المال بين المسلمين، ثم أمر به فكُنِس، ثم صلَّى فيه رَجَاء أن يشهد له يوم القيامة.

وبسنده إلَى سُفيان عن عاصم بن كُلَيب عن أبيه قال: قدِم على عليٍّ المالُ من أصْبهان، فقسمه سبعة أسباع، ووجد فيه رغيفًا فقسمه سبع كِسَر، وجعل على كل جزء كِسرة، ثم أقْرَع بينهم: أيُّهم يُعطَى أو لا.

وعن مُعاذ بن العلاء عن أبيه عن جده قال[٥]: سمعت علي بن أبي طالب يقول: ما أصبتُ فيكم إلا هذه القَارُورَة أهداها إليَّ الدهْقَان، ثم نزل إلى بيت المال ففرَّق كُلَّ ما فيه، ثم جعل يقول: [من الرجز]

أفلح من كانت له قوصرّه[٦]   يأكل منها كل يوم تَمْره

---

(١) النجف عين بظاهر الكوفة تسقي عشرين ألف نخلة، وفيها قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه. راجع معجم ياقوت جـ٥ ص٢٧١.

(٢) محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي، كنيته أبو عبد الله من أقدم المؤرخين وحفاظ الحديث. توفي سنة ١٨٠هـ.

(٣) ما أفاءه الله سبحانه على المسلمين. راجع الاستيعاب جـ٣ ص٤٧.

(٤) ابن عبد البر جـ٣ ص٤٩.

(٥) راجع الاستيعاب جـ٣ ص٤٩.

(٦) وعاء يوضع فيه التمر.

وعن عنترة الشيباني قال: كان علي رضي الله عنه يأْخذ الجزية والخراج من أهل كلِّ صناعة من صناعته وعمل يده، حتى يأْخذَ من أهل الإبر والمسالّ[١] والخيوط والحبال، ثم يقسمه بين الناس، ولا يدعُ في بيتِ المال مالاً يَبيت فيه حتى يقسمه، إلا أن يغلبه شغلٌ، فيصبحُ إليه وهو يقول: يا دُنيا لا تَغُرِّيني وغرِّي غيري.

وكان رضي الله عنه لا يخصص بالولايات إلا أهل الديانات والأمانات، وإذا بلغه عن أحدهم خيانة كتب إليه: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس: ٥٧] ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الأنعام: ١٥٢] ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود: ٨٥، ٨٦] إذا أتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يديك من عملنا حتى نبعث إليْك من يتسلمه منك. ثم يرفع طرفه إلى السماء فيقول: اللهم إنك تعلم أني لم آمرهم بظلم خلقك ولا بترك حقك.

ومواعظه رضي الله عنه ووصاياه لعماله إذ كان يخرجهم إلى أعماله[٢] كثيرة مشهورة، وقد قدّمنا منها في الباب الرابع، من القسم الخامس، من الفن الثاني، من كتابنا هذا، ما تقف عليه هناك، وهو في السفر السادس من هذه النسخة.

قال أبو عمر بن عبد البر[٣]: قد ثبت عن الحسن بن عليّ رضي الله عنهما من وجوه أنه قال: لم يترك أبي إلا ثمانمائة درهم أو سبعمائة درهم فَضَلَتْ من عطائه، كان يعدّها لخادم يشتريها لأهله.

وأمّا تقشفه في لباسه ومطْعَمه، فكان من ذلك على الغاية القُصوى. رُوي عن عبد الله بن أبي الهذيل[٤] قال: رأيت عليًا رضي الله عنه خرج وعليه قميص غليظٌ دارسٌ، إذا مدّ كُمّه بلغ إلى الظفر، وإذا أرسله صار إلى نصف الساعد. وعن الحسن بن جرموز عن أبيه قال: رأيت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يخرج من مسجد الكوفة وعليه قَطَرِيَّتان[٥]، مؤْتَزِرًا بالواحدة مُرْتَدِيًا بالأُخرى، وإزاره إلى نصف الساق، وهو يطوف في الأسواق، ومعه دِرَّة[٦] يأْمرهم بتقوى الله وصِدْق الحديث، وحسن البيع، والوفاءِ بالكيل والميزان. وعن إسحاق بن كعب بن عُجْرة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «عليٌّ مخشوشن في ذات الله تعالى»[٧].

---

(١) جمع مسلة وهي الإبرة الكبيرة.

(٢) الولايات التي كان عليه السلام يوليهم إياها.

(٣) الاستيعاب جـ٣ ص٤٨.

(٤) راجع الحاشية ٢.

(٥) إزار، مفردها قطرية.

(٦) ما يشبه السوط برأس مختلف.

(٧) راجع الرياض النضرة جـ٢ ص٢٢٥ حاشية فتح الله ومقتله.

ذكر أزواج عليٍّ
رضي الله عنه وأولاده وكاتبه وقاضيه وحاجبه

أولُ زوجةٍ تزوجها فاطمة بنت رسول الله ﷺ ورضي عنها، ولدتْ له الحسن والحسين رضي الله عنهما، وقد قيل: إنها ولدت ابنًا اسمه مُحْسِن توفي صغيرًا، وزينب الكبرى، وأُم كلثوم الكبرى.

وتزوج بعدها[١] أم البنين ابنة حرام الكلابية، فولدت له العباس وجعفرًا وعبد الله وعثمان، قُتِلوا مع الحُسين بالطَّفِّ.

وتزوج لَيْلى بنت مسعود بن خالد النهْشَلية التميمية، فولدت عبيد الله وأبا بكر قتلا مع الحسين، وقيل: إن عبيد الله قتله المختار بن أبي عبيد.

وتزوج أسماء بنت عميس الخَثْعَمية، فولدت له محمدًا الأصغر ويَحْيَى، وقيل: إن محمدًا لأُمِّ وَلد، وقيل: إنها ولدت عَوْنًا.

وله من الصَّهْبَاء بنت ربيعة التغلبية - وهي من السَّبْي الذين أغار عليهم خالد بن الوليد بعَيْن التَّمر في خلافة أبي بكر - عُمَر ورقيَّة، فعُمِّر عمرُ هذا حتَّى بلغ خمسًا وثمانين سنة، وحاز نصف ميراث عليٍّ رضي الله عنه، ثم مات بينْبُع[٢].

وتزوج عليّ رضي الله عنه أُمَامَة بنت أبي العاص بن الربيع، وأُمها زينب بنت النبي ﷺ، فولدت له محمدًا الأوسط.

وله محمد الأكبر، وهو ابن الحنفية، أُمُّه خَوْلَة بنت جعفر، من بني حَنِيفة.

وتزوج أُم سعيد ابنة عروة بن مسعود فولدت له أُم الحسن ورَمْلَة الكبرى.

وكان له بنات من أُمهات شتى، وهُنَّ: أُمّ هَانيء ومَيْمُونة وزينب الصَّغْرى ورَمْلة الصغرى وأم كُلْثُوم الصغرى وفاطمة وأُمَامة وخديجة وأُم الكرام وأُم سلمة وأُم جعفر وجُمَانة ونَفِيسَة، وكلهن لأُمهات أولاد.

وتزوج محياة ابنة امرىء القَيْس[٣] بن عَدِيّ الكلبية، فولدت له جارية هلكتْ صغيرة.

---

(١) بعد وفاتها باتفاق كل الرواة.

(٢) ينبع: وهي عن يمين رضوى لمن كان منحدرًا من المدينة إلى البحر، على مسيرة ليلة من رضوى. راجع ياقوت جـ٥ ص٤٤٩.

(٣) ابن عدي بن أوس بن عابد الكلبي، وهو غير امرىء القيس الشاعر الجاهلي.

فجميع أولاد عليّ رضي الله عنه خمسة عشر ذكرًا، وهم: الحسن والحُسين ومُحْسِن ـ على خلاف فيه ـ والعبّاس وجعفر وعبد الله وعثمان وعُبيد الله وأبو بكر ومحمد ابن الحنفية ومحمد الأوسط ومحمد الأصغر ويحيى وعَون وعمر، النسل منهم للحسين والحسن ومحمد ابن الحنفية والعباس بن الكلابية وعمر بن التغلبية.

ومن البنات تسع عشرة، وهن: زينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى ورقية وأم الحسن ورملة الكبرى وأم هانىء وميمونة وزينب الصغرى ورملة الصغرى وأم كلثوم الصغرى وفاطمة وأُمَامة وخديجة وأم الكرام وأم سلمة وأم جعفر وجُمانة ونفيسة وجارية ابنة الكلبية.

وكان كاتبه عبد الله بن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ، وكتب له سعد بن نِمْرَان الهَمْدَاني(١).

قاضيه شُرَيْح بن الحارث.

صاحب شرطته معقل بن قيس الرياحي، وقيل: سليمان بن صُرَد الخزاعي.

حاجبه قُنْبُرُ مولاه، وكان قبله بِشر مولاه.

نقش خاتَمه: الملكُ لله الواحد القهار.

وتقدم ذكر عُمّاله.

ذكر خلافة الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما

هو أبو محمد الحسن بن علي(٢) بن أبي طالب بن عبد المطلب، وأمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ.

وسنذكر إن شاء الله نبذة من فضائله وأخباره عند ذكرنا لوفاته، ونذكر في هذا الموضع ما يختص بالخلافة دون غيره.

---

(١) راجع الإصابة جـ٤ ص٦٧ وأيضًا جـ٣ ص٢٠٠.

(٢) الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي، ابن البضعة الزهراء، سيدة نساء العالمين فاطمة بنت محمد عليها وعلى أبيها أفضل الصلوات. كنيته أبو محمد، تولى الخلافة بعد أبيه فهو خامس الخلفاء الراشدين. عاقلٌ، حليم، جواد، فصيح وكان من أحسن الناس خلقًا وخلقًا. حجّ عشرين حجّة ماشيًا. استشهد مسمومًا وفيه أن معاوية دسّ له من سمه سنة ٥٠ هجرية. راجع الصحابة جـ١ ص٣٢٨.

بويع له يوم وفاة أبيه في شهر رمضان سنة أربعين، وأول من بايعه قَيس بن سعد بن عُبادة، وقال له: ابسُطْ يَدَكَ أُبايعْك على كتاب الله وسنّة رسوله وقتال المحِلِّين. فقال له الحسن: على كتاب الله وسنة رسوله، فإنهما يأْتيان على كل شرط. فبايعه الناس، وكان الحسن يَشرُط عليهم: «إنكم سامعون مطيعون، تسالمون من سالمت، وتحاربون من حاربت». فارتابوا بذلك وقالوا: ما هذا لكم بصاحب وما يريد هذا إلاّ القتال..

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لمّا ضربه ابن ملجم دخل عليه جُنْدُب بن عبد الله فقال: «إن فقدناك، ولا نفقدك، أفنبايع الحسن؟» فقال علي رضي الله عنه: «ما آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر» فلما مات بايعه الناس، ولم تطل مُدَّته حتَّى سَلَّم الأمر لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه؛ لأسباب نذكرها إن شاء الله تعالى.

ذكر تسليم الحسن بن علي الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان

قال[١]: كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه قد بايعه أربعون ألفًا من عسكره على الموت، وتجهز لقصد الشام لقتال معاوية فقتل قبل ذلك.

فلما بايع الناس الحسن تجهَّز بهذا الجيش، وسار من الكوفة في شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين، وذلك عندما بلغه مسير معاوية إليه في أهل الشام.

ووصل الحسن إلى المدائن، وجعل قَيس بن سعد بن عُبادة علَى مقدمته في اثني عشر ألفًا، وقيل: بل كان الحسن قد جعل على مقدمته عبيد الله بن عباس[٢]، فجعل عبيد الله على مقدمته في الطلائع قيس بن سعد.

ووصل معاوية مَسْكِن[٣].

فلما نزل الحسن المدائن نادى منادٍ في العسكر: ألاَ إنَّ قَيس بن سعد قُتل فانفروا. فنفروا. وأتَوا سُرَادق الحسن، وانتهبوا[٤] ما فيه، حتَّى نازعوه بِساطًا كان

---

(١) انظر ابن الأثير في الكامل ج٣ ص٤٠٤. (٢) وفي روايات أنه عبد الله بن العباس.

(٣) مسكِن: على غير قياس بكسر الكاف، وهو موضع قريب من أوانا على نهر دجيل عند دير الجاثليق. راجع ياقوت ج٥ ص١٢٧.

(٤) اسرقوا.

تحته، وأخذوا رداءه من ظهره، ووثب عليه رجل من الخوارج من بني أسد يقال له ابن أُقَيْصِر بخنجر مسموم فطعنه به في أَلْيَته، ووثب الناس على الأسدي فقتلوه[١].

فازداد لهم بغضًا ومنهم ذُعْرًا، ودخل المقصورة البيضاء بالمدائن، وكان الأمير على المدائن سعد بن مسعود الثقفي، عم المختار بن أبي عُبَيْد، فقال له المختار وهو شاب: هل لك في الغنى والشرف؟ قال: وما ذاك؟ قال: تستوثق من الحَسَن وتستأمن به إلَى مُعاوية. فقال له عمه: «عليك لعنة الله! أثب على ابن بنت رسول الله وأُوثقه؟ بئس الرجل أنت!».

فلما رأى الحسن رضي الله عنه تفرق الناس عنه كتب إلى معاوية وشرط شروطًا، وقال: إن أعطيتني هذا فأنا سامع مطيع، وعليك أن تَفِيَ لي به. وقال لأخيه الحسين وعبد الله بن جعفر: إنني قد أرسلت إلى مُعاوية في الصلح. فقال له الحسين: أنشدك الله أن لا تُصدِّقَ أحْدُوثَةَ معاوية وتكذِّب أحدوثة أبيك! فقال له الحسن: اسكتْ أنا أعلم بالأمر منك.

فلما انتهَى كتاب الحسن إلَى معاوية أمسكه، وكان قد أرسل عبد الله بن عامر وعبد الرحمٰن بن سَمُرة بن جندب إلَى الحسن قبل وصول الكتاب إليه ومعهما صحيفة، بيضاء مختوم علَى أسفلها، وكتب إليه: أن اشترطْ في هذه الصحيفة التي ختمت أسفلها ما شئتَ فهو لك. فلما أتت الصحيفةُ إلى الحسن اشترط أضعاف الشروط، التي سأل معاوية قبل ذلك، وأمسكها عنده.

فلما سلّم الحسن رضي الله عنه الأمر لمعاوية، طلب الحسن أن يعطيه الشروط التي اشترطها في الصحيفة التي ختم عليها معاوية فأبَى ذلك، وقال: قد أعطيتك ما كتبتَ تطلب.

قال: ولما اصطلحا قام الحسن رضي الله عنه في أهل العراق فقال: «يا أهل العراق إنه سخَّى بنفسي عنكم ثلاث: قتلكم أبي وطعْنكم إياي وانتهابكم متاعي».

قال: وكان الذي طلب الحسن من معاوية أن يعطيه ما في بيت مال الكوفة، ومبلغه خمسة آلاف ألف. وقيل: سبعة آلاف ألف، وخراج دَارَ بَجْرَد[٢] من فارس، وأن لا يُشْتَمَ عليٌّ. فلم يُجبه إلى الكفّ عن شتم عليٍّ، فطلب أن لا يُشْتَمَ

(١) راجع مقاتل الطالبين للأصبهاني ص٦٥.

(٢) دارا بجِرد: وهذا هو الصواب، وليس ما أثبت أعلاه. ولاية بفارس فيها معدن الزئبق. راجع معجم الياقوت جـ٢ ص٤١٩.

وهو يسمع، فأجابه إلَى ذلك، ثم لم يَفِ له به أيضًا. فأما خراج دار بجرد فإن أهل البصرة منعوه منه وقالوا: هو فيئُنا، لا نعطيه أحدًا. وقيل: كان منعهم بأمر معاوية أيضًا. وقيل: إن معاوية أجرى على الحسن رضي الله عنه بعد ذلك في كل سنة ألف ألف درهم.

وتسلم معاوية الأمرَ لخمس بقين من شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين. وقيل: في شهر ربيع الآخر. وقيل: في جُمادَى الأُولَى في النصف منه.

وقيل: إنما سلم الحسنُ الأمر إلى معاوية؛ لأنه لما راسله معاوية في تسليم الخلافة إليه خطب الناس فحمد الله وأثْنَى عَلَيه وقال: «إنا واللّهِ ما يَثنينا عن أهل الشام شكٌّ ولا ندم، وإنما كُنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر، فشِيبت[١] السلامةُ بالعداوة الصبرُ بالجزع، وكنتم في مسيركم إلى صِفِّين ودِينُكم أمامَ دُنْياكم، وأصبحتم اليوم وَدُنياكم أمام دينكم، ألا وقد أصبحتم بين قتيلين: قتيل بصِفِّين تبكون له، وقتيل بالنَهْرَوَان تطلبون ثأره، وأما الباقي فخاذلٌ، وأما الباكي فثائرٌ، ألاَ وإن معاوية دعانا إلى أمر ليس فيه عِزٌّ ولا نَصَفه، فإذا أردتم الموتَ ردَدْناه عليه وحاكمناه إلى الله عزّ وجل بِظُبا[٢] السيوف، فإن أردتم الحياةَ قبلناه وأخذنا لكم الرضا». فناداه الناس من كل جانب: البقية البقية، فأمضى الصلح.

فلما عزم على تسليم الأمر إلى معاوية خطبَ الناس فقال: «أيها الناس، إنما نحن أُمراؤكم وضيفانكم، ونحن أهل بيت نبيكم عليه الصلاة والسلام الذين أذهب الله عنهم الرِّجْسَ وطهرهم تطهيرًا»[٣] وكرر ذلك حتى ما بقي في المجلس إلاَّ من بكَى حتى سُمع نَشِيجه، وأرسل إلى معاوية وسَلَّم إليه الأمر.

فكانت خلافةُ الحسن علَى قول من يقول «سلَّم الأمر في ربيع الأول» خمسة أشهر ونصف شهر، وعلَى قول من يقول «في ربيع الآخر» ستة أشهر وأيامًا، وعلى قول من يقول «في جمادى الأُولَى» سبعة أشهر وأيامًا.

وحكى أبو عمر بن عبد البر[٤] رحمه الله أن الحسن رضي الله عنه لما قُتِل أبوه بايعه أكثر من أربعين ألفًا، كلهم قد كانوا بايعوا أباه عليًا قبل موته علَى الموت، ثم خرج لقتال معاوية وخرج معاوية لقتاله، فلما تَرَاءَى الجَمْعان، وذلك بموضع يقال له

(١) خُلطت.
(٢) ظبة السيف: حده.
(٣) استئناسًا بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.
(٤) انظر الاستيعاب جـ٣ ص٣٧٠.

مسْكِن من أرض السواد بناحية الأنبار، علم أنه لن تغلب إحدى الفئتين حتى يذهب أكثر الأُخَرى، فكتب إلى معاوية أنه يصير الأمر إليه، علَى أن يشترط، عليه أن لا يطالب أحدًا من أهل المدينة والحجاز ولا أهل العراق بشيء مما كان في أيام أبيه، فأجابه معاوية وكاد يطير فرحًا إلاَّ أنه قال: أمّا عشرة أنفس فلا أُؤمِّنهم، فراجعه الحسن فيهم، فكتب إليه يقول: إني آلَيْتُ أني متى ظفرت بقَيْس بن سعد أن أقطع لسانه ويَدَه. فراجعه الحسن: أني لا أبايعك أبدًا وأنت تطلب قيسًا أو غَيْرَه بتبِعَةٍ قَلَّتْ أو كثُرت، فبعث إليه معاوية حينئذ برقٍّ أبيض وقال: اكتبْ ما شئتَ فيه وأنا ألتزمه. فاصطلحا على ذلك، واشترط عليه الحسن رضي الله عنه: أن يكون له الأمر من بعده، فالتزم ذلك كُلَّه معاوية، فقال له عمرو بن العاص: إنه قد انْفَلَّ حدُّهم[١] وانكسرتْ شوكتهم[٢]. فقال له معاوية: «أمَا علمت أنه قد بايَعَ عليًّا أربعون ألفًا على الموت؟ فوالله لا يُقتلون حتَّى يُقتل أعدادهم من أهل الشام، ووالله ما في العيْش خيرٌ بعد ذلك». فاصطلحا على ما ذكرناه.

وكان الحسن رضي الله عنه كما قال رسول الله ﷺ: «إن ابني هذا سيِّدٌ يصلح الله به بين فئتَيْن عظيمتين من المسلمين»[٣].

قال: ولما بايع الحسن معاوية كان أصحاب الحسن يقولون له: يا عار المؤمنين. فيقول: العارُ خيرٌ من النار.

وروى أبو عمر[٤] بسنده إلى أبي الغَرِيف[٥] قال: كنا في مقدمة الحسن بن عليّ رضي الله عنهما علَى اثني عشر ألفًا بمَسْكِن مستميتين، تقطر أسيافنا من الجِدّ والحرص[٦] على قتال أهل الشام، وعلينا أبو العمر طه[٧]، فلما جاءنا صلح الحسن كأنما كُسِرت ظهورُنا من الغيظ والحزن، فلما جاء الحسن رضي الله عنه الكوفة أتاه شيخ منّا يُكنَى أبا عامر سيفان بن ليلى، فقال: السلام عليك يا مُذِلَّ المؤمنين. فقال: «لا تقُلْ هذا يا أبا عامر، فإني لم أُذِل المؤمنين، ولكنّي كرهت أن أقتلهم في طلب الملك».

---

(١) كناية عن ضعفهم، والحد هو السيف استخدم جذوه وأريد كله، والفل والكل للسيف إذا امتنع عن القطع لتشمله.

(٢) شوكة الرمح: نصله.

(٣) راجع الحديث عند البخاري ورقمه ٣٥٠٠.

(٤) ابن عبد البر في الاستيعاب جـ١ ص٣٧٢.

(٥) عبيد الله بن خليفة من همدان.

(٦) كناية عن استمرار القتل.

(٧) عمير بن يزيد بن عمرو بن شراحيل بن النعمان بن المنذر، كان من أصحاب الإمام علي. راجع جمهرة أنساب العرب ص٤٠١.

قال أبو عمر: ولا خلافَ بين العلماء أن الحسن إنما سلم الخِلافَة لمعاوية حياتَهُ[١]، لا غير، ثم تكون له من بعده، وعلى ذلك انعقد بينهما ما انعقد في ذلك الوقت، ورأى الحسن ذلك خَيْرًا من إراقة الدماء في طلبها، وإن كان عند نفسه أحقَّ بها.

قال[٢]: ودخل مُعاويةُ الكوفةَ وبايعَه الناس، فأشار عليه عَمرُو بن العاص أن يأمر الحسن بن علي فيخطُب الناس، فكرِه ذلك معاويةُ وقال: لا حاجةَ لنا بذلك، فقال عمرو: «ولكني أُريد ذلك ليبدُوَ للناس عِيُّهُ، فإنه لا يدري هذه الأُمور ما هي» ولم يزل بمعاوية حتى أمر الحسَنَ رضي الله عنه أن يخطب[٣]، وقال له: يا حسن قم فكلِّمْ الناس فيما جَرَى بَيْننا. فقام الحسن رضي الله عنه فتشهد وحَمِد الله وأثنى عليه، ثم قال في بديهته: أمَّا بَعْدَ أيُّها الناس فإن الله هداكم بأوَّلِنا وحَقَنَ دماءَكم بآخِرِنا، وإنَّ لهذا الأمر مدة، والدنيا دُوَلٌ، وإن الله عزّ وجل يقول: ﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ۝١٠٩ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ۝١١٠ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝١١١﴾ [الأنبياء: ١٠٩ ـ ١١١] فلما قالها، قال له معاوية: اجلسْ. ثم قام معاوية فخطب الناس، ثم قال لعمرو: هذه من رأيك.

ومن رواية عن الشعبي أن الحسن خطب فقال[٤]: «الحمد لله الذي هدَا بنا أوّلكم وحقَن بنا دماء آخركم، ألا إن أكْيَسَ الكَيْس[٥] التُّقى، وأعجزَ العجز الفُجور، وإنَّ هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية إما أن يكون أحقَّ به منِّي، وإما أن يكون حقي فتركته لله تعالى وإصلاح أمة محمد ﷺ وحقن دمائهم». ثم التفت إلى معاوية فقال: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝١١١﴾ [الأنبياء: ١١١] ثم نزل، فقال معاوية لعمرو: ما أردتَ إلاَّ هذا. وحقدها معاوية على عمرو.

ولحق الحسن رضي الله عنه بالمدينة، بأهل بيته وحشمه، والناس يبكون عند مسيرهم من الكوفة.

---

(١) أي مدة حياة معاوية وفي حال قبض الإمام الحسن عليه السلام، فالخلافة من بعد معاوية للسبط الإمام الحسين.

(٢) ابن عبد البر في الاستيعاب جا ص٣٧٣.

(٣) انظر مقاتل الطالبيين ص٧٢.

(٤) تجده في الاستيعاب لابن عبد البر جا ص٣٧٤.

(٥) الكيّس: الحصيف اللبق.

والحسن رضي الله عنه آخر الخلفاء حقيقة، لقول رسول الله ﷺ: «الخلافة ثلاثون ثم تكون ملكًا وملوكًا»[١]. فكانت هذه المدة من خلافة أبي بكر رضي الله عنه وإلى آخر أيام الحسن.

ولم يزل الحسن رضي الله عنه مقيمًا بالمدينة إلى أن مات علَى ما نذكره إن شاء الله في حوادث سنة تسع وأربعين.

وحيث ذكرنا الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وذكرنا أخبار من مات أو استشهد من العشرة، أصحاب رسول الله ﷺ في أثناء أخبار الخلفاء، فلنصل هذا الباب بذكر من بقي من العشرة، وهما: سَعْد بن أبي وَقَّاص وسَعِيد بن زيد، ليكملَ عِدَّة العشرة في هذا الباب، وإن كانت وفاتُهما في غير أيام الخلفاء.

ذكر أخبار سعد بن أبي وقاص[٢] ووفاته رضي الله عنه

هو أبو إسحاق سعد بن أبي وقاص، واسم أبي وقاص مالك بن أُهَيْب بن عبد مَنَاف بن زهرة بن كِلاب القرشي الزُّهْري.

كان رضي الله عنه سابع سبعة في الإسلام، أسلم بعد ستة، وهو ابن تسع عشرة سنة.

وهو أحد العشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة، وأحد السّتَّة الذين جعل عُمر رضي الله عنه الشُورَى فيهم، وأخبر أن رسول الله ﷺ مات وهو عنهم راضٍ.

وكان رضي الله عنه مُجابَ الدعوة مشهورًا بذلك، تُخاف دعوته وتُرجَى لاشتهار إجابتها، وذلك أن رسول الله ﷺ قال فيه: «اللهم سدِّد سهمه وأجب دعوته»[٣].

وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله، وذلك في سَرِيَّة عُبَيْدَة بن الحارث، وقد تقدم ذكره في السيرة النبوية في الغزوات والسرايا.

---

(١) راجع مسند أحمد جـ٤ ص١٨٥ باختلاف.

(٢) سعد بن أبي وقّاص مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشي من بني زهر. كنيته أبو إسحاق. له صحبة وهو من العشرة المبشرة بالجنة. وأحد الستة الذين جعل عمر الخلافة بينهم فتح العراق والمدائن، قاتل في بدر وتولى الكوفة لعمر بن الخطاب عزله عثمان فرجع إلى المدينة حيث فقد بصره وتوفي حوالي سنة ٥٥هـ. راجع الإصابة، ترجمة ٣١٨٧.

(٣) راجع أسد الغابة جـ٢ ص٢٩١.

وجمع رسول الله عليه الصلاة والسلام له بين أبوَيْه في قوله ﷺ: «ارم فِداك أبي وأُمّي»[١] ولم يقل ذلك إلاَّ له وللزبَير بن العوام.

وكان أحد الفرسان الشجعان من قريش، وهو الذي كَوَّف[٢] الكوفة ونفى الأعاجم وتولّى قتال الفرس كما تقدم ذكر ذلك في خلافة عُمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وكان أميرًا علَى الكوفة، فشكاه أهلُها ورمَوْه بالباطل، فدعَا علَى الذي واجهه بالكذب دَعْوَة ظهرتْ إجابته فيها.

ولمَّا جعله عُمر بن الخطاب في أصحاب الشُورَى قال: إن وَلِيَها سعد فذاك وإلاَّ فلْيستعن به الوالي فإني لم أعزِلْه[٣] عن عجز ولا خيانة.

وكلَّمه ابنه عمر بن سعد أن يدعُوَ لنفسه بعد مَقْتَل عثمان فأبَى.

وكان رضي الله عنه ممَّن لزم بيته وقعد في الفتنة، وأمر أهله أن لا يخبروه من أخبار الناس بشيء حتَّى تجتمع الأمة على إمام، فطمِع مُعاوية فيه وفي عبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة، فكتب إليهم[٤] يدعوهم إلى عونه على الطلب بدم عثمان، ويقول لهم إنهم لا يكفِّرون ما أتوه من قتله وخذلانه إلاَّ بذلك، وقال: إن قاتله وخاذله سواء، في نَثر ونظم كتب به إليهم، فأجابه كُلُّ واحد منهم يرد عليه ما جاء به من ذلك، ويُنْكر عليه مقالته، ويعرِّفه أنه ليس بأهلٍ لما يطلبه، وكان في جواب سعد: [من الوافر]

مُعاوِيَ داؤك الداءُ العَيَاءُ ... وليس بما تَجيءُ به دَوَاءُ
أيدعوني أبو حَسَن عليٌّ ... فلم أردُدْ عليه ما يشاءُ
وقلتُ له أَعْطِني سَيْفًا قصيرًا ... تُمَازُ[٥] به العداوةُ والوَلاءُ
فإنَّ الشرَّ أصغره كبيرٌ ... وإنَّ الظَّهر مُثْقِلُه الدِّماءُ
أتطمعُ في الذي أعْيَا عليًّا ... على ما قدْ طمعْتَ به العَفَاءُ[٦]!
ليومٌ منه خيرٌ منك حيًّا ... ومَيْتًا أنت للمرء الفِدَاءُ
وأما أمر عُثْمَانِ فدَعْهُ ... فإنَّ الرَّأْيَ أذْهَبَه البَلاءُ

---

(١) راجع أسد الغابة جـ٢ ص٢٩١. (٢) أي خطط.

(٣) في عزل عمر له اختلاف، وإنما الذي عزله هو عثمان رضي الله عنه.

(٤) انظر تفاصيل ذلك عند ابن أبي الحديد جـ١ ص٢٦٠.

(٥) تمتاز. (٦) أراد الخلافة.

وكانت وفاة سعد رضي الله عنه في قصره بالعَقِيقِ، على عشرة أمْيَال من المدينة، وحُمل إلَى المدينة علَى رقاب الرجال، ودُفن بالبقيع وصلَّى عليه مَرْوان بن الحَكم[١]، واختُلف في وقت وفاته، فقال الواقدي: توفي في سنة خمس وخمسين، وهو ابن بِضْع وسبعين سنة، وقال أبو نعيم[٢] مات سنة ثمان وخمسين، وقال الزبير والحسن بن عثمان وعمرو بن علي الغَلاَّسُ: توفي في سنة أربع وخمسين، وهو ابن بِضْع وسبعين، وذكر أبو زرعة[٣] عن أحمد بن حنبل رضي الله عنه قال: توفي وهو ابن ثلاث وثمانين سنة، ورُوي عن ابن شهاب[٤] أن سعد بن أبي وَقَّاص رضي الله عنه: لما حضرته الوفاة دعا بخَلِقِ جُبَّةٍ[٥] له من صوف، فقال: كفِّنُوني فيها فإني كنْت لَقِيتُ المشركين فيها يوم بَدْر وهي عليَّ وإنما كنت أخْبَؤُها لهذا اليوم، رضي الله تعالَى عنه وأرضاه.

ذكر أخبار سعيد بن زيد رضي الله عنه ووفاته

هو أبو الأعور سعيد بن زيد[٦] بن عمْرو بن نُفَيْل بن عبد العُزَّى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رَزاح بن عديّ بن كعب بن لُؤيّ بن غالب القرشي العَدَوِي. وأُمه فاطمة بنت بَعْجة بن مُلَيْح الخزاعيةَ.

وهو ابن عم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وصهره، كانت تحته فاطمة ابنة الخطاب أخت عمر، وكانت أُخته عاتكة بنت زيد تحت عمر.

وكان سعيد رضي الله عنه من المهاجرين الأولين، قديم الإسلام لم يشهد بَدْرًا، وضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره، وقد قدمنا ذكر ذلك في غزوة بدر، وشهد ما بعد بدر من المشاهد، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة.

---

(١) طريد رسول الله ﷺ. (٢) في حلية الأولياء.

(٣) محمد بن عثمان بن إبراهيم بن زرعة من موالي ثقيف، تولى قضاء مصر وفلسطين والأردن وحمص وقنسرين ثم عُزل بعد ثمان سنوات فعاد إلى دمشق ليتولى قضاءها إلى أن توفي سنة ٣٠٢هـ. راجع الولاة والقضاة ص٥١٨.

(٤) محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري القرشي. كنيته أبو بكر، أول مدوِّني الحديث، حافظ فقيه مدلي، نزل بالشام واستقر بها وتوفي بشغب. انظر وفيات الأعيان جا ص٤٥١.

(٥) رداء عتيق بالٍ.

(٦) سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي العشي، كنيته أبو الأعور. صحابي شهد المشاهد كلها إلاّ بدر لأنه كان بمهمة للنبي. وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة. شارك بفتوح اليرموك، تولى دمشق بعد فتحها لأبي عبيدة وتوفي بالمدينة سنة ٥١هـ. راجع طبقات ابن سعد ج٣ ص٢٧٥.

وكان أبوه زيد بن عمرو يطلب دين الحنيفية، دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام، قبل أن يبْعث رسول الله ﷺ، وكان لا يذبح للأنْصَاب[١]، ولا يأكل مما ذُبِحَ لها، ولا يأكل الميتة ولا الدمَ، وخرج في الجاهلية يطلب الدِّين هو ووَرَقَة بن نَوْفَل[٢]، فعرضت عليهما اليهود دينهم فتهوَّد وَرَقَة، ثم لقِيَا النصارى فترك وَرَقَةُ اليهودية وتنَصر، وأبَى زَيد أن يأتي شيئًا من ذلك، وقال: ما هذا إلا كدين قومنا تُشركون ويُشركون، ولكنَّكم عندكم من الله ذِكرٌ ولا ذِكرَ عندهم. فقال له راهب: إنك تطلب دِينًا ما هو على الأرض اليوم. قال: وما هو؟ قال: دين إبراهيم عليه السلام. قال: وما كان عليه إبراهيم؟ قال: كان يعبدُ الله لا يشرك به شيئًا، ويصلِّي إلى الكعبة. فكان زيد على ذلك حتى مات.

ومن رواية أخرى قال: خرج وَرَقة بن نعوْفل وزيد بن عمْرو يطلبان الدين حتَّى مرّا بالشام، فأما وَرَقة فتنَصّر، وأمَّا زَيد فقيل له: إن الذي تطلب أمامَك، فانطلق حتَّى أتَى المَوْصِل[٣] فإذا هو براهب فقال: من أين أقبل صاحبُ الراحلة[٤]؟ قال: مِنْ بَيْت إبراهيم. قال: ما تطلب؟ قال: الدِّين. قال: فعرض عليه النصرانية، فقال: لا حاجةَ لي فيها، وأبى أن يقبل، فقال: إن الذي تطلب سيظهر بأرضك. فأقبل وهو يقول:

لَبَيْك حَقًّا حقًّا. تعبّدا ورِقًّا.

وقال: مهما تجشِّمْني فإني جاشِمُ. عذت بما عاذ به إبراهيمُ.

قال: وأتى سعيد بن زيد رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنَّ زَيدًا كان كما قد رأيت وبلغك فاستغفرْ له. قال عليه الصلاة والسلام: «نعم، فإنه يبعث يوم القيامة أُمة وحده»[٥] فاستغفر له.

قال أبو عمر: وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه قد أقطع سعيد بن زيد أرضًا بالكوفة فنزلها وسكنها إلى أن مات، وسكنها من بعده من بنيه الأسود بن سعيد.

وكانت وفاة سعيد في سنة خمسين أو سنة إحدى وخمسين، وهو ابن بِضْع وسبعين سنة رضي الله عنه وأرضاه.

---

(١) يقدم الأضاحي للأصنام وعلى اسمها.

(٢) ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى القرشي، اعتزل الأوثان قبل الإسلام وتنصر أدرك عصر النبوة ولم يدرك الدعوة، وهو ابن عم خديجة أم المؤمنين. توفي حوالي سنة ١١هـ. راجع الإصابة ترجمة ٩١٣٣.

(٣) المَوْصل: بكسر الصاد، وسميت موصل لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق، وقيل وصلت بين دجلة والفرات. وهي مدينة قديمة على طرف دجلة ويقابلها من الجانب الشرقي نينوى. راجع معجم البلدان جـ٥ ص٢٢٣.

(٤) ما يرتحل عليه عمومًا، والناقة خصوصًا.

(٥) راجع الحديث والتفاصيل في أسد الغابة لابن الأثير، جـ٢ ص٢٣٦.

الباب الثالث

من القسم الخامس من الفن الخامس

في أخبار الدولة الأُموية

أول من ملك من ملوك هذه الدولة معاوية بن أبي سفيان، هو أبو عبد الرحمٰن معاوية بن أبي سفيان صخر بن حَرْب بن أُميّة بن عبد شمْس بن عبد مَنَاف بن قُصِيّ بن كِلاَب، يجتمع نسبه ونسب رسول الله ﷺ في عبد مَناف بن قصيّ.

وأُمه هند بنت عُتْبة بن ربيعة بن عَبد شمس بن عبد مَناف[١].

ولي معاوية دِمَشْق عاملاً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، في سنة ثماني عشرة كما ذكرنا ذلك في خلافة عُمر[٢]، وأقام بقية أيّام عُمر وأيام عُثمان بن عفّان رضي الله عنهما بكمالها إلَى أن قُتل. فلما بُويع عليّ رضي الله عنه امتنع من مبايعته، وكان بينهما من الحروب ما ذكرناه في خلافة علي.

وسُلِّم علَيه بالإمارة[٣] بعد اجتماع الحَكَمَيْن في سنة سبع وثلاثين، وبويع له بعد وفاة عليّ رضي الله عنه في ذي الحجة سنة أربعين ببيت المقدس، قاله أبو بشر الدَّوْلابي[٤] رحمة الله عليه، ثم بُويع له البَيعة العامَّة بالكوفة بعد أن خلص له الأمر وتسلّمه من الحسن بن عليّ رضي الله عنهما، على ما تقدم، في سنة إحدى وأربعين، في شهر ربيع الأول لخمس بَقِينَ منه وقيل: في ربيع الآخر. وقيل: جُمادَى الأولى..

ولنبدأ من أخباره بما كان منها في خلافة عليّ رضي الله عنه، مِمَّا لم نذكره هناك، ثم نذكر من أخباره بعد أن خلص له الأمر، فنبدأ هناك بما وقع في أيَّامه من الغَزَوات والفتوحات، ثم نذكر أخبار الخوارج عليه، ثم حوادث السنين خِلافَ ذلك على نحو ما قدمناه في أخبار غيره، إن شاء الله تعالى.

---

(١) آكلة الأكباد إذا لاكت كبد عم النبي ﷺ حمزة أسد الله يوم أحد.
(٢) تولى دمشق لعمر بن الخطاب بعد موت أخيه يزيد.
(٣) يعني أصحابه من عوام الشام.
(٤) لعله محمد بن أحمد بن حماد بن سعيد الرازي الدولابي.

ذكر قدوم عمرو بن العاص
على معاوية وصلحه معه

كان عمرو بن العاص قد فارق المدينة وقدم إلى فلسطين في آخر أيام عثمان، فأقام هناك حتى قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد ذكرنا في خلافة عثمان سبب خروج عمرو، فلما أتاه الخبر بقتل عثمان قال: «أنا أبو عبد الله، أنا قتلته وأنا بوادي السبع[١] إن يلِ هذا الأمر طلحة فهو فتى العرب سيبًا[٢]، وإن يله ابن أبي طالب فهو أكره من يليه إليّ!».

فأتاه الخبر ببيعة عليّ، فاشتد عليه، فأقام ينتظر ما يصنع الناس، فأتاه خبر مسير عائشة وطلحة والزبير، فأقام ينتظر ما يصنعون، فأتاه خبر وقعة الجمل، فأرتج عليه[٣].

فسمع أن معاوية امتنع من بيعة عليّ رضي الله عنه وأنه يعظم شأن عثمان، فدعا ابنيه[٤]، فاستشارهما، وقال: «ما تريان؟ أما عليّ فلا خير عنده، وهو يدل بسابقته، وهو غير مشركي في أمره». فقال له ابنه عبد الله: «يا أبت، توفي النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وهم عنك راضون، فأرى أن تكف يدك وتجلس في بيتك حتى يجتمعَ الناس». وقال له محمد: «يا أبت، أنتَ نَابٌ من أنْيَاب العرب، ولا أرى أن يجتمعَ هذا الأمر وليس لك فيه صوت». فقال عمرو: «أما أنت يا عبد الله فأمرتني بما هو خيرٌ لي في ديني، وأما أنت يا محمد فأمرتني بما هو خيرٌ لي في دنيايَ وشَرّ لي في آخرتي».

ثم خرج ومعه ابناه حتَّى قدم على معاوية، وقيل: إنه ارتحل من فلسطين وهو يبكي كما تبكي المرأة، ويقول: واعثماناه! أنعي الحَيَاء والدِّين، حتى قدم دمشق فوجد أهل الشام يحُضُّون مُعاوية علَى الطلب بدم عثمان. فقال لهم: أنتم على الحق اطلبوا بدم الخليفة المظلوم. ومعاوية لا يلتفت إليه، فقال له ابناه: ألا ترى إلَى معاوية لا يلتفت إليك، انصرف إلى غيره، فدخل عليه فقال: «والله لعَجَبٌ لك أني أرفدك[٥] بما أرفدك وأنت مُعْرِض عني، إن قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة إن في النفس ما فيها، حيث تُقاتل مَن تَعلم سابقتَه وفضله وقرابته[٦]، ولكنَّا إنَّما أردنا هذه

---

(١) وادي السبع: ناحية من فلسطين بين المقدس والكرك.

(٢) كذا ولم تثبت.

(٣) أُغلق عليه.

(٤) عبد الله ومحمد.

(٥) أمدك.

(٦) يعني الإمام علي كرّم الله وجهه.

الدنيا». فصالحه معاوية وعطف عليه واقتدى بآرائه، وشهد عمرو معه صفين، وحكَّمه، وكان من أمره معه ما تقدم، والله أعلم.

ذكر مقتل محمد بن أبي حذيفة وشيءُ من أخباره

كان أبوه حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، قتل يوم اليَمامة وترك ابنه محمدًا هذا، فكفله عثمان وأحسن تربيته. وكان فيما قيل قد أصاب شَرَابًا فحدَّه عثمان، ثم تَنَسّك بعد ذلك وأقبل على العبادة.

وطلب من عثمان أن يُوَلِّيَه عملاً فقال له: لو كنت أهلاً لذلك لولَّيْتك، فقال له: إني قد رَغبت في غَزْو البحر فأْذَنْ لي في إتيان مصر. فأذن له وجهّزه، فلما قدمها رأى الناس عبادته فلزموه وعظَّمُوه.

وغزا مع عبد الله بن سعد غزوة الصواري[(١)]، وكان محمد يعيبُ ابن سعد، ويعيبُ عثمان بتوليته، ويقول: استعمل رجلاً أباح رسول الله ﷺ دمه.

وكتب عبد الله إلَى عثمان: إن محمدًا قد أفسد عليَّ البلاد هو ومحمد بن أبي بكر[(٢)].

فكتب عثمان رضي الله عنه إليه: أمَّا ابن أبي بكر فإنه يوهب لأبيه ولعائشة، وأما ابن أبي حذيفة فإنه ابني وابن أخي وتربيتي وهو فرخ قريش.

فكتب إليه: إن هذا الفرخ قد استوى ريشه ولم يبق إلا أن يطير.

فبعث عثمان إلى ابن أبي حذيفة ثلاثين ألف درهم ومحملاً عليه كسوة. فوضعهما محمد في المسجد وقال: يا معشر المسلمين ألاَ تَرَوْن إلَى عثمان يخادعني

---

(١) ذات الصواري: معركة بحرية جرت بين المسلمين والروم سنة ٣٤هـ في غير تكافؤ بالقوى، إذ كان للروم حوالي سبعمائة مركب، وللمسلمين حوالي مائتي مركب، وانتصر المسلمين فيها انتصارًا باهرًا.

(٢) محمد بن عبد الله، أبي بكر، بن عثمان بن عامر التيمي القرشي، أبوه أوّل من خلف رسول الله ﷺ. لقب بـ«عابد قريش» لشدة عبادته، وقد ولد في حجة الوداع، شهد مع الإمام علي وقعتي الجمل وصفين. وبعد احتلال عمرو بن العاص مصر والاستبداد بأهلها جيء بمحمد بن أبي بكر فقتله عمرو بن العاص وأحرقه فتوفي شهيدًا حوالي سنة ٣٨هـ. انظر الولاة والقضاة ص٣٦ وما بعدها.

عن ديني ويرشوني عليه، فازداد أهل مصر تعظيمًا له وطعنًا علَى عُثمان، وبايعوه على رئاستهم[١].

فكتب إليه عثمان يذكِّره بِرّه به وتربيته إيّاه وقيامه بشأنه، ويقول له: كفرت إحساني أحوجَ ما كنتُ إلى شكرك. فلم يردّه ذلك عن ذمّه وتأليب الناس عليه، وحثهم إلى المَسير إلى حصره ومساعدة من يريد ذلك.

فلما سار المصريون إلَى عثمان أقام هو بمصر، وخرج عنها عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح[٢]، فاستَوْلَى علَيها وضبطها ولم يزل مقيمًا بها حتى قُتل عثمان وبُويع عليٌّ رضي الله عنه، واتفق معاوية وعمرو بن العاص على خلاف عليّ فسار عمرو بن العاص إليه وقتله.

وقد اختُلِفَ في قتله، فمن المؤرخين من قال: إن عمرو بن العاص سار إلى مصر هو ومعاوية قبل مقدم قيس بن سعد إليها، وأرادا دخول مصر فلم يقدرا على ذلك، فخدعا محمدًا[٣] حتى خرج إلى العريش في ألف رجل فتحصن بها، فنصبا عليه المنجنيق حتّى نزل في ثلاثين من أصحابه فقتل. وهذا القول ليس بشيءٍ يُعتمد عليه، وهو بعيد جدًا، لأن علي بن أبي طالب استعمل قيس بن سعد علَى مصر أول ما بويع، ولو كان قتل محمد بن أبي حذيفة قبل وصول قيس بن سعد إلى مصر لاسْتَوْلَى معاوية على مصر، ولا خلاف أن استيلاء معاوية على مصر كان بعد صِفِّين، وإنّما ذكرنا هذا القول لنبين بطلانه، وقد علَّله بعض المؤرخين بنحو هذا التعليل، واستدل على بطلانه[٤].

وقد قيل غير ذلك: وهو أن محمد بن أبي حذيفة سيَّر المصريين إلَى عُثمان، فلما حضروه[٥] أخرج محمدٌ عبدَ الله بن سعيد بن أبي سرح عن مصر وهو عامل عثمان واستولى عليها، فنزل عبد الله على تخُوم مصر وانتظر أمر عثمان، فطلع عليه

---

(١) وكان عثمان رضي الله عنه كثير الرحمة على من حوله، يسعى لتأليف القلوب بما كان لا ينسجم ومنهم العبَّاد من كبار الصحابة والمسلمين ليقينهم بأن مالَ الله يصدق في حقه لا في رأي الولاة والحكام.

(٢) عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي العامري القرشي من بني لؤي. صحابي، وأخو عثمان بالرضاع، فتح إفريقيا، أسلم قبل فتح مكة، وشارك في كتابة الوحي. اعتزل الحرب بين الإمام علي كرّم الله وجهه، ومعاوية بعد قصده هذا الأخير إلى الشام وتوفي بعسقلان سنة ٣٧هـ. راجع أسد الغابة جـ٣ ص١٧٣.

(٣) ابن أبي حذيفة.

(٤) كما في الكامل جـ٣ ص٢٦٧.

(٥) أو حصروه. بالصاد المهملة.

راكبٌ، فسأله، فأخبره بقتل عثمان وببيعة عليّ رضي الله عنه، فاسترجع، وأخبره بولاية قيس بن سعد علَى مصر، وأنه قادم بعده فقال عبد الله: «أَبْعَدَ اللّهُ محمدَ بن أبي حذيفة! فإنه بغَى علَى ابن عَمّه وسعَى علَيه، وقد كفله وربَّاه وأحسن إليه، فأساء جواره، وجهَّز إليه الرجال، حتَّى قُتل، ثم ولى على من هو أبعد منه ومن عثمان، ولـم يُمتعه بسلطان بلاده شهرًا ولـم يره لذلك أهلاً». وخرج عبد الله هاربًا حتَّى قَدِم علَى معاوية.

وقيل: إن عمرو بن أبي العاص سار إلى مصر بعد صفين، فلقيه محمد بن أبي حذيفة في جيش كثير، فلما رأى عمرو كثرة من معه أرسل إليه فاجتمعا، فقال له عمرو: «إنه قد كان ما ترى، وقد بايعت هذا الرجل، يعني معاوية، وما أنا راضٍ بكثير من أمره، وإني لأعلمُ أنَّ صاحبك عليًا أفضل من معاوية نفسًا وقِدَمًا، وأَوْلَى بهذا الأمر، فواعِدْني موعدًا ألتقي معك فيه في غير جيش، تأتي في مِائة وآتِي في مثلها، وليس معنا إلاَّ السيوف في القُرُب». فتعاهدا وتعاقدا على ذلك واتَّعَدَا العريش[١]، ورجع عمرو إلى معاوية فأخبره الخبر، فلما جاء الأجل سار كل واحد منهما في مائة، وجعل عمرو جيشًا خلْفَه، فلما الْتَقَيا بالعريش، قدم جيش عمرو على أثره فعلم محمد أنه قد غدر به، فدخل قصرًا بالعريش فتحصَّن به، وحصره عمرو، ورماه بالمنجنيق حتَّى أُخذ أسرًا، فبعث به إلَي معاوية فسجنه، وكانت ابنة قرظة[٢] امرأة معاوية ابنةَ ابن محمد عمة أبي حذيفة، أُمُّها فاطمة بنت عتبة، فكانت تصنع له طعامًا ترسله إليه، فأرسلت إليه يومًا في الطعام مَبَارِد، فبَرَدَ بها قُيودَه، وهرب، فاختفى في غار، فأُخذ وقُتل.

وقيل: إنه بقيَ محبوسًا إلى أن قُتل حُجْر بن عَديّ، ثم هرب فطلبه مالك بن هبيرة السَّكُوني[٣]، فظفر به فقتله غضبًا لحُجْر[٤]، وكان مالك قد شفع إلى معاوية في حجر فلم يُشَفعه.

---

(١) العريش: مدينة هي أول نواحي مصر لجهة الشام على ساحل بحر الروم. راجع ياقوت جـ٤، ص١١٣.

(٢) فاختة بنت أبي قرظة.

(٣) مالك بن هبيرة بن خالد السكوني الكندي، تجنَّد لمعاوية في صفين وغيرها، وكان من الذين بايعوه، وتولى حمص له، وبقي مقربًا من الأمويين حتى زمن مروان بن الحكم طريد رسول الله ﷺ. توفي حتف أنفه سنة ٦٥هـ. راجع وقعة صفين ص٤٩.

(٤) انظر كيف تختلف المبررات لتبرئة معاوية من دم حجر بن عدي، وتأمل كيف يقتل صاحبٌ لعلي بصاحب آخر له من قبل متولٍ لوالٍ غصب الحق من أهله.

وقيل: إن محمد بن أبي حذيفة، لما قتل محمد بن أبي بكر، خرج في جَمْع كثير على عمرو، فأمّنه عمرو، ثم غدر به، وحمله إلى معاوية، فحبسه، ثم إنه هرب، فأظهر معاوية للناس أنه كره هربه، وأمر بطلبه فسار في طلبه عبيد الله بن عمر بن ظلام الخثعمي فأدركه بحُوارن[١] في غار، وجاءت حُمُر[٢] تدخل الغار، فلما رأت محمدًا نفرت منه، وكان هناك ناس يحصدون، فقالوا: والله إن لنفرةِ هذه الحُمُر لشأنًا، فذهبوا إلى الغار فرأوه، وخرجوا من عنده، فوافقهم عبيد الله فسألهم عنه ووصفه لهم، فقالوا: هو في الغار، فأخرجه، وكره أن يأتي به معاوية فيخلي سبيله، فضرب عنقه. والله أعلم.

ذكر ملك عمرو بن العاص مصر
ومقتل محمد بن أبي بكر ووفاة الأشتر وما يتصل بذلك

قد ذكرنا في أخبار علي رضي الله عنه استعماله محمد بن أبي بكر على مصر، وما كان بينه وبين أهل خَرِبْتَا وقتلهم ابن مُضَاهِم، ثم خرج معاوية بن حُدَيْج السَّكُوني، ودعا إلى الطلب بدم عثمان فأجابه ناس وفسدت مصر على محمد بن أبي بكر، فبلغ ذلك عليًا، فاستدعى الأشتر، وكان قد تَوجَّه إلى نَصِيبين[٣] بعد صِفِّين، فحضر إليه فأخبره خبرَ أهل مصر، وقال له: «ليس لها غيرك، فاخرج إليها، فإني لو لم أُوصِك اكتفيت برأيك، فاستعنْ بالله، واخلطْ الشِّدةَ باللين، وارفق ما كان الرفقُ أبلغ، وتشدَّد حين لا يغني إلا الشِّدة».

فخرج الأشتر إلى مصر، فبلغ معاوية ذلك، فعظم عليه، وكان قد طمع في مصر، فعلم أن الأشتر إن قدمها كان عليه أشد من محمد بن أبي بكر رضي الله عنه، فبعث معاوية إلى المقدَّم على أهل الخراج بالقُلْزم[٤] وهو الجابستار وقال له: إن الأشتر وقد ولِيَ مصر فإنْ كفيتنيه لمْ آخذْ منك خراجًا ما بقيتَ وبقيتُ. فخرج الجابستار حتى أتى القُلْزُم وأقام به.

---

(١) وفي معجم البلدان لياقوت جـ٢ ص٣١٥، أثبتت بالياء، قرية من قرى حلب، وهي من تدمر على مرحلتين.

(٢) الحمير الوحشية.

(٣) نصيبين: جعلها البعض بمنزلة الجمع فبصر بها رفعًا بالواو والنون: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام، بينها وبين الموصل ستة أيام. راجع ياقوت جـ٥ ص٢٨٨.

(٤) بالضم ثم السكون ثم زاي مضمومة، وقلزم بلدة على ساحل بحر اليمن قرب أيلة والطور ومدين. راجع ياقوت جـ٤ ص٣٨٧.

وخرج الأشتر من العراق إلى مصر، فلما انتهى إلى القُلْزُم استقبله ذلك الرجل فعرض عليه النزول، فنزل عنده، فأتاه بطعام فأكل وأتاه بشَرْبة من عسل قد جعل فيه سمًّا فسقاه إياه، فلما شربها مات.

وأقبل معاوية يقول لأهل الشام: إنَّ عليًّا قد وجه الأشتر إلى مصر فادعوا الله عليه فكانوا يدعون عليه.

وأقبل الذي سقاه إلَى معاوية فأخبره بمُهْلَك الأشتر، فقام معاوية خطيبًا، ثم قال: أمَّا بَعْدُ، فإنه كانت لعليٍّ يَمينانِ، قُطعت إحداهما يَوم صِفِّين، يعني عَمَّار بن ياسر، وقُطعت الأخرَى اليَوم، يعني الأشْتَر.

فلما بلغ ذلك عليًّا قال: لِلْيَديْنِ ولِلْفَم[1]! وكان ثقل عليه لأشياء نُقلتْ عنه، وقيل: إنه لما بلغه قَتله استرجع وقال: «مالِكَ! وما مالِك؟ وهو[2] موجود مثل ذلك[3]؟ لو كان من حديد لكان قَيْدًا[4]، أو من حجر لكان صَلْدًا، على مثله فلْتَبْكِ البَوَاكي!»[5].

ثم كتب إلى محمد بن أبي بكر باستقراره على عمله، وأوصاه.

وقيل: إنه إنما ولى الأشتر بعد قتل محمد بن أبي بكر.

قال: ولما كان من الحَكَمَيْن ما كان، وبايع أهلُ الشام معاويةَ بالخلافة، لم يكن له همٌّ إلاَّ مصر، وكان يَهابُ أهلَها لِقُرْبِهم منه ولشدَّتهم وما كان من رأيهم في عثمان، وكان يرجو أنه إذا ظهر علَيْها ظهر علَى حرب عليّ رضي الله عنه لعِظَم خَراجها، فدعا معاوية عَمرو بن العاص[6]، وحَبيب بن أبي سَلْمَة، وبُسْر بن أرطأة،

---

(١) دعاء يتمنى به الشر: محذوف التقدير، أي كله له إلى يديه ووجهه.

(٢) «وهل» وهي الصواب. (٣) في النهج: مالك.

(٤) «فِنْدا» وهي الصواب، راجع قصار الحكم في النهج رقم ٤٤٣. والفند: المنفرد من الجبال.

(٥) وللحديث تتمة في النهج: «لا يرتقيه الحافر، ولا يوفي عليه الطائر» النهج رقم ٤٤٣ من قصار الحكم جـ٣ ص١٢٤.

(٦) عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي، كنيته أبو عبد الله. فتح مصر، وتولى للرسول ﷺ إمرة جيش ذات السلاسل، واستعجله ﷺ على عُمان، وقيل إنه افتتح قنسرين وأخذ صلحًا أهل حلب ومنبج وأنطاكية. ثم تولى لعمر رضي الله عنه فلسطين وعزله عثمان فراح يؤلب الناس على عثمان، وفي خروج معاوية على الإمام علي، إمام زمانه، أخذ عمرو جانب معاوية بائعًا دينه بدنياه. وأظهر في هذا الشقاق مقدرة على الغدر والفتك مما لا يمكن أن يسمى دهاءً أو رأيًا. ولقد ولاه معاوية مصر وأطلق يده في خراجها ست سنين كأنه مال خاص لهما، لكنه مات حتف أنفه في مصر سنة ٤٣هـ. انظر أسد الغابة جـ٤ ص١١٥.

والضحَّاك بن قَيس، وعبد الرحمٰن بن خالد، وأبا الأعور والسُّلَمي، وشُرحْبيل بن السِّمْط الكنْدي، فقال لهم: أتَدْرُون لِمَ جمعتكم؟ فإني جمعتكم لأمر لي مهمّ. فقالوا: لم يُطلع الله علَى الغيب أحدًا، ولم نعلم ما تريد.

فقال عمرو بن العاص: لتسألنا عن رأينا في مصر، فإن كنت جمعتنا لذلك، فاعزمْ واصبرْ، فنعم الرأي رأيت في افتتاحها، فإن فيه عزَّك وعزَّ أصحابك، وكَبْت عدوك، وذلّ أهل الشقاق عليك.

فقال معاوية: أهمَّكَ يا بن العاص ما أهمَّك. وذلك أن عَمْرًا صالح معاوية على قتال علي رضي الله عنه على أن له مصر طُعْمة ما بقي[١].

وأقبل معاوية على أصحابه وقال: أصاب أبو عبد الله، فما تَرَوْن؟ قالوا: ما نَرَى إلاَّ ما رأى عمرو.

ثم كتب معاوية إلى مَسْلَمة بن مُخَلَّد ومُعاوية بن حُدَيج السّكوني، وكانا قد خالفا عليًّا، يشكرهما على ذلك، ويحثهما على الطلب بدم عثمان، ويَعِدُهما المواساة في سلطانه. وبعثه مع مولاه سُبَيْع.

فلما وقفا عليه أجاب مَسْلَمة بن مخلَّد الأنصاري عن نفسه وعن ابن حُدَيج: «أمّا بَعْدُ، فإن الأمر الذي بَذلنا له أنفسنا، واتبعنا أمر الله نرجو به ثوابَ ربّنا، والنَّصرَ على من خالفنا، وتعجيل النِّقمة على من سعى على إمامنا؛ وأما ما ذكرت من المواساة في سلطانك، فبالله إن ذلك أمرٌ ما لَهُ نَهضنا، ولا إيّاه أردنا، فعجِّل علينا بخَيْلك ورجالك، فإنَّ عدونا قد أصبحوا لنا هائبين، فإن يأتنا مددٌ يفتحُ الله عليك، والسلام.

فجاءه الكتاب وهو بفلسطين، فدعا أولئك النفر وقال لهم: ما تَرَوْن؟ قالوا: نرى أن تبعث جندًا. فأمر عمرو بن العاص ليتجهزَ إليها، وبعث معه ستة آلاف رجل، وأوصاه بالتؤدة وترك العجلة.

وسار عمرو حتى نزل أداني أرض مصر، فاجتمعت العثمانية إليه، فأقام بهم، وكتب إلى محمد بن أبي بكر: «أما بَعْدُ، فتَنَحَّ عنّي بدمك يا بن أبي بكر، فإنّي لا أحبُّ أن يصيبك مني ظُفر[٢]؛ إنَّ الناس بهذه البلاد قد أجمعوا على خلافك وهم

---

(١) أي له أن يتصدق في خراج مصر على أنه مال له طالما هو على قيد الحياة، يعني عمرو بن العاص.

(٢) كناية عن أدنى الأذى وأحقره.

مسلموك فاخرج منها، إني لك من الناصحين» وبعث إليه بكتاب معاوية في المعنى، ويتهدده بقصده حصار عثمان.

فأرسل محمد الكتابين إلى عليٍّ رضي الله عنه، ويخبره بنزول عمرو بأرض مصر، وأنه رأى التثاقل ممن عنده، ويستمده.

فكتب إلَيه يأمره أن يضم شيعته إليه، ويعده إنفاذَ الجيوشِ إليه ويأمره بالصبر لعدوّه وقتاله.

وقام محمد في الناس فندبهم إلى الخروج إلى عدوّهم مع كنانة بن بشر، فانتدب معه ألفان، وخرج محمد بن أبي بكر بعده في ألفين، وأقبل عمرو نحو كنانة، فلما دنا منه سَرَّح الكتائبَ كتيبةً بعد كتيبةٍ، فجعل كنانة لا تأتيه كتيبةٌ إلا حمل عليها، فألحقها بعمرو، فلمَّا رأى ذلك بعث إلى معاوية بن حُديج، فأتاه في مثل الدَّهْم[1]، فأحاطوا بكنانة وأصحابه، واجتمع أهل الشام علَيهم من كل جانب، فنزل كنانة عن فرسه ونزل معه أصحابه، فقاتل بسيفه حتَّى قُتل، وبلغ قتله محمد بن أبي بكر، فتفرّق عنه أصحابه، وأقبل عمرو بجمعٍ، ولم يبق مع محمد أحد.

فخرج محمدٌ يمشي في الطريق، فانتهى إلى خَرِبة فأوَى إليها، وسار عمرو بن العاص حتَّى دخل الفُسطاط، وخرج مُعاوية بن حُدَيج في طلب محمد بن أبي بكر، فانتهى إلى جماعة علَى قارعة الطريق فسألهم عنه، فقال أحدهم: دخلتُ تلك الخَربة فرَأيْتُ فيها رجلاً جالسًا، فقال ابن حُديج: هو هو. فدخلوا فاستخرجوه وكاد يموتُ عطشًا، وأقبلوا به نحو الفسطاط[2].

ووثب أخوه عبد الرحمٰن بن أبي بكر رضي الله عنهم إلَى عمرو وكان في جنده، وقال: أيقتل أخي صبرًا[3]؟ ابعث إلى ابن حُديج فانهه عنه. فبعث إلَيْه يأمره أن يأتيه بمحمد، فقال: قتلتم كنانة بن بشر وأُخلّي أنا محمدًا ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ [القمر: ٤٣] هَيْهات هيهات!

---

(١) كناية عن الكثرة، لأن الدهم يعني السواد.

(٢) الفسطاط: مجتمع أهل المدينة حول مسجد جماعتهم، وكل مدينة فسطاط ومنه قيل لمدينة مصر الفسطاط. راجع تعريف مفصل لها في معجم ياقوت جـ٤ ص٢٦١ وما بعدها.

(٣) القتل صبرًا هو أن يؤتى بالرجل مجردًا من سلاحه وليس له حول أو قدرة على الدفاع عن نفسه.

فقال لهم محمد بن أبي بكر رضي الله عنه: اسقوني ماء. فقال ابن حُدَيج: «لا سقاني الله إن سَقَيْتُك قطرة أبدًا؛ إنكم منعتم عثمان شُرْبَ الماء، والله لأقتلنَّك حتى يسقيك الله من الحَمِيم والغَسَّاق». فقال له محمد: «يا ابن اليهودية النَّسَّاجة، ليس ذلك إليك، إنَّما ذلك إلَى الله، يسقي أولياءه، ويُظمىءُ أعداءه؛ أنت وأمثالك، أمَا والله لو كان سيفي بيدي ما بلغتم مِنِّي هذا». قال له: أتدري ما أصنع بك؟ أدخلك جَوف حمار ثم أحرقه عليك بالنار. فقال محمد: «إن فعلتَ بي ذلك فطالما فعلتم ذلك بأولياء الله، وإني لأرجو أن يجعلها الله عليك وعلَى أوليائك ومعاوية وعمرو نارًا تَلَظَّى، كلَّما خَبَتْ زادها الله سَعيرًا». فغضب منه وقتله، ثم ألقاه في جيفة حمار، ثم أحرقه بالنار.

فلما بلغ ذلك عائشة رضي الله عنها جزعت عليه جزعًا شديدًا، وقنتت في وتر الصلاة تدعو على معاوية وعمرو، وأخذت عِيالَ محمد إليها، وامتنعت عائشة بعد ذلك أن تأكل شواء حتَّى ماتت. وقد قيل: إن محمد بن أبي بكر قاتل عمرًا ومن معه قتالاً شديدًا، فقتل كنانة وانهزم محمد، فاختبأ عند جَبَلة بن مسروق، فدُلّ عليه معاوية بن حديج، فأحاط به، فخرج إلَيه محمد فقاتل حتى قُتل[1]. وكان ذلك في سنة ثمان وثلاثين.

قال: وأما عليٌّ رضي الله عنه، فإنه لما أتاه كتاب محمد ندب الناس إلى الخروج، فتثاقلوا فخطبهم وحثهم على الخروج ووبخهم على التثاقل، فقام إليه كعب بن مالك الأرحبيّ فقال: يا أمير المؤمنين: اندبِ الناسَ؛ لهذا اليوم كنتُ أدخر نفسي، ثم قال: أيها الناس، اتقوا الله وأجيبوا إمامكم، وانصروا دعوته، وقاتلوا عدوّه وأنا أسيرُ إليه، فخرج معه ألفان. فقال له عليٌّ رضي الله عنه: سِرْ فوالله ما أظنُّك تدركهم حتى ينقضي أمرهم، فسار بهم خمسًا.

ثم قدم الحجّاج بن غَزيّة من مصر فأخبره بالخبر، وأتاه عبد الرحمٰن بن شَبيب الفزاري من الشام وكان عيَّنهُ هناك فأخبره أن البشارة من عمرو وردت بقتل محمد وملك مصر وسرور أهل الشام بقتله، فقال عليّ: أمَا إنّ حزنَنا عليه بقدر سرورِهم به، لا بل يزيد أضعافًا: وأرسل إلى الجيش فأعادهم.

(١) وهذه هي الرواية الأصوب، إذْ لقد استشهد محمد بن أبي بكر رضي الله عنه ثم مُثل بجثته رغم قول رسول الله ﷺ «حرِّمت المثلة ولو بالكلب العقور» العقور: الذي يعض دون سبب وهو معتدٍ.

وقام في الناس خطيبًا فقال: «ألاَ إن مصر قد افتتحها الفَجَرة أُولُو الجَور والظلم، الذين صدُّوا عن سبيل الله، وبَغَوا[١] الإسلام عِوَجًا، ألاَ وإن محمد بن أبي بكر استشهد، فعند الله نَحتسبه، أمَا والله إنه كان، ما لمتُ، لممَّنْ ينتظر القضاء، ويعمل للجزاء، ويبغض شكلَ الفاجر، ويحبُّ هَدْيَ المؤمن، واللّهِ لا ألومُ نفسي على تقصير، وإني بمقاساة الحرب لَجِدُّ خَبير، وإني لأُقدمُ على الأمر، وأعرف وجه الحزم، وأقوم فيكم بالرأي المصيب، وأستصرخكم معلنًا، وأناديكم نداء المستغيث، فلا تسمعون لي قولاً، ولا تطيعون لي أمرًا، حتَّى تصيرَ الأُمورُ إلَى عواقب المساءة[٢]، فأنتم القومُ لا يُدْرَك بكم الثأرُ، ولا تنقضُ بكم الأوتار[٣]، ودعَوْتكم إلى غياث[٤] إخوانكم مُنْذُ بضع وخمسين ليلة، فتَجَرْجرْتم جَرْجرَة الجمل الأشْدق، وتَثَاقَلْتُم إلى الأرض تثاقُلَ مَن ليست له نيَّة في جِهاد العدوّ، ولا اكتساب الأجر، ثم خرج إلَيّ منكم جُنَيْدٌ مُتَذائِب[٥]، كأنَّما يُساقُون إلَى المَوْت وهم يَنْظُرون، فأُفٍّ لكم!». ثم نزل رضي الله عنه.

ذكر سرايا معاوية إلى بلاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه

لمَّا كان من أمر الحَكَمَيْن ما ذكرنا، وملك معاوية مصر، استشرفت نفسُه إلى غير ذلك، فلما كان في سنة تسع وثلاثين بَثَّ سراياه في أطراف بلاد عليّ رضي الله عنه.

فبعث النعمان بن بشير في ألف رجل إلى عين التمر[٦] وفيها مالك بن كعب مَسْلَحة[٧] لعليّ في ألف رجل، وكان مالك قد أذن لأصحابه فأتوا الكوفة، ولم يبق

---

(١) بغوا: ابتغوا أي أرادوا في العبارة أفصح الكلام إذا تجد فيها طباق خفيًا بين الإسلام الذي هو الصراط والعوج أي الالتواء.

(٢) السوء.

(٣) الوتر مفردها: وهو الأخذ بالثأر.

(٤) أي غوثهم يعني إعانتهم.

(٥) ولنا في تفسير قوله، هنا، عليه السلام خلاف ما رأى المفسرون، فإنه كرّم الله وجهه أراد بالجنيد تصغيرًا من غير مصغر على الجمع وهو الجند وليس المفرد أي الجندي، ومتذائب يرى ردها إلى الذوبان وهو الانحلال والاختفاء والتلاشي. والكناية عن قلة الجند في ذلك البعث وانصراف الجمع فرقة فرقة من قليل الجند هذا.

(٦) عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة على طرف البرية. راجع ياقوت جـ٤ ص١٧٦.

(٧) المسلحة: كتيبة من الجند في عدد يختلف من موقع إلى موقع.

معه إلاّ مائة رجل، فلما سمع خبر النعمان كتب إلى عليّ رضي الله عنه يستمده، فندب الناس إلى الخروج، فتثاقلوا، وواقع مالك النعمان، وجعل وراء القرية في ظهر أصحابه، وكتب مالك إلى مخنف بن سُلَيم يستغيثه وهو قريب منه، فوجَّه مخْنَف ابنه عبد الرحمٰن في خمسين رجلاً، فانتهوا إلَى مالك وقد كسروا جفون[١] سيوفهم واستقتلوا، وذلك بعد أن قاتلوا قتالاً شديدًا، فلما رآهم أهل الشام انهزموا بعد العشاء، وظنوا أنَّ لهم مددًا، وتبعهم مالك فقتل منهم ثلاثة نفر.

وبعث سفيان بن عوف في ستة آلاف، وأمره أن يأْتي هِيت[٢] فيقطعها، ثم يأتي الأنبار والمدائن فيوقع بأهلها، فأتى هِيتَ فلم يجدّ بها أحدًا، ثم أتى الأنبار وفيها مَسْلَحة لعليّ تكون خمسمائة رجل، وقد تفرقوا فلم يبقَ منهم إلاّ مِائتا رجل، كان سبب تفرقهم أن أميرهم كُمَيْل بن زياد[٣] بلغه أن قومًا بقَرْقِيسيا[٤] يريدون الغارة على هِيتَ، فسار إليهم، فأتَى أصحاب سفيان وكُمَيل غائب، فقاتل سفيان من وجد هناك فصبروا له، ثم قُتِل صاحبُهم وهو أشرس بن حسّان البكريّ وثلاثون رجلاً، واحتمل أصحاب سفيان ما في الأنبار من أموال أهلها ورجعوا إلَى معاوية، وبلغ الخبر عليًا فأرسل في طلبهم فلم يُدْرَكوا.

وبعث عبد الله بن مَسْعَدة بن حكيم بن مالك بن بدر الفزاريّ في ألف وسبعمائة رجل إلَى تَيْماء[٥] وأمره أن يأخذَ صدقة من مَرَّ به من أهل البوادي ويقتلَ من امتنع، ففعل ذلك، وبلغ مكة والمدينة، واجتمع إليه بشرٌ كثير من قومه. وبلغ ذلك عليًا فأرسل المسيَّب بن نَجبَة الفَزاري في ألفي رجل، فلحق عبد الله بتيماء فاقتتلوا قتالاً شديدًا حتّى زالت الشمس، وحمل المسيَّب علَى ابن مَسْعدة فضربه ثلاث ضربات لا يريد قتله، ويقول له: النَّجاء النَّجاء. فدخل ابن مَسَعْدة وجماعة من أصحابه الحصن وهرب الباقون نحو الشام، وانتهب الأعراب إبل الصَّدَقة التي كانت مع ابن مَسْعدة وحصره ثلاثة أيام، ثم ألقى الحطب في الباب وحرقه، فلما رأوا الهلاك أشرفوا عليه

---

(١) مفردها: الجَفنة وهي غمد السيف، وتجمع على جِفان وجفنات، وجمعها في النص على غير قياس أو سماع.

(٢) بلدة على الفرات من نواحي بغداد ذات نخل كثير، مجاورة للبرية. راجع ياقوت جـ٥ ص٤٢.

(٣) مرّت ترجمته.

(٤) بلدة عند مصب نهر الخابور في الفرات، راجع ياقوت جـ٤ ص٣٢٨ تجدها تحت قرقيسياء.

(٥) بليدة في أطراف الشام بينها وبين وادي القرى، على طريق حاج الشام ودمشق ويشرف عليها الأبلق الفرد حصن السموأل بن عادياء اليهودي. راجع جـ٢ ص٦٧.

وقالوا: قَومك يا مسيَّب! فَرَقَّ لهم وأمر بالنار فأُطفئت، وقال لأصحابه: قد جاءني عيون فأخبروني أن جندًا قد أتوكم من الشام.

وبعث معاوية أيضًا الضحَّاك بن قَيس في ثلاثة آلاف رجل، أمره أن يمر بأسفل وَاقِصة[١]، ويغير على كل من مرّ به ممن هو في طاعة عليّ من الأعراب، فسار وقتل الناس وأخذ الأموال، ومضى إلى الثعلبية[٢] فأغار على مسْلَحة عليّ وانتهى إلى القُطقُطَانَة[٣]، فلما بلغ ذلك عليًا أرسل حُجْر بن عَدِي إليه في أربعة آلاف وأعطاهم خمسين درهمًا، فلحق الضحاك بتدمر فقتَل من أصحابه تسعة عشر رجلاً، وقُتل من أصحابه رجلان، وحجز بينهما الليل فهرب الضحاك وأصحابه، ورجع حجْر ومن معه.

وسار معاوية بنفسه حتى شارف دجلة ثم رجع.

وبعث معاوية يزيدَ بن شَجْرة الرَّهاويّ إلى مكة لأخذ البيعة له، وإقامة الحج بالناس، ومعه ثلاثة آلاف، فسار إلى مكة وبها قُثَم بن العباس من قبل عليّ، فأراد مفارقتها، واللَحاق ببعض شِعابها، فنهاه أبو سعيد الخدريّ، وكتب قُثَم إلى عليّ يستمده، ووصل يزيد إلى مكة قبل التَّرْوية[٤] بيومَيْن، فما تَعرض للقتال، ونادَى في الناس: أنتم آمنون إلاَّ من قاتلنا ونازعنا. واتفق قُثَم ويزيد أن يعتزلا الصلاة بالناس، واختارا شَيْبَة بن عثمان، فصلَّى بالناس وحَجّ بهم، ولما انقضى الحج رجع يزيد إلَى الشام، وأقبلَت خيل عليّ مَدَدًا لقُثَم، وفيهم الرَّيّان بن ضَمْرة الحنفي، وأبو الطُّفَيْل، وعليهم مَعْقل بن قيس، فتبعوه فأدركوه وقد دخل وادي القُرَى، وظفروا بنفر من أصحابه فأخذوهم أسارى ورجعوا بهم إلَى عليّ، ففادى بهم أُسارى كانت لهم عند معاوية.

وبعث معاويةُ عبدَ الرحمٰن بن قَبَاث بن أشْيَم إلى بلاد الجزيرة وبها شَبيب بن عامر بنَصِيبين، فكتب إلى كُمَيْل بن زياد وهو بِهيت يعْلِمه خبرهم، فسار كُميْل إليهم نَجْدةَ له في سِتمائة فارس، فأدركوا عبد الرحمٰن ومعه مَعْن بن يزيد السُّلَميّ فقاتلهما كُمَيْل فهزمهما، وغلب على عسكرهما، وأكثر القتل في أهل الشام، وقُتل من

---

(١) واقِصة: منزل بطريق مكة من القرى. راجع ياقوت جـ٥ ص٣٥٣.

(٢) الثعلبية: منزل على طريق مكة من الكوفة بعد الشقوق. وهي ثلثا الطريق. راجع ياقوت جـ٢ ص٧٨.

(٣) القطقطانة: موضع قرب الكوفة من جهة البرية بالطف. راجع ياقوت جـ٤ ص٣٧٤.

(٤) لأن من عادة السفر أن يرتووا ويرؤوا مراكيبهم في منازل معينة، والتروية هو يوم التزود بالماء.

أصحاب كُمَيل رجلان، وأقبل شَبِيب بن عامر من نَصِيبين فرأى كُمَيْلاً قد أوقع بالقوم فهنأه بالظَّفر، واتَّبع الشاميين فلم يدركهم، فعبر الفُرات وبثَّ خَيله فأغارت على أهل الشام حتَّى بلغ بَعْلَبَكّ[١]، فوجه إليه معاوية حبيب بن مَسْلَمة فلم يدركه، ورجع شبيب فأغار على نواحي الرقَّة[٢]، فلم يدع للعثمانية بها ماشية إلا استاقها، ولا خيلاً ولا سلاحًا إلاَّ أخذه، وعاد إلى نَصِيبين. وكتب إلَى عليّ رضي الله عنه فكتب إليه ينهاه عن أخذ أموال الناس إلاَّ الخيلَ والسلاحَ الذي يقاتلونه به، وقال: رحم الله شَبِيبًا، لقد أبْعد الغارة، وعجَّل الانتصار.

ولما فعل شَبِيب ذلك وقدم يزيد بن شَجْرة على معاوية بعث معاوية الحارث بن نمر التَّنُوخيّ إلى الجزيرة ليأتيه بمن كان في طاعة عليّ، فأخذ من أهل دارا[٣] سبعة نفر من بني تغلب، وكان جماعة من بني تغلب قد فارقوا عليًا إلى معاوية فسألوه في إطلاق أصحابهم فلم يفعل فاعتزلوه أيضًا، وفادى معاوية بهم من كان أسرهم مَعْقل بن قيس من أصحاب ابن شجرة.

وبعث معاويةُ زهير بن مكحول العامريّ إلى السَّماوة[٤] ليأخذ صدقات الناس، فبلغ ذلك عليًا فبعث ثلاثة نفر، وهم: جعفر بن عبد الله الأشجعيّ، وعُروة بن العشبة والجُلاَس بن عُمَير الكلبيين؛ ليأخذوا صدقَة من في طاعته من كلب وبكر بن وائل، فوافوا زهيرًا فاقتتلوا، فانهزم أصحاب عليّ رضي الله عنه، وقُتل جعفر، ولحق ابن العشبة بعليّ فعنفه وعلاه بالدِّرَّة، فغضب ولحق بمعاوية. وأما ابن الجُلاَس فإنه مَرَّ براعٍ فأخذ جُبَّته وأعطاه جبّة خَزٍّ فأدركته الخيل، فقالوا: أين أخذ هؤلاء التُّرابيون[٥]؟ فأشار إليهم: أخذوا هاهنا. ثم أقبل إلى الكوفة.

وبعث أيضًا مسلم بن عُقبة المُريّ إلى دُومة الجندل، وكان أهلها قد امتنعوا من بيعة عليّ ومعاوية جميعًا، فدعاهم إلى طاعة معاوية وبيعته، فامتنعوا، وبلغ ذلك

---

(١) بَعْلَبَك: مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام. راجع ياقوت جـ١ ص٤٥٣.

(٢) الرَّقّة: مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام. راجع ياقوت جـ٣ ص٥٨.

(٣) دارا: بلدة في لحف جبل نصيبين وماردين. راجع ياقوت جـ٢ ص٤١٨.

(٤) السماوة: ماء بالبادية، وبادية السماوة موضع بين الكوفة والشام قفرة سميت بذا الماء. راجع ياقوت جـ٣ ص٢٤٥.

(٥) نسبة إلى الإمام علي كرّم الله وجهه، وكان النبي قد كناه بأبي تراب، وكانت أحب كناه إليه، وقد اتخذها أعداؤه سبّة له.

عليًا، فبعث مالك بن كعب الهمَذاني في جمع إلى دُومة الجندل، فلم يشعر مسلم إلاَّ وقد وافاه مالك، فاقتتلوا يومًا ثم انصرف مسلم منهزمًا، وقام مالِكٌ أيامًا يدعو أهل دُومة الجندل إلى بيعة عليّ، فأبوْا وقالوا: لا نبايعُ حتى يجتمعَ الناسُ على إمام، فانصرف عنهم وتركهم.

ذكر مسير بسر بن أرطأة إلى الحجاز واليمن وما فعله

وفي سنة أربعين بعث معاويةُ بُسْر بن أرطأة بن أبي أرطأة ـ واسم أبي أرطأة عُمير، وقيل عُويمر الشَّاميّ من بني عامر بن لؤي ـ إلى الحجاز واليمن في ثلاثة آلاف فارس، فسار من الشام حتَّى قدم المدينة، وعاملُ المدينة يومئذ أبو أيوب الأنصاري[١] من قبل عليّ رضي الله عنهما، ففرَّ أبو أيُّوبَ ولحق بعليّ، ودخل بُسْر المدينة ولم يقاتله أحد، فصعد منبرها فنادى: يا دِينار، يا نجار، يا زُرَيق، وهذه بطون من الأنصار، شَيْخي شيخي، عهدته ههنا بالأمس، فأين هو؟! يعني عثمان. ثم قال: واللّهِ لولا ما عَهد إلَيَّ مُعاوية ما تركتُ بها مُحتلِمًا إلاَّ قتلته. ثم أمر أهل المدينة بالبَيعة لمعاوية، وأرسل إلى بني سلِمة فقال: ما لَكم عندي أمان ولا مُبايَعة حتَّى تأتوني بجابر بن عبد الله. فأُخْبِرَ، فانطلق إلَى أمّ سَلَمة زَوج النبي ﷺ فقال لها: «ماذا تَرَين؟ فإني خشِيت أن أقتل، وهذه بيعة ضلالة!» فقالت: أرَى أن تُبايع، وقد أمرتُ ابْني عُمَر بن أبي سَلَمة وخَتَني[٢] بْنَ زَمْعَة[٣] أن يُبايعا»، وكانت ابنتها زينب تحت ابن زَمعة، فأتى جابر إلى بسر فبايعه لمعاوية، وهدم بسر دورًا بالمدينة.

ثم انطلق حتَّى أتَى مكة، وفيها أبو مُوسَى الأشعري، فخافه أبو موسَى على نفسه أن يقتله، فهرب، فقيل ذلك لبُسْر، فقال: ما كنتُ لأطلُبه وقد خلع عليًا. ولم يطلبْه.

---

(١) خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة، من بني النجار الأنصاري، كنيته أبو أيوب صحابي شهد بدرًا وأحد والخندق والعقبة وسائر المشاهد. صحابي تقي شجاع. سكن المدينة وأوصى أن يوغل به في أرض الروم وقد دفن في أصل حصن القسطنطينية سنة ٥٢هـ. راجع طبقات ابن سعد ج٣ ص٤٩.

(٢) كل مَن كان من قبل المرأة مثل الأب والأخ، وعند العامة حتف الرجل أي زوج ابنته، وبات فصيحًا.

(٣) عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي الأسدي القرشي.

وكتب أبو مُوسَى إلَى اليَمَن: أن خَيْلاً مبعوثةً من عند مُعاوية تقتل الناس ممَّن أبَى أن يقرَّ بالحكومة[١].

ثم مضى بُسْر إلَى اليَمَن، وعامِلُ اليمن من قِبَل عليٍّ رضي الله عنه عُبَيد الله بن عبَّاس، فلما بلغه أمْرُ بُسْر فرَّ إلَى الكوفة حتَّى أتَى عليًا، واستخلف علَى اليَمن عبد الله بن عبد المَدان الحارثي[٢]، فأتاه بُسْر فقتله وقتل ابْنَه، ولقِيَ ثَقَل[٣] عُبَيد الله بن العباس رضي الله عنه وفيه ابنان صغيران لعُبَيد الله بن العبَّاس فقتلهما، وهما عبد الرحمٰن وقُثَم.

وقيل: إنهما كانا عند رجل من بني كِنَانة بالبادية، فلما أراد قتلهما قال له الكناني: «لِمَ تقتل هذَين ولا ذنبَ لهما؟ فإن كنت قاتِلَهما فاقتلْني معهما!»، فقتله، وقتلهما بعده.

وقيل: إنَّ الكِنانيَّ أخذ سيفه وقاتل عن الغلامَين وهو يقول: [من الرجز]

* الـلَّـيْـثُ مـن يـمـنـعُ حـافـات الـدارْ *

* ولا يــزال مــصــلــتًــا دُون الــجــارْ *

وقاتَل حتَّى قُتل وأخذ بُسْرٌ الغلامَيْن فذبحهما، فخرج نسوة من بني كِنانة، فقالتْ امرأة منهن: «ما هذا؟ قتلتَ الرجال فَعَلامَ تقتل الوِلْدان؟ واللّهِ ما كانوا يُقتَلون في جاهليةٍ ولا إسلام! واللّهِ إنَّ سُلطانًا لا يقومُ إلاَّ بقتل الضَّرع[٤] الصغير والشيخ الكبير وبِرَفْع الرحمة وعُقوقِ الأرحام لسُلطانُ سوء!» فقال لها بُسْر: والله لقد هَمَمْتُ أن أضَعَ فيكن السيف. فقالت له: تالله إنها لأُخت التي صنَعْتَ[٥] وما أنا لَها مِنك بآمِنة! ثم قالت للنساء التي حولها: وَيْحَكُنَّ! تَفَرَّقْن!.

وقَتل بُسْرٌ في مسيره ذلك جماعةً من شِيعة عليّ باليَمَن.

وبلغ عليًا الخبر، فأرسل جاريةَ بن قُدَامة في ألْفَيْن، ووَهْبَ بن مسعود في

---

(١) لاحظ دور أبي موسى الأشعري في تثبيط الناس عن الإمام علي كرّم الله وجهه، فهو تارة يهرب، وأخرى يتخوف الناس. ترك حكومة معاوية، وكان قبل ذلك يدعو إلى اعتزال ما يسميه الفتنة، ثم تأمل أبا موسى بكتب لعامل علي على اليمن مهولاً قبل وصول بسر إليها، اتفاق عجيب.

(٢) عبد الله بن عبد المدان، وكان اسمه في الجاهلية عبد الحجر، والرسول ﷺ أسماه عبد الله.

(٣) أراد الأثقال: وهي متاع الرجل.

(٤) الضرع: الذليل، ومنه الضارع.

(٥) من قتل الطفل وسواه.

أَلفَيْن، فسار جارية حتَّى أتى نَجْرانَ[١]، فقتل بها ناسًا من شِيعة عُثمان[٢]، وهرب بُسْرٌ منه، واتبعه جاريةُ إِلَى مكة، فقال: بايِعوا أمير المؤمنين. فقالوا: قد هلك فلِمَنْ نُبايع؟ قال: لِمنْ بايَع له أصحابُ عليّ فبايَعوا خوفًا منه.

ثم سار حتَّى أتَى المدينة، وأبو هُرَيْرة يصلِّي بالناس، فهرب منه، فقال جارية: لو وجدت أبا سِنَّوْر[٣] لقتلتُه. ثم قال لأهل المدينة: بايعوا الحسن بْنَ علي، فبايَعوا، وأقام يَومَه، ثم عاد إِلَى الكوفة، ورجع أبو هُرَيْرَة يصلِّي بهم.

وكانت أم ابْني عُبَيْد الله أمّ الحَكَم جويرية بنت خُوَيْلد بن قارظ، وقيل: عائشة بنت عبد الله بن عبد المَدَان، فلما قُتِل ولداها وَلِهَتْ[٤] عليهما، فكانت لا تعقِل ولا تُصْغي، ولا تزال تَنْشُدُهما في المواسم وتقول: [من البسيط]

هـا[٥] مَنْ أحسّ بُنَيَّيَّ اللَّذَيْـنِ هـمـا ... كالدُّرتَين تَشَظَّى[٦] عنهـما الصدفُ

هَـا مَـنْ أحـسَّ بُـنَـيَّـيَّ الـلـذَيْـنِ هـمـا ... سمعي وعقلي فقلبي اليوم مُخْتَطَفُ

هَـا مَـنْ أحـسَّ بُـنَـيَّـيَّ الـلـذَيْـنِ هـمـا ... مُخُّ العظَام فمُخّي اليَوْمَ مُزْدَهَفُ[٧]

مِـنْ ذُلّ والـهَـةٍ حَـيْـرَى مُـدَلَّـهَـةٍ[٨] ... علَى صبيَّيْنِ ذَلاً إذْ غَـدا السَّـلَفُ[٩]

نُبِّئْتُ بُسْرًا ومـا صدَّقتُ مـا زعَـمـوا ... من قتلـهم ومن الإثـم الَّذي اقْتَرَفـوا

أحْنَى علَى وَدَجَيْ[١٠] ابْنَيَّ مُرْهَفةً[١١] ... مَـشْـحُـوذَةً وكـذاكَ الإِثْـمُ يُـقْـتَـرَفُ

قال: فلمّا سمع عليّ بقتلهما جزِع جزَعًا شديدًا، ودعا على بُسرٍ فقال: اللهُم اسْلُبْه دِينَه وعقله. فأصابه ذلك، وفَقَد عقله، فكان يَهْذِي بالسَّيْف ويطلبه، فيُؤتَى بسَيف من خشب، ويُجْعَل بين يَدَيْه زِقٌّ[١٢] منفوخ، فلا يَزال يضربه، فلم يزل كذلك إِلَى أن مات.

---

(١) نجران: موضع بالبحرين. راجع ياقوت جـ٥ ص٢٦٦.
(٢) لاحظ كيف أشاعوا انقسام الأمة بين علوية وعثمانية.
(٣) أراد أبا هريرة والهريرة تصغير هرة.
(٤) الواله: الذي أذهب الحزن لبه.
(٥) للتوجع والتأوه. (٦) تفتح.
(٧) المخ: هو اللب في العظم، وازدهاف اللب، انسلاله.
(٨) التدله: التعلق بالشيء حتى يصدفه عن سواه.
(٩) السلف نحتت من السالفة وهي ناحية مقدم العنق نزولاً إلى الترقوة. وأرادت النص وشكا أن يبلغا مبلغ الحلم.
(١٠) ودجي: مثنى الودج، وهو عزق غليظ في الرقبة بانقطاعه ينقطع المقطوع عن الحياة.
(١١) الشديدة الصقل.
(١٢) وعاء مصنوع من جلد لحفظ الماء وسواه من السوائل.

قال[١]: ولما استقرَّ الأمر لمُعاوية دخل علَيه عُبَيْد الله بن عبَّاس وعنده بُسْر، فقال لبُسْر: وَدِدْتُ أن الأرض أنبتتني عندك حين قتلْتَ ولدَيَّ. فقال بُسْر: هاك سَيفي. فأهْوَى عُبَيْد الله ليتناوله، فأخذه مُعاوية وقال لبُسْر: «أخزاك الله شَيْخًا قد خرِفْتَ! والله لو تمكَّن منه لبدأ بي!» قال عُبَيْد الله: أَجَلْ ثم ثَنيتُ به.

وقيل: إن مَسِير بُسْرٍ إلى الحجاز كان في سنة اثنتَين وأربعين، وإنه أقام بالمدينة شهرًا يستعرض الناس، لا يقالُ له عن أحد «إنه شَرِك في دم عثمان» إلاَّ قتله.

وحكى أبو عُمر بن عبد البر[٢] عن أبي عَمرو الشيباني قوله: لما وجَّه مُعاويةُ بن أبي سفيان بُسْرَ بْنَ أرطأة الفِهْري لقتل شِيعة عليّ، قام إليه مَعْن[٣] أو عمرو بن يزيد بن الأخْنس السُّلَمي وزياد[٤] بن الأشهب الجعدي فقالا: «يا أمير المؤمنين نسألك بالله والرَّحِم ألاَّ تجعَلَ لبُسْرٍ علَى قَيْس سُلطانًا، فيقتل قيسًا بما قتلتْ بنو سُلَيم من بني فِهْر وكِنانة يوم دخل رسول الله ﷺ مكّة». فقال له مُعاوية: يا بُسْر، لا أمْرَ لك على قَيْس. فسار حتَّى أتى المدينة فقتل ابنَيْ عُبَيْد الله بن عبّاس، وفَرَّ أهلُ المدينة ودخلوا الحَرَّة: حَرَّةَ بني سُلَيم[٥]. هكذا قال الشيباني: إنه قتل ابنيْ عبيد الله بالمدينة. والأكثر أنه قتلهما باليَمَن على ما ذكرنا.

قال[٦]: وفي هذه الخَرْجة[٧] أغار بُسْرٌ علَى هَمْدان وقتل وسبى نساءهم، فكُنَّ أوَّلَ مسلماتٍ سُبِينَ في الإسلام. وقتل أحياء من بني سعد.

وروى أبو عُمر[٨] بسنده عن أبي الرُّباب وصاحبٍ له أنهما سمعا أبا ذَر يدعو ويتعوذ في صلاة صلاَّها طال قِيامُها وركوعُهَا وسجودها، قال: فسألناه: مِمَّ تعوَّذْتَ؟ وفِيمَ دَعَوْتَ؟ فقال: تعوذتُ بالله من يوم البَلاء أن يَدركني ويومِ العَوْرة أن أدركَه. فقلنا: وما ذاك؟ فقال: أما يوم البلاء فتلتقي فِئَتَانِ من المسلمين فيَقتلُ بعضهُم بعضًا، وأما يوم العَوْرة فإن نساءً من المسلمات يُسْبَيْنَ فيُكْشَفُ عن سُوقهنَّ فأَيَّتُهُنَّ كانت أعظَمَ ساقًا اشْتُرِيَتْ علَى عِظَم ساقها، فدعَوْتُ الله ألاَّ يدركني هذا الزمان ولعلكما تدركانه. قال: فقتل عثمان ثم أرسل مُعاوية بُسْرَ بن أرطأة إلَى اليَمَن فسبَى نساءَ مسلماتٍ فأقمن في السُّوق.

---

(١) ابن الأثير جـ٣ ص١٩٣.

(٢) في الاستيعاب جـ١ ص١٥٦.

(٣) معن بن يزيد بن الأخنس السلمي.

(٤) زياد بن الأشهب بن أدر بن عمرو بن ربيعة بن جعدة العامرة، وكان له حظوة عند معاوية.

(٥) حَرَّةُ سليم: وهو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان. راجع ياقوت جـ٢ ص٢٤٦.

(٦) ابن عبد البر في الاستيعاب.

(٧) لعله أراد حَرَّة سليم.

(٨) ابن عبد البر.

هذا ما كان من أخباره في خلافة عليّ رضي الله عنه ممَّا يدخل فيما نحن بصَدَده، فلنذكر الآن ما اتفق له في مدة ولايته بعد أن خلص له الأمر، ونبدأ بالغَزَوات والفتوحات.

ذكر الغزوات والفتوحات
في أيام معاوية بعد أن استقل بالأمر

في سنة اثنتَيْن وأربعين كان غزوُ الروم، فهُزِموا، وقُتل جماعة كبيرة من بَطارقتهم.

وفيها كان غزو اللان[١].

وفي سنة ثلاث وأربعين غزا بُسْرُ بن أرْطأة الرُّوم حتَّى بلغ القُسْطَنْطِينية، وشتَّى بأرضهم، حكاه الواقدي، وأنكره غيره وقال: لم يُشَتِّ بُسْر بأرض الروم قَطُّ، وكان بُسْر إذ ذاك يلي البصرة من قبل معاوية على ما نذكره في حوادث السنين.

وفيها اسْتَعمل عبد الله بنُ عامر عبدَ الرحمٰن بْن سَمُرة علَى سِجِسْتان[٢]، فأتاها، فكان يغزو البلد وقد كفَر أهلُه فيفتحهُ، حتى بلغ كابُل[٣]، فحصَرها أشهُرًا، ونصب عليها مَجانِيقَ فثَلَمَتْ سُورها ثُلْمَة عظيمة، فبات عليها عَبَّاد بن الحُصَين الحَبَطي ليلة، وكان على الشرطة، فما زال يطاعن المشركين حتّى أصبح، فلم يقدروا على سدِّها وخرجوا من الغد يقاتلون فهزمهم المسلمون، ودخلوا البلد عَنْوَة. وساروا إلى زَرَاوَن[٤]، فهرب أهلها، فغلب عليها، ثم سار إلَى خُشَّك[٥]، فصالحه أهلها. ثم أَتَى الرُّخَّج[٦]، فقاتلوه، فظفِر بهم وفتحها، ثم صار إلى زابُلِسْتان[٧]، وهي غَزْنَة وأعمالها، وكانوا قد نكثوا ففتحها. وعاد إلى كابُل، وقد نَكَث أهلها ففتحها.

---

(١) اللان: بلاد واسعة في طرف أرمينية قرب باب الأبواب، بجوار الخزر، والعامة يسمونها علاّن. راجع ياقوت جـ٨ ص٨.

(٢) سجستان: ناحية كبيرة بينها وبين هراة عشرة أيام. راجع ياقوت جـ٣ ص١٩٠.

(٣) كابُل: بين الهند ونواحي سجستان. راجع ياقوت جـ٤ ص٤٢٦.

(٤) في معجم البلدان جـ٣ ص١٣٦، إنها موضع يقال له وادي الكرد بقرب البحيرة المرة بأرمية وأثبتها ياقوت. زراود بالدال.

(٥) خُشَّك: بلدة بنواحي كابل قرب طخارستان. راجع ياقوت جـ٤ ص٣٧٣.

(٦) الرّخج: وتعريبها رُخو: مدينة بنواحي كابُل. راجع ياقوت جـ٣ ص٣٨.

(٧) زابُلِستان: مدينة واسعة جنوبي بلخ وطخارستان. وأكبر مدنها غزنة. راجع ياقوت جـ٣ ص١٢٥.

ذكر غزو السند

قال: وفي سنة ثلاث وأربعين استعمل عبد الله بن عامر ـ وكان على البصرة وخُراسان[١] وسِجِسْتان ـ عبْد الله بن سوَّار العبدي على ثغر السِند، ويقال: بل كان ابن سوار من قِبَلِ معاوية، فغزا القِيقان[٢]، فأصاب مَغْنمًا، ووفد على معاوية وأهدى له خَيلًا، ثم غزا القِيقان مرة ثانية، فاستنجدوا بالترك، فقتلوه وكان كريمًا، لم يوقِد أحد في عسكره نارًا، فرأى ذات ليلة في عسكره نارًا، فقال: ما هذه؟ قالوا: امرأة نُفَساء[٣] يُعْمَل لها الخَنبِيص[٤]، فأمر أن يُطْعَم الناسُ الخَنبِيصَ ثلاثة أيّام.

وفي سنة أربع وأربعين دخل المسلمون بلاد الروم مع عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد، وشتَوْا بها. . . وغزا بُسْر بن أرْطأة في البحر.

وفيها غزا المُهلَّب بن أبي صُفْرة[٥] ثغر السِند، وقاتلهم، ولقِيَ المهلبُ ببلاد القيقان ثمانية عشر فارسًا من الترك، فقاتلوه قتالاً شديدًا، فقُتلوا جميعًا.

وفي سنة ست وأربعين كان مَشْتَى مالك بن عبد الله[٦] بأرض الروم، وقيل: بل كان عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد، وقيل: بل كان مالك بن هُبَيْرة السَّكُوني[٧].

وفي سنة سبع وأربعين كان مَشْتَى مالك بن هُبَيْرة بأرض الروم ومَشْتَى أبي عبد الرحمٰن القَيْنِيّ[٨] بأنْطاكِيَة.

وفيها غزا الحكَم بن عمرو بعض جبال الترك، ومعه المهلَّب بن أبي صُفرة فغنموا، وأخذ الترْك عليهم الشعاب والطرق، فعيِيَ[٩] الحكَمَ بالأمر فولَّى المهلَّبَ الحرب، فلم يزل المهلَّبُ يحتالُ حتَّى أخذ عظيمًا من عظماء الترك، فقال له: إمَّا أن

---

(١) خراسان: بلاد واسعة، حدودها مما يلي العراق وآخر حدودها مما يلي الهند: طخارستان وغزنة وجسستان وكرمان، وأكبر مدنها نيسابور وهراة ومرو. راجع ياقوت جـ٢ ص٣٥٠.

(٢) حصن باليمن من أعمال صنعاء. راجع ياقوت جـ٤ ص٤٢٣.

(٣) المرأة فور وضعها إلى عشرة أيام. (٤) ضرب من الطعام.

(٥) المهلب بن أبي صفرة ظالم بن سراق الأزدي العتكي. ولد في دبا، ونشأ في البصرة. حارب الأزارقة من الخوارج، وتولى خراسان لعبد الملك بن مروان تقدمها ومات فيها سنة ٨٣هـ. انظر الإصابة ترجمة ٨٦٣٥.

(٦) مالك بن عبد الله بن سنان بن سرح بن وهب بن الأقيصر الخثعمي.

(٧) مالك بن هبيرة بن خالد بن مسلم بن الحارث وجده الأعلى السكون.

(٨) ابن كعب بن ثعلبة بن القيني وهي كنيته واسمه النعمان بن جسر من قضاعة.

(٩) أي أتعبه الأمر وأنهكه.

تُخْرِجَنا من هذا المَضِيق أو أقتلك، فقال له التركي: «أوْقِدِ النار حِيَالَ طريقٍ من هذه الطرق وسَيِّر الأثقال نحوه، فإنهم سيجتمعون فيه ويُخلون ما سواه من الطرق، فبادِرْهم إلى طريق آخر، فما يدركونكم حتَّى تخرجوا منه». ففعل ذلك، فسلم الناس بما معهم من الغنائم.

وفيها أيضًا سار الحَكَمُ أيضًا إلى بلاد الغُور فغزا من بها وكانوا قد ارتدُّوا، فأخذهم عَنْوة بالسيف، وفتحها، وأصاب منها مغانم كثيرةً وسبايا، ولما رجع الحكم من هذه الغزاة مات بمَرْو[1]، في قول بعضهم، وكان الحَكَم قد قطع النهر في ولايته ولم يفتح، وكان أول المسلمين شرب من النهر مولًى للحَكم، اغترف بتُرْسه فشرب، وناول الحكم فشرب وتوضأ وصلَّى ركعتين، وكان أول المسلَمين فعل ذلك.

وفي سنة ثمان وأربعين كان مَشْتَى عبد الرحمٰن القَيني بأَنْطاكِيَة[2] وصائفة عبد الله بن قيس الفزاري، وغزوة مالك بن هُبَيْرة السَّكوني البحر، وغزوة عُقْبة بن عامر الجُهني بأهل مصر في البحر وبأهل المدينة.

ذكر غزوة القسطنطينية

وفي سنة تسع وأربعين ـ وقيل: في سنة خمسين ـ بعث مُعاوية جيشًا كَثيفًا إلى بلاد الروم عليهم سُفْيان بن عوف وكان في هذا الجيش عبد الله بن عباس وعبد الله بن عُمر وعبد الله بن الزُّبير وأبو أيُّوب الأنصاري، وعبد العزيز بن زُرارة الكلابي وغيرهم.

وأمر مُعاوية ابْنَه يزيد بالغَزاة معهم، فتثاقل واعتلَّ، فأمسك عنه أبوه، فأصاب الناسَ في غَزاتهم جوعٌ ومرض شديد، فقال يزيد: [من البسيط]

ما إنْ أُبالي بما لاقت جموعُهُمُو ... بالْغَذْقَذُونَة[3] من حُمَّى ومن مُوم[4]

إذا اتَّكَأْتُ علَى الأنماط مُرْتَفِقًا ... بدَيْرِ مُرَّانَ[5] عِندي أُمُّ كُلْثُوم

---

(١) انظر الطبري جـ٥ ص٢٥١.

(٢) أنطاكية: من أكبر ـ كانت ـ مدن الشام وبينها وبين حلب يوم وليلة. راجع ياقوت جـ١، ص٢٦٦ وما بعدها.

(٣) غدقذونة: وفي معجم البلدان جـ٤ ص١٨٨ غذقذونة بالذال. وهي اسم للثغر كله من المصيصة وطرسوس، ويقال لها خذقذونة.

(٤) نوع من الأمراض أو علاج لها، وفي المعجم أنه الشمع.

(٥) دير مُرَّان: دير بالقرب من دمشق على تل مشرف وفيه كانت إقامة يزيد عندما أصاب المسلمين ما أصابهم. والدير دير كبير وفيه رهبان كثيرة. راجع ياقوت جـ٢ ص٥٣٣.

وأُم كلثوم: امرأته، وهي ابنة عبد الله بن عامر فبلغ مُعاوية شِعْرُه، فأقْسم علَيه: لَيَلْحَقَنَّ بسُفيان في أرض الرُّوم لِيُصيبَه ما أصاب الناس. فسار ومعه جمع كثير أضافهم إليه أبوه، فلحِق بهم[١].

وأوْغل المسلمون في بلاد الروم، حتَّى بلغوا القُسْطَنْطِينِيَّة، والْتَقَوْا بالروم، واقتتلوا فاشتدّت الحرب بينهم في بعض الأيام فلم يزل عبد العزيز بن زُرارة يتعرض للشهادة، فلم يُقْتَل، فأنشأ يقول: [من البسيط]

قد عِشْتُ في الدّهر أطْوارًا على طُرُقٍ ... شتَّى، فصادفْتُ منها اللينَ والبشعا[٢]
كُلاًّ بَلَوْتُ، فلا النَّعماءُ تُبْطِرُني ... ولا تخشَّعْتُ مِنْ لأْوائها[٣] جزعا
لا يملأُ الأمرُ صدري قبل مَوْقِعه ... ولا أضِيقُ به ذَرْعًا إذا وقعا

ثمَّ حمل على من يَليه، فقَتَل فيهم، وانْغَمَس بيْنهم، فشَجَرَه[٤] الروم برماحهم، حتى قتلوه، رحمه الله، فبلغ قتْله مُعاوية، فقال لأبيه: هلَكَ واللّهِ فتى العرب! فقال: ابْني أو ابْنُك! قال: ابْنُك فآجَرَك الله! فقال: [من المتقارب]

فإنْ يَكُنِ المَوْتُ أوْدَى به ... وأصبح مُخُّ الكلابِيِّ رِيرًا[٥]
فكُلُّ فَتًى شارِبٌ كَأْسَهُ ... فإمَّا صغيرًا وإمَّا كبيرًا

قال: ثُم رجعوا إلى الشام، وتُوُفِّيَ أبو أيُّوب الأنصاري عند القُسْطَنْطِينيّة، فدُفِن بالقرب من سُورها، فأهلها يستسْقون به.

وفي سنة خمسين غزا بُسْرُ بن أرْطأةُ وسُفْيانُ بن عَوْف الأزدي أرض الروم، وغزا فضالة بن عبيد الأنصاري في البحر.

وفي سنة إحدى وخمسين كان مَشْتَى فَضالة بن عبيد بأرض الروم، وغزوة بُسْر بن أرْطأة الصائفة.

وفي سنة اثنتين وخمسين غزا سُفْيان بن عَوف الأزدي الروم، وشتى بأرضهم، وتُوُفِّيَ بها في قولٍ، فاستخلف عبد الله بن مسعدة الفَزاري، وقيل: إن الذي شتّى في هذه السنة بأرض الروم بُسْر بن أرطأة ومعه سُفْيان بن عَوف. وغزا الصائفة محمد بن عبد الله الثقفي.

---

(١) ولم يثبت أن يزيد قد فعل ذلك.
(٢) البشع: ما كره الطعم في الحلق وأراده هنا ضد اللين، أو جعل اللين نقيض البشع على غير مقصدها.
(٣) اللأواء: الشدة.
(٤) كأنه أراد صفوة وفيه كناية.
(٥) الرير: إذا مصل وفسد.

ذكر فتح جزيرة أرواد

وفي سنة أربع وخمسين فتح المسلمون يقدمهم جُنادة بن أبي أُميّة[١] جزيرة أزواد[٢] بالقرب من القسطنطينية، وأقاموا بها سبع سنين، فلما مات معاوية ووليَ ابنه يزيد أمرهم بالعودة فعادوا.

وفيها كان مَشْتَى محمد بن مالك بأرض الروم، وصائفة[٣] مَعْن بن يزيد السُّلمي.

وفيها استعمل مُعاوية عُبَيْدَ الله بنَ زياد ابن أبيه على خُراسان، فقطع النهر إلى جبال بُخارَى على الإبل، فكان أولَ من قطع جبال بخارَى في جيش، ففتح رَامَنِي، ونَسَفَ، وبيكَنْد. وسنذكر ذلك إن شاء الله في حوادث سنة أربع وخمسين.

وفي سنة خمس وخمسين كان مشتَى سُفيان بن عَوف الأزْدي بأرض الروم، في قول، وقيل: بل شتَّى في هذه السنة عمرو بن محرز، وقيل: عبد الله بن قَيس الفزاري، وقيل: بل مالك بن عبد الله.

وفي سنة ست وخمسين كان مَشْتَى جُنادة بن أبي أُمية بأرض الروم، وقيل: عبد الرحمٰن بن مسعود، وقيل: غزا فيها في البحر يزيد بن شَجْرة وفي البَرَّ عِياض بن الحارث.

وفيها قطع سعيد بن عثمان بن عَفَّان النهر إلى سَمَرْقَنْد، فخرج إليه أهل الصُّغْد، فقاتلهم، وسنذكر ذلك إن شاء الله في حوادث سنة ستٍّ وخمسين.

وفي سنة سبع وخمسين كان مَشْتَى عبد الله بن قيس بأرض الروم.

وفي سنة ثَمانٍ وخمسين غزا مالك بن عبد الله الخَثْعمي أرض الروم، وعمرو بن زيد الجُهَني في البحر، وقيل: جُنادة بن أبي أُميّة.

وفي سنة تسع وخمسين كان مَشْتَى عمرو بن مرة الجُهَني بأرض الروم في البر، وغزا في البحر جُنادة بن أبي أُميَّة، وقيل لم يكن في البحر غَزاة في هذه السنة.

---

(١) جنادة بن أبي أمية الأزدي الزهراني، كان على غزاة البحر في زمن معاوية.

(٢) جزيرة في البحر قرب القسطنطينية. راجع ياقوت جا ص١٦٢.

(٣) أي مصطافة منحوتة من الصيف ضد الشتاء.

وفيها غزا المسلمون حُصْن كَمْخ ومعهم عُمَير بن الحُباب السُلَمِي[١] فصعد عُمَير السُّور، ولم يزَلْ يقاتل عليه وحْدَه حتَّى كشَف الرومَ وصعد المسلمون، ففَتْحُه بِعُمَيْر.

وفي سنة ستين كانت غزوة مالك بن عبد الله سورية، ودخولُ جُنادة رُودِس، وهدمه مدينتها في قول بعضهم.

فهذه الغزواتَ والفتوحات التي كانت في أيام معاوية.

فلنذكر أخبار الخوارج عليه وما كان من أمرهم.

ذكر أخبار الخوارج
في أيام معاوية وما كان من أمرهم

كان أول من خرج بعد أن استقل معاوية بالأمر فَرْوة بن نوفل الأشجعي، وكان قد اعتزل في خمسمائة من الخوارج، وسار إلى شَهْرَزور، وترك قتال عليّ والحسَن.

فلما ولِيَ معاوية قال: «جاء الآن ما لا شكَّ فيه، سيروا إلى معاوية فجاهِدوه». فسار بهم حتى نزل النُّخيلة عند الكوفة.

وكان الحسن بن عليّ قد سار يريد المدينة، فكتب إليه معاوية يدعوه إلى قتال فَرْوَة بن نوفل، فلحقه رسوله بالقادسيّة، أو قريبًا منها، فلم يَرجع، وكتب إلى معاوية يقول: «لو آثرْتُ أن أُقاتل أحدًا من أهل القِبلة لبدأْتُ بقتالك، فإني تركته لصلاح الأُمة وحَقْنِ دمائها»[٢].

فأرسل إلَيهم مُعاوية جمعًا من أهل الشام، فقاتلوهم، فانهزم أهل الشام.

فقال مُعاوية لأهل الكوفة: واللّهِ لا أمَانَ لكم عندي حتَّى تَكْفُونِيهِم! فخرج أهل الكوفة إلَيهم، فقاتلوهم، فقالت الخوارج لهم: «ألَيس مُعاوية عدوَّنا وعدوَّكم؟ دعُونا حتَّى نقاتلَه، فإن أصبْناه كُنَّا قد كَفَيناكم عدُوَّكم، وإن أصابنا كنتم قد كُفِيتُمونا». فقالوا: لا بُدَّ لنا من قتالكم. فأخذتْ أشْجَعُ صاحِبَهم فَرْوَة[٣]، فوعظوه، فلم يَرجع، فأدخلوه الكوفةَ قهرًا.

---

(١) عمير بن حباب السلمي؛ واحد من أبطال القيسية حارب عبيد الله بن زياد وتغلب على خصومه اليمانية، إذ أثار الأمويون العصبيات القبلية لتشبث قوى الناس ضدهم. توفي سنة ٧٠هـ.

(٢) راجع النص باختلاف عند ابن الأثير جـ٣ ص٤٠٩. وتأمل قول الخليفة الحسن بن علي كرّم الله وجهه «أهل القبلة» فللناس الظاهر وظاهر انتمائهم توجههم إلى القبلة.

(٣) فروة بن نوفل الأشجعي. وبنو أشجع هم الذين أدخلوه الكوفة.

فاستعمل الخوارج عليهم عبد الله بن أبي الحَوْساء، رجل من طَيِّىء، فقاتَلهم أهل الكوفة، فقتلوهم في شهر ربيع الأول، أو ربيع الآخر، سنة إحدى وأربعين. وقُتِل ابن أبي الحَوْساء[1]، وكان حين ولي أمْر الخوارج قد خُوِّفَ من السلطان أن يصلبه إذا ظفر بهم، فقال: [من البسيط]

مـا إنْ أُبـالـي إذا أرواحُـنـا قُـبِـضَـتْ ... مَـاذا فَـعَـلْـتـم بـأَوْصـالٍ وأَبْـشـارِ[2]

تَـجْـرِي الـمَـجَـرَّةُ والـنَّـسْـرانِ عَـن قَـدَرٍ ... والشمس والقمر الساري بمقدارِ[3]

وقـد عـلِـمْـتُ وخَـيْـرُ الـقَـوْلِ أنـفـعُـه ... أنَّ الـسـعـيـد الَّـذِي يـنـجـو مـن الـنـارِ

ثم خرج حَوْثرة بن وداع، وذلك أنه لمَّا قُتل ابن أبي الحوساء اجتمع الخوارج فولَّوْا أمْرَهم حَوثرة بن وداع بن مسْعود الأسَدي، فقام فيهم، فعاب فَرْوَةَ بن نَوْفل في شكِّه في قتال عليّ رضي الله عنه، ودعا الخوارجَ وسار بهم من بَرَاز الرُّوز[4]، وكان بها، حتَّى قدِم النُّخَيلة في مِائة وخمسين، وانضمَّ إلَيهم فَلُّ ابْن أبي الحَوْساء، وهم قليل.

فدعا مُعاوية أبا حَوْثرة فقال له: اخْرُجْ إلَى ابنك لعله يرِقُّ إذا رآك. فخرج إليه وكلَّمه وناشده وقال له: ألاَ آتيك بِابْنك لعلك إذا رأيتَه كرِهتَ فِراقه! فقال: أنا إلَى طعنة برمح من يد كافر أتقلب فيه ساعة أشْوَقُ منِّي إلَى ابْني! فرجع أبوه فأخبر معاوية بمقالته. فسيَّر إليه عبدَ الله بن عَوف بن أحمر في ألفين، وخرج أبو حوثرة فيمن خرج، فدعا ابْنَه إلى البِراز، فقال له: يا أبَتِ لك في غيري سَعة. فقاتله ابنُ عوف وقَتله مُبارزة، وقتل أصحابه إلاَّ خمسين رجلاً دخلوا الكوفة، وذلك في جُمادَى الآخِرة من السنة.

ورأى ابْنُ عَوف بوجه حوثرة أثَرَ السجود، وكان صاحِب عبادة فندِم علَى قتله، وقال: [من الوافر]

قـتـلـتُ أخـا بـنـي أسَـدٍ سَـفـاهًـا ... لَـعَـمْـرُ أبـي فـمـا لُـقِّـيـتُ رُشْـدي

قـتـلـتُ مُـصَـلِّـيًـا مَـحْـيـاه لَـيـلٌ ... طَـويـلُ الـحُـزْنِ ذا بِـرٍّ وقَـصْـد

---

(١) في الإصابة أن الذي قتل ابن أبي الحوساء هو خالد بن عرفطة. راجع الإصابة جـ١ ص٤١٠.

(٢) الإبشار من البشر وهو الجلد يقال للإنسان خاصة.

(٣) أسماء أفلاك وكواكب.

(٤) براز الروز: منازل السواد من شرقي بغداد. راجع معجم البلدان جـ١ ص٣٦٤.

قتلت أخا تُقى لأنالَ دُنيا وذاك لشِقْوَتي وعثارِ جَدِّي[١]
فهَبْ لي تَوبةً يا ربِّ واغفر لما قارفتُ من خطأ وعَمْد

ثم خرج فَرْوَة بن نَوْفل الأشْجَعي على المُغيرة بن شُعْبة، وذلك بعد مَسير معاوية، فوجَّه إلَيه المغيرة خيلاً عليها شَبَثُ بن رِبْعِيّ، وقيل: مَعْقِل بن قَيس، فلقيه بشَهْرَزُور[٢]، وقيل بالسواد.

وخرج شبِيب بن بحَرَة، وكان شَبيب مع ابن مُلْجم حين قتل عليًّا، كما ذكرنا، فلما دخل معاوية الكوفة أتاه شَبيب كالمتقرب إليه، فقال: أنا وابنُ مُلْجم قتلنا عليًّا. فوثب معاوية مذعورًا من مجلسه حتَّى دخل منزله، وبعث إلى أشجع[٣] وقال: «لئن رأيْتُ شبيبًا أو بلَغني أنه ببابي لأُهْلِكَنَّكم! أخرجوه عن بلدكم!».

فكان شبيب إذا جَنَّ عليهِ الليل خرج فلم يَلق أحدًا إلا قتله. فلما وَلِيَ المغيرة خرج عليه بالطَّفِّ، بقرب الكوفة، فبعث المغيرةُ خيلاً عليها خالد بن عُرْفُطة، وقيل: مَعْقِل بن قَيس، فاقتتلوا، فقُتل شبيبٌ وأصحابُه.

وبلغ المغيرةَ أنَّ مُعَين بن عبد الله، وهو رجل من مَحارِب، يريد الخروج، فأخذه وحبسه وبعث إلَى معاوية يخبره، فكتب إليه: إنْ شهدَ أني خليفة فَخَلِّ سبيله. فأحضره المغيرة، فأبى أن يشهد بخلافة معاوية، فقتله.

ثُمَّ خرج أبو مَرْيَم مَوْلَى بني الحارث بن كَعْب، ومعه امرأتان: قَطَام وكحيلة، وكان أوَّلَ من أخرج معه النساء، فعاب عليه ذلك أبو بِلال ابن أُدَيَّة، فقال: قد قاتل النساء مع رسول الله ﷺ ومع المسلمين بالشام، وسأردُّهما فردَّهما. فوجَّه إلَيْه المُغيرة جابِرًا البَجَلي، فقاتله، فقُتل أبو مَرْيَمَ وأصحابُه ببَادُورَيا[٤].

وخرج أبو ليلى ـ وكان أسود طويلاً ـ ومعه ثلاثون من المَوالي فبعث إليه المغيرة مَعْقِل بن قَيس الرِّياحي، فقتله بسَواد الكوفة في سنة اثنتين وأربعين.

وخرج سَهم بن غالب الهُجَيْمي في سنة إحدى وأربعين بالبصرة علَى عبد الله بن عامر، في سبعين رجلاً، منهم الخَطِيم الباهِلي واسمه زياد بن مالك، وإنما قيل له «الخَطيم» لِضربة ضُرِبَها علَى وجهه. فنزلوا بين الجِسْرين والبصرة، فمرَّ بهم عُبَادة بن

---

(١) الجد: الحظ.

(٢) شهرزور: منزلٌ واسعٌ في الجبال بين إربل وهمذان. راجع ياقوت ج٣ ص٣٧٥.

(٣) لكون كليهما أشجعي.

(٤) بادوريا: بليدة بقرب باكسايا بين البندنيجين ونواحي واسط. راجع ياقوت ج١ ص٣١٦.

قرص الليثي[١]، وقد انصرف من الغزو ومعه ابنه وابن أخيه، فقال لهم الخوارج: مَن أنتم؟ قالوا: قوم مسلمون. قالوا: كذَبتم. قال عبادة: «سُبْحانَ الله! اقْبَلُوا منَّا ما قَبل النبي ﷺ مني، فإني كذَّبْتُه وقاتلته، ثم أتَيْتُه فأسلمتُ، فقبِل ذلك منّي». قالوا: أنت كافر، وقتلوه وقتلوا ابنه وابن أخيه، فخرج إلَيهم ابنُ عامر فقاتلهم، فقتل منهم عِدَّة، وانحاز بقيَّتهم إلَى أجَمة[٢]، وفيهم سَهم والخَطيم، فأمَّنهم ابنُ عامر ورجعوا، وكتب إلَى معاوية، فأمره بقتْلهم، فلم يقتلهم، وكتب إلى معاوية: إنِّي جعلتُ لهم ذِمَّتك.

فلمَّا أتَى زياد ابن أبيه البصرة في سنة خمس وأربعين هرب الخَطيم إلَى الأهواز، واجتمع إلى سهم جماعة، فأقبل بهم إلى البصرة، فتفرق عنه أصحابه، فاختفَى وطلب الأمان، فلم يؤمِّنه زياد، وبحث عنه وأخذه فقتله وصلبه في داره. وقيل: إنه لم يزل مستخفيًا حتَّى مات زياد، فأخذه عُبَيْد الله بن زياد وصلبه في سنة أربع وخمسين، فقال رجل من الخوارج:

فـإنْ تَـكُـن الأحـزابُ بـاؤوا بـصَـلْـبـه فـلا يُـبْـعِـدنَّ الـلّـهُ سَـهْـمَ بْـنَ غَـالـب

وأما الخَطيم فإن زيادًا سأله عن قتل عبادة، فأنكره، فسيره إلى البحرين، ثم أعاده بعد ذلك، وقيل: إنه قتله[٣].

ذكر خبر المستورد الخارجي

وفي سنة اثنتين وأربعين تحرك الخوارج الذين كانوا انحازوا عمن قُتل يوم النهروان، واجتمعوا في أربعمائة وأمَّروا عليهم المُسْتَوْرِد بن عُلَّفَة التَّيمي، من تيْم الرِّبَاب، وبايَعوه في جُمادَى الآخِرة، واتَّعَدوا للخروج فخرجوا في غُرّة شعبان سنة ثلاث وأربعين.

فبلغ المُغيرة أنهم اجتمعوا في منزل حيّان بن ظَبْيَان السُّلَميّ وتواعدوا للخروج، فأرسل صاحِبَ شُرطته، وهو قَبيصة بن الدَمّون، فأحاط بدار حيّان، وإذا عنده مُعاد بن جُوَين وهو من رؤوس الخوارج ونحو عشرين رجلاً، وثارت امرأته وهي أُمُّ وَلَد كانت له كارهة فأخذتْ سيوفهم وألْقَتْها تحت الفراش، وقاموا ليأخذوا سيوفهم فلم يجدوها فاستسلموا، فجيءَ بهم إلى المغيرة، فحبسهم بعد أن قَرَّرهم فلم يعترفوا بشيءٍ قالوا:

---

(١) عبادة بن قرط بن عدوة بن بجير بن مالك. راجع الإصابة جـ٣ ص٢٦٩.

(٢) مكان متلف كثير الأشجار.

(٣) كما ذكر في الاستيعاب جـ٢ ص٤٥٢.

وإنما اجتمعنا لقراءة القرآن، ولم يزالوا في السجن نحو سنة، وسمع إخوانهم فحذِروا[١].

وخرج صاحبهم المسْتَوْرِد فنزل الحيرة، واختلف الخوارج إليه، ثم تحول إلى دار سليم بن مجدوع العبدي، وهو صهره.

وبلغ المغيرةَ الخبرُ وأنهم عزموا على الخروج في تلك الأيام، فجمع الرؤساء فخطبهم وقال لهم: «لِيَكْفِني كلُّ رجل منكم قومه، وإلاَّ والله تحولت عما تعرفون إلى ما تنكرون، وعما تحبون إلى ما تكرهون». فرجعوا إلى قومهم فناشدوهم الله والإسلام إلاَّ دلوهُم على من يريد تهييج الفتنة.

فبلغ المستورد ذلك فخرج من دار سُلَيم بن مَحْدُوج، وأرسل إلى أصحابه فأمرهم بالخروج فخرجوا متفرقين، واجتمعوا في نحو ثلاثمائة رجل وساروا إلى الصرَّاة[٢].

وبلغ المغيرة بن شعبة خبرهم، فندب معقل بن قيس في ثلاثة آلاف فارس اختارهم من الشيعة.

وأما الخوارج فإنهم ساروا إلى أن بلغوا المَذَارَ[٣] فأقاموا بها.

وبلغ ابن عامر بالبصرة خبرهم، فندب شُرَيك بن الأعور الحرثي، وانتخب معه ثلاثة آلاف فارس أكثرهم من ربيعة، فسار بهم إلى المذار. وسار مَعْقِل وقدَّم أمامه أبا الرّواغ في ثلاثمائة، فأتى بهم إلى المَذَار وقاتل الخوارج عامة نهاره وهم يهزمونه ويعود إلى القتال، ثم أدركه مَعْقل في سبعمائة من أهل القوة، فجاء وقد غربت الشمس فصلوا المغرب، وحملت الخوارج عليهم فانهزم أصحابُ معقل، وثبت هو في نحو مِائتين ونزل إلى الأرض فتراجع إليه أصحابه وأتاه بقية الجيش.

فبينما هم على ذلك بلغ الخوارج أن شُريك بن الأعور قد أقبل من البصرة في ثلاثة آلاف، فأشار المُسْتَورد على أصحابه بالرجوع من حيث جاؤوا، وقال: «إنّا إذا رجعنا نحو الكوفة لم يتبعنا أهل البصرة، ويرجعوا عنا فنقاتل طائفة أسهل من قتال

---

(١) راجع الكامل لابن الأثير بزيادة جـ٣ ص٤٢٦.

(٢) الصراة: نهر يأخذ من عند بلدة يقال لها المحول بينها وبين بغداد فرسخ. راجع معجم البلدان جـ٣ ص٣٩٩.

(٣) المذار: في ميسان بين واسط والبصرة، بينها وبين البصرة مقدار أربعة أيام. معجم البلدان جـ٥ ص٨٨.

طائفتين». فانحاز بأصحابه إلى البيوت، وخرج من الجانب الآخر وسار ليلتَه، ولم يعلم الجيش بمسيرهم، وبات معقل وأصحابه يتحارسون إلَى الصباح، فأتاهم خبر مسيرهم.

وجاء شُرَيك، فدعاه معقل أن يسيرَ معه، فأبى أصحاب شريك اتّباعهم، فاعتذر إلَيه لمخالفة أصحابه ورجع.

ودعا معقل أبا الروّاغ، وأمره باتباعهم، في ستمائة فارس، فاتبعهم، فأدركهم نحو جَرْجَرَايا مع طلوع الشمس، فحمل المستورد على أبي الروّاغ، فانهزم أصحابه وثبت في مائة فارس وقاتلهم طويلاً، ثم عطف أصحابه من كل جانب، وصدَقوهم القتال، فلما رأى المستورد ذلك علم أن معقلاً إن أتاهم بمن معه هلكوا، فمضى بأصحابه وعبرَ دجْلة إلى بَهُرَسِير[1]، وتبعهم أبو الروّاغ حتى نزل بهم إلى ساباط[2]، فقال المستورد: هؤلاء حماة معْقل وفرسانه ولو علمت أني أسبقهم إليه بساعة لسرت إليهم فواقعته، ثم ركب بأصحابه حتَّى انتهى إلى جسر ساباط، فقطعه، ووقف أبو الرواغ ينتظرهم للقتال وقد عبَّأ أصحابه.

وسار المستورد حتى أتى دَيْلَمَانَ[3]، وبها معقل، فلما رآهم نصب رايته ونزل وقال: يا عبادَ الله الأرضَ الأرض! فنزل معه نحوُ مِائتي رجل، فحملت الخوارج عليهم، فاستقبلوهم بالرماح جُثاةً على الرُّكَب، فلم يقدروا عليهم، فتركوهم، وعدلوا إلى خيولهم فحالوا بينهم وبينها وقطعوا أعِنَّتها فذهبت، ثم رجعوا إلى معقلَ وأصحابه فحملوا عليهم، واشتدّ الأمر على معقلَ ومن معه.

فبينما هم كذلك أقبل أبو الروّاغ بمن معه، وكان سبب عَوْده أنه أقام ينتظر عودة الخوارج إليه، فلما أبطأوا عليه أرسل من يأتيه بخبرهم فرأوا الجسر مقطوعًا ففرحوا بذلك ظنًّا منهم أن الخوارج فعلوا ذلك هيبةً، فرجعوا إلى أبي الروّاغ فأخبروه أنهم لم يروهم، وأن الجسر قد قطعوه هيبةً لهم، فقال أبو الروّاغ: «لعمري ما فعلوا هذا إلاّ مكيدةً، وما أراهم إلا قد سبقوكم إلى مَعْقِل حيث علموا أن فرسان أصحابه معي، وقد قطعوا الجسر ليَشْغلوكم به عن لحَاقهم، فالنجَاءَ النجاءَ في الطلب» ثم أمر أهل

---

(١) بهرسير: من نواحي سواد بغداد قرب المدائن. راجع ياقوت جـ١ ص٥١٥.

(٢) ساباط: بليدة معروفة بما وراء النهر قرب أشروسنة، على عشرين فرسخًا من سمرقند. راجع ياقوت جـ٣ ص١٦٦.

(٣) ديلمان: قرية من قرى أصبهان بناحية خرمان. انظر ياقوت جـ٢ ص٥٤٤.

القرية فعقدوا الجسر، فعبر عليه، واتَّبع الخوارج، فلقيه أوائلُ الناس منهزمين، فصاح بهم: إليَّ إليَّ: فرجعوا إليه، وأخبروه الخبرَ وأنهم تركوا معقلاً يقاتلهم، وما يظنونه إلا قتيلاً، فجدّ في السير، وردَّ معه من لقيه من المنهزمين، وانتهى إلى العسكر، فرأى راية معقل منصوبةً والناس يقتتلون، فحمل أبو الروّاغ وأصحابه على الخوارج فأزالهم غير بعيد.

ووصل أبو الروّاغ إلى معقل فإذا هو متقدِّم يحرِّض أصحابه، فشدوا على الخوارج شَدَّة منكرة، ونزل المستورد ومن معه إلى الأرض ونزل أصحاب معقل أيضًا، ثم اقتتلوا طويلاً من النهار بالسيوف أشدَّ قتال، ثم إن المستورد نادى معقلاً ليبرز إليه، فبرز إليه، فمنعه أصحابه، فلم يقبل منْهم وكان معه سيفه ومع المستورد رمحه، فقال أصحاب معقل له: خذْ رمحك. فأبَى، وأقدم على المسْتَوْرد، فطعنه المستورد برمحه، فخرج السِّنان من ظهره، وتقدم مَعْقِلٌ والرمح فيه إلى المستورد، فضربه بسيفه فخالط دماغه فماتا جميعًا.

وكان معقل قال لأصحابه: إن قُتِلت فأميرُكم عمرو بن مُحْرز بن شهاب التميمي، فلما قُتل مَعْقل أخذ عمرو الراية، وحمل هو وأصحابه على الخوارج فقتلوهم، فلم ينْجُ منهم غيرَ خمسة أو ستة، وانْكَفَتَ[١] الخوارج بعد ذلك مُدَّة ولاية زياد ابن أبيه إلى سنة خمسين.

فخرج قُريْب الأزدي وزحَّاف الطائي بالبصرة وهما ابنا خالة، وكان زياد يومئذ بالكوفة، وسَمُرة بالبصرة فأتى الخوارجُ بني ضُبَيْعة وهم سبعون رجلاً فقتلوا منهم شيخًا، فاشتد زياد في أمر الخوارج فقتلهم وأمر سَمُرة بذلك، فقتل منهم بَشرًا كثيرًا، وخطب زياد على المنبر فقال: «يا أهل البصرة والله لتكفُنَّني هؤلاء. أو لأبْدَأَنَّ بكم، واللّهِ لئن أفلتَ رجلٌ منهم لا تأخذون العام من عطاياكم درهمًا» فسار الناس إليهم فقتلوهم.

ثم خرج زياد بن خراش العِجْلَي في سنة اثنتين وخمسين في ثلاثمائة فأتى أرض مَسْكِن من السَّواد، فسرّح إليه زيادُ ابن أبيه خيلاً عليها سعد بن حذيفة، أو غيره، فقتلوهم قد صاروا إلى ماه[٢].

وخرج رجل من طيىءٍ اسمه مُعاذ في ثلاثين رجلاً فبعث إليه زياد مَن قتله وقتل أصحابه، ويقال بل حلّ لِواءه واستأمن.

---

(١) خبتوا.

(٢) ماه ومسكن موضعان بالكوفة.

وخرج طَوّاف بن غَلاّق في سنة ثمان وخمسين بالبصرة، وكان سبب خروجه أن قومًا من الخوارج بالبصرة كانوا يجتمعون إلى رجل اسمه حرار فيتحدثون عنده ويعيبون السلطان، فأخذهم عبيد الله بن زياد فحبسهم، ثم أحضرهم، وعرض عليهم أن يقتل بعضهم بعضًا ويخلّي سبيل القاتلين، ففعلوا، فأُطلقوا، وكان طواف ممن قَتَل، فعَذَلهم أصحابهم وقالوا: قتلتم إخوانكم، قالوا: أُكرهنا وقد يُكرهَ الرجلُ على الكفر وهو مطمئنٌّ بالإيمان، وندم طوّاف وأصحابه، وقال أما من تَوبة؟ فكانوا يبْكون، وعرضوا على أوْلياء من قَتلوا الدِّيَة[1]، فأبَوْا قبولها، وعرضوا عليهم القَوَد[2]، فأبَوْا.

ولقي طوّافٌ الهَثْهاثَ بن ثَور السدوسي، فقال له: ما تَرَى لنا من توبة! فقال: ما أجدُ لك إلا آية في كتاب الله عزَّ وجل: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [النحل: ١١٠]. فدعا طوّاف أصْحابه إلى الخروج على أن يَفتكوا بابن زياد، فبايعوه في هذه السنة، وهم سبعون رجلاً من عبد القيس بالبصرة فسعَى بهم رجل من أصحابهم إلَى ابن زياد، وبلغ ذلك طوَّافًا فعجَّل الخروجَ، فخرجوا من ليلتهم، فقتلوا رجلاً، ومضوا إلى الجَلْحَاء[3]، فندب ابنُ زياد الشُرَط والبُخَارِية[4] فقاتلوهم، فانهزم الشُّرَط حتى دخلوا البصرة، واتبعوهم، وذلك يوم الفِطْر فكاثَرَهم الناس، فقاتلوا فقُتِلوا، وبقِيَ طوَّاف في ستة نَفر وعطش فرسه، فاقتحم به الماء، فرماه البُخَارِيَّةُ بالنُّشَّاب حتَّى قتلوه وأُخِذَ فصُلب، ثم دفنه أهله.

ذكر عروة ابن أدية وأخيه مرداس ابن أدية وغيرهما من الخوارج

قال: وفي سنة ثمان وخمسين اشتدَّ عُبَيد الله بن زياد على الخوارج، فقتل منهم جماعة كثيرة، منهم عُرْوَة ابن أُدَيَّة.

---

(١) الدية: مال أو أنعام للتعويض على ولي الدم.

(٢) القود: أخذ الدم بالدم.

(٣) الجلحاء: موضع على ستة أميال من الغوير، ومنها إلى القاع ستة أميال. راجع ياقوت جـ٢ ص١٥٠.

(٤) لانتسابهم إلى بخارى واشتهروا برميهم الجيد.

وكان سبب قتله أن عُبَيْد الله بن زياد خرج في رِهان[١] له، فلما جلس ينتظر الخيل اجتمع الناسُ إليه، وفيهم عُرْوَة ابن أُدَيَّة وهو أخو مِرْداس ابن أُدَيَّة، وأُدَيَّة أُمهما وأبوهما، جدير وهو تميمي، فأقبل عُرْوة على زياد يعظه، فكان ممّا قال له: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝١٣٠﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٠] قال: فلما قال له ذلك ظنَّ ابن زياد أنه لم يقله إلاّ ومعه جماعة فركب وترك رِهانه، فقيل لعروة: لَيَقْتُلَنَّك. فاختفى، فطلبه ابن زياد فأتى الكوفة، فأُخِذَ وأُتي به إلى ابن زياد فقَطع يدَيْه ورجليه وقتله، وقتل ابنته.

وأما أخوه أبو بِلال مِرْداس فكان عابدًا مجتهدًا عظيم القدر في الخوارج وشهد صِفِّين مع عليّ فأنكر التحكيم، وشهِد النَّهْرُوان مع الخوارج، وكانت الخوارج كلها تتولاه.

وكانت البَثْجاء امرأة من بني يَرْبُوع، تحرِّض على ابن زياد وتذكرُ تجبُّرَهُ وسوءَ سيرته، وكانت من المجتهدات، فذكرها ابن زياد، فقال لها أبو بلال: إن التَّقِيَّة[٢] لا بأس بها فتغيَّبي فإن هذا الجبار قد ذكرك. فقالت: أخشى أن يلقى أحدٌ بسببي مكروهًا، فأخذها ابن زياد فقطع يديها ورجليها ورماها في السوق، فمرّ بها أبو بلال فعضّ على لحيته وقال: «لَهذه أطْيبُ نفسًا بالموت منك يا مرداس! ما مِيتَةٌ أمُوتها أحبّ إليّ مِن مِيتة البثجاء!».

ومرّ أبو بلال ببعير قد طُلِي بقَطِران فغُشِي عليه، ثم أفاق فتلا: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾ [إبراهيم: ٥٠].

ثم إن ابن زياد ألَحَّ في طلب الخوارج حتى ملأ منهم السجون.

وحبس أبا بلال مِرْداس ابن أُدَيَّة، فرأى السجانُ عبادته، فأذِن له كُل لَيْلة في إتيان أهله، فكان يأتيهم ليلاً ويعد إلى السجن مع الصبح، وكان لمرداس صديقٌ يسامرُ ابن زياد، فذكر ابن زياد الخوارج ليلةً فعزم على قتلهم إذا أصبح، فانطلق صديق مرادس إليه وأعلمه الخبر، وبات السجانُ بليلة سوءٍ خَوْفًا أنه لا يرجع، فعاد على عادته، فقال له السجان: أما بلغك ما عزم عليه الأمير؟ قال: بلى، قال: وكَيف أتَيتَ؟ قال: لم يكن جزاؤك مع إحسانك أن تعاقَب بسببي وأصبح ابن زياد فقتلهم،

---

(١) في استرداد أو أداء رهن له والأرجح الثاني.

(٢) إبطان عكس ما يظهر في حالات الخوف على النفس فيما إذا كانت حياة المسلم أفضل له من موته.

فلما أُحضِر مِرْداس قام السجان وكان ظِئْرًا[١] لعُبَيْد الله، فشفعَ فيه وقص عليه قصته، فوهبه له وخلَّى سبيله[٢].

ثم خاف من ابْن زياد، فخرج في أربعين رجلاً إلى الأهْواز، فكان إذا اجتاز به مالٌ لبيت المال أخذ منه عطاءه وعطاء أصحابه، ثم يردُّ الباقي، فلما سمع ابن زياد خبرهم بعث إليهم أسْلَم بن زُرعة الكلابي، وقيل: أبو الحُصين التيمي، وكان الجيش ألْفَيْ رجلٍ، وذلك في سنة ستين، فلما أتَوه ناشدهم أبو بلال الله أن ينصرفوا عنه، فأبَوْا ودعاهم أسلم إلى مُعاوَدة الجماعة، فقالوا: أتردُّنا إلى ابن زياد الفاسق؟ فرمى أصحابُ أسْلَمَ رجلاً من الخوارج فقتلوه، فقال أبو بلال: قد بدؤوكم بالقتال. فشدَّ الخوارجُ على أسْلَم وأصحابه شَدَّةَ رجلٍ واحد، فهزموهم، فقدموا البصرة، فلامه ابن زياد على ذلك، وقال: «هزمك أربعونَ وأنت في ألفيْن؟ لا خيرَ فيك!» فقال: لأن تلومني وأنا حيٌّ خَيْرٌ من أن تُثني عليَّ وأنا ميتٌ وكان الصبيانُ إذا رأوا أسلم صاحوا به: «أبو بلال وراءك». فشكا ذلك إلى ابن زياد، فنهاهم، فانتهوا.

وقال رجل[٣] من الخوارج: [من الوافر]

أألْفا مُؤمنٍ منكم زَعَمْتُمْ ... ويقتلهم بِآسَكَ[٤] أربعونا
كَذَبْتم لَيس ذاك كما زَعَمتم ... ولكنَّ الخوارجَ مؤمنونا
هُمُ الفئَةُ القليلةُ قد علمتم ... علَى الفِئَة الكثيرة ينصرونا[٥]

هذا ما كان من أخبار الخوارج، فلنذكر حوادث السنين.

ذكر الحواث في أيام معاوية بن أبي سفيان غير ما تقدم، على حكم السنين منذ خلص له الأمر إلى أن توفي إلى رحمة الله

سنة إحدى وأربعين:

في هذه السنة خلص الأمر لمعاوية بن أبي سفيان؛ بمبايعة الحسن بن علي

---

(١) الظئر: هي المرضعة لأولاد غيرها، وتستخدم هنا لزوج المرضعة.

(٢) راجع النص باختلاف وزيادة عند الطبري في تاريخه جـ٥ ص٣١٢.

(٣) عيسى بن فاتك الخطي.

(٤) آسك: قرية في ضواحي الأهواز.

(٥) استئناسًا بقوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾.

رضي الله عنهما له كما تقدم، فسُمّي هذا العامُ «عام الجماعة» وذلك لاجتماع الناس على إمام واحد، وهو معاوية.

ورُويَ أنه لما سار الحسن رضي الله عنه عن الكوفة عرض له رجل فقال: يا مُسوِّد وجوه المؤمنين. فقال: لا تعذلني فإن رسول الله ﷺ أُرِيَ[1] بني أمية يَنْزُون[2] على منبره رجلًا رجلًا، فساءه ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ وهو نهر في الجنة، و﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ [القدر: ١ ـ ٣] يملُكُها بعدك[3] بنو أُميّة، وقد خرّج هذا الحديث أهل الصحة. وكانت دولة بني أمية ألف شهر.

ذكر صلح معاوية وقيس بن سعد بن عبادة

في هذه السنة تَم الصلح بين معاوية وقيس بن سعد، وكان قيس قد خرج على مقدمة الحسن في اثني عشر ألفًا كما ذكرنا.

وقيل: إن عبيد الله بن عباس كان على مقدمته، وكان قيس بن سعد على مقدمة عبيد الله، فلمّا علم عُبيد الله ما عزم عليه الحسن من تسليم الأمر إلى معاوية كتب إليه يسأل الأمان لنفسه وعلى ما أصاب من مال وغيره، فأجابه إلى ذلك، وفارق عُبَيد الله جندَه وتركهم بغير أمير، فأمّروا عليهم قَيس بن سعد، وتعاقدوا على قتال معاوية حتى يشرطَ له ولهم على ما أصابوا من الدماء والأموال، فراسله معاوية في الدخول في طاعته، وأرسل إليه بسجِلّ وختم أسفله، وقال: اكتبْ فيه ما شئت فهو لك، فاشترط لنفسه ولشيعة عليٍّ الأمان على ما أصابوا من الدماء والأموال، ولم يشترطْ مالاً، فأعطاه ذلك، ودخل قيس في طاعة معاوية.

ذكر استعمال معاوية المغيرة بن شعبة على الكوفة

وفي هذه السنة استعمل معاوية المغيرةَ بن شعبة على الكوفة. وكان قد استعمل عليها عبد الله بن عمرو بن العاص، فأتاه المغيرة وقال: «استعملتَ عبد الله على الكوفة، وأباه بمصر، فتكون أميرًا بين نابَيْ أسَد». فعزله، واستعمل المغيرة.

---

(١) أراه الله سبحانه وتعالى. (٢) يقفزون.

(٣) المراد بالضمير المخاطب رسول الله ﷺ والحديث تجده في تعليقات الترمذي بالمعنى نفسه جـ٢ ص٢٥٢.

وبلغ عمرو بن العاص ما قاله المغيرة، فدخل على معاوية وقال: «استعملتَ المغيرةَ على الخراج، فيغتالُ المالَ، ولا تستطيعُ أن تأخذه منه، استعمل على الخراج رجلًا يخافُك ويتقيك» فعزله عن الخراج وأقره على الصلاة.

ولما وليَ المغيرةُ استعمل كثير بن شهاب علَى الرَّيِّ[١]، وكان يُكثر سبَّ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه على المنبر.

ذكر استعمال بسر بن أرطأة على البصرة وعزله، واستعمال عبد الله بن عامر عليها

وفي هذه السنة استعمل معاوية بُسْر بن أرْطاة بن أبي أرْطَاة على البصرة، وكان سبب ذلك أن الحسن لما صالح معاوية وثَب حُمْران بن أبَان على البصرة، فأخذها وغلب عليها، فبعث إليه معاوية بُسْر بن أرطأة؛ وأمره بقتل بني زياد ابن أبيه، وكان زياد علَى فارس، قد أرسله عليها علي بن أبي طالب رضي الله عنه كما تقدم.

فلما قدم بُسْر البصرة خطب على منبرها فشتم عليًا، ثم قال: نشَدْتُ اللّهَ رجلًا يعلمُ أني صادق إلاَّ صدّقني أو كاذب إلاَّ كذبني، فقال أبو بَكْرة[٢]: اللهم إنَّا لا نعلمك إلا كاذبًا! فأمر به فخنِقَ، فقام أبو لُؤْلُؤة الضَّبيّ فرمَى نفسه عليه فمنعه، فأقطعه أبو بكرة مائة جَرِيبٍ[٣]، وقيل لأبي بكْرة: ما حملك على ما قلتَ؟ فقال: يُناشدنا الله ثم لا نَصْدُقه.

وكان معاوية قد كتب إلى زياد: أن في يديك مالاً من مال الله فأدِّ ما عندك منه. فكتب إليه زياد: «أنه لم يبقَ عندي شيءٌ، وقد صرفت ما كان عندي في وجهه، واستودعتُ بعضه لنازلةٍ إنْ نزلت، وحملت ما فضل إلى أمير المؤمنين رحمه الله تعالى». فكتب إليه معاوية أن أقبِلْ ننظر فيما وليت، فإن استقام بيننا أمرٌ وإلاّ رجعت إلَى مأمنك. فامتنع زياد.

فأخذ بُسْرٌ أولاده الأكابر، منهم عبد الرحمٰن وعبيد الله وعبّاد وكتب إليه: لتقدمَنَّ على أمير المؤمنين أو لأقتلَنَّ بنيك، فكتب إليه زياد: لست بارِحًا مكاني حتى

---

(١) مدينة مشهورة من أمهات البلاد، وهي محط الحاج على طريق السابلة، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخًا. راجع ياقوت جـ٣ ص١١٦.

(٢) أبو بكرة: نفيع بن الحارث ورسول الله ﷺ كناه أبو بكرة لأنه تدلى إلى النبي ﷺ من حصن الطائف ببكرة. صحابي.

(٣) الجريب من الحبوب أربعة أقفزة.

يحكمَ اللّهُ بيني وبين صاحبك، وإن قتلت ولدي فالمصيرُ إلى الله تعالى، ومن ورائنا الحساب ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] فأراد بسر قتلهم وأتاه أبو بكْرة فقال له: قد أخذت ولد أخي بلا ذنب، وقد صالح الحسن معاوية على ما أصاب أصحابُ عليّ رضي الله عنه حيث كانوا، فليس عليهم ولا علَى أبيهم سبيل، وأجِّله أيامًا حتَّى يأتي بكتاب معاوية، فركب أبو بَكْرة إلى معاوية وهو بالكوفة، فلما أتاه قال له: يا معاوية إن الناس لم يعطوك بَيْعتهم على قتل الأطفال! قال: وما ذاك يا أبا بَكْرة؟ قال: بُسْر يريدُ قتل بني أخي زياد، فكتب إليه بتخليتهم، فأخذ كتابه وعاد، فوصل البصرة يوم الميعاد، وقد أخرج بُسْر أولادَ زياد مع طلوع الشمس، ينتظر بهم الغروب ليقتلهم، واجتمع الناس لذلك وهم ينتظرون أبا بكرة؛ إذ رُفع على نَجِيب[١] أو برذَوْن[٢] يكدّه[٣]، فوقف فنزل عنه وألاَحَ بثَوْبه، وكبّر وكبّر الناسُ معه، وأقبل يسعَى على رجليه، فأدرك بُسْرًا قبل أن يقتلهم، فدفع إليه الكتاب، فأطلقهم.

وكان زياد قد تحصّن بالقلعة التي تسمَّى «قلعة زياد».

وأمّا بُسْر فلم يطُل مُقامه بالبصرة، بل عزله معاوية في بقية سنة إحدى وأربعين، وأراد أن يستعمل عُتْبة بن أبي سفيان[٤]، فكلمه ابن عامر وقال له: إن لي بالبصرة وَدائعَ وأموالاً، فإن لم تولّني عليها ذهبتُ. فولاّه البصرة، فقدِمه في آخر سنة إحدى وأربعين، وجعل إليه خُراسان وسِجْستان، فجعل على شُرطته حبيبَ بن شهاب وعلى القضاء عَمِيرة بن يَثْرِبيّ أخا عمرو، وقد تقدم في وقعة الجمل أن عَميرة قُتل فيها، وقيل: المقتول عمرو[٥].

واستعمل ابنُ عامر قَيْس بن الهَيْثَم على خُراسان، وكان أهل باذَغِيس[٦] وهَراة[٧] وبوشَنْج[٨] قد نكثوا، فسار إلى بَلْخ[٩]، فأخْرب نُوبهار[١٠]، وكان الذي

---

(١) بعير سريع.

(٢) برذون: دابة أكبر من الحمار.

(٣) يكده: يستعجله.

(٤) أخ معاوية لأبيه وأمه.

(٥) والصواب أن عمرو هو الذي قتل في وقعة الجمل.

(٦) باذغيس: ناحية تشتمل على قرى من أعمال هراة ومرو الروذ. راجع معجم البلدان جـ١ ص٣١٨.

(٧) هراة: مدينة من أمهات مدن خراسان. راجع معجم البلدان جـ٥ ص٣٩٦.

(٨) بوشنج: بليدة خصيبة من نواحي هراة، بينهما عشرة فراسخ. راجع ياقوت جـ١ ص٥٠٨.

(٩) بلخ: مدينة معروفة بخراسان جـ١ ص٤٧٩.

(١٠) النوبهار: النو: الجديد، والبهار: ضرب من الأفاويه وهو اسمٌ أطلق على بناء كانوا يعظمونه.

تولى ذلك عطاء بن السائب مَولى بني لَيث، واتخذ قناطر على ثلاثة أنهار من بَلْخ على فرسخ، فقيل: قناطر عطاء، فسأل أهلُها الصلحَ ومراجعةَ الطاعة، فصالحهم قَيس، وقيل: إنما صالحهم الربيعُ بن زياد سنة إحدَى وخمسين، ثم قدِم قَيس علَى ابن عامر فضربه وحبسه، واستعمل عبد الله بن خازم، فأرسل إليه أهل هَراة وباذَغِيس وبوشَنْج يطلبون الأمان والصلح، فصالحهم وحمل إلى ابن عامر مالاً.

وفيها ولد علي بن عبد الله بن العباس، وقيل: ولد سنة أربعين قبل قتل علي رضي الله عنه، والأول أصح.

وحجّ بالناس في هذه السنة عُتْبَة بن أبي سفيان، وقيل: عَنْبَسة بن أبي سفيان.

سنة اثنتين وأربعين:

في هذه السنة ولَّى معاوية مَرْوان بن الحكم المدينة، وخالد بن العاص بن هشام مكة، فاستقضى مروانُ عبد الله بن الحارث بن نوفل[١].

ذكر قدوم زياد ابن أبيه على معاوية بن أبي سفيان

في هذه السنة قدم زياد ابن أبيه على معاوية، وكان معاوية قد كتب إليه يتهدّده، حين قُتل عليٌّ رضي الله عنه، فقام زياد خطيبًا فقال: العجبُ من ابن آكلة الكبود، وكهف النفاق، ورئيس الأحزاب يتهدّدني وبيني وبينه ابنا عمِّ رسول الله ﷺ، يعني ابن عباس والحسن بن علي رضي الله عنهم، في سبعين ألفًا، واضِعِي سيوفِهم علَى عواتقهم، أمَا والله لئن خلص إليَّ لَيجِدَنِّي أحمر[٢] ضرّابًا بالسيف».

فلما صالح الحسن معاوية اعتصم زياد بقلعته كما تقدم ثم كان من خبر بَنِيه مع بُسْر بن أرطأة ما ذكرناه، فأهَمّ معاوية أمرُه، وكان زياد قد استودع عبد الرحمٰن بن أبي بكْرة ماله، فبلغ معاوية ذلك، فبعث إلى المغيرة بن شعبة لينظرَ في أموال زياد، فأخذ عبدَ الرحمٰن فقال له لئن كان أبوك أساء إليَّ لقد أحسن عمك، يعني زيادًا، فكتب إلى معاوية: إني لم أجدْ في يد عبد الرحمٰن مالاً يحلُّ لي أخذه. فكتب إليه

---

(١) عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحراث، وأمه هند بنت أبي سفيان.

(٢) كناية عن قسوته وشدته.

معاوية: أن عذِّبْ عبد الرحمٰن. فقال لعبد الرحمٰن: احتفظ بما في يدك، وألقى على وجهه حريرة[١] ونضحها بالماء فغُشِي عليه، فعل ذلك ثلاث مرات، ثم خلاَّه، وكتب إلى معاوية: إني عذَّبته فلم أجد عنده شيئًا.

ثم دخل المغيرة على معاوية فقال له: ذكرت زيادًا واعتصامه بفارس فلم أنم ليلتي. فقال المغيرة: ما زيادٌ هناك؟ فقال معاوية: «داهيةُ العرب! معه أموال فارس، يدبِّر الحيَل، ما يؤمنني أن يبايعَ لرجل من أهل هذا البيت، فإذا هم قد أعادوا الحرب جذعة[٢]!» واستكتمه معاوية ذلك، فقال المغيرة: أتأذنُ لي يا أمير المؤمنين في إتيانه؟ قال: نعم وتلطَّفْ له، فأتاه المغيرة وقال له: إن معاوية استخفه الوَجَلُ حتى بعثني إليك، ولم يكن أحدٌ يمُدّ يده إلى هذا الأمر غير الحسن، وقد بايع فخذْ لنفسك قبل التَّوْطِين فيستغني معاوية عنك. قال: أشِرْ عَلَيَّ وارْمِ الغَرَض الأقصَى فإن المستشار مؤتَمنٌ. فقال المغيرة: أرى أن تصل حَبْلَك بحبله وتَشْخص إليه. ويقضي الله. وكتب إليه معاوية بأمانه بعد عود المغيرة عنه.

فخرج زياد من فارس نحو معاوية، ومعه المِنْجاب بن راشد الضبّي، وحارثة بن بدر، وقدم على معاوية فسأله عن أموال فارس فأخبره بما حمل منها إلَى عليّ رضي الله عنه، وما أنفق منها في الوجوه التي تحتاج إلى النفقة، وما بقي عنده وأنه مُودَعٌ للمسلمين، فصدّقه معاوية فيما أنفق وفيما بقي عنده وقبضه منه، وقيل: إن زيادًا لما قال لمعاوية: قد بقيت بقيةٌ من المال، وقد أودعتها قومًا فمكث معاوية يروده، فكتب زياد كتبًا إلى قوم يقول: قد علمتم ما لي عندكم من الأمانة، فتدبروا كتاب الله ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ [الأحزاب: ٧٢] فاحتفظوا بما عندكم[٣]. وسمى في الكتب المال الذي أقرَّ بِهِ لمعاوية، وأمر رسوله أن يتعرّض لبعض من يُبْلغ ذلك معاوية، ففعل رسوله، وانتشر ذلك، فقال معاوية لزياد حين وقف على الكتب: أخافُ أن تكون مَكَرتَ بي فصالحْني على ما شئت، فصالحه على ألفي ألف درهم، وحملها زياد إليه، واستأذنه زياد في نزول الكوفة فأذن له، فكان المغيرة يكرِّمه ويعظِّمه، وكتب معاوية إلى المغيرة ليُلزمَ زيادًا وحُجر بن عدي

---

(١) طبق يطبخ بالدقيق والسمن. (٢) من أولها.

(٣) راجع النص باختلاف وزيادة عند الطبري في تاريخه جـ٥ ص١٧٧.

وسليمان بن صُرَد[١] وشَبِيب بن رِبْعَي وابن الكوّاء[٢] وابن الحَمِق[٣] بالصلاة في الجماعة، فكانوا يحضرون معه الصلاة.

وحجّ بالناس في هذه السنة عَبَسة بن أبي سُفْيان.

سنة ثلاث وأربعين:

فيها استعمل عبدُ الله بن عامر عبدَ الرحمٰن بن سَمُرة على سِجِسْتان واستعمل عبد الله بن خازم على خراسان وعزل قَيْس بن الهيثم عنها.

وحجّ بالناس في هذه السنة مروانُ بن الحَكَم[٤] وكان على المدينة.

وفيها توفي محمد بن مَسْلمة الأنصاري، وعبد الله بن سَلاَم، وعمرو بن العاص.

ذكر وفاة عمرو بن العاص
وشيء من أخباره واستعمال عبد الله بن عمرو على مصر

كانت وفاته بمصر يوم عيد الفطر من هذه السنة على الأصح وكان له يوم مات تسعون سنة، ودفن بالمقطّم[٥] من ناحية السّفْح، وصلّى عليه ابنه عبد الله، ثم رجع فصلّى بالناس صلاة العيد.

وكان عمرو بن العاص من فرسان قريش وأبطالهم في الجاهلية مذكورًا بذلك فيهم.

---

(١) سليمان بن صرد بن الجول بن عبد العزى بن قنفذ السلولي الخزاعي، كنيته أبو مطرّف. صحابي، شهد الجمل وصفين مع الإمام علي كرّم الله وجهه. قتله يزيد بن الحصين بعين الوردة سنة ٦٥هـ. راجع أسد الغابة جـ٢ ص٣٥١.

(٢) هو عبد الله بن أبي أوفى. راجع الطبري جـ٤ ص١٦٢.

(٣) عمرو بن الحمق بن كاهل الخزاعي الكعبي. صحابي شريف تقي، سكن الشام، شهد مع الإمام علي كرّم الله وجهه كل حروبه. قتله عامل معاوية على الموصل عبد الرحمٰن بن عبد الله الثقفي صبرًا سنة ٥٠هـ. راجع الإصابة ترجمة ٥٨٢٠.

(٤) طريد رسول الله ﷺ.

(٥) المقطم: وهو الجبل المشرف على مقبرة الفساط بالقاهرة، وهو جبل يمتد من أسوان وبلاد الحبشة على شاطىء النيل الشرقي حتى يكون منقطعه طرف القاهرة. راجع معجم ياقوت جـ٥ ص١٧٦.

وكان حسن الشِّعر، فمن شعره يخاطب عُمارة بن الوليد بن المغيرة عند النَّجَاشِيّ: [من الطويل]

إذا المرءُ لم يتركْ طعامًا يُحبُّه ولم ينهَ قلْبًا غاويًا حيثُ يمَّما[1]

قَضَى وَطرًا منه وغَادَرَ سُبَّة إذَا ذُكِرتْ أمثالهَا تُملأُ الفما

وكان أحَدَ الدُّهَاة في أمور الدنيا المقدَّمين في الرأي، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا استضعف رجلًا في رأيه قال: أشهد أن خالقك وخالق عمرو واحد. يريد خالق الأضداد.

حُكِي أنه جُعل لرجل ألفُ درهم على أن يسأل عمرو بن العاص وهو على المنبر عن أمِّه[2]، فسأله، فقال: أُمِّي سَلْمى بنت حَرْمَلَة تلقَّب النابغة من بني عَنَزَة، ثم أحد بني جَلاَّن، أصابتْها رِماح العرب فبيعت بعُكَاظ، فاشتراها الفاكِه بن المغيرة، ثم اشتراها منه عبد الله بن جُدْعان، ثم صارت إلى العاص بن وائل فولدتْ له، فأنجبتْ، فإن كان جُعِل لك شيءٌ فخذه.

قالوا: ولما حضرته الوفاة قال: «اللهم أمرتني فلمْ آتمر، وزجرتني فلم أنزجر» ووضع يده في موضع الغلّ[3] ثم قال: «اللهمَّ لا قويٌّ فأنتصر، ولا بريءٌ فأعتذر ولا مستكبرٌ بل مستغفر، لا إله إلا أنت». فلم يزل يردّدها حتَّى مات.

وروى أبو عمر بن عبد البر[4] بسنده إلى الشافعي رضي الله عنه أنه قال: دخل ابن عباس رضي الله عنهما على عمرو بن العاص في مرضه فسلَّم عليه وقال: كيف أصبحتَ يا أبا عبد الله؟ قال: «أصبحتُ وقد أصلحتُ من دنياي قليلًا، وأفسدتُ من دِيني كثيرًا، فلو كان الذي أصلحتُ هو الذي أفسدتُ، والذي أفسدتُ هو الذي أصلحتُ لفُزْت، ولو كان ينفعني أن أطلب طلبت، ولو كان يُنجيني أن أهرُبَ هربتُ، فصرتُ كالمَنْجنيق بين السماء الأرض، لا أرقَى بيدَيْن ولا أهبط برجلين، فعِظْني بعظةٍ أنتفع بها يا بن أخي». فقال ابن عباس: «هيهات يا أبا عبد الله، صار ابن أخيك أخاك، ولا نشاء أن تبكي إلا بكيت، كيف يؤمرُ برحيل من هو مقيم؟» فقال عمرو على حينها من حين ابن بضع وثمانين سنة تُقنطني من رحمة ربي، اللهم إن ابن عباس يقنِّطني من رحمتك فخذ مني حتى ترضى. فقال ابن عباس: هيهات يا أبا عبد الله أخذتَ جَديدًا وتُعطي خَلِقًا، قال: ما لي ولك يا ابن عباس ما أُرسل كلمة إلا أرسلت نقيضها.

---

(١) توجّه.

(٢) لأن أمه كانت من مشاهير النساء اللواتي نبغن بالجاهلية، أي أتين الفاحشة بثمن.

(٣) أي رقبته.

(٤) في الاستيعاب جـ٢ ص٥١٣.

وروي[١] بسنده إلى يزيد بن أبي حبيب: أن عبد الرحمٰن بن شُمَاسَة حدّثه[٢] قال: لما حضرتْ عمرو بن العاص الوفاةُ بكَى، فقال له ابنه عبد الله: «لِمَ تبكي؟ أجزعًا من الموت؟» قال: لا واللّهِ ولكن لما بعده، فقال له: لقد كنتَ عَلَى خَيرٍ، وجعل يذكِّره صُحبة رسول الله ﷺ وفُتُوحَه الشام. فقال له عمرو: «تركت أفضلَ من ذلك كله، شهادة أن لا إله إلا الله، إني كنت على ثلاثة أطباق[٣]، ليس منها طَبَق إلاَّ عرفت نفسي فيه، كنت أوّلَ شيءٍ كافرًا، فكنتُ أشدَّ الناس علَى رسول الله ﷺ، فلو متُّ حينئذ وجبتْ لي النار، فلما بايعتُ رسول الله ﷺ كنت أشدَّ الناس حياءً منه، فما مَلأْتُ عيني من رسول الله ﷺ حياءً منه، فلو متُّ يومئذ قال الناس: هنيئًا لعمرو أسلم وكان علَى خَيرٍ ومات علَى خَير أحواله فتُرجَى له الجنة، ثم تلبَّست بعد ذلك بالسلطان وأشياء فلا أدري أعليَّ أم لي؟ فإذا متُّ فلا تبكيَنَّ علَيَّ باكية، ولا يتبعني مادحٌ ولا زار[٤]، وشُدُّوا عليَّ إزاري فإني مخاصَم، وشنّوا علَيّ التراب فإن جنبي الأيمن ليس بأحقَّ من جنبي الأيسر، ولا تجعلُنَّ في قبري خشبة ولا حجرًا، وإذا واريتموني فاقعدوا عندي قدر نَحْر جزور وتقطيعها[٥] بينكم استأنس بكم!». ولما مات استعمل معاوية بعده علَى مصر ابنه عبد الله بن عمرو.

سنة أربع وأربعين:

في هذه السنة حجّ معاوية بالناس.

وفيها عمل مروان بن الحكم المقصورة[٦]، وهو أول من عملها بالمدينة، وكان معاوية قد عملها بالشام لمَّا ضربه الخارجي.

ذكر عزل عبد الله بن عامر عن البصرة واستعمال الحارث بن عبد الله

في هذه السنة عزل معاوية عبد الله بن عامر عن البصرة، وسبب ذلك أنه كان كريمًا حليمًا ليّنًا لا يأخذ على أيدي السفهاء، ففسدت البصرة في أيامه، فشكا ذلك

---

(١) ابن عبد البر في الاستيعاب ج٢ ص٥١٤. (٢) أي ابن عبد البر.
(٣) أراد أحوال. (٤) زار: معيب.
(٥) الجزور: ما يجزر أي يذبح ليأكل. وأراد اجلسوا مقدار الوقت الذي يحتاجه الجازر للنحر والتقطيع للأكل.
(٦) ما يشبه الغرفة في المسجد يقوم فيها إمام المصلين وبينه وبين الناس حرسٌ ومسافة تقيه الغيلة.

إلى زياد، فقال له: جَرِّد فيهم السيف، قال: إني أكره أن أُصلحهم بفساد نفسي[(١)]!

فلما علم معاوية حال البصرة أراد عزل ابن عامر، فأرسل إليه يسْتَزيره[(٢)]، فجاء إليه، فرده إلى عمله، فلما ودعه قال له معاوية: «إني سائلك ثلاثًا فقل: هُنَّ لك» قال: هُنَّ لك وأنا ابْن أم حكيم[(٣)] فقال: تردُّ عليّ عملي ولا تغضب. قال: قد فعلتُ. قال: وتَهَب لي مالَكَ بعَرَفَة. قال: قد فعلت. قال: وتَهَب لي دُورَك بمكَّة. قال: قد فعلتُ. قال: وصلتك رحم! قال ابن عامر: «يا أمير المؤمنين إني سائلك ثلاثًا، فقل هُنَّ لك». قال هُنَّ لك وأنا ابن هِنْد، قال: ترد عليّ مالي بعرفة. قال: قد فعلتُ. قال: ولا تحاسبْ لي عاملًا ولا تتبع لي أثرًا. قال: قد فعلت. قال: وتُنكحني ابنتك هند. قال: قد فعلتُ.

ويقال: إن معاوية قال له: «اخترْ إمّا أن أتبع أثرك وأُحاسبَك بما صار إليك وأردَّك إلى العمل، أو أعزلَك وأُسوِّغك ما أصبت». فاختار العزل وأن يسوِّغه ما أصاب، فعزله، واستعمل الحارث بن عبد الله الأزدي، وكان ابن عامر قد استعمل على خراسان، قبل مَقْدمه عبد الله بن أبي شيخ اليشكري، وقيل: بل استعمل عليها طُفَيْل بن عَوْف اليشكري.

ذكر استلحاق معاوية بن أبي سفيان زياد ابن أبيه وهو ابن سُمَيّة

وفي هذه السنة استلحق معاوية زيادَ ابن أبيه، وقد ذكر عز الدين أبو الحسن عليُّ بن الأثير في تاريخه الكامل[(٤)] سبب ذلك وكيفيته، وابتدأ حال سُمَيّة فقال: كانت سُمَيّة أم زياد لِدِهْقان زَنْدَوَرْد[(٥)]، بكَسْكَر[(٦)] فمرض الدهقان، فدعا الحارثَ بن كَلَدَة الطبيب الثقفي، فعالجه، فبرأ، فوهبه سُمَيّة، فولدت عند الحارث أبا بكرة واسمه نُفَيْع، فلم يُقِرّ به، ثم ولدت نافعًا فلم يُقِرّ به أيضًا، فلما نزل أبو بكرة إلى النبي ﷺ حين حضر الطائف، قال الحارث لنافع: أنت ولدي، وكان قد زوج سُمَيّة من غلام له اسمه عُبَيْد، وهو رومي، فولدت له زيادًا.

---

(١) انظر النص عند الطبري في تاريخه بزيادة جـ٥ ص٢١٢.

(٢) يسأله أن يزوره.

(٣) أم حكيم بنت عبد المطلب بن هاشم، المكناة بالبيضاء.

(٤) راجع الكامل في التاريخ بزيادة جـ٣ ص٤٤١.

(٥) بلدة قرب واسط.

(٦) بلدة قرب واسط أيضًا.

قال: وكان أبو سفيان بن حرب سار في الجاهلية إلى الطائف فنزل على خمّار يقالُ له أبو مريم السّلولي، وأسلم أبو مريم بعد ذلك، وصحب النبي ﷺ، فقال أبو سفيان لأبي مريم: قد اشتهيتُ النساء فالتمس لي بَغِيًا، فقال هل لك في سمية؟ فقال: هاتها على طول ثدييها وذَفَر[١] بطنها. فأتاه بها، فوقع عليها، فعَلِقت بزياد، ثم وضعته سنة إحدى من الهجرة.

فلما كبر ونشأ استكتبه أبو موسى الأشعري حين وليَ البصرة.

ثم إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استكفى زيادًا أمرًا، فقام فيه مقامًا مرضيًا، فلما عاد إليه حضر وعند عمر المهاجرون والأنصار، فخطب خطبةً لم يسمعوا بمثلها، فقال عمرو بن العاص: «لله دَر هذا الغلام. لو كان أبوه من قريش لساق العربُ الناس بعصاه». فقال أبو سفيان وهو حاضر: والله إني لأعرف أباه ومن وضعه في رحم أُمه. فقال له علي بن أبي طالب: ومن هو يا أبا سفيان؟ قال: أنا. قال: «مهلاً يا أبا سفيان، اسكتْ، فإنك تعلم أن عُمر لو سمع هذا القول منك لكان إليك سريعًا».

وروى أبو عمر بْن عبد البر[٢] بسنده إلى ابن عبّاس: أن عُمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث زيادًا في إصلاح فسادٍ وقع باليمن، فرجع من وجهه، وخطب خطبةً لم يسمع الناس مثلها، وذكر كلام عمرو بن العاص ومقالة أبي سفيان وكلام عليٍّ رضي الله عنه بنحو ما تقدم[٣]، قال: فقال أبو سفيان: [من الوافر]

أمَا واللّهِ لَوْلا خوْفُ شَخْصٍ ... يَراني يا عليُّ من الأعادي
لأظهر أمرَه صَخْرُ بن حَرْبٍ ... ولم يَكُنِ المقالةَ عن زِياد
وقد طالتْ مُجَامَلَتي ثَقِيفًا ... وَتَرْكِي فيهمو ثَمَر الفُؤَاد

نعود إلى ما حكاه ابن الأثير قال: فلما وليَ عليٌّ رضي الله عنه الخلافة استعمل زيادًا على فارس فضبطها وحَمى قِلاعها، واتصل الخبر بمعاوية فساءه ذلك، فكتب إلى زياد يتهدّده، ويعرض له بولادة أبي سفيان إياه، فلما قرأ زياد كتابه قام في الناس

(١) التنن.
(٢) في الاستيعاب جا ص٥٦٩.
(٣) تأمّل راوية الحديث وهو عمرو بن العاص، وهو صاحب مصلحة في ترويج هذا النص لاستمالة زياد. والخوف من عمر بن الخطاب رضي الله عنه على شدته ليس له ما يبرره لأن الإسلام جبٌّ ما كان قبله. بفرض أن للرواية قدر من الصحة. والعجيب أن شهود الحادثة كلهم من الذين انتقلوا إلى رحاب الخالق العليم.

فقال: «العجَبُ كُلُّ العجب من ابن آكِلة الأكباد، ورأس النفاق، يخوِّفني بقصده إيَّايَ وبيني وبينه ابن عم رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. أما واللّهِ لو أذِن لي في لقائه لوجدني أحمر مخشيًا[١] ضرّابًا بالسيف».

وبلغ ذلك عليًّا رضي الله عنه فكتب إليه: «إني قد ولَّيْتُك ما وليتك وأنا أراك له أهلًا، وقد كان من أبي سفيان فلتة من أماني الباطل وكَذِب النفس، لا توجبُ له ميراثًا ولا تحلُّ لك نسبًا، وإن مُعاوية يأتي الإنسان مِن بين يَدَيْه ومن خَلْف، وعن يمينه وعن شِماله فاحذَرْ ثم احذَرْ، والسلام»[٢].

فلما قُتل عليّ رضي الله عنه وكان من أمر زياد ومصالحة معاوية ما ذكرناه، وضع زياد مَصْقَلة بن هُبَيْرة الشيباني، وضمن له عشرين ألف درهم؛ ليقول لمعاوية: «إن زيادًا قد أكل فارس برًا وبحرًا، وصالحك على ألْفَيْ ألْف دِرهمْ، والله ما أرى الذي يُقال إلاَّ حقًّا» فإذا قال لك يقال: وما يقال؟ فقل: إنه ابن أبي سفيان، ففعل مَصْقَل ذلك.

ورأى معاوية أن يستصفي مَودته باستلحاقه، فاتفقا على ذلك، وأحضر الناس وحضر من شهد لزياد، وكان فيمن حضر أبو مريم السّلُولي، فقال له معاوية: بِمَ تشهدُ يا أبا مريم؟ فقال: أشهد أنَّ أبا سفيان حضر عندي وطلب مني بَغِيًّا، فقلت ليس عندي إلاَّ سُمَيّة فقال: ايتني بها علَى قذَرها ووَضَرها[٣]. فأتيته بها، فخلا معها، ثم خرجتْ من عنده وإن اسْكتيها ليقْطُران مَنِيًّا[٤]. فقال له زياد: مهلًا أبا مريم إنما بعثت شاهدًا ولم تُبعث شاتمًا. فاستلحقه معاوية.

وكان استلحاقه أولَ ما رُدّت فيه أحكام الشريعة علانية، فإن رسول الله ﷺ قضى بالولد للفراش وللعاهر الحجر.

قال[٥]: وقد اعتذر الناس عن معاوية في استلحاقه إياه، فقالوا: إن أنْكِحَةَ

---

(١) من الخشية: أي الخوف.

(٢) والنص بتمامه من النهج: «وقد عرفتُ أن معاوية كتب إليك يستذل لبك، ويستقل غربَك، فاحذره فإنما هو الشيطان: يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ليقتحم غفلته، ويستلب غرته».
وقد كان من أبي سفيان في زمن عمر بن الخطاب فلتة من حديث النفس، ونزغة من نزغات الشيطان: لا يثبت بها نسب، ولا يُستحق بها إرث. والمتعلق بها كالواغل المدَّفع والنوط المذبذب. راجع نهج البلاغة كتاب ٤٤ جـ٣.

(٣) وضرها: قذارتها.

(٤) تأمّل كيف رأى منها ما لا يراه القاصد.

(٥) راجع بزيادة ابن الأثير في الكامل جـ٣ ص٤٤٥.

الجاهلية كانت أنواعًا، منها أن الجماعة يجامعون البَغِيَّ فإذا حملت وولدت ألحقت الولد بمن شاءت منهم، فلما جاء الإسلام حرّم هذا النكاح، إلا أنه أقَرّ نسب كلّ ولد إلى من كان ينسب إليه من أي نكاح كان، فتوهّم معاوية أن ذلك جائز له، ولم يفرق بين ما استلحق في الجاهلية والإسلام(١).

قال أبو عمر بن عبد البر(٢): ولما ادّعى معاوية زيادًا دخل عليه بنو أمية، وفيهم عبد الرحمٰن بن الحَكَم، فقال: يا معاوية لو لم تجدْ إلا الزِّنْج لاستكثرت بهم علينا قِلّة وذلّة، فأقبل معاوية على مَرْوان، وقال: أخرِجْ عنا هذا الخليع، فقال مَرْوان: والله إنه لخليعٌ(٣) ما يطاق. فقال معاوية: «واللّهِ لولا حلمي وتجاوزي لعلمت أنه لا يطاق، ألم يبلغْني شعره فيَّ وفي زياد؟». ثم قال لمروان أسمعْنيه، فقال: [من الوافر]

ألاَ بَـلِّـغ مُـعـاويـةَ بـنَ صَـخْـرٍ(٤) … لـقـد ضـاقـتْ بِـمـا تَـأتـي الـيَـدان
أتَـغْـضَـبُ أن يُـقـالَ: أبـوك عَـفٌّ … وتَـرْضَـى أن يُـقـال: أبـوك زَانـي؟
فـأشْـهَـدُ أن رَحْـمَـك مِـنْ زِيـادٍ … كـرَحْـم الـفِـيـل مِـن وَلَـد الأتَـان(٥)
وأشْـهـد أنـهـا حَـمـلـتْ زِيـادًا … وصَـخْـرٌ مِـنْ سُـمَـيَّـةَ غَـيْـر دَان

قال: وهذه الأبيات تروى ليزيد بن ربيعة بن مُفَرِّغ الحِمْيَرِي الشاعر، ومَن رواها له جعل أوّلَها:

ألا بَـلِّـغْ مُـعـاويـةَ بـنَ صَـخْـرٍ … مُـغَـلْـغَـلَـةً مِـنَ الـرجـل الـيـمـانـي

قال أبو عمر(٦): وروى عمر بن شَبَّة وغيره أن ابن مُفَرِّغ لما شفَعت فيه اليَمانية إلَى مُعاوية أو ابنه يزيد، وكان قد لقي من عبّاد بن زياد وأخيه عبيد الله ما لقي من النَّكال مما يطول شرحه، فلما وصل إلى معاوية بكَى وقال: «يا أمير المؤمنين ركب منّي ما لم يُرْكَب من مسلم قطّ، علَى غير حَدَثٍ في الإسلام ولا خَلْع يَد من طاعة».

---

(١) لا وذر، لأن الوهم هنا بعيد، فلقد ضرب معاوية عرض الحائط بكل محرّمات رسول الله، وابتكر هنا أشياء فيها أنه شهد على أبيه بالزنا، ورد الشريعة التي أنزلها الله تعالى، ولكنه الملك الذي لأجله كان كل ذلك قاده إلى ما فعل، ولم يكن ليحتاج إلى شهود لإثبات إخوته لزياد فيما لو أخبره أبو سفيان ذلك.

(٢) راجع الاستيعاب جـ١ ص٥٧٠.

(٣) الخليع: من تخلت عنه قبيلته وعزله أهله.

(٤) صنمه اسم أبي سفيان.

(٥) أنثى حمار الوحش.

(٦) دائمًا ابن عبد البر.

وكان عبيد الله بن زياد قد أمر به فسُقي دواء، ثم حمل على حمار وطيفَ به وهو يَسْلَح في ثيابه، فقال معاوية: ألست القائل؟:

ألا بلِّغ معاوية بن صخر... وذكر الأبيات.

فقال ابن مُفرِّغ: «لا والذي عظَّم حقَّك ورفع قدرك يا أمير المؤمنين ما قلتها قط ولقد بلغني أن عبد الرحمٰن بن الحَكَم قالها ونسبها إليَّ».

قال: ألست القائلُ؟: [من الوافر]

شهدتُ بأنَّ أُمّكَ لم تباشرْ ... أبا سُفيانَ واضعةِ القناعِ

ولكن كانَ أمْرٌ فيه لُبْسٌ ... على وَجَلٍ شديدٍ وارْتيَاعِ

أو لست القائلُ أيضًا: [من المنسرح]

إنَّ زيّادًا ونافعًا وأبا ... بَكْرَةَ عندي منْ أعْجَبِ العَجَبِ

هُمُو رِجالٌ ثلاثةٌ خُلقوا ... في رَحْمِ أُنْثَى ما كلُّهم لأبِ[1]

ذا قُرَشيٌّ كما يقولُ وذَا ... مَوْلًى وهذا بزَعْمِهِ عَرَبي

في أشعار قُلْتَها لزياد وبنيه تهجوهم! اُغْرُب لا عفا الله عنك! فقد عفوت عن جُرْمك، ولو صحبتَ زيادًا لم يكن شيء مما كان، اذهبْ فاسكنْ أي أرض أحببتَ فاختار الموصِل.

قال أبو عمر: وليزيد بن مُفرِّغ في هجْو زياد وبنيه - من أجل ما لقي من عَبَّاد بن زياد بخراسان - أشعارٌ كثيرةٌ منها: [من الطويل]

أعبَّادُ ما للُّؤم[2] عنك مُحَوَّلٌ ... وما لَكَ أمٌّ في قريْش ولا أبُ

وقلْ لعُبَيْدِ الله ما لكَ وَالدٌ ... بحقٍ ولا يَدري امْرءٌ كيف تُنْسَبُ

وقوله في زياد: [من البسيط]

فَكِّرْ ففي ذاك إنْ فكَّرتَ مُعْتَبرٌ ... هلْ نِلْتَ مَكْرمَةً إلاَّ بِتَأْمِيرِ

عاشَتْ سُمَيَّةُ ما عاشَتْ وما علمَتْ ... أن ابنها من قُرَيْش في الجَماهِيرِ

قال[3]: وكان أبو بَكْرة أخا زياد لأُمّه، فلما بلغه أن معاوية استحلقه وأنه رضي بذلك آلى يمينًا ألاَّ يكلِّمه أبدًا، وقال: «هذا زَنَّى أُمَّه وانتفَى مِن أبيه، لا واللّهِ ما

---

(١) المقصود أنهم من أنثى واحدة وآباء متفرقون كناية عن الزنا، وهو هجاء شنيع.

(٢) اللؤم: خسة الأصل والعرق. (٣) أبو عمر بن عبد البر.

علمتُ سُميّة رأت أبا سفيان قطُّ، وَيْلَه! ما يصنعُ بأُم حَبِيبة زَوْج النبي ﷺ؟ أيريدُ أن يراها؟ فإن حجبتْه فضَحتْه، وإنْ رآها فيا لهَا مُصيبة، يهتك من رسول الله ﷺ حُرْمةً عظيمة!».

فلما حجَّ زياد ودخل المدينة أرادوا الدخول على أم حَبيبة، ثم ذكر قول أبي بَكْرة فانصرف عن ذلك. وقيل: إن أم حبيبة حَجَبَته ولم تأذن له في الدخول عليها، قيل: وإنه حجّ ولم يزرْها من أجل قول أبي بكرة، وقال: جزى الله أبا بكرة خيرًا لم يدع النصيحة على كل حال.

قالوا: وكتب زياد «إلى عائشة أُم المؤمنين رضي الله عنها: من زياد بن أبي سفيان» وهو يريد أن تكتب إليه «إلى زياد بن أبي سفيان» فكتبت إليه «من عائشة أم المؤمنين إلى ولدها زياد»[(١)].

وكان يُقال لزِياد قبل الاستلحاق «زياد ابن أبِيه» و«زياد ابن أُمِّه» و«زياد ابن سُميَّة» و«زياد بن عُبَيْد الثَّقَفِيّ».

وروى أبو عمر بسنده إلى أبي عثمان النهدي قال: اشترى زيادٌ أباه عُبَيْدًا بألف دِرهم فأعتقه. فكُنَّا نَغبطه بذلك.

سنة خمس وأربعين:

ذكر ولاية زياد البصرة وخراسان وسجستان وما تكلم به زياد عند مقدمه ومن استعمله زياد من العمال

وفي هذه السنة عزَل معاوية الحارث بن عبد الله الأزدي عن البصرة وكان قد استعمله عليها في أوَّل هذه السنة، ثم عزَله، فكانت ولايته أربعة أشهر، واستعمل زيادًا على البصرة وخُراسان وسِجِسْتان، ثم جمع له الهند والبحرَيْن وعُمان.

فقدِم زياد البصْرة في آخر شهر ربيع الآخر من السنة، فدخلها والفِسْقُ فيها ظاهر فاش.

فخطب خطبة بَتْراء[(٢)] لم يحمد الله فيها، وقيل: بل حمِد الله فقال: الحمد لله على إفضاله وإحسانه، ونسأله المزيد من نِعَمِه وإكرامه، اللهم كما زِدْتَنا نعمًا فألْهِمْنا

(١) راجع الكامل في التاريخ ج٣ ص٤٤٥.

(٢) كل خطبة لا يبدأها صاحبها بالبسملة والحمدلة والصلاة على محمد وآله فهي خطبة بتراء.

شكرًا على نعمك فينا، أمَّا بَعْدَ فإنَّ الجَهالةَ الجَهْلاء والضَّلالة العَمْياء والفجرَ المُوقد لأهله النار الباقي علَيهم سَعِيرها، ما يَأْتيه سُفهاؤكم ويشتملُ عليه حُلماؤكم من الأُمور العظام، فيَنْبِت فيها الصغير، ولا يَتحاش عنها الكبير كأنْ لم يسمعوا نبيَّ الله، ولم يقرؤوا كتابَ الله، ولم يعلموا ما أعدَّ اللّهُ من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذابِ الأليم لأهل مَعْصِيَته في الزمن السَّرْمَدي الذي لا يزول، أتكونون كمن طَرَفَتْ عَيْنَه الدنيا[١] وسَدَّتْ مَسامِعَه الشهواتُ واختار الفانية علَى الباقية؟ ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحَدَثَ الذي لم تُسْبَقوا إلَيه منْ ترككم الضعيفَ يُقْهَرُ ويُؤْخَذُ مالُه والضعيفةُ المسكينة في النهار المُبْصِر، هذه المَوَاخِيرُ[٢] المنصوبةُ، والضعيفة المسلوبة في النهار المُبْصِر، والعددُ غيرُ قليلٍ! ألم تكنْ منكم نُهاةٌ تمنعُ الغُواة عن دَلَجِ[٣] الليل وغارةِ النهار؟ قرَّبتم القرابة وباعدتم الدِّين! تعتذرون بغير العُذْر وتُغَطُّون[٤] علَى المختلس! كلُّ امْرِىءٍ منكم يذُبُّ عن سفيهه صُنْعَ من لا يخاف عاقبة ولا يخشى مَعادًا! ما أنتم بالحُلَماء، ولقد اتبعتم السُّفَهاء، فلم يَزَل بهم ما تَرَوْن من قيامكم دُونَهم حتَّى انْتهكوا حُرَمَ الإسلام ثم أطرقوا وَراءَكم كُنُوسًا في مَكانسِ[٥] الريَب! حرامٌ عَلَيَّ الطعامَ والشرابَ حتَّى أُسَوِّيَها بالأرض هَدْمًا وإحراقًا! إني رأيت هذا الأمر لا يصلُح إلاَّ بما صلح به أوَّله: لِينٌ في غير ضعف، وشدةٌ في غير جبْريَّة وعُنْف. وإنِّي أُقْسِمُ بالله لآخُذَنَّ الوَلِيَّ بالمولى والمُقيمَ بالظاعن، والمقْبِلَ بالمدْبر، والصحيحَ منكم في نفسه بالسقيم[٦]، حتَّى يَلْقَى الرجُلُ منكم أخاه فيقول: انجُ سَعْدُ فقد هلك سُعَيْد[٧]، أو تستقيمَ لي قَناتُكم! إن كذْبة المِنبر مشهودة، فإذا تعلَّقتم عَلَيَّ بكذبة فقد حلَّت لكم مَعْصِيَتي! مَن بُيِّت[٨] منكم فأنا ضامنٌ لما ذهب له، إيَّايَ ودَلَج الليل، فإني لا أُوتى بمُدْلِج إلاَّ سفكتُ دمه، وقد أجلتكم في ذلك بقَدْر ما يأتي الخبرُ الكوفةَ ويرجعُ

---

(١) إذا صدف إلى الدنيا همه.

(٢) جمع ماخور وهو مكان الفسق وارتكاب الفاحشة.

(٣) الدالج في الليل: السائد لغرض ليلًا، وأراد هنا الريبة.

(٤) تسترون.

(٥) الكناس: بيت الغزلان وأراد اجتماعهم لسوء.

(٦) أراد أنه سيأخذ السيد بالعبد، والباقي بالمهاجر، والآتي بالذاهب، والمعافى بالمريض. وفيه مخالفة للنص القرآني ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨﴾.

(٧) انظر المثل في مجمع الأمثال جـ١ ص٣٠١.

(٨) أي دخل عليه بياتًا فسُلب وسُرق.

إليكم[١]. وإيَّايَ ودعوَى الجاهليّة[٢]، فإني لا أجد أحدًا دعا بها إلاّ قطعتُ لسانه، وقد أحدثتم أحداثًا لم تكُنْ، وقد أحدثنا لكلّ ذنب عقوبة، فمن غرَّق قومًا غرّقناه، ومن حرَّق قومًا حرَّقناه، ومن نقب بَيْتًا[٣] نَقَبتُ عن قلبه، ومن نَبَش قبرًا دفنتُه فيه حيًّا! فكُفُّوا عنّي أيديَكم وألسِنَتكم أكفُفْ عنكم يدي ولساني، ولا يظهرْ من أحدٍ منكم خلافُ ما علَيه عامَّتكم إلاّ ضربتُ عنقه! وقد كانت بيني وبين أقوام إحَنٌ[٤] فجعلت ذلك دَبْرَ أُذُني وتحت قدمي، فمن كان منكم محسنًا فلْيَزْدَدْ إحسانًا، ومن كان مُسيئًا فلْينزِعْ عن إساءته، إنّي لو علمتُ أن أحدكم قد قتله السلُّ من بغضي لم أكشف له قِناعًا ولم أهتِك له سِترًا حتى يُبْدِيَ لي صفحته، فإذا فعل لم أُناظره[٥]. فاستأْنفوا أمورَكم، وأعينوا على أنفسكم، فرُبَّ مُبْتَئِسٍ بقدومنا سيُسَرّ ومسرورٍ بقدومنا سَيَبْتَئِس.

أيُّها الناس، إنا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادَة، نسوسُكم بسلطان الله الذي أعطاناه، ونذُود عنكم بفَيء الله الذي خَوَّلَناه، فلنا عليكم السمعَ والطاعةَ فميا أحببنا، ولكم علَيْنا العدلَ فيما وُلِّينا، فاستوجبوا عَدلنا وفَيْئَنا بمناصحتكم لنا. واعلموا أني مَهما قصَّرتُ عنكم فإني لا أُقصِّرُ عن ثلاث: لستُ محتجبًا عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارِقًا بلَيْل، ولا حابسًا رزقًا ولا عطاءً عن إبانه، ولا مُجَمِّرًا[٦] لكم بَعْثًا، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم، فإنهم ساستكم المؤدّبون، وكَهْفكم الذي إليه تأْوُون، ومتى يصلحوا تصلحوا، ولا تُشْربوا قلوبَكم بُغْضَهم، فيشتدَّ لذلك غيظُكم، ويطولَ له حزنكم، ولا تدركوا حاجتكم، مع أنه لو استُجيب لكم فيهم لكان شرًّا لكم، أسألُ الله أن يُعين كلاً علَى كلّ، فإذا رأيتموني أُنْفِذ فيكم الأمر فأنْفِذوه علَى أذْلاله[٧]. وأيمُ

---

(١) أراد أنه أمهلهم مسيرة وصول الخبر إلى الكوفة والرجوع منها (أراد الوقت) قبل أن يشرع في تنفيذ أحكامه العرفية هذه.

(٢) جرى القول من المعاصرين في شرح هذا التعبير أنه أراد النهي عن القول بالعصبية القبلية، وفي ذلك شك لعدم أرجحيته تاريخيًا. فالمعروف أن العصبية كانت في أوجها وتسعرها الحكومة الأموية بين القيسية واليمانية، وبين العرب والموالي، وبين القرشيين والعرب، وبين الأمويين والقرشيين، وفيها بعد بين السفيانية والمروانية. والظاهر أن زياد ابن أبيه أراد أشياء تتعلق بخلفية ما كان يتداوله الناس في شرعية معاوية ومن تبعه من صحابة لم يكونوا لا في الصف الأول ولا الأخير.

(٣) كناية عن عادة كانت تجري بإحداث خرق في منزل ابتغاء سرقته.

(٤) مفردها: أحنة: وهي الحقد.

(٥) لم أناقشه الأمر.

(٦) محمدًا.

(٧) مفردها ذِلّ وهي الطريق السهلة، وأراد أن نفذوا الأمر على مبيناته.

اللّهِ إن لي فيكم لَصَرْعَى كثيرة، فليحذَر كلُّ امرىءٍ منكم أن يكون من صَرْعاي!.

فقام إليه عبد الله بن الأهتم فقال: أشهد أيها الأمير أنك أوتِيتَ الحكمة وفَصْلَ الخطاب[1]. فقال: «كذبتَ، ذاك نبيُّ الله داود عليه الصلاة والسلام».

فقال الأحنف: «قد قُلتَ فأحسنتَ، أيُّها الأمير والثناءُ بعد البَلاء، والحمدُ بعد العطاء، وإنا لا نُثني حتَّى نَبْتَلي[2]، ولا نحمَدُ حتَّى نُعْطَى». فقال زياد: صدقتَ.

فقام أبو بلال مِرْداس ابن أُدَيَّة وهو يقول: أنبأنا الله بغير ما قلتَ، قال الله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم: ٣٧ ـ ٤١] فأوْعَدَنا الله خيرًا ممّا أوعدتَنا يا زياد فقال زياد: إنّا لا نجدُ إلى ما نريد منك ومن أصحابك سبيلاً حتَّى نخوضَ إليكم الباطلَ خَوْضًا. وقيل: إنه قال: حتى نخوضَ إليها الدماء.

وقيل: إنَّه لمّا قدم العراق خطب، فحمد الله وأثنَى علَيه، ثم قال: «إنَّ معاوية غَيْرُ مَخُوف عَلَى قَومه، ولم يكن لِيُلْحِقَ بنسَبه من ليس منه، وقد شهدتِ الشهودُ بما قد بلغكم، والحقُّ أحقُّ أن يُتَّبَع، والله حَيْثُ وضع البيِّنات كان أعلم، وقد رحلت عنكم وأنا أعرِف صديقي من عدوِّي، وقد قدِمتُ علَيكم، وصار العدوُّ صديقًا مناصحًا، والصديقُ عدوًّا مُكاشِحًا، فاشتمل كُلُّ امرىء علَى ما في صدره، فلا يكونَنَّ لسانُه شَفْرةً تَجري علَى وَدَجِه، ولْيَعلمْ أحدُكم إذا خلا بنفسه أني قد حملتُ سَيفي بيده، فإن شَهَره لم أغمده، وإن أغمده لم أشهره». ثم نزل.

واستعمل على شرطته عبد الله بن حصن.. وأجّل الناسَ حتَّى بلغ الخبرُ الكوفة وعاد إليه وصول الخبر، وكان يؤخر العشاء الآخرة، ثم يصلِّي ويأمرُ رجلاً فيقرأ سورة البقرة أو مثلَها يرتِّل القرآن، فإذا فرغ أمهل بقدر ما يَرَى أنَّ إنسانًا يبلغ أقصَى البصرة، ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج فلا يرى إنسانًا إلا قتله.

فخرج ذات ليلة، فأخذ أعرابيًا، فأتى به زيادًا، فقال: هل سمعْتَ النداء؟ قال: «لا واللّهِ قدِمتُ بحَلُوبة[3] لي، وغشِيني الليل، فاضطررتها إلى موضع، وأقمتُ لأُصبح، ولا علمَ لي بما كان من الأمير». قال: أظنك واللّهِ صادقًا ولكن في قتلك صلاح الأُمة. ثم أمر به فضُربت عنقُه.

---

(١) أراد قوله تعالى في داود: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص: ٢٠].

(٢) نجرِّب. (٣) ناقة مليئة.

وكان زياد أول من شدّد أمر السلطان، وأكد الملك لمعاوية، وجرّد السيف، وأخذ على الظِّنة[١]، وعاقب بالشُّبهة، وخافه الناس خوفًا شديدًا، حتَّى أمِنَ بعضُهم بعضًا، وحتى كان الشيءُ يسقط من الرجل أو المرأة[٢] فلا يَعْرِض له أحد حتَّى يأتيه صاحبه فيأخذه، ولا يغلق أحدٌ بابه، وأدَرَّ العطاءَ، وبنى مدينة الرزق، وجعل الشُّرَط أربعة آلاف.

وقيل له: إن السبيل مخوفة فقال: «لا أُعاني شيئًا وراء المِصْر حتَّى أُصلحَ المصر، فإن غلَبني فغَيْرُه أشدُّ غلبة منه». فلما ضَبط المصر وأصلحه تكلّف ما وراء ذلك وأحكمه، وهو أول من سِيْرَ بيْن يديه بالحراب والعُمُد، واتخذ الحرسَ خمسمِائة لا يفارقون المسجد. والله أعلم.

ذكر عمال زياد ابن أبيه

قال: ولـمّا وُلي زياد استعان بعدَّة من أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم، منهم عِمْران بن حُصَين الخُزاعي وَلاَّه قضاء البصرة، وأنَس بن مالك وعبد الرحمٰن بن سَمخرة وسَمُرة بن جندب. فأمّا عِمْران فاستعفاه من القضاء فأعفاه، واستقضى عبد الله بن فَضالة اللَيثي، ثم أخاه عاصم، ثم زُرَارة بن أوْفى.

وجعل خُراسان أرباعًا، فاستعمل على مَرْوَ أمير بن أحمر اليَشْكُرِي وعلى نَيْسَابور خُلَيْد بن عبد الله الحنفي، وعلى مَرْو الرُّوذ والفَارِيَاب والطَّالَقَان قيس بن الهَيْثم، وعلى هَراة وباذَغِيس وبُوشَنْج نافع بن خالد الطائي، ثم عزله واستعمل الحَكَم بن عمرو الغفاري، وكانت له صحبته، وكان زياد قد قال لحاجبه: ادع لي الحَكَم، يريد الحكم بن أبي العاص الثقفي، ليوليه خراسان، فجاء بالحكم الغِفاري، فقال له زياد: ما أردتك ولكن الله أرادك، فوَلاَّه خراسان وجعل معه رجالاً على جِباية الخراج، منهم أسْلَم بن زُرعة الكلابي وغيره، وغزا الحكم طخارسْتان فغنم غنائم كثيرة ثم مات، واستخلف أَنس بن أبي أُناس بن زُنَيْم فعزله زياد، وكتب إلى خُلَيْد بن عبد الله الحنفي بولاية خراسان، ثم بعث الربيع بن زياد الحارثي رضي الله تعالى عنه إلى خراسان في خمسين ألفًا من البصرة والكوفة.

وحجّ بالناس في هذه السنة مروان بن الحكم، وكان على المدينة.

---

(١) وهذا انتهاك آخر لشريعة الإسلام، حيث إن الرسول ﷺ يقول: «إن الحدود تدرأ بالشبهات» استن الأمويون قانونًا يأخذ الإنسان على الظن والشك من دون يقين.

(٢) أراد تسيير المرأة فلا يعترضها أحد بسوء، وفي الذهب التباس من الناسخ.

سنة ست وأربعين:

ذكر وفاة عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد

وفي هذه السنة مات عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد، وكان قد عظُم أمره عند أهل الشام ومالوا إليه لغَنَائه[١] بالروم ولآثار أبيه، فخافه معاوية، فأمر ابن أُثَال النصراني أن يحتال في قتله، وضمن له أن يضع عنه خراجَه ما عاش، ويولِّيه خَراج حِمْص[٢].

فلمَّا قدم عبد الرحمٰن من الروم دَسّ إليه ابنُ أُثال شربةً مسمومة مع بعض مماليكه، فشربها، فمات بحمصْ، فوَفَّى له معاوية.

ثُمَّ قدِم خالد بن عبد الرحمٰن المدينة، فجلس يومًا إِلَى عُرْوَة بن الزُّبَير فقال له عروة: ما فعل ابن أُثَال؛ فقام من عنده وسار إلى حِمْص فقتَل ابن أُثال، فحمِل إِلَى معاوية فحبسه أيامًا وغرمه ديته، ورجع إلى المدينة فأَتَى عُرْوة فقال له ما فعل ابن أُثال؟ فقال: قد كَفَيتكه ولكن ما فعل ابن جُرْمُوز؟ يعني قاتل الزبير فسكت عروة.

وقد رُوِي[٣] في خبر عبد الرحمٰن بن خالد أن معاوية لمّا أراد البَيْعة ليزيد خطب أهل الشام وقال: «يا أهلَ الشام، إني قد كبر سنِّي وقرب أجلي، وقد أردت أن أعقِد لرجل يكون نظامًا لكم، وإنما أنا رجل منكم، فارتئوا رأيكم». فأصفقوا واجتمعوا. وقالوا: رضينا عبد الرحمٰن بن خالد. فشَقَّ ذلك على معاوية وأسرَّها في نفسه، ثم مرض عبد الرحمٰن فأمر معاوية طبيبًا عنده مكينًا أن يأتيه فيسقيه سقية يقتله بها، فأتاه فسقاه فانخرق بطنه فمات. ثم دخل أخوه المهاجر بن خالد دمشق مستخفيًا، هو وغلام له، فرصدا ذلك اليهودي، فخرج ليلاً من عند معاوية، ومعه قوم، فهجم عليه المهاجر فهربوا عنه فقتله المهاجر.

وقد قيل[٤] إن الذي قَتل ابن أُثَال أو اليهوديَّ خالد بنُ المهاجر بن خالد، وأن عروة بن الزبير، كان يعيِّره بترك الطلب بثأر عمه، فخرج خالد ونافع مولاه من المدينة حتَّى أتَيا دِمَشق، فرصد الطبيب ليلاً عند مسجد دمشق، وكان يسْمُر عند معاوية، فلما

---

(١) المغنى: المنزل، ولفتوحه في الروم وإقامته في ديارهم غازيًا أراد غنائه.

(٢) في الكامل اختلاف وزيادة راجع جـ٣ ص٢٢٥.

(٣) كما في الاستيعاب جـ٢ ص٤٨ بتخريج فتح الله رفعت.

(٤) كما في الاستيعاب جـ٣ ص٤٣٦ بتخريج فتح الله رفعت.

انتهى إليهما ومعه قوم من حَشَم معاوية، حملا عليهم، فانفرجوا، وضرب خالد بن المهاجر اليهوديَّ فقتله، ثم انصرف إلى المدينة، وقال لعروة بن الزبير:

قَضَى لابْنِ سيفِ اللّهِ بالحقِّ سَيْفُهُ وعُرِّي من حمل الذُّحُول[1] رَوَاحلُه

سَلِ ابْنَ أُثَال هَلْ ثَأَرْتُ ابنَ خَالد؟ فهذا أبْنُ جُرْمُوزٍ فهل أنت قاتلُهْ؟

وحجَّ بالناس في هذه السنة عتبة بن أبي سفيان.

سنة سبع وأربعين:

في هذه السنة عُزل عبد الله بن عمرو بن العاص عن مصر، واستُعمل عليها معاوية بن حُدَيْج وكان عثمانيًا، فمرّ به عبد الرحمٰن بن أبي بكر رضي الله عنهما فقال: «يا معاويةَ، قد أخذتَ جزاءك من معاوية، قد قتلتَ أخي محمدًا لتَلِيَ مصر، فقد وَليتها». فقال: ما قتلت مُحمدًا إلا بما صنع بعثمان، فقال عبد الرحمٰن: فلو كنتَ إنما تطلبُ بدمِ عثمان ما شاركت معاوية فيما صنع، حيث عمل عَمْرو بالأشعري ما عمل، فَوَثبتَ أول الناس فبايعته.

وحجَّ بالناس في هذه السنة عُتْبة بن أبي سُفْيان، وقيل: عنْبَسة بن أبي سُفيان.

سنة ثمان وأربعين:

في هذه السنة استعمل زيادٌ غالبَ بن فَضالة اللَيْثي علَى خُراسان وكانت له صحبة.

وحجَّ بالناس مَرْوان بن الحَكَم وهو يتوقَّع العزلَ لمَوْجِدة كانت من معاوية علَيه، وارتجع معاوية منه فَدَك[2] وكان وهَبَها له.

سنة تسع وأربعين:

في هذه السنة عَزَل مُعاوية مَرْوانَ بن الحَكَم عن المدينة، في شهر ربيع الأول،

---

(١) ذحل مفردها وهي الثأر.

(٢) فدك: قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان أو أكثر، أفاءها الله على رسوله ﷺ وكانت في يد فاطمة الزهراء بنت محمد في حياة أبيه، ثم منعها أبو بكر فاطمة فوجدت عليه ولم ترض عنه وتوفيت عليها السلام وهي على حالها. وموضوع فدك طويل اعتذر بعضهم عن أبي بكر رضي الله عنه من القدماء والمعاصرين. راجع معجم البلدان جـ٤ ص٢٣٨.

وأمَّرَ سَعيدَ بن العاص[1]، فكانت ولاية مَرْوان المدينة ثمانِيَ سنين وشهرين، وكان علَى قضاء المدينة عبد الله بن الحارث بن نوفل، فعزله سعيدٌ حين وُلِّي، واستقضى أبا سَلَمة بن عبد الرحمٰن.

ذكر وفاة الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه

قد اختُلف في وقت وفاته رضي الله عنه، فقيل: في سنة تسع وأربعين، وقيل: بل مات في شهر ربيع الأول سنة خمسين، وقيل: مات في سنة إحدى وخمسين، ودفن في بَقِيع الغَرْقَد[2]، وصلّى عليه سعيد بن العاص أمير المدينة، قدَّمه الحسين للصلاة عليه، وقال له لولا أنها سُنَّة ما قدمتك.

قال أبو عمر بن عبد البر[3]: وقد كانت عائشة رضي الله عنها أباحت له أن يُدْفَن مع رسول الله ﷺ في بَيْتها، وكان قد سألها ذلك في مرضه، فلمَّا مات مَنَع من ذلك مَرْوانُ بن الحكم وبَنُو أمَيّة.

وروى أبو عمر[4]: أن الحسن لما حضرته الوَفاة قال للحسين أخيه: «يا أخي إن أباك رحمه الله لما قُبِض رسولُ الله ﷺ استشرف لهذا الأمر رجاء أنْ يكون صاحبَه، فصرفه الله عنه، وولاَّها أبا بكر، فلما حضرتْ أبا بكر الوَفاةُ تشوَّف لها أيضًا، فصرِفت عنه إلى عُمر، فلما احْتُضِرَ عمر جعلها شُورَى بين ستة هو أحدُهم، فلم يشكَّ أنها لا تَعْدوه، فصرِفَت عنه إلى عثمان، فلما هَلَك عُثمان بُويع له، ثم نُوزع حَتَّى جَرَّد السيف، وطلبها، فما صفا له شيءٌ منها، وإني واللّهِ ما أرى أن يَجْمعَ اللّهُ فينا أهْلَ البيْتِ النبُوَّةَ والخلافة[4]، فلا أعرفنَّ ما استخفَّك سفهاءُ أهلِ الكوفة: فأخرجوك، وإني قد كنتُ طلبت إلى عائشة إذا متُّ أن تأْذَنَ لي فأُدْفَن في بيتها مع رسول الله ﷺ. فقالت: نَعَم، وإني لا أدري لعلها كان ذلك منها حياء، فإن طابت نفسُها فادفِنِّي في بيتها، وما أظن إلاَّ أن القوم سيمنعونك إذا أردتَ ذلك،

(١) سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية القرشي، كنيته أبو عثمان.
(٢) بقيع الغرقد: مقبرة أهل الحديدة. راجع ياقوت جا ص٤١٣.
(٣) راجع الاستيعاب جا ص٣٧٤.
(٤) انظر الاستيعاب لابن عبد البر جا ص٣٧٦ بتخريج فتح الله رفعت.

فإن فعلوا فلا تُراجِعْهم في ذلك، وادفِنّي في بَقِيع الغَرْقَد، فإن لي بمن فيه أُسوة[١].

فلمَّا مات الحسن رضي الله عنه أتى الحسين عائشة فطلب ذلك إليها فقالت: نَعَمْ وكرامة. فبَلَغَ ذلك مَرْوانَ بن الحكم[٢] فقال: «كذبَ وكذبتْ، والله لا يُدْفَن هناك أبدًا، منعوا عُثمان من دَفْنه في المقبرة ويريدون دفن الحسن في بيت عائشة». فبلغ ذلك الحسين فدخل هو ومن معه في السلاح، واسْتَلأَمَ[٣] مَرْوان في الحديد أيضًا، فبلغ ذلك أبا هُرَيْرَة رضي الله عنه فقال: «والله ما هو إلاّ ظلم، يُمْنَع الحسن أن يُدْفَن مع أبيه! واللّهِ إنه لابْنُ رسول الله ﷺ». ثم انطلق إلى الحسين فكلَّمه وناشدَه الله وقال له: «أليس قد قال أخوك: إن خفتَ أن يكون قتالٌ فردَّني إلى مقبرة المسلمين؟»[٤]. فلَم يَزَل به حتى فَعَل، وحمله إلى البَقيع، فلم يَشهده يَوْمئذ من بني أمية إلاَّ سَعيد بن العاص، فقدَّمه الحسين لصلاة، وقال: هي للسّنة. وشهدها خالد بن الوَليد بن عُقْبة بعد أن ناشد بني أمية أن يخلوه يشهد الجنازة فتركوه فشهد دفْنه في المقبرة، ودُفِن إلَى جَنْب أمِّه فاطمة رضي الله عنهما.

قال: وقال أبو قتادة وأبو بكر بن حفص: سُمّ الحسن بن عليّ رضي الله عنهما، سمَّتْه امرأته جَعْدة بنت الأشْعَث بن قَيس الكندي. قال: وقالت طائفة كان ذلك منها بتدسيس معاوية إلَيها وما بَذَل لها في ذلك، وكان لها ضرائر وأنه وعدها بخمسين ألف درهم، وأن يزوِّجها من يزيد، فلما فعلتْ وفَّى لها بالمال، وقال: حُبُّنا ليزيد يمنعنا من الوفاء لكِ بالشرط الثاني[٥].

---

(١) لاحظ في النص أشياء، منها: أن الحسن يوصي الحسين ـ سبطي رسول الله ﷺ ـ بما كان أبوه به أولى ولم نعثر فيما بين أيدينا على وصاة بهذا الشأن، ثم لاحظ كيف يتلو الحسن أشياء هي إلى الغيب أقرب، ومن العجيب أن يتم ذلك كله كما حصل، فإما أن يكون الحسن من المعصومين الذين أطلعهم الله على غيبه، أو أن ثمة من روى ذلك عنه بحقب بعيدة ليقرِّر واقع الأمر.

(٢) تأمل طريد رسول الله يمنع سبط رسول الله ﷺ.

(٣) أي لابس لأمة الحرب.

(٤) لقد كان أولى بأبي هريرة الذي أكثر بالحديث عن رسول الله ﷺ حتى فاق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها والصحابة الباقين مجتمعين أن لا يزال بمفرده حتى يقنعه.

(٥) راجع النص في الاستيعاب جـ١ ص٣٢٥ بتخريج فتح الله رفعت.

وروى قتادة قال: دخل الحسين على أخيه الحسن رضي الله عنهما فقال: «يا أخي إني سُقيت السمَّ ثلاث مرات، ولم أُسْقَ مثل هذه المرة، إني لأضع كبدي!». فقال الحسين: مَن سقاك يا أخي؟ قال: «ما سؤالك عن هذا؟ أتريد أن تقاتلهم؟ أكِلْهم[١] إلى الله». فلمَّا مات وَرَد البَريدُ بموته على معاوية فقال: «يا عَجبًا من الحسن! شرب شربة من عسل بماء رومة[٢] فقَضَى نَحْبَه!».

وأتى ابن عبّاس معاوية فقال له: يا بن عباس احتسب الحسن لا يحزنك الله ولا يسوءك. قال: أمّا ما أبقاك الله يا أمير المؤمنين فلا يحزنني الله ولا يسوؤني، فأعطاه على كلمته ألف ألف درهم وعروضًا وأشياء. وقال: خذها فاقسمها على أهلك.

ومات الحسن رضي الله عنه وله من السن يومَئذ سبع وأربعون سنة. وقيل: ستٌّ وأربعون سنة.

وكان رضي الله عنه وأرضاه ورِعًا فاضلاً، دعاه وَرَعُه وفضلُه إلى ترك الخلافة رغبة فيما عند الله، وقال: واللّهِ ما أحببتُ منذ علمتُ ما ينفعني ويضرُّني أن أَلِيَ أمْرَ أمّةِ محمدٍ ﷺ، على أن يُراقَ في ذلك مَحْجَمة دم.

وحجّ بالناس في هذه السنة سعيد بن العاص.

سنة خمسين:

ذكر وفاة المغيرة بن شعبة

في هذه السنة تُوُفِّيَ المُغِيرة بن شعبة[٣] بن أبي عامر بن مسعود بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن قيس وهو ثقيف.

وكان الطاعون قد وقع بالكوفة فهرب المغيرة منه، فلما ارتفع عاد إلى الكوفة، وطُعِن فمات في شعبان من السنة، وكان طوالاً أعور، ذهبت عينه يوم اليَرْمُوك، وتُوُفِّيَ وهو ابن سبعين سنة.

---

(١) ادع أمرهم إلى الله. (٢) رومة: بئر بالمدينة.

(٣) المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي، كنيته أبو عبد الله لم يسلم حتى وقت متأخر، شهد فتوح الشام، وفقد باليرموك عينه، وتولى لعمر بن الخطاب رضي الله عنه البصرة ثم عزله عنها وولاه الكوفة وأقره عثمان عليها. قيل إنه اعتزل الفتنة التي قادها معاوية ضد إمام زمانه علي كرّم الله وجهه، ولكنه تخلى عن حياده إبان التحكيم فولاه معاوية الكوفة. ولم يعمر طويلاً بعد استتباب الأمر لمعاوية شأنه شأن معظم كبار الصحابة الذين آزروا معاوية إذ توفي سنة ٥٠هـ. راجع أسد الغابة جـ٤ ص٤٠٦.

وكان المغيرة من الدُّهاة، رُوِيَ عن الشعبي قال: كان دُهَاة العرب أربعة: مُعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وزياد ابن أبيه، فأما معاوية فللأناة والحلم، وأما عمرو فللمعضلات، وأما المغيرة فللمبَادهة، وأما زياد فللكبيرة والصغيرة.

وحكى الرياشي[1] عن الأصمعي[2] قال: كان معاوية يقول: أنا للأناة، وعمرو للبديهة، وزياد للصغار والكبار، والمغيرة للأمر العظيم.

ولما دُفن وقف على قبره مَصْقَلة بن هُبَيْرة الشيباني وقال:

إنَّ تحت الأحجار حَزْمًا وجُودًا ... وخَصِيمًا أَلَدَّ ذا مِغْلاَقِ[3]

حيَّة في الوِجَارِ[4] أَرْبَد لا يَنْـ ... ـفَعُ منه السَّليمَ[5] نَفْثُ الرَّاقِي

ثم قال: أمَا والله لقد كنتَ شديدَ العداوة لمن عادَيتَ، شديدَ الأخوَّة لمن آخيتَ.

وكان المغيرةُ كثير الزواج، قال أبو عمر: قال نافع أحصن المغيرة ثلاثمائة امرأة في الإسلام. قال: وغيره يقول: ألف امرأة[6].

ولمّا حضرته الوفاة استخلف على الكوفة ابنه عُرْوَة، وقيل: استخلف جَرِيرًا، فولَّى معاويةُ زيادًا.

ذكر ولاية زياد الكوفة

قال[7]: ولما مات المغيرةُ استعمل معاويةُ زيادًا على الكوفة، وهو أوّل من جمع له بين الكوفة والبصرة، فسار إلى الكوفة، واستخلف على البصرة سَمُرة بن جُنْدُب[8]، فكان زياد يقيم بالكوفة ستة أشهر، وبالبصرة ستة أشهر.

---

(١) الرياشي: هو العباس بن الفرج بن علي بن عبد الله الرياشي البصري كنيته أبو الفضل. قتل في ثورة الزنج. لغوي راوية.

(٢) الأصمعي: عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي. كنيته أبو سعيد، لغوي راوية. ولد وتوفي بالبصرة.

(٣) المتمسك بالخصومة اللجوج.

(٤) وجار الحية: جحره.

(٥) السليم: اللديغ، وهو من الأضداد.

(٦) العظيم الخبيث.

(٧) انظر الاستيعاب ج٣ ص٣٨٩ بتخريج فتح الله رفعت.

(٨) سمرة بن جندب بن هلال الفزاري، قيل إن له صحبة. أقام في البصرة، وكان زياد ابن أبيه يستخلفه على البصرة إذا تركها. وكان شديدًا يغل في دماء الناس غير هيَّاب، ناقره معاوية بعد وفاة زياد على البصرة نحوًا من عام. مات سنة ٦٠هـ. انظر الإصابة ترجمة ٣٤٦٨.

ولمّا وصل الكوفة خطبهم، فَحُصِبَ[١] وهو على المنبر، فجلس حتّى أمسكوا، ثم دعا قومًا من خاصّته فأمرهم فأخذوا أبواب المسجد ثم قال: ليأخُذنَّ كلُّ رجل منكم جليسه، ولا يقولَنَّ لا أدري مَنْ جليسي. ثم أمر بكرسي فوضِع على باب المسجد، ثم دعاهم أربعةً أربعةً يحلفون: ما مِنّا من حَصَبك، فمن حلف خلاّه، ومن لم يحلف حبسه، حتى صاروا ثلاثين، وقيل: ثمانين، فقطع أيديَهم، واتخذ زياد المقصورة حين حُصِب.

قال: وأما سَمرةُ فإنه أكثرَ القتل بالبصرة لمّا استخلفه زياد عليها، قال ابن سيرين: قتل سمرة في غيبة زياد هذه ثمانية آلاف. فقال زياد: أتخافُ أن تكون قتلت بريئًا؟ قال: لو قتلت معهم مثلهم ما خشيت. وقال أبو السُّوار العدوي: قتل سمرة من قومي في غداةٍ واحدةٍ سبعة وأربعين، كلّهم قد جمع القرآن.

وركب سمرة يومًا، فلقيَتْ أوائل خيله رجلاً فقتلوه، فمرَّ به سَمُرة وهو يتشحّط في دمه، فقال: ما هذا؟ قيل: أصابه أوائل خيلك، فقال: إذا سمعتم بنا قد ركبنا فاتقوا أسِنَّتَنا.

ذكر ما قصده معاوية
من نقل المنبر من المدينة إلى الشام
ومن قصد ذلك بعده من الأمراء

في هذه السنة أمر معاوية بمنبر رسول الله ﷺ أن يُحمَل إلى الشام، وقال: لا يُتْرَك هو وعصا النبي ﷺ بالمدينة، وهم قتلة عثمان. فطلب العصا، وهي عند سعد القَرَظ[٢] وحرّك المنبر، فكُسفت الشمس حتى رُؤيت النجوم بادية، فأعظم الناس ذلك، فتركه.

وقيل: أتاه جابر وأبو هريرة فقالا: يا أمير المؤمنين لا يصلحُ أن تُخرِجَ منبر رسول الله ﷺ من موضع وضعه، وتنقل عصاه إلى الشام فانقل المسجد، فتركه وزاد فيه ست درجات، واعتذر مما صنع.

---

(١) رُمي بالحصى.

(٢) سعد القرظ صحابي أذن للرسول ﷺ ولمن بعده من الخلفاء، شكى قلة ذات يده إلى رسول الله ﷺ فنصحه بالتجارة فتاجر بالقرظ فربح، وبات يعرف بسعد القرظ.

فلما وَلي عبد الملك بن مَرْوان هَمّ بالمنبر، فقال قَبيصة بن ذؤيب أذكرك الله أن لا تفعل، إن معاوية حركه فكُسفت الشمس، وقال رسول الله ﷺ: «من حلف على منبري آثمًا فليتبوأ مقعده من النار»[١] وهو مَقْطع الحقوق بينهم بالمدينة. فتركه عبد الملك.

فلما وَلِيَ الوَليد ابنهُ وحَجَّ هَمَّ بذلك، فأرسل سعيد بن المسيّب[٢] إلى عمر بن عبد العزيز فقال: كلّم صاحبك لا يتعرّض للمسجد ولا للّهِ والسخط له، فكلّمه عمر فتركه.

فلما حَجّ سليمان بن عبد الملك أخبره عُمر بما كان من الوَليد، فقال سليْمان: «ما كنتُ أحبُّ أن يُذْكَر عن أمير المؤمنين عبد الملك هذا، ولا عن الوَليد، ما لنا ولهذا؟ أخذْنا الدنيا فهي في أيدينا، ونريدُ أن نعمِد إلى علَم من أعلام الإسلام يوفَدُ إليه فنحملَه، هذا ما لا يصلح!».

وفيها عَزل مُعاويةُ مُعاويةَ بن حُدَيْج عن مصر، واستعمل عليها مَسْلَمة بن مُخَلَّد مع إفريقية وكان على إفريقية عُقبة بن نافع[٣] وكان قد اخْتَطَّ قَيْرَوانَها، وكان موضِعَه غَيْضة لا ترام من السباع والحيّات فدعا الله عليها، فلم يبقَ منها شيءٌ إلا خرج هاربًا، حتَّى إنْ كانت السباع لتحملَ أولادها، وبنى الجامع، فلما عزله معاوية عن إفريقية وأضافها إلى مَسْلَمة بن مُخلَّد استعمل على إفريقية مَوْلًى له يقال له: «أبو المهاجر»، فلم يزل عليها حتَّى هلك معاوية.

وقيل: إن عُقبة بن نافعَ ولِي إفريقية في هذه السنة وعمَّر مدينة القيروان، وكانت غَيْضة[٤] على ما تقدم، فدعا الله تعالى، وكان مستجاب الدعوة، ثم نادى: «أيَّتُها الحيّاتُ والسِّباع، إنّا أصحاب رسول الله ﷺ ارحلوا عنّا فإنا نازلون، ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه». فنظر الناس إلى الدوابِّ تحمل أولادها وتنتقل، فأسلم كثير من البربر، وقطع الأشجار وأمر ببناء المدينة، فبنيت وبنى المسجد الجامع، وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم، وكانت دور القيروان ثلاثة آلاف باع وستمائة باع. وسنذكر إن شاء الله تعالى ذلك بما هو أبسط من هذا في أخبار إفريقية وبلاد الغرب[٥].

---

(١) انظر صحيح البخاري في المناقب ص٥.

(٢) ابن حزم بن أبي وهب المخزومي القرشي، كنيته أبو محمد، تابعي، محدث.

(٣) عقبة بن نافع بن عبد القيس، أموي قرشي، فاتح من قادة الفتوح في صدر الدولة الأموية وإليه ينسب بناء القيروان.

(٤) وكان كثير الأشجار ملتفها.

(٥) انظر النص باختلاف وزيادة عن ابن الأثير ج٣ ص٢٣٠.

ذكر وفاة الحكم بن عمرو الغفاري

وفي هذه السنة توفي الحكم بن عمرو الغفاري بمرو، على أحد الأقوال، وله صحبة، وكان زياد قد كتب إليه: «إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن أصطفي له الصَّفْراء والبيضاء، فلا تقْسم بيْن الناس ذهبًا ولا فضة». فكتب إليه الحكم: «بلغني ما أمر به أمير المؤمنين، وأني وجدت كتابَ الله قبْل كتاب أمير المؤمنين، وإنه واللّهِ لو أن السماوات والأرضَ كانتا رَتْقًا علَى عبد ثم اتقى الله لَجعل له فرجًا ومَخْرَجًا، والسلام عليك». ثم قال للناس: اغدوا على أعطياتكم وما لكم، فقسمه بينهم، ثم قال: اللهم إن كان لي عندك خيرٌ فاقبضْني إلَيك. فمات، واستخلف لمَّا حضرتْه الوفاةُ أنَسَ بن أبي أُنَاس.

وحجّ بالناس في هذه السنة معاوية، وقيل: بل حجّ ابنه يزيد.

وفيها توفي عثمان بن أبي العاص الثقفي، وعبد الرحمٰن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس، وأبو موسى الأشعري، وقيل: سنة اثنتين وخمسين، وتوفي غيرهم من الصحابة رضي الله عنهم.

سنة إحدى وخمسين:

في هذه السنة استعمل زياد ابن أبيه الربيعَ بن زياد الحارثي على خراسان بعد وفاة الحَكَم، وكان الحكمُ قد استخلف أَنس بن أبي أُنَاس كما ذكرنا فعزله زياد، وولى خُلَيْد بن عبد الله الحَنَفي، ثم عزله، وولى الربيع في أول سنة إحدى وخمسين، وسيَّر معه خمسين ألفًا بعيالهم من أهل الكوفة والبصرة، منهم بُرَيْدة بن الحُصَيْب وأبو بَرْزَة، ولهما صحبة، فسكنوا خراسان، فلمَّا قدمها غزا بَلْخ ففتحها صلحًا، وكانت قد أُغْلِقت بعدما صالحهم الأحنف، وفتح قُهَسْتان عنوة وقتل مَنْ بناحيتها من الأتراك، وبقي منهم نَيْزَك طَرْخَان فقتله قُتَيْبة بن مسلم[1] في ولايته. والله ولي التوفيق.

ذكر مقتل حجر بن عدي وعمرو بن الحَمِق وأصحابهما

وفي هذه السنة كان مقتل حُجرْ بن عدي وأصحابه، وسبب ذلك أن معاوية لما استعمل المغيرة بن شُعْبة على الكوفة، أمر بشتم عليّ رضي الله عنه وذمّه والترحُّم

---

(١) ابن عمرو بن الحصين الباهلي كنيته أبو حفص.

على عثمان والاستغفار له وعَيْبِ أصحابِ علي، فأقام المغيرة علَى الكوفة وهو أحسنُ الناس سيرةً، غير أنه لا يَدَعُ شتم عليٍّ والوقوعَ فيه، والدعاءَ لعثمان والاستغفارَ له، فلما سمع ذلك حُجْر بن عَدِيّ قال: بل إياكم قد ذَمّ الله ولعن! ثم قام فقال: أنا أشهد أن من تذمّون أحقُّ بالفضل، ومن تزكُّون أوْلَى بالذم! فيقول له المغيرة يا حُجْر اتقِ هذا السلطان وغضبه وسطْوَته، فإن غضب السلطانِ يُهلك أمثالك. ثم يكُفُّ عنه.

فلما كان في آخر إمارته قال في عليّ وعثمان ما كان يقول، فقام حُجر فصاح بالمغيرة صَيحة سمعها كلُّ من في المسجد، وقال له: «مُرْ لنا أيُّها الإنسان بأرزاقنا فقد حبستَها عنا، وليس ذلك لك، وقد أصبحتَ مُولَعًا بذم أمير المؤمنين». فقام أكثر من ثُلُثَي الناس يقولون: صدق حُجر وبَرَّ، مُرْ لنا بأرزاقنا! فنزل المغيرة ودخل القصر، فجاءه أصحابه وقالوا: علامَ تتركُ هذا الرجل يجترىءُ علَيك في سلطانك؟ فقال لهم: «قد قتلته، سيأتي بعدي أمير يحسبه مثلي، فيصنعُ به ما تَرَوْنه، فيقتله، إني قد قَرُب أجَلي، ولا أحبُّ أن أقتل خيارَ أهلِ هذه المصر فيسعدُ وأشقى، ويعز في الدنيا معاوية ويشقى في الآخرة المغيرة!» ثُمَّ تُوُفِّيَ المُغيرة[١].

ووُلِّيَ زياد، فقام في الناس فخطبهم عند قدومه فترحَّم على عثمان وأثنَى علَى أصحابه، ولعَن قاتِليه، فقام حُجْر ففعل كما كان يفعل بالمُغيرة.

ورجع زياد إلى البصرة، واستعمل علَى الكوفة عمرو بن حُرَيْث[٢] فبلغه أن حجرًا يجتمع إلَيه شِيعة عليٍّ رضي الله عنه، ويُظهرون لعنَ معاوية والبراءة منه، وأنهم حصبوا عمرو بن حُرَيث. فشخَص إلَى الكوفة، وصعِد المنبر فحمد الله وأثنى علَيه، وحُجْر جالس، ثم قال: «أمّا بَعْدُ، فإنَّ غِبَّ البَغْي والغَيِّ وَخِيمٌ، إن هؤلاء جَمُّوا فأَشِروا[٣]، وأمِنوني فاجْترؤوا علَى الله، لئن لم تَستقيموا لأُداوِيَنكم بدوائكم، ولستُ بشيء إن لم أمنعِ الكوفةَ من حُجْر وأدعْه نكالاً لمن بعده! وَيْل أمِّك يا حُجْر، سقط العشاءُ بك علَى سِرْحان[٤]!» وأرسل إلَى حُجْر يدعوه وهو في ناحية المسجد، فأتاه الرسول يدعوه إلَيه، فقال أصحابه: لا يأتيه ولا كرامة! فرجع الرسول فأخبر زيادًا، فأمر صاحب شُرْطته، وهو شَدّاد بن الهَيْثَم الهِلاليّ، أن يبعث إلَيه جماعة، ففعل، فسَبَّهم أصحاب حُجْر فرجعوا فأخبروا زيادًا.

---

(١) في رواية أن المغيرة توفي سنة ٥١هـ.

(٢) ابن عمرو بن عثمان المخزومي من قريش.

(٣) جموا: من الحجام وهو الراحة والأشر: بمعنى البصر.

(٤) من أسماء الذئب.

فجمع أهْلَ الكوفة وقال: «تشجُّون بِيَدٍ وتأسُون بأُخرَى[١]، أبدانكم معي وقلوبكم مع حُجْر الأحمق، هذا والله من دَحْسكم[٢]، واللّهِ لَتَظْهَرَنَّ لي براءتُكم، أو لآتِينَّكم بقوم أقيمُ بهم أودكم وصَعَرَكم»[٣]. فقالوا: معاذَ اللّهِ أن يكون لنا رأي إلاّ طاعتك وما فيه رضاك. قال: فلْيَقُم كلُّ رجل منكم فليدْعُ مَن عند حُجرْ من عشيرته وأهله. ففعلوا ذلك، وأقاموا أكثر أصحابه عنه.

وقال زيادٌ لصاحب شرطته: انطلِق إلَى حُجرْ فإن تبعك فأتِني به، وإلاّ فشُدّوا عليهم بالسيوف حتى تأتوني به. فأتاه صاحب الشرطة يدعوه، فمنعه أصحابه من إجابتهم، فحمل عليهم، فقال أبو العمْرّطَة الكِنْدِي لحجر: «إنه ليس معك من سيف غيري، وما يغني عنك سيفي؟ قمْ فالحق بأهلك يمنعْكَ قومُك». وزيادٌ ينظرُ إليهم وهو على المنبر، فغشِيَهم أصحاب زياد، وضرب رجل رأس عمرو بن الحَمق بعمود فوقع، وحمله أصحابه إلى الأزد فاختفى عندهم حتى خرج، وانحاز أصحاب حُجر إلى أبواب كندة، وضرب بعض الشُّرط يَدَ عائد بن حملة التميمي وكسر نابه، فأخذ عمودًا من بعض الشُّرط فقاتل به، وحمى حُجرًا وأصحابه حتى خرجوا من أبواب كندة، وأُتِيَ حُجْر ببغلته فقال له أبو العمْرّطَة: اركبْ فقد قتلتنا ونفسك. وحمله حتى أركبه، وركب أبو العمرّطة فرسه، ولحقه يزيد بن طريف المُسْليّ فضرب أبا العمرّطة بالعمود على فخذه، وأخذ أبو العمرّطة سيفه فضرب به رأسه فسقط. فكان ذلك السيف أول سيف ضُرب به في الكوفة في اختلاف بين الناس.

ومضى حُجْر وأبو العمرّطَة إلى دار حُجر، واجتمع إليهما ناس كثير، ولم يأته من كندة كثيرٌ أحد، ثم اختفى حُجْر، وتنقَّل من مكان إلى آخر، والطلب خلفه، حتى أتى الأزْد، واختفى عند ربيعة بن ناجِد.

فلما أعياهم طلبه دعا زياد محمد بن الأشعث، وقال له: واللّهِ لَتَأتِيَنّي به أو لأقْطَعَنَّ كل نخلة لك، وأهدِمُ دُورَك، ثم أقطعك إرْبًا إرْبًا، فاستمهله، فأمهله ثلاثًا، وأقام حُجر ببيتِ رَبيعة يومًا وليلةً، فأرسل إلى محمد بن الأشعث يقول له: لِيأخذْ له أمانًا من زيادٍ حتى يبعثَ به إلَى معاوية، فجمع محمد جماعة، منهم جَرير بن عبد الله، وحجر بن زيد، وعبد الله بن الحارث أخو الأشتر، فدخلوا على زياد فاستأمنوا له أن يرسله إلى معاوية فأجابهم، فأرسلوا إلى حُجر فحضر عند زياد، فلما

---

(١) أي تجرحون بيد وتعالجون بالأخرى. (٢) فساد سريرتكم.

(٣) الصعر: كناية عن التعالي والتكبر، وهو في الأصل إلفات الخد تهاونًا بالمنظور.

رآه قال: «مرحبًا أبا عبد الرحمٰن، حربٌ أيام الحرب، وحربٌ وقد سالم الناس! على أهلها تجني بَرَاقِش»[١]. فقال حجر: «ما خَلعْتُ طاعةً، ولا فارقت جماعةً، وإني على بيعتي». فأمر به إلى السجن، فلما وَلّى قال زياد: واللّهِ لأحرِّضَنَّ على قَطْع خَيْط رقبته. وطلب أصحابه.

فخرج عمرو بن الحمق حتّى أتى الموصل ومعه رفاعة بن شَدّاد، فاختفيا بجبل هناك، فرُفع خبرهما إلى عامل الموصل، وهو عبد الرحمٰن بن عبد الله عثمان الثقفي، ويعرف بابن أُم الحكم وهو ابن أُخت معاوية؛ فسار إليهما فخرجا إليه، وكان عمرو قد اسْتَسْقَى بطنُه، فأُمسِك، وركب رِفاعةُ فرسه وحَملَ على القوم، فأفرجوا له، فنجا، وكتب عامل الموصل إلى معاوية بخبر عمرو بن الحمِق، فكتب إليه معاوية: «إنه يزعمُ أنه طعن عثمان تسع طعنات بمشَاقِص[٢] معه، فاطعنه كما طعن عثمان». فطعنه فمات في الأُولى منها أو الثانية.

وجدّ زيّاد في طلب أصحاب حُجر، فهربوا منه، وأخذ من قدر عليه منهم، فاجتمع له اثنا عشر رجلًا في السجن.

ثم دعا رؤساء الأرباع يومئذ، وهم عمرو بن حريث على ربْع أهل المدينة، وخالد بن عُرْفُطَة على ربع تميم وهَمْدَان، وقيس بن الوليد على ربع رَبيعة وكِندة، وأبو بُرْدَة بن أبي موسى على ربع مَذْحج وأسد، فشهد هؤلاء أن حُجر بن عدي جمع الجموع، وأظهر شتم الخليفة، ودعا إلى حربه، وزعم أن هذا الأمر لا يصلحُ إلا في آل أبي طالب، وأنه وَثَب بالمِصْر وأخرج عامل أمير المؤمنين، وأظهر عذر أبي تراب والترحُّمَ عَلَيه والبراءة من عدوه وأهل حزبه، وشهدوا أن هؤلاء النفر الذين معه هم رؤُوس أصحابه على مثل رأيه وأمره.

ونظر زيادٌ في شهادة الشهود فقال: إني أحب أن يكونوا أكثر من أربعة، فدعا الناسَ ليشهدوا فشهد إسحاق وموسى ابنا طلحة بن عبيد الله، والمنذر بن الزبير، وعُمارة بن عقبة بن أبي مُعَيط، وعمر بن سعد بن أبي وَقّاص[٣] وغيرهم.

---

(١) راجع المثال برواية أخرى في مجمع الأمثال ج٢ ص١٤ رقم ٢٤٧٢.

(٢) مفردها مشقص: وهو السهم بنصل عريض.

(٣) الذي أشهد الناس على أنه أول من رمى على الحسين سبط رسول الله ﷺ وأهل بيته بكربلاء.

وكتب في الشهود شُرَيْح بن الحارث القاضي وشُرَيْح بن هَانىء، فكان شُريح بن هانىء يقول: ما شهدت[١].

ثم دفع زيادُ حُجر بن عدي الكندي وأصحابه، وهم الأرْقَم بن عبد الله الكندي، وشريك بن شَدّاد الحضرمي، وصَيفي بن فَسِيل الشيباني، وقَبيصة بن ضُبَيْعة العبسي، وكريم بن عفيف الخثعمي وعاصم بن عَوف البَجلي، وَورْقَاء بن سُمَي البَجَلي، وكدام بن حَيّان، وعبد الرحمٰن بن حسان؛ العنْزيان التميميان، ومحرز بن شهاب التميمي، وعبد الله بن حويّة السعدي التميمي، إلى وائل بن حُجْر الحضرمي وكثيِّر بن شهاب، وأمرهما أن يسيرا بهم إلى الشام، فلحقهم شُرَيْح بن هَانِىء بعد مسيرهم، وأعطى وَائِلاً كتابًا وقال: أبلغه أميرَ المؤمنين.

فساروا حتّى انتهوا إلى مَرْج عَذْراء[٢] بالقرب من دِمشق، وأتبعهم زياد برجلين وهما عتبة بن الأخنس من سعد بن بكر، وسعد بن نمران الهمداني، فكملوا أربعة عشر رجلاً، فلما انتهوا إلى مرج عَذْراء بعث معاوية إلى وائل بن حُجر، وكثير بن شهاب فأدخلهما، وأخذ كتابهما فقرأه، ثم قرأ كتاب شُرَيْح فإذا فيه: «بلغني أن زيادًا كتب شهادتي، وإن شهادتي على حُجر أنه ممن يقيم الصلاة ويُؤْتي الزكاة ويديمُ الحج والعمرة، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، حرامُ الدمِ والمالِ، فإن شئت فاْقتله، وإن شئت فدعه».

فقال معاوية: ما أرى هذا إلا قد أخرج نفسه من شهادتكم.

فقام يزيد بن أَسَد البَجَلي فاْستوهبه اْبني عمه وهما عاصم ووَرْقاء.

وكان جرير بن عبد الله البَجَلي قد كتب بتزكيتهما وبراءتهما فأطلقهما معاوية، وشفع وائل بن حجر في الأرقم فتركه له، وشفع ابن الأعور السُّلَمي في عُتبة فتركه له، وشفع حُمرة[٣] بن مالك الهمداني في سعد بن تمران فوهبه له، وشفع حبيب بن مسلمة في عبد الله بن حوية فتركه له، وقام مالك بن هُبيرة السَّكُوني، فقال: دع لي ابن عمي حُجرًا، فقال: «هو رأسُ القومِ، وأخاف إن خلَّيتُ سبيله أن يفسدَ عليَّ

---

(١) راجع الطبري جـ٥ ص٢٧٢، وفي الثابت أن شريحًا القاضي شهد أن حجرًا بن عدي كان صوّامًا قوّامًا.

(٢) مرج عذراء: قرية بغوطة دمشق، أول قرية تلي الجبل الذي يشرف على الغوطة، فيها منارة، فتحها حجر بن عدي وبها قتله معاوية. راجع مادة عذراء في معجم ياقوت جـ٤ ص٩١.

(٣) ابن مالك بن ذي الشعار بن مالك بن منبه الهمداني.

مصره، فأحتاجَ أن أُشخصك إليه بالعراق!» فقال: «واللّهِ ما أنصفتني يا معاوية! قاتلتُ معك ٱبن عمك يوم صِفّين حتَّى ظَفرتَ وعلا كَعْبك، ولم تخفِ الدوائر، ثم سألتُك ٱبن عمي فمنعتني إياه». ثم انصرف فجلس في بيته.

فبعث معاوية هُدْبة بن فياض القُضاعي، والحصين بن عبد الله الكلابي وأبا شريف البدّي إلى حُجْر وأصحابه؛ ليقتلوا من أُمروا بقتله، فأتَوْهم عند المساء، فلما رأى الخَثْعَمي[1] أحدهم أعور قال: يقتل نصفنا ويترك نصفنا! فكان كذلك، وعرضوا عليهم قبل القتل البراءةَ من عليٍّ ولَعْنَه ويتركوهم، فٱمتنعوا من ذلك، فحفرت القبور وأحضرت الأكفان.

فقام حُجْر بن عدِيّ وأصحابه يصلُّون عامَّة الليل، فلما كان من الغد قُدِّموا للقتل، فقال لهم حُجر: ٱتركوني حتى أتوضأ وأُصلي فإني ما توضأت إلاَّ صلَّيْت. فتركوه، فصلَّى ثم ٱنصرف، وقال: واللّهِ ما صلَّيْتُ صلاةً قطُّ أخفَّ منها، ولولا أن تظنوا بي جزعًا من الموت لٱستكثرت منها. ثم قال: «اللهم إنا نستعديك على أُمتنا، فإن أهل الكوفة شهدوا علَينا، وإن أهل الشام يقتلوننا، أمَا واللّهِ لَئن قتلتموني بها إنِّي لأولُ فارسٍ من المسلمين هلك في واديها، وأولُ رجل من المسلمين نبحته كلابها»[2]. ثم مشى إليه هُدْبة بن فياض بالسيف، فٱرتعد، فقالوا له: زعمت أنك لا تجزع من الموت فابرأ من صاحبك وندعك. فقال: «وما لي لا أجزعُ وأرى قبرًا محفورًا وكفنًا منشورًا وسيفًا مشهورًا. وإني والله إن جزعتُ من القتل لا أقول ما يُسخط الرب». فقتلوه وقتلوا خمسة[3].

فقال عبد الرحمٰن بن حسان وكريم الخثعمي: ابعثوا بنا إلى أمير المؤمنين فنحن نقول في هذا الرجل مثل مقالته. فاستأذنوا معاوية فيهما، فأذن بإحضارهما، فلما دخلوا عليه قال كَرِيم: «اللّهَ اللّهَ يا معاوية! فإنك منقول من هذه الدار الزائلة إلى الدار الآخرة الدائمة، ثم مسؤول عما أردت بسفك دمائنا. فقال: ما تقول في عليٍّ؟ قال: أقول فيه قولك. قال: أتَبْرَأُ من دينه الذي يدينُ الله به؟ فسكت، وقام شَمر بن عبد الله من بني قحَافَة بن خَثْعَم، فاستوهبه إيّاه، فوهبه له علَى ألاَّ يدخل الكوفة.

---

(١) كريم بن عفيف الخثعمي.

(٢) أراد أنه هو أول من فتحها ـ مرج عذراء، وأول المسلمين الذين قتلوا فيها.

(٣) والذين قتلوا مع حجر رحمه الله تعالى: شريك بن شداد الحضرمي، وصيفي بن مسيل الشيباني، وقبيصة بن ضبيعة العبسي، وكدام بن حيان، ومحمد بن شهاب التميمي. رحمهم الله.

ثم قال لعبد الرحمٰن: ما تقول في عليٍّ يا أخا ربيعة؟ قال: دعني لا تسألني فهو خير لك. قال: والله لا أدَعُك. قال: «أشهد أنه كان من الذاكرين الله كثيرًا، من الآمرين بالحق والقائمين بالقِسط والعافين عن الناس رضي الله عنه». قال: فما تقول في عثمان؟ قال: هو أول من فتح أبواب الظلم، وغَلَّق أبواب الحق. قال: قتلتَ نفسك. قال: بل إياك قتلتُ ولا ربيعة بالوادي، يعني ليشفعوا فيه، فردَّه إلى زياد وأمره أن يقتله شرَّ قِتْلة، فدفنه حيًا[1].

وكان عدة من قتل سبعة وهم: حُجر بن عدي، وشريك بن شَدّاد، وصَيْفي بن فَسِيل، وقَبيصة بن ضُبَيْعة، ومحرز بن شهاب، وكدام بن حيان، وعبد الرحمٰن بن حسّان الذي دُفِن حيًّا.

قال: وأما مالك بن هُبَيْرة السَّكُوني حين لم يُشَفِّعْه معاوية في حُجر، فإنه جمع قومه وسار بهم إلى عذْراء ليخلِّص حجرًا وأصحابه، فلقيه قَتَلَتُهم، فلما رأوه علموا أنه جاء ليخلِّص حُجرًا، فقال لهم: ما وراءكم؟ قالوا: قد تاب القومُ وجئنا لنخبرَ أمير المؤمنين. فسكت وسار إلى عذراء فلقيه بعض من جاء منها فأخبره بقتل القوم، فأرسل الخيلَ في قَتَلَتهم فلم يدركوهم. ودخلوا على معاوية فأخبروه، فقال لهم: إنما هي حرارةُ يجدها في نفسه، فكأنها قد طَفِئت. وعاد مالك إلى بيته ولم يأتِ معاوية، فلما كان الليل أرسل إليه معاوية بمائة ألف درهم، وقال: «ما منعني أن أُشَفِّعك إلاَّ خوف أن تُعيدوا لنا حرْبًا، فيكون في ذلك من البلاء على المسلمين ما هو أعظمُ من قتل حُجر». فأخذها وطابت نفسه.

قال: ولما بلغ الحسنَ البصريّ قتلُ حُجر وأصحابه قال: أصَلّوا عليهم وكفنوهم ودفنوهم واستقبلوا بهم القبلة؟ قالوا: نعم. قال: حَجوهم وربِّ الكعبة!»[2].

قال: ولمّا بلغ خبَرُ حُجر عائشة رضي الله عنها، أرسلتْ عبد الرحمٰن بن الحارث إلى معاوية فيه وفي أصحابه، فقدم علَيه وقد قتلهم، فقال له عبد الرحمٰن: أين غابَ عنك حلمُ أبي سفيان؟ قال: «حين غاب عنّي مِثْلُك من حُلَماء قومي، وحمّلني ابن سُمَيَّة فاحتملت!».

---

(١) فيكون مجموع الذين قتلوا مع حجر بن عدي سبعة رحمهم الله تعالى.

(٢) راجع النص في الكامل لابن الأثير جـ٣ ص٤٨٦، وأما ما أراده الحسن البصري فمداه أن حجر وأصحابه رحمهم الله غلبوا قتلتهم بالبينة، لأن قتلتهم بعد أن كفنوهم واستقبلوا بهم القبلة قد صدعوا بإسلامهم، ندم المسلم حرام.

وقالت عائشة: «لولا أنَّا لم نُغيِّر شيئًا إلا صارت بنا الأُمور إلى ما هو أشدُّ منه لغيّرنا قَتل حُجر! أما واللّهِ إنْ كان ما علِمْتُ لمسلمًا حجَّاجًا مُعْتمرًا!».

وقال الحسن البصري رحمه الله: «أربعُ خصال كُنَّ في معاوية، لو لم تكن فيه إلاّ واحدةٌ منهن لكانت مُوبِقةً: انتِزاؤه[1] علَى هذه الأمَّة بالسيف، حتى أخذ الأمر عن غير مَشُورة، وفيهم بقايا الصحابة وذَوو الفضيلة، واستخلافه ابنَه بعده سِكِّيرًا خِمِّيرًا يلبسُ الحرير ويضرب بالطَّنابير، وادِّعاؤه زيادًا، وقد قال رسول الله ﷺ: «الولدُ للفراش وللعاهر الحَجر» وقتْلهُ حُجْرًا وأصحابَ حُجْر، فيا وَيْلاً له من حُجر وأصحابِ حُجْر!».

قيل: وكان الناس يقولون: أول ذُلٍّ دخل الكوفة موت الحسن بن علي، وقتل حُجرْ بن عدِيّ، ودعوة زياد.

وقالت هند بنت زيد الأنصارية ترثي حُجرًا وكانت تتشيع: [من الوافر]

تَـرَفَّـع أيّـهـا الـقـمَـرُ الـمُـنـيـرُ ... تـبَـصَّـرْ هَـلْ تـرى حُـجْـرًا يَـسـيـرُ
يَـسـيـرُ إلـى مُـعـاوِيَـةَ بْـنَ حَـرْبٍ ... لِـيَـقْـتُـلَـه كـمـا زَعَـم الأمـيـرُ
تَـجَـبَّـرتِ الـجَـبـابـرُ بـعـد حُـجْـر ... وطـابَ لـهـا الـخَـوَرْنَـقُ والـسَّـديـرُ[2]
وأصـبـحـت الـبـلادُ لـه مُـحُـولاً[3] ... كـأن لـم يُـحْـيِـهـا مُـزْنٌ[4] مَـطـيـر
ألا يـا حُـجْـر حُـجْـرُ بَـنِـي عَـدِيٍّ ... تَـلَـقَّـتْـك الـسـلامـةُ والـسـرورُ
أخـافُ عـلـيـك مـا أرْدَى عَـدِيًّـا ... وشَـيْـخًـا فـي دِمَـشْـقَ لـه زَئـيـرُ
فـإن يَـهْـلِـكْ فـكـل زَعـيـمِ قَـوْمٍ ... مِـن الـدنـيـا إلـى هُـلْـكٍ يَـصـيـرُ

وقد قيل في قَتل حُجر غير ما تقدم، وهو أن زيادًا خطب يوم جُمعة فأطال الخطبة وأخَّر الصلاة، فقال له حُجر بن عدي: الصلاة. فمضى في خطبته فقال له: الصلاة. فمضى في خطبته، فلما خَشِي حُجر فَوْتَ الصلاة ضرب بيده إلى كَفٍّ من حصى، وقال إلى الصلاة وقام الناس معه، فلما رأى زيادٌ ذلك نزل فصلَّى بالناس، وكتب إلى معاوية وكبر[5] عليه، فكتب إليه معاوية ليشُدَّه في الحديد ويرسله إليْه،

---

(١) توثبه.

(٢) الخورنق والسدير قصران بناحية الحيرة، وأرادت أن قاتليه قد طاب لهم بعده سكنى القصور فليس من يذكرهم قول الله تعالى.

(٣) المحل: القحط والجفاف.

(٤) مفردها مزنة وهي الغيمة الماطرة.

(٥) أي جعله أكبر مما هو عليه.

فلمَّا أراد أَخْذَهُ قام قومه ليمنعوه، فقال حجر: لا ولكن سمعًا وطاعة. فشُدّ في الحديد، وحُمل إلَى معاوية، فلما دخل عليه قال: السلامُ عليك يا أمير المؤمنين، فقال معاوية: «أأميرُ المؤمنين أنا؟ والله لأقتلنَّك ولا أستقيلك! أخرجوه فاضربوا عنقه!». فقال حُجر للذين يَلُونَ أمره: دعوني حتى أُصلّي ركعتين. فقالوا: فصلَّى ركعتين خَفَّفَ فيهما ثم قال: لولا أن تظنوا بي غير الذي أردت لأطلتهما، وقال لمن حضره من قومه: لا تطلقوا عني حديدًا ولا تغسلوا عني دمًا، فإني مُلاَقٍ معاوية غدًا على الجَادَّة[1]!». وضربت عنقه.. قال: فلقيتْ عائشة مُعاوية فقالت: أين كان حِلمك عن حُجر؟ فقال: لم يحضرني رُشْدٌ! وقال ابن سيرين: بلغنا أنَّ معاوية لما حضرتْه الوفاةُ جعل يقول: يومي منك يا حُجْرُ طويل!.

وحجّ بالناس في هذه السنة يزيد بن معاوية.

سنة اثنتين وخمسين:

كان فيها من الغزاة وأمر الخوارج ما قدمنا ذكره.

وحجّ بالناس في هذه السنة سعيد بن العاص.

سنة ثلاث وخمسين:

في هذه السنة توفي عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، على أحد الأقوال، وقيل بعد ذلك.

ذكر وفاة زياد ابن أبيه

كانت وفاته بالكوفة يوم الثلاثاء لأربع خَلَوْن من شهر رمضان سنة ثلاث وخمسين، واختلف في مولده، فقيل: ولد عام الهجرة، وقيل: قبل الهجرة، وقيل: ولد يوم بدر. وقال المدائني: ولد عام التاريخ.

وكان يكنى «أبا المغيرة» حكاه أبو عمر قال: وليست له صحبة ولا رواية، قال: وكان رجلاً عاقلاً في دنياه، داهية، خطيبًا، له قدر وجلالة عند أهل الدنيا[2].

قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: وكان زياد كتب إلى معاوية: «إني قد ضبطتُ لك العراق بشمالي، ويميني فارغة، فاشغلها بالحجاز» ففعل. فلما بلغ ذلك أهلَ الحجاز أتى نفرٌ منهم عبدَ الله بن عمر بن الخطاب! فذكروا ذلك له، فقال: ادعوا الله

---

(١) أراد الصراط يوم الحساب.

(٢) راجع الاستيعاب جـ١ ص٥٦٧.

عليه يكفيكموه. فاستقبل القبلة واستقبلوها، فدعوا ودعا، وكان من دعائه أنْ قال: اللهم اكْفِنَا يمينَ زياد! فخرجت طاعونة على إصبع يمينه، فمات منها[١].

فلما حضرته الوفاةُ دعا شُرَيْحًا القاضي فقال: قد حدث بي ما ترى، وقد أمرت بقطعها فأشرْ عَلَي. فقال شريح: إني أخشى أن يكون الأجَل قد دنا فتلقَى الله أجْذم[٢]، وقد قطعت يدك كراهية لقائه، أو أن يكون في الأجل تأْخير، فتعيشُ أجْذَم ويُعَيَّر ولدُك» فقال: لا أبيتُ والطاعونَ في سِجَاف[٣] واحد، وخرج شُريح من عنده فسأله الناس، فأخبرهم فلاموه، وقالوا: هلا أشرت بقطِّها؟ فقال: «المستشار مؤتمن»[٤]. وقيل أراد زياد قطعها، فلمّا رأى النار والمكَاوِيَ جزِع وتركها وقيل: تركها لما أشار عليه شُريْح.

ولمّا حضرته الوفاةُ قال له ابنه: هلاّ هيأْتُ لك ستين ثوبًا أكفنك بها، فقال: يا بُنيَّ قد دنا من أبيك لباسٌ خيرٌ من لباسه أو سلبٌ سريع! فمات ودفن بالثُّوَيَّة[٥] إلى جانب الكوفة، وهو موضع فيه مقبرة الكوفة.

فلما بلغ موته ابن عمر قال: «اذهبْ ابن سُميَّة! لا الآخرةَ أدركتَ، ولا الدنيا أبقيت عليك!».

قال: وكان زيادٌ فيه حمرة، وفي عينه اليمنى انكسار، أبيض اللحية مخروطها، عليه قميص ربما رقَّعه.

وفيها مات الربيع بن زياد الحارثي عامل خراسان قبل وفاة زياد، وكان سبب موته أنه سخط قتْل حُجر بن عدي، حتى إنه قال: «لا تزال العربُ تُقتل بعده صَبْرًا! ولو نَفَرتْ عند قتله لم يُقتل رجُلٌ منهم صَبْرًا، ولكنها أقرّتْ فذَلّت!» ثم مكث بعد هذا الكلام جمعة، ثم خرج يوم الجمعة فقال: «أيها الناس، إني قد ملِلْتُ الحياة، وإنِّي داعٍ بدَعْوة فأمِّنوا». ثم رفع يدَيْه بعد الصلاة فقال: اللهمَّ إن كان لي عندك خَير فاقبضْني إليك عاجلًا! وأمَّنِ الناس، ثم خرج، فما توارت ثيابه حتى سقط، وحُمل إلى بيته، واستخلف ابنه عبد الله، ومات من يومه، ثم مات ابنه بعده بشهرين،

---

(١) راجع الطبري في تاريخه ج٤ ص٢١٤.
(٢) الجذام مرض طاعن في الأطراف فتهزله.
(٣) الغطاء والسجاف بمعنى.
(٤) موضع قريب من الكوفة، وقيل خربية إلى جانب الحيرة. راجع ياقوت ج٢ ص٨٧.
(٥) راجعه باختلاف عند ابن الأثير ج٣ ص٤٩٥.

واستخلف خُلَيد بن يَرْبُوع الحَنفي، فأقرَّه زياد، ولما مات زياد كان على البصرة سَمُرة بن جُندب، وعلى الكوفة عبد الله بن خالد بن أسِيد، فأقرَّ معاوية سَمُرةَ على البصرة ثمانية عشر شهرًا، وقيل ستة أشهر ثم عزله، فقال سمرة: «لعن الله معاوية! والله لو أطعت الله كما أطعته ما عذبني أبدًا!».

وحجّ بالناس في هذه السنة سعيد بن العاص.

سنة أربع وخمسين:

ذكر عزل سعيد بن العاص عن المدينة واستعمال مروان

في هذه السنة عزل معاوية سعيد بن العاص عن المدينة، واستعمل مروان بن الحَكَم.

وكان سبب ذلك أن معاوية كتب إلى سعيد بن العاص أن يهدمَ دار مَرْوان، ويقبضَ أمواله كلَّها فيجعلَها صافية[1] ويقبض منه فَدك، وكان وهبها له، فراجعه سعيد في ذلك، فأعاد معاوية الكتاب بذلك، فلم يفعل سعيد، ووضع الكتابين عنده، فعزله معاوية وولّى مروان، وكتب إليه يأمره بقبض أموالِ سعيد وهدم داره فأخذ الفَعَلَةَ وسار إلى دار سعيد ليهدمَها، فقال له سعيد: يا أبا عبد الملك أتهدمُ داري؟ قال: نعم كتب إليّ أمير المؤمنين ولو كتب إليك في هدم داري لفعلت. فقال: ما كنت لأفعل، قال: بَلَى والله قال: كلاَّ. وقال سعيد لغلامه: ائتني بكتابَيْ معاوية، فجاء بالكتابين، فلما رآهما مروان قال: كتبَ إليك فلم تفعل، ولم تُعلمني! فقال سعيد: ما كنت لأمُنَّ عليك وإنما أراد معاوية ليحرِّضَ بيننا! فقال مروان: واللّهِ أنت خيرٌ مني! وعاد ولم يهدم داره.

وكتب سعيد إلى معاوية: «العجبُ لما صنع أمير المؤمنين بنا في قرابتنا، إنه يُضغن بعضنا على بعض، فأمير المؤمنين في حلمه وصبره على ما يكره من الأخبثين وعفوه، وإدخالِه القطيعةَ بيننا والشَّحْناء، وتوارثَ الأولادِ ذلك، فوالله لو لم نكن بني أب واحد إلاَّ لما جمعنا الله عليه من نصرة الخليفة المظلوم، وباجتماع كلمتنا لكان حقًّا عليك أن ترعى ذلك!» فكتب إليه معاوية يعتذر من ذلك ويتنصّل، وأنه عائد إلى أحسن ما يعهده.

---

(١) في الأصل أن يؤخذ من الحال الحقوق الشرعية.

وقدم سعيد على معاوية فسأله عن مروان فأثنى عليه خيرًا.

وفي هذه السنة عزل معاوية سَمُرة بن جُنْدب عن البصرة، واستعمل عليها عبد الله بن عمرو بن غَيْلان ستة أشهر.

ذكر استعمال عبيد الله بن زياد على خراسان ومسيره إلى جبال بُخارَى

وفي هذه السنة استعمل معاوية عُبَيْد الله بن زياد على خُراسان وسبب ذلك أنه قدِم علَيه بعد وفاة أبيه، فسأله معاوية عن عُمال أبيه، فأخبره بهم، فقال: لو استعملك أبوك لاستعملتك. فقال عبيد الله: أَنْشُدُك الله أن يقولها لي أحد بعدك «لو استعملك أبوك وعمُّك استعملتك». فولاه خُراسان وكان عمره خمسًا وعشرين سنة.

فسار إليها، وقطع النهر إلى جبال بُخارَى على الإبل، فكان أوَّلَ من قطع جبال بُخارَى في جَيش، ففتح رَامَنِي[١] ونَسَف[٢] وبِيكَنْد[٣]، وهي من بُخارَى، ومن ثَمَّ أصاب البُخارية وغنم منهم غنائمَ كثيرة، ولما لَقِيَ الترك وهزمهم، كان مع ملكهم زوجته، فأعجلوها عن لبس خفيها، فلبست أحدهما وبقي الآخر، فأخذه المسلمون فقُوِّم بمائتي ألف درهم. وظهر منه بأس شديد.

وحجّ بالنّاس في هذه السنة مَرْوَان بن الحكم وكان على المدينة وكان على الكوفة عبد الله بن خالد، وقيل: الضحاك بن قيس وعلى البصرة عبد الله بن عمرو بن غيلان، والله أعلم.

سنة خمس وخمسين:

ذكر ولاية عبيد الله بن زياد على البصرة

في هذه السنة عزل معاوية عبد الله بن عمرو بن غيلان عن البصرة، وولاَّها عُبيد الله بن زياد.

وسبب ذلك أن عبد الله خطب على منبر البصرة، فحصبه رجل من بني ضَبّة،

---

(١) رَامَني: قرية على فرسخين من بخارى. راجع ياقوت ج٣ ص١٧.

(٢) نَسَف: مدينة كبيرة بين جيحون وسمرقند، قريبة من بخارى وبلخ. راجع معجم البلدان ج٥ ص٢٨٥.

(٣) بِيكَند: بلدة بين بخارى وجيحون. راجع ياقوت ج١ ص٥٣٣.

فقطع يده، فأتاه بنو ضَبّة وقالوا: «إن صاحبنا جَنَى ما جنى وقد عاقبته، ولا نأْمَنُ أن يبلغَ خبره أمير المؤمنين فيعاقِب عُقوبةً تَعُمُّ، فاكتبْ لنا كتابًا إلى أمير المؤمنين، يخرج به أحدنا إليه، تخبره أنك قطعته على شُبْهَة وأمرٍ لم يصحّ» فكتب لهم، فلما كان رأس السنة توجّه عبد الله إلى معاوية، ووَافاه الضَبيّون بالكتاب، وادّعوْا أنه قطع صاحبهم ظلمًا، فلما رأى معاوية الكتاب قال: «أمّا القَوَدُ من عُمّالي فلا سبيلَ إليه، ولكنّي أدي صاحِبَكم من بيت المال». وعزل عبدَ الله عن البصرة، واستعمل ابن زياد عليها، فولى ابنُ زياد على خُراسان أسلمَ بن زرعة الكلابي.

وفيها عزل معاوية عبد الله بن خالد عن الكوفة، وولاّها الضحاك بن قيس، وقيل: كان قبل ذلك كما تقدم.

وحجّ بالناس في هذه السنة مروان بن الحَكم وهو أمير المدينة.

سنة ست وخمسين:

ذكر البيعة ليزيد بن معاوية بولاية العهد

في هذه السنة بايعَ الناسُ يزيد بن معاوية بولاية العهد، قال: وكان ابتداءُ ذلك وأوّلُه أن مُعاوية لمّا أراد أن يعزلَ المغيرة بن شعبة عن الكوفة، ويستعملَ سَعيد بن العاص عليها، فبلغه ذلك، فشخص إلى معاوية ليستعفيه حتى تظهرَ للناس كراهيتُه للولاية، فجاء إلى يزيد وقال له: «إنه قد ذهب أعيانُ أصحابِ النبي ﷺ وكبَراءُ قريش، وإنّما بقي أبناؤهم، وأنت من أفضلهم، وأحسنهم رَأْيًا، وأعلمِهم بالسياسة، وإني لا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقِد لك البيعة». قال: أوَترى ذلك يتمُّ؟ قال: نعم فدخل يزيد على أبيه وأخبره بما قال المُغِيرة، فلما حضر المغيرة عند مُعاوية قال له معاوية: ما يقولُ يزيد؟ فقال: «يا أمير المؤمنين قد رأيتَ ما كان من سفك الدماء، والاختلافِ بعد عُثمان، وفي يزيدَ مِنك خلَفٌ، فاعقدْ البيعةَ له، فإنْ حَدث بك حدَثٌ كان كَهفًا للناس، ولا تُسفَكُ الدماءُ ولا تكونُ فتنةٌ، قال: ومن لي بهذا؟ قال: «أنا أكفيك أهل الكوفة، ويكفيك زيادٌ أهل البصرة وليس بعد هذين المِصْرَيْن من يخالفك». قال: «فارجعْ إلى عملك وتحدث مع من تثقُ إليه في ذلك وترَى ونَرَى»[1]. فودّعه ورجع إلى أصحابه فقال: لقد وضعت رجْلَ معاوية في غَرْز[2] بعيد الغاية على أمة محمد ﷺ.

(١) انظر الكامل في التاريخ جـ٣ ص٥٠٣.

(٢) ركاب كل مركوب من خيل ونياق.

ورجع المغيرة، فلمّا قدم الكوفة ذاكر من يثقُ إليه من شِيعة معاوية فأجابوا إلى بَيعته، فأوفد منهم عشرة، ويقال أكثر، وأعطاهم ثلاثين ألف درهم، وجعل عليهم ابنه موسى، فقدموا علَى معاوية وزينوا له بَيْعة يزيد، ودعَوْه إلى عَقْدها، فقال: لا تعجلوا بإظهار هذا وكونوا على رأيكم، ثم قال لموسى، بكم اشترى أبوكَ مِنْ هؤلاء دينهم؟ قال: بثلاثين ألفًا. فقال: لقد هان علَيهم دِينَهمْ.

وقيل: أرسل أربعين رجلًا، وجعل عليهم ابْنه عُرْوَة بن المغيرة، فلما دخلوا على معاوية قاموا خطباء فقالوا: إنما أشخصنا إليك النظر لأُمة محمد ﷺ. وقالوا: «يا أميرَ المؤمنين، كبرتْ سنُّك، وخفْنا انتشار الحبل[١]، فانصب لنا علَمًا وحُدَّ لنا حَدًّا ننتهي إليه». فقال أشيروا عليَّ. فقالوا: نشير بيزيد ابن أمير المؤمنين، فقال: أوَ قد رضِيتموه؟ قالوا: نعم، قال: وذاك رأْيكم؟ قالوا: نَعَمْ ورأْيُ مَن ورَاءَنَا. فقال معاوية لعُروَة سِرًّا عنهم: بكم اشترى أبوكَ مِن هؤلاء دينهم؟ قال: بأربعمائة دينار. قال: لقد وجد دينهم عندهم رخيصًا، وقال لهم: «ننظرُ ما قدمتم له، ويقضي الله تعالى ما أراد، والأناةُ خيرٌ من العجلة». فرجعوا وقد قَوِيَ عزم معاوية على البَيعة ليزيد.

ذكر مراسلة معاوية زيادًا في شأن البيعة وما دار بين زياد وبين عُبَيْد بن كعب النُمَيْري من الرأي وما اتفقا عليه

قال: ولمّا قوِيَ عزم مُعاوية علَى البَيعة ليزيد، كتب إلى زياد ابن أبيه يستشيره، وزياد إذ ذاك يلي البصرة، فلما ورد عليه كتاب معاوية أحضر عبيد بن كعب النميري وقال له: «إن لكلِّ مستشير ثِقَة، ولكل سِرّ مُستَوْدَع، وإن الناس قد أبْدعَ[٢] بهم خَصلتان: إذاعةُ السر وإخراجُ النصيحة إلى غير أهلها، وليس موضعُ السر إلاَّ أحد رجلَين: رجلُ آخرةٍ يرجو ثوابًا، ورجلُ دنيا له شرفٌ في نفسه وعقلٌ يصون حَسَبه، وقد خَبَرتهما منك، وقد دعوتك إلَى أمر أبهمت عليه بطونُ الصحف، إن أميرَ المؤمنين كتب إليَّ يستشيرني في كذا وكذا، وإنه يتخوّفُ نفرةَ الناس ويرجو طاعتَهم، وعلاقةُ أمرِ الإسلام وضمانِه عظيمٌ، ويزيدُ صاحبُ رَسْلة[٣] وتهاوُن، مع ما قد أولِع به من حُبِّ الصيد فالْقَ أميرَ المؤمنين وأدِّ إلَيه عنِّي فَعَلاتِ يزيد، وقل له رُوَيْدَكَ بالأمر

(١) أراد تبعثره. (٢) أراد سرى واستشرى.

(٣) أي التارك الأمور على رسلها.

وأحرى أن يتمَّ لك، ولا تعجّلْ فإن دَرَكًا في تأخيرٍ خيرٌ من فَوْت في عجلة». فقال له عبيد: أفلا غير هذا؟ قال: وما هو؟ قال: «لا تُفسدْ علَى معاوية رأيَه، ولا تُبغِّض إليه ابنه، وألقى أنا يزيد وأُخبره أن أمير المؤمنين كتب إلَيك يستشيرك في البيعة له، وأنك تتخوّفُ خلافَ الناس، لهنَاتٍ ينقمونها علَيه، وأنك ترى له ترك ما يُنْقَمُ علَيه؛ لتستحكمَ له الحجّةُ على الناس ويَتمَّ ما يريد، فتكون قد نصحتَ أمير المؤمنين، وسلمْتَ مما يخافُ من أمر الناس». فقال زياد: «لقد رميت الأمرَ بحجره! اشْخَصْ علَى بركة الله، فإن أصبْت فما لا ينكرُ، وإن يكن خطأ فغير مستغَشٍّ، ونقول ما ترى ويقضي الله بغيب ما يعلم[1].

فقدِم عبيد على يزيد، فذكر ذلك له، فكَفَّ عن كثير مما كان يصنعُ.

وكتب زياد إلى معاوية يشير عليه بالتُّؤدة وألاّ يعجلَ. فتأخر الأمر حتَّى مات زياد ثم عزم معاوية على البيعة.

ذكر إرسال معاوية إلى مروان بن الحكم وأمر البيْعة وإنكار أهل المدينة ذلك وما وقع بسببه

قال: ولما عزم معاويةُ على البيعة ليزيد أرسل إلى عبد الله بن عمر بمائة ألف درْهم، فقبلها، فلما ذكر البيعة ليزيد قال ابن عمر رضي الله عنه: «هذا أراد؟ إن ديني إذًا عندي لرخيصٌ!» وامتنع.

ثم كتب معاوية بعد ذلك إلَى مَرْوانِ بن الحكم، وهو علَى المدينة يومئذ، يقول: «إني قد كبِرَت سِنِّي، ورقَّ عظمي، وخشيتُ الاختلافَ على الأمة بعدي، وقد رأيت أن أتخيرَ لهم من يقومُ بعدي، وكرهت أن أقطعَ أمرًا دون مشورةِ مَنْ عندك، فاعْرِضْ ذلك عليهم، وأعلمني بالذي يردُّون عليك».

فقام مروان في الناس وأخبرهم، فقال الناس: أصاب ووُفِّق، وقد أحببنا أن يتخيّر لنا فلا يألو[2]. فكتب مَرْوان إلى معاوية بذلك، فأعاد عليه الجواب بذكر يزيد، فقام مروان في الناس فقال: إن أمير المؤمنين قد اختار لكم فلم يألُ، وقد استخلف ابنه يزيد بعده.

فقام عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما فقال: «كذبتَ والله يا

---

(١) راجع النص بزيادة عند ابن الأثير جـ٣ ص٥٠٥.

(٢) يقصر.

مروان، وكذب معاوية، ما الخِيَارُ أردتما لأمّة محمد ﷺ، ولكنكم أردتم أن تجعلوها هِرَقْليّة، كلما مات هِرَقْل قام هرقل!». فقال مروان: هذا الذي أنزل الله فيه ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ [الأحقاف: ١٧] الآية. فسمعتْ عائشة رضي الله عنها مقالته، فقامت من وراء الحجاب وقالت: يا مروان! فأنصت الناس وأقبل مروان بوجهه، فقالت: «إن القائلَ لعبد الرحمٰن إنه نزل فيه القرآن كذب، والله ما هو فيه، ولكنه فلان ابن فلان، ولكنك أنت فَضَضٌ[1] من لعنة نبي الله عليه الصلاة والسلام».

وقام الحسين بن علي رضي الله عنهما فأنكر ذلك، وفعل مثله عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير.

فكتب مروان إلى معاوية بذلك، فأوجب ذلك مسيره إلى الحجاز بعد أن أخذ بيعة أهل العراق والشام!.

ذكر من وفد إلى معاوية من أهل الأمصار في شأن البيعة. وما تكلم به بعضهم وبيعة أهل العراق والشام ليزيد

قال: وكان معاوية قد كتب إلى عمّاله بتقريظ يزيد ووصفه، وأن يُوفدوا إليه الوفودَ من الأمصار، فكان فيمن أتاه محمد بن عمرو بن حزم من المدينة، والأحنف بن قيس في وفد أهل البصرة، فقال محمد بن عمرو لمعاوية: إن كلَّ راعٍ مسؤولٌ عن رعيته فانظرْ مَن تُولِّي أمر أمة محمد ﷺ، فأخذ معاوية يهتزُ حتى جعلَ يتنفَّس في يوم شاتٍ، ثم وَصَله وصرفه[2].

وأمر معاويةُ الأحنفَ بن قيس أن يدخلَ على يزيد فدخل عليه، فلما خرج من عنده قال له: كيف رأيت ابن أخيك؟ قال: رأيت شبابًا ونشاطًا وجلدًا ومزاحًا.

ثم إن معاوية قال للضحاك بن قيس الفهري[3] لما اجتمع الوفود عنده: إني

---

(١) فضض: بقية. ويذكر أن رسول الله ﷺ رأى الحكم بن أبي العاص يقود الناقة ومروان يسرقها، فقال: لعن الله القائد والسائق. وكان رسول الله ﷺ قد طرد الحكم وكان معه ابنه مروان طفلاً إلى الطائف وعثمان أعاده في خلافته، مخالفًا بذلك كلاً من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

(٢) النص باختلاف عند ابن عبد ربه في العقد الفريد جـ٤ ص٣٦٩.

(٣) ابن خالد الفهري القرشي، كنيته أبو أمية، شهد صفين مع معاوية فولاه الكوفة بعد موت زياد، ثم تولى دمشق وصلى على معاوية يوم دفنه. وقد دعا ببيعة ابن الزبير عندما خلع معاوية بن يزيد نفسه. وقد قتل في مرج راهط سنة ٦٥هـ بعد استتباب الأمر لمروان بن الحكم. راجع الامل في حوادث سنة ٦٤هـ، جـ٤ ص١٢٣ وما بعدها.

متكلم فإذا سكتُّ فكن أنت الذي تدعو إلى بيعة يزيد وتحثني عليها، فلما جلس معاوية للناس تكلّم فعظّم أمر الإسلام وحرمةَ الخلافةِ وحقَّها، وما أمر الله تعالى به من طاعة ولاةِ الأمر، ثم ذكر يزيد وفضله وعلمه بالسياسة، وعرض ببيعته.

فعارضه الضحاك، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «يا أميرَ المؤمنين، إنه لا بد للناس من والٍ بعدك وقد بلونا الجماعة والألفة فوجدناهما أحقنُ للدماء، وأصلحُ للدهماء[1]، وآمنُ للسبيل، وخيرًا في العافية، والأيام عوج[2] رواجع، واللّهِ كل يوم في شأن، ويزيد ابن أمير المؤمنين في حسن هَدْيه وقَصْد[3] سيرته علَى ما علمت، وهو من أفضلنا علمًا وحلمًا، وأبعدنا رأيًا، فولِّه عهدك، واجعله لنا علَمًا بعدك، ومَفْزَعًا نلجأُ إليه ونسكنُ إلى ظله».. وتكلم عمرو بن سعيد الأشدق بنحو من ذلك.

ثم قام يزيد بن المقنّع العُذْريّ فقال: هذا أميرُ المؤمنين، وأشار إلى معاوية، فإن هلك فهذا، وأشار إلى يزيد، ومن أَبَى فهذا، وأشار إلى سيفه، فقال معاوية: اجلس فأنت سيّد الخطباء.

وتكلم من حضر من الوفود، فقال معاوية للأحنف: ما تقول يا أبا بحر؟ فقال: «نخافكم إن صدقنا، ونخافُ الله إن كذَبْنا، وأنت يا أميرُ المؤمنين أعلم بيزيد في لَيْله ونهاره، وسرّه وعلانيته ومدخله ومخرجه، فإن كنت تعلمه لله تعالى ولهذه الأمة رضًى فلا تُشاور فيه، وإن كنت تعلمُ منه غير ذلك فلا تزوِّده الدنيا، وأنت صائرٌ إلى الآخرة، وإنما علينا أن نقولَ: سمعنا وأطعنا».. وقام رجل من أهل الشام فقال: «ما ندري ما تقول هذه المَعَدِّيّة[4] العراقية، وإنما عندنا سمعٌ وطاعةٌ وضربٌ وازْدلاف[5]».

فافترق الناس يحكون قول الأحنف.

قال: وكان معاوية يعطي المُقارِب، ويُدَارِي المباعد ويلْطُف به، حتى استوثق له أكثر الناس، وبايعوه، فلما بايعه أهل العراق والشام سار إلى الحجاز.

ذكر مسير معاوية إلى الحجاز
وكيف أخذ البيعة ليزيد على أهل الحجاز

قال: وفي هذه السنة اعتمر معاوية في شهر رجب، وسار إلى الحجاز في ألف فارس، فلما دنا من المدينة لقيه الحسين بن علي رضي الله عنهما أول الناس، فلما

(١) الدهماء: عامة الناس وجماعتهم.
(٢) أراد الأيام في تبدل.
(٣) القصد: الاستقامة.
(٤) نسبة إلى معد بن عدنان.
(٥) المقارنة والطعان.

نظر إليه معاوية قال: «لا مرحبًا ولا أهلًا! بَدَنَةٌ[١] يترَقْرَق دمها واللّهُ مُهريقه!»[٢] قال: مهلًا فإني لست بأهلٍ لهذه المقالة. قال: بلَى ولشَرٌّ منها.

ثم لقيه عبد الله بن الزُّبَير فقال له: «لا مرحبًا ولا أهلًا! خَبٌ[٣] ضَبٌ، تَلْعَة[٤] يُدخل رأسه فيضرب بذَنَبه، ويوشك واللّهِ أن يؤخذَ بذَنَبه ويُدَقَّ ظهره، نحِّياهُ عني» فضرب وجه راحلته.

ثم لقيه عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق فقال له معاوية: «لا مَرْحبًا ولا أهلًا! شيخٌ قد خَرِف وذهب عقله» ثم أمر بضرب وجه راحلته: ثم فعل بابن عمر نحو ذلك.

فأقبلوا معه لا يلتفتُ إليهم حتّى دخل المدينة، فحضروا بابه فلم يؤذَن لهم على منازلهم، ولم يَرَوْا منه ما يحبون، فخرجوا إلى مكة، فأقاموا بها.

وخطب معاوية بالمدينة، فذكر يزيد فمدحه، وقال: «من أحقُّ منه بالخلافة في فضله وعقله؟ وموضعه؟ وما أظن قومًا بمنتهين حتى يصيبهم بَوَائقَ[٥] تجتَثُّ أصولهم، ولقد أنذرتُ إن أغنت النُّذُر» ثم أنشأ متمثلًا: [من الرجز]

قَدْ كنتُ حذَّرْتُك آلَ المصطلِقْ ... وقلتُ يا عمرُو أطِعْني وانْطَلِقْ
إنَّك إن كلَّفْتَني ما لم أُطِقْ ... ساءَك ما سرَّك منِّي مِنْ خُلُقْ
دُونَك ما اسْتَسْقَيْتَه ... فَاحْسُ[٦] وذُقْ

ثم دخل على عائشةَ رضي الله عنها وقد بلغها أنه ذكر الحسين وأصحابه، فقال: «لأقتلنهم إن لم يبايعوا» فشكاهم إليها، فوعظته عائشة وقالت: بلغني أنك تتهدَّدهم بالقتل، فقال: «يا أُمَّ المؤمنين، هم أعزُّ من ذلك، ولكني بايعتُ ليزيد، وبايعه غيرهم، أفَتَريْنَ أن أنقضَ بيعةً قد تمَّتْ؟» قالت: فارفقْ بهم فإنهم يصيرون إلى ما تحبُّ إن شاء الله. قال: أفعلُ. وكان في قولها له: ما يؤمنُك أن أقعدَ لك رجلًا يقتلُك وقد فعلت بأخي ما فعلت؟ تعني محمدًا فقال لها: كَلاَّ يا أُمَّ المؤمنين إني في بيت أمن. قالت: أجَلْ.

---

(١) البدنة: ناقة أو بقرة تنحر بمكة سميت بذلك كانوا يسمنونها.
(٢) تأمّل قوله للسبط ابن البضعة الزهراء بنت رسول الله ﷺ.
(٣) مخادع.
(٤) الطويل العنق، وأراد الطويل الأنف كناية عن تدخله فيما لا يعنيه.
(٥) مصائب.
(٦) الحسو: الشرب.

ومكث معاوية بالمدينة ما شاء الله، ثم خرج إلى مكة، فلقيه الناس، فقال أُولئك النفر: نتلقَّاه لعله قد ندم على ما كان منه، فلقوه في بطن مَرّ[١]، فكان أول من لقيه الحسين رضي الله عنه، فقال له معاوية: مرحبًا وأهلاً بابن رسول الله وسيِّد شَبَاب المسلمين. وأمر له بدابّة وركبٍ وسايره، ثم فعل بالباقين مثل ذلك، وأقبل يسايرهم ولا يسيرُ معه غيرهم حتى دخل مكة، فكانوا أول داخلٍ عليه وآخرَ خارجٍ، ولا يمضي يومٌ إلا ولهم منه صلة، ولا يذكر لهم شيئًا، حتَّى قضى نسُكَه وحملَ أثقاله وقرب مَسيره، فقال بعضهم لبعضٍ: «لا تُخدعوا فما صنعَ هذا لحبِّكم، وما صنعه إلا لما يريدُ أن يفعلَ، فأعدوا له جوابًا» فاتفقوا على أن يكون المخاطب له عبد الله بن الزبير.

فأحضرهم معاوية وقال: «قد علمتم سيرتي فيكم، وصِلتي لأرحامكم وحملي ما كان منكم، ويزيدُ أخوكم وابنُ عمكم، وأردتُ أن تقدِّموه باسم الخلافة، وتكونوا أنتم تُولُّونَ وتعزلون وتؤمِّرون، وتَجْبُون المال وتقسمونه، ولا يعارضكم في شيءٍ من ذلك» فسكتوا، فقال: ألا تُجيبون؟ مرّتين.

ثم أقبل على عبد الله بن الزبير ثم قال: هاتِ فلَعَمري إنك خطيبُهم. قال: نعم، نخيرك بين ثلاث خصال. قال: اعْرِضْهُنَّ. قال: تصنعُ كما صنع رسول الله ﷺ، أو كما صنع أبو بكر، أو كما صنع عمر رضي الله عنهما، قال معاوية: ما صنعوا؟ قال: قُبِض رسول الله ﷺ ولم يستخلفْ أحدًا، فارتضَى الناس أبا بكر. قال: ليس فيكم مثل أبي بكر وأخافُ الاختلاف. قالوا: «صدقتَ فاصنعْ كما صنع أبو بكر، فإنه عَمَد إلَى رجل من قاصية قريش ليس من بني تيم[٢] فاستخلفه، أو كما صنع عمر، جعل الأمر شُورَى في ستة نفر، ليس فيهم أحدٌ من ولده ولا من بني أبيه». قال معاوية: هل عندك غير هذا؟ قال: لا، قال: فأنتم؟ قالوا: قَوْلُنا قوله، قال: «فإني أحببت أن أتقدمَ إليكم، إنه قد أعذر من أنذر، إني كنت أخطبُ، فيقومُ إليَّ القائمُ منكم فيكذِّبني على رؤوس الناس، فأحملُ ذلك وأصفحُ، وإنِّي قائمٌ لمقالةٍ فأقسمُ بالله لَئن رَدَّ عليَّ أحدٌ منكم كلمة في مقامي هذا لا ترجعُ إليه كلمةٌ غيرها حتَّى يسبقَها السيفُ إلى رأسه، فلا يبقينَّ رجلٌ إلا على نفسه!».

(١) مر: ويقال له مر الظهران موضع على مرحلة من مكة. راجع ياقوت جـ٥ ص١٠٤.
(٢) أراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ثم دعا صاحب حَرَسه حضرتهم فقال له: أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلَين، ومع كل واحد سيف، فإن ذهب رجل منهم يرد عليّ كلمةً بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما.

ثم خرج وخرجوا معه حتى رقي المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن هؤلاء الرَّهْطَ سادةُ المسلمين وخيارُهِم، لا يُبْرمُ[١] أمر دُونهم ولا يُقْضَى إلاَّ عن مشورتهم، وإنهم قد رضُوا وبايَعوا ليزيد، فبايعوا على اسم الله». فبايعَ الناس وكانوا يتربّصون بَيعةَ هؤلاء النفر، ثم ركب معاوية رواحله وانصرف إلى المدينة.

فلقي الناس أولئك النَفر فقالوا لهم: زعمتم أنكم لا تبايعون فلمّا أرضيتم وأُعطيتم بايعتم! قالوا: والله ما فعلنا. قالوا: فما منعكم أن تردُّوا علَى الرجل؟ قالوا: كادنا[٢] وخِفنا القتل.

وبايعه أهلُ المدينة، ثم انصرف إلى الشام، وجفا بني هاشم، فأتاه ابن عبّاس فقال له: ما بالُك جَفَوتنا؟ قال: إن صاحبكم لم يبايع ليزيد فلم تنكروا ذلك عليه. فقال: «يا معاوية، إني لخليقٌ أن أنحازَ إلى بعض السواحل، فأقيمَ به، ثم أنطلقُ بما تعلم حتى أدع الناس كلهم خوارج عليك» قال يا أبا العباس تُعْطَوْن وتُرْضَوْن وتُرادُّون[٣].

وقيل: إن ابن عمر قال لمعاوية: «أُبايعك علَى أني داخلٌ فيما تجتمعُ عليه الأمة، فوالله لو اجتمعت على حبشي لدخلت معها». ثم عاد إلى منزله، فأغلق بابه، فلم يأذن لأحد.

وقد ذكرنا وفاة عبد الرحمٰن بن أبي بكر في سنة ثلاث وخمسين، والمشهور أنه كان في هذه الحادثة باق[٤]، وقد ورد خبره مع مروان بن الحكم وما قالته عائشة رضي الله عنها في الصحيح.

ذكر استعمال سعيد بن عثمان بن عفان على خراسان وغزوه

في هذه السنة استعمل معاوية سعيد بن عثمان بن عفان على خراسان وعزل ابن زياد عنها، وكان سبب ذلك أنه سأل معاوية أن يستعمله على خراسان، فقال: إن بها

---

(١) يعقد. (٢) غلبنا على أمرنا.

(٣)ترادّ فلان وفلان: إذا تراجعا الكلام.

(٤) في وفاة عبد الرحمٰن بن أبي بكر اختلاف، فلقد أثبت بعضهم وفاته سنة ٥٣هـ والبعض الآخر سنة ٥٨هـ.

عُبيد الله بن زياد. فقال: «والله لقد اصْطنعك أبي حتَّى بلغتَ باصطناعه المَدَى الذي لا تُجارَى إليه ولا تُسامى، فما شكرتَ بلاءَه ولا جازيتَه بآلائه، وقدَّمْتَ علَيَّ هذا، يعني يزيد، وبايعتَ له، واللّهِ لأنا خيرٌ أبًا وأُمًّا ونفسًا!» فقال معاوية: أمَّا بَلاءُ أبيك فقد يحقُّ عليَّ الجزاءُ به، وقد كان من شكري لذلك أنّي طلبتُ بدمه، وأمَّا فضل أبيك علَى أبيه فهو والله خيرٌ منّي، وأمّا فضل أُمِّك علَى أمِّه فلعمْري امرأةٌ من قُرَيش خَيرق من امرأة من كَلْب[١]، وأمّا فضلُك عليه فواللّهِ ما أُحبُ أن الغُوطة[٢] مُلِئتْ به رجالاً مثلك!» فقال له يزيد: «يا أميرَ المؤمنين، ابنُ عمّك، وأنت أحقُّ مَن نظر في أمره، قد عَتَب علَيك فأعْتِبْه»[٣]. فولاَّه حربَ خُراسان، وولَّى إسحاق بن طَلحة[٤] خَراجَها، فمات إسحاق بالرّيّ فوُلِّيَ سعيدٌ حربَها وخراجها[٥].

فلمَّا قدِم خُراسان قطع النهر إلَى سَمَرْقَنْد، فخرج إليه أهل الصُّغْد[٦]، فتواقفوا يومًا إلَى الليل ولم يقتتلوا، ثمَّ اقتتلوا من الغد، فهزمهم سعيد، وحَصرَهم في مدينتهم، فصالحوه وأعطَوْه رُهُنًا منهم خمسين غلامًا من أبناء عظمائهم، فسار إلَى التِّرْمِذِ[٧] ففتحها صلحًا، ولم يَفِ لأهل سَمَرْقَنْد، وجاء بالغلمان معه إلَى المدينة. وفي هذه الغزوة قتِل قُثَم بن العبّاس بن عبد المُطَّلب.

وحجّ بالناس في هذه السنة الوَلِيد بن عُتْبة بن أبي سُفيان.

سنة سبع وأربعين:

في هذه السنة عَزل معاوية مَرْوان بن الحَكم عن المدينة، واستعمل الوَليد بن عتبة بن أبي سُفيان. وقيل: لم يعزل مروان في هذه السنة.

وحجّ بالناس الوليد بن عُتبة.

(١) لأن أم سعيد بن عثمان هي فاطمة بنت الوليد بن المغيرة المخزومية القرشية، وأم يزيد بن معاوية هي ميسون بنت بحدل بنت أنيف الكلبية.

(٢) غوطة دمشق: وهي مشهورة بأشجارها ومائها.

(٣) تقبل عتابه.

(٤) وله نسب من معاوية لجهة أمه إذ كانتا أختين.

(٥) راجع ابن الأثير باختلاف ج٣ ص٥١٢.

(٦) بلد قريب من سمرقند، كثير الماء والشجر. راجع ياقوت ج٣ ص٤٠٩.

(٧) ترمِذ: مدينة على شرقي نهر جيحون. راجع ياقوت ج٢ ص٢٦.

سنة ثمان وأربعين:

في هذه السنة تُوُفِّيت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وتوفي عَمِيرة بن يَثْرِبيّ قاضي البصْرة، فاستقضى مكانه هِشام بن هُبَيرة.

وحجّ بالناس الوليد بن عُتبة.

ذكر عزل الضحاك عن الكوفة واستعمال عبد الرحمٰن ابن أُمّ الحكم وطردِه عنها واستعماله على مصر وطردِه عنها أيضًا

في هذه السنة عزل مُعاويةُ الضحَّاك بن قَيس عن الكوفة، واستعمل عليها عبد الرحمٰن بن عبد الله بن عثمان الثقفي، وهو ابن أمّ الحكم، وأمُّ الحكم أخت معاوية، فخرج الخوارج بالكوفة في ولايته على ما قدمناه من خبرهم.

ثم طرد أهل الكوفة عبد الرحمٰن لسوء سيرته، فلحق بخاله معاوية، فولاه مصر، فاستقبله مُعاوية بن حُدَيْج على مَرْحَلَتَين من مصر، فقال له: ارجعْ إلى خالك فلعمري لا تسيرُ فينا سيرتُك في إخواننا من أهل الكوفة، فرجع.

ثم وفَد مُعاوية بن حُدَيج[1] إلى معاوية، وكان إذا قَدِمَ زُيّنت له الطرقُ بقباب الرَّيحان تعظيمًا لشأنه، فدخل على معاوية وعنده أختُه أمُّ الحَكم فقالت: مَن هذا يا أميرَ المؤمنين؟ قال: «بخ بخٍ! هذا معاوية بن حُدَيج!» فقالت: «لا مرحبًا! تسمعُ بالمَعيْدِيّ خَيْرٌ من أن تراه[2]». فسمعها ابن حُدَيج، فقال: «علَى رِسْلك يا أُمَّ الحكم، واللّهِ لقد تزوجتِ فما أكرمتِ، وولدتِ فما أنجبت، أردتِ أن يليَ ابنك الفاسقَ علينا فيسير فينا كما سار في إخواننا من أهل الكوفة، ما كان اللّهُ لِيُرِيَه ذلك، ولو فعل لضربناه ضربًا يُطَأْطِىءُ منه ولو كره هذا القاعدُ!» يعني معاوية، فالتفت إليها معاوية فقال: كفي. فكفَّت.

(١) معاوية بن حديج بن جفنة بن قنبر الكندي السكوني، كنيته أبو نعيم، شهد صفين مع معاوية بن أبي سفيان، مضى بجيش إلى مصر فقتل محمد بن أبي بكر رضي الله عنه فتولى مصر لمعاوية ومن بعده ليزيد. فقد عيّنه بفتوح المغرب في بلاد النوبة. توفي في بعض الروايات سنة ٥٢هـ. راجع الإصابة ترجمة ٨٠٦٤ ولكن في وفاته إشكال فإذا كان ابن حديج توفي سنة ٥٢هـ ونزا يزيد بن معاوية على الخلافة سنة ٦٠هـ فكيف يلي له مصر؟! فإما أن يكون قد توفي سنة ٦٢هـ أو أنه لم يلِ مصر ليزيد لأنه لم يكن من الأحياء.

(٢) راجع مجمع الأمثال للميداني جا ص١٢٩ رقم ٦٥٥.

سنة تسع وخمسين:

في هذه السنة استعمل معاوية النُّعمان بن بَشير الأنصاري على الكوفة، بعد ابن أم الحكم.

واستعمل معاوية عبد الرحمٰن بن زياد على خُراسان فبقي عليها إلى أن قُتل الحسين، ثم قدم على يزيد ومعه عشرون ألف ألف درهم، فقال له يزيد: «إن شئت حاسبناك وأخذنا ما معك ورددناك إلى عملك، وإن شئت أعطَيناك ما معك وعزلناك، وتعطي عبد الله بن جعفر خمسمائة ألف درهم» قال: بل تُعطيني ما معي وتعزلني. ففعل، وأرسل عبد الرحمٰن إلى ابن جعفر بألف ألف، وقال: هذه خمسُمائة ألف من يزيد وخمسُمِائة ألف مني.

ذكر عزل عبيد الله بن زياد عن البصرة وعوْدِه إليها

وفي هذه السنة عزل معاويةُ عُبَيد الله بن زياد عن البصرة وأعاده إليها ولم يُوَلِّ غيره.

وسبب ذلك أن ابن زياد وفد على معاوية في وجوه أهل البصرة وفيهم الأحنف بن قيس، وكان ابن زياد لا يكرمه، فلما دخلوا مُعاوية رحَّب بالأحنف وأجْلسه معه على سريره، فأحسن الوفدُ الثناء على عُبَيد الله بْن زياد والأحْنَفُ ساكت، فقال له معاوية: ما بالك يا أبا بحر[1] لا تتكلم؟ فقال: إن تكلمتُ خالفت القوم. فقال معاوية: انهضوا، عزلتُه عنكم واطلبوا واليًا ترضَوْنه، فلم يَبْقَ من القوم رجل إلا أتى رجلًا من بني أُمَيَّة أو من أهل الشام، والأحنفُ لم يبرح من منزله ولم يأت أحدًا، فلبثوا أيَّامًا، ثم جمعهم معاوية، وقال لهم: من اخترتم فاختلفتْ كلمتهم، والأحنف ساكت، فقال[2]: ما لك لا تتكلم؟ فقال: «إن ولَّيْتَ علينا أحدًا من أهل بيتك لم نعدلْ بعُبيْد الله أحدًا، وإن ولَّيتَ غيرهم فانظر في ذلك». فردَّه معاوية عليهم، وأوصاه بالأحنف وقبح رأيَه في مباعدته.

وحجّ بالناس في هذه السنة عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وفيها توفي سعيد بن العاص.

---

(١) كنية الأحنف بن قيس.

(٢) يعني معاوية بن أبي سفيان.

سنة ستين:

ذكر وفاة معاوية بن أبي سُفْيان وما أوصَى به عند وفاته

كانت وفاته بدمشق في شهر رجب منْ هذه السّنة، قيل: في مُسْتَهَلِّه، وقيل: في النصف منه، وقيل: لأربع بَقِينَ منه، وقيل: في يوم الخميس لثمانٍ بَقين من شهر رجب سنة تسع وخمسين[١].

قال: وكان معاوية قد خطب الناس قبل موته فقال: «إني لزرعٌ مستحصَدٌ[٢] وقد طالت إمْرتي عليكم حتى مِلِلْتكم ومِلِلْتموني، وتمنيتُ فراقكم وتمنيتم فراقي، لن يأْتيكم بعدي إلا من أنا خيرٌ منه، كما أن من كان قبلي كان خيرًا مني، وقد قيل: من أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه، اللهم إني أحببت لقاءك فأحبِبْ لقائي وبارك لي فيه» فلم يمضِ غير قليل حتى ابتدأ به مرضه الذي مات فيه[٣].

قال: ولمّا مرض دعا ابنه يزيد وقال: «يا بني إني قد كَفَيْتُك الشَّدَّ والتَّرحال، ووطَّأتُ لك الأمور، وذللت الأعداء، وأخضعت لك رِقاب العرب، وجمعت لك ما لم يجمعه أحد، فانظرْ أهلَ الحجاز فإنهم أصلك، فأكرمْ من قدِم علَيك منهم، وتعاهَدْ من غاب وانظرْ أهل العراق، فإن سألوك أن تعزِل عنهم كُلَّ يوم عاملاً فافعل، فإنَّ عزْلَ عاملٍ أيسَرُ من أن يُشهرَ عليك مِائةُ ألف سيف، وانظرْ أهلَ الشام، فليكونوا بِطانتك وعيْبتك[٤]، فإنْ رابَك[٥] من عدوِّك شيءٌ فانتصرْ بهم، فإذا أصبتَهم فارددْ أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغيرها تغيرتْ أخلاقهم، وإني لست أخاف عليك أن ينازعك هذا الأمر إلاّ أربعة نَفَر من قُريش: الحسين بن علي وعبد الله بن عُمر وعبد الله بن الزُّبَير وعبد الرحمٰن بن أبي بكر، فأمّا ابن عمر فرجل قد وقذَتْه[٦] العبادة، فإذا لم يَبْقَ أحد غيره بايعك، وأمّا الحسين فإنه رجل خفيف، ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه، فإن خرج فظفرْتَ به فاصْفَحْ عنه، فإن له رَحمًا ماسة وحقًّا عظيمًا وقرابةً من محمد ﷺ، وأمّا ابن أبي بكر فإن رأى أصحابه صنعوا شيئًا صنع مثله ليست له همّة إلاّ في النساء واللهو، وأما الذي يجْثُم لك جُثُوم الأسد، ويراوغك مراوغة الثعلب، فإن أمكنته فرصة وَثَب، فذاك ابن الزبير، فإنْ هو فعَلها بك فظفِرْتَ

(١) راجع باختلاف الطبري جـ٥ ص٣١٧.
(٢) كناية عن دنو أجله.
(٣) راجع الكامل في التاريخ جـ٣ ص٢٥٩.
(٤) عيبة الرجل: ستره، وما ينبغي ستره.
(٥) أصابك ريب.
(٦) أخذت منه كل مأخذ.

به فقطِّعه إرْبًا إرْبًا، واحقنْ دماءَ قومك ما استطعت». هكذا في هذه الرواية ذكر عبد الرحمٰن بن أبي بكر، والصحيح أنه مات قبل معاوية[١].

وقيل إن يزيد كان غائبًا في مرض أبيه وموته، وأن معاوية أحضر الضحاك بن قيس ومسلم بن عقبة المُرِّيّ وأمرهما أن يؤدِّيا عنه هذه الرسالة إلى يزيد ابنه. وصححه ابن الأثير.

قيل: ولما اشتدّت عِلَّته وأُرجِف به قال لأهله: احشوا عيني إثْمِدًا[٢] وادْهنوا رأسي، ففعلوا وبَرّقوا وجهه، ثم مُهِّد له مجلس وأذن للناس، فدخلوا وسلموا قيامًا ولم يجلس أحد، فلما خرجوا تمثل بقول الأول وهو الهذلي[٣]: [من الكامل]

وتـجـلُّـدِي لـلـشّـامِـتـيـن أُرِيـهـمُـو أنِّـي لِـرَيْـبِ الـدهـر لا أتَـضَـعْـضَـعُ
وإذا الـمَـنِـيَّـةُ أنْـشـبـتْ أظـفـارهـا ألْـفَـيْـتَ كُـلَّ تَـمِـيـمـةٍ[٤] لا تَـنـفَـعُ

ومات في يومه.

وكان يتمثَّلُ ـ وقد احْتُضِر ـ: [من الوافر]

فـهـل مـنْ خـالـدٍ إمَّـا هـلَـكْـنـا وهـلْ بِـالـمَـوْتِ يـا لَـلـنَّـاسِ عـارُ

ورَوى محمد بن عبد الله بن الحكم قال: سمعت الشافعيَّ رضي الله عنه يقول: لمَّا ثقُل مُعاوية كان يزيد غائبًا، فكتب إليه بحاله فلمَّا أتاه الرسول أنشأ يقول[٥]: [من البسيط]

جـاء الـبَـرِيـدُ بـقِـرْطـاسٍ[٦] يـخُـبُّ بـه فـأوْجـس الـقـلـبُ مـن قِـرطـاسـه فَـزَعـا
قلنا: لك الوَيْلُ! ماذا في صحيفتكم قـال: الـخـليـفةُ أمـسَى مُثْبَتًا[٧] وجِعَا
فـمـادتْ[٨] الأرضُ أو كـادت تَـمـيـد بـنـا كـأنَّ ثَـهْـلانَ[٩] مـن أركـانـه انْـقـلـعـا
أوْدَى ابنُ هنْدٍ[١٠] وأوْدَى المجدُ يتبعُه كـانـا جـمـيـعًـا وظـلاًّ يـسْـريـان مـعَـا

(١) راجع ابن الأثير باختلاف وزيادة جـ٤ ص٥.
(٢) جريش حجر الكحل.
(٣) أبو ذؤيب الهذلي، والأبيات في المفضليات ص٨٥٥.
(٤) الرقية تكتب وتعلق لدفع الأذى.
(٥) أي يزيد بن معاوية.
(٦) القرطاس: الورقة.
(٧) كأنه أراد أُثبت إلى الفراش.
(٨) اهتزت.
(٩) ثهلان: جيل ضخم بالعالية ببطن الكلاب، والكلاب واد يسلك بين ظهري ثهلان.
(١٠) معاوية بن أبي سفيان وهند آكلة الأكباد أمه.

لا يَرفعُ الناس ما أوْهَى[١] وإن جَهَدُوا ... أن يـرفـعـوه، ولا يُـوهُـون مـا رفـعَـا
أغَـرُّ أبْـلـجُ يُـسْـتَـسْـقَـى الـغـمـامُ بـه ... لـو قارَعَ الناسَ عن أحلامهم قرَعا[٢]

والبيتانِ الأخيران للأعشَى[٣].

قال: فلمَّا وصل إلَيه وجده مغمورًا فأنشأ يقول: [من المنسرح]

لـوْ عـاش حـيٌّ إذًا لَـعـاش إمـا ... مُ الـنـاس لا عـاجـزٌ ولا وَكِـل[٤]
الـحُـوَّلُ الـقُـلَّـبُ الأرِيـبُ[٥] ولـنْ ... يـدفـع رَيْـبَ الـمَـنِـيّـة الـحِـيَـلُ

قال: فأفاق معاوية وقال: يا بني إنِّي صحبت رسول الله ﷺ فخرج لحاجته، فاتبعته بإدَاوَة[٦]، فكساني أحَدَ ثوبَيْه الذي يلي جلده، فخبّأته لهذا اليوم، وأخذ رسول الله عليه الصلاة والسلام من أظافره وشعره ذات يوم، فأخذته وخبّأته لهذا اليوم، فإذا أنا مِتُّ فاجعل ذلك القميص دون كَفَني ممَّا يَلِي جلدي، وخذ ذلك الشعرَ والأظافرَ فاجعله في فمي وعلَى عيني ومواضع السجود مني، فإن نفع شيء فذاك، وإلاَّ فإن الله غفور رحيم.

وهذه الرواية تدل على أن يزيد أدْركه قبل وفاته، وقد قيل: إنه أوصى بها غير يزيد والله أعلم[٧].

قال ابن الأثير: وتمثل معاوية عند موته بشعر الأشهب بن زُمَيْلَة النَّهْشَلي: [من الطويل]

إذَا متّ مات الجُودُ وانقطع النَّدَى[٨] ... مِـنَ الـنـاس إلاَّ مـن قَـلِـيـلِ مُـصَـرَّدِ[٩]
ورُدّتْ أكُـفُّ الـسـائـلـيـن وأمْـسَـكـوا ... مِن الدِّين والدنيا بخِلْفِ[١٠] مُجَدّدِ[١١]

---

(١) الواهي: الضعيف، وأراد هنا المنحط فلا أحد يستطيع رفع ما وضع، ولا أحد يستطيع وضع ما رفع.
(٢) أراد لو غالب الناس لغلبهم.
(٣) انظر ديوان باختلاف الأعشى ص١٥٧ وهو ميمون بن قيس.
(٤) الوكِل: من يكل إلى الناس أموره أو يتكل عليهم لإنجازها.
(٥) الحوّل: العارف بالحيل البصير بها، والقلّب: الذي يقلّب الأمور لأفضلها. والأريب: العاقل.
(٦) وعاء من جلد.
(٧) في رواية عند ابن الأثير أن يزيد كان بحوّارين عندما مات معاوية جـ٤ ص٩.
(٨) الكرم.
(٩) الذي في قلته انقطاع وبخل.
(١٠) ضرع الناقة.
(١١) أجد: لبن الناقة إذا جف.

فقالت إحدَى بناته: كلاً يا أمير المؤمنين بل يدفعُ الله عنك. فقال متمثِّلًا: [من الكامل]

* وإذا الـمَـنِـيَّـة أنـشـبـتْ أظـفـارَهـا[١] *

وقال لأهله: اتَّقُوا الله فإنه لا واقي لمن لا يتَّقي الله! ثُمَّ قضَى.

وأوْصَى أن يُرَدَّ نصف ماله إلَى بيت المال.

وأنشد لما حضرته الوَفاة: [من الخفيف]

إنْ تُـنـاقـشْ يَـكُـنْ نـقـاشُـكَ يـا ربّـ ب عـذابًـا، ولا طَـوْقَ لـي بـالـعـذابِ

أو تُـجـاوزْ[٢] فـأنـت ربٌ صَـفـوحٌ عـن مُـسِـيءٍ ذنـوبـه كـالـتـراب

قال: ولمّا مات خرج الضحَّاك بن قَيْس حتَّى صعِد المنبر، وأكفانُ معاوية علَى يَدَيْه، فحمد الله وأثنَى عليه، ثم قال: «إنَّ معاويةَ كان عَوْدَ العرب، وحَدَّ العرب، وجَدَّ العرب[٣]، قطَع الله به الفِتنة، وملَّكه على العباد، وفتح به البلاد، ألاَ إنه قد مات، وهذه أكفانه ونَحن مُدْرِجوه فيها، ومُدْخِلوه قبره، ومُخَلُّون بَيْنه وبَيْن عمله، ثُمَّ هو البَرْزَخ[٤] إلَى يوم القيامة! فمن كان يريد أن يشهده فعند الأُولَى».. قال: وصلى عليه الضحاك لغيبة يزيد، وكان بحُوَّارِين فقدِم بعد دفنه فصلَّى على قبره.

وكان مُلْكه تِسعَ عشرةَ سنةً وثلاثة أشهر وأيّامًا تقريبًا منذ خلص له الأمر.

وكان عمره خمسًا وسبعين سنة، وقيل: ثلاث وسبعين، وقيل: ثمان وسبعين، وقيل توفي وهو ابن خمس وثمانين سنة.

وكان أوَّلَ من اتخذ الخدّام الملازمة[٥] في الإسلام. وأوّل من علَّق الستور واتخذ الحرَس وأرباب الشُّرَط. واستخدم الحجاب وركب الهَمَاليج[٦]، وقيدت بين يديه الجنَائب[٧] ولبس الخزَّ والوشْيَ الخفيفَ، وعمل الطِّراز بمصر واليَمَن والرُّها والإسْكندرية. وأوّل من قَتل مسلمًا صَبْرًا، قَتل حُجْر بن عَديّ وأصحابه كما تقدم.

---

(١) تتمة البيت: ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفع. (٢) تتخطاه، والمراد تعفو.

(٣) أراد عظيمهم وذا بأسهم وجالب حظهم. (٤) عقبة أمام الميت قبل الحساب.

(٥) ذكر ابن عبد البر أنه أول من اتخذ الخصيان.

(٦) مفردها هملاج: وهي دابة أو صفة لها أكبر من الحمار وأصغر من الحصان.

(٧) الناقة بخاصة وكل مركوب بغام، إلى جانب الراكب مفردها: جنيبة.

وهو أول من اقتنى الضِّياع، وأحدث في أيامه ديوان الخاتَم، وكان سبب ذلك أنه أمر لعمرو بن الزُّبيرَ بمائة ألف درهم، وكتب له بها علَى زِياد، فصيّر عمرو المائة مائتين، فلما رفع حساب زياد أنكرها معاوية، وأخذ عمرًا بردِّها، فوفَّاها عنه أخوه عبد الله. ثم أمر معاوية بخَتم الكتب وحَزْمها.

وزاد في مِنبر رسول الله ﷺ، فجعله ثمانِيَ درجات، وأول من جعل درجات المنبر خمس عشرة مَرْقاة، واتخذ المقصورة في المسجد.

وأول خليفة بايَع لابنه، وأول من وضع البريد، وأول من سمى الغالية التي يطيَّب بها «غالية».

وكان يقول: أنا أوّلُ الملوك.

ذكر شيء من سيرته وأخباره

كان يُضْرَب بحِلْم معاوية المَثَل، ولم يعرف له زَلَّة تنافي الحلم إلاَّ قتْل حُجْر بن عَدِيّ وأصحابه.

وقد نقل من كلامه ألفاظ، منها أنه قال: إنني لَأرفَعُ نفسي أن يكون ذنبٌ أعظم من عفوي، وجهلٌ أكثر من حِلمي، وعَوْرةٌ لا أُواريها بستري، أو إساءة أكثر من إحساني[1].

وقال: العقلُ والحلم أفضل ما أُعْطِيَ العبد، فإذا ذُكِّرَ ذَكر، وإذا أُعطي شكر، وإذا ابْتُلي صبر، وإذا غضِب كَظَم، وإذا قدر غفر، وإذا أساء استغفر، وإذا وعد أنجز..

قال عبد الله بن عُمَير: أغلظَ رجلٌ لمعاوية، فأكثر، فقيل له: أتحلمُ عن هذا؟ فقال: إني لا أحُول بين الناس وألسنتهم. ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا.

وروى ابن شِهاب عن حُمَيد بن عبد الرحمٰن قال: أخبرنا المِسْورَ بن مَخْرمة[2]

---

(١) وكيف يقف هذا الكلام من سب علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه على المنابر، ودعوة الناس إلى البراءة منه؟.

(٢) مسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب القرشي الزهري، كنيته أبو عبد الرحمٰن، صحابي، شهد فتوح إفريقيا، قتل مع عبد الله بن الزبير في الحصار بمكة سنة ٦٤هـ. راجع الإصابة ترجمة ٧٩٩٥.

أنه وفَد على معاوية، قال: فلمَّا دخلتُ عليه سلَّمت، فقال: ما فعل طعنُك[١] على الأُمة يا مِسْور؟ قلت: دعنا من هذا وأحسن فيما قدِمْنا له، قال: والله لتكلمني بذات نفسك. قال فلم أدَعْ شيئًا أعيبه علَيه إلاَّ أخبرته به. فقال: «لا أبرأُ من الذنوب! أفما لك يا مِسْور ذنوبٌ تخافُ أن تهلك إن لم يغفرها الله لك؟» قلت: بَلَى. قال: «فما جعلك أحقَّ بأن ترجُوَ المغفرة مِنِّي؟ فَوَاللّهِ لَمَا أنا إلي من الإصلاح بين الناس وإقامة الحُدود والجهاد في سبيل الله والأمور العِظام التي ليست أحصيها ولا تحصيها أكثرُ ممَّا تَلِي. وإني لعلى دينٍ يتقبَّلُ الله فيه الحسناتِ ويعفو عن السيِّئات، ووالله لَعَلَيَّ ذلك ما كنت لِلأُخيِّر بين الله وبين ما سواه إلا اخترتُ الله علَى ما سواه[٢]. قال المِسْوَر: ففكّرتُ حين قال ما قال فعرفتُ أنه خَصَمني! قال: فكان إذا ذكر بعد ذلك دعا له بخير. قال أبو عمر: هذا الخبر من أصحِّ ما يُروَى عن ابن شهاب.

وقد نُسب معاوية إلى بُخلٍ مع كثرة عَطاياه، فمن ذلك ما حُكِيَ أن عبيد الله بن أبي بَكْرة دخل علَى معاوية، ومعه ولدٌ له، فأكثر من الأكل، فلحظه معاوية، وفطن عبيد الله، فأراد أن يغمز ابنه فلم يمكنه فلم يرفعْ رأسه حتى فرغ من أكله، ثم عاد عبيد الله وليس معه ابنه، فقال معاوية ما فعل ابنك التِّلْقَامَة[٣]؟ قال: اشتكى[٤].

ذكر صفة معاوية وأولاده وأزواجه وكُتَّابه وقضاته وحجَّابه وشرطه وعُمّاله

كان معاوية طويلاً أبيض اللون إذا ضحك تقلَّصت شَفته العليا، وكان يخضبُ بالحِنَّاء والكَتَم[٥].

وأما نساؤه وولده: فمن نسائه مَيْسُون ابنة بَحْدَل بن أُنَيْف الكَلْبية، وهي أم يزيد، وقيل: ولدت له بنتًا اسمها «أمَة ربِّ المشَارق» فماتت صغيرة.

ومنهن فاخِتَة ابنة قَرظة بن عبد عمرو بن نَوفل بن عبد مَناف، ولدت له عبد الرحمٰن وعبد الله، وكان عبد الله أحمق، وعبد الرحمٰن مات صغيرًا.

---

(١) أراد قولك الشائن في حق الأمّة.

(٢) راجع الاستيعاب جـ٣ ص٤٠٢ باختلاف وزيادة.

(٣) الذي يكبر اللقمة ويزدرد ازدرادًا.

(٤) راجع الطبري جـ٥ ص٣٣٨ بزيادة. واشتكى أي أنه يكشو وجعًا شغله عن المجيء.

(٥) الكتم: نبات يشبه الآس يجفف ويُدق ثم يُنخل ويخضب به.

ومنهن نائلة ابنة عُمارة الكلبية، تزوجها وقال لمَيْسُون: انظري إليها، فنظرت إليها وقالت: «رأيتها جميلة، ولكني رأيت تحت سُرّتها خالاً، ليوضعن رأس زوجها في حجرها»[١] فطلقها معاوية، فتزوجها حبيب بن مَسلمة الفهري، ثم خلف عليها بعده النُّعمان بن بشير، فقتل ووضع رأسه في حجرها.

ومنهن كَتْوة ابنة قَرظة، أُخت فاخِتَة، غزا قُبْرُس[٢] وهي معه فماتت هناك.

وأما كتّابهُ فكان كاتبُه وصاحبُ أمره سرْجُون الرومي، وكتب له عبيد الله بن أُوَيْس الغسّاني.

وقضاتُه. كان على القضاء فَضَالة بن عبيد الأنصاري، فمات فاستقضى أبا إدريس الخَوْلاَني.

وكان على ديوان الخاتم عبد الله بن مِحْصَن الحِمْيريّ، ونَقْش خاتمه «لكل عمل ثواب»، وقيل: كان نقشه «لا حول ولا قوة إلا بالله».

وحاجبه سَعْد مولاه، ثم صفوان مولاه.

وكان على شرطته قيس بن حمزة الهمداني ثم عزله، واستعمل زَمْل بن عمرو العُذْريّ، وقيل: السكْسَكيّ.

وكان على حَرَسه رجل من الموالي يقال له الختار، وقيل: أبو المُخَارِق مالك مولى حِمْيَر.

وأما عمّالُه فقد تقدم ذكرهم، وكان العُمّال عند وفاته: على المدينة الوليد بن عُتْبة بن أبي سفيان، على مكة عمرو بن سعيد الأشدق، وعلى البصرة عبيد الله بن زياد، وعلى الكوفة النُّعمان بن بَشير، وعلى خُراسان عبد الرحمٰن بن زياد، وعلى سجِستان عبّاد بن زياد، وعلى كِرمَان شريك بن الأعور، وعلى مصر مسلَمة بن مُخَلَّد الأنصاري، وكان القاضي بمصر سليمان بن عمير عشرين سنة.

ذكر بيعة يزيد بن معاوية

هو أبو خالدَ يَزِيد بن مُعاوية بن أبي سُفْيان صَخْر بن حَرب بن أُمية بن عبد شمس بن عبد مَناف بن قُصَيّ، وأُمه مَيسُون بنت بحدَل الكلبية.

---

(١) كان العرب يتطيرون وهذا مثال على تطيرهم.

(٢) قبرس: جزيرة في بحر الروم، قريبة من سواحل الشام، وهي (قبرص) في الرسم المعاصر. انظر معجم ياقوت جـ٤ ص٣٠٥.

وهو الثاني من ملوك بني أُمَيَّة، بويع له بعد وفاة أبيه في شهر رجب سنة ستين.

فكان أول ما بدأ به يزيد أنْ كتب إلى الوَليد بن عُتبة بن أبي سفيان، وهو عامل المدينة، يخبره بموت معاوية، وكتابًا آخر صغيرًا فيه: «أمّا بعدُ فخُذ حُسَينًا وعبدَ الله بن عُمر وابن الزبير بالبيعة أخذًا ليس فيه رُخْصَةٌ[1] حتّى يبايعوا والسلام».

فلما أتاه نَعيُ معاوية استدعى مروان بن الحكم، وكان قبل ذلك قد صَارمَه[2] وانقطع عنه، فلما جاءه وقرأ عليه الكتاب بموت معاوية استرجع وترحَّم عليه، واستشاره الوَليد كيف يصنع، قال: «أرى أن تدعُوَهم الساعة وتأمرهم بالبيعة، فإن فعلوا قبلتَ منهم وكفَفْتَ عنهم، وإن أبَوا ضربت أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية، فإنهم إنْ علموا بموته وَثَب كلُّ رجل بناحية، وأظهر الخِلافَ ودعا إلى نفسه، أمّا ابن عُمر فلا يرى القتال، ولا يحبُّ أن يليَ علَى الناس إلاَّ أن يُدفَع إلَيه هذا الأمر عفوًا».

ذكر إرسال الوليد بن عتبة إلى الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير، وما كان بينهم في أمر البيعة وخروجهما إلى مكة رضي الله عنهما

قال: وأرسل الوليدُ عبدَ الله بن عمرو بن عثمان، وهو غلام حدث، إلى الحسين وابن الزبير يدعوهما، فوجدهما في المسجد، فأتاهما في ساعة لم يكن الوليد يجلس فيها للناس، فقال: أجيبا الأمير فقالا: انصرفْ الآن نأتيه.

فقال ابن الزبير للحسين: ما تراه بعث إلَينا في هذه الساعة التي لم يكن يجلس فيها؟ فقال الحسين رضي الله عنه: أظن طاغِيَتهم[3] هَلَك فبعث إلينا ليأخذَنا بالبَيعة قبل أن يفشُو في الناس الخبرَ. فقال: وأنا ما أظن غيره، فما تريد أن نصنعَ؟ قال الحسين: أجمعُ فِتْياني الساعة ثم أمشي إليه وأُجلسُهم علَى الباب وأدخل عليه. قال: فإني أخاف عليك إذا دخلت. قال: لا آتيه إلا وأنا قادر على الامتناع.

فقام الحسين رضي الله عنه فجمع إليه أصحابَه وأهلَ بيته، ثم أقبل إلى باب الوليد، وقال لأصحابه: «إني داخل، فإذا دعوتكم أو سمعتم صوتي قد علا فادخلوا عليّ بأجمعكم، وإلا فلا تبرحوا حتى أخرجَ إليكم».

---

(١) تهاون. (٢) قاطعه.

(٣) أراد معاوية بن أبي سفيان.

ثم دخل فسلَّم ومَروان عنده، فقال الحسين: «الصِّلة خيرٌ من القَطيعة، والصلحُ خيرٌ من الفساد، وقد آن لكما أن تجتمعا، أصلح الله ذات بَيْنِكما» وجلس، فأقرأه الوليد الكتاب، ونعَى إليه مُعاوية، ودعاه إلَى البَيعة، فاسترجع الحسين وترحّم على معاوية، وقال: «أما البيعة فإن مثلي لا يبايع سِرًا، ولا تَجتَزي بها مني سرًا، فإذا خرجت إلى الناس ودعَوتَهم إلى البيعة دعوتنا معهم فكان الأمر واحد» فقال له الوليد، وكان يحبّ العافية: انصرفْ. فقال له مَروان: «لئن فارقك الساعة ولم يبايع لا قدرتَ منه على مثلها أبدًا حتى تكثر القتلَى بينك وبينه، احبسه، فإن بايَع وإلاّ ضربتَ عنقه». فوَثَب الحسينُ عند ذلك وقال: «يا ابن الزرقاء أنت، تقتلني أو هو؟ كذبتَ والله ولَؤمتَ! ثم خرج حتَّى أتَى منزله.

فقال مروان للوليد: عَصيتَني! لا واللّهِ لا يمكنك من نفسه بمثلها أبدًا، فقال الوليد: «وَيحَ غيرك يا مروان! والله ما أحب أن لي ما طلعت عليه الشمس وغَرَبَتْ عنه من مال الدنيا ومُلكها وأني قتلتُ حسينًا إن قال لا أبايعُ! واللّهِ إني لأظنُّ امرأً يحاسَب بدم الحسين خفيف الميزان عند الله يوم القيامة!» قال مروان: قد أصبت بقولك هذا يقول وهو غير حامد له على رأيه.

وأمَّا ابن الزُّبَير فإنه أتَى داره وجمع أصحابه واحترز، فألحَّ الوليد في طلبه وهو يقول «أمهلوني». فبعث الوليد إليه مَواليه فشتموه، وقالوا له: يا ابن الكاهلية لَتأتِينَّ الأمير أو لَيقتلنَّك فقال لهم: والله لقد استربتُ[1] لكثرة الإرسال، فلا تُعجلوني حتّى أبعثَ إلى الأمير مَنْ يأتيني برأيه. فبعث إليه أخاه جعفر بن الزبير فقال له: «رحمك الله، كُفَّ عن عبد الله فإنك قد أفزعته وذعرته، وهو يأتيك غدًا إن شاء الله تعالى، فمرْ رسلك فلينصرفوا عنا» فبعث إليهم، فانصرفوا وخرج ابن الزبير من ليلته هو وأخوه جعفر ليس معهما ثالث فسارا نحو مكة. فسرّحَ الوليدُ الرجالَ في طلبه فلم يدركوه، فرجعوا، وتشاغلوا به عن الحسين يومهم.

ثم أرسل الوليدُ الرجالَ إلى الحسين فقال لهم: أصبحوا ثم تَرَون ونرَى. فكَفُّوا عنه، فسار من ليلته نحو مكة[2]، وأخذ معه بنيه وإخوته وبني أخيه وجُلّ أهل بيته إلاَّ محمد ابن الحنفية فإنه قال للحسين رضي الله عنهما: «يا أخي أنت أحبُّ الناسِ إليَّ وأعزُّهم عليّ، ولست أدّخِرُ النصيحة لأحدٍ من الخلق أحقَّ بها منك، تنح ببيعتك عن يزيد وعن الأمصار ما استطعت، وابعثْ رسلك إلى الناس فادعُهم إلى نفسك فإن بايعوك حمدت الله على ذلك، وإن اجتمع الناسُ على غيرك لم يَنْقُص الله بذلك دِينَك ولا

---

(١) داخلتني ريبة.

(٢) ليلة الأحد ليومين بقيا من رجب سنة ٦٠هـ.

عقلك، ولا يُذهب به مروءتك ولا فضلك، إني أخافُ أن تأتيَ مصر وجماعةً من الناس فيختلفون عليك، فمنهم طائفةٌ معك، وأُخرى عليك، فيقتتلون، فتكون لأول الأسنَّة، فإذا خيرُ هذه الأمة كلها نفسًا وأبًا وأُمًّا، أضْيَعُها دمًا وأذلُّها أهلاً!» قال الحسين: فأين أذهب يا أخي؟ قال: «انزل مكة، فإن اطمأنت بك الدارُ فسبيل ذلك، وإن نبتْ[1] بك لحقتَ بالرمال وشَعَفَ الجبال[2] وخرجت من بلد إلى أُخرى، حتى تنظرَ إلى ما يصير أمر الناس، ويَفرُقَ لك الرأي، فإنك أصوب ما تكون رأيًا وأخرمه[3] عملاً حين تستقبل الأمور استقبالاً، ولا تكون الأُمور أبدًا أشْكَلَ منها حين تستدبرها[4]!» قال: قد نصحتَ وأشفقتَ وأرجو أن يكون رأيك سديدًا موفقًا إن شاء الله.

ثم دخل المسجد وهو يتمثل بقول يزيد بن مُفَرِّغ[5]: [من الوافر]

لا ذعرتُ السَّوَامَ[6] في شَفَقِ الصّبْحِ مُغِيرًا ولا دُعيتُ يَزيدا
يَومَ أُعطى من المَهابة ضَيْمًا والمَنايا يَرْصُدْنَني أن أحِيدا

ثم خرج نحو مكة وهو يتلو ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢١﴾ [القصص: ٢١]، ولما دخل مكة قرأ ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ٢٢﴾ [القصص: ٢٢].

قال: وأمَّا ابن عمر فإنَّ الوليد أرسل إليه ليبايعَ، فقال: إذا بايع الناس بايعتُ. فتركوه، وكانوا لا يخافونه.

وقيل: إن ابن عمر كان بمكة هو وابن عبَّاس، فعادا إلَى المدينة، فلقِيا الحسين وابن الزُّبَير، فقالا لهما: ما وراءكما؟ قالا: موت مُعاوية وبَيعة يزيد، قال ابن عمر: لا تفرِّقا جماعة المسلمين. وقدم هو وابن عبّاس المدينة، فلما بايع الناس بايعا.

قال: ودخل ابن الزُّبَير مكة وعليها عمرو بن سعيد فقال: أنا عائذٌ بالبيت. ولم يكن يصلّي بصلاتهم، ولا يُفيضُ بإفاضتهم، وكان يقف هو وأصحابه ناحية[7].

---

(١) أي إذا جفت. (٢) أي رؤوس الجبال.
(٣) أنفذه.
(٤) كان العرب يذمون الرأي الدبري، وهو تصور الأمر بعد فواته.
(٥) يزيد بن مفرغ بن يزيد بن زياد بن ربيعة الحميري ولقبه المفرغ، كنيته أبو عثمان. شاعر هجاء، وله في المديح والغزل شعر كثير، وله بيت سائر:
العَبدُ يُقرع بالعصا والحرُّ تكفيه الملامة
(٦) السوام والسائمة واحد وهو من الإبل والماعز ما يرسل ليرعى ولا يعلف إلاّ نادرًا.
(٧) انظر باختلاف وزيادة الطبري جـ٥ ص٣٤٣ وما بعدها.

ذكر استعمال عمرو بن سعيد على المدينة وإرسال عمرو بن الزُّبَير بالجيش إلى مكة لقتال أخيه عبد الله بن الزُّبير وهزيمة جيشه، ووفاة عمرو بن الزُّبير تحت السِّياط

وفي هذه السنة عزل يزيد بن معاوية الوليد بن عُتْبة عن المدينة، واستعمل عليها عمرو بن سعيد الأشدق، فقدمها في رمضان، واستعمل على شرطته عمرو بن الزُّبير، لما كان بينه وبين أخيه من البغضاء، فأرسل إلَى نَفر من أهل المدينة فضربهم ضربًا شديدًا: لهواهم في أخيه عبد الله، منهم أخوه المُنذر بن الزُّبير وابنه محمد بن المنذر وعبد الرحمٰن بن الأسود بن عبد يغوث، وعثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام، ومحمد بن عمار بن ياسر، وغيرهم، فضربهم الأربعين إلى الخمسين إلى الستين[١].

فاستشار عمرو بن سعيد عمرو بن الزُّبير فيمن يرسلُه إلى أخيه فقال: لا توجِّه إليه رجلاً أنكأ له مني، فجهز معه سبعمائة فيهم أُنيس بن عمرو الأسلمي.

فجاء مروان بن الحكم إلى عمرو بن سعيد فقال له: «لا تَغزُ مكة، واتقِ الله ولا تُحِلَّ حرمةَ البيت، وخلوا ابن الزُّبير فقد كَبِر، له ستون سنة» فقال عمرو بن الزبير: والله لَنغزوَنَّه في جوف الكعبة على رغم أنف من رغم.

وأتى أبو شُرَيْح الخُزاعي[٢] إلى عمرو فقال له: لا تغزُ مكة فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّما أُذِن لي في القتال فيها ساعة من نهار ثم عادت كحرمتها بالأمس»[٣] فقال له عمرو: نحن أعلم بحرمتها منك أيها الشيخ.

فسار عمرو بن الزبير وسَار أُنَيْس في مقدمته.

وقيل إن يزيد كتب إلى عمرو بن سعيد أن يرسلَ عمرو بن الزبير إلى أخيه عبد الله، فأرسله ومعه جيش نحو ألفي رجل، فنزل أُنيس بذي طُوَى[٤]، ونزل عمرو

---

(١) مقرعة أو عصا.

(٢) خويلد بن عمرو بن صخر بن عبد العزى العدوي الكعبي الخزاعي.

(٣) راجع صحيح البخاري بشرح الكرماني جـ٢ ص١٠٢ (بتخريج فتح الله رفعت).

(٤) طوى: وادٍ بمكة. معجم البلدان جـ٤ ص٤٥.

بالأبطح[١]، فأرسل عمرو إلى أخيه: برّ[٢] يمين يزيد، وكان قد حلف أنه لا يقبل بَيعته إلاَّ أن يُؤْتَى به في جامعة[٣] تعال حتَّى أجعل في عنقك جامعةً من فضة لا تُرى، ولا يضربُ الناس بعضهم ببعض، فإنك في بلد حرام.

فأرسل عبدُ الله بن الزبير عبدَ الله بن صفوان نحو أُنيس فيمن معه من أهل مكة ممن اجتمع إليه، فهزمه بذي طُوى، وقتل أُنيس. وسار مصعب بن عبد الرحمٰن إلى عمرو بن الزُّبير، فتفرق عن عمرو أصحابه، فدخل دار ابن عَلقمة، فأتاه أخوه عُبَيدة فأجاره، ثم أتى عبد الله فقال: قد أجرت[٤] عمرًا. فقال: «أتجيرُ من حقوق الناس هذا ما لا يصلحُ، وما أمرتك أن تجيرَ هذا الفاسقَ المستَحِلّ لحرمات الله!» ثم أقاد عمرًا من كل من ضربه إلا المنذر وابنه فإنهما أبيا أن يستقيدا، ومات عمرو بن الزبير تحت السياط.

ولنرجع إلى أخبار الحسين رضي الله عنه.

ذكر مقدم الحسين إلى مكة وما ورد عليه من كتب أهل الكوفة، وإرسال مسلم بن عقيل إليهم وما كان في خلال ذلك

قال: لما خرج الحسين من المدينة إلى مكة لقيه عبد الله بن مُطيع، فقال له: جُعلتُ فداك أين تريد؟ قال: أمّا الآن فمكة وأمّا بعدُ فإني أستخير[٥] الله. فقال: خارَ الله لك وجعلنا فِداك، فإذا أتيتَ مكة فإيَّاك أن تقرب الكوفة فإنها بلد مَشؤومة، بها قُتل أبوك وخُذل أخوك، واغتِيل بطعنة كادت تأتي على نفسه، الزَمْ فإنك سَيِّدُ العرب، لا يعدلُ بك أهلُ الحجاز أحدًا ويتداعى إليك الناس من كل جانب، ولا تفارق الحرم فِداك عمي وخالي، فوالله لئن هلكتَ لنُسْتَرَقَّنَّ بعدك!».

فأقبل حتَّى نزل مكة، وأهلها يختلفون إليه ويأتونه ومن بها من المعتمرين[٦]

---

(١) الأبطح: كل مسيل فيه دُقاق وحصى فرو أبطح، والأبطح يضاف إلى مكة وإلى منى لأن المسافة بينهما وبينه واحدة. راجع معجم البلدان جـ١ ص٧٤.

(٢) أي أوفي يمين يزيد.

(٣) وهي الغل، آلة من معدن يشد بها اليدان إلى العنق.

(٤) بات لي جارًا، أي بكنفي وحمايتي.

(٥) اسأله الخِيَرة في أمري.

(٦) طالبي العمرة.

وأهل الآفاق، وابن الزُّبير يأتي إليه ويُشير عليه بالرأي، وهو أثقلُ خلق الله على ابن الزبير، لأن أهل الحجاز لا يبايعونه ما دام الحسين بمكة.

قال: ولما بلغ أهلَ الكوفةِ موتُ معاوية وامتناعُ الحُسين وابن عُمر وابن الزُّبير رضي الله عنهم من البيعة، أرجفوا[١] بيزيد، واجتمعت الشِّيْعة في منزل سليمان بن صُرَد[٢]، فذكروا مسير الحسين رضي الله عنه إلى مكة، وكتبوا إليه عن نفر منهم: سليمان بن صرَد والمسيّب بن نَجَبَة ورِفاعة بن شدّاد وحبيب بن مُظهر[٣]: «بسم الله الرحمٰن الرحيم، وسلام عليك، فإنا نحمد إليك اللّهَ الذي لا إله إلا هو، أمّا بعد فالحمدُ لله الذي قَصَم عدوَّك الجبار العنيد الذي انتَزَى على هذه الأُمة فابتَزَّها أمرَها وغَصَبَها فيئَها وتأمّر عليها بغير رضا منها، ثم قتل خيارَها واستبقى شِرارها، وإنه ليس علينا إمامٌ، فأقبِل، لعل الله يجعلنا بك على الحق، والنُّعمان بن بَشير في قصر الإمارة لسنا نجتمع معه في جُمعة ولا عيد، ولو بلَغنا إقبالُك إلَينا أخرجناه حتَّى نُلحقه بالشام إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته». وسيَّروا الكتاب مع عبد الله بن سبْع الهمْدَاني وعبد الله بن وَائل.

ثم كتبوا إليه كتابًا آخر وسيّروه بعد ليلتين، فكتب الناس معه نحوًا من مِائة وخمسين صحيفة ثم أرسلوا إليه رسولاً ثالثًا يحُثُّونه على المسير إليهم، ثم كتب إليه شَبَث بن رِبْعِيّ وحَجّار بن أبْجَر ويزيد بن الحارث ويزيد بن رُوَيْم وعَزْرَة بن قَيْس وعمرو بن الحجاج الزُّبيدي ومحمد بن عُمَيْر التميمي بذلك.

فلما اجتمعت كتبهم عنده كتب إليهم: «أمّا بعد فقد فهمتُ كلَّ الذي اقتصصتم، وقد بعثت إليكم أخي وابنَ عمّي وثِقَتي من أهل بيتي مُسلمَ بن عقيل[٤]، وأمرته أن

---

(١) خاضوا بأخبار السوء حوله.

(٢) سليمان بن صرد بن الجون بن أبي الجون عبد العزى بن منقذ السلولي الخزاعي، كنيته أبو مطرف، صحابي، شهد مع الإمام علي كرّم الله وجهه الجمل وصفين.

(٣) وصوابه حبيب بن مظاهر بن رئاب بن الأشتر بن مجوان الأسدي الكندي الفقعسي، تابعي قائد شجاع. صحب الإمام علي كرّم الله وجهه، في حروبه كلها، وكانا على ميسرة الحسين السبط ابن بنت رسول الله ﷺ في كربلاء وعمره خمس وسبعون سنة رفض الأمان يوم كربلاء قائلاً: لا عذر لنا عند رسول الله ﷺ إنْ قُتل الحسين وفينا عين تطرف. استشهد مع الحسين السبط ابن بنت رسول الله ﷺ في كربلاء سنة ٦١هـ. راجع جمهرة الأنساب ص٣٤٨.

(٤) مسلم بن عقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، تابعي عليم شجاع، انتدبه الحسين السبط ابن بنت رسول الله ﷺ إلى الكوفة فطلبه ابن زياد (عبيد الله) فقتله ومضى شهيدًا أواخر سنة ٦٠هـ. راجع الكامل في التاريخ جـ٤ ص٢٦ وما بعدها.

يكتب إليَّ بحالكم وأمركم ورأيكم، فإن كتب إليَّ أنه قد اجتمع رأيُ ملَئكم[١] وذَوِي الحجى[٢] منكم على مثل ما قدِمتْ به رسلكم، أقْدِمُ عليكم وَشِيكًا إن شاء الله تعالى، فلَعَمري ما الإمام إلا العالمُ بالكتاب، والقائمُ بالقسط والدائنُ بدين الحق والسلام».

وقدم على الحسين رضي الله عنه من البصرة يزيد بن أبي نُبَيْط وابناه عبد الله وعبيْد الله إلى مكة، فكانوا معه حتى قُتل وقتلوا معه.

ثم دعا الحسين مُسلم بنَ عقيل فسيَّره إلى الكوفة، وأمره بتقوى الله وكتمان أمره واللطْف فإن رأى الناس مجتمعين له عجّل إليه بذلك.

فسار مسلم إلى المدينة، فصلى في مسجد النبي ﷺ، وودع أهله، وسار حتى بلغ الكوفة، فنزل في دار المختار وأقبلت الشيعةُ تختلف إليه، فكلما اجتمع إليه جماعة منهم قرأ عليْهم كتاب الحسين، فيبكون ويَعِدونه النصرة والقتال، فبلغ النُّعمانَ بن بَشير أمير الكوفة ذلك، فصعد المنبر فقال: «أمّا بعدُ فلا تسارعوا إلى الفِتنة والفرْقة، فإن فيهما تهلك الرجالُ وتُسفك الدماءُ وتُغصب الأموالُ» ثم قال: «إني لا أُقاتل من لم يقاتلْني، ولا أثِبُ على من لا يثبُ علَيّ ولا أُنَبِّهُ نائمَكم ولا أتحرّشُ بكم، ولا آخذ بالقَرْف[٣] ولا الظِّنَّة ولا التهمة، ولكنكم إن أبديْتُم صفحتكم ونكثتم بَيْعتكم، وخالفتم إمامكم، فوالله الذي لا إله إلا هو لأضربنّكم بسيفي ما دام قائمه في يدي، ولو لم يكن لي منكم ناصر ولا معين. أمَا إني لأرجو أن يكون من يعرفُ الحق منكم أكثر ممن يُردِيه الباطل».

فقام إليه عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضْرَمي حليف بني أُمية فقال: «إنه لا يصلحُ ما ترى إلا الغَشْم[٤]، إن هذا الذي أنت عليه رأيُ المستضعفين». فقال: لأن أكونَ من المستضعفين في طاعة الله أحبُّ إليَّ من أن أكون من الأعَزِّين في معصية الله». ثم نزل. وكان حليمًا ناسكًا يحب العافية. وقيل: إنه لم يقل ذلك، وإنما قال: يا أهل الكوفة إن ابن بنت رسول الله ﷺ أحبُّ إلي من ابن بنت بحدل.

---

(١) الملأ: عامة الناس أو جمعهم.

(٢) ذوي الحجى: أولو العلم والمعرفة والعقل.

(٣) القرف: مقارنة الشيء، ومنه مقارفة الشيء أي فعله.

(٤) الغشم: الظلم.

ذكر استعمال عبيد الله بن زياد على الكوفة وقدومه إليها وخبره مع هانىء بن عروة

قال: ولما تكلم النعمان بن بشير بما تكلم به، كتب عبد الله بن مسلم إلى يزيد يخبره بقدوم مسلم بن عقيل إلى الكوفة، ومبايعة الناس له، ويقول: «إن كان لك بالكوفة حاجة فابعثْ إليها رجلاً قويًا ينفذ أمرك، ويعمل مثل عملك في عدوّك، فإن النعمان رجلٌ ضعيفٌ أو هو يتضعّف» ثم كتب إليه بعده عمارة بن الوليد بن عقبة وعمر بن سعد بن أبي وَقَّاص بنحو ذلك.

فلما اجتمعت الكتب عند يزيد دعا سرجون مَولَى معاوية، فأقرأه الكتب، واستشاره فيمن يولّيه أمر الكوفة، وكان يزيد عاتبًا علَى عُبيد الله بن زياد، فقال له سرجون: أرأيْتَ لو نُشِر[1] لك معاوية أكنت تأخذ برأيه؟ قال: نعم. فأخرجَ له عهدَ عُبيد الله على الكوفة، فقال: هذا رأيُ معاوية ومات وقد أمرَ بهذا الكتاب، فأخذ يزيد برأيه، وجمع له بين الكوفة والبصرة، وكتب له بعهده وسَيَّره إلَيه مع مسْلم بن عمرو الباهليّ والِدِ قُتيبة، وأمره بطلب مسلم بن عَقِيل وقتله أو نفيه.

فلمّا وصل كتابه إلَى عُبيد الله تجهز ليسير من الغد.

وكان الحسينُ قد كتب إلى أشراف البصرة، منهم مالك بن مِسْمع، والأحنف بن قيْس والمنذر بن الجارود، ومسعود بن عمرو، وقيس بن الهيثم، وعمر بن عبيد الله بن مَعْمَر. يدعوهم إلى كتاب الله وسنّة رسوله، فإن السنّة قد ماتت، والبدعةَ قد أُحييت، فكلهم كتم كتابه إلا المنذر بن الجارود، فإنه خشيَ أن يكون دسيسًا من ابن زياد، فأتاه بالرسول والكتاب، فضرب عنق الرسول، وخطب الناس ثم قال في آخر كلامه: «يا أهل البصرة، إن أميرَ المؤمنين ولأّني الكوفة، وأنا غادٍ إليها بالغد، وقد استخلفتُ عليكم أخي عُثمان بن زياد، فإياكم والخلاف والإرجاف، فواللّهِ لئن بلغني عن رجل منكم خِلافٌ لأقتلنّه وعَرِيفَه ووليّه[2]، ولآخذنّ الأدنى بالأقصَى حتى تستقيموا ولا يكون فيكم خلاف ولا شِقاق إني أنا ابن زياد، أشبهته من بين مَن وطىء الحصَى[3]، فلم ينتزعني شَبَهُ خالٍ ولا ابن عمّ!».

---

(١) بُعث من قبره.

(٢) لأقتلنه وسيده وعبده.

(٣) أراد من بين الخلق جميعًا.

ثم خرج من البصرة ومعه مسلم بن عمرو الباهليّ وشريك بن الأعور الحارثي وحَشَمُه وأهل بيته، وكان شريك شِيعيًا. وقيل: كان معه خمسُمائة فتساقطوا عنه، وكان أول من سقط شريك، ورجَوا أن يقفَ عليهم فيسبقه الحسين إلى الكوفة، فلم يقف على أحد منهم حتَّى دخل الكوفة وحده، فجعل يمر بالمجالس فلا يشكُّون أنه الحسين بن عليّ فيقولون: مرحبًا بك يا ابن رسول الله، وهو لا يكلمهم، وخرج إليه الناس من دورهم، فساءه ما رأى منهم.

وسمع به النعمان، فأغلق عليه الباب، وهو لا يشكُّ أنه الحسين، وانتهى إلَيه عبيد الله ومعه الخلق يصيحون، فقال له النعمان: «أنْشُدك الله إلا تنحيت عني، فَوَاللّهِ ما أنا مسلم إليك أمانتي، وما لي في قتالك من حاجة!» فدنا منه عبيد الله وقال: «افتحْ لا فتحت!» فسمعها إنسان خلفه فرجع إلى الناس فقال: إنه ابن مَرجانة[1]! ففتح له النعمان فدخل، وأغلقوا الباب وتفرق الناس.

وأصبح فجلس على المنبر، وقيل بل خطبهم من يومه، فقال: أما بعد، فإن أميرَ المؤمنين وَلاَّني مِصركم وثَغْركم وفيئكم وأمرني بإنصاف مظلومكم وإعطاء محرومكم، والإحسانِ إلى سامعكم ومطيعكم وبالشِّدة عَلى مُريبكم وعاصيكم، وأنا متَّبعٌ فيكم أمره، وُنفِذٌ فيكم عهده، فأنا لمحسنكم كالوالد البر، ولمطيعكم كالأخ الشقيق، وسيفي وسوطي على من ترك أمري وخالف عهدي فَلْيُبقِ امرؤ على نفسه». ثم نزل.

وأخذ العُرفاءَ والناسَ أخذًا شديدًا، وقال: «اكتبوا إلى الناس الغرباء، ومن فيكم من طلبة أمير المؤمنين، ومن فيكم من الحَرورية[2] وأهل الريب الذين رأيُهم الخِلاف والشِّقاق، فمن كتبهم لي فقد برىء، ومن لم يكتب لنا أحدًا فليضمن لنا ما في عرافته لا يخالفنا فيهم مخالف، ولا يبغي علينا منهم باغ، فمن لم يفعل فبرئت منه الذمَّة، وحلال لنا مالُه ودمه، وأيُّما عَريف وُجد في عِرافته أحد من بُغْية أمير المؤمنين لم يرفعه إلينا صُلِب على باب داره، وأُلغيت تلك العِرافية من العطاء وسُيِّر إلى موضع بعُمان» ثم نزل.

قال: وسمع مسلم بن عَقِيل بمقالة عُبيد الله فخرج من دار المختار وأتى دار

---

(١) مرجانة زوجة زياد ابن أبيه وأم عبيد الله بن زياد.

(٢) فرقة من فرق الخوارج مرّ ذكرها.

هانىء بن عُروة المرادي[1] فدخل بابه واستدعاه، فخرج إليه، فلما رآه كره مكانه، فقال له مسلم: أتيتك لتجيرني وتضيفني. فقال هانىء: «لقد كلَّفتَني شَطَطًا[2]، ولولا دخولك داري لأحببت أن تنصرف عني، غير أنه يأخذني من ذلك ذِمام[3]، ادخلْ!» فآواه، واختلفت الشيعة إليه في دار هانىء.

قال ومرض هانىء، فأتاه عُبيد الله يعوده، فقال له عُمارة بن عمير السلوليّ: دعنا نقتل هذا الطاغية، فقد أمكن الله منه، فقال هانىء ما أُحب أن يُقتَل في داري، وجاء ابن زياد فجلس عنده ثم خرج، فما مكث إلا جمعة حتى مرض شريك بن الأعور، وكان قد نزل على هانىء، وكان كريمًا على ابن زياد وعلى غيره من الأُمراء، وكان شديدَ التشيع، فأرسل إليه ابن زياد: إني رائح إليك العشية. فقال لمسلم بن عَقِيل: «إن هذا الفاجر عائدي العشية فإذا جلس فاقتله ثم اقصد القصرَ ليس أحد يحول بينك وبينه، فإن بُريتُ من وجعي سرت إلى من بالبصرة فكفيتك أمرهم». فلمّا كان من العشيّ أتاه عُبيد الله فقام مُسلم بن عُقِيل ليدخل، فقال له شريك: لا يفوتنَّك إذا جلس. فقال هانىء بن عُروة: إني لا أُحبّ أن يقتل في داري. وجاء عُبيد الله فجلس عند شريك وأطال، فلما رأى شريك أن مسلمًا لا يخرج خشِي أن يفوته، فأخذ يقول: «ما تنظرون بسلمَى أن تحيُّوها! اسقونيها وإن كانت فيها نفسي!» يقول ذلك مَرَّتين أو ثلاثًا، فقال عبيد الله: «ما شأْنُه؟ تَرَونه يخلط!» فقال هانىء: «نعم، ما زال هذا دأبه قُبيل الصبح حتَّى ساعته هذه» فانصرف.

وخرج مسلم، فقال له شريك: ما منعك من قتله؟ فقال: «أمران: أحدهما كراهية هانىء أن يُقتَل في منزله، والثاني حديثٌ حدَّثَه عليٌّ رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ: «الإيمانُ قَيَدُ[4] الفَتْك فلا يفتك مؤمن»[5]. فقال هانىء: لو قتلتَه لقتلتَ فاسقًا فاجرًا كافرًا غادرًا!.

---

(١) هانىء بن عروة بن الفضفاض بن عمران الغطيفي المرادي. سيدٌ مِن سادات الكوفة وكان من صحابة الإمام علي كرّم الله وجهه وخواصه، استحل ابن زياد دمه الحرام وقتله وصلبه لإجارته مسلم بن عقيل في الكوفة أواخر سنة ٦٠هـ. راجع مقاتل الطالبيين ص٩٧ وما بعدها.

(٢) كثيرًا.

(٣) مفردها ذمة وهي الأمانة أو العهد.

(٤) قيد: منع.

(٥) راجع سنن أبي داود باب الجهاد ص١٧٥، ومسند أحمد جـ١ ص١٦٦ فتأمل الفرق بين من اتقى الله سبحانه وتعالى فخاف مخالفة أحكامه كما أداها رسوله ﷺ وبين تلك الطغمة التي حكمت بالقهر والغلبة.

ومات شريك بعد ذلك بثلاث، فصلّى عليه عُبيد الله، فلمّا علم أنه كان يحرِّض مُسْلمًا على قتله قال: والله لا أُصلّي على جنازة عراقي أبدًا[١]!.

قال: وكان عُبيد الله بن زياد قد أعطى مَوْلًى له ثلاثة آلاف درهم وأمره أن يتلطَّف في الدخول على مسلم بن عَقيل وأصحابه، [وقال]: أعطِهم هذا المالَ وأعْلِمْهم أنك منهم واعْلم أخبارَهم. ففعل، وأتى مُسلمَ بن عَوْسَجة الأسديّ[٢] فقال له: «يا عبد الله، إني امرُؤٌ من أهل الشام، أنْعَم الله عليَّ بحُبّ أهل البيت، وهذه ثلاثة آلاف درهم أردتُ بها لِقاء رجل منهم بلغني أنه قدم الكوفة يبايع لابن بنت رسول الله ﷺ، وقد سمعتُ نفَرًا يقولون: إنك تعرف أمر هذا البيت، وإني أتيتك ليقبضَ المال وتدخلني على صاحبك أُبايعه، وإن شئت أخذت بيعتي له قبل لقائه». فقال: «لقد سَرَّني لقاؤك إيَّاي لتنال الذي تحبّ، وينصرَ اللّهُ بك أهل بيت نبيه وقد ساءني معرفة الناس هذا الأمر من قبل أن يتم، مخافة هذا الطاغية وسطوته» فأخذ بيعته والمواثيق المعظمة ليناصحنَّ ولَيَكْتُمنَّ.

واختلف إليه أيّامًا، حتى أدخله على مسلم بن عَقِيل، فأخذ بيعته وقبض ماله، وذلك بعد موت شريك، وجعل يختلف إليهم ويعلم أسرارهم وينقلها إلى ابن زياد.

وكان هانىء قد انقطع عن عُبَيد الله بعذر المرض، فدعا عبيدُ الله محمدَ بن الأشعث وابن أسماء بن خارجة[٣]، وعمر بن الحجاج الزُّبيديّ، فسألهم عن هانىء وانقطاعِه، فقالوا إنه مريض. قال: بلغني أنه يجلس على باب داره وقد برىء، فأْتُوه فمُروه لا يدع ما عليه في ذلك من الحق.

فأتَوه فقالوا له: «الأميرُ قد سأل عنك، وقال: لو أعلمُ أنه شاكٍ لعُدْتُه[٤]، وقد بلغه أنك تجلس على باب دارك، وقد استبطأك، والجَفا لا يحتمله السلطان، أقْسَمنَا علَيك لَمَّا ركبتَ معنا». ففعل فلما دنا من القصر أحسَّت نفسه بالشر، فقال لحسّان بن أسماء بن خارجة: يا بن أخي إني لهذا الرجل لَخائفٌ، فما ترى؟ فقال: ما أتخوف عليك شيئًا، فلا تجعلْ على نفسك سبيلاً، ولا يعلم أسماء مما كان شيئًا[٥].

---

(١) انظر النص في الطبري باختلاف جـ٥ ص٣٦١.

(٢) مسلم بن عوسجة الأسدي بطل من أبطال العرب وشرفائهم، شهد كثيرًا من الفتوح ومنها أذربيجان. ناصر الحسين السبط ابن بنت رسول الله ﷺ واستشهد انتصارًا له سنة ٦١هـ. راجع الكامل في التاريخ جـ٤ ص٥٨ وما بعدها.

(٣) حسان بن أسماء بن خارجة.

(٤) أي مريض. والعائد هو زائر المريض.

(٥) راجع الطبري باختلاف وزيادة جـ٥ ص٣٦٥.

قال: فدخل القوم على ابن زياد، فلما رأى هانىء بن عُرْوَة قال لشُريح القاضي: «أتتك بحائن رجلاه»[١] فلما دنا منه قال عُبيد الله: [من الوافر]

أُريدُ حياتَه ويُريدُ قَتْلي عَذِيرَكَ مِنْ خَليلكَ مِن مُراد

فقال له هانىء: وما ذاك؟ فذكر له خبر مُسلم بن عَقِيل، وأنه في داره، فأنكر ذلك، وطال بينهما النزاع، فاستدعى عبيد الله مولاه الذي كان يأتيهم، فجاء فوقف بين يديه، فقال: أتعرفُ هذا؟ فقال: نعم. وعلم هانىء أنه كان عَيْنًا[٢] عليهم، فَسُقط في يده ساعة، ثم راجعتْه نفسه فقال: «اسمع مني وصدقني، فوالله لا أكذبك، واللّه ما دعوته ولا علمت بشيء من أمره حتى رأيته جالسًا على بابي يسألني النزول عليّ، فاستحييت من رَدِّه ودخلني من ذلك ذِمام، فأدخلته داري وضِفته، وقد كان من أمره الذي بلغك، فإن شئت أعطيْتُك الآن مَوْثِقًا تطمئن إليه، ورَهينة كون في يدك حتَّى أنطلق وأُخرجه من داري وأعود إليك». فقال: لا والله لا تفارقني أبدًا حتَّى تأتيني به. قال: لا آتيك بضيفي لتقتله أبدًا، فقال ابن زياد: واللّهِ لَتأتينّي به أو لأضربَنَّ عنقك. قال: إذًا والله تكثر البارقة[٣] حول دارك. فقال: أبِالبارقة تخوفني؟!.

وقيل إن هانئًا لما رأى ذلك اللعين قال: أيها الأمير إنه قد كان الذي بلغك، ولم أُضيِّعْ يدك عندي، فأنت آمنٌ وأهلَكَ فسر حيث شئت، فأطرق عُبيد الله عند ذلك ومِهْرانُ[٤] قائم على رأسه، فقال واذلاه! هذا الحائكُ يؤمنك في سلاطنك! فقال: خذه، فأخذ مهران ضفيرتي هانىء، وأخذ عُبيد الله القضيب ولم يزل يضرب به أنفه وجبينه وخديه حتى كسر أنفه، وسَيَّل الدِّماء على ثيابه، ونثر لحم خديه وجبينه على لحيته حتى كسر القضيب، وضرب هانىء يده إلى قائم سيف شُرطي وجبذه[٥] فمنع منه، فقال عُبيد الله: أحَرُوري! أحللت بنفسك وحل لنا قتلك، ثم أمر به فأُلقي في بيت وأُغلق، فقام إليه أسماء بن خارجة وقال: «يا غادر أرسله؛ أمرتنا أن نجيئك بالرجل فلما أتيناك به هشمت وجهه، وسيَّلتَ دمه، وزعمت أنك تقتله» فأمر به عُبيد الله فلُهز وتُعْتع[٦] ثم تُرِك فجلس. وأما ابن الأشعث فقال: رضينا بما رأى الأمير، لنا كان أو علينا.

---

(١) الحائن: الذي اقترب حينه وهو يوم وفاته. راجع مجمع الأمثال للميداني جـ١ ص٢١ رقم ٥٧.

(٢) أي جاسوسًا.

(٣) كناية عن السيوف والرماح، وعدة الحرب بالجملة.

(٤) مهران كاتب عبيد الله بن زياد وكان قدم عند الأمير.

(٥) أي جذبه.

(٦) اللهز: الدفع بآلة، وتعتعه إذا حركه بعنف.

وبلغ عمرو بن الحجاج أن هانئًا قد قتل، فأقبل في مَذْحج حتَّى أحاطوا بالقصر، ونادى: «أنا عمرو بن الحجاج، هذه فرسان مَذْحج ووجوهها، لم نخلعْ طاعةً، ولم نفارقْ جماعةً. فقال ابن زياد لشُرَيح القاضي: «ادخل علَى صاحبهم، فانظرْ إليه، ثم اخرجْ إليهم فأعلمهم أنه حيٌّ لم يُقتل وأنك قد رأيته» فدخل عليه، وخرج إليهم فقال: قد نظرت إلى صاحبكم وأنه حيّ لم يقتله، فقالوا: إذ لم يقتله فالحمد لله، ثم انصرفوا.

ذكر ظهور مسلم بن عقيل
واجتماع الناس عليه، ومحاصرته عُبيد الله بن زياد بالقصر
وكيف خذله من اجتمع إليه وتفرقوا عنه
وخبر مقتله ومقتل هانىء بن عُروة

قال: ولما أتى الخبر مسلم بن عَقِيل خرج من دار هانىء، ونادى في أصحابه: «يا منصور أمت»[١] وكان قد بايعه ثمانية عشر ألفًا، وحوله في الدور أربعة آلاف، فاجتمع إليه ناس كثير، فعقد لعبد الله بنُ عزَير الكِنديّ على رُبع[٢] كندة، وقال: سِرْ أمامي. وعقد لمسلم بن عَوْسَجة على ربع مَذْحج وأسد، وعقد لأبي ثُمَامة الصائديّ على ربع تميم وهمدان، وعقد لعباس بن جَعْدة الجَدَليّ على ربع المدينة، وأقبل نحو القصر[٣].

فلما بلغ ابن زياد إقبالُه تَحرّز بالقصر وأغلق الباب، وأحاط مسلم بالقصر، وامتلأ المسجد والسوق بالناس، وما زالوا يجتمعون حتَّى المساء، وضاق بعبد الله أمره، وليس معه في القصر إلا ثلاثون رجلًا من الشُّرَط، وعشرون من الأشراف وأهل بيته ومواليه، وأقبل أشرافُ الناس يأتون ابن زياد من قبل الباب الذي يلي دار الروميين، والناس يسبون ابن زياد وأباه[٣].

فدعا ابن زياد كثيرًا بن شهاب الحارثي، وأمره أن يخرج فيمن أطاعه من مَذْحج فيخذِّلَ الناسَ عن ابن عقيل ويخوفّهم، وأمر محمد بن الأشعث أن يخرج فيمن أطاعه من كِنْدة وحضرموت فيرفع راية الأمان لمن جاءه من الناس، وقال مثل ذلك للقعقاع بن شَوْر الذُّهلي، وشَبَث بن رِبْعي التميمي، وحَجَّار بن أبْحَر العجْلي،

---

(١) وهو كلمة سرهم للتجمع وبدء الانتفاض.

(٢) الربع: الدار وهي هنا كناية عن العشيرة.

(٣) راجع النص باختلاف عند الطبري ج٤ ص٢٧٦.

وشمر بن ذي جَوْشَن الضبابيّ[١] وترك وجوه الناس عنده استئناسًا بهم، لقلة من معه.

وخرج أُولئك النفر على الناس من القصر، فمنُّوا[٢] أهل الطاعة، وخوَّفوا أهل المعصية، فلما سمع الناس مقالة أشرافهم تفرقوا، حتَّى إن المرأة لتأتي ابنها وأخاها، فتقول: «انصرفْ، الناسُ يَكْفونك»، ويفعل الرجل مثل ذلك.

فما زالوا يتفرقون حتى بقي مُسْلم بن عَقِيل في المسجد في ثلاثين رجلًا، فلما رأى ذلك خرج نحو أبواب كِنْدة، فلما وصل إلى الباب لم يَبْقَ معه أحد، فمضى في أزِقَّة الكوفة لا يدري أين يذهب.

فانتهى إلى باب امرأة من كِنْدة يقال لها طَوْعة، أم ولد كانت للأشعث، فأعتقها، فتزوجها أسيد الحضرميّ، فولدت له بلالاً وكان بِلال قد خرج مع الناس، وهي تنتظره، فسلَّم عليها، وطلب منها ماء فسقته، فجلس، فقالت: يا عبد الله أَلَم تشرب؟! قال: بلى؛ فقالت: فاذهبْ إلى أهلك؛ فسكت، فكررت ذلك عليه ثلاثًا فلم يبرح؛ فقالت: سبحان الله! إني لا أُحِلُّ لك الجلوس على بابي. فقال: ليس لي في هذا المصر منزل ولا عشيرة، فهل لكِ في أجر معروف، ولعلِّي أُكافئك به بعد اليوم. قالت: وما ذاك؟ قال: أنا مُسْلم بن عَقِيل، كَذَبني هؤلاء القوم وغَرُّوني. قالت: ادخُلْ؛ فأدخلته بيتًا في دارها، غير البيت الذي تكون فيه، وعرضت عليه العَشاء فلَم يتعشَّ، وجاء ابنُها فرآها تكثر الدخول في ذلك البيت، فسألها، فلم تخبره، فألحَّ عليها، فأخبرته، واستكتمته وأخذت عليه الأيمان بذلك[٣].

قال: وأمَّا ابن زياد، فلما سكنت الأصوات قال لأصحابه: انظروا هل تَرَون منهم أحدًا؟ فنظروا فلم يَرَوا أحدًا، فنزل إلى المسجد قبل العَتَمة، وأجلس أصحابه حول المنبر، وأمر فنودي: «برئت الذمةُ من رجلٍ من الشُّرَط والعُرفاءِ والمناكبِ والمقاتلةِ صَلَّى العَتَمة إلا في المسجد، فامتلأ المسجد، فصلَّى بالناس، ثم قام فحمد ثم قال: «أمَّا بعد، فإن ابن عَقِيل السَّفيه الجاهل قد أتَى ما رأيتم من الخلاف والشِّقاق، فبرئت الذمَّةُ من رجل وجدناه في داره، ومن أتانا به فله ديته» وأمرهم

---

(١) شمر بن ذي الجوشن، شمر لقبه واسمه شرحبيل بن قرط الضبابي الكلابي، كنيته أبو السابغة، أحد أشدّ قتلة الحسين السبط ابن بنت رسول الله ﷺ وكان الشمر، لعنه الله، من الذين رفعوا رأس الحسين السبط سلام الله عليه إلى الشام وأركض خيله على جسد السبط الشريف، قتل على أيدي التوابين بقيادة المختار الثقفي وألقيت جثته للكلاب. راجع سفينة البحار للقمي ج١ ص٧١٤، والكامل في التاريخ ج٤ ص٢٣٦.

(٢) وعدوهم بالأماني.

(٣) راجع ابن الأثير ج٤ ص٢٣٦ بزيادة.

بالطاعة ولزومها، وأمر الحصين بن تميم أن يُمسكَ أبواب السكك[١]، ثم يفتشَ الدُّور[٢].

وأصبح ابن زياد فجلس، فأتَى بِلال إلى عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث وأخبره بمكان ابن عَقِيل، فأتَى عبد الرحمٰن أباه وهو عند ابن زياد فسارَّه بذلك، فأخبر محمد بن الأشعث ابنَ زياد، فقال له: قم فأْتني به الساعة؛ وبعث معه عمرو بن عُبَيد الله بن عباس السُّلَمي في سبعين من قيس، فأتَوا الدار، فخرج ابن عقيل إليهم بسيفه حتَّى أخرجهم من الدار، ثم عادوا إليه فحمل عليهم فأخرجهم مرارًا، وضربه بكر بن حُمْران الأحمريّ فقطع شَفَته العُليا وسقط سنَّتاه، وضربه مسلم على رأسه وثَنَّى بأُخرى على حبل العاتق فكادت تطلع على جوفه، فلما رأوا ذلك أشرفوا على سطح البيت، وجعلوا يرمونه بالحجارة ويلهبون النار في القصب ويلقونه عليه، فلما رأى ذلك خرج عليهم بسيفه فقاتلهم في السكة[٣]، فقال له محمد بن الأشعث: لك الأمان فلا تقتلْ نفسك؛ فأقبل يقاتلهم ويقول: [من الرجز]

أقسمت لا أُقْتَلُ إلاَّ حُرَّا وإنْ رأيتُ الموتَ شيئًا نُمْرَا
ويخلط البارِدُ سخنًا مرَّا ردَّ شعاعَ النفس مُسْتَقَرَّا
كلُّ آمْرِىء يَومًا مُلاقٍ شرَّا أخاف أن أُكْذَبَ أو أُغَرَّا

فقال له محمد بن الأشعث: إنك لا تُكذَب ولا تُخدع، القوم بنو عمك وليسوا بقاتليك ولا ضاربيك، وكان قد أثخِن بالحجارة، وعجز عن القتال، وأسند ظهره إلى حائط تلك الدار، فأمَّنه ابن الأشعث والناس غَيْر عمرو بن عُبيد الله السُّلَمي فإنه قال: لا ناقتي فيها ولا جملي.

وأتي ببغلة فحُمل عليها، وانتزعوا سيفه، فكأنه أيس من نفسه فدمعت عيناه وقال: هذا أولُ الغدر. قال محمد: أرجو ألا يكون عليك بأس. قال: وما هو إلا الرجاء! أين أمانُكم! ثم بكَى، فقال له عمرو بن عُبيد الله: مَن يطلب الذي تطلب إذا نزل به مثلُ الذي نزل بك لم يبك، فقال: ما أبكي لنفسي، ولكن أبكي لأهلي المنقلبين[٤] إلَيكم: أبكي للحُسين[٥] وآل الحسين. ثم قال لمحمد بن الأشعث: «إني

---

(١) الطرق. (٢) انظر الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٣٢.

(٣) الطريق. (٤) الآتين.

(٥) الحسين السبط سيد شباب أهل الجنة ابن علي بن أبي طالب، وابن فاطمة الزهراء بضعة الرسول ﷺ.

أراك تعجزُ عن أماني، فهل تستطيعُ أن تبعث من عندك رجلاً يخبر الحسين بحالي، ويقولُ له عني: ليرجعْ بأهل بيته ولا يغره أهل الكوفة، فإنهم أصحاب أبيك الذي كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل؟» فقال ابن الأشعث: واللّهِ لأفعلنَّ. وفعل. وأبى الحسين الرجوع.

قال: وجاء محمد بمسلم إلى القصر فأجلسه على بابه ودخل هو إلى ابن زياد فأخبره بأمانِه، فقال له: ما أنت والأمان! ما أرسلناك لتُؤمنه، إنما أرسلناك لتأتينا به.

قال: ولما جلس مسلم على باب القصر رأى جَرَّة فيها ماء بارد فقال اسقوني من هذا الماء، فقال له مسلم بن عمرو الباهلي: أتراها ما أبرَدَها! واللّهِ لا تذوق منها قَطرةً حتّى تذوقَ الحميمَ[١] في نار جهنَّم! فقال له ابن عَقِيل: من أنت؟ قال: «أنا مَن عرف الحقَّ إذ أنكرتَه، ونصح الأمة وإمامَه إذ غششته، وسمعَ وأطاع إذ عصيته، أنا مسلم بن عمرو. فقال له ابن عقيل: لأُمك الثُّكل، ما أجفاك وأفظَّك وأقسى قلبك وأغلظك! أنت يا ابن باهلة أولَى بالحميم والخلود في نار جهنم مني!» قال: فدعا عُمارة بن عُقْبة بماء بارد فصبّ له في قدح، فأخذ يشرب فامتلأ القدح دمًا: فعل ذلك ثلاثًا، ثم قال: لو كان من الرِّزق المقسوم لشربته.

وأُدخل على ابن زياد، فلم يسلم عليه بالإمرة، فقال له الحَرَسِي: ألاَ تسلِّم على الأمير. فقال: إن كان يريدُ قتلي فما سلامي عليه! وإن كان لا يريده فلَيَكْثُرَنَّ تسليمي عليه. فقال ابن زياد: لَعَمري لَتُقْتَلَنَّ. قال: فدعني أُوصي إلى بعض قومي. قال: افعل. فقال لعمر بن سعد بن أبي وَقَّاص: «إن بيني وبينك قرابة، ولي إليك حاجة وهي سر». فلم يُمكنه من ذكرها، فقال له ابن زياد: لا تمتن من حاجة ابن عمك. فقام معه، فقال: «إن عليَّ بالكوفة دَينًا استدنتُه أنفقته: سبعمائة درهم، فاقْضِها عنِّي، وانظر جُثَّتي فاستوهِبْها فَوارِها[٢]، وابعث إلى الحسين فارِدُدْه». فقال عمر لابن زياد: أتدري ما سارّني؟ فقال: أكثرتُمْ عَلَى ابن عمك؛ فقال: الأمر أكبر من هذا. قال: اكتم على ابن عمك، قال: الأمر أكبر من هذا، وأخبره بما قال. فقال ابن زياد: لا يخونك الأمين، ولكن قد يُؤتَمن الخائن. أمّا مالُكَ فهو لك تصنع به ما شِئتَ، وأمّا حُسين فإن لم يُرِدْنا لم نُرِدْه، وإن أرادنا لم نكُفَّ عنه، وأمّا جثّته فإنا لا نُشفِّعُك فيها» وقيل: إنه قال: وأمّا جثته فإذا قتلناه لا نبالي ما صُنِع بها[٣].

---

(١) الحميم: الحجارة الحامية من شدة الوقد. (٢) أي ادفنها.

(٣) راجع ابن الأثير بزيادة جـ٤ ص٣٤.

ثم قال: يا ابن عَقيل، أتيتَ الناسَ وأمرهُم جميعٌ وكلمتُهم واحدةٌ لتشتيت بَيْنهم، وتفريق كلمتهم. قال: «كلا ولكن أهل هذا المصر زعموا أنَّ أباك قتل خيارهم، وسفك دماءهم وعمِل فيهم أعمال كِسْرَى وقَيْصر فأتيناهم لنأمُرَ بالعدل، وندعُوَ إلَى حكم الكتاب. فقال: وما أنت وذاك؟ ثم كانت بينهما مقاولة قال له ابن زياد في آخرتها: قتلني اللّهُ إن لم أقتلك قِتْلةً لم يُقْتَلْها أحدٌ في الإسلام، فقال: «أمَا إنك أحقُّ مَن أحدث[1] في الإسلام ما ليس فيه، أمَا إنك لا تَدَعُ سوء القتلة وقُبْحَ المُثْلة[2] وخُبْثَ السِّيرة ولُؤمَ الغلبة لأحدٍ من الناس أحقَّ بها منك!» فشتمه ابن زياد وشتم حُسَيْنًا وعليًا وعَقيلاً ولم يكلِّمه مسلم.

ثم أمَر به، فأُصْعِد فوق القصر وهو يستغفرُ اللّهَ تعالى ويُسبِّح، وأُشْرِف به على موضع الحدادين فضربت عنقه، وكان الذي قتله بُكير بن حُمْران، ثم أتبع رأسه جسده[3].

قال: وقام محمد بن الأشعث فكلَّم ابن زياد في هانىء بن عروة، وقال: قد عرفت منزلته من المصر وبيته، وقد علم قومه أني أنا وصاحبي سقناه إليك، فأنْشُدك اللّهَ لمَّا وهبته، فإني أكره عداوة قومه!».

فوعد أن يفعل، ثم بدا له فأمر به حين قُتِل مسلم فأخْرِج إلى السوق فضربتْ عُنقه.

وبعث عُبيد الله بن زياد برأسيهما إلى يزيد، فكتب إليه يزيد يشكره، ويقول له: «قد بلغني أن الحسين بن عليّ توجه نحو العراق، فضع المراصد والمَسالح واحترس، واحبس على التُّهمة، وخُذْ بالظِّنَّة، غير ألاَّ تقتل إلا من قاتلك»[4].

قال: وكان مخرج مسلم بن عَقِيل بالكوفة لثَمان ليالٍ مَضَيْنَ من ذي الحجَّة سنة ستين. وقيل: لتِسْع مَضَيْنَ منه.

---

(١) ابتدع.

(٢) العبث بجيشه الميت.

(٣) راجع ابن الأثير باختلاف جـ٤ ص٣٥.

(٤) الشق الأخير من القول مضاف إلى يزيد لركاكته ويزيد فصيح عالي الكعب بشعره ونثره. والأخذ لغة هو القتل، والاستثناء بالعبارة الأخيرة من غير مستثنى وهذا عيب وعي، وليست العبارة الأخيرة قيد لسابقتها، فأنت لا تستطيع أن تأمر بالقتل على الشبهة ثم تستثني ما هو من جنس الأمر لأنه باطل في كلام العرب ولو قال خذ بالظنة غير ألاّ تقتل إلاّ أسودًا أو أبيضًا لصح، ولكن الإضافة وضعت لتبرئة يزيد. وستجد أن الحسين السبط لم يقاتل ابن زياد وإنما طلب الرجوع من حيث أتى فأبى عليه.

وكان فيمن خرج معه المُختار بن أبي عُبيد، وعبد الله بن الحارث بن نَوفل، وطلبهما ابن زياد وحبسهما.

وكان فيمن قاتل مسلمًا محمد بن الأشعث، وشَبَث بن رِبْعيّ، وهو أحد من كتب إلى الحسين، والقَعْقاع بن شَوْر، وجعل شَبَثُ يقول: انتظروا بهم إلى الليل يتفرقوا. فقال له القَعْقاع: إنك قد سَدَدْت علهيم وجه مَهْرَبهم، فافْرِجْ لهم يتفرقوا.

وحجّ بالناس في هذه السنة عمرو بن سعيد الأشدَق، وهو عامل مكة والمدينة. وفيها مات أبو أُسَيْد الساعِدي[١]، واسمه مالك بن رَبيعة، وهو آخر من مات من البَدْرِيِّين، وقيل: مات سنة خمس وستين. ومات حَكِيم بن حِزام[٢] وله مِائة وعشرون سنة، ستون في الجاهلية وستون في الإسلام. ومات جماعة ممن لهم صحبة في هذه السنة.

سنة إحدى وستين:

ذكر مسير الحسين بن علي رضي الله عنهما وخبرِ مَن نَهاه عن المسير

كان مقتله بالطَّف علَى شاطىء الفُرات من أرض كَرْبَلاء[٣]، وذلك في يوم الجمعة لعَشر خَلَوْنَ من المحَرَّم من هذه السنة.

ولْنبدأ بخبر مَسيره من مكة شرَّفها الله تعالى، وسببِ مَسيره ومن أشار عليه بالمُقام بمكة وترْك المسير إلى الكوفة، ثم نذكر ما كان من خبره في مسيره إلى أن قُتِل رضي الله عنه، فنقول:

كان مسيره من مكّة لقصْد الكوفة يوم التّرْوِيَة[٤]، وكان سبب مسيره إلى الكوفة ما ورد عليه من كُتُب أهلها كما تقدم، ثم أكّد ذلك عنده وحَمَلَه عليه وقوَّى عزْمَه

---

(١) من بني ساعدة بن كعب الخزرجي وكان قد شهد بدرًا وأحدًا وكافة مشاهد الرسول ﷺ ومعه كانت راية بني ساعدة.

(٢) ابن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، فيكون ابن أخي خديجة بنت خويلد، رضوان الله عليها.

(٣) كربلاء: موضع قريب من الأهواز فيه حل الكرب والبلاء على أهل بيت محمد ﷺ حيث أمر يزيد بنَ زياد بقتل السبط الشهيد، فاستحلت دماؤهم لبيعة أخذت بالقهر والغلبة. راجع ياقوت جـ٤ ص٤٤٥.

(٤) الثامن من ذي الحجة وفيه يرتوي الحجاج قبل نهوضهم إلى منى.

ورودُ كتاب مُسلم بن عَقيل بن أبي طالب عليه يخبره أنه بايَعه بالكوفة ثمانيةَ عشر ألفًا، ويستحثُّه على المسير إليها، وكان هذا من مسلم في ابتداء أمره.

قال: ولما عزم الحسين رضي الله عنه على المسير إلى الكوفة أتاه عمر بن عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام فقال له: «إني أتيتك لحاجة أريد ذكرها نصيحة لك، فإن كنتَ ترَى أنك تستنصحني[1] قلتها وأدَّيْتُ ما عليَّ من الحق فيها، وإن ظننت أنك لا تستنصحني كففت عمَّا أُريد!» فقال له: قل فوالله ما أستغشك ولا أظنك بشيء من الهوى. قال: «قد بلغني أنك تريد العراق، وإني مشفقٌ عليك أنك تأتي بلدًا فيه عمّاله وأُمراؤه ومعهم بيوت الأموال، والناس عبيد الدينار والدرهم، فلا آمَنُ عليك أن يقاتلك من وعَدك نصره ومن أنت أحب إليه ممَّن يقاتلك معه!» فقال له الحسين رضي الله عنه: جزاك الله خيرًا يا ابن عمّ، فقد علمت أنك مشيت بنصح، وتكلمت بعقل، ومَهْما يُقْضَ من أمر يكنْ، أخذتُ برأيك أو تركته، فأنت عندي أحمدُ مُشيرٍ، وأنصَحُ ناصحٍ[2].

وأتاه عبد الله بن عباس فقال له: قد أرجفَ[3] الناس أنك سائر إلى العراق، فبيِّنْ لي ما أنت صانع، فقال له: قد أجمعتُ السير في أحد يومَيَّ هذَين إن شاء الله تعالى. فقال له ابن عباس: «فإني أُعيذك بالله من ذلك؛ خَبِّرْني رحمك الله، أتسيرُ إلى قوم قتلوا أميرهم، وضبطوا بلادهم ونفَوْا عدوّهم؟ فإن كانوا قد فعلوا فسرْ إليهم، وإن كانوا إنما دعَوْك إلَيهم وأميرهُم عليهم، قاهرٌ لهم، وَعمَّاله تجبي بلادهم، فإنما دعَوك إلى الحرب، ولا آمَنُ عليك أنْ يَغرُّوك ويَكذِبوك ويخالفوك ويخذُلوك ويستنفروا إليك، فيكونوا أشدَّ الناسِ عليك!» فقال الحسين: فإني أستخيرُ الله وأنظرُ ما يكون. فخرج ابن عباس.

وأتاه عبد الله بن الزُّبير فحدَّثه ساعة، ثم قال: «ما أدري مَا تركُنا هؤلاء القوم، وكَفُّنا عنهم، ونحن أبناءُ المهاجرين، وولاةُ هذا الأمر دُونَهم؛ خبِّرْني ما تريد أن تصنعَ؟!» فقال الحسين: «لقد حدَّثتُ نفسي بإتياني الكوفة، ولقد كتب إليّ شيعتي بها، وأشرافُ الناس وأستخيرُ الله». فقال ابن الزبير: أما إنه لو كان لي بها مِثْل شيعتك ما عدلت عنها. ثم خشي أن يتهمه، فقال: أما إنك لو أقمت بالحجاز ثم أردتَ هذا الأمر هاهنا ما خالفنا عليك وساعدناك وبايعناك ونصحناك. فقال له الحسين

(١) تظن بين النصح.
(٢) راجع ابن الأثير بزيادة جـ٤ ص٣٧.
(٣) تناقل الناس الخبر.

رضي الله عنه: «إن أبي حدثني أن لها كَبْشًا[١] به تُسْتَحل حرمتها، فما أُحبُّ أن أكون ذلك الكبش!» قال: فأقِمْ إن شئت وتوليني أنا الأمر فَتُطاع ولا تُعصَى، قال: ولا أُريد هذا الأمر أيضًا. ثم إنهما أخفيا كلامهما، فالتفت الحسين إلى من هناك وقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: فإنه يقول قمْ في هذا المسجد أجمعْ لك الناس، ثم قال الحسين: «واللّهِ لأَنْ أُقْتَل خارجًا منها بشبر أَحبُّ إليَّ مِن أن أُقتل فيها، ولأَن أُقتل خارجًا منها بشبريْن أَحبُّ إليَّ من أن أُقتل خارجًا منها بشبر، ويم الله، لو كنت في جُحْرِ هامةٍ من هذه الهَوام لاستخرجوني حتى يقضوا فيَّ حاجتهم، والله لَيَعْتَدُنَّ علَيَّ كما اعتدت اليهود في السَّبْت!»[٢] فقام ابن الزُّبير وخرج من عنده.

فلما كان مِن العَشِيِّ أو من الغَدِ أتاه ابن عبّاس فقال: «يا ابن عم، إني أتصبرُ ولا أصبرُ، إني أتخوَّفُ عليك في هذا الوجه الهلاكَ والاستئصال، إن أهل العراق قومٌ غُدُر فلا تَنفر إليهم، أقمْ بهذا البلد فإنك سيدُ أهل الحجاز، فإن كان أهلُ العراق يريدونك كما زعموا فاكتب إليهم لينفوا عاملهم وعدوَّهم، ثم اقدِم عليهم، فإن أبيتَ إلاَّ أن تخرجَ فسر إلى اليمن فإن بها حصونًا وشِعابًا، وهي أرض عريضة طويلة، ولأبيك بها شيعة، وأنت على الناس في عُزْلة فتكتب إلى الناس وترسل وتبثُّ دعاتك، فإني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذي تحبُّ في عافية!» فقال له الحسين: «يا ابن عم، إني والله لأعلمُ أنك ناصحٌ مُشْفِق، وقد أزمعتُ وأجمعتُ المسير!»[٣] فقال ابن عباس: «فإن كنت سائرًا فلا تسرْ بنسائك وصبيانك، فإني لخائف أن تقتل كما قُتِل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه!» ثم قال له ابنُ عباس: «لقد أقررتَ عين ابن الزُّبير بالخروج من الحجاز، وهو اليوم لا ينظرُ إليه أحد معك، والله لو أعلم أني إذا أخذت بشعرك وناصيتك حتَّى يجتمع علينا الناس أطعتَني فأقمتَ لفعلتُ ذلك!» ثم خرج من عنده.

فمرَّ بابن الزُّبير فقال: قَرَّت عينك يا ابن الزبير، ثم قال: [من الرجز]

---

(١) كبش القوم كبيرهم، وفي الحديث كناية عن الذبح الذي يترصد الكبش وهو كبير الماشية من غنم وماعز.

(٢) وفي حديث السبط عليه السلام إشارة إلى عميق قراءته للواقع السياسي، والغرض الذي يتوخاه يزيد لتثبيت حكومته.

(٣) لاحظ استخدام ابن عباس للفظ «الخروج» واستخدام الإمام السبط لفظ (المسير) إذ أن كل ناصحي الإمام ظنوا خروجه للحرب والخروج عندهم خروجًا للحرب. والإمام السبط كان يسير خارج البيت الحرام لأنه فهم مراد يزيد ولم يحب أن يكون المقتول في مكان لم يحله الله تعالى لأحد إلاّ ساعة من نهار لرسوله ﷺ يوم فتح مكة.

يـا لـكِ مـن قُـبَّـرةٍ بِـمَـعْـمَـرِ خَلاَ لكِ الجوُّ فبيضي واْصْفِري[١]
وَنَـقِّـرِي مـا شـئـتِ أن تـنـقـري[٢]

هذا حسين يخرج إلى العراق ويُخلِّيك والحجاز.

قال: وخرج حسين من مكة يوم التَّرْوِية، فاعترضه رُسل عمرو بن سعيد مع أخيه يحيَى يمنعونه، فأبَى عليهم ومضَى، وسار فمر بالتنعيم[٣] فرأى عِيرًا قد أقبلتْ من اليَمن، بعث بها بَحيرُ بن رَيسان الحميري عامل اليمن إلى يزيد، وعليها الوَرْسُ[٤] والحُلَل، فأخذها الحسين ثم سار، فلما انتهى إلى الصِّفَاح[٥] لقيه الفرزدق الشاعر فقال له الحسين: بيِّنْ لي خبرَ الناس خلفك فقال: «الخبيرَ سألتَ، قلوبُ الناس معك وسيوفُهم مع بني أُمية، والقضاءُ ينزل من السماء، واللّهُ يفعلُ ما يشاء!» فقال الحسين: صدقت، لله لأمر يفعل ما يشاء، وربُّنا كل يوم في شأن، إن نزل القضاء بما نحب فنحمد الله على نعمائه، هو المستعان على أداء الشكر، وإن حَالَ القضاء دون الرجاء فلم يتَعد من كان الحق نيته، والتقوى سريرته.

قال: وأدرك الحسَين كتابُ عبد الله بن جعفر مع ابنيه عَون ومحمد يقول: «أمّا بعد، فإني أسألك بالله لمَّا انصرفتَ حين تقرأ كتابي هذا فإني مُشفقٌ عليك من هذا الوجه أن يكون فيه هلاكُكَ واستئصالُ أهل بيتك، إن هلكت الآن طُفىءَ نورُ الأرض فإنك عَلَمُ المهتدين، ورجاءُ المؤمنين، فلا تعجلْ بالسير، فإني في إثر كتابي، والسلام!».

وقام عبد الله بن جعفر إلى عمرو بن سعيد وقال: «اكتُب للحسين كتابًا تجعل له فيه الأمان، وتمنيه فيه البِرَّ والصِّلة، وترفق في كتابك، وتسأله الرجوعَ لعله يطمئن إلى ذلك فيرجع. فقال له عمرو: اكتبْ ما شئت، وأْتني به حتى أختمه. فكتب

---

(١) «خلا لك الجو فبيضي واصفري» مثل أو قول جرى مجرى الأمثال. راجع مجمع الأمثال للميداني جـ١ ص٢٣٩ رقم ١٢٦٨.

(٢) في هذا الرجز روايات أشهرها أنها لطرفة بن العبد الشاعر البكري الجاهلي.

(٣) التنعيم: موضع بمكة في الحِلِّ، خارج الحرم، وهو بين مكة وسرِف، على فرسخين أو أربعة من الأولى. راجع ياقوت جـ٢ ص٤٩.

(٤) الورس: نبات أصفر اللون يستخدم للدباغة.

(٥) الصفاح: موضع بين حنين وأنصاب الحرم ليسار الداخل إلى مكة من مشاش. راجع ياقوت جـ٣ ص٤١٢.

عبد الله بن جعفر الكتاب، ثم أتى به عمرو بن سعيد، فقال: اختمه وابعث به مع أخيك يحيى فإنه أحرَى أن تطمئن به نفسه، ويعلم أنه الجِدّ منك ففعل. وكان مضمون الكتاب: «بسم الله الرحمٰن الرحيم من عمرو بن سعيد إلى الحسين بن علي، أما بعد، فإني أسأل الله أن يَصرِفَك عمَّا يُوبقك[1]، وأن يَهديك لما يُرشدك. بلغني أنك قد توجهت إلى العراق، وإني أُعيذك بالله من الشِّقاق، فإني أخاف عليك فيه الهلاك، وقد بعثت إليك عبدَ الله بن جعفر ويحيى بن سعيد، فأقبِل إليَّ معهما، فإن لك عني الأمانَ والصلة والبر وحسن الجِوار، لَكَ الله عليَّ بذلك شهيدٌ وكفيلٌ، وراعٍ ووكيلٌ، والسلامُ عليك».

فأخذا الكتاب ولحقا حسينًا، فأقرأه يحيى الكتاب. وكان ممّا اعتذر به أن قال: إني رأيت رُؤيا، رأيتُ فيها رسول الله ﷺ وأُمرت بأمر أنا ماضٍ له، فقالا له: ما تلك الرؤيا؟ قال: ما حدَّثتُ أحدًا بها ولا أنا محدِّث أحدًا بها حتَّى ألقى ربِّي.

وكتب الحسين إلى عمرو بن سعيد: «أمّا بعدُ، فإنه لم يشاقق اللّهَ ورسولَه من دعا إلى الله وعمِل صالحًا وقال إنني من المسلمين، وقد دعَوْتَ إلى الأمان والبِرَّ والصلة، فخيرُ الأمان أمانُ اللّهِ، ولن يؤمنَ بالله يوم القيامة من لم يخفْه في الدنيا، فنسألُ اللّهَ مخافةً في الدنيا توجبُ لنا أمانَه يوم القيامة، فإن كنتَ نويتَ بالكتاب صِلتي وبري فجُزيت خيرًا في الدنيا والآخرة، والسلام».

قال: ولمّا بلغ ابْنَ زياد مَسيرُ الحسين من مكة بعث الحُصين بن نُمير التَّميمي صاحِبَ شرطته، فنزل القادسية، ونظم الخيل ما بين القادسية[2] إلى خَفَّان[3] وما بين القادسية إلى القُطْقُطانة[4] وإلى جبل لَعْلَع[5].

وأقبل الحسين حتى إذا بلغ الحاجز من بطن الرُّمة بعث قيس بن مُسْهر الأسديّ ثم الصَّيداوي إلى أهل الكوفة، وكتب معه إليهم: «بسم الله الرحمٰن الرحيم، من الحسين بن علي إلى إخوانه من المؤمنين والمسلمين، سلام عليكم، فإني أحمد إليكم

---

(١) يوبقك: يهلكك.

(٢) القادسية: بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخًا وفيه جرت المعركة الكبرى بين المسلمين والمجوس سنة ١٦هـ. راجع ياقوت جـ٤ ص٢٩١ وما بعدها.

(٣) خفان: موضع قرب الكوفة يسلكه الحاج من العراق أحيانًا. راجع ياقوت جـ٢ ص٣٧٩.

(٤) القُطقُطانة: موضع قرب الكوفة من جهة البرية بالطف، بينها وبين الرهيمية مغربًا نيف وعشرون ميلاً إذا خرجت من القادسية تريد الشام. راجع ياقوت جـ٤ ص٣٧٤.

(٥) لعلع: جبل بين البصرة والكوفة بينه وبين القادسية ستة أميال. راجع ياقوت جـ٥ ص١٨.

الله الذي لا إله إلا هو. أمّا بعد؛ فإن كتاب مُسْلم بن عَقِيل جاءني يخبرني فيه بحسن رأيكم، واجتماع مَلئِكم على نصرنا والطلب بحقّنا، فنسأل الله أن يحسنَ لنا الصنع، وأن يُثيبكم على ذلك أعظمَ الأجر، وقد شَخَصْتُ إليكم من مكة يوم الثلاثاء لثَمانٍ مَضَيْنَ منْ ذي الحجّ يوم التَّرْوِية، فإذا قد عليكم رَسولي فانكمشوا[١] في أمركم وجِدوا، فإني قادم عليكم في أيامي هذه إن شاء الله؛ والسلام عليكم ورحمة الله».

وكان مُسْلم بن عَقِيل قد كتب إلى الحسين قبل أن يقتل بسبع وعشرين ليلة، أمّا بعد؛ فإن الرائدَ لا يكذبُ أهله، إن جميعَ أهل الكوفة معك، فأقبل حين تقرأُ كتابي والسلام.

قال: وأقبل قيس بنَ مُسْهر بكتاب الحسين إلى أهل الكوفة، فلما بلغ القادسية أخذه الحُصين بن نُمير فبعث به إلى ابن زياد، فقال له عُبيد الله: اصعد القصر فسُبَّ الكذَّاب ابن الكذَّاب الحسين بن علي. فصعد قَيس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس، إن هذا الحسين بن علي رضي الله عنهما خيرُ خلق الله، ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وأنا رسوله إليكم، وقد فارقته بالحاجز فأجيبوه» ثم لَعن عُبيد الله بن زياد وأباه، واستغفر لعليّ، فأمر به عُبَيد الله فرُمي من فوق القصر فتقطع فمات.

قال: ثم أقبل الحسين رضي الله عنه يسيرُ نحو الكوفة، فانتهى إلى ماء مياه العرب، فإذا عليه عبد الله بن مُطيع العدَويّ فلما رأى الحسين قام إليه، فقال: بأبي أنت وأمي يا ابن رسول الله، ما أقدمك؟ واحتمله فأنزل فقال له الحسين: إنه كان من موت معاوية ما قد بلغك، فكتب إليَّ أهل العراق يدعونني إلى أنفسهم. فقال: «أُذكرك بالله يا ابن رسول الله وحرمة الإسلام أن تُنْتَهك، أَنْشُدُك الله في حرمة قريش، أنْشُدك الله في حرمة العرب، فوالله لئن طلبت ما في أيدي بني أُميَّة لَيقتلُنَّك، ولَئن قتلوك لا يهابون بعدُ أحدًا أبدًا، واللّهِ إنها لحرمةُ الإسلام تُنْتَهك، فلا تفعلْ، ولا تأْتِ الكوفة، ولا تُعرِّض نفسك لبني أُمية!» فأبى إلاَّ أن يمضي[٢].

---

(١) تماسكوا.

(٢) لعل من أهم ما يُلفت إليه أن العامة كانت ترجف وتتوجس من قتل السبط الشهيد، وهذا التوجس عند العامة والخاصة كما حفظه لنا المؤرخون والرواة يحفظ لنا حقيقة اغتيال الاتفاق المعقود بين معاوية والإمام الحسن وخلاصته اشتراط الحسن السبط على معاوية بالخلافة له أو لأخيه السبط الحسين بعد وفاة معاوية وفي حال وفاة السبط الأول، ولم يكن الأمويون بوارد الوفاء بشروطهم، والإمام سار خارج الحرم الشريف إلى العراق ليؤكد رغبة يزيد بتعقبه للقضاء عليه، لأنه الوسيلة الوحيدة لإلغاء الشرط وبذلك لا يستطيع أحد دفع التهمة عن غرض الأمويين هذا. ببساطة لقد تعقّبوا السبط الإمام إلى أقصى العراق ليقتلوه.

فلما نزل بزرود[١] أتاه الخبر بقتل مسلم بن عَقِيل وهانيء بن عروة، فاسترجع مرارًا، فقال له عبد الله بن سليم والمذري بن الْمُشمَعِلّ الأسديان، وكانا قد لحقاه حين قضيا حجَّهما: «ننشُدك اللّهَ في نفسك وأهل بيتك إلا انصرفت من مكانك هذا، فإنه ليس لك بالكوفة ناصرٌ ولا شيعةٌ، بل نتخوفُ أن يكونوا عليك!» فوثب بنو عَقِيل فقالوا لا: والله لا نبرحُ حتَّى نُدركَ ثأرنا أو نذوقَ ما ذاق أخونا. فقال الحسين رضي الله عنه: لا خيرَ في العيش بعد هؤلاء. فقال له بعض أصحابه: إنك واللّهِ ما أنت مثل مُسلم بن عَقيل، ولو قدِمْتَ الكوفةَ لكان الناس إليك أسرع. فانتظر الحسين حتى إذا كان السَّحر قال لفتيانه وغلمانه: أكثروا من الماء. فاستقوا فأكثروا، ثم ارتحلوا حتَّى انتهوْا إلى زُبَالة[٢].

وقيل: كان الحسين لا يمرُّ بماءٍ إلا اتبعه أهل ذلك الماء، حتى انتهى إلى زُبَالة، فأتاه خبر مقتل أخيه من الرّضاعة عبد الله بن بُقْطر، وكان سَرَّحه إلى مُسلم بن عَقيل من الطريق، وهو لا يدري أنه أُصيب فأخذه الحصين بالقادسية، فبعث به إلى زياد فقال له: اصعدْ فوق القصر فالعن الكذَّاب ابن لكذَّاب ثم انزل حتى أرى فيك رأيي، فصعد فلما أشرف على الناس قال: «أيها الناس، إني رسول الحسين ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ إليكم، لتنصروه وتؤازروه على ابن مَرْجانة ابن سمية الدَّعي!» فأمر به عُبيد الله فألقي من فوق القصر إلى الأرض فتكسرت عظامه وبقي به رمق، فأتاه رجل يقال له عبد الملك بن عمير اللخمي فذبحه، فلمّا عِيب عليه ذلك قال: إنما أردت أن أريحه.

فلمّا بلغ الحسينَ الخبر قال لأصحابه: من أحبَّ منكم الانصراف فلينصرفْ غير حَرِجَ، ليس عليه منّا ذِمَام؛ فتفرق الناس عنه حتى بقي في أصحابه الذين خرجوا معه من المدينة.

قال: وإنما فعل ذلك لأنه علم أن الأعراب ظنت أنه يأتي بلدًا قد استقامت له طاعة أهله، فأراد أن يعلموا علامَ يقدمون.

قال: ثم ارتحل الحسين وسار حتى مرَّ ببطن العقبة[٣] فنزل بها، فأتاه بعض

---

(١) زرود: موضع رملي بين الثعلبية والخريجية بطريق الحاج من الكوفة. راجع معجم البلدان ج٣ ص١٣٩.

(٢) زبالة: منزل بطريق مكة من الكوفة بين واقصة والثعلبية. راجع معجم ياقوت ج٣ ص١٢٩.

(٣) والعقبة: لعلها وراء نهر عيسى قريبة من دجلة إلى بغداد، والعقبة عمومًا هو كل طريق طويل صعب إلى صعود جبل، وبطن العقبة إما هو الوادي أن صعودها وإما الانتهاء منها. راجع ياقوت ج٤ ص١٣٤.

الأعراب فسأله عن مقصده فأخبره، قال: «إنّي أنشُدك اللّهَ لمَّا انصرفت، فوالله ما تقدم إلاَّ على الأسِنَّة وَحدِّ السيوف، إن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفَوْك مؤنة القتال ووطَّئوا لك الأشياء فقدمتَ عليهم، كان ذلك رأيًا، فأما على هذه الحال التي تذكر فإني لا أرى لك أن تفعل!» فقال الحسين: يا عبد الله، إنه ليس بخفيٍّ عليَّ ما رأيت، ولكن الله لا يُغْلَب على أمره!.

ثم ارتحل منها وقد استهلَّت إحدى وستين، وسار حتَّى نزل شَراف[١] فلما كان في السحر أمر فتيانه فاستقوا من الماء وأكثروا، ثم ساروا منها صَدْرَ يومهم[٢] حتَّى انتصف النهار، فكبَّر رجل من أصحابه فكبّر الحسين، وقال: ممّ كَبَّرْتَ؟ قال: رأيت النخل، فقال عبد الله بن سليم والمذري بن المُشْمَعِل الأسديان: واللّهِ إن هذا المكان ما رأينا فيه نخلة قط، قال: فما تريان؟ قالا: نراه والله رأى هَوادي الخيل[٣]. فقال الحسين: وأنا والله أرى ذلك، ما لنا ملجأٌ نلجأُ إليه نجعله في ظهورنا ونستقبل القوم من وجه واحد؟ فقيل له: «بَلى هذا ذُو حُسَم[٤] إلى جنبك تميل إليه عن يسارك، فإن سبقتَ القوم إليْه فهو كما تريد، فمال إليه، فما كان بأسرع من أن طلعتْ هَوادي الخيل، فلما رأوْهم قد عدلوا عن الطريق عدلوا عنها إلى قصدهم، فسبق الحسين إلى ذي حُسَم، فنزل وأمر بأبنية فضُربت، وجاء القوم وهم ألف فارس عليهم الحرُّ بن يزيد التميمي[٥]، فجاؤوا حتى وقفوا مقابل الحسين رضي الله عنه: وكان مسير الحر ومن معه من القادسية من قبل الحُصَين بن نُمير التميمي.

فلم يزل الحُرُّ مواقفًا[٦] حسينًا حتى حضرت صلاة الظهر، فأمر الحسينُ الحجاج بن مسروق الجُعفي أن يؤذن، فأذن، فلما حضرت الإقامة خرج الحسين رضي الله عنه، في إزار ورداء ونعلين، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيُّها الناس،

---

(١) شَراف: بين واقصة والقرعاء على ثمانية أميال من الأحساء التي لبني وهب، ومن شراف إلى واقصة ميلان. راجع ياقوت جـ٣ ص٣٣١.

(٢) صدر اليوم: أوله.

(٣) هوادي الخيل: أعناقها.

(٤) الحُسم: موضع، ولعله جبل صخري في المنطقة. راجع ياقوت جـ٢ ص٢٥٨.

(٥) الحر بن يزيد التميمي اليربوعي، بطل من أبطال الإسلام. حرّ شهم أبي أُرسل لاعتراض الإمام السبط في طريقه إلى الكوفة، وعندما جاءت خيل ابن زياد وعمر بن سعد وأرادوا قتل الحسين السبط ابن بنت رسول الله اختار الحرُّ الانحياز لرسول الله بأهل بيته ﷺ فاعتذر إلى الحسين السبط وقاتل بين يديه ليكون واحدًا من الأحرار في عالم وضع أهله الأغلال في أعناقهم. واستشهد الحر مع الحسين السبط في وقعة كربلاء سنة ٦١هـ.

(٦) أراد أنه منعه من إكمال سيره.

معذرةً إلى الله وإليكم، إني لم آتكم حتى أتتني كتبكم، وقدمت على رسلكم أن اقْدمْ علينا فإنه ليس لنا إمامٌ لعل الله يجمعُنا بك على الهدى والحق، إن كنتم على ذلك فقد جئتكم، فإن تُعطوني ما أطمئنُ إليه من عهودكم ومواثيقكم أقدم مصركم، وإن لم تفعلوا وكنتم لمَقْدَمي كارِهين انصرفتُ عنكم إلى المكان الذي أقبلت منه إليكم» فسكتوا عنه، وقال للمؤذن: أقِم. فأقام الصلاة، فقال الحسين للحر: أتريدُ أن تصلي بأصحابك؟ فقال: لا، بل صَلِّ أنت ونصلِّي بصلاتك، فصلَّى بهم الحسين، ثم دخل واجتمع إليه أصحابه.

وانصرف الحر فدخل خيمة قد ضُربت له، واجتمع عليه جماعة من أصحابه، وعاد بعض أصحابه إلى صَفِّهم الذي كانوا فيه، ثم أخذ كل رجل بعِنان دابته وجلس في طلبها.

فلما كان وقت العصر أمر الحسين أصحابه أن يتهيؤوا للرحيل ففعلوا، ثم خرج فأمر مناديه فنادى بالعصر وأقام، وصلّى الحسين بالقوم جميعًا، ثم سلم وانصرف إليهم بوجهه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أمّا بعد؛ أيها الناس، فإنكم إن تتقوا الله وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضَى لله، ونحن أهلَ البيت أوْلَى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدَّعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجوْر والعُدْوان، فإن أنتم كرهتمونا وجهِلتم حَقَّنا وكان رأيكم غير ما أتتني به كتبكم، وقدِمت علَيَّ به رُسُلكم، انصرفتُ عنكم»، فقال له الحر: إنَّا واللّهِ ما ندري ما هذه الكتب والرسل التي تذكر. فأمر الحسين رضي الله عنه بإخراج كتبهم، فأُخرجت في خرجين مملوءين، فنشرهما بين أيديهم، فقال الحر: إنّا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك، وقد أُمرنا إذا نحن لقيناك أن لا نفارقك حتى نُقْدِمك الكوفة على عُبيد الله بن زياد. فقال له الحسين: الموت أدْنَى إليك من ذلك، ثم قال لقومه: قوموا فاركبوا، وركب نساؤهم.

فلما أرادوا الانصراف حال القوم بينهم وبين المسير، فقال الحسين للحر: ثَكِلَتْك أُمُّك! ما تريد؟ قال له: «أمَا واللّهِ لو غيرُك مِن العرْب يقولها وهو على مثل الحال التي عليها ما تركت ذكر أمه بالثكل أن أقوله كائنًا من كان، ولكن واللّهِ ما إلى ذكر أُمِّك من سبيل إلا بأحسن ما نقدر عليه»، فقال له الحسين: ما تريد؟ قال: أُريد أن أنطلق بك إلى عُبيد الله بن زياد. فقال له الحسين: إذًا واللّهِ لا أتبعك. فقال الحر: إذًا واللّهِ لا أدعُك. فَترادًا القول ثلاث مرات، فلما كثر الكلام بينهما قال الحر: «إني لم أُومَرْ بقتالك، إنما أُمرت أن لا أُفارقك حتى أُقْدِمَك الكوفة، فإذا أبيت فخذ طريقًا لا تدخلك الكوفة ولا تردك إلى المدينة يكون بيني وبينك نصفًا، حتى أكتب إلى ابن زياد وتكتب أنت إلى يزيد بن معاوية إن أردت أن تكتب إليه، أو إلى

عُبيد الله إن شئت، فلعل الله أن يرزقني العافية من أن أُبتَلَى بشيء من أمرك!» قال: فتياسر[١] عن طريق العُذَيب[٢] والقادسية، وبينه حينئذ وبين العُذَيب ثمانية وثلاثون ميلًا. ثم سار والحرُّ يسايره.

قال: ثم إن الحسين خطبهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إن رسول الله ﷺ قال: «من رأى سلطانًا جائرًا، مستحلاً لحُرَم الله، ناكثًا لعهده، مخالفًا لسنة رسول الله ﷺ، يعملُ في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقًّا على الله أن يُدخلهُ مُدْخَله»[٣]. ألاَ وإنَّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمٰن، وأظهروا الفساد، وعَطَّلوا لحدود واستأثروا بالفَيءِ، وأحَلُّوا حرام الله، وحَرَّمُوا حلاله، وأنا أحق من غيري، وقد أتتني كتبكم ورسلكم ببيعتكم وأنكم لا تسلموني ولا تخذلوني، فإن تممتم على بيعتكم تصيبوا رُشْدكم، وأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهلكم، فلكم بي أُسْوة، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدي وخلعتم بيْعتي فلَعَمري ما هي لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم، والمغرور من اغترَّ بكم، فحظَّكم أخطأتم ونصيبَكم ضيَّعتم، ومن نكَث فإنما ينكُث على نفسه، وسيُغني الله عنكم، والسلام.

فقال له الحر: إني أُذكِّرك اللّهَ في نفسك، فإني أشهد لئن قاتلت لَتُقْتلنَّ، فقال الحسين رضي الله عنه: أبالموت تخوِّفني؟! وهل يعدو بكم الخَطْب أن تقتلوني! وما أدري ما أقول لك؟! ولكني أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه، لقيه وهو يريد نصرة النبي ﷺ، له فقال أين تذهب فإنك مقتول؟ فقال: [من الطويل]

سأمضي وما بالموت عارٌ على الفتى ... إذا ما نوى خيرًا وجاهد مسلما
وآسَى الرجالَ الصالحين بنفسه ... وفارقَ مَثْبورًا[٤] وخالف مُجْرِمَا
فإن عشتُ لم أندم وإن متّ لم أُلَمْ ... كفى بك ذُلاً أن تعيش وتُرْغَمَا[٥]

---

(١) أخذ يسار لطريق.

(٢) العذيب: ماء بين القادسية والمغيثة، وبينه وبين الأول أربعة أميال، وبينه وبين الثانية اثنان وثلاثون ميلًا. راجع ياقوت جـ٤ ص٩٢.

(٣) أي أن كل مسلم رضي بما فعل السلطان الجائر، فهو شريك معه في فعله والله سبحانه سيدخل كليهما المدخل ذاته يوم القيامة. فالراضي بجور السلطان الجائر داخل مدخل السلطان الجائر يوم القيامة وقد ذكر ذلك ابن الأثير في الكامل جـ٤ ص٤٨.

(٤) الثبور: الهلاك والخسران.

(٥) راجع النص بزيادة عند ابن الأثير جـ٤ ص٤٩.

قال: فلما سمع الحُرّ ذلك تنحى عنه، فكان يسير ناحية عنه، حتى أَنتهوا إلى عُذَيب الهِجانات، فإذا هم بأربعة نفر قد أقبلوا من الكوفة على رواحلهم يجنبون فرسًا لنافع بن هلال يقال له الكامل، ومعهم دليلهم الطِّرِمَّاح[1] وهو يقول: [من الرجز]

يـا نـاقـتـا[2] لا تُـذْعَـري مـن زَجْـري وشَـمِّـري قـبـلَ طـلـوعِ الـفـجـرِ
بـخـيـرِ رُكْـبـانٍ وخـيـرِ سَـفْـرِ حـتَّـى تـجـلَّـى بـكـريـم الـنـحـرِ
الـمـاجـدِ الـحـر رحـيـبِ الـصَّـدر أَتَـى بـه الـلّـهُ لـخـيـرِ الأمْـرِ
* ثُـمَّـت أبـقـاه بـقـاءَ الـدهـرِ *

فلما انتهوا إلى الحسين رضي الله عنه والتحقوا به، فقال الحر: إن هؤلاء النفر الذين من أهل الكوفة ليسوا ممن أقبلوا معك، وأنا حابِسُهم أو رادُّهم؛ فقال الحسين رضي الله عنه: «لأمنعنهم مما أمنع منه نفسي، إنما هؤلاء أعواني وأنصاري، وقد كنتَ أعطيتني ألاّ تَعرِضَ لي حتى يأتيَك كتابٌ من ابن زياد»؛ قال: أجَلْ ولكن هؤلاء لم يأتوا معك.

فقال: «هم أصحابي، وهم بمنزلة من جاء معي، فإن تممتَ علَى ما كان بيني وبينك وإلا ناجزتك»[3]. فكفّ عنهم الحرُ.

وسألهم الحسين عن خبر أهل الكوفة، فقال له مجمّع بن عبد الله العائذي، وهو أحد الأربعة: «أمّا أشرافُ الناس فقد أُعظِمَتْ رشوتهم ومُلِئَتْ غرائرهم[4]، فهم إلْبٌ[5] واحد علَيك، وأمّا سائر الناس بَعْدُ فإن أفئدتهم تَهْوِي إليك وسيوفهم غدًا مشهورةٌ علَيك!». فقال: هل لكم برسولي إليكم عِلْم؟ فقالوا: من هو؟ قال: قَيس بن مُسْهِر الصيْداوي. قالوا: نعم؛ وأخبروه بمقتله، فترقرقت عينا حسين ولم يملك دَمْعه، ثم قال: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]

---

(١) الطرماح بن حكيم بن الحكم الطائي، اعتقد اعتقاد الشراة من الخوارج، وكان لسانهم. عاش حتى الربع الأول من القرن الثاني للهجرة. راجع الأغاني ج١٠ ص١٤٨.

(٢) الألف هنا ألف الإطلاق وليست ألف التثنية، وقد خففت منها الهاء. وكأنه أراد أن يقول (يا ناقتاه).

(٣) ناجذتك: أراد شرعت بمقدمات القتال.

(٤) مفردها غراره وهي كيس من شعر أو سواه لحفظ الحبوب.

(٥) أي متألبين، وتألب الناس إذا اجتمعوا على عداوة رجل.

اللهُم اجعل لنا ولهم الجنة نُزُلاً، واجمع بيننا وبينهم في مستقر رحمتك ورغائب مذخور ثوابك.

قال: ودنا الطِّرِماح من الحسين، فقال له: «والله إني لأَنْظُر فما أرى معك أحدًا، ولو لم يقاتلْك إلا هؤلاء الذين أراهم ملازِميك لكان كُفْوًا لهم، وقد رأيتُ قبل خروجي من الكوفة إليك بيوم ظَهْرَ الكوفة وفيه من الناس ما لم تَرَ عيناي في صَعيد واحد جمعًا أكثر منه، فسألتُ عنهم، فقيل: اجتمعوا ليُعْرَضوا ثم يُسَيَّروا إلَى الحسين، فأنشدُك اللّهَ إن قدرتَ علَى ألا تقْدم إلَيهم شِبرًا إلا فعلتَ، وإن أردتَ أن تنزل بلدًا يمنعك الله به حتَّى ترَى من رأيك ويستبين لك ما أنت صانع فسِرْ حتَّى أُنْزِلَك مَناعَ جبلنا الذي امتنعنا به من ملوك غَسَّان وحِمْيَر ومن النُّعمان بن المُنْذِر ومن الأسْوَد والأحمر، فأسير معك حتَّى أُنزلك القرية[١]، ثم لتبْعثْ إلى الرجلا ممَّن بِأجَأ وسَلْمَى[٢] من طَيِّىء، فوالله لا يأتي عليك عشرة أيام حتَّى يأتيك طيىءُ رِجالاً ورُكبانًا، ثم أقِمْ فينا ما بدا لك، فإن هاجك هَيْجٌ فأنا زعيمٌ لك بعشرين ألف طائيّ يضربون بين يديك بأسيافهم، ووالله لا يوصَل إليك أبدًا وفيهم عَيْنٌ تطْرِف!».

فقال له: جزاك الله وقَوْمَك خَيرًا، إنه قد كان بيننا وبين هؤلاء القوم قولٌ لسنا نقدر معه على الانصراف، ولا ندري عَلامَ تتصرف بنا وبهم الأمور!.

قال الطِّرمَّاح: فودَّعته وقلتُ: «إني قد امْتَرْتُ لأهلي مِيرةً[٣]، ومعي نفقة لهم فآتيهم فأصنع ذلك فيهم، ثم أقبل إليك إن شاء الله، فإن ألحقْكَ فواللّهِ لأكونَنَّ من أنصارك» فقال لي: فإن كنتَ فاعلاً فعجِّلْ رحمك الله.

قال الطِّرمَّاح: فلما بلغتُ إلَى أهلي وضعتُ عندهم ما يُصلحهم، وأوصيتُ، وأخبرتهم بما أريد، وأقبلت حتى دنَوْتُ من عُذَيْبِ الهجانات، فأتاني نَعْيُ الحسين هناك!.

---

(١) القرية: لعله أراد قرية مجاورة أو أنه أراد تلك التي لبني سدوس من أخصب قرى اليمامة. ولعله القُرَيّة بالتصغير وهي محلة ببغداد أو لعله أراد منازل طيىء المجاورة. راجع ياقوت جـ٤ ص٣٢٠.

(٢) أجأ وسلمى: جبلان شاهقان عن يسار سميراء، وفيهما قرى كثيرة. ومنازل طيىء في الجبلين عشر ليالٍ من دون فيد. وبين المدينة والجبلين ثلاث مراحل. راجع ياقوت جـ١ ص٩٤.

(٣) ما ادخره الإنسان من الطعام.

قال المؤرِّخ[١]: ثم مضَى الحسين إلى قصر بني مُقاتل[٢]، فنزل به. قال عقبة بن سمعان: فلمّا كان آخِر الليل أمر الحسين بالاستقاء من الماء، ثم أمرنا بالرحيل، ففعلنا، فلمّا سِرنا ساعة خَفَق[٣] الحسين برأسه خفقة فقال: «إنَّا لله وإنَّا إلَيه راجعون. الحمد لله رب العالمين» يُعيدها مرَّتين أو ثلاثًا، فأقبل عليه ابنه عليّ بن الحسين، فاسترجع وحمد الله وقال: «يا أبتِ، جُعُلْتُ فِداك، مِمَّ حمِدتَ الله واسْتَرْجعْتَ؟» قال: «يا بُنَيَّ، إني خفقت برأسي خفقة، فعَنَّ لي فارس علَى فرس فقال: القوم يسيرون والمنايا تسير بهم. فعلمتُ أنها أنفسُنا نُعِيَتْ إلَينا!» قال: يا أبتِ ألَسْنا علَى الحق؟ قال: بَلَى والَّذي إليه مَرْجع العباد. قال: يا أبتِ إذَن لا نُبالِي أن نموت مُحقِّين. فقال له: جزاك الله خَيْرَ ما يَجزي ولدًا عن والده.

فلما أصبح نزل فصلى الغَداة، ثم عَجّل الركوب، وسار حتَّى انْتَهَى إلَى نِينَوى[٤]، والحُرُّ ومَن معه يسايرونه فإذا راكبٌ على نَجيبٍ عليه السلاح يمسك قوسًا مُقبلٌ من الكوفة، فوقفوا جميعًا ينتظرونه، فلما انْتَهى إلَيهم سَلمَ على الحرِّ وأصحابه، ولم يسلم علَى الحسين، ودفع إلى الحُرِّ كتابًا من عُبيد الله بن زياد: «أمَّا بَعْدُ، فَجَعْجِعْ[٥] بالحسين حين يبلغك كتابي ويُقدم عليك رسولي، فلا تُنزله إلاَّ بالعرَاء في غير حِصْن وعلى غَير ماء، وقد أمرتُ رسولي أن يلزَمَك فلا يفارقك حتى يأتيَني بإنفاذك أمري، والسلام».

فقال الحُر: هذا كتابُ الأمير عُبيد الله بن زياد، يأمرني فيه أن أُجَعْجع بكم في المكان الذي يأتيني فيه كتابه، وهذا رسوله، وقد أمره ألاَّ يفارقني حتى أُنفذَ رأيَه وأمره.

---

(١) لعله الطبري والنويري أكثر أخذًا عنه. راجع النص باختلاف في الكامل جـ٤ ص٥١.

(٢) قصر مقاتل: قصر بين عين التمر والشام قريب من القطقطانة وسلام ثم القُرَيَّات وهو قصر منسوب إلى مقاتل بن حسان بن ثعلبة بن أوس المنتهي إلى زيد مناة بن تميم. راجع ياقوت جـ٤ ص٣٦٤.

(٣) خفق الرأس: أن تأخذ الإنسان إغفاءة وهو واقف أو جالس فينخفق لها الرأس بفعل الانسحاب مع الوسن السريعة عابرة من غير قصد للنوم.

(٤) نِينَوَى: وهي قرية يونس بن متى بالموصل، وبسواد الكوفة ناحية يقال لها نينوى قريبة من كربلاء. راجع ياقوت جـ٥ ص٣٣٩.

(٥) ضيق عليه المكان يسوقه باتجاه يد يده.

قال: فأخذهم الحُرُّ بالنزول في ذلك المكان علَى غير ماء ولا قرية، فقالوا: دَعْنا نَنزل في هذه القرية، يَعْنون نِينَوَى، أو هذه القرية، يَعنون الغَاضِرِيَّة[١]، أو هذه الأخرى، يعنون شَفِيَّة[٢]، فقال: لا واللّهِ ما أستطيع ذلك، هذا رجل بُعِث عَيْنًا علَيَّ.

فقال زُهَير بن القَيْن للحسين: «يا ابن بنت رسول الله ﷺ، قِتالُ هؤلاء الساعة أَهْوَنُ علَينا من قتال مَن يأتينا من بعدهم، فلَعمري لَيأْتِيَنَّا من بعدما نرى ما لا قِبَلَ لنا به!» فقال له الحسين: ما كنتُ لأبدأهم بالقتال. فقال له زهير: «سِرْ بنا إلى هذه القرية حتَّى ننزلها فإنها حصينة وعلَى شاطىء الفُرات، فإنْ منعونا قاتلناهم، فقتالُهم أَهْوَنُ علَينا من قِتال من يجيءُ بعدهم» فقال له الحسين: أَيَّةُ قَريةٍ هي؟ قال: العَقْر[٣]. فقال الحُسين: اللهم إني أعوذ بك من العَقْر! ثم نزل، وذلك يوم الخميس الثاني من المحرَّم سنة إحدى وستين.

فلما كان الغد قدم علَيهم عُمر بن سَعد بن أبي وقَّاص[٤] من الكوفة. وكان سبب مسيره لقتال الحسين أن عُبَيد الله بن زياد كان قد بعثه على أربعة آلاف من أهل الكوفة، يسير بهم إلى دَسْتَبَى، وكانت الدَّيْلَم قد خرجوا إليها وغلبوا عليها، فكتب ابن زياد له عَهْدَه علَى الرَّيِّ، وأمره بالخروج، فخرج وعسكر بالناس، فلما كان من أمر الحسين ما كان، دعا ابنُ زياد عُمَرَ بن سعد وقال: سر إلى الحسين فإذا فرغنا مِمَّا بَيْنَنا وبَيْنَه سرتَ إلَى عملك. فاستعفاه، فقال: نعم، على أن تردَّ علَينا عهدنا. فلما قال له ذلك قال: أمهلني اليومَ حتَّى أنظرَ. فاستشار عمرُ نصحاءَه، فكلُّهم نهاه، وأتاه حمزة بن المغيرة بن شعبة، وهو ابن أخته، فقال له: «أنشُدُكَ اللّهَ يا خالي ألاَّ تسيرَ إلى الحسين فتأثَمَ بربك وتقطَعَ رحِمَك! فواللّهِ لأن تخرجَ من دنياك ومالِك وسلطانِ الأرض كلِّها، لو كان لك، خَيْرٌ من أن تلقَى الله بدم الحسين!» فقال: أفعلُ إن شاء الله. وبات لَيلتَه مفكرًا في أمره فسُمِع وهو يقول: [من الطويل]

أأتـركُ مـلـكَ الـرَّيِّ والـرَّيُّ رغـبـتـي ... أم أرْجـعُ مـذمـومًـا بـقـتـل حُـسَـيْـنِ
وفـي قـتـلـه الـنـارُ الـتـي لـيـس دونـهـا ... حـجـابٌ، ومـلـكُ الـريِّ قُـرَّةُ عَـيْـنِ

---

(١) الغاضرية: قرية من نواحي الكوفة قريبة من كربلاء، ياقوت جـ٤ ص١٨٣.

(٢) ماء على بحيرة مجاورة. راجع ياقوت جـ٣ ص٣٥٣.

(٣) العقر: عقر بابل قرب كربلاء من الكوفة. راجع ياقوت جـ٤ ص١٣٦.

(٤) عمر بن سعد بن أبي وقاص الزهري، ابن الصحابي الفاتح سعد بن أبي وقاص استذله الأمويون واشتروا منه دينه بإمارة الري، قتله المختار الثقفي انتقامًا لقتله السبط الحسين حوالي سنة ٦٦هـ.

ثم أتَى ابنَ زياد فقال له: إنك قد ولَّيْتني هذا العمل وسمع الناس به، فإن رأيت أن تُنفذَ لي ذلك وتبعث إلَى الحسين من أشراف الكوفة مَن لست أغني ولا أجزأ عنك في الحرب منه، وسَمَّى له أُناسًا؛ فقال له ابن زياد: لا تعْلمني بأشراف الكوفة، فلسْتُ أستأمرُك فيمن أريد أن أبعث، فإن سرتَ بجندنا وإلاَّ فابعث إلينا بعهدنا؛ قال: فإني سائر. فأقبل في ذلك الجيش حتى نزل بالحسين.

فلما نزل به بعث إليه عزرة بن قَيْس الأحْمَسي، فقال له: ائته فاسأله: ما الذي جاء بك؟ وماذا تريد؟ وكان عَزْرة ممَّن كتب إلى الحسين، فاستحيَى منه أن يأتيَه، فعرض عُمر ذلك على الرؤساء الذين كاتبوه، فكلُّهم أباه وكرهه.

فقام إليه كثير بن عبد الله، وكان فارسًا شجاعًا، فقال: أنا أذهب إليه ووالله إن شئتَ لأفتِكَنَّ به. فقال عُمر: ما أريد أن يُفْتَكَ به ولكن أن تسأله: ما الذي جاء به؟ فأقبل إليه، فلما رآه أبو ثمامة الصائدي قال للحسين: أصلحك الله، قد جاءك شرُّ أهل الأرض وأجرؤه[1] على دم وأفتكه[2]. فقام إليه، فقال له: ضع سيفك. قال لا واللّهِ ولا كرامة، إنما أنا رسولٌ فإن سمعتم أبلغتكم ما أُرسلتُ به إليكم، وإن أبَيْتم انصرفت عنكم. فقال له رجل: فإني آخذ بقائم سيفك ثم تكلم بحاجتك. قال: لا واللّهِ لا تمسّه. فقال له: أخبرني ما جئت به وأنا أُبلغه عنك ولا أدعك تدنو منه فإنك فاجر. فاسْتَبَّا[3]، ثم انصرف إلى عمر فأخبره الخبر.

فدعا عمر قُرَّة بن قيس الحنظلي، فقال له: ويحك يا قرة، ألق حسينًا فاسأله: ما جاء به؟ وماذا يريد؟ فأتاه فأخبره رسالة ابن سعد، فقال له الحسين: كتب إليَّ أهلُ مصركم أن أقدمَ عليهم، فأمَّا إذ كرهتموني فإني أنصرف عنهم. فانصرف قُرَّة إلى عمر فأخبره الخبر، فقال عمر: إني لأرجو أن يعافيني الله من حربه وقتاله.

ثم كتب إلى عبيد الله بن زياد: «أما بعد، فإني حَيْثُ نزلت بالحسين بعثتُ إليه رسولي، فسألته عمَّا أقدمه وماذا يطلب وماذا يسأل، فقال: كتب إليَّ أهل هذه البلاد وأتتني رسلُهم فسألوني القدوم ففعلت، فأمّا إذْ كرهوني وبَدَا لهم غيرُ ما أتتني به رسلهم فأنا منصرف عنهم».

فلما قُرِىء الكتاب علَى ابن زياد قال: [من الكامل]

الآنَ إذْ علـقَـتْ مَـخـالِـبُـنـا بـه ... يـرجـو الـنـجـاةَ ولاتَ حـيـنَ مَـنـاصِ

---

(١) الصواب فيها أجرؤهم.
(٢) صوابها: أفتكهم.
(٣) تشاتما.

وكتب إلى عمر بن سعد: «بسم الله الرحمٰن الرحيم، أمّا بعدُ فقد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت، فاعرض على الحسين أن يبايعَ يزيدَ بن معاوية أمير المؤمنين هو وجميعُ أصحابه، فإذا هو فعل رأيْنا والسلام» فلما قرأ عمر الكتاب قال: قد أحسستُ ألاَّ يقبلَ ابنُ زياد العافيةَ.

قال: وكتب ابن زياد إلى عمر بن سعد: «أمّا بعد، فَحُلْ بَين الحسين وأصحابه وبَيْن الماء، فلا يذوقوا منه قَطرة، كما صُنع بالتقيِّ الزكيّ المظلوم أميرِ المؤمنين عثمانَ بنِ عَفَّان».

فبعث عُمر عمرو بن الحجاج على خمسِمِائة فارس، فنزلوا علَى الشَّريعة[1]، وحالوا بَيْن الحسين وأصحابه وبين الماء، ومنعوهم أن يسقوا منه قطرة، وذلك قبل قتل الحسين بثلاث.

وناداه عبد الله بن أبي حصين الأزدي: «يا حسين، ألا تنظر إلى الماء كأنه كَبد السماء! واللّهِ لا تذوقُ منه قطرةً حتَّى تموت عطشًا!» فقال الحسين: «اللهم اقتلْه عطشًا ولا تغفر له أبدًا!» قال أبو جعفر الطبري في تاريخه: قال حميد بن مسلم«واللّهِ لقد عُدْتُه بعد ذلك في مرضه، فَوَاللّهِ الذي لا إله إلا هو لقد رأيتُه يشرب حتَّى يَبْغَر[2]، ثم يَقِيءُ، ثم يعود فيشرب حتَّى يَبْغَر، فما يَرْوَى، فما زال ذلك دأبه حتَّى لَفَظ غُصَّته» (يعني نفسه).

قال: فلمّا اشتدَّ علَى الحسين ومن معه العطش دعا أخاه العبّاس بن عليّ، فبعثه في ثلاثين فارسًا وعشرين راجلًا، وبعث معهم بعشرين قِرْبة، فدنَوْا من الماء، وقاتلوا علَيه، حتَّى مَلَؤوا القِرَب وعادوا بها إلى الحسين.

قال: ثم بعث الحسين إلى عُمر بن سعد أن الْقَنِي الليلَة بين عسكري وعسكرك. وكان رسوله إليه عَمْرو بن قَرَظة بن كَعْب الأنصاري، فخرج عمر في نحو من عشرين فارسًا، وأقبل الحسين في مثل ذلك، فلمَّا الْتقيا أمر الحسين أصحابه أن يتنحَّوْا عنه، وأمر عمر بمثل ذلك، فتكلما، فأطالا حتَّى ذهب من الليل جانب، ثم انصرف كل منهما إلى عسكره.

قال: وتحدَّث الناس فيما بينهم ظنًّا يظنُّونه أن الحسين قال لعمر بن سعد: اخرجْ معي إلى يزيد بن معاوية ونَدَع العسكَرَين. فقال له عمر: إذن تُهْدَم داري. قال: إذن أبنيها لك. قال: إذن تُؤْخذ ضِياعي. قال: إذن أُعطيك خيرًا منها بالحجاز. فكرِه ذلك عمر بن سعد.. فتحدث الناس بذلك من غير أن يكونوا سمعوه.

---

(١) مُرتَوى الماء أو موردها.

(٢) يبغر: يمتلىء منه.

قال: وذكر جماعة من المحدِّثين أن الحُسَين قال: اختاروا مني خِصالاً ثلاثًا: إما أن أرجع إلى المكان الذي أقبلتُ منه، وإما أن أضع يدي في يد يزيد بن معاوية فيرَى فيما بيني وبينه رأيَه، وإما أن أسير إلى أيّ ثغر من ثغور المسلمين شئتم فأكون رجلًا من أهله لي ما لهم وعليّ ما عليهم.

وأنكر عُقبة بن سمعان هذه المقالة وقال: «صحِبْتُ الحسين، فخرجتُ معه من المدينة إلى مكة، ومن مكة إلى العراق، ولم أُفارقه حتى قُتل، وليس من مخاطبته الناسَ كلمةٌ بالمدينة ولا بمكة ولا في الطريق ولا بالعراق ولا في عسكر إلى يوم مقتله إلا وقد سمعتُها، ألاَ واللّهِ ما أعطاهم ما يتذاكرُ الناسُ ويزعُمون من أنْ يضع يده في يد يزيد بن معاوية ولا أن يسيِّره إلى ثغر من ثغور المسلمين، ولكنه قال: دعوني أرجع إلى المكان الذِي أقبلتُ منه، أو دَعُوني أذهب في هذه الأرض العريضة حتى ننظرَ: إلَى مَ يصير أمْرُ الناس؟.

وقيل: الْتقَى الحسين وعمر بن سعد مِرارًا ثلاثًا أو أربعًا، فكتب عمر إلى عبيد الله بن زياد: «أما بعد، فإن الله قد أطفأ النائرة[1] وجَمَع الكلمة، وأصلح أمْر الأُمّة، هذا الحسين قد أعطاني أن يرجع إلَى المكان الذي منه أتَى، أو أن نسيِّرَه إلى ثَغْر من الثغور شِئْنا فيكونَ رجلًا من المسلمين له ما لم وعلَيه ما عليهم، أو أن يأتيَ يَزيدَ أميرَ المؤمنين فيضَعَ يدَه في يده فيرَى فيما بَيْنَه وبينه رأيَه، وفي هذا لكم رِضىً وللأُمة صلاح».

فلما قرأ عُبَيد الله الكتاب قال: هذا كتابُ رجلٍ ناصح لأميره مشفق علَى قومه، نَعَمْ، قد قبلتُ.

فقام إليه شمر بن ذي الجَوْشَن فقال: «أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك وإلَى جَنْبك، واللّهِ لَئن رحل من بلادك ولم يضعْ يده في يدك ليَكونَن أوْلَى بالقوة والعزة ولتكونَن أوْلَى بالضعف والعجز، فلا تُعْطه هذه المنزلة فإنها من الوَهن، ولكنْ لِيَنزلْ علَى حكمك هو وأصحابُه، فإن عاقبتَ فأنت وليُّ العقوبة، وإن عفَوْتَ كان ذلك لك، واللّهِ لقد بلغني أن الحسين وعُمر بن سعد يجلسان بين العسكرَين فيتحدثان عامة الليل».

فقال له ابْنُ زِياد: «نِعْمَ ما رأيْتَ، اخرُجْ بهذا الكتاب إلَى عُمر بن سعد، فلْيَعْرِض علَى حسين وأصحابِه النزولَ علَى حكمي، فإن فعلوا فلْيَبعثْ بهم إليّ سلْمًا،

(١) كناية عن الحرب.

وإن هم أبَوْا فلْيُقاتلْهم، فإن فعل فاسمعْ له وأطعْ، وإن هو أبَى أن يقاتلَهم فأنت أميرُ الناس وثبْ علَيه فاضْربْ عنقه وابعثْ إليَّ برأسه».

وكتب ابن زياد إلى عمر بن سعد: «أمَّا بَعْدُ، فإني لم أبعثْكَ إلَى الحسين لِتكُفَّ عنه، ولا لِتُطاوِلَه، ولا لتُمَنِّيَه السلامة والبقاء، ولا لِتقعُدَ له عندي شافعًا، انظرْ، فإنْ نزل الحسين وأصحابه علَى الحكم واستسلموا فابعثْ بهم إليَّ سلْمًا، وإنْ أبَوْا فازْحَفْ إلَيهم حتَّى تقتلهم وتمثِّل بهم، فإنهم لذلك مستحقُّون، فإن قُتِل الحسين فأوْطِىء الخَيْلَ صدره وظهره، فإنه عاقٌّ مُشاقٌّ قاطع ظَلُوم، فإن أنت، مَضَيْتَ لأمْرنا فيه جَزَيْناك جزاءَ السامع المطيع، وإن أنت أبَيْتَ فاعتزلْ عملنا وجندنا، وخَلِّ بَيْن شمرٍ وبين العسكر، فإنَّا قد أمرناه بأمْرنا، والسلام».

فأقبل شمر بكتاب ابن زياد إلى عمر بن سعد، فقرأه، فقال له عمر: «ما لَكَ؟ وَيْلك! لا قرَّب الله دارك، وقبّح الله ما قدِمتَ به عليَّ! واللّهِ إني لأظنُّك أنت الذي ثَنَيْتَه أن يَقْبل ما كتبتُ به إلَيه، أفسدتَ علَينا أمرًا كنا نرجو أن يصلح، لا يستسلمُ واللّهِ حسينٌ أبدًا، واللّهِ إن نفسًا أبِيَّةً لبَيْنَ جنبَيْه!».

فقال له شمر: أخبرْني ما أنت صانع: أتَمضِي لأمْر أميرك وتُقاتل عدوّه وإلاَّ فخَلِّ بَيْني وبين الجند والعسكر؟ فقال: لا، ولا كرامةَ لك، ولكن أنا أتولَّى ذلك.

فنهض إلَيه عشيَّةَ الخميس لتسع مَضَيْن من المحرَّم.

وكان شمر لمَّا قبض كتاب ابن زياد إلَى عمر بن سعد قام هو وعبد الله بن أبي المحل، وكانت عمَّتُه أمّ البنين ابنة حزام عند عليّ بن أبي طالب فولدتْ له العبَّاس وعبد الله وجعفرًا وعثمان. قال عبد الله: «أصلَح اللّهُ الأمير، إنَّ بَنِي أُختنا مع الحسين، فإن رأيْتَ أن تكْتب لهم أمانًا فعلتَ». فقال: نَعَمْ ونَعْمَةَ عَيْنٍ[1] فأمر كاتِبَه فكتب لهم أمانًا.

فلمَّا نهض عُمر إلَى الحسين جاء شمر حتَّى وقف على أصحاب الحسين فقال: أين بَنو أُختنا؟ فخرج إليه العبَّاس وعبد الله وجعفر وعثمان بنو علي، فقالوا: ما لَكَ؟ وما تريد؟ قال: أنتم يا بَني أُختي آمنون، فقالوا له: لعنك الله ولعن أمانَك! لئن كنت خالنا أتؤمِّننا وابْنُ رسول الله لا أمانَ له!

---

(١) قول للقبول والإفهام.

قال: ثمَّ إن عُمر بن سعد نادى: يا خَيْلَ الله اركبي وابشري. فركب الناس، ثم زحَف بهم نحوهم بعد صلاة العصر، والحُسَينُ جالس أمام بيته مُحْتَبِيًا[١] بسيفه، إذْ خَفَقَ برأسه علَى ركبَتَيْه، وسمعتْ أُخته الصيحة، فدنت منه فأيقظتْه وقالت: أما تسمع الأصواتَ قد اقتربتْ! فرفع الحسين رأسه فقال: إني رأيْت رسولَ الله ﷺ في المنام، فقال لي: إنك تروح إلينا. فلطمتْ وجهها وقالت: واوَيْلَتاه! فقال: ليس لكِ الويلُ يا أُخَيَّة، اسكتي رحمكِ الله[٢].

وقال له العبَّاس: يا أخي أتاك القوم. فنهض ثم قال: يا عبَّاس أركبُ بنفسي. فقال له العباس: بل أروح أنا. فقال: اركبْ أنت يا أخي حتَّى تلقاهم فتقولَ لهم: ما لكم؟ وما بدا لكم؟ وتسألهم عمَّا جاء بهم. فأتاهم العباس فاستقبلهم في نحو عشرين فارسًا، فقال لهم: ما بدا لكم؟ وما تريدون؟ قالوا: جاء أمْر الأمير بأن نَعْرِض عليكم أن تنزلوا علَى حكمه أو نُناجِزَكم. قال: فلا تَعْجَلوا حتَّى أرجِعَ إلَى أبي عبد الله فأعْرِضَ علَيه ما ذكرتم. فوقفوا، وانصرف راجعًا يركُض إلَى الحُسين فأخبره الخبر، فقال له الحسين: ارجعْ إليهم فإن استطعتَ أن تؤخِّرهم إلى غُدوة لعلنا نصلي لربنا الليلةَ وندعوه ونستغفره. فرجع العبّاس إليهم فقال: «يا هؤلاء، إن أبا عبد الله يسألكم أن تنصرفوا هذه الليلة، حتَّى ينظر في هذا الأمر، فإن هذا الأمر لم يَجْرِ بَيْنكم وبَيْنه فيه منطِق[٣]، فإذا أصبحنا الْتَقينا إن شاء الله، فإمّا رضيناه فأتَيْنا الأمر الَّذي تسألوننا وتسوموننا[٤]، أو كرهناه فردَدْناه».

قال: وإنَّما أراد الحسين أن يردَّهم عنه تلك العشيَّة حتَّى يأمر بأمره ويُوصي أهله.

فاستشار عُمر بن سعد شمر بن ذي الجَوْشَن في ذلك، فقال شمر: أنت الأمير والرأيُ رأيك. فأقبل عمر على الناس فقال: ماذا تَرَوْن؟ فقال له عمرو بن الحجّاج الزبيدي: سبحانَ الله! واللّهِ لو كان من الدَّيْلم ثم سألوك هذه المنزلةَ لكان ينبغي لك أن تُجيبَهم إلَيها. وقال قيس بن الأشعث: أجِبْهم إلَى ما سألوك فلَعمري لَيَصْبَحُنَّك بالقتال غُدْوَةً. فقال: واللّهِ لو أعلم أن يفعلوا ما أخَّرْتُهم العشِيَّة.. ثم رجع عنهم.

قال: وجمع الحسين أصحابه بعدما رجع عمر بن سعد عنهم فقال: «أُثْنِي علَى الله تبارك وتعالى أحسَنَ الثناء، وأحمَدُه علَى السَّرَّاء والضراء، اللهم إني أحمَدُك علَى

---

(١) كان يضعه على ركبتيه.

(٢) راجع ابن الأثير باختلاف جـ٤ ص٥٩.

(٣) أراد قولاً.

(٤) تفاوضوننا عليه.

أن أكرمتَنا بالنبوة، وعلمتنا القرآن، وفقهْتَنا في الدين، وجعلت لنا أسماعًا وأبصارًا وأفئدة، فاجعلنا لك من الشاكرين، أما بعد، فإني لا أعلم أصحابًا أوْفى ولا خيرًا من أصحابي، ولا أهلَ بَيْتٍ أبر ولا أوْصَلَ مِن أهل بيتي، فجزاكم الله جميعًا عني خيرًا، ألاَ وإني لأظنُّ يومنا من هؤلاء الأعداء غدًا، ألاَ وإني قد أذِنتُ لكم، فانطلِقوا جميعًا في حِلّ، ليس عليكم في ذِمام[1]، هذا الليل قد غشِيكم فاتخِذوه جَمَلاً[2]، ثم ليأْخُذْ كُل رجل منكم بِيَدِ رجل من أهل بيتي، ثم تفرقوا في البلاد، في سوادكم[3] ومدائنكم، حتى يفرِّج الله، فإن القومَ إنما يطلبونني ولو قد أصابوني لَهَوْا عن طلب غيري!»[4].

فقال له إخوته وأبناؤه وبنو أخيه وأبناء عبد الله بن جعفر: «لِمَ نفعل ذلك؟ لِنَبْقَى بَعدك! لا أرانا الله ذلك أبدًا!» بدأهم بهذا القول العباس بن علي، ثم تكلموا بهذا ونحوه، فقال الحسين: يا بني عَقيل، حسبكم من الفتك بمُسْلِم[5]، اذهبوا فقد أذِنتُ لكم! قالوا: «فماذا يقول الناس؟ يقولون: أنا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الأعمام، لم نَرْم معهم بسهم، ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب معهم بسيف، ولا ندري ما صنعوا! لا واللّهِ لا نفعل، ولكن نَفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا ونقاتل معك حتى نَرِدَ مَوْرِدَك فقبّح الله العَيشَ بعدك!».

وقام إليه مُسلم بن عَوْسَجة الأسَدي[6]، فقال: «أنحن نتخلّى عنك ولم نُعْذِرْ إلَى الله في أداء حقك؟ أمَا واللّهِ لا أُفارقك حتى أكْسِر في صدورهم رمحي وأضربَهم بسيفي ما ثَبت قائمُه في يدي! واللّهِ لو لم يكن معي سلاح أُقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دُونَك حتَّى أموت!».

وقال له سعد بن عبد الله الحنفي: «والله لا نخلِّيك، حتَّى يعلمَ الله أنَّا قد حفظنا غيبةَ رسولِ الله ﷺ فيك، والله لو علمتُ أني أحيا ثم أُحرَق حيًّا ثم أُذْرَى، يُفْعَل بي

---

(١) أراد لا عهود بيننا، فقد أحللتكم منها.

(٢) ولله دره من كناية ما أفصحها، فقد شبّه الليل وسيره كالدابة تقل السفر وهم المسافرين.

(٣) السواد: النواحي والقرى والمنازل.

(٤) راجع ابن الأثير باختلاف جـ٤ ص٥٧ ـ ٥٨.

(٥) مسلم بن عقيل بن أبي طالب.

(٦) مسلم بن عوسجة الأسدي، فاتح بطل شهد فتوح أذربيجان وغير ذلك كثير من فتوحات صدر الإسلام. وأحد من نفر صحبوا الحسين السبط ابن بنت رسول الله ﷺ فلم يبيعوا دينهم بدنياهم. استشهد بكربلاء مع الحسين السبط سنة ٦١هـ. راجع الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٥٨.

ذلك سبعين مَرَّة، ما فارقتُك حتى ألقَى حِمامي[١] دُونَك! فكيف لا أفعلُ ذلك وإنما هي قتْلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبدًا!».

وقال زُهير بن القَيْن: «واللّهِ لَوَدِدْتُ أني قُتِلْتُ ثم نُشِرْتُ[٢] ثم قُتلتُ، حتَّى أُقْتَلَ هكذا ألف قتلة، وأن الله يدفعُ بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفِتْية من أهل بيتك!».

وتكلَّم جماعة أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضًا في وجه واحد، فقالوا «واللّهِ لا نفارقك، ولكن أنفسنا لك الفِداء! ونَقِيك[٣] بنُحورنا وجِباهنا وأيدينا وأبداننا! فإذا نحن قُتلنا وَفَيْنا وقَضَيْنا ما علَينا!».. وهذا القول من كلام الحسين وكلامهم مَرْوِيّ عن زَيْن العابدين عليّ بن الحُسين رضي الله عنهما.

قال: وسمعتْه زَيْنَبُ[٤] أختُه في تلك الليلة وهو في خباء له يقول ـ وعنده حوى مولى أبي ذر الغفاري وهو يعالج سيفه ويصلحه ـ: [من الرجز]

يـا دهـرُ أُفٍّ لـك مـن خـلـيـلِ ... كَـم لـك بـالإشـراق والأصـيـلِ[٥]

مـن صـاحـبٍ أو طـالـبٍ قَـتِـيـلِ ... والـدهـرُ لا يَـقْـنَـعُ بـالـبَـدِيـلِ

وإنَّـمـا الأمـرُ إلَـى الـجَـلـيـلِ[٦] ... وكُـلُّ حَـيٍّ سـالِـكُ الـسـبـيـلِ

فأعاد ذلك مَرّتَين أو ثلاثًا، فلمّا سمعتْه[٧] لم تَملك لنفسها أن وثَبَتْ تجرُّ ثَوْبَها وإنها لحاسِرة حتَّى انتهت إليه فقالت: «واثُكْلاه! لَيت الموت أعْدَمني الحياة! اليومُ ماتت فاطمة أمِّي وعليٌّ أبي وحَسَنٌ أخي! يا خليفة الماضي وثِمال[٨] الباقي!». فنظر إليها وقال: يا أُخَيَّة لا يُذْهِبَنَّ حِلْمَكِ الشيطانُ. قالت: بِأبي وأُمّي أنتَ استقتلت نفسي فِداؤُك! فردَّد غُصَّته، وتَرَقْرَقَتْ عيناه، ثم قال: «لو تُرِكَ القَطا[٩] لَيْلاً لَنام!»[١٠].

---

(١) موتي. (٢) بعثت.
(٣) نحميك.
(٤) زينب بنت علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه شريفة فصيحة شهدت مصرع الحسين السبط وكان لها مواقف تشرفت بها الإنسانية. والرواية منقولة كما في مقاتل الطالبيين عن الإمام السجاد علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه.
(٥) الغروب. (٦) اسم من أسماء الله الحسنى.
(٧) الشريفة زينب بنت علي أخت السبط الشهيد.
(٨) الأخير الباقي. (٩) القطا: من جنس الحمام البري.
(١٠) عجز بيت لحذام بن الديان وتمامه:

ألا يـا قـومـنـا ارتـحـلـوا وسـيـروا ... فـلـو تُـرِكَ الـقـطـا لـيـلاً لـنـامَ

فقالت: «يا وَيْلَتا! أَفَتُغْصَبُ نَفْسَك اغتِصابًا؟ فذلك أَقْرَحُ لِقلبي وأشدُّ علَى نفسي!» ثم لطمتْ وجهَها وأهوت إلَى جَيْبها فشقتْه[١]، ثم خرَّت مَغْشِيًّا علَيها، فقام إليها الحسين لصبَّ علَى وجهها الماء وقال لها: «يا أُخَيَّة، اتَّقِي الله، وتَعَزَّيْ بعَزاء الله، واعلمي أن أهل الأرض يموتون، وأن أهل السماء لا يبقَوْن، وأن كلَّ شيءٍ هالك إلاَّ وَجْهَه، الذي خلق الأرض بقدرته، ويبعث الخلق فيعودون وهو فَرْد وَحْدَه، وأبي خَيْرٌ منّي، وأمّي خَيْرٌ مني، وأخي خيرٌ منّي، ولي ولهم ولكل مسلم أسْوَةٌ برسول الله ﷺ!» فعزَّها بهذا ونحوه، وقال لها: «يا أُخَيَّة، إني أُقسم علَيْكِ فأبرّي قَسَمي، ألاَّ تشقِّي علَيَّ جَيْبًا، ولا تَخْمِشي[٢] علَيَّ وجهًا، ولا تَدْعِي علَيَّ بالوَيْل والثُّبور[٣] إذا أنا هلكتُ!».

ثم خرج إلى أصحابه، فأمرهم أن يقرِّبوا بيوتهم بعضَها إلى بعض، وأن يُدخلوا الأطناب[٤] بعضها في بعض، وأن يكونوا هم بَيْن البيوت، فيستقبلوا القوم من وجه واحدٍ، والبيوتُ من وَرائهم وعن أيمانهم وعن شَمائلهم.

قال: وقاموا الليل كلَّه يصلُّون ويستغفرون ويدْعُون ويتضرَّعون.

فلمّا صلّى عُمر بن سعد الغَداة، وذلك يوم السبت، وهو يوم عاشوراء، وقيل: يوم الجمعة، خرج فيمن معه من الناس.

وعبّأ[٥] الحُسَين أصحابه بالغَداة، وكان معه اثنان وثلاثون فارسًا وأربعون راجلاً، فجعل زُهَير بن القَيْن في ميمنته، وحبيب بن مُظَهَّر في ميسرته، وأعطى رايته العبَّاس أخاه، وأمر بحَطَب وقصب فأُلقي في مكان مخفض من ورائهم كأنه ساقية كانوا عملوه في ساعة من الليل، وأضرم فيه نارًا، لِئَلاً يُؤْتَوْا من ورائهم، فنفعهم ذلك[٦].

وجعل عُمر بن سعد على ميمنته عمرو بن الحجاج الزُّبيدي، وعلى مَيسرته شِمْر بن ذي الجَوْشَن، وعلى الخيل عَزْرة بن قيس الأحْمَسي، وعلى الرجال شَبَث بن رِبْعِيّ، وأعطى الراية ذُوَيدًا مَولاه، وجعل على رُبع المدينة عبد الله بن زهير الأزْدي، وعلى ربع ربيعة وكِنْدة قَيس بن الأشعث بن قيس، وعلى ربع مَذْحِج وأسَد

---

(١) منتهى التعبير عن الحزن والحسرة.
(٢) خمش: خدش.
(٣) الثبور: الخسران.
(٤) مفردها: طنب: وهو جبل الخباء.
(٥) عبأ: هيأ.
(٦) راجع ابن الأثير باختلاف وزيادة ج٤ ص٥٩ ـ ٦٠.

عبد الرحمٰن بن أبي سَبْرة الحَنَفي، وعلى رُبع تَميم وهَمْدان الحُرّ بن يزيد الرِّياحي.. فشهد هؤلاء كلُّهم مقتل الحسين إلا الحرّ بن يزيد، فإنه عَدَل إلى الحسين وقُتِل معه على ما نذكره.

قال: ولما أقبلوا إلى الحسين أمر بفُسْطاط فضُرِب، ثم أمر بمِسْك، فمِيث[١] في جَفْنة[٢] عظيمة، ثم دخل الحسين ذلك الفُسْطاط واستعمل النُّورَة[٣]، ثمَّ خرج فركب دابّته، ودعا بمُصحَف فوضعه أمامه، ورفع يدَيه فقال: «اللهمَّ أنت ثِقَتي في كلِّ كَرْب، ورجائي في كلِّ شِدَّة، وأنت لي في كل أمرٍ نَزل بي ثِقة وعُدَّة، كم من همٍّ يضعف فيه الفؤاد، وتقِلُّ فيه الحيلة، ويَخْذُل فيه الصديق، ويشمَت فيه العدوُّ أنزلتُه بك وشكوتُه إليك، رغبةً مِنّي إلَيك عَمَّن سِواك، ففرَّجْتَه وكشفتَه وكَفَيْتَنِيه، فأنت وليُّ كلِّ نعمة، وصاحبُ كلِّ حسن، ومُنْتَهَى كلِّ رغبة!».

وأقبلوا نحو الحسين، فنظروا إلى النار تَضْطَرِم في الحَطَب والقصَب، فقال شمر بن ذي الجَوْشَن: يا حسين استعجلت النار في الدنيا قبل يوم القيامة. فقال له الحسين: يا ابْنَ راعية المِعْزَى أنت أوْلَى بها صلِيًا[٤]!.

ثم ركب الحسين راحلته، وحمل ابنه عليًا علَى فَرَسِه «لاحِق».

ذكر ما تكلم به الحسين رضي الله عنه قبل إنشاب الحرب وما وعظ به الناس وما أجابوه وما تكلم به أصحابه وما أُجيبوا به وخبر مقتله

قال: ولما ركب الحسين راحلته نادَى بأعلَى صوته نداءً يُسمِعُ جلَّ الناسِ: أيها الناسُ، اسمعوا قَولي، ولا تُعجلوني حتَّى أعظكم بما يحقُّ لكم، وحتَّى أعتذرَ لكم من مقدمي عليكم، فإن قبلتم عذري وصدقتم قولي وأعطيتموني النَّصَفَ[٥] كنتم بذلك أسعد ولم يكن لكم عليّ سبيل، وإن لم تقْبلوا مني العذرَ ولم تُعطوا النَّصَف من أنفسكم ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]، ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف: ١٩٦].

---

(١) فميث: أذيب وعجن. (٢) جفنة: قصعة.

(٣) النورة: حجر مخصوص لإزالة شعر الأبدان.

(٤) احتراقًا. (٥) العدل.

ثم حمد الله وأثنى عليه، وصلّى على محمد ﷺ وعلى ملائكة الله وأنبيائه، ثم قال: أما بعد، فانسُبوني[١] وانظروا من أنا؟ ثم ارجعوا إلى أنفسكم، وعاتِبوها، فانظروا هل يصلُح لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟؟ ألستُ ابْنَ بنتِ نبيّكم وابْنَ وَصِيِّه وابن عمِّه وأوَّلِ المؤمنين بالله والمصدِّق لرسوله بما جاء به من عند ربّه؟ أوَليس حمزة سيّدُ الشهداء عمَّ أبي؟ أوليس جعفرٌ الطيّار في الجنة بجناحَيْن بِعَمِّي؟ أوَلَمْ يبلُغكم قولٌ مستفيضٌ فيكم أنَّ رسول الله ﷺ قال لي ولأخي: «هذان سيّدا شباب أهل الجنة»؟ فإن صدقتموني بما أقول، وهو الحق، وما تعمّدت كذبًا مذ علمت أن الله يمقُت عليه أهلَه ويضرُّ به من اختلقه، وإن كذبتموني فإن فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري[٢] أو أبا سعيد الخُذْرِيّ[٣] أو سَهْل بن سعد الساعِدي[٤] أو زيد بن أرقم[٥] أو أنس بن مالك[٦] يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله ﷺ لي ولأخي، أمَا في هذا حاجزٌ لكم عن سفك دمي؟!.

فقال له شمر: هو يعبدُ الله علَى حَرْفٍ إن كان يدري ما يقول. فقال له حبيب بن مظهّر: «واللّهِ إني لأراك تعبد الله على سبعين حَرْفًا، وإني أشهد أنك صادق وأنك لا تدري ما تقول، قد طَبَع اللّهُ على قلبك!»[٧].

ثم قال الحسين: فإن كنتم في شك من هذا القول أفتشكُّون أني ابن بنت نبيّكم؟ فواللّهِ ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري منكم ولا من غيركم! أخبروني أتطلبوني بقتيل منكم قتلته، أو مال لكم استهلكته، أو بقصاص من جراحة[٨]؟!

---

(١) تحققوا نسبي.

(٢) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري من بني سلم. صحابي كثير الرواية. توفي سنة ٧٨هـ. راجع الإصابة جـ١ ص٢١٣.

(٣) سعد بن مالك بن سنان الخدري الأنصاري الخزرجي، كنيته أبو سعيد صحابي كثير الرواية توفي سنة ٧٤هـ. راجع حلية الأولياء جـ١ ص٣٦٩.

(٤) سهل بن سعد الخزرجي الأنصاري من بني ساعدة، صحابي توفي سنة ٩١هـ. راجع الإصابة ترجمة ٣٥٢٦.

(٥) زيد بن أرقم الخزرجي الأنصاري، صحابي، شهد صفين مع الإمام علي كرّم الله وجهه. توفي سنة ٦٨هـ.

(٦) أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم النجاري الخزرجي الأنصاري، كنيته أبو تمامة، صاحبي، كثير الرواية عن رسول الله ﷺ توفي في البصرة سنة ٩٣هـ. راجع طبقات ابن سعد جـ٧ ص١٠.

(٧) يعني الشمر اللعين.

(٨) الجراحة: أقل العدوان.

فلم يكلّموه، فنادى: «يا شَبَث بن رِبْعِيّ، ويا حجار بن أبحر، ويا قَيس بن الأشعث، ويا يزيد بن الحارث، ألم تكتبوا إليَّ أنْ قد أيْنَعتِ الثمار، واخضر الجناب، وطَمَتِ الجِمام[١]، وإنما تقدَم على جند لك مجنَّد، فأقبِلْ؟».

قالوا: لم نفعل، قال: «سبحان الله! بلَى والله لقد فعلتم!».

ثم قال: أيُّها الناس إذ كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض.

فقال له قيس بن الأشعث: أولاً تنزل علَى حُكم بني عمك فإنهم لن يُرُوك إلا ما تحبّ ولن يصل إليك منهم مكروه. فقال له الحسين: «أنت أخو أخيك[٢]، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مُسلم بن عَقيل؟ لا واللّهِ لا أعطيهم بيدي إعطاءَ الذليل ولا أُقرُّ إقرار العبيد!! عبادَ الله، إنِّي عُذت بربِّي وربِّكم أنْ تَرْجُمُون[٣] إني عُذْتُ بربِّي وربِّكم من كلِّ متكبِّر لا يؤمن بيَوْم الحساب[٤]!».

ثم أناخ راحلته، ونزل عنها، وأمر عقبة بن سمعان فعقلها، وأقبلوا يزحفون نحوه.

فخرج زُهَير بن القَين علَى فرسٍ له شاكي السلاح[٥]، وقال: «يا أهل الكوفة، نَذَارِ[٦] لكم من عذاب الله نَذَارِ، إن حقًّا على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتى الآن إخوة، وعلى دين واحد ومِلة واحدة، ما لم يقع بَيننا وبَينكم السيف، فأنتم للنصيحة أهْلٌ، فإذا وقع السيفُ انقطعت العِصمةُ، وكنا أمّة وأنتم أمّة، إن الله قد ابتلانا وإيَّاكم بذرية محمد ﷺ لينظرَ ما نحن وأنتم عاملون، إنَّا ندعوكم إلى نصرهم وخِذْلان الطاغية ابن الطاغية عُبَيد الله بن زياد، فإنكم لا تذكرون منهما إلاَّ سُوءًا، يَسْمُلان[٧] أعْيُنَكم، ويقطعان أيدَيكم وأرجُلكم، ويمثّلان بكم، ويرفعانكم علَى جُذوع النخل[٨]، ويقتلان أماثِلكم[٩] وقُرَّاءكم، أمثال حُجْر بن عَدِيّ وأصحابه، وهانىء بن عُرْوة وأشباهه!».

---

(١) كناية عن استحقاق الأوان وتمامه.

(٢) إشارة إلى ما فعله أخوه محمد بن الأشعث، حيث أمّن مسلم بن عقيل ثم نكث.

(٣) استئناسًا بقوله تعالى من سورة الدخان الآية ٢.

(٤) استئناسًا بقوله تعالى من سورة غافر الآية ٢٧.

(٥) تام العدة.

(٦) لفظ تحذير من الإنذار.

(٧) يقتلعان.

(٨) كناية عن الصلب، الجذوع جمع جذع وهو قائم الشجر.

(٩) أفاضلكم.

قال: فسَبُّوه، وأثنَوْا علَى عُبَيد الله بن زياد، ودعَوْا له، وقالوا: والله لا نَبْرَحُ حتَّى نقتلَ صاحبك ومَن معه أو نبعثَ به وبأصحابه إلى الأمير عُبَيد الله سَلَمًا[١].

فقال لهم: «عبادَ الله، إن ولد فاطمة أحقُّ بالودّ والنصر من ابن سُمَيَّة[٢]، فإن كنتم لم تنصروه فأُعيذكم بالله أن تقتلوه، خلُّوا بين هذا الرجل وبين ابن عمّه يزيد بن معاوية، فلَعمري إن يزيد ليرضَى من طاعتكم بدون قتل الحسين!».

فرماه شمر بسهم وقال: اسكتْ، أسكت الله نَأْمَتَك[٣]، أبْرَمْتَنا بكثرة كلامك!

فقال له زهير: «يا ابن البَوَّال عَلى عَقِبَيْه، ما إيَّاك أخاطب، إنما أنت بَهيمة، والله ما أظُنُّك تُحْكِم من كتاب الله آيتَين، فأبشِرْ بالخِزْي يوم القيامة والعذاب الأليم!».

فقال له شمر: إن الله قاتِلُك وصاحبك عن ساعة. قال: «أفَبِالموت تخوِّفني؟ فواللّهِ لَلْموتُ أحبُّ إلَيَّ من الخُلْد معكم!» ثم رفع صوته وقال: «عباد الله، لا يغُرَّنَّكم من دينكم هذا الجِلْفُ الجافي وأشباهُه، فواللّهِ لا تنالُ شفاعةُ محمد قومًا هَراقوا دماءَ ذُرِّيَّته وأهل بيته وقتلوا من نصرهم وذَبَّ عن حريمهم!».

فأتاه رجل من قبل الحسين فقال له: «إن أبا عبد الله يقول لك: أقبِلْ، فلَعَمْري لئن كان مُؤْمِن آلِ فِرْعَوْنَ[٤] نصحَ قومه وأبلغَ في الدعاء لقد نصحتَ لهؤلاء وأبلغتَ لو نفع الصلح والإبلاغ!».

قال: ولمّا زحَف عمر بن سعد إلى الحسين أتاه الحُرُّ بن يزيد فقال له: «أصلحك الله، أمُقاتِلٌ أنت هذا الرجل؟!» قال: «إي واللّهِ، قتالاً أيْسَرُه أن تسقط الرؤوس وتَطِيحَ الأيدي[٥]!» قال: أفما لكم في واحدة من الخِصال التي عَرَض علَيكم رضًى؟ قال عمر: «أمَا واللّهِ لو كان الأمر لي لفعلتُ! ولكنَّ أميرك قد أبى ذلك». فأخذ الحُرُّ يدنو من الحسين قليلاً قليلاً، وأخذتْه رِعْدَة[٦]، فقال له رجل من قومه يقال له «المهاجر بن أوس»: ما تريد يا ابْنَ يزيد؟ أتريد أن تحمل؟ فسكت، وأخذه مِثْلُ العُرَوَاء[٧]، فقال له: «يا ابن يزيد، إنَّ أمْرك لمُرِيب! واللّهِ ما رأيتُ منك في

---

(١) وفي رواية خولاً أي عبيدًا.

(٢) سمية جدة عبيد الله لأبيه زياد وكانت بغيًا في الجاهلية. ومرجانة أمه.

(٣) النأمة: الحركة أو الصوت الخفيف وربما كلاهما.

(٤) الذي كان يكتم إيمانه وقال لفرعون: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ أراد موسى سلام الله عليه. انظر سورة غافر الآية ٢٨.

(٥) كناية عن قطعهما.

(٦) رجفة.

(٧) ما يصيب المحموم من انتفاض وخلافه.

مَوقفٍ قَطُّ مِثْلَ شيء أراه الآن! ولو قيل لي: مَن أشجعُ أهلِ الكوفة رجُلاً؟ ما عَدَوْتك! فما هذا الذي أرى منك؟» فقال له: «إني - والله - أخَيِّرُ نفسي بَيْن الجنة والنار، والله لا أختار علَى الجنة شيئًا ولو قُطِّعتُ وحُرِّقت!»[1].

ثم ضرب فَرَسه، فلحِق بالحسين، فقال له: «جعلني اللّهُ فِداك يا ابن رسول الله، أنا صاحِبُك الذي حبسْتُك عن الرجوع، وسايَرْتُك في الطريق، وجَعْجَعْتُ بك في هذا المكان، وواللّهِ الذي لا إله إلا هو ما ظَنَنتُ أن القوم يردُّون عليك ما عرَضتَ علَيهم أبدًا ولا يبلُغون منك هذه المنزلة! فقلت في نفسي: لا أبالي أن أطيع القومَ في بعض أمرهم ولا يَرَوْن أني خرجتُ من طاعتهم، وأمَّا هُمْ فسيَقبلون من الحسين بعضَ هذه الخصال التي يَعْرِض عليهم، وواللّهِ لو ظننتُ أنهم لا يقبلونها منك ما ركبْتُها منك! وإنّي قد جئتك تائبًا ممّا كان مني إلى ربِّي مُواسيًا لك بنفسي حتَّى أموتَ بين يدَيْك! أفتَرَى ذلك لي توبة؟» قال: نعم يتوبُ الله عليك ويغفر لك.

قال: فتقدم الحُرّ، ثم قال: «أيُّها القوم[2]، ألاَ تقبلون من الحسين خَصْلة من هذه الخصال التي عَرَض عليك فيعافيَكم الله من حربه وقتاله؟» فقال له عمر: «قد حَرَصْتُ، لو وجدتُ إلى ذلك سبيلاً فعلتُ!» فقال: «يا أهل الكوفة، لأُمِّكم الهَبَلُ[3]! دعَوْتموه حتَّى إذا أتاكم أسلمتموه! وزعمتم أنكم قاتلو أنفُسكم دُونَه ثُمَّ عَدَوْتم عليه لتقتلوه! أمسكتم بنَفَسِ وأخذتم بكَظَمِه[4] وأحطتم به من كل ناحية، فمنعتموه التوجُّه في بلاد الله العريضة، حتَّى يأمَنَ أهل بيته، فأصبح في أيديكم كالأسير لا يملكُ لنفسه نفعًا ولا يدْفع عنها ضُرًّا! ومنعتموه ومَن معه من ماء الفُرات الجاري الذي يشربه اليهوديُّ والنصرانيّ والمجوسيّ، وتمرَّغ فيه خنازير السَّواد وكلابُه، وها هم قد صَرعهم العطش! بئس ما خلفتم محمدًا في ذرِّيَّته! لا أسقاكم الله يوْم الظمأ إن لم تتوبوا وتنزعوا عمَّا أنتم عليه من يومكم هذا في ساعتكم هذه!» فرمَوْه بالنَّبْل، فرجع حتَّى وقف أمام الحسين.

وزحف عمر بن سعد، ثم نادى: «يا ذُوَيْد[5]، ادْنِ رايتك» ثم رمَى بسهم وقال: اشهدوا أني أوَّل من رَمَى بسهم. ثم ارْتمَى الناس.

---

(١) راجع ابن الأثير بزيادة جـ٤ ص٦٤.

(٢) في النص وردت «الأمير» وهو خطأ لأن الأمير عبيد الله بن زياد لم يكن معهم، وفي كلي الطبري وابن الأثير جاءت كما أثبتنا.

(٣) الشكل.

(٤) أراد أخذتم عليه كل متنفس وهي كتابة عالية الفصاحة.

(٥) ذويدًا أو دريدًا كما في الكامل، مولى عمر بن سعد وحامل رايته.

وخرج يسار مولى زياد ابن أبيه وسالم مولى عُبيد الله بن زياد، فقالا: مَن يُبارز؟ فخرج إليهما عبد الله بن عُمير الكلبي، فقالا له: مَن أنت؟ فانتسب لهما، فقالا له: لا نعرفك، ليخرجْ إلينا زُهَير بن القَين أو حبيب بن مُظَهِّر أو بُرَيْر بن حُضَير. وكان يسار أمام سالم، فقال له الكلبي: «يا ابن الزانية، أوَ بكَ رغبةٌ عن مبارزة أحد من الناس؟ وهل يخرج إليك أحد من الناس إلاَّ وهو خير منك؟!» ثم حمل عليه فضربه بسيفه حتَّى بَرَد[1]، فإنه لمشتغل به يضربه إذ شدَّ عليه سالم فلم يأبَهْ له، حتَّى غشِيَه فبَدَره الضربة، فاتَّقاه الكلبي بيده اليُسْرَى فأطار أصابع كفِّه اليسرَى، ثم مال عليه الكلبيُّ فضربه حتَّى قتله.

وكان الكلبيُّ هذا قد رأى الناسَ من أهل الكوفة بالنُّخَيلة وهم يعرضون ليسرَّحوا إلى الحسين، فقال: «واللّهِ لقد كنتُ على جهاد أهل الشرك حريصًا، وإني لأرجو ألاَّ يكونَ جهادُ هؤلاء الذين يغزُون ابْنَ بنتِ نبيِّهم أيْسَرَ ثوابًا عند الله من ثوابه إيَّاي في جهاد المشركين!» فدخل علَى امْرأته أمِّ وَهْب بنت عبد، فأخبرها بما سمع وأعلمها بما يريد، فصوَّبَتْ رأيه وقالت: أخرِجْني معك! فخرج بها ليلاً حتَّى أتى الحسينَ فأقام معه، فلمَّا قَتل العبدَيْن أقبل يرتَجز ويقول: [من الرجز]

إنْ تُنكِروني فأنا ابن كَلْبِ
حَسْبي بِبَيْتي في عُلَيْمٍ حَسْبي
إنِّي امْرُؤٌ ذو مِرَّةٍ[2] وعَضْبِ
ولستُ بالخَوَّارِ[3] عند النَّكْبِ[4]
إنِّي زَعيمٌ لَكِ أمَّ وَهْبِ[5]
بالطعْنِ فيهم مُقْدِمًا والضَّرْبِ
ضَرْبِ غُلامٍ مُؤمِنٍ بالرَّبِّ

فأخذت امرأتُه أمُّ وَهْب عمودًا ثمّ أقبلتْ نحوه تقول له: «فِداك أبي وأمّي! قاتِلْ دُون الطيِّبين ذُرِّيَّة محمد ﷺ!» فأقبَلَ إليها يردُّها نحو النساء، وأخذتْ تُجاذب ثوبه وقالت: لن أدَعَك دُون أن أموتَ معك! فناداها الحسين فقال: «جُزيتم مِن أهل بيتٍ خيرًا! ارجعي رحمك الله إلى النساء فاجلسي معهُنّ، فإنه ليس علَى النساء قتال» فانصرفتْ إليهن.

---

(١) كناية عن الموت.
(٢) قوة.
(٣) الضعيف.
(٤) أراد النكبة وهي المصيبة.
(٥) أم وهب زوجة عبد الله بن عمير الكلبي.

وحمل عمرو بن الحجَّاج، وهو في الميمنة، فلمَّا دنا من الحسين جَثوْا له على الرُّكَب، وأشرعوا الرماحَ نحوهم، فلم تُقْدِم خيلُهم علَى الرماح، فذهبت الخيلُ لِترجع، فرشَقُوهم بالنَّبْل، فصرَعوا منهم رجالاً وجرحوا آخرين.

وجاء عبد الله بن حَوْزة التَّميمي حتَّى وقف أمام الحسين، فقال له: يا حسين فقال: ما تشاء؟ قال: أبشِرْ بالنار. قال: «كلاَّ، إني أقْدَمُ علَى ربّ رحيم شفيع مُطاع! مَن أنت؟» قال أصحابه: هذا ابن حَوْزة. قال: رَبِّ حُزْهُ[١] إلَى النار! فاضطرب به فرَسُه في جدْوَل، فوقع فيه، وتعلَّقت رجله بالرِّكاب، ونَفَر الفرس، فمرَّ به يضرب برأسه كلَّ شجرة وحجر حتّى مات، وانقطعت فخذه وساقه وقدمه[٢].

ثم بَرَز الناسُ بعضُهم إلى بعض، فصاح عمرو بن الحجاج بالناس: «يا حَمْقَى، أتدرُون من تقاتلون؟ فُرسان المصر قومًا مستميتين لا يبرُز لهم منكم أحد، فإنهم قليل، والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم!» فقال عمر[٣]: «صدقت، الرأي ما رأيت».

ثم حمل عمرو بن الحجّاج على الحسين من نحو الفُرات، فاضطربا ساعة، فصُرِع مُسلم بن عَوْسَجة الأسَديّ من أصحاب الحسين، ثم مات، فترحّم الحسين علَيه ثم قال: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وحمل شَمِر بن ذي الجَوْشَنِ بالمَيْسَرة علَى من يليه من أصحاب الحسين، فثبتوا له وطاعنوه، فقُتِل الكلبي، بعد أن قَتَل رجلين آخَرين وقاتل قتالاً شديدًا، فكان هو القتيلَ الثاني من أصحاب الحسين.

وقاتَل أصحابُ الحسين قتالاً شديدًا، فكانوا لا يحملون علَى جانب من خيل الكوفة إلاَّ كَشَفوه[٤]، فلمَّا رأى ذلك عَزْرَة بن قَيس، وهو على خيل الكوفة، بعث إلى عمر بن سعد فقال: «ألاَ ترى ما تَلْقَى خيلي منذ اليوم من هذه العِدَّة اليسيرة؟ ابعث إليهم الرجالَ والرُّماة!» فقال عمر لشَبَث بن ربْعِيّ: تقدَّمْ إليهم. فقال: سُبْحانَ الله! أتعمِد إلَى شيخ مُضَر وأهل المصر عامّة تبعثه في الرُّماة؟ لم تجد من تندُبُ لهذا ويُجزى عنك غيري!» وكان لا يزالون يَرَوْن من شَبَث الكراهةَ لقتال الحسين.

قال: فلما قال شَبَث ذلك دعا عمر بن سعد الحُصَين بن نمير وبعث معه

---

(١) معه زحة.
(٢) راجع ابن الأثير جـ٤ ص٦٦.
(٣) عمر بن سعد بن أبي وقاص.
(٤) نالوا منه بتفريقهم من أمامهم.

المجفَّفة[١] وخمسمائة من المرامية[٢]، فلمّا دنَوْا من الحسين وأصحابه رشَقُوهم بالنبل، فلم يلبثوا أن عقروا خيولَهم وصاروا رَجّالة كلهم.

وقاتل الناس أشدَّ قتال حتَّى انتصف النهار، وهم لا يقدرون علَى أن يأتُوا الحسين وأصحابَه إلاَّ مِن وَجْه واحد، لاجتماع أبْنِيَتِهم وتقارب بعضها من بعض.

فأرسل عمر بن سعد رجالاً يُقَوِّضونها[٣] عن أيمانهم وعن شمائلهم، ليحيطوا بهم، فكان النفر من أصحاب الحسين الثلاثةُ والأربعة يتخلَّلون البيوتَ فيقتلون الرجلَ وهو يقوِّض وينهَب. فأمر بها عمر بن سعد فأحرقت، فقال الحسين: «دعوهم يحرقوها، فإنهم إذا أحرقوها لا يستطيعون أن يجوزوا إليكم منها!» فكان ذلك كذلك، وجعلوا لا يقاتلونهم إلاَّ من وجه واحد.

وخرجت أُم وهب امرأة الكلبيّ تمشي إلى زوجها، حتَّى جلستْ عند رأسه، فجعلتْ تَمسح التراب عن وجهه وتقول: هَنيئًا لك الجنة! فقال شمر لغلام اسمه رستم: اضربْ رأسها بالعَمُود. فضرب رأسها، فشدَّخه[٤]، فماتت مكانها.

وحمل شَمِر حتَّى بلغ فُسْطاط الحسين ونادَى: «عَليَّ بالنار حتَّى أحرق هذا البيت على أهله» فصاح النساء وخرجْنَ من الفُسْطاط، وصاح به الحسين ودعا علَيه، فردَّه شَبَث بن رِبْعِيّ عن ذلك، وحمل زُهير بن القَيْن في عشرة من أصحابه على شمِر ومن معه فكشفهم عن البيوت حتى ارتفعوا عنها وقتلوا أبا عَزَّة الضِّبابيّ من أصحاب شمر، وعطف الناس عليهم فكَثَروهم[٥]، فقال أبو ثُمامة عمرو بن عبد الله الصائدي للحسين: «يا أبا عبد الله، نفسي لك الفداء، إني أرَى هؤلاء قد اقتربوا منك، ولا والله لا تُقتلُ حتى أُقتلَ دونك إن شاء الله! وأحبُّ أن ألقَى ربِّي وقد صلَّيْت هذه الصلاةَ التي قد دنا وقتُها!» فدعا له الحسين وقال: نَعَمْ هذا أوّل وقتها. ثم قال: سَلُوهم أن يكفُّوا عنّا حتَّى نصلِّي. ففعلوا، فقال لهم الحُصَين بن نُمَير: إنها لا تُقبل. فسبّه حبيب بن مظهَّر[٦]، فحمل عليه الحُصَين، وخرج إليه حبيب بن مظهَّر، فضرب وجه فرسه بالسيف، فشَبّ، فسقط عنه الحُصَين، فاستنقذه أصحابه، وقاتل حبيب قتالاً شديدًا، فقتل بديل به صريم التميمي، وحمل عليه آخر من تميم، فطعنه، فوقع، فذهب ليقوم، فضربه الحصين على رأسه بالسيف، فوقع، فنزل إليه التميمي فاحتزَّ رأسه.

---

(١) فرقة الجند التي يرتدي أفرادها ألبسة تقيهم الطعن والضراب.

(٢) رماة السهام.

(٣) بعد موتها.

(٤) الشدخ: كسر كل ما هو أجوف، والرأس حطمه.

(٥) باتوا أكثر منهم.

(٦) في رواية: حبيب بن مظاهر.

فقال حسيْن عند ذلك: أحتسبُ نفسي وحُماة أصحابي[١].

وحمل الحُرّ بن يزيد وزُهَير بن القَيْن فقاتلا قتالاً شديدًا، فقتل الحُرّ، وقتل أبو ثُمامة الصائدي ابنَ عمّ له كان عدوّه.

ثمّ صلّى الحسين صلاة الظهر بأصحابه صلاة الخَوف، ثم اقتتلوا بعد الظهر، فاشتدّ قتالهم، ووُصل إلى الحسين فاستقدم سعد بن عبد الله الحنَفِيّ أمامه، فاستهدف لهم يرمُونه بالنبل حتّى سقط، وقاتل زُهَير بن القين قتالاً شديدًا وجعل يقول: [من الرجز]

أنـــا زُهَـــيـــر وأنـــا ابـــن الـــقَـــيْـــنِ
أذُودُهـــمْ بـــالـــســـيـــفِ عـــن حـــسَـــيـــنِ

وجعل يضرب على مَنْكِب الحسين ويقول: [من الرجز]

أقْـــدِمْ هُـــدِيـــتَ هـــادِيًـــا مَـــهْـــدِيًّـــا
فـــالْـــيَـــوْمَ تَـــلْـــقَـــى جَـــدَّكَ الـــنَّـــبِـــيَّـــا
وحَـــسَـــنًـــا والـــمُـــرْتَـــضَـــى عَـــلِـــيًّـــا
وذا الـــجـــنـــاحَـــيْـــنِ الـــفَـــتَـــى الـــكـــمـــيًّـــا[٢]
وأسَـــدَ الله الـــشـــهـــيـــد الـــحَـــيًّـــا[٣]

قال: فحمل على زهير كثير بن عبد الله الشعبي ومهاجر بن أوس فقتلاه.

قال: وكان نافع بن هلال البَجَلي[٤] قد كتب اسمه على أفْواق[٥] نَبْله، وكانت مسمومة، فقَتَل بها اثني عشر رجلاً سِوَى من جَرَح، فضرب حتى كُسرت عَضُداه، وأُخذ أسيرًا، فأَتَى به شَمِرٌ عمرَ بنَ سعد والدم يسيل على لحيته، فقال له عمر: «ويحك يا نافع! ما حَمَلك على ما صنعتَ بنفسك؟» قال: «إنّ ربي يعلم ما أردتُ!

---

(١) راجع ابن الأثير بزيادة واختلاف جـ٤ ص٧١.

(٢) جعفر بن أبي طالب الذي استشهد بمؤتة مجاهدًا وفقد يديه فعوضه الله تعالى عنهما جناحين يطير بهما في الجنة بقول رسول الله ﷺ.

(٣) حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ الذي استشهد بأحد ولاكت كبده هند بن عتبة أم معاوية بن أبي سفيان وجدة يزيد بن معاوية.

(٤) نافع بن هلال البجلي، شريف شجاع، شهد كربلاء ونصر الإمام السبط الحسين عليه السلام. قتله شمر بن ذي الجوشن. راجع مقاتل الطالبيين ص١١٧.

(٥) فواق السهم رأسه.

والله لقد قتلتُ منكم اثْنَيْ عشر سِوَى من جرحتُ، وما ألوم نفسي، ولو بقيَتْ لي عضُدٌ وساعدٌ ما أسرتموني!» فقال له شَمِر: اقتلْه أصلحك الله. قال: أنت جئتَ به فإن شئتَ فاقتلْه. فانْتَضَى شَمِر سيفَه، فقال له نافع: «أمَا واللّهِ لو كنتَ من المسلمين لعظُم عليك أن تلقَى الله بدمائنا! فالحمد لله الذي جعل مَنايانا علَى يَدِ شِرار خلقه!» فقتله.

ثم حمل شَمِر علَى أصحاب الحسين، فلما رأوْا أنهم قد كُثِرُوا وأنهم لا يقدرون على أن يمنعوا الحسين تنافسوا أن يُقتَلُوا بين يَدَيه، فجاءه عبد الله وعبد الرحمٰن ابنا عَزْرَة الغِفاريّان فقالا: قد جازَنا العدوُّ إليك فأحببنا أن نقتل بين يَدَيك! فرحَّب بهما، وقال: ادْنُوَا مني فدنَوَا منه، فجعلا يقاتلان قريبًا منه.

وجاءه الفتيان الجابريان: سيف بن الحارث بن سُرَيع ومالك بن عبد بن سُريع، وهما ابنا عمّ وأخَوانِ لأمّ، وهما يبكيان، فقال: «ما يبكيكما؟ واللّهِ إني لأرجو أن تكونا عن ساعة قَريرَيْ عَين!» قالا: «واللّهِ ما على أنفسنا نبكي، ولكنَّا نبكي عليك! نراك قد أُحِيطَ بك ولا نقدِرُ أن نمنعك!». فقال: جزاكما الله خيرًا[1]!.

وجاء حَنظلة بن أسعد الشِّباميّ فوقف بين يدَي الحسين، وجعل ينادي: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ۝٣٠ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ۝٣١ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٣﴾ [غافر: ٣٠ ـ ٣٣] يا قَوم لا تقتلوا الحسين فيُسْحِتَكُم[2] اللّهُ بعذابِ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١﴾ [طه: ٦١] فقال لَه الحسين: «رَحِمَكَ الله! إنهم قد استَوْجبوا العذاب حِينَ ردُّوا علَيك ما دعَوْتَهم إليه من الحق ونهضوا إليك ليستبيحوك، فكَيْفَ بهم الآنَ وقد قتلوا إخوانَك الصالحين؟!» قال: «صدقتَ أفلا نرُوح إلى ربنا ونلحق بإخواننا؟!» قال: رُحْ إلَى خيرٍ من الدنيا وما فيها وإلى مُلْكٍ لا يَبْلَى. فسلَّم علَى الحسين واسْتقدَمَ فقاتَل حتَّى قُتل.

ثم استقدم الفَتَيان الجابريان، فودعا حسينًا، وقاتلا حتَّى قُتلا.

وجاء عابس بن أبي شَبيب الشاكري وشَوْذَب مولى شاكر إلى الحسين، فسلَّما عليه، وتقدما فقاتلا، فقُتل شَوْذَب، وتقدم عابس نحوهم بالسيف، وبه ضربة على جبينه، وكان أشجع الناس، فجعل ينادي: «ألاَ رجلٌ لرجل؟» فعرفه ربيع بن تميم الهَمْداني، فقال: «أيها الناس، هذا الأسد الأسود، هذا ابن أبي شَبيب، لا يخرجَنّ

(١) راجع ابن الأثير بزيادة جـ٤ ص٧٢.

(٢) يستأصلكم.

إليه أحدٌ منكم!» فقال عمر بن سعد: ارضخوه بالحجارة. فرمَوْه من كلِّ جانب، فلما رأى ذلك ألْقَى دِرْعَه ومِغْفَرَه[١] ثم شدَّ علَى الناس، فهزمَهم بين يَدَيْه، ثم عطفوا عليه من كلِّ جانب، فقتلوه، فادَّعَى قتلَه جماعةٌ وأتَوا ابنَ سعد، فقال: «لا تختصِموا هذا لم يقتله إنسان واحد!» ففرق بينهم بهذا القول.

وجاء أبو الشعثاء يزيد بن أبي زياد الكندي، وكان راميًا، فجثا على ركبتَيه بين يدي الحسين فرمَى بمائة سهم ما سقط منها خمسة أسهُم، وكان يزيد هذا مِمَّن خرج مع عُمر بن سعد، فلمَّا رَدُّوا ما عَرَض علَيهم الحسين عَدَل إلَيه، فقاتل حتَّى قُتل.

وكان آخر من تبقَّى مع الحسين من أصحابه سُوَيد بن عمرو بن أبي المطاع الخَثْعَميّ.

وكان أوَّل قتيل من بني أبي طالب يومَئذٍ عليّ الأكبر ابن الحسين، وأُمه لَيلَى ابنة أبي مُرّة بن عُرْوة بن مسعود الثقفية، وذلك أنه حَمَل علَى الناس وهو يقول: [من الرجز]

أنا عليُّ بن الحسين بن عَلِي
نحن وربِّ البيت أَوْلَى بالنَّبِي
تاللّهِ لا يحكُمُ فينا ابن الدَّعي[٢]

فعل ذلك مِرارًا وهو يشُدُّ علَى الناس بسيفه، فاعترضه مُرَّة بن مُنقذ بن النعمان العبدي، وطعنه، فصُرِع، وقطعه الناس بأسيافهم، فقال الحسين: «قَتل اللّهُ قومًا قتلوك يا بُنَيّ! ما أجرَأهم علَى الله وعلَى انتهاك حُرْمة الرسول! علَى الدُّنيا بَعدَك العَفاء[٣]!» وأقبل الحسين إلَيه ومعه فِتيانه فقال: احملوا أخاكم. فحملوه حتَّى وضعوه بين يدَي الفُسطاط الذي كانوا يقاتلون أمامه.

وشدَّ عثمان بن خالد الجُهَني وبشر بن سوط الهَمْداني علَى عبد الرحمٰن بن عَقيل بن أبي طالب فقتلاه، ورمَى عبد الله بن عَزْرة الخثعمي جعفر بن عقيل بن أبي طالب فقتله، ورمَى عمرو بن صبيح الصدائي عبد الله بن مسلم بن عقيل بسهم فوضع كفَّه على جَبهته فلم يستطعْ أن يحركها ثم رماه بسهم آخر فقتله.

---

(١) كالدرع للرأس.
(٢) عنى به عبيد الله بن زياد.
(٣) الانمحاء.

وحمل الناس عليهم من كل جانب، فحمل عبد الله بن قطبة الطائي على عَون بن عبد الله بن جعفر فقتله، وحمل القاسم بن الحسَن بن عليّ فحمل عليه عمرو بن سعد بن نُفيل الأزدي، فضرب رأسه بالسيف فوقع القاسم إلى الأرض لوجهه، وقال: يا عمّاه! فانقضّ الحسين إليه كالصقر، ثم شدّ شدة ليث أغضب، فضرب عمرًا بالسيف، فاتقاه بالساعد، فقطع يده من المرفق، فصاح، وحملت خيل الكوفة ليستنقذوا عمرًا، فاستقبلته بصدورها، وجالت عليه بفرسانها، فوطئته حتَّى مات، وانجلت الغَبَرة والحسين قائم على رأس القاسم وهو يفْحَص برجليه. والحسين يقول: «بُعْدًا لِقوم قتلوك ومن خصمهم يوم القيامة فيك جَدُّك!» ثم قال: «عزَّ واللّهِ علَى عمِّك أن تَدعوَه فلا يجيبك، وأن يُجيبَك فلا ينفعك صَوْتٌ واللّهِ كثُرَ واترُه وقلَّ ناصرُه!» ثم احتمله علَى صدره حتَّى ألقاه مع ابنه عليّ ومن قُتِل من أهل بيته[١].

قال: ومكث الحسين طويلًا من النهار، كلَّما انتهى إليه رجل من الناس انصرف عنه وكرِه أن يتولّى قتله وعظيم إثمه، فأتاه رجل من كِندة يقال له «مالك بن النسير» فضربه على رأسه بالسيف، فقط البُرْنُس، وأدمَى رأسه، وامتلأ البُرْنُس دَمًا، فقال له الحسين: «لا أكلتَ بها ولا شربْتَ! وحشرك الله مع القوم الظالمين!» وألقى ذلك البرنس، ثم دعا بقَلَنْسُوَة فلبسها واعتمَّ. وجاء الكِنْدِيُّ فأخذ البُرْنُس وكان من خَزٍّ، فقدِم به على امرأته، وأقبل يغسله من الدم، فقالت له: «أسلَبُ ابْنِ بنت رسول الله يدخل بَيتي؟ أخرِجه عني!»[٢] فلم يزَل ذلك الرجل فقيرًا بشرٍّ حتَّى مات.

قال: ودعا الحسين بابنه عبد الله وهو صغير، فأجلسه في حِجْره فرماه رجل من بني أسد بسهم فذبحه، فأخذ الحسين دمه بيده فصبّه في الأرض، ثم قال: «اللهمَّ رَبِّ إن كنتَ حبستَ عنا النصر من السماء فاجعلْ ذلك لما هو خير، وانتقِمْ من هؤلاء الظالمين!» ورمى عبد الله بن عُقبة الغَنَوي أبا بكر بن الحسين بسهم فقتله، وقتل إخوة الحسين وهم العبّاس وعبد الله وجعفر وعثمان.

قال: واشتدّ عطشُ الحسين، فدنا من الفُرات ليشرب فقال رجل من بني أبان بن دارِم: «وَيْلَكم! حُولُوا بينه وبين الماء»[٣]، وضربَ فرسه، واتبعه الناس حتّى حال بينه وبين الفُراتِ، فقال الحسين: اللهم أظمئه! وانتزع الأبانيُّ سَهمًا فأثبته في حَنَك

---

(١) راجع ابن الأثير بزيادة جـ٤ ص٧٥.

(٢) تأمل، لقد سُلب ابن بنت رسول الله ﷺ.

(٣) تأمل في خروجهم ليس من الدين وحسب بل الإنسانية، فلقد استحوذ عليهم الشيطان ليصلوا بالجريمة حدًّا لا وصف له.

الحسين، فانتزع الحسين السهمَ، ثم بسَط كفَّيْه فامتلأ دمًا؛ فقال: اللهم إني أشكو إليك ما يُفعل بابن بنت نبيك، اللهم أحْصهم[١] عَددًا واقتلهم بَدَدًا[٢]، ولا تُبقِ منهم أحدًا. وقيل إن الذي رماه حصين بن نمير. قال: فما مكث الذي رماه إلاَّ يسيرًا، ثم صبّ الله عليه الظمأ فجعل لا يَرْوَى، والماء يُبَرَّد له فيه السُّكر، وعِسَاسٌ[٣] فيها لبن، وقلال[٤] فيها الماء، وإنه ليقول: ويلكم؛ اسقوني، قتلني الظمأ؛ فيعْطَى القُلَّة أو العُسّ فيشربه، فإذا شربه اضطجع هنيهة، ثم قال: ويلكم، اسقوني قتلني الظمأ، فيعطى القُلَّة والعُسْ فيشربه، فما لبث إلا يسيرًا حتَّى انقدَّ[٥] بطنُه انقداد بطن البعير.

قال: ثم إن شَمِر بن ذي الجوْشَن أقبل في نحو عشرة من رجاله أهل الكوفة قِبَل منزل الحسين الذي فيه أهله وعياله، فمشى نحوهم[٦] فحالُوا بينه وبين رَحْله، فقال: ويلكم؛ إن لم يكن لكمْ دين وكنتم لا تخافون يوم المعاد فكونوا في دنياكم أحرارًا ذَوي أحساب، امنعوا رحلي وأهلي من طَغَامكم[٧] وجُهَّالكم. قال شمِر: ذلك لك يا ابن فاطمة، وأقدم شمر عليه بالرجَّالة منهم أبو الجَنُوب عبد الرحمٰن الجُعْفيّ، وصالح بن وهب اليَزَنيّ، وسنان بن أنس النَّخَعيّ، وخوليّ بن يزيد الأصبحي، وجعل شَمِر يحرِّضهم على الحسين، وهو يحمل عليهم فينكشفون عنه، ثم أحاطوا به، وأقبل إلى الحسين غلام من أهله، فأخذتْه زينب بنْت عليّ لتحبسه، فأبَى الغلام، وجاء يَشْتدُّ حتَّى قام إلَى جنب الحسين، وقد أهْوَى بن كعب بن عبيد الله، من بني تيم الله بن ثعلبة، إلى الحسين بالسيف، فقال له الغلام: يا ابن الخبيثة أتقتل عَمِّي؟! فضربه بالسيف فاتَّقاه الغلام بيده، فأطَنَّها إلى الجلدة[٨]، فنادى الغلام: يا أُمَّتاه، فضمه الحسين إليه وقال: «يا ابن أخي اصبِرْ علَى ما نزل بك، واحتسب في ذلك الخير، فإن الله يُلحقك بآبائك الصالحين: برسول الله ﷺ، وعليّ وحمزة وجعفر والحسن» ثم قال الحسين: «اللهمَّ أمسِك عنهم قَطْر السماء، وامنعهم بَرَكَاتِ الأرض، اللهم فإنْ متَّعتهم إلَى حين ففرِّقْهم فِرَقًا، واجعلهم طَرائقَ قِدَدًا[٩]، ولا تُرْضِي عنهم الوُلاة أبدًا، فإنهم دَعَوْنا لينصرونا، فعَدَوْا علَينا فقتلونا!» ثم ضارب الرجَّالة حتَّى انكشفوا عنهم.

---

(١) أحصبهم: أحرقهم، والصواب أرجمهم. (٢) بددًا: متفرقين.
(٣) مفردها: عس وهو القدح الكبير. (٤) مفردها قلة إناء لحفظ الماء وكل سائل.
(٥) انشق.
(٦) أي الإمام الحسين السبط ابن بنت رسول الله ﷺ.
(٧) سفلة الناس وشرارهم.
(٨) فقطعها وبقي الجلد فقط متصلاً من جانب واحد.
(٩) قِطعًا.

قال: ودنا عمر بن سعد من الحسين فخرجت زينب بنت عليّ[١] أخت الحسين فقالت: يا عمر، أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه؟ فجعلت دموع عمر تسيل على خدَّيْه ولحيته، وصرف وجهه عنها.

ومكث الحسينُ طويلاً من النهار ولو شاء الناس أن يقتلوه لفعلوا، ولكنهم كان يَتَّقي بعضهم ببعض، ويحبّ هؤلاء أن يكْفهم هؤلاء، فنادَى شَمِر بن ذي الجَوْشَن في الناس، وَيْحكم؛ ما تنتظرون بالرجل؟ اقتلوه ثَكِلَتْكم أمهاتكم! فحملوا عليه من كل جانب؛ فضرب زُرْعة بن شريك كفَّه اليسرى، وضُرب على عاتقه ثم انصرفوا عنه وهو يقوم ويكبو، وحمل عليه في تلك الحال سِنان بن أنس النَّخعي فطعنه بالرمح فوقع، وقال الخَوليّ بن يزيد الأصبحي: احتز رأسه، فأراد أن يفعل فضعف وأُرْعد، فقال له سِنان: فَتَّ الله عَضُدك، وأبان يدك، ونزل إليه فذبحه وأخذ رأسه فدفعه إلى خولي.

وسُلب الحسين ما كان عليه؛ فأخذ سراويلَه بحر بن كعب، فكانت يداه في الشتاء تضخان الماء، وفي الصيف تيبسان كأنهما عود. وأخذ قيس بن الأشعث قطيفته وهي من خَزٍّ، فكان يُسَمَّى بعد «قيس قطيفة» وأخذ نعليه الأسْود الأودي، وأخذ سيفه رجل من بني نَهْشَل. ومال الناس على الورس والحُلل والإبل فانتهبوها، وانتهبوا ثقلَه ومتاعَه وما علَى النساء، حتى إن كانت المرأة لَتُنازَع ثوبَها فيؤخَذُ منها[٢].

ووُجد بالحسين ثلاث وثلاثون طعنة، وأربع وثلاثون ضربة، وكان سُوَيْد بن عمرو بن أبي المطاع قد صُرع، فوقع بين القتلَى مُثْخنًا بالجراح، فسمعهم يقولون: قُتل الحسين فوجد خِفَّة فوثب ومعه سكين فقاتلهم بها ساعة، ثم قتله عروة بن بطان الثعلبي، فكان آخر قتيل من أصحاب الحسين.

قال: وانتهوا إلى علي بن الحسين وهو زين العابدين، فأراد شَمِر قتله وكان مريضًا فمنعه حُمَيد بن مسلم، وجاء عمر بن سعد فقال: لا يدخلنَّ بيت هؤلاء النسوة أحدٌ، ولا يعرضنَّ لهذا الغلام المريض، ومن أخذ من متاعهم شيئًا فلْيردُدْه عليهم، فما ردّ أحدٌ شيئًا، فقال الناس لِسنَان بن أنس: «قتلتَ حسين بن علي وابنَ فاطمة بنت رسول الله، قتلتَ أعظم العرب خَطرًا، أراد أن يزيل ملك هؤلاء، فأْت أُمراءك فاطلبْ

(١) ابن أبي طالب كرّم الله وجهه.
(٢) تأمّل فعلهم بحريم السبط وبنات البضعة الزهراء.

ثوابكَ منهم، فإنهم لو أعطوك بيوت أموالهم في قتله كان قليلاً» فأقبل على فرسه حتى وقف على باب فُسْطاط عمر بن سعد، ثم نادى بأعلى صوته: [من الرجز]

أوْقِرْ ركابي فضَّةً وذهبا ... أنا قتلتُ السيّد المحجَّبا
قتلتُ خيرَ الناس أُمًّا وأبا ... وخَيْرَهم إذ يُنْسَبون نَسَبَا

فقال عمر بن سعد: أشهد أنك مجنون، أدخِلوه؛ فلمّا دخل حذفه بالقضيب وقال: يا مجنون أتنظمُ بهذا الكلام؟ لو سمعك ابنُ زياد لضَرَبَ عنقك. وقيل: إنه قال ذلك لعُبيد الله بن زياد، فقال: فإن كان خير الناس أمًّا وأبًا فلم قتلته؟ وأمر به فضربت عنقه، خسر الدنيا والآخرة.

ذكر تسمية من قُتل مع الحسين بن علي رضي الله عنهما ومن سلم ممن شهد القتال

قال: ولمّا قُتل الحسين جاءتْ كِندة بثلاثة عشر رأسًا وصاحبهم قَيس بن الأشعث، وجاءت هَوازن بعشرين رأسًا، وصاحبهم شَمِر بن ذي الجَوْشَن، وجاءت بنو تميم بسبعة عشر رأسًا، وجاءت بنو أسد بستة، وجاءت مَذْحِج بسبعة، وجاء سائر الجيش بسبعة، فذلك سبعون رأسًا.

منهم إخوة الحسين ستة، وهم: العباس، وجعفر، وعبد الله، وعثمان، ومحمد، وليس هو ابن الحنفية، وأبو بكر، أولاد عليّ بن أبي طالب.

ومن أولاد الحسين: عليٌّ، أمه ليلى بنت أبي مرّة بن عروة الثقفي[1]، وعبد الله، وأمُّه الرَّباب بنت امرىء القَيس الكلبي[2].

ومن أولاد الحسن بن عليّ ثلاثة وهم: أبو بكر، وعبد الله، والقاسم.

ومن أولاد عبد الله بن جعفر بن أبي طالب: عَون، ومحمد.

ومن أولاد عقيل بن أبي طالب: جعفر، وعبد الرحمٰن، وعبد الله، ومسلم بالكوفة.

ومن مَوَالي الحسين: سليمان، ومنجح.

---

(١) ليلى بنت أبي مرة بن عروة بن مسعود الثقفي، أمها ميمونة بنت أبي سفيان، وجدتها بنت أبي العاص بن أمية. راجع تراجم أعلام النساء للأعلمي الحائري ج٢ ص٣٨٨.

(٢) بنت امرىء القيس بن عدي الكلبي. راجع تراجم أعلام النساء للحائري ج١ ص٩٧.

وتكملة من قُتل ممن اتبعه، وقد ذكرنا بعضهم بأسمائهم في أثناء هذه القصة.

وأما من سلم منهم: فالحسن بن الحسن، وعمرو بن الحسن لصغرهما، وعليّ بن الحسين لمرضه[١]، والضحاك بن عبد الله المشرقي، وذلك أنه جاء إلى الحسين فقال: «يا ابن رسول الله، قد علمت أني قلت لك: إني أقاتل عنك ما رأيت مُقاتَلاً، فإذا لم أرَ مُقاتَلاً فأنا في حِلٍّ من الانصراف» فقال له الحسين: «صدقتَ، وكيف لك بالنجاة؟ إن قدرتَ عليه فأنت في حِلّ» وذلك بعد أن فني أصحاب الحسين، قال الضحاك: فأقبلت إلى فرسي وكنتُ قد تركته في خِبَاءٍ حيث رأيتُ خيل أصحابنا تُعقر، وقاتلت راجلًا، فقتلت رجلين، وقطعت يد آخر، ودعا لي الحسينُ مِرارًا قال: فاستخرجت فرسي واستَوَيتُ عليه، وحملت على عرض القوم فأفرجوا لي، وتبعني منهم خمسة عشرَ رجلًا، ففُتُّهُمْ، فسَلِمتُ.

ومنهم عقبة بن سمعان مولى الرَّبَاب ابنة امرىء القيس الكلبية امرأة الحسين، أخذه عمر بن سعد فقال: ما أنت؟ فقال: أنا عبدٌ مملوكٌ فخلَّى سبيله[٢]، فنجا. ومنهم الرقع بن تمامة الأسدي، وكان قد نَثَر نبله فقاتل فجاءه نفر من قومه فأمّنوه، فخرج إليهم فلما أخبر ابن زياد به نفاه إلى الزارة[٣].

ذكر ما كان بعد مقتل الحسين مما هو متعلق بهذه الحادثة

قال: ولما قُتل الحسين نادَى عُمر بن سعد في أصحابه: من يَنتدب للحسين فيوطئه فرسه، فانتدب له عشرة، منهم إسحاق بن حيوة الحضرمي، وهو الذي سَلَب قميص الحسين فبَرِصَ بعد ذلك، فداسوا الحسين بخيولهم حتَّى رضُّوا ظهره وصدره.

قال: ودفن جُثَّة الحسين وجثث أصحابه أهلُ الغاضرية من بني أسد بعدما قتلوا بيوم.

وقتل من أصحاب ابن سعد ثمانية وثمانون رجلًا سِوى الجرحى، فصلَّى عليهم عُمر ودفنهم.

---

(١) زين العابدين أعلم أهل زمانه وأكثرهم عبادة لقب بالسجاد.

(٢) بأبي أنت وأمي يا ابن بنت رسول الله يخلون سبيل المماليك ويتركونك طريحًا مقطوع الرأس والكساء.

(٣) الزارة: عين الزارة بالبحرين، والزارة قرية كبيرة بها. راجع ياقوت جـ٣ ص١٢٦.

قال: وسرح عمر[١] برأس الحسين من يومه ذلك مع خَوليّ بن يزيد وحميد بن مسلم الأزدي إلى عُبيد الله بن زياد، فأقبل به خَوَليٌّ فوجد باب القصر مُغلقًا، فأتى منزله فوضعه تحت إجّانة[٢] في الدار، ثم دخل البيت فأوَى إلى فراشه، فقالت له امرأته وهي النَّوَار بنت مالك الحَضْرَمِيّة: ما الخبر؟ قال: جئتكِ بغنَى الدهر، هذا رأس الحسين معكِ في الدار، قالت: فقلتُ: وَيْلَكَ! جاء الناس بالذهب والفضة وجئتَ برأس ابن رسول الله ﷺ، والله لا يَجمعُ رأسي ورأسَك بيت أبدًا، قالت: فقمت من فراشي فخرجت وجلست أنظر، فوالله ما زلت أنظر إلى نور يسطَع مثل العمود من السماء إلى الإجّانة، ورأيت طيرًا بيضًا ترفرف عليها، فلما أصبح غدا بالرأس إلى عبيد الله بن زياد.

وقيل: بل الذي حمل الرأس شَمِر بن ذي الجَوْشَن، وقيس بن الأشعث، وعمرو بن الحجاج، وعزرة بن قيس، فجلس ابن زياد، وأذِن للناس فأُحضرت الرؤوس بين يديه، فجعل ينكت[٣] بقضيب بين ثَنِيَّتَي[٤] الحسين، فلما رآه زيد بن أرقم[٥] لا يرفعُ قضيبه، قال له: اعْلُ بهذا القضيب عن هاتين الثنيتين، فَوَالله الذي لا إله غيره لقد رأيت شَفَتَيْ رسُولِ الله ﷺ على هاتين الشفتين يقبلهما! ثم بكَى، فقال له ابن زياد: أبكَى الله عينك، فَوَالله لولا أنك شيخٌ قد خرِفْت وذهب عقلك لضربتُ عُنقك. فخرج وهو يقول: أنتم يا مَعْشَر العربِ العبيدُ بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمة وأمَّرْتم ابن مَرْجانة، فهو يقتل خياركم ويستعبدُ شراركم فرضيتم بالذل فبعدًا لمن رضي بالذل قال: وأقام عمر بن سعد يومه هذا والغد، ثم أذن في الناس بالرحيل إلى الكوفة، وحمل معه بنات الحسين وأخواته، ومن كان معه من الصبيان، وعليّ بن الحسين مريض، فاجتازوا به على الحسين وأصحابه صَرْعَى، فصاح النساء ولَطَمن الخدود، وصاحت زينب أخته: «يا محمداه! صلَّى عليك ملائكة السماء، هذا حسين بالعراء مُرْمِل[٦] بالدماء مقطَّع الأعضاء! يا مُحمداه! وبناتك سَبايا! وذُريتك مقتَّلة تسْفِي[٧] عليها الصَّبا!» فأبْكَتْ كل عدوّ وصديق.

---

(١) عمر بن سعد بن أبي وقاص.
(٢) إجّانة: وعاء تغسل فيه الثياب.
(٣) يضرب ضربًا خفيفًا.
(٤) صَفي الأسنان الأماميين إذا ما بدتا من وراء الشفتين.
(٥) زيد بن أرقم الخزرجي الأنصاري، صحابي شهد معظم غزوات النبي وكان في صفين مع الإمام علي كرّم الله وجهه، توفي بالكوفة سنة ٦٨هـ.
(٦) كأنما عرك بالدم عركًا.
(٧) تهب.

قال: ولما أُدخلوا على عبيد الله لبست زينب أرْذَل ثيابها وتنكَّرت، وحفَّ بها إماؤها، فقال عبيد الله: مَن هذه الجالسة؟ فلم تكلِّمه حتَّى قال ذلك ثلاثًا وهي لا تكلِّمه، فقال بعض إمائها: هذه زينب بنت فاطمة، فقال لها ابن زياد: الحمد لله الذي فضحكم وقتَّلكم وأكذب أُحْدُوثتكم. فقالت: الحمدُ لله الذي أكرمنا بمحمد ﷺ وطهَّرنا تطهيرًا لا كما تقول، إنما يُفتضحُ الفاسق ويكذب الفاجرُ. قال: فكيف رأيت صُنْعَ الله بأهل بيتك؟ قالت: كُتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم[1]، وسيجمعُ الله بينك وبينهم فتَحاجّون إليه وتَخاصَمون عنده، فغضب ابن زياد واستشاط، ثم قال لها: قد شفَى الله نفسي من طاغيتكِ والعُصاة المَرَدَة من أهل بيتك. فبكت ثم قالت: لعمري لقد قتلت كهلي وأبرزت أهلي وقطعت فرعي واجتثثْت أصلي، فإن يَشْفِك هذا فقد اشتفيتَ. فقال لها عبيد الله: هذه شجاعة فلَعَمري لقد كان أبوكِ شجاعًا، قالت: ما للمرأة والشجاعة؟ إن لي عن الشجاعة لشغلاً. ونظر عبيد الله إلى علي بن الحسين فقال له: ما اسمك؟ قال: أنا علي بن الحسين، قال: أولم يقتل الله علي بن الحسين، فسكت. فقال له ابن زياد: ما لك لا تتكلم؟ قال: قد كان لي أخ يقال له عليٌّ فقتله الناس، قال: إن الله قتله، فسكت عليّ، فقال: ما لك لا تتكلم؟ قال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥] قال: أنت والله منهم، ثم قال لرجل: ويحك انظرْ هذا هل أدرك؟ والله إني لأحسبه رجلاً، فكشف عنه مُريّ بن معاذ الأحمري فقال: نعم قد أدرك، قال: اقتله، فقال علي: من توكَّل بهؤلاء النسوة؟ وتعلقت به زينب عمته، فقالت: يا ابن زياد حَسْبُك مِنَّا أمَا رويتَ مِن دمائنا؟ وهل أبقيت منا أحدًا؟ واعتنقته وقالت: أسألك بالله إن كنت مؤمنًا إن قتلتَه لما قتلتَني معه، وقال عليّ: يا ابن زياد إن كان بينك وبينهنَّ قرابة فابعث معهم رجلاً تقيًا يصحبهن بصحبة الإسلام. فنظر إليهن ساعة ثم نظر إلى القوم فقال: يا عجبًا للرَّحِم والله إني أظنُّها وَدّت لو أني قتلته أني قتلتها معه، دَعُوا الغلام، انطلِقْ مع نسائك.

---

(١) وهذا من أفصح الكنايات فكأنما الموت أسرَّتهم.

ثم نودي: «الصلاةُ جامعة» فاجتمع الناس في المسجد الأعظم فصعد ابن زياد المنبر، فقال: الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله، ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه، وقتل الكذاب ابن الكذاب الحسين بن علي وشيعته، فوثب إليه عبد الله بن عفيف الأزدي، وكان من شيعة علي، وكانت عينه اليسرى ذهبت يوم الجمل مع علي، والأُخرى بصِفّين معه، وكان لا يكاد يفارق المسجد الأعظم، يصلّي فيه إلى الليل ثم ينصرف، فقال: يا ابن مَرْجانة إنَّ الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك، والذي ولاّك وأبوه، يا ابن مرجانة تقتلون أبناء النبيين، وتَكلَّمون بكلام الصدِّيقين. فقال ابن زياد: عليَّ به، فوثبت عليه الجَلاوِزة[1] فأخذوه، فنادَى بشعار الأزد «يا مَبْرور» فوثبت إليه فئة من الأزد، فانتزعوه، وأتَوْا به أهله، فأرسل إليه منْ أتاه به فقتله، ثم أمر بصلبه في السَّبْخَة[2] فصلب.

قال: وأمر ابن زياد برأس الحسين فطيف به في الكوفة.

قال: ثم أرسل ابن زياد رأس الحسين ورؤوس أصحابه مع زَحْر بن قيس إلى يزيد بن معاوية ومعه جماعة، وقيل: مع شَمِر وجماعة، وأرسل معهم النساء والصبيان، وفيهم علي بن الحسين، وقد جعل ابن زياد الغُلّ[3] في يديه وعنقه، وحملهم على الأقتاب[4]، فلم يكلمهم عليٌّ في الطريق، فدخل زَحْر بن قيس على يزيد فقال له: ما وراءك ويلك وما عندك؟ قال: أبشرْ يا أمير المؤمنين بفتح الله عليك ونصره، وَرَد علينا الحسين بن عليّ في ثمانية عشر من أهل بيته وستين من شيعته، فسرنا إليهم فسألناهم أن يستسلموا وينزلوا على حكم الأمير عُبيد الله بن زياد أو القتال، فاختاروا القتال، فغدَوْنا عليهم مع شروق الشمس فأحطنا بهم من كل ناحية، حتَّى أخذت السيوف مأخذها من هَام القوم، فجعلوا يهربون إلى غير وَزَرٍ[5]، ويلوذون منا بالآكام والحُفَر لوَاذًا كما لاذَ الحمائم من صَقْر، فوالله يا أمير المؤمنين ما كان إلا جَزْر جَزُور[6]، أو نومة قائل[7] حتى أتينا علَى آخرهم، فهاتيك أجسادُهم

---

(١) شداد الشرط.

(٢) مكان بالبصرة، والسباخ: الأرض الملحة النازة. راجع ياقوت جـ٣ ص١٨٣.

(٣) القيد.

(٤) مفردها القتب: المعى وهو ما تحوّى من البطن أي استدار منه.

(٥) الوزر: الملجأ وأصله الجبل.

(٦) كل صالح للجزر أي الذبح وخاصة الفتي من الإبل.

(٧) من القيلولة وهي إغفاءة الطيرة.

مجردة، وثيابهم مرَمّلة، وخدودهم معفرة[١]، تصهَرهم الشمس وتسفي عليهم الريح، زُوَّارهم العِقْبان والرخَم[٢] بِقِيٍّ سَبْسَبِ[٣]. قال: فدمَعَتْ عينا يزيد وقال: كنت أرضَى من طاعتكم بدون قتل الحسين، لعن الله ابن سُمَيَّة، أمَا والله لو أني صاحبه لعفوت عنه، فرحم الله الحسين. قال: ولما وصل عليّ بن الحسين ومن معه والرأس إلى دمشق، وقف مُحَفِّر بن ثعلبة العائذي، وكان عبيد الله قد تركهم معه ومع شَمِر على باب يزيد بن معاوية، ثم رفع صوته وقال: هذا مُحفِّر بن ثعلبة أتى أمير المؤمنين باللئام الفجرة، فأجابه يزيد: ما وَلدت أمُّ مُحَفِّر شرٌّ وألأمُ، ولكنه قاطع ظلوم. ثم دخلوا على يزيد فوضعوا الرأس بين يديه وحدثوه، فسمعت الحديث هندُ بنت عبد الله بن عامر بن كُرَيْز[٤]، وكانت تحت يزيد، فتقنَّعتْ بثوبها وخرجتْ فقالت: يا أمير المؤمنين رأس الحسين ابن فاطمة بنت رسول الله؟ قال: نعم فأعْوِلي عليه وحِدّي علَى ابن بنت رسول الله وصريحة[٥] قريش، عجَّل عليه ابن زياد فقتله، قتله الله، ثم أذَن للناس فدخلوا عليه، والرأس بين يديه، ومعه قضيب وهو ينكت في ثغره[٦]، ثم قال: إن هذا وأنا كما قال الحُصين بن الحُمام[٧]: [من الطويل]

أبَى قومُنا أنْ يُنْصفونا فأنْصَفتْ ... قواضبُ[٨] في أيمانِنا تُقطر الدِّما
نُفلِّق هامًا[٩] من رجالٍ أعزَّةٍ ... علَينا وهُم كانوا أعَقَّ[١٠] وأظلما

فقال أبو برزة الأسلمي: «أتنكت بقضيبك في ثَغْر الحسين؟ أمَا لقد أخذ قضيبُك في ثَغْره مأخَذًا لربَّما رأيت رسول الله ﷺ يَرْشفه، أما إنك يا يزيد تجيءُ يومَ القيامة وابن زياد شفيعك ويجيءُ هذا ومحمد شفيعه!» ثم قام فولَّى. فقال يزيد: يا حسين

---

(١) معروكة بالتراب.
(٢) الرخم والعقبان من كواسر الطير.
(٣) سبسب: الأرض القفراء.
(٤) هند بن عبد الله بن عامر بن كريز زوجة يزيد بن معاوية التي خرجت وشقت سترها حاسرة واثبة على يزيد في عامة مجلسه تعنِّفه على فعله. راجع تراجم أعلام النساء جـ٢ ص٤٢٥.
(٥) خالصة قريش أغلاها وأعلاها كعبًا وأصفاها نسبًا.
(٦) لاحظ فعله بالرأس والرواية التي تفيد اعتراضه على قتل الحسين عليه السلام. لقد أوغل المؤرخون عن رواتهم بدفع التهمة عن يزيد بن معاوية ردًا لواقع شأن من لا يريد الاعتراف بحق وباطل إلاّ في جواز البدء في الوضوء باليمنى أو اليسرى، أو رخصة المسح على الخف.
(٧) الحصين بن الحمام بن ربيعة المري الذبياني كنيته أبو يزيد، شاعر جاهلي، قيل إنه كان ممن نبذ عبادة الوثن في الجاهلية.
(٨) القواضب: السيوف.
(٩) الهام: الرأس.
(١٠) العقوق: ضد البار.

والله لو أني صاحبك ما قتلتك، ثم قال: «أتدرون من أين أُتِي هذا[(١)]؟ أبي خيرٌ من أبيه، وأمي فاطمة خير من أمه، وجدِّي رسول الله خير من جده، وأنا خيرٌ منه، وأنا أحق بهذا الأمر منه. فأما قوله: أبوه خير من أبي فقد حاجّ أبي أباه إلى الله وعلم الناس أيّهما حُكم له، وأما قوله: أمي خير من أُمه فلَعَمري فاطمة بنت رسول الله خير من أُمي، وأما قوله جدِّي رسول الله خير من جده، فلعمري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يَرَى لرسول الله فينا عِدْلاً ولا نِدًّا، ولكنه إنما أُتي من قبل فقهه، ولم يقرأ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

قال: ثم أدخل نساء الحسين عليه والرأس بين يديه، فجعلت فاطمة وسُكَيْنَة ابنتا الحسين تتَطاوَلان لتنظرا إلى الرأس، وجعل يزيد يتَطاوَل ليستر عنهما الرأس، فلما رأين الرأس صحْنَ، فصاح نساء يزيد ووَلْوَلْن وبنات معاوية، فقالت فاطمة بنت الحسين، وكانت أكبر من سُكَيْنة: أبناتُ رسول الله سبايا يا يزيد؟ فقال: يا ابنة أخي أنا لهذا كنت أكره، فقام رجل من أهل الشام فقال: هبْ لي هذه، يعني فاطمة بنت علي، فأخذت بثياب أُختها زينب وكانت أكبر منها، فقالت زينب: كذبت ولو متَّ، ما ذلك لك ولا له، فغضب يزيد وقال: كذبتِ واللّهِ إن ذلك لي، ولو شئتُ أن أفعله لفعلته، قالت: كلاً واللّهِ ما جعل الله ذلك لك، إلا أن تخرج من مِلَّتنا وتدين بغير ديننا! فغضب يزيد واستطار، ثم قال: إيايَ تستقبلين بهذا، إنما خرج من الدين أبوك وأخوك، قالت زينب: بدين الله ودين أبي وأخي اهتديتَ أنت وأبوك وجَدُّك، قال: كذبتِ يا عدوة الله، قالت: أنت أمير تشتم ظالمًا[(٢)] وتقهر بسلطانك. فاستحيى وسكت؛ ثم أُخرجن وأُدخلن دور يزيد فلم تبقَ امرأة من آل يزيد إلا أتتهن وأقمن المأتم، وسألَهن عمَّا أُخِذ منهن فأضْعَفَه لهن، وكانت سُكَيْنة تقول: ما رأيت كافرًا بالله خيرًا من يزيد بن معاوية.

قال: ثم أمر بعليّ بن الحسين فأُدخل مَغْلولاً، فقال: لو رآنا رسول الله ﷺ مَغْلُولِين لفكّ عنا؛ قال: صدقتَ؛ وأمر بفك غُلّه عنه، فقال عليٌّ: لو رآنا رسول الله ﷺ على بعد لأحبَّ أن يقرِّبنا؛ فأمر به فقُرِّبَ منه، وقال له يزيد: يا عليُّ أبوك الذي قطع رَحِمي وجهل حقِّي ونازعَني سلطاني فصنع الله به ما رأيت. فقال عليّ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ

(١) الكلام هنا يتداخل ومراد يزيد بن معاوية أن الإمام الحسين السبط قتل لقوله ـ أُتي هذا ـ الخ والتتمة رواية يزيد بن معاوية على لسان السبط الشهيد.

(٢) يعني بظلمك.

إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٢ - ٢٣] فقال يزيد: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] ثم سكت عنه، وأمر بإنزاله وإنزال نسائه في دار علَى حِدَة، وكان يزيد لا يتغدَّى ولا يتعشَّى إلاَّ دعا عليًّا إليه، فدعاه يومًا فجاء ومعه عمرو بن الحسن وهو غلام صغير، فقال يزيد لعمرو: أتقاتل هذا؟ يعني خالدًا ابنه، فقال: أعطِني سكِّينًا وأعطه سكِّينًا حتَّى أُقاتله. فضمه يزيد إليه وقال شِنْشِنَةٌ[١] أعرفها من أَخْزَم[٢]، وهل تلد الحيّة إلا حُيَيَّة[٣]؟

وقيل: لمّا وصل رأس الحسين إلَى يزيد حسُنتْ حال ابن زياد عنده، ووصله، وسرَّه ما فعل، ثم لم يلبث إلاَّ يسيرًا حتَّى بلغه بُغض الناس له، ولعنهمُ إياه، وسَبُّهم، فندم على قتل الحسين، وكان يقول: «وما علَيَّ لو احتملت الأذى وأنزلت الحسين معي في داري وحكَّمتُه فيما يريد، وإن كان عليّ من ذلك وَهْن في سلطاني، حفظًا لرسول الله ورعايةً لحقّه وقرابته، لعن الله ابن مَرْجانة، فإنه اضطره، وقد سأله أن يضع يده في يدي، أو يَلْحَقَ بثَغْر حتَّى يتوفَّاه الله، فلم يُجبه إلَى ذلك، وقَتله، فبغضني بقتله إلى المسلمين، وزرع في قلوبهم العداوة، فأبغضني البَرُّ والفاجر بما استعظموه من قتلي حسينًا، ما لي ولابن مَرْجانة لعنه الله وغضب عليه!».

قال: ثم ندم ابن زياد أيضًا على قتله الحسين، وقال لعمر بن سعد: يا عمر ائتني بالكتاب الذي كتبته إليك في قتل الحسين؟ قال: مضَيْتُ لأمرك وضاع الكتاب، قال: لتجيء به؛ قال: ضاع، قال: لتجيء به؛ قال: ترك واللّهُ يُقرأ على عجائز قريش بالمدينة اعتذارًا إلهين، أمَا واللّهِ لقد نصحتُك في حسين نصيحةً لو نصحتها أبي سعدَ ابن أبي وَقَّاص لكنت قد أدَّيْت حقه!» فقال عثمان بن زياد: «صدق، واللّهِ لَوَدِدت أنه ليس من بني زياد رجل إلا وفي أنفه خزامة[٤] إلى يوم القيامة، وأنَّ حسينًا لم يُقتل!» فما أنكر ذلك عُبيد الله بن زياد على أخيه.

---

(١) الشنشنة: العادة أو ما يعنيها.

(٢) أخزم اسم رجل كان يعق والده وهو مثل يطرب لمن أقام على شيء لا يفارقه. راجع الميداني جا ص٣٦١ رقم ١٩٣٣.

(٣) لاحظ تمثل يزيد بهذا المثل وسر بنسب المقول له صعدًا لتعرف صواب ما أراد يزيد. والحيية تصغير حية.

(٤) حلقة توضع في خطام البعير لقوده.

ذكر ورود الخبر بمقتل الحسين رضي الله عنه إلى المدينة وعود أهله إليها

قال: لما قُتل الحسين أمر عُبَيدُ الله بنُ زياد عبدَ الملك بن الحارث السُّلَمي بالمسير إلى المدينة؛ ليبشِّر عمرو بن سعيد أمير المدينة بقتل الحسين، فاعتذر عبد الملك، فزجره ابن زياد، فخرج حتَّى قدم المدينة، فلقيه رجل من قريش فقال: ما الخبر؟ فقال: الخبر عند الأمير. فاسترجع القرشي، وقال: قُتل واللّهِ الحسين!

ودخل عبد الملك على عمرو بن سعيد فأخبره بقتل الحسين، فقال: نادِ بقتله، ففعل، قال عبد الملك: فلم أسمع واعية[1] قَطُّ مثلَ واعية نساء بني هاشم في دورهن على الحسين! فلما سمع عمرو بن سعيد أصواتَهنَّ ضحك وقال: واعيةٌ بواعية عثمان وأنشد بيت عمرو بن مَعْدِي كَرِب: [من الكامل]

عَـجَّـتْ نـسـاءُ بـنـي زيـاد عَـجَّـةً[2] كـعَـجـيـجَ نـسـوتـنـا غَـداةَ الأَرْنَـب

والأَرْنَب: يوم كان لبني زُبَيد على بني زياد من بني الحارث بن كعب ثم صعد عمرو المنبر فأعلم الناس بقتل الحسين.

قال: ولمّا نودِيَ بقتله خرجت زينب بنت عَقيل بن أبي طالب ومعها نساؤها حاسِرة ناشِرةً شَعرها، تلوي ثيابها، وهي تقول: [من البسيط]

مـاذا تـقـولـون إنْ قـال الـنـبـيُّ لـكـم: مـاذا فـعـلـتُـمْ وأنْـتُـم آخـر الأُمَـم؟
بـعـتْـرَتـي وبـأهـلـي بـعـد مُـفـتَـقَـدي مـنـهـم أُسارى وقـتـلَى ضُـرجـوا بِـدَمِ
مـا كـان هـذ جزائي إذْ نَـصَـحْـتُ لـكـم أن تَـخْـلُـفُـوني بـسُـوءٍ في ذَوِي رَحِـمي

وقيل: سَمِع بعضُ أهل المدينة يَومَ قتل الحسين مناديًا ينادي: [من الخفيف]

أيُّـهـا الـقـاتـلـون جَـهْـلاً حُـسَـيْـنـا أبْـشـروا بـالـعـذاب والـتَّـنْـكـيـل
كـلُّ أهـل الـسـمـاء يـدْعُـو عـلَـيـكـم مـن نَـبـيٍّ وَمَـلأكٍ وقَـبِـيـلِ[3]
قـد لُـعـنْـتـم عـلَـى لـسـان اَبْـن داوُ دَ ومُـوسَـى وحـامـل الإنْـجـيـل

---

(١) العويل على الميت.
(٢) الصراخ باستغاثة. وراجع قصة البيت في أمالي القالي جا١ ص١٢٦.
(٣) لعله أراد من هو بصف الملائكة والأنبياء.

ورُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «رأيت النبي ﷺ في الليلة التي قُتل فيها الحسين وبيده قارورة، وهو يجمع فيها دمًا، فقلت: يا رسول الله ما هذا؟ قال: هذه دماء الحسين وأصحابه أرفعها إلى الله تعالى!» فأصبح ابن عباس فأعلم الناس بقتل الحسين، وقَصَّ رُؤياه.

ورُوِيَ أن النبي ﷺ أعطى أمّ سَلَمة ترابًا من تربة الحسين، حمله إليه جبريل، فقال النبي ﷺ: «إذا صار التراب هذا دمًا فقد قُتل الحسين» فحفظتْ أمُّ سَلَمة ذلك التراب في قارُورة، فلمَّا قُتِل الحسين صار ذلك التراب دمًا فأعلمت الناس بقتله. وهذا القول يستقيم على قول من يقول إن أمّ سلمة تُوفِّيَت بعد الحسين.

قال: ولما أراد يزيد أن يُسيِّر آل الحسين إلَى المدينة، أمر النعمانَ بن بَشير أن يجهِّزهم بما يُصلحهم، ويسيِّر معهم رجلاً أمينًا من أهل الشام، ومعه خَيل تسير بهم إلى المدينة، ودعا عليًّا ليودعه وقال: «لَعن الله ابنَ مَرْجانة، أمَا واللّهِ لو أنّي صاحِبه ما سألني خَصلة أبدًا إلاَّ أعطيتُه إيَّاها، ولَدفعتُ الحَتْف[١] عنه بكلّ ما استطعتُ، ولو بهلاك بعض ولدي، ولكن قضى الله بذلك! كاتِبْني بأيّة حاجة تكون لك» وأوصَى بهم ذلك الرسول.

فخرج بهم، فكان يسايرهم ليلاً فيكونون أمامه بحيث لا يفوتون طَرْفه، وإذا نزل تنحى عنهم هو وأصحابُه، فكانوا حَوْلهم كهيئة الحرَس، وكان يسائلهم عن حوائجهم ويلطُف بهم حتَّى دخلوا المدينة. فقالت فاطمة بنت علي لأختها زينب: لقد أحسن هذا الرجل إلينا فهل لكِ أن نصله بشيء؟ فقالت: والله ما معنا ما نصله به إلاَّ حليَّنا، فأخرجتا سوارين ودُمْلُجين[٢] لهما فبعثتا به إليه، واعتذرتا، فردّ الجميع، وقال: لو كان الذي صنعته للدنيا لكان في هذا ما يرضيني، ولكن والله ما فعلتُه إلاَّ لله ولقرابتكم من رسول الله ﷺ.

ذكر ما ورد من الاختلاف
في مَقَر رأْس الحسين وأين دفن

قد اختلف المؤرخون في مقر رأسه، فمنهم من قال: إنه دفن بدمشق، ومنهم من زعم أنه نقل إلى مَرْو؛ ومنهم من يقول. إنه أعيد إلى الجسد ودفن بالطَّف؛

---

(١) الموت.

(٢) الدملج مفردها وهي حليّ للعضد، وتسمى المعضد.

ومنهم من قال: دفن بعَسْقَلان[١]، ثم نقل إلى مصر؛ ومنهم من قال: دفن بالمدينة عند قبر أمه فاطمة رضي الله عنهما. وقد رأينا أن نذكر أقوالهم في ذلك ومستحجهم[٢].

قال: فأما من قال إنه دفن بدمشق فإنه يقول: إنه لمّا قُتل الحسين رضي الله عنه، وحُمل رأسه إلى عُبيد الله بن زياد بالكوفة كما تقدم وقصد حمله إلى دمشق، طلب منْ يقوره[٣] فلم يجبه إلاَّ طارق بن المبارك مَوْلى بنيْ أُمية وكان حجّامًا، ففعل، وقد هُجي أبو يعلَى الكاتب، وهو أحد أسْباط طارق هذا، فقيل فيه: [من الخفيف]

شَقَّ رأسَ الحسينِ جعدُ أبي يَعْـ لَى وسَاطَ[٤] الدِّماغَ بالإبْهامِ

ثم أرسل ابن زياد به إلى دمشق، فنصبه يزيد بن معاوية بها ثلاثة أيام[٥]، ووُضع في مسجد عند باب المسجد الجامع، يعرف بمسجد الرأس، وهو تجاه باب الساعات، كان بابه هناك، ثم سُدّ وفُتح من مشهد زين العابدين في سنة ثلاثين وستمائة ونحوها، ثم كان الرأس في خزانة يزيد بن معاوية.

واختلف أيضًا القائلون إنه دفن بدمشق في المكان الذي دفن فيه بها. فحكى ابن أبي الدنيا[٦] في المقتل عن منصور بن جمهور[٧] أنه قال: دخلتُ خزانة يزيد بن معاوية، فلما فُتحت أصبت جونة[٨] حمراء فقلت لغلام لي يقال له سليم: احتفظ بهذه الجونة فإنها كنز من كنوز بني أُمية، فلما فتحتها وجدت بها رأسًا وورقة مكتوب فيها: «رأس الحسين بن علي ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ»، وإذا هو مخضوب بالسواد، فلفه في ثوب ثم دفنه عند باب الفراديس، عند البرج الثالث مما يلي

---

(١) عسقلان: مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين. راجع معجم البلدان ج٤ ص١٢٢.
(٢) ما أوردوه من حجج.
(٣) أي يفرغه مما فيه من حواس وأعضاء.
(٤) ساط الشيء بالشيء إذا خلطهما، والمراد هنا أنه بعثره أو انتزعه.
(٥) أتراه مستنكر فعل ابن زياد؟.
(٦) عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان القرشي الأموي، وهو الذي أدّب الخليفة العباسي المعتضد وابنه المكتفي.
(٧) منصور بن جمهور بن حصن بن عمرو الكلبي. من بني وبرة. كان مع الخارجين مع يزيد بن الوليد على ابن عمه الوليد بن يزيد. وجه السفاح لقتاله موسى بن كعب في بلاد السند ففر إلى مفازة هناك فمات عطشًا سنة ١٣٣هـ. راجع جمهرة الأنساب ص٤٢٨.
(٨) من نوع السلال.

المشرق. وحكى الاسترباذي[١] في كتابه «الداعي إلى وداع الدنيا» عن أبي سعيد الزاهد أنه قال: قبر الحسين بكربلاء ورأسه بالشام في مسجد دمشق على رأس أسطوانة[٢]، وقال غيره: على عمودين يمين القبلة، وقيل إن يزيد دفنه في قبر أبيه معاوية، ومنهم من قال: في مقابر المسلمين.

وأما من قال: إنه بمَرْوَ فإنه يقول: إن أبا مسلم الخراساني لما استَوْلَى علَى دمشق، أخذ الرأس ونقله إلى مَرْو، ودفن بها في دار الإمارة: وأن الرأس حُشيَ بالمسك وكُفِّن وصُلِّي عليه مرة بعد أخرى.

وأما من قال: إنه أعيد إلى الجسد ودفن معه، فمنهم من يقول: إن يزيد أعاده بعد أربعين يومًا؛ ومنهم من يقول: بل استقر في خزانة السلاح إلى أن وليَ سليمان بن عبد الملك فأحضره وقد قَحَل[٣]؛ وبقي عظم أبيض فجعل عليه ثوبًا وجعله في سَفَط[٤] وصلَّى عليه ودفن في مقابر المسلمين، فلما ولي عمر بن عبد العزيز بعث إلى خازن السلاح يطلب منه الرأس، فطالعه بما كان من أمره فأمره بنبشه وأخذه، فالله أعلم بما صنع به، لكنهم اُستدلّوا من ديانة عمر بن عبد العزيز وصلاحه وخيره أنه نقله إلى الجسد ودفن معه.

وأما من قال: إنه كان بِعَسْقلان ثم نقل إلى مصر فاُستنادهم في ذلك إلى رؤيا منام، وذلك أن رجلاً رأى في منامه، وهو بعسقلان أن رأس الحسين في مكان بها، عيّن له في منامه فنبش ذلك الموضع، وذلك في أيام المستنصر بالله العُبَيدي صاحب مصر، ووزارة بَدْر الجمالي، فابتنى بدر الجمالي له مشهدًا بعسقلان، فلم يزل الأمرُ على ذلك إلى أن تغلب الفرنج على عسقلان، في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، فحمل إلى القاهرة في البحر.

وحكى محمد ابن القاضي المكين عبد العزيز بن حسين في سيرة الصالح بن رُزِّيك، قال: لما وليَ عباس بن أبي الفتوح الوزارة بمصر في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، في مستهلِّ جُمادى الآخرة وصل الخبر بتملُّك الفرنج عَسْقَلاَن، فنقل رأس الحسين فيها، من المشهد الذي أنشأه أمير الجيوش بدر الجمالي، وكمله

---

(١) عبد الله بن محمد بن عبد الله، كنيته أبو سعيد، نسب إلى استراباذ من أعمال طبرستان. سكن سمرقند وتوفي فيها.

(٢) عامود ضخم منحوت من صخر.

(٣) لعله نحل وربما أراد تفتت.

(٤) وعاء قعور.

الأفضل[١]، إلى القاهرة، فكان وصوله إليها في يوم الأحد، ثامن جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسِمائة، وكان قد سَيَّر أحد الأُستاذين الخواص لتلقِّيه إلى مدينة تِنِّيس[٢]، فوصل في عشارى[٣] من عشاريات الخدمة، ودخل فيه إلى خليج القاهرة، وأدخل من باب البستان المعروف بالكافوري، في ليلة الاثنين التاسع من الشهر، وسلك به إلى القصر الغربي إلى أن وصل إلى القصر الشرقي، ولم يزل الحال على ذلك إلى أن حدث من عبّاس وابنه ما حدث، من قبل الظافر وإخوته وابن أخيه، على ما نذكر ذلك إن شاء الله في أخبارهم في كتابنا هذا، فلما نهض الصالح بن رُزِّيك في الطلب بثأرهم، ووليَ الوزارة، لم يقدِّم شيئًا على الشروع في بناء المشهد بالقصْر، في الموضع المعروف بقية الخَراج من دهاليز باب الدَّيْلَم وكمّل المشهد، فلما كان في ليلة يسفرُ صباحها عن تاسع المحرم سنة خمس وخمسين وخمسمائة، خرج ابن رُزِّيك من داره راجلًا إلى الإيوان، فأخرج الرأس فحمله خاشعًا مستكينًا إلى أن أحله بالضريح، ومدحه الشعراء، فمن ذلك قول أحدهم: [من الكامل]

أدركتَ من عبّاس ثأرًا دونَه ... ما أدرك السّفّاح من مَرْوان
وحقَرْتَ ما فَخَرَ ابنُ ذي يَزَنٍ[٤] به ... لمّا أقرَّ المُلك في غُمْدان
وجمعتَ أشلاء الحسين وقدْ غدَتْ ... بَدَدًا فأضحتْ في أعزِّ مكان
وعرفتَ للعُضْوِ الشريف محلَّه ... وجليلَ موضعه من الرحمٰن
أكرمتَ مَثْواه لَدَيْكَ وقَبْلُ في ... آل الطَّريد[٥] غدا بِدارِ هَوَان
وقضيتَ حقَّ المصطفَى في حمْله ... وحظيتَ من ذي العرش بالرِّضوان
ونصبتَه للمسلمين تَزُورُه ... مُهَجٌ إلَيْه شديدةُ الهَيَمَان
أسْكَنتَه في خَير مَأوَى خَطَّه ... أبناؤه في سالف الأزمان
ولَو استطعْتَ جعلْتَ قلبك لَحْده ... في موضع التوحِيد والإيمانِ
حرَمٌ تَلُوذُ به الجُنَاة فتَنْثَني ... مَحْبُوَّةً بالعفْو والغفرانِ
قد كان مغتربًا زمانًا قبلَ ذَا ... فالآن عُذْتَ به إلى الأوطان

وأما من قال: إنه بالمدنية، فإنه يقول: إنه لما نصِب بدمشق وطِيفَ به، أمر

(١) ابن الأمير بدر الدين الجمالي.
(٢) جزيرة في بحر مصر قريبة من البر بين الفرما ودمياط. راجع معجم ياقوت جـ٢ ص٥١.
(٣) نوع من البواخر.
(٤) صاحب السيرة المعروفة باسمه.
(٥) كناية عن الأمويين عامة والمروانيين خاصة.

يزيد بن معاوية النعمان بن بشير الأنصاري أن يحمله إلى المدينة، ليشاهده الناس، وليرهب به عبد الله بن الزبير، فلما وصل إلى المدين ودخل به على عمرو بن سعيد الأشدق، قال: وددت أن أمير المؤمنين لم يكن بعث به إليّ، فقال له مروان بن الحكم: اُسكتْ لا سكتَّ ولكن قل كما قال: [من الرمل]

ضربت دوسي[١] فيهم ضربةً أثْبَتَتْ أوْتادَ مُلْك فاسْتَقَرْ

ثم أمر به عمرو بن سعيد فكُفِّن ودفن عند قبر أُمه فاطمة رضي الله عنهما.

وقيل: بل أُرسل إلى مَنْ بالمدينة من بني هاشم، أن دونكم رأس صاحبكم، فأخذوه، فغسلوه وكفنوه وصلُّوا عليه ودفنوه عند قبر أُمه رضي الله عنهما، والله تعالى أعلم، وقد تكلم عمر بن أبي المعالي أسعد بن عمار بن سعد بن عمار بن علي رحمه الله تعالى في كتابه الذي ترجمه «الفاصل بين الصدق والمَيْن في مقر رأس الحسين» على هذه الأقوال المتقدمة ووهنها وضعّفها واستدل على ضعفها، ورجح أنه بالمدينة، حتَّى كاد يبلغ به مبلغ القَطْع، فقال ما معناه: أمّا قولهم إنه كان في خزائن بني أُميّة إلى أن ظهرت الخلافة العباسية، وأن أبا مُسْلم نقله إلى خُراسان، فهذا بعيد جدًا، وذلك أن أبا مسلم لمّا فتح الشام كان بخراسان، والذي فتح دِمَشق عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس، فكيف يُتَصَوَّر أن ينقله أو يمكن من نقله إلَى مَوْلاه بخُراسان؟ ولو ظفِر به في خزائن بني أُميَّة لأظهره للناس ليزدادوا لبني أُمية بغضًا، وأيضًا فقد وليَ العبدُ الصالح عمر بن عبد العزيز الخلافة، وبعيد أن كان يترك رأس ابن بنت رسول الله ﷺ في خزائن السلاح ولم يُوَارِه[٢].

وأمّا قولهم إنه كان بعَسْقَلان فلم يوجد ذلك في تاريخ من التواريخ أنه نقل إلى عسْقلان ولا إلى مصر، ويقوّي ذلك أن الشام ومصر لم يكن بهما شيعة عَلَوية فينقل إليهم ليَرَوْه وتنقطع آمالهم من الحسين وتضعف نفوسهم عن الوثوب مع غيره والانضمام إليه.

وأما قولهم إنه بالمدينة عند قبر أُمه فقد قاله محمد بن سعد في طبقاته، وابن أبي الدنيا وأبو المؤيد الخُوارِزْمي خطيب خُوارزْم في إحدى رواياتهما، وصححه أبو الفرج بن الجَوزي[٣]، والله تعالى أعلم.

---

(١) لعلها قبيلة دوس الأزدية التي ينتهي إليها أبو هريرة.

(٢) يدفنه.

(٣) عبد الرحمٰن بن علي بن محمد الجوزي القرشي. سكن بغداد وفيها توفي، وهو من أعلام المحدثين.

وقد أخذ هذا الفصل حقه، فلنذكر خلاف ذلك من الأخبار التي اتفقت في أيام يزيد بن معاوية على حكم اليقين:

ذكر مقتل أبي بلال مرداس ابن حُدَير الحَنْظَلي الخارجي[١]

قد ذكرنا في أيام معاوية خروجه وأن ابن زياد بعث إليه أسْلم بن زرعة الكلابي في ألفين، فهزمهم بآسَك[٢].

فلما كان في هذه السنة أرسل إليه ابن زياد ثلاثة آلاف، عليهم عباد بن الأخضر التميمي والأخضر زوج أُمه، نسب إليه وإنما هو عباد بن علقمة بن عباد فسار إليه، واتبعه حتَّى لحقه بتَوَّج[٣]، فاقتتلوا حتَّى دخل وقت العصر، فقال أبو بلال: هذا يوم جمعة، وهو يوم عظيم، دعونا حتَّى نصلِّي، فتوادعوا، فعجّل عباد الصلاة وقيل: بل قطعها، والخوارج يصلُّون، فشدَّ عليهم هو وأصحابه، فقتلوهم وهم ما بين قائم وراكع وساجد، لم يتغير منهم أحد عن حاله، فقتلوا عن آخرهم.

ورجع عباد إلى البصرة برأس أبي بلال، فرصده عبيدة بن هلال ومعه ثلاثة نفر، فأقبل عباد يريد قصر الإمارة، فقالوا له: قف حتَّى نستفتيك[٤]. فوقف، فقالوا: نحن إخوة أربعة قُتل أخونا فما تَرَى؟ قال: استَعْدُوا الأمير، قالوا: استعْدَيْناه فلم يُعْدِنا. قال: فاقتلوه قَتَله الله. فَوَثبوا عليه وقتلوه، واجتمع الناس علَى الخوارج فقُتلوا.

وفيها استعمل يزيد بن معاوية سَلْم بن زياد على خُراسان وسِجِسْتان، وعَزَل عنهما أخويه: عبد الرحمٰن وعبَّادًا ابنَيْ زياد، فكتب عبيد الله بن زياد إلى أخيه عباد يخبره بولاية سَلم، فقسم عباد ما في بيت المال على عبيدة، وفضَل فضْلٌ فنادَى: من أراد سَلفًا فلْيأخذ، فأسْلف كلَّ من أتاه، وخرج عن سِجِسْتان، فلما كان بِجِيرفَتْ[٥] بلغه مكان أخيه سَلْم، وكان بينهما جبل، فعدل عنه، فذهب لعباد تلك الليلة ألف

(١) مرداس بن حديد بن عامر بن عبيد بن كعب الربعي الحنظلي التميمي، كنيته أبو بلال، ويقال له مرداس ابن أدية، وأدية أمه. خارجي من «الشراة» قتله عبيد الله بن زياد سنة ٦١هـ. راجع جمهرة الأنساب ص٢١٢.

(٢) آسك: موضع بالأهواز بين رامهرمز وأرجان.

(٣) مدينة بفارس وتسمى توز.

(٤) نسألك الفتيا.

(٥) مدينة بفارس.

مملوك، أقلُّ ما مع أحدهم عشرة آلاف، وسار عباد حتى قدم على يزيد، فسأله عن المال، فقال: كنت صاحب ثَغْر فقسمتُ ما أصبْتُ بين الناس.

قال: ولما سار سَلْم إلى خراسان كتب يزيد إلى عبيد الله بن زياد معه بنُخْبة ستة آلاف فارس، وقيل ألفين، فكان سلم ينتخب الوجوه والفرسان، فخرج معه عِمْران بن الفضيل البرجمي والمهلَّب بن أبي صُفْرة وطَلحة بن عبد الله بن خَلَف الخزاعي وغيرهم، وسار حتّى قدِم خراسان، وعبر النهر غازيًا، وكان عُمال خُراسان قبله يغزُون، فإذا دخل الشتاء رجعوا إلى مَرْو الشاهجان[1]، فإذا انصرف المسلمون اجتمع ملوكُ خُراسان بمدينة ممَّا يلي خُوارزم، فيتعاقدون ألاَّ يغزوَ بعضهم بعضًا ويتشاورون في أُمورهم، وكان المسْلمون يطلبون إلى أُمرائهم غزو تلك المدينة، فيأبَوْن عليهم، فلمّا قدم سلم غزا فشتَّى في بعض مغازيه، فسأله المهلب أن يوجهه إلى تلك المدينة، فوجهه في ستة آلاف، وقيل: في أربعة آلاف، فحاصرهم، فطلبوا الصلح على نَيِّف وعشرين ألف ألف، فصالحهم، وكان في صلحهم أن يأخذ منهم عُروضًا، فكان يأخذ العُروض من الرقيق والدوابّ والمتاع بنصف قيمتها، فبلغ ما أخذ منهم خمسين ألف ألف، فحظي بها المُهَلَّبُ عند سَلْم، وأخذ سلم من ذلك ما أعجبه وبعث به إلى يزيد.

وغزا سلم سَمَرْقَند، وعبر معه النهر امرأته أُم محمد بنت عبد الله بن عثمان بن أبي العاص الثقفي، وهي أول امرأة من العرب قُطِع بها النهر، فولدتْ له ابنًا سماه «صُغْدى» واستعارت امرأته من امرأة صاحب الصُغْد حُليَّها فلم تُعِدْه إليها وذهبت به.

ووجَّه جيشًا إلى خُجَنْدَة[2] فيهم أعشَى هَمْدان، فهُزِموا، فقال الأعشى في ذلك: [من الخفيف]

لَيت خَيلي يوم الخُجَنْدَة لم تُهـ ... ـزَمْ وغُودِرْتُ في المكَرِّ[3] سَليبا
تَحْضرُ الطير مَصْرَعي وتَرَوَّحْـ ... ـت إلى الله في الدِّماءِ خَضيبا

وفيها عَزل يزيد عمرو بن سعيد، واستعمل الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وسبب ذلك أن الوليد وناسًا من بني أُميَّة قالوا ليزيد: لو شاء عمرو لأخذ ابن الزبير وسرَّح به إليك. فعزله، ولم يكن كذلك، بل كان ابن الزبير كاده.

وحجّ الوليدُ في هذه السنة بالناس.

---

(١) مرو الشاهجان: مرو الكبرى.
(٢) خجندة: مدينة على شاطىء سيحون.
(٣) مكان الكر كناية عن المعترك.

سنة اثنين وستين:

ذكر وفد أهل المدينة إلى يزيد بن مُعاوية وخلعهم له عند عودهم

وفي هذه السنة وفد جماعة من أهل المدينة إلى يزيد بن معاوية بالشام، فيهم عبد الله بن حَنْظلة غَسيل الملائكة[1] وعبد الله بن أبي عمرو بن حَفْص بن المُغيرة المخزومي، والمنذر بن الزبير، ورجال كثير من أشراف أهل المدينة.

وكان ابن الزبير قد كتب إلى يزيد لمّا استعمل الوليدَ بن عتبة على الحجاز يقول: «إنك بعثتَ إلينا رجلاً أخرق[2]، لا يتَّجه لرشدٍ، ولا يَرْعَوي لعِظة الحكيم، فلو بعثتَ رجلاً سهل الخُلُق رجَوْت أن يسهِّلَ من الأمور ما اسْتَوْعَر منها، وأن يجتمع ما تفرَّق» فعزل يزيد الوليد، واستعمل عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وهو فتًى غِرٌّ حَدَثٌ لم تحَنّكه التجارب، ولا يكاد ينظر في شيء من سلطانه ولا عمله.

فوفد هذا الوفد إلى يزيد، فقدموا عليه، فأكرمهم وأحسن إليهم وأعظم جوائزهم، فأعطى عبد الله بن حنظلة مائة ألف درهم، وكان معه ثمانية بَنين فأعطى كلّ واحدٍ منهم عشرة آلاف، وأجاز المنذر بن الزبير بِمائة ألف كتب له بها على عُبيد الله بن زياد فتوجه إلى العراق فقبضها.

ورجع الوفد إلى المدينة إلاّ المنذرَ، فلمّا قدموا المدينة قاموا في الناس فأظهروا شَتْم يزيد وعيبه، وقالوا: «قدِمْنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، ويعزف بالطّنابير، وتعزِف عنده القِيان، ويلعب بالكلاب، ويسْمُر عنده الحُرَّاب، وهم اللصوص، وإنا نُشْهِدكم أنّا قد خلعناه».

وقام عبد الله بن حَنْظَلة فقال: «جئتكم من عند رجل لَوْ لم أجد إلاّ بَنِي هؤلاء لجاهدتُه، وقد أعطاني وأكرمني، وما قبلتُ منه عطاءه إلاّ لأتقوَّى به».

فخلعه الناس، وبايعوا عبد الله بن حنظلة على خلْعه، وولّوْه عليهم.

ثم قدِم المنذر من العراق إلى المدينة، فحرَّض الناس على يزيد، وقال: «إنه أجازني بِمائة ألف، ولا يمنعني ما صنع بي أن أخبرَكم خبره، والله إنه ليشربُ الخمرَ، وإنه ليَسْكَرُ حتَّى يدعَ الصلاةَ!» وعابه بمثل ما عابه به أصحابُه وأشَدّ.

---

(١) أخبر النبي ﷺ أن حنظلة بن أبي عامر الأنصاري من الأوس قد غسلته الملائكة بعد استشهاده بغزوة أحد وقد ولد ابنه عبد الله والرسول حي ﷺ.

(٢) غير عاقل.

فبعث يزيدُ النعمانَ بن بشير الأنصاري وقال له: «إن عدد الناس بالمدينة قومك، فأتهم فالْفِتْهم عمّا يريدون، فإنهم إن لم ينهضوا في هذا الأمر لم يجترئِ الناسُ على خلافي» فأتى النعمانُ قومَه، وأمرهم بلزوم الطاعة، وخوَّفهم الفتنة، فعصَوه ولم يرجعوا إلى قوله، فرجع. وبسبب هذه الواقعة كانت وقعة الحرَّة.

وفي هذه السنة كان من الحوادث في بلاد المغرب ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار إفريقية.

وحجّ بالناس في هذه السنة الوليد بن عتبة.

وفيها ولد محمد بن عبد الله بن عباس والد السفاح والمنصور.

سنة ثلاث وستين:

ذكر وقعة الحَرَّة

كان سبب هذه الوقعة ما قدمناه من خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية، فلمّا كان في هذه السنة أخرج أهلُ المدينةِ عثمانَ بن محمد بن أبي سفيان عامل يزيد، وحصروا بني أُميَّة، فاجتمع بنو أُميَّة ومَواليهم ومن يَرَى رأيهم في ألف رجل، ونزلوا دار مَرْوَان بن الحكم، وكتبوا إلى يزيد يستغيثون به، فلمّا قرأ الكتاب بعث إلى عمرو بن سعيد الأشدق، فأقرأه الكتاب وأمره بالمسير في الناس، فقال: قد كنت ضبطتُ لك الأُمور والبلاد، فأما الآن إذ صارت دماء قريش تُهراق بالصعيد فلا أُحبُّ أن أتولَّى ذلك.

فبعث إلى عُبيد الله بن زياد، فأمره بالمسير إلى المدينة ومحاصرة عبد الله بن الزبير بمكة، فقال: «والله لا أجمعهما للفاسق[1]: قتْل ابن بنت رسول الله وغزْو الكعبة!» ثم أرسل إليه يعتذر.

فبعث إلى مسلم بن عقبة الْمُرِّي[2] وهو شيخ كبيرٌ مريض فأخبره الخبر، فقال: أمَا يكون بنو أُميَّة ومَوَاليهم وأنصارهم بالمدينة ألف رجل؟ قال: بَلَى؛ قال: «أمَا استطاعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار؟ ليس هؤلاء بأهل أن يُنحصَروا فإنهم أذِلاَّء! دعْهم يا أمير المؤمنين حتَّى يُجْهِدوا أنفسَهم في جهاد عدوِّهم، ويتبيّن لكَ مَن يقاتلُ علَى طَاعتك ومَن يستسلم»؛ قال: «وَيْحَك! إنه لا خيرَ في العيش بعدهم! فاخرجْ بالناس».

---

(١) يعني يزيد بن معاوية.

(٢) مسلم بن عقبة بن رباح بن عامر بن يربوع بن مرة.

وقيل: إن معاوية قال ليزيد: إن لك من أهل المدينة يومًا، فإنْ فعلوا فارْمِهِم بمسلم بن عُقبة، فإنه رجل قد عرفتُ نصيحته، فأمره بالمسير إليهم.

فنادَى في الناس بالتجهيز إلى الحجاز وأن يأْخذوا عطاءهم ومعونة مائة دينار لكل رجل؛ فانتدب لذلك اثنا عشر ألفًا، وساروا مع مسلم، فقال له يزيد: إنْ حَدَثَ بك حَدَثٌ فاستخلف الْحُصَين بن نُمير السَّكُوني[١]؛ وقال له: «ادعُ القومَ ثلاثًا فإن أجابوا وإلاَّ فقاتلهم، فإذا ظهَرْتَ علَيهم فأبِحْها ثلاثًا بما فيها من مال أو رِقَة[٢] أو سلاح أو طعام، فهو للجند، فإن انقضت الثلاث فاكفُفْ عن الناس، واكفُفْ عن عليّ بن حسين، واسْتَوْصِ به خيرًا فإنه لم يدخل مع الناس، وقد أتاني كتابه».

قال: ولمّا بلغ أهلَ المدينة خبرُ الجيش اشتدَّ حصارهم لبني أُمية بدار مَرْوان، وقالوا: «واللّهِ لا نكفُّ عنكم حتَّى نضرِبَ أعناقكم أو تُعطونا عهد الله وميثاقَه أنكم لا تَبْغُونا غائلةً، ولا تدلوا لنا على عَورة، ولا تُظاهروا علينا عدوّنا، فنكفَّ عنكم ونخرجكم»، فعاهدوهم على ذلك، وأخرجوهم من المدينة، فساروا بأثْقالهم حتَّى لَقُوا مُسلم بن عُقْبة بوادي القُرَى، فدعا عمْرو بنَ عثمان بن عفَّان أوّلَ الناس، فقال: أخبِرني ما وراءك وأشِرْ عَليَّ، قال: لا أستطيعُ، قد أخِذَ علينا العهود والموَاثيق ألا ندُلَّ علَى عَورة ولا نُظاهِرَ عدوًّا؛ فانتهره وقال: «واللّهِ لَولا أنك ابن عثمان لضربتُ عنقك، وأيمُ اللّهِ لا أُقيلها قُرَشيًّا بعدك!».

فخرج إلى أصحابه، فأخبرهم خبره، فقال مروان بن الحكم لابنه عبد الملك: ادخُل عليه قبلي لعله يجتزىء بك عني، فدخل عبد الملك علَى مُسْلم، فقال «نَعَمْ: هاتِ ما عندك؛ فقال: نعم، أرَى أن تسير بمن معك، فإذا انتهيت إلى أدْنى نخلها نزلتَ، فاستظلّ الناس في ظله وأكلوا من صَقِره[٣]، فإذا أصبحت من الغدِ مضَيْتَ، وتركت المدينة ذات اليسار، ثم دُرْتَ بها حتَّى تأتيهم من قِبَل الحَرَّة[٤] مشرقًا ثم تستقبل القوم، فإذا استقبلتَهم وقد أشرقَتْ علَيهم الشمس طلعت من أكناف أصحابك فلا تؤذيهم، ويصيبهم أذاها ويَرَوْن من ائْتِلاقِ بَيْضكم[٥] وأسِنَّةِ رماحكم وسيوفكم

---

(١) الحصين بن نمير بن ناتل بن لبيد بن خثعمة بن حارث بن سلمة بن شكاية بن السكون. راجع جمهرة أنساب العرب ص٤٠٣.

(٢) كناية عن المصكوكات من الدراهم والدنانير.

(٣) عسل الرطب.

(٤) أرض بظاهر المدينة جرت فيها مذبحة وأباح فيها يزيد بن معاوية المدينة لجنده وبايع أهلها له على أنهم خول له.

(٥) أراد السلاح عامة وبعض آلات الحرب المعروفة.

وذُروعكم ما لا تَرَوْنه أنتم منهم، ثم قاتِلْهم، واستعِنْ عليهم بالله تعالى» فقال له مُسلم: «لله أبوك! أيّ أمويّ!» ثم دخل عليه مَرْوان فقال له إيه. قال: أليس قد دخل عليك عبد الملك؟ قال: «بَلَى، وأيُّ رجل عبد الملك! قلما كلمتُ من رجال قريش رجلًا به شبيهًا!» فقال له مَرْوان: إذا لقِيتَ عبد الملك فقد لقِيتني.

ثم ارتحل مسلم من مكانه، وفعل ما أمره به عبد الملك، ثم دعاهم فقال: «إن أمير المؤمنين يزعم أنكم الأصل، وإني أكره إراقة دمائكم، وإني أؤجلكم ثلاثًا، فمن ارْعَوَى وراجع الحقَّ قبِلْنا منه وانصرفتُ عنكم إلى هذا المُلْحِد[١] الذي بمكة، وإنْ أبيْتم كُنّا قد أعْذَرْنا إليكم».

فلما مضت الثلاث قال مسلم: يا أهل المدينة ما تصنعون؟ أتسالمون أم تحاربون؟ فقالوا: بل نحارب، فقال لهم: «لا تفعلوا، بل ادخلوا في الطاعة، وتجعل حَدَّنا وشَوكتنا على هذا الملحد الذي قد جمع إليه المُرَّاق[٢] والفُسَّاق من كل أوْب[٣]» يعني عبد الله بن الزبير، فقالوا له: «يا عدوَّ الله، لو أردتم أن تجوزوا إليه ما تركناكم: أنحن نَدَعُكم أن تأتوا بيت الله الحرامَ فتُخيفوا أهل مكة وتُلْحِدوا فيه وتستحلُّوا حرمته؟ لا واللّهِ لا نفعلُ!».

قال: وكان أهل المدينة قد اتَّخذوا خَنْدَقًا، وعليه جمع منهم، عليهم عبد الرحمٰن بن أزهر بن عَوْف وهو ابن عم عبد الرحمٰن بن عوف وكان عبد الله بن مطيع مع ربع قريش في جانب المدينة، وكان مَعْقِل بن سِنان الأشجعي، أحد الصحابة على ربع المهاجرين، وكان أمير جماعتهم عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري في أعظم تلك الأرباع، وهم الأنصار[٤].

وصمد مسلم بن عقبة فيمن معه، فأقبل من ناحية الحَرَّة، حتَّى ضَرَب فُسْطاطَه على طريق الكوفة، وكان مريضًا، فأمر فوُضِع له كرسيّ بين الصفَّين، فجلس، ثم حرَّض أهل الشام على القتال، فجعلوا لا يقصدون ربْعًا من تلك الأرْباع إلاَّ هزموه، ثم وجَّه الخَيْل نحو ابن الغسيل[٥]، فكشَفَهم، حتَّى انتَهوا إلى مسلم، فنهض في وجوههم بالرجال، وصاح بهم، فقاتلوا قتالاً شديدًا.

---

(١) يعني عبد الله بن الزبير.
(٢) الخارج من دينه.
(٣) الجهة.
(٤) راجع ابن الأثير في تاريخه جـ٤ ص١١٥.
(٥) ابن غسيل الملائكة.

ثم إن الفضل بن عبّاس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب جاء إلى ابن الغَسِيل، فقاتل معه في نحو عشرين فارسًا قِتالاً حسنًا، ثم قال ابن الغسِيل: «مُرْ مَن معك فارِسًا فَلْيَأْتني، فليقفْ معي، فإذا حملتُ فلْيحملوا، فواللّهِ لا أنتهي حتى أبلغ مسلمًا فأقتله أو أُقتل دونه!» ففعل، وجمع الجند، فحمل بهم الفضل على أهل الشام، فانكشفوا، ثم حمل وحمل أصحابه حملةً أخرى، فانفرجت خيل الشام عن مُسلم ومعه خمسُمائة راجل جُثاة على الرُّكَب مُشْرِعي الأسِنَّة نحو القوم، ومضى الفضل نحو راية مسلم فضرب رأس صاحبها فقطَّ المغْفَر[1] وفَلَق هامتَه، فخرَّ ميتًا، وقال: خُذْها وأنا ابن عبد المطلب! وظنّ أنه قتل مسلمًا، فقال: قتلتُ طاغية القوم وربِّ الكعبة! فأخذ مسلم رايته، وكان المقتول غلامًا روميًّا شجاعًا، وحرَّض مسلم أهل الشام، وقال: شدُّوا مع هذه الراية، فمشى برايته، وشدَّت الرجال أمام الراية، فصُرع الفضل وما بينه وبين أطناب فسطاط مسلم إلاَّ نحوُ عشرة أذرع، وقُتل معه زيد بن عبد الرحمٰن بن عوف، وأقبلت خيلُ مسلم ورجالته نحو ابن الغَسيل، فحرض ابن الغَسِيل أصحابه، فنهضوا واقتتلوا أشدَّ قتال، وأخذ ابنُ الغَسيل يُقدِّم بَنيه واحدًا واحدًا، حتَّى قُتلوا بين يديه، ثم قُتل وقتل معه أخوه لأُمه محمد بن ثابت بن قيس بن شماس، وعبد الله بن زيد بن عاصم، ومحمد بن عمرو بن حزم الأنصاري. وانهزم الناس[2].

وأباح مسلم بن عقبة المدينة ثلاثًا، يقتلون الناس، ويأخذون المتاع والأموال، فسُمِّي مسلم بعد وقعة الحرة مسرفًا»[3].

وقيل إن مسلمًا لمّا نزل بأهل المدينة خرج إليه أهلها بجموع كثيرة وهيْئة حسنة، فهابهم أهل الشام، وكرهوا قتالهم، فلما رآهم مسلم سبَّهم وذمّهم وحرَّضهم، وكان شديد الوجع، فقاتلوا، فبينما أهل المدينة في قتالهم إذ سمعوا التكبير من خلفهم من جوف المدينة، وكان سببه أن بني حارثة أدخلوا أهل الشام المدينة، فانهزم الناس، فكان من أصيب في الخَنْدَق أكثرَ مِمَّن قُتل.

ودعا مسلم الناس إلى البيعة ليزيد على أنهم خَوَل[4] له يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم ما شاء، فمن امتنع من ذلك قتله.

---

(١) قطع اللامة التي على رأسه. (٢) راجع ابن الأثير بزيادة جـ٤ ص١٢.

(٣) أسرف الرجل إذا تجاوز الحد فيما فعل. (٤) عبيد.

وأُتي يومئذ بعمرو بن عثمان بن عفان، وكان ممَّن لم يخرج مع بني أُمَيَّة، فقال مسلم: يا أهل الشام تعرفون هذا؟ قالوا: لا؛ قال: هذا الخبيث ابن الطيب، هذا عمرو بن عثمان، هي يا عمرو إذا ظَهَر[1] أهل المدينة قلتَ أنا رجل منكم، وإن ظَهَرَ أهل الشام قلتَ أنا ابن أمير المؤمنين عثمان»، وأمَر به فنُتِفَتْ لحيته، ثم خلَّى سبيله.

وكانت وقعة الحَرَّة لليلتين بَقِيَتا من ذي الحِجة سنة ثلاث وستين.

وقَتل مسلم جماعة من أهل المدينة صَبْرًا، فكان منهم على ما ذكر ابن إسحاق والواقدي ووثيمة وغيرهم: الفضل بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وأبو بكر بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وأبو بكر بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب، ويعْقوب بن طلحة بن عبيد الله، وعبد الله بن زيد بن عاصم، ومعقل بن سنان الأشجعي، ومحمد بن أبي الجهم بن حذيفة العَدوي، وقُتل أيضًا صبرًا ابنا زَينب بنت أُم سَلَمة رَبيبة رسول الله ﷺ، وهما ابنا عبد الله بن زَمعة بن الأسْوَد بن المطلب بن أسَد بن عبد العُزَّى بن قُصَيّ، ولما قُتلا حُمِلاَ إلى أُمهما فوُضعا بين يديها، فاسْترجعت وقالت: واللّهِ إنَّ المصيبةَ عَلَيّ فيهما لَكبيرةٌ، وهي علَيّ في هذا أكبر منها في هذا، أما هذا فجلس في بيته وكفَّ يده فدُخِل علَيه فقُتل مظلومًا، فأنا أرجو له الجنة، وأمَّا هذا فبسط يده فقاتَل حتى قُتل، فلا أدرِي عَلامَ هو في ذلك؟ فالمصيبةُ به أعظم منها علَيَّ في هذا! وقُتِل أيضًا يزيد بن عبد الله بن زَمعة.

وانتهى القتل يومَئذ فيما ذكروا إلى ثلاثِمائة، كلُّهم من أبناء المهاجرين والأنصار. ومنهم جماعة ممّن صحب رسول الله ﷺ، وبلغت قَتْلَى قريش يومئذ نحو مائة، وقتلى الأنصار والحلفاء والمَوالي نحو مِائتين.

وقيل: إن يزيد بن معاوية لمّا بلغه ما كان من خبر هذه الوقعة قال: [من الرمل]

لـيـتَ أشْـيَـاخـي بِـبَـدْر[2] شَـهِـدُوا ... جَـزَعَ[3] الْـخَـزْرَجِ مـنْ وَقْـعِ الأسَـلْ[4]
لَأهَـلُّـوا[5] وٱسْـتَـهَـلُّـوا فَـرَحًـا ... ثُـم قـالـوا يـا يـزيـد لا تَـشَـلْ
لـسـتُ مـن عُـتْـبـة إن لـم أثَّـئـرْ[6] ... مـن بـنـي أحـمـدَ[7] مـا كـان فـعـلْ

---

(١) أي انتصر.
(٢) أراد جده أبا سفيان وأباه معاوية وأخواله أبناء عتبة.
(٣) خوف.
(٤) الأسل: الرماح.
(٥) هللوا مرحبين فرحًا وانتشاءً.
(٦) أراد الثأر ونيله.
(٧) أراد رسول الله ﷺ.

هكذا حُكِي عن بعض المؤرخين. والذي أعتقده أن هذه الأبيات مفتعلة عنه ومسنوبة إليه[١]، فإنها لا تصدر إلاَّ ممن نزَع رِبْقَة الإسلام من عنقه. والله أعلم.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبد الله بن الزُّبير، وكان يسمى يومئذ «العائذ بالبيت»[٢].

سنة أربع وستين:

ذكر مسير مسلم بن عقبة إلى مكة لحصار عبد الله بن الزبير، ووفاة مسلم والحصار الأول وإحراق الكعبة

قال: ولما فرغ مسلم من قتال أهل المدينة ونهبها شَخَص نحو مكة بمن معه لقتال ابن الزبير، واستخلف على المدينة رَوْحَ بن زِنْباع الجُذَاميّ. وقيل: عمرو بن محرز الأشجعي. وكان خبر وقعة الحرَّة قد أتَى عبدَ الله بن الزُّبَير مع المِسْوَر بن مَخْرَمَة هلال المحرم، فاسْتعد هو وأصحابه للحرب.

وسار مسلم حتى انتهى إلى المشلَّل[٣] فمات هناك، ولما حضرتْه الوفاة أحضر الحُصين بن نُمَير السَّكُونيّ وقال له يا برْذَعة الحمار، لو كان الأمر لي ما وَلَّيتك هذا الجند. ولكن أمير المؤمنين وَلاَّك؛ ثم مات.

وسار الحصين فقدم مكة لأربع بقين من المحرَّم، وقد بايع أهلُها وأهلُ الحجاز عبد الله بن الزبير ولحق به من انهزم من أهل المدينة وقدم عليه نَجْدةُ بن عامر الحنفيّ من اليمامة في أُناس من الخوارج يمنعون البيت.

فخرج ابن الزُّبير للقاء أهل الشام ومعه أخوه المنذر، فبارز المُنْذِرَ رجلٌ من أهل الشام، فضرب كلُّ واحد منهما صاحبَه ضَرْبة فماتا جميعًا. وقالت المِسْوَر بن مَخرمة، ومُصْعَب بن عبد الرحمٰن بن عَوف قتالاً شديدًا حتَّى قُتلا، وصابَرَهم ابن الزُّبَير إلى الليل، ثم انصرفوا عنه، ثم أقاموا عليه فقاتلوه بقية المحرم وصفر كله، حتَّى إذا

---

(١) لاحظ كيف أن النويري وهو من وفيات القرن الثامن للهجرة يحاول تبرئة يزيد فيما أجمع الرواة والمؤرخون على هذه الحادثة ونسبة الشعر إلى يزيد، أضف أن ما فعله في المدينة أشرّ من شعره.

(٢) المحتمي به.

(٣) المشلل: جبل يهبط منه إلى قُدَيد من ناحية البحر في الحجاز. معجم البلدان جـ٥ ص١٣٦.

مضت ثلاثة أيام من ربيع الأول سنة أربع وستين قذفوا البيت بالمجانيق[١]، وحرقوه بالنار، وهم يرتجزون:

خَطَّارةٌ مثلُ الفَنيق المُزْبِدِ[٢] نَرمي بها أعوادَ هذا المسجِد[٣]

واستمروا على القتال والحصار إلى آخر هذا الشهر، فأتاهم نَعْيُ يزيد بن معاوية لهلالِ شهر ربيع الآخر.

ذكر وفاة يزيد بن معاوية وشيءٌ من أخباره

كانت وفاته بحُوَّارِين من قُرى حِمص لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من سنة أربع وستين، وقيل: في هذا الشهر من سنة ثلاث وستين، وهو ابن ثمانٍ وثلاثين سنة، وقيل: تسع وثلاثين؛ وقيل: أقلّ من ذلك إلى خمس وثلاثين.

وكانت ولايته ثلاث سِنين وتسعة أشهر وأيّامًا، على القول الأول في وفاته. وحُمل إلى دِمَشق فدُفن بها في مَقبرة الباب الصغير، وصلَّى عليه ابنه معاوية.

وكان له من الأولاد مُعاوية وخالد وأبو سُفْيان عبد الله الأكبر أُمُّهم أمّ هاشم بنت أبي هاشم بن عُتبة بن ربيعة، وله أيضًا عبد الله الأصغر، وأُمُّه أمّ كلثوم بنت عبد الله بن عامر، وهو الإسوار[٤] وله أيضًا عبد الله أصغر الأصاغر، وعمير وأبو بكر وعتبة وحرب ومحمد لأمّهات شتى؛ قيل: وله يزيد والربيع.

وكاتبه عتبة بن أوس ثم زَمْل بن عمرو العُذْريّ.

وكان نقش خاتمه: «ربُّنا الله».

حاجبه خالد مولاه، وقيل: صَفوان.

قاضيه أبو إدريس الخَوْلاني[٥].

عمّاله على الأمصار من تقدّم ذكرهم.. الأمير بمصر مَسلَمة بن مُخَلَّد[٦]، ثم

---

(١) آلة كالمدفع لقذف الحجارة والكتل النارية.
(٢) ذكر الإبل الفتي. (٣) أراد المسجد الحرام.
(٤) الإسوار: الذي يدمي ويصيب.
(٥) العائذ بالله بن عبد الله بن عمرو الخولاني كنيته أبو إدريس.
(٦) الخزرجي الأنصاري توفي سنة ٦٢هـ.

تُوُفِّي، فولاَّها يزيدُ سعيدَ بن يزيد الأزدي[١] من أهل فِلسطين.. القاضي بها من قِبَلِ مَسْلمةَ ويزيدَ عابسُ بن سعيد، وجمع له بين القضاء والشرطة، وكان أُمِّيًا لا يكتبُ ولا يقرأ.

ذكر بيعة معاوية بن يزيد بن معاوية

وكنيته «أبو عبد الرحمٰن» و«أبو لَيْلَى»، وأُمه أُم هاشم بنت أبي هاشم بن عُتْبة بن رَبيعة، وهو الثالث من ملوك بني أُمَيَّة، بُويع له بالشام في النصف من ربيع الأول سنة أربع وستين.

قال: ولـمّا كان في آخر إمارته أمَر فنُودِي: «الصلاةُ جامعة» فاجتمع الناس، فحمد اللّهَ وأثنى عليه، ثم قال «أمّا بَعْدُ، فإني ضعُفتُ عن أمركم، فابتغَيْتُ لكم مثلَ عُمر بن الخطّاب حين استخلفه أبو بكر رضي الله عنهما فلم أجِدْه، فابتغَيْتُ ستة من أهل الشورَى فلم أجِد، فأنتم أوْلَى بأمركم، فاختاروا له مَن أحببتم» ثم دخل منزله وتغيَّب حتَّى مات، فقيل: مات مسمومًا، وصلَّى عليه الوليد بن عُتبة بن أبي سفيان، ثم طُعِنَ[٢] الوليد فمات من يومه[٣].

وقيل: إنه لمَّا كبَّر تكبيرتين مات قبل انقضاء الصلاة، فتقدم مَرْوان بن الحَكَم فصلَّى عليه.

وقيل: إنه أوْصَى أن يصلِّي بالناس الضحّاك بن قيس حتى يقوم لهم خليفة.

وقيل له عند الموت: اعْهَدْ إلَى خالد بن يزيد، فقال: واللّهِ ما ذُقتُ حلاوة خلافتكم، فكيف أتقلَّد وزرها من بعدي!

ولم يكن لمعاوية هذا ولد.

وكان نقش خاتمه: «الدنيا غرور».

وكانت وفاته لخمس بَقِين من شهر ربيع الآخَر سنة أربع وستين.

وكانت مدة ولايته إلى حين وفاته أربعين يومًا، وقال المدائني: ثلاثة أشهر، وقال ابن إسحاق: عشرين يومًا.

---

(١) سعيد بن يزيد بن علقمة بن يزيد بن عوف الأزدي.

(٢) طُعن: أصابه الطاعون.

(٣) راجع ابن الأثير في الكامل جـ٤ ص١٣١.

ومات وله ثلاث وعشرون سنة، وقال العتبي: سبع عشرة سنة. والله تعالى أعلم.

فلنذكر أخبار من بُويع بالعراق وخُراسان في زمن هذه الفِتَن، بعد وفاة يزيد بن معاوية وابنه معاوية بن يزيد إلى أن خلص الأمر بالحجاز والعراق وخُراسان لعبد الله بن الزُّبَير.

ذكر أخبار من بويع بالعراق أو لم يتم أمره إلى أن بويع لعبد الله بن الزبير وما كان بالعراق من الوقائع في خلال ذلك

كان أوّل من بويع بالعراق بعد وفاة يزيدَ بن معاوية عُبيد الله بن زياد ابن أبيه، وذلك أنه لـمّا أتاه الخبر بوفاة يزيد، وبلغه ما الناس فيه بالشام من الاختلاف، أمر فنُودي: «الصلاةُ جامعة»، فاجتمع الناس، فصعِد المنبر، فنعَى يزيدَ وعرَّض بثَلْبِه[1]، لأن يزيد كان قد كرِهه قبل موته، وصرَّح بلعنه بسببِ قتل الحسين بن عليّ، حتى خافه عُبيد الله على نفسه، ثم قال عُبيد الله: «يا أهل البصرة إن مُهاجَرَنا إليكم، ودارنا فيكم، ومَولدي فيكم، ولقد وُلِّيتكم وما أُحصيَ ديوان مقاتلتكم إلا سبعين ألف مقاتل، ولقد أُحصيَ اليوم ثمانين ألف مقاتل، وما أُحصيَ ديوان عمالكم إلا تسعين ألفًا، ولقد أُحصيَ اليوم مائة ألف وأربعين ألفًا، وما تركْت لكم ذا ظِنَّة أخافه عليكم إلاَّ وهو في سجنكم، وإنَّ يزيد قد تُوُفِّي، وقد اختلف الناس بالشام، وأنتم اليوم أكثرُ الناس عددًا، وأعرضُه فِناء[2]، وأغناه عن الناس، وأوسعهم بلادًا، فاختاروا لأنفسكم رجلاً ترضَوْنه لدينكم وجماعتكم، فأنا أوّل راض بما رضيتموه لدينكم وجماعتكم، فإن اجتمع أهل الشام على رجل ترضَونه دخلتم فيما دخل فيه المسلمون، وإن كرهتم ذلك كنْتم علَى جَدِيلتكم[3] حتى تُعطَوْا حاجتكم، فما بكم إلى أحد من أهل البُلدان حاجة، وما يستغني الناس عنكم».

فقام خطباؤهم، وقالوا: قد سمعنا مقالتك، وما نعلم أحدًا أقوَى عليها منك، فَهَلُمَّ نبايعك، فقال: لا حاجةَ لي في ذلك. فكرروا عليه وهو يأبى عليهم ثلاثًا، ثم بسط يده فبايعوه ثم انصرفوا ومسحوا أيديَهم بالحيطان، وقالوا: أيظن ابن مَرْجانة إنَّا ننقادُ له في الجماعة والفرقة.

---

(١) بعيبه.
(٢) كناية عن سعة عمرانهم.
(٣) اتفاقكم.

قال: ولمّا بايعوه أرسل إلى أهل الكوفة مع عمرو بن مِسْمع وسعد بن قرحا التيمي يدعوهم إلى البيعة له، ويُعلمهم ما صنع أهل البصرة، فلمّا وصلا إلى الكوفة وكان خليفة عبيد الله عليها عمرو بن حُريث، فجمع الناس، وقام الرسولان فخطبا وذكرا ذلك للناس، فقام يزيد بن الحارث بن يزيد الشَّيباني وهو ابن رُويم، فقال الحمد لله الذي أراحنا من ابن سُميَّة، أنحن نبايعه؟ لا ولا كرامة. وحصبَهما الناسُ بعده، فشرَّفتْ هذه المقالة يزيد بن رُويم بالكوفة ورفعتْه، ورجع الرسولان إلى عُبَيد الله، فقال أهل البصرة: أيخلعه أهل الكوفة ونُولّيه نحن؟! فضعف سلطانه عندهم، فكان يأمر بالأمر فلا يُقْضى ويرى الرأيَ فيرَدُّ عليه، ويأمرُ بحبس المخطىء فيحالُ بين أعْوانه وبينه.

ثم جاء البصرة سلمة بن ذؤيب الحنظلي التميمي، فوقف في السوق وبيده لواء، وقال: أيها الناس، هَلُمُّوا إليّ، إني أدعوكم إلَى ما لم يَدْعُكم إليه أحد، أدعوكم إلى العائذ بالحرم، يعني عبد الله بن الزُّبَير. فاجتمع إليه ناس، وجعلوا يبايعونه، فبلغ الخبر ابنَ زياد، فجمع الناس فخطبهم وذكَّرهم بما كان من بَيعته وقال: إني بلغني أنكم مسحتم أكفكم بالحيطان وباب المسجد، وقلتم ما قلتم، إني آمرُ بالأمر فلا ينفذُ، ويُرَدُّ عليّ رأيي، ويحالُ بين أعواني وبين طِلْبتي، ثم هذا سَلَمة بن ذؤيب يدعوكم إلى الخلاف عليكم، ليفرِّقَ جماعتكم، ويضْرب بعضُكم رقابَ بعض!».

فقال الأحنف والناس: نحن نأتيك بسَلَمة، فأتَوْه، فإذا جَمْعه قد كَثُفَ والفَتْقُ[1] قد اتسع، فقعدوا عن ابن زياد فلم يأتوه فلما رأى ذلك أرسل إلى الحارث بن قيس بن صُهْبان الجهضمي الأزدي، فأحضره وسأله الهرب به، فقال: يا حارث إن أبي أوصاني إن احتجت إلى الهرب يومًا ما أن أختاركم، فقال الحارث: قد اختبرنا أباك فلم نجد عنده ولا عندك مكافأة، وما أدري كيف أتأتّى لك إن أخرجتك نهارًا أخاف أن تُقتلَ وأُقتلَ، ولكني أقيم معك إلى الليل، ثم أُردفك خلفي لئلاً نُعرفَ، فقال عُبيد الله، نِعْم ما رأيت، فأقام عنده، فلمّا كان الليل حَمَله خلفه، وكان في بيت المال تسعة عشر ألف ففرّق ابن زياد بعضَها في مَوَاليه، وادّخر الباقي لآل زياد.

قال: وسار الحارث بعُبيد الله، فكان يمرُّ به على الناس وهم يتحارسون مخافة الحَرُوريّة[2]، حتّى انتهوا إلى بني ناجية، فقال بنو ناجية: مَن أنت؟ قال: الحارث بن قيس. وعرف رجل منهم عُبيد الله، فقال: ابن مَرْجانَة! وأرسل سهمًا فوقع في عمامته.

---

(١) كناية عن القطيعة.

(٢) فرقة من فرق الخوارج مرّ التعريف بها.

ومضى به الحارث حتَّى أنزله في داره بالجهاضم؛ فقال له ابن زياد: «يا حارث، إنك قد أحسنت، فاصنع ما أُشير به عليك، قد علمت منزلة مسعود بن عمرو، وشرفه وسنَّه، وطاعة قومه له، فهل لك أن تذهب بي إليه فأكون في داره، فهي وسط الأزد؟ فإنك إن لم تفعل فُرِّق عليك أمر قومك، فأخذه الحارث فدخلا على مسعود فلم يشعر حتَّى رآهما، فقال للحارث: أعوذ بالله من شر ما طَرَقْتني به، قال: ما طرقتُك إلاَّ بخير، ولم يزل الحارث يلطف بمسعود في أمره حتَّى قال له: أتخرجه من بيتك بعدما دخله عليك؟! فأمره مسعود فدخل بيت أخيه عبد الغافر بن عمرو، ثم ركب مسعود من ليلته ومعه الحارث وجماعة من قومه، فطافوا بالأزد فقالوا: إن ابن زياد قد فُقد، وإنّا لا نأمنُ أن تَلطخوا به، فأصبحوا في السلاح، وفقد الناس ابن زياد فقالوا: ما هو إلا في الأزْد. وقيل: إن الحارث لم يكلم مسعودًا، بلْ أمر عبيد الله فحمل معه مائة ألف درهم وأتى بها أُمَّ بسطام امرأةَ مسعود وهي بنت عمّ الحارث ومعه عُبيد الله، فاستأذن عليها، فأذنت له. فقال: قد أتيتك بأمر تسودين به نساء العرب، وتتعجلين به الغنى، فأخبرها الخبر وأمرها أن تُدخل ابنَ زياد البيت، وتلبسه ثوبًا من ثياب مسعود، ففعلت، فلما جاء مسعود أخذ برأسها يضربها، فخرج عُبَيْد الله والحارث عليه، وقال: لقد أجارتْني وهذا ثوبك عليّ، وطعامك في بطني، وشهد الحارث، وتلطفوا به حتى رضي. فلم يزل ابن زياد في بيته حتَّى قتل مسعود، فسار إلى الشام على ما نذكره إن شاء الله.

قال: ولما فُقِد ابن زياد بقي أهل البصرة بغير أمير، فاختلفوا فيمن يؤمّرونه عليهم، ثم تراضَوْا بقيس بن الهيثم السُلَمي، وبنعمان بن سفيان ليختارا من يرتضيان لهم، وكان رأيُ قيس في بني أُمية، ورأيُ النعمان في بني هاشم، فقال النعمان: ما أرى أحدًا أحقُّ بهذا الأمر من فلان، لرجل من بني أُميّة. وقيل بل ذكر عبد الله بن الأسود الزهريّ، وكان هَوَى قيس فيه، وإنما قال النعمان ذلك خديعة ومكرًا بقيس، فقال قَيس: قد قلَّدتك أمري ورضيت من رضيتَ، ثم جاء إلى الناس، فقال قيس بن الهيثم: قد رضيتُ مَن رضي النعمان[1].

ذكر ولاية عبد الله بن الحارث البصرة

قال: ولما اتفق قيس والنُّعمان، ورضي قيس بمن يؤمِّره النعمان، أشهد عليه النعمان بذلك، وأخذ على قيس وعلى الناس العهود بالرضا.

---

(١) راجع الكامل في التاريخ جـ٤ ص١٣٥.

ثم أتى عبدَ الله بن الأسود، وأخذ بيده واشترط عليه، حتَّى ظَنَّ الناس أنه يبايعه، ثم تركه.

وأخذ بيد عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وهو الملقب «ببّه»[١] واشترط عليه مثل ذلك، ثم حمد الله وذكر النبيّ ﷺ وحقَّ أهل بيته وقرابته، ثم قال: «أيها الناس، ما تنقمون من رجل من بني عم نبيكم وأمّه هند بنت أبي سفيان، فإن كان الأمر فيهم فهو ابن أُختهم»، ثم أخذ بيده وقال: قد رضِيتُ لكم هذا، فنادَوْا: قد رضينا، وبايعوه، وأقبلوا به إلى دار الإمارة حتَّى نزلها. وذلك أول جمادى الآخرة سنة أربع وستين.

ذكر مقتل مسعود بن عمرو الأزدي وهَرب عُبيد الله بن زياد إلى الشام

قال: ثم إن الأزْد ورَبيعة جددوا الحِلف الذي كان بينهم، وأنفق ابن زياد مالاً كثيرًا فيهم حتَّى تمَّ الحِلْف، وكتبوا بينهم بذلك كتابين، فلمَّا تحالفوا اتفقوا علَى أن يردّوا ابن زياد إلَى دار الإمارة، فساروا ورئيسهم مسعود بن عمرو، فقال لابن زياد: سرْ معنا، فلم يفعلْ، وأرسل معه مَواليه على الخيل، وقال لهم: لا يَحْدُثَنَّ خيرٌ ولا شر إلا أنبأتموني به.

فجعل مسعود لا يأتي سكةً ولا يتجاوزُ قبيلةً إلاَّ أتَى بعضُ أولئك الموالي إلى ابن زياد بالخبر، وسارت ربيعة وعليهم مالك بن مسْمعَ فأخذوا سكة المِرْبد[٢]، وجاء مسعود فدخل المسجد وصعد المنبر، وعبد الله بن الحارث في دار الإمارة، فقيل له إن مسعود وأهل اليمن وربيعة قد ساروا وسَيهيج بين الناس شر، فلو أصلحت بينهم وركبت في بني تميم، فقال: أبعدهم الله، واللّهِ لا أفسدت نفسي في صلاحهم، وسار مالك بن مِسْمع نحو دور بني تميم حتى دخل سكة بني العدويّة، فحرق دورهم لما في نفسه منهم.

وجاء بنو تميم إلى الأحنف بن قيس فقالوا: يا أبا بحر، إن ربيعة والأزد قد تحالفوا وقد ساروا إلى الرحبة فدخلوها، فقال: لسْتم بأحقَّ بالمسجد منهم، فقالوا:

---

(١) مماثلة لصوت الطفل قبل أن ينطق صريحًا.

(٢) المربد: في البصرة من أشهر محالها، وكان فيها سوق الإبل قديمًا وفيها جرت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء. راجع ياقوت جـ٥ ص٩٧.

قد دخلوا الدار، فقال: لستم بأحقَّ بالدار منهم؛ فأتته امرأة بمجمر[١] وقالت له: ما لك وللرياسة؟! إنما أنت امرأة تتجمر.

ثم أتوه فقالوا: إن امرأة منا قد نُزِعت خلاخيلها، وقد قتلوا الصباغ الذي على طريقك، وقتلوا المُقعد الذي كان على باب المسجد. وقد دخل مالك بن مِسْمَع سكّة بني العَدَوية فحرق، فقال الأحنف: أقيموا البيِّنةَ علَى هذا، ففي بعض هذا ما يحلُّ به قتالهم! فشهدوا عنده على ذلك؛ فقال الأحنف: أجاء عبّاد بن حُصَين؟ قالوا لا، ثم قال: أجاء عبّاد؟ قالوا لا. قال: أهاهنا عبس بن طَلْق؟ قالوا: نعم؛ فدعاه فانتزع مِعجرًا[٢] من رأسه فعقده في رمح ثم دفعه إليه، فقال: سرْ، فسار وصاح الناس: «هاجت زبراء» وزبراء أمة للأحنف كَنَوْا بها عنه.

فسار عبس إلى المسجد، فقاتل الأزْدَ على أبوابه، ومسعود يخطب على المنبر. ثم أتوه فاستنزلوه وقتلوه، وذلك أول شوال سنة أربع وستين، وانهزم أصحابه.

وكان ابن زياد قد تهيأ لما صعد مسعود المنبر ليجيءَ دار الإمارة، فقيل له إن مسعود قد قُتل، فركب ولحق بالشام.

وأما مالك بن مِسْمع فأتاه ناس من مصر فحصروه في داره وحرقوه. ولما هرب ابن زياد تبعوه فأعجزهم، فنهبوا ما وجدوا له؛ ففي ذلك يقول واقد بن خليفة التميميّ: [من الرجز]

يا ربَّ جبَّارٍ شديدٍ كَلَبُهْ ... قد صار فينا تاجُه وسلَبُه
منهم عبيد الله حين تسلُبُه ... جيادهُ وبزهُ[٣] ونهبُه
يوم التقى مِقْنَبُنا ومقنبُه[٤] ... لو لم يُنَجِّ ابن زياد هربُه

وقد قيل في قتل مسعود ومسير ابن زياد غير ما قدمناه. وهو أنه لمّا ٱستجار ٱبْن زياد بمسعود بن عمرو وأجاره، ثم سار ابن زياد إلى الشام وأرسل معه مسعود مائة من الأزد حتَّى قدموا به إلى الشام، ولما سار من البصرة استخلف مسعودًا عليها، فقال بنو تميم وقيس: لا نرضى إلاَّ رجلاً ترضاه جماعتنا، فقال مسعود: قد استخلفني ولا أدعُ ذلك أبدًا، وخرج حتَّى أنتهى إلى القصر فدخله، واجتمعت تميم إلى الأحنف، فقالوا له: إن الأزد قد دخلوا المسجد قال: إنَّما هو لهم ولكم، قالوا: قد دخلوا القصر وصعِد مسعود المنبر.

---

(١) لعله أنية صغيرة يوضع فيها شحم الرطب أو زيته تستخدمه النساء للزينة.
(٢) العمامة. (٣) ثيابه.
(٤) المقنب: الفرقة من الخيالة.

وكانت خوارج قد خرجوا فنزلوا بنهر الأساورة حين خرج عبيد الله إلى الشام، فزَعم الناس أن الأحنف بعث إليهم: إن هذا الرجل الذي قد دخل القصر هو لنا ولكم عدوٌّ، فما يمنعكم منه؟! فجاءت عصابة منهم حتَّى دخلوا المسجد ومسعود علَى المنبر يبايع من أتاه، فرماه عِلْج يقال له مسلم من أهل فارس، كان قد دخل البصرة وأسلم ثم صار من الخوارج، فأصاب قلبه فقتله؛ فقال الناس: قتله الخوارج. فخرج الأزد إلى تلك الخوارج، فقتلوا منهم وجَرحوا، وطردوهم عن البصرة، ثم قيل للأزد: إن تميمًا قتلوا مسعودًا، فأرسلوا يسألون، فإذا ناس من تميم تقوله، فاجتمعت الأزد عند ذلك، فرأسوا عليهم زياد بن عمرو أخا مسعود، ومعهم مالك بن مسمع في ربيعة، وجاءت تميم إلى الأحنف يقولون: قد خرج القوم؛ وهو لا يتحرك، فأتته امرأةٌ بمجْمر فقالت: اجلسْ علَى هذا، أي إنما أنت امرأة، فخرج الأحنف في بني تَميم ومعهم من بالبصرة من قَيس، فالْتَقَوْا، فقُتِل منهم قَتْلَى كثيرة، فقال لهم بنو تميم: «يا معشر الأزد، اللّهَ اللّهَ في دمائنا ودمائكم، بيننا وبينكم القرآن، ومَنْ شئتم مِن أهل الإسلام، فإن كانت لكم علَينا بيِّنة فاختاروا أفضلَ رجل فينا فاقتلوه، وإن لم تكن لكم بيِّنة فإنا نحلفُ بالله ما قتلنا ولا أمَرْنا ولا نعلمُ له قاتل، وإن لم تريدوا ذلك فنحن نَدِي صاحبكم بمائة ألف درهم». وسَفَر[1] بينهم عبيد الله بن مَعْمر وعبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام، فطلبوا عشر دِيات، فأجابهم الأحنف إلَى ذلك، وأصطلحوا عليه.

قال: وأما عبد الله بن الحارث «بَبَّه» فإنه أقام يصلي بالناس حتَّى قدم عليهم عمر بن عبيد الله أميرًا من قبل ابن الزُّبير.

وقيل: كتب أبن الزبير إلى عمر بعهده على البصرة، فأتاه الكتاب وهو متوجه إلى العُمرة، فكتب عمر إلى أخيه عبيد الله يأمره أن يصلِّي بالناس، فصلّى بهم حتَّى قدم عمر، فبقي عمر أميرًا شهرًا، ثم قدم الحارث بن عبيد الله بن أبي ربيعة المخزومي فعزله ووليها الحارث.

وقيل: بل اعتزل عبد الله بن الحارث «بَبَّه» أهل البصرة بعد قتل مسعود، فكتب أهل البصرة بعد قتل مسعود إلى أبن الزُّبير، وكتب ابن الزُّبير إلى أَنَس بن مالك يأمره أن يصلي بالناس، فصلّى بهم أربعين يومًا.

هذا ما كان من أمر البصرة، فلنذكر خبر أهل الكوفة.

---

(١) أي كان رسولاً بينهم.

ذكر خبر أهل الكوفة
وما كان من أمرهم بعد ابن زياد
إلى أن بويع ابن الزبير

كان من خبرهم أنهم لما حَصَبوا رسُلَ ابن زياد على ما ذكرناه عزلوا خليفته عليهم وهو عمرو بن حريث، واجتمع الناس وقالوا: نؤمِّر علينا رجلاً إلى أن يجتمعَ الناس على خليفة، فاجتمعوا على عمر بن سعد بن أبي وَقّاص، فجاءت نساء هَمْدان يبكِين الحسين بن عليّ رضي الله عنهما ورجالُهم متقلدو السيوف، فأطافوا بالمنبر؛ فقال محمد بن الأشعث: جاء أمر غير ما كنّا فيه. وكانت كندة تقوم بأمر عمر بن سعد، لأنهم أخواله، فأجمعوا على عامر بن مسعود بن أمية بن خلف بن وهب الجمحي، فخطب أهل الكوفة فقال: إن لكل قوم أشرِبةً ولذّاتٍ فاطلبوها في مَظانّها[1]، وعليكم بما يَحِلُّ ويُحمد، واكسروا شرابَكم بالماء، وتوارَوْا عني بهذه الجُدْران.

فقال ابن همام[2]: [من البسيط]

اشربْ شرابك وانعمْ غير محسودِ ... واكسره بالماء لا تعصِ ابن مسعود
إنّ الأميرَ له في الخمر مأربةٌ ... فاشرب هنيئًا مريئًا غير تصريدِ
من ذا يحرِّم ماءَ المزن خالطه ... من قعر خابية ماءُ العناقيد[3]
إنـي لأكرهُ تشديدَ الرُّواة لنا ... فيها ويعجبني قول ابن مسعود

وكثير من الناس يظن أن ابن مسعود المذكور في هذا الشعر هو عبد الله ابن أُم عبد، صاحب رسول الله ﷺ وليس كذلك.

قال: ولمّا بايعه أهل الكوفة كتبوا بذلك إلى ابن الزُّبير فأقرَّه عليها، فمكث ثلاثة أشهر من مهلك يزيد بن معاوية، ثم استعمل عبدُ الله بن الزُّبير عبدَ الله بن يزيد الخَطْمي الأنصاريّ على الصلاة، وإبراهيم بن محمد بن طلحة على الخراج، واستعمل محمد بن الأشعث بن قيس على المَوْصِل.

(١) عبد الله بن همام بن نبيشة بن رياح السلولي.

(٢) من بني مرة بن صعصعة. لقب بالعطار لنضارة شعره. وقيل إنه هو الذي مرض يزيد بن معاوية على تولية ابنه معاوية. راجع الشعر والشعراء لابن قتيبة ص٢٤٨.

(٣) أراد الخمرة.

ذكر خبر خراسان
وما كان من أمر سلم بن زياد وبيعته
وخبر عبد الله بن خازم

كان من خبر خراسان أنه لما بلغ سلمَ بن زياد وهو العامل عليها موتُ يزيد بن معاوية كَتَم ذلك، فقال له ابن عَرَادة: [من الكامل]

يا أيّها الملكُ المغلّقُ بابَهُ ... حَدثتْ أُمورٌ شأنُهن عظيمُ
قَتْلَى بحَرّةَ[1] والذين بكابُلٍ[2] ... ويَزيدُ أُعلِنَ شَأنُه المكتومُ
أبَني أُميةَ إنّ آخرَ مُلككُم ... جَسَدٌ بجُوّازينَ[3] ثَمَّ مُقيمُ[4]
طَرَقَتْ مَنيَّتُهُ وعندَ وسَاده ... كُوبٌ وزِقٌّ راعِفٌ مَرْثُومُ[5]
ومُرِنَّةٌ[6] تبكي على نشواتِهِ ... بالصنجِ تقعدُ مَرةً وتقُومُ

فلما ظهر شعره أظهر سَلْم موت يزيد بن معاوية ومعاوية بن يزيد، ودعا الناسَ إلى البَيْعة على الرضا حتّى تستقيمَ أُمور الناس على خليفة، فبايعوه، ثم نكثوا به بعد شهرين، فلمّا خلعوه خرج عنهم واستخلف المهلَّب بن أبي صُفْرة، فلما كان بسَرَخْس[7] لقيه سليمان بن مَرْثَد أحد بني قيس بن ثعلبة بن ربيعة، فقال له: أضاقت عليك نزار حتى خلَّفت على خُراسان رجلاً من اليمن، يعني المهلب. فولاه مَرْو الرُّوز[8]، والفارياب[9]، والطالقان[10]، والجزجان[11]. ووَلّى أوْس بن ثعلبة بن زُفرر وهو صاحب قصر أوس بالبصرة، هَراة[12]، فلما وصل سَلْم إلى نَيْسابور[13]

---

(١) كناية عن الخمرة.
(٢) مرَّ التعريف بهما.
(٣)(٤) لعلهما اسمان لموقعين.
(٥) مرثوم: القدح فيه ثلوم أو شقوق يتقطر من خلالها السائل.
(٦) الرنين: البكاء بأسف، وكنى بها عن المغنية.
(٧) سرخس: مدينة قديمة من نواحي خراسان، وهي بين نيسابور ومرو في وسط الطريق، وبينها وبين كل واحدة ست مراحل. راجع ياقوت جـ٣ ص٢٠٨.
(٨) مرّ التعريف بهما.
(٩) فارياب: مدينة مشهورة بخراسان من أعمال جوزخان قرب بلخ غربي جيحون. راجع ياقوت جـ٤ ص٢٢٩.
(١٠) طالقان: أكبر مدن طخارستان بين مرو الروذ وبخلخ. راجع ياقوت جـ٤ ص٦.
(١١) من نواحي فارس.
(١٢) هراة: مدينة عظيمة من مدن خراسان. راجع ياقوت جـ٥ ص٣٩٦.
(١٣) نيسابور: مدينة عظيمة ما بين جيحون والقادسية. راجع ياقوت جـ٥ ص٣٣١.

لقيه عبد الله بن خازم، فقال له: من ولّيت خراسان؟ فأخبره فقال: «أما وجدت من مُضَر من تستعلمه، حتى فَرّقت خراسان بين بكر بن وائل واليمن! اكتب لي عهدًا على خراسان»؛ فكتب له وأعطاه مائة ألف درهم.

وسار ابن خازم إلى مرْو، وبلغ خبره المهلّب، فأقبل فاستخلف رجلًا من بني جُشَم بن سعد بن زيد مناة بن تميم، فلمّا وصلها ابن خازم منعه الجُشَميّ، وجرت بينهما مناوشة، فأصابت الجُشَميَّ رمْيَةٌ في جَبهته، وتحاجزا[١]، ودخلهما ابن خازم، ومات الجُشَميّ بعد ذلك بيومين.

ثم سار ابن خازم إلى مَرْو فقاتله سليمان بن مرثد أيامًا، فقُتل سليمان، ثم سار ابن خازِم إلى عمرو بن مرثدِ وهو بالطَّالقَان فاقتتلوا فقُتل عمرو بنَ مَرْثد، وانهزم أصحابه، فلحقوا بهرَاة بأوس بن ثعلبة، ورجع ابن خازم إلى مَرْو.

وهرب من كان بمَرْو الرُّوذ من بكر بن وائل إلى هَرَاة، وانضمّ إليها من كان بكور خُراسان من بكر، فكثر جمعهم، وقالوا لأوس بن ثعلبة: نبايعك على أن تسير إلى ابن خازم وتُخرج مُضَر من خُراسان، فأبى عليهم فهمُّوا بمبايعة غيره، فأجابهم، فبايعوه، فسار إليهم ابن خازم فنزل على وادٍ بينه وبين هَرَاة، فأشار البَكْريّون بالخروج من هَرَاة وعمل خَنْدق، فقال أوْس: بل نلزم المدينة فإنها حصينة، وأُطاوِل[٢] ابن خازم ليَضْجَر ويُعطينا ما نريد، فأبَوْا عليه، وخرجوا فَخنْدقوا[٣] خندقًا. وقاتلهم ابن خازم نحو سنة.

فنادى هلالٌ الضَّبيّ وهو من أصحابه فقال: «إنما تقاتلُ إخوتك وبني أبيك، فإن نلت منهم الذي تريد فما في العيش خيرٌ، فلو أعطيتَهم شيئًا يرضَوْن به، وأصلحتَ هذا الأمر!» فقال: واللّهِ لو خرجنا إلَيهم عن خُراسان[٤] ما رضُوا»! فقال هلال: لا واللّهِ لا أُقاتلُ معك أنا ولا رجل يطيعني حتى تُعذِر[٥] إليهم! قال: فأنت رسولي إلَيهم فأرضِهم.

فأتَى هلال إلى أوس بن ثعلبة، فناشَدَه الله والقرابَة في نزار، وأن يحفظ دماءها، فقال: هل لقيت بني صُهيب؟ قال: لا، قال: فألقهمْ. وبنو صهيب هم موالي بني جحْدر، وهم الذين ألزموا أوس بن ثعلبة بالقتال، فخرج هلال من عند

---

(١) الحجزة في الإزار معقده، كأنه أراد تدافعا.

(٢) طاوله: إذا أقام يناجزه ما أقام. والضيقة صنيعة مكاثرة، والمراد أن نطاوله ما طاولنا ونزيد عليه.

(٣) خندقوا: أراد حفروا خندقًا مشتقًا من الاسم فعلًا.

(٤) أراد لو أعطيناهم خراسان كلها...

(٥) أراد حتى تأخذ بعذرهم، وتسمع لحجتهم.

أوس فلقي جماعة من رؤساء أصحابه، فأخبرهم ما أتَى له، فقالوا له: هل لقِيت بني صُهيب؟ فقال: لقد عظُم أمر بني صُهيب عندكم! فأتاهم يكلِّمهم، فقالوا: والله لولا أنك رسول لقتلناك. قال: فما يرضيكم شيءٌ؟

قالوا: «واحد من اثنين؛ إما أن تخرجوا من خراسان، وإما أن تقيموا وتخرجوا لنا كل سلاحٍ وكراعٍ[1] وذهب وفضة». فرجع هلال إلى ابن خازم، فقال: ما عندك؟ فأخبره الخبرَ فقال: إن ربيعة لم تزل غِضَابًا على ربِّها منذ بعث نبيه من مضر!.

وأقام ابن خازم يقاتلهم، فلما طال مقامه ناداهم يومًا: يا معشر ربيعة، أرضيتم بني مِنْ خُراسان بخندقكم؟! فأحفظهم ذلك، فتنادَوا للقتال، فنهاهم أوس عن الخروج بجماعتهم، فعصوه، وخرجوا، فقاتَلوا ساعةً، ثم انهزموا، حتَّى انتهوا إلى خَنْدقهم، وتَفرَّقوا يمينًا وشمالاً، وسقطوا في الخَنْدق، وقُتلوا قَتْلاً ذريعًا، وهرب أوس بن ثعلبة وبه جراحات، وحَلَف ابن خازم لا يؤتى بأسير يومه ذلك إلا قتله وسار أوس بن ثعلبة إلى سجستان فمات بها أو قريبًا منها، وقتل من بكر يومئذ ثمانية آلاف، وغلب ابن خازم على هَراة واستعمل عليها ابنه محمدًا وضم إليه شماس بن دِثار العُطارديّ، وجعل بُكَير بن وِشاح الثَّقفيّ علَى شُرطته، ورجع ابن خازم إلى مرو.

وفي هذه السنة بعد موت يزيد خالف أهل الريّ، وكان عليهم الْفَرُّخان الرازي، فوجه إليهم عامر بن مسعود وهو أمير الكوفة محمدَ بن عُمير بن عطارد بن حاجب بن زرارة بن عدس التميمي الدَّارمي فهزمه أهل الريّ، فبعث إليهم عامرٌ عَتَّابَ بن ورقاء التميميّ، فالتقَوا واقتتلوا قتالاً شديدًا، فقتل الْفَرُّخان وانهزم المشركون.

هذا ما كان من أخبار العراق وخراسان بعد وفاة يزيد، فلنذكر أخبار عبد الله بن الزبير، وما تخلل أيامه من أخبار غيره التي حدثت في أعماله.

ذكر بيعة عبد الله بن الزبير
وما حدثت في أيامه من الوقائع والحوادث المتعلقة به
والكائن في أعمال ولايته

هو أبو خُبَيْب[2]، وقيل: أبو بكر عبد الله بن الزُبَيْر بن العوّام بن خُويلد بن أسد بن عبد العُزَّى بن قُصَيّ، يجتمع نسبه ونسب رسول الله ﷺ في قُصي، وأمه

(١) الكُرَاع: الخيل والبغال والحمير.

(٢) كنية عبد الله بن الزبير، فأكبر أولاد عبد الله كان اسمه خبيبًا.

أسماء بنت أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، وهي ذات النِّطاقين[١]، وهو أول مولود ولد بالمدينة من المسليمن بعد الهجرة.

وكان ابتداء أمره في البَيْعة له ما قدمناه؛ من خروجه من المدينة لما تُوُفِّي معاوية بن أبي سفيان، ووصوله إلى مكة، وأنه أقام بالبيت وقال: أنا العائذُ بهذا البيت.

فلما قُتِل الحسينُ بن علي رضي الله عنهما في سنة إحدى وستين كما ذكرنا، قام عبد الله في الناس فعَظَّم قتلَه، وعاب أهْلَ العراق عامّة، وأهْلَ الكوفة خاصّة، فحمِد الله تعالى وأثنَى عليه، وصلَّى علَى رسول الله ﷺ، ثم قال: إن أهل العراق غُدُرٌ فُجُرٌ إلا قليلاً، وإن أهل الكوفة شِرارُ أهلِ العراق، وإنهم دَعوْا حُسينًا لينصروه ويُولُّوه عليهم، فلمّا قدم علَيهم ثاروا عليه، فقالوا له: إمّا أن تضع يَدَك في أيدينا فنبعثَ بك إلى ابن زياد ابن سُمية فيُمْضي فيك حكمه، وإما أن تُحارب، فرأى واللّهِ أنه هو وأصحابه قليل في كثير، وإن كان اللّهُ لم يُطْلِع على الغيب أحدًا أنه مقتول، ولكنه اْختار الميتةَ الكريمة على الحياة الذميمة، فرحم الله حُسَينًا، وأخْزَى قاتله. لَعَمري لقد كان من خلافهم إيّاه، وعصيانهم، ما كان في مثله واعظٌ وناهٍ عنهم، ولكنه قَدَرٌ نازل، وإذا أراد الله أمرًا لم يُدْفَع، أَفَبَعْدَ لحسين يُطْمَأَنُّ إلَى هؤلاء القوم، ويُصدَّق قولُهم، ويُقْبَلُ لهم عهد؟ لا واللّهِ لا نراهم لذلك أهلاً، أمَ واللّهِ لقد قتلوه طويلاً بالليل قيامه، كثيرًا في النهار صيامه، أحقَّ بما هم فيه منهم وأوْلى به في الدين والفضل! أمَ والله ما كان يبدِّلُ بالقرآن الغِناء، ولا بالبُكاء من خشية الله الحُداء، ولا بالصيام شُرب الحرام، ولا بالمجالس في حَلَق الذكر الركضَ في تَطلاب الصَّيد، يعرِّضُ بيزيد ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

فثار إليه أصحابه، وقالوا: أظهِرْ بَيْعتك، فإنه لم يبق أحدٌ إذْ هلك الحسينُ ينازعك هذا الأمر. وقد كان عبد الله قبل ذلك يبايع سِرًّا، فقال لهم: لا تعجلوا. هذا وعمرو بن سعيد عامل مكة، وهو أشدُّ شيء على عبد الله بن الزُّبير، وهو مع ذلك يُداري ويَرْفُق.

فلما استقرّ عند يزيد ما قد جمع ابن الزبير من الجموع بمكة أعطَى اللّهَ عهدًا ليُوثِقَنَّه في سلسلة، فبعث إليه سِلسلةً من فضّة مع ابن عضادة الأشعري ومسعدة وأصحابهما ليأتوه به فيها، وبعث معهم بُرْنس خَزٍّ ليلبسه عليها لئلا تظهرَ للناس.

---

(١) أسماء بنت أبي بكر بن أبي قحافة، أمها أم رومان زوجة أبي بكر. راجع تراجم أعلام النساء جـ١ ص٢١٩.

فاجتاز أبو عضادة بالمدينة وبها مَرْوان بن الحكم، فأخبره بما قَدِم له، فأرسلَ مَرْوان معه وَلَدين له، أحدهُما عبد العزيز، وقال: إذا بلَّغته رسل يزيد الرسالة فتعرَّضا له، وليتمثل أحدكما بهذا الشعر: [من الطويل]

فخذها فليست للعزيز بخطَّةٍ   وفيها مقالٌ لامرىء متذلِّلِ
أعامر إن القوم ساموك خطةً   وذلك في الجيران عزلاً بمعزل
أراك إذا ما كنت للقوم ناصحًا   يقال له بالدلو أدبر وأقبل[1]

فلمّا بلَّغه الرسلُ الرّسالة أنشد عبد العزيز الأبيات، فقال ٱبن الزبير: يا بني مَرْوان قد سمعتُ ما قلتما فأخبرا أباكما: [من البسيط]

إني لمن نبعة[2] صُمٍّ مكاسرها   إذا تناوحتِ القصباءُ[3] والعُشَرُ[4]
فلا ألينُ لغير الحق أسألُه   حتى يلينَ لضرس الماضغ الحجرُ[5]

وامتنع من رسل يزيد.

فقال الوليد بنُ عُتْبة وناس من بني أُميّة ليزيد: لو شاء عمرو بن سعيد لأخذ ابن الزبير وبعث إليك به، فعزل يزيد عمرًا واستعمل الوليد بن عُتبة على الحجاز، فأقام الوليد يريد غِرّة عبد الله فلم يجده إلا مُتَحَذِّرًا ممتنعًا.

وثار نَجْدةُ بن عامر الحنفيّ باليمامة حين قُتل الحسين، وكان الوليد يفيض بالناس من المعرَّف[6]، ويقف ابن الزبير وأصحابه ونَجْدة وأصحابه، ثم يفيض ابن الزبير وأصحابه، ونجدة بأصحابه، لا يُفيض واحد منهم بإفاضة أحد. وكان نَجْدة يلقى عبد الله بن الزُّبَير ويكثر حتى ظنّ الناس أنه سيبايعه.

ثم كتب عبد الله بن الزبير إلى يزيد في شأن الوليد فعزله يزيد كما تقدم، واستعمل عثمان بن محمد بن أبي سفيان.

وكان من خبر أهل المدينة في خلافهم يزيد، ووقعة الحرّة، والحصار الأول ما قدمناه.

فلما مات يزيد بن معاوية بلغ الخبرُ عبد الله بنَ الزبير والحُصَين بن نُمَير ومن معه من عسكر الشام يحاصرونه، وقد اشتد حصارهم، فقال لهم عبدُ الله وأهلُ مكة:

---

(١) كناية من مستقى الماء.
(٢) الشجرة العظيمة ذات الأغصان العصية.
(٣) القصباء: نبات ضعيف واحدته قصبية.
(٤) العشر شجر قطني في أغصانه خور.
(٥) كناية عن استحالة الشيء.
(٦) من عرفة.

عَلامَ تقاتلون وقد هلك طاغِيتكم؟ فلم يُصدِّقوهم، فلما بلغ الحُصينَ خبر موت يزيد بعث إلى ابن الزبير فقال: موعد ما بيننا الليلة الأبطح[١]، فالتقيا وتحادثا فراث فرس الحُصَين، فجاء حَمام الحرم يلتقط رَوْث فرس الحصين، فَكَفَّ الحُصينُ فرسه عن الحمام، وقال: أخاف أن يقتل فرسي حَمام الحرم. فقال له ابن الزبير: تتحرجون من هذا وأنتم تقاتلون المسلمين في الحرم، فكان فيما قال له الحصين: «أنت أحقُّ بهذا الأمر، هَلُمَّ فلنبايعك، ثم اْخرج معي إلى الشام، فإن هذا الجند الذين معي هم وجوه أهل الشام وفرسانهم، فاللّهِ لا يختلفُ عليك اثنان، وتؤمّن الناس، وتهدر الدماء التي كانت بيننا وبينك، وبين أهل الحرة»، فقال له: أنا لا أهدر الدماء، والله لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة. وأخذ الحُصين يُكلِّمه سرًا وهو يجهر ويقول: والله لا أفعل، فقال له الحُصين: قبّح الله منْ يعُدُّك بعد هذا داهيًا أو أريبًا[٢]، قد كنت أظنُّ لك رأيًا، وأنا أُكلمك سرًّا، وتكلِّمني جهيرًا، وأدعوك إلى الخلافة، وتَعِدُني القتل والهلكة. ثم فارقه ورحل هو وأصحابه نحو المدينة.

وندم ابن الزُّبير علَى ما صنع، فأرسل إلى الحصين يقول: أما المسير إلى الشام فلا أفعله، ولكن بايعوا لي هناك، فإني مؤمّنكم وعادلٌ فيكم، فقال الحصين: إن لم تقدم بنفسك لا يمشي الأمر، فإن هنالك ناسًا من بني أُمية يطلبون هذا الأمر. وسار الحصين إلى المدينة فخرج معه بنو أُمية إلى الشام.

وبويع عبد الله بن الزبير بمكة لسبع بقين من رجب سنة أربع وستين، واْجتمع لعبد الله بن الزُّبير الحجاز والكوفة والبصرة والجزيرة وأهل الشام، إلاَّ أهل أُرْدُن[٣] ومصر.

ثم بويع مرْوان بن الحكم بالشام، فكان من أمره في وقعة مَرْج راهط ومسيره إلى مصر واستيلائه عليها ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخباره.

ذكر فراق الخوارج عبد الله وما كان من أمرهم

وفي سنة أربع وستين فارق الخوارج الذين كانوا قدموا مكة عبد الله بن الزُّبير، وكانوا قد قاتلوا معه أهل الشام.

---

(١) جبل بمكة. (٢) ذو العقل والحجى.

(٣) أردن: كورة واسعة منها الغور وطبرية وصور وعكا وما بين ذلك. راجع معجم ياقوت جـ١ ص١٤٧.

وكان سبب قدومهم عليه أنه لما اشتد عليهم عُبيد الله بن زياد بعد قتل أبي بلال، اجتمعوا وتذاكروا فأشار عليهم نافع بن الأزرق[١] أن يلحقوا بابن الزبير، وقال: إن كان على رأينا جاهدنا معه، وإن كان على غير رأينا دافعنا عن البيت، فلما قدموا عليه سُرَّ بمقدمهم وأخبرهم أنه على مثل رأيهم من غير استفسار، فقاتلوا معه أهل الشام، ثم اجتمعوا بعد وفاة يزيد وقالوا: إن الذي صنعتم بالأمس لغير رأي، تقاتلون مع رجل لا تدرون، لعله ليس على مثل رأيكم، وقد كان أمس يقاتلكم هو وأبوه، وينادِي «يا ثاراتِ عثمان» فاجتمعوا إليه فسألوه عن عثمان، فنظر فإذا أصحابه حوله قليل فقال: إنكم أتيتموني حين أردْت القيام، ولكن ائتوني عشية النهار حتى أعلمكم؛ فانصرفوا.

وبعث ابن الزبير إلى أصحابه، فاجتمعوا عنده بأيديهم العُهُد[٢]. فقال ابن الأزرق: إن الرجل قد أزمع خلافكم، فتقدم إليه نافع بن الأزرق وعبيدة بن هلال، فقال عُبيدة: بعد أن حمد الله وأثنى عليه، وذكر رسول الله ﷺ، وأنه عمل بكتاب الله حتَّى قبضه الله، واستخلف الناس أبا بكر، واستخلف أبو بكر عمر، فكلاهما عمل بكتاب الله وسنّة رسوله، ثم إن الناس استخلفوا عثمان. ونقصه، وقبح أفعاله، وتبرأ منه، ووالى قتلته، ثم قال: فما تقول أنت يا ابن الزبير؟! فحمد ابن الزبير الله وأثنى عليه، ثم قال: قد فهمت الذي ذكرتَ به النبيَّ ﷺ فهو فوق ما ذكرت، وفوق ما وصفت، وفهمتُ الذي ذكرتَ به أبا بكر وعمر وقد وُفِّقتَ وأصبت، وفهمت الذي ذكرت به عثمان، وإني لا أعلمُ مكان أحد من خلق الله اليوم أعلم بابن عفان وأمره مني، كنت معه حيث نقم القوم عليه واستعتبوه فلم يدع شيئًا إلا أعتبهم منه، ثم رجعوا إليه بكتاب له يزعمون أنه كتبه يأمر فيه بقتلهم، فقال لهم: ما كتبته، فإن شئتم فهاتوا بيِّنتكم، فإن لم تكن حلفت لكم. فوالله ما جاؤوه ببينة، ولا استحلفوه، ووثبوا عليه فقتلوه، وقد سمعت ما عبته به، فليس كذلك، بل هو لكل خير أهل، وأنا أُشهدكم ومن حضرني أني وليٌّ لابن عفَّان، وعدوّ أعدائه. قالوا: فبرىء الله منك، قال: بل برىء الله منكم.

وتَفرَّق القوم، فأقبل نافع بن الأزرق الحنظلي، وعبد الله بن صفَّار السَّعديّ، وعبد الله بن إباض، وحنظلة بن بَيْهَس، وبنو الماحوز؛ عبد الله وعبيد الله والزُّبير من

---

(١) نافع بن الأزرق بن قيس الحنفي البكري الوائلي الحروري كنيته أبو راشد، رأس فرقة الأزارقة من الخوارج.

(٢) ما كان بأيديهم من عهود لعلها عهود ابن عفان رضي الله عنه لأهل مصر.

بني سليط بن يربوع، وكلهم من تميم، حتَّى أتَوا البصرة، وانطلق أبو طالوت من بني بكر بن وائل، وأبو فُديك عبد الله بن ثور من قيس بن ثعلبة، وعطية بن الأسود اليشكري، إلى اليمامة، فوثبوا بها مع أبي طالوت، ثم اجتمعوا بعد ذلك على نَجْدة بن عامر الحنفيّ وتركوا أبا طالوت.

فأما نافع بن الأزرق ومن معه فإنهم قدموا البصرة فتذاكروا الجهاد وفضيلته، وخرج في ثلاثمائة، وذلك عند وثوب الناس بابن زياد، وكسر الخوارج باب السجن وخرجوا، واشتغل الناس عنهم بحرب الأزد وربيعة وتميم، فلما استقر أمر عبد الله بن الحارث بالبصرة تجرد الناس للخوارج وأخافوهم، فلحق نافع بالأهواز في شوال سنة أربع وستين واشتدت شوكته، وكثرت جموعه، وأقام بالأهواز.

وحيث ذكرنا الخوارج، فلنذكر ما كان من أمرهم في أيام عبد الله بن الزُبير إلى نهايته، ثم نذكر ما سوى ذلك.

ذكر مقتل نافع بن الأزرق أمير الخوارج وغيره منهم

وفي سنة خمس وستين اشتدت شوكة نافع بن الأزرق، وهو الذي تنسب إليه الأزارقة من الخوارج، وكثرت جموعه، وأقبل بهم نحو الجسر، فبعث إليه عبدُ الله بن الحارث أميرُ البصرة مُسلَ بن عُبَيْس بن كُرَيْز بن ربيعة، فخرج إليه فدفعه عن أرض البصرة حتى بلغ دَوْلاَب من أرض الأهواز[١]، فاقتتلوا هناك فقتل مسلم أمير أهل البصرة ونافع بن الأزرق رئيس الخوارج، وكان مقتلهما في جُمادَى الآخرة.

فأمّر أهل البصرة عليهم الحجاج بن باب الحميريّ، وأمرت الخوارج عبد الله بن الماحوز التميمي، فاقتتلوا فقتل الحجاج وعبدُ الله، فأمَّر أهْل البصرة ربيعة بن الأجذم التميمي، وأمّرت الخوارج عبيد الله بن الماحوز، واقتتلوا حتى أمْسَوُا وقد ملّوا القتال، وكره بعضهم بعضًا، فبينما هم كذلك إذ جاءت سرية للخوارج لم تشهد القتال فهزمت جيش البصرة، وقتل أميرهم ربيعة، فأخذ الراية حارثة بن بدر فقاتل ساعة بعد أن ذهب الناس عنه، ثم سار ونزل الأهواز، وبعث ابن الزبير الحارث بن أبي ربيعة على البصرة كما ذكرناه، فأقبلت الخوارج نحو البصرة حتى قربوا منها، فأتى أهلها الأحنف بن قيس وسألوه أن يتولى حربهم، فأشار عليهم بالمهلّب بن أبي صُفْرة.

---

(١) دولاب: قرية بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ. راجع ياقوت جـ٢ ص٢.

ذكر محاربة المهلب الخوارج
وقتل أميرهم عبيد الله بن الماحوز

كان المهلَّب قد قدِم مِن قبَل عبد الله بن الزُّبير لولاية خُراسان فخرج إليه أشراف أهل البصرة وكلَّموه في حرب الخوارج، فأبى عليهم، فكلمه الحارث بن ربيعة، فاعتذر بولاية خراسان، فوضع الحارث وأهل البصرة كتابًا عن ابن الزُّبير إلى المهلَّب يأمره بقتال الخوارج، وأتوه به، فلما قرأه قال: والله ما أسير إليهم إلا أن يجعلوا إليَّ ما غلبتُ عليه، ويُعطوني من بيت المال ما أقوّي به من معي، فأجابوه إلى ذلك.

واختار المهلب من أهل البصرة اثني عشر ألفًا؛ منهم محمد بن واسع، وعبد الله بن رباح الأنصاري، ومعاوية بن قُرّة المزنيّ، وأبو عمران الجوْني وغيرهم. وخرج إلى الخوارج وهم عند الجسر الأصغر فحاربهم ودفعهم عنه، وتبعهم حتَّى بلغوا الأهواز، واقتتلوا هناك. ودامت الحرب، وقُتِل المُعَارك بن أبي صُفْرة أخو المهلب، ثم هُزم جيش المهلَّب وثبت هو، فاجتمع عليه جماعة ممن انهزم، ثم عادوا للقتال، وأبْلَى بلاءً حسنًا فهزموه، فبلغ بعض من معه البصرة وجاءت أهلها وأسرع المهلَّب حتَّى سبق المنهزمين إلَى تَلِّ عالٍ، ثم نادَى: إليَّ عباد الله؛ فاجتمع إليه ثلاثة آلاف أكثرهم من قومه فعاد إلى الخوارج وقد أمنوا، وسار بعضهم خلف الجيش الذي انهزم، فأوقع بهم المهلَّب وقتل رئيسُهم عبيد الله بن الماحوز، فاستخلفوا الزبير بن الماحوز، وعاد الذين تبعوا المنهزمين، فوجدوا المهلَّب قد وضع لهم خيلاً فرجعوا منهزمين، وأقام المهلَّب موضعه حتَّى قدم مُصْعَب بن الزُّبير أميرًا على البصرة من قبل أخيه عبد الله.

وقيل: كانت هذه الواقعة في سنة ستٍّ وستِّين، وذلك أن المهلَّب لمَّا دفع الخوارج عن البصرة إلى ناحية الأهواز أقام بقية سنته يَجبي كُورَ دجلة ورَزَقَ أصحابه، وأتاه المَدَد من البصرة حتَّى بلغ ثلاثين ألفًا.

قال: ثم استعمل مُصْعَب بن الزُّبَير لما وليَ العراق نائبه عمر بن عبيد الله بن معمر على فارس، وولاَّه حرب الأزارقة بعد أن تَوجَّه المهلَّب إلى الموصل والجزيرة وأرمينية[1] على ما نذكره إن شاء الله.

---

(١) أرمينية: صقع عظيم فيه مدن كثيرة مسكونة على حدود فارس. راجع ياقوت جا ص١٥٩.

فلما بلغ الخوارج ولايته تقدموا إلى إصْطَخر[١]، وأميرهم يوم ذاك الزُّبير بن الماحوز، فندب إليهم عمرُ ابنَه عبيد الله في خيل، فاقتتلوا فقُتل عُبيد الله بن عمر، وقاتل عمر بن عبيد الله الخوارج فقُتل من فرسانهم سبعون رجلًا، وانهزم الخوارج وقصدوا نحو أصبهان[٢]، فأقاموا حتَّى قَوُوا واستعدوا وأقبلوا حتَّى مروا بفارس وبها عمر، فقطعوها من غير الموضع الذي هو به حتى أتَوا الأهواز.

فكتب إليه مُصْعب يلومه في تمكينهم من قطع جهته، فسار عمر من فارس في أثرهم، وخرج مُصعب فعسكر عند الجسر الأكبر.

وبلغ الخوارج وهم بالأهواز إقبال عمر عليهم، فقطعوا أرض جُوخَى والنهر وأنات وأتوا المدائن، وبها كردَم بن مَرْثد الفزاري، فشنُّوا الغارة على أهل المدائن، يقتلون الرجال والنساء والولدان، ويشقُّون أجواف الحوامل، فهرب كَرْدَم، وأقبلوا إلى ساباط، ووضعوا السيف، وأفسدوا إفسادًا عظيمًا.

وأتوا أرض الكوفة فخرج إليهم الحارث بن أبي ربيعة أميرُها، فتوجهوا حتى أتوا المدائن فأتْبعهم الحارثُ عبدَ الرحمٰن بن مخْنَف في ستة آلاف ليخرجهم من أرض الكوفة، فتبعهم حتَّى وقعوا في أرض أصبهان، فرجع ولم يقاتلهم.

وقصدوا الرَّيَّ وعليها يزيد بن الحارث بن رُوَيم الشَّيباني فقاتلهم، فأعان أهل الرَّي الخوارج، فقُتل يزيد وهرب ابنه حَوْشب.

ولمّا فرغ الخوارجُ من الريّ شخصوا إلى أصبهان فاصروها وبها عتَّاب بن ورْقاء، فصبر لهم وقاتلهم، فكمن له رجل من الخوارج وضربه بالسيف على حبل عاتقه فصرعه، فاحتمله أصحابه وداووه حتَّى برىء، وداوم الخوارج حصارهم حتى نفدت أطعمتهم وأصابهم الجهد، فقام عتَّاب في أصحابه، وحَرَّضهم على أن يصدقُوهم القتال، فأجابوه إلى ذلك، وخرج بهم إلى الخوارج وهم آمنون، فقاتلوهم حتَّى أخرجوهم من معسكرهم، وقتلوا أميرهم الزُّبير بن الماحوز.

ففزعت الخوارج إلى أبي نَعامة قَطَريّ بن الفُجاءة المازنيّ[٣] فبايعوه، وأصاب

---

(١) إصطخر مدينة من أقدم مدن فارس، بين إصطخر وشيراز اثنا عشر فرسخًا. راجع ياقوت جـ١ ص٢١١.

(٢) أصبهان: مدينة عظيمة وناحية واسعة من بلاد فارس.

(٣) قطري بن الفجاءة بن مازن بن يزيد الكناني المازني التميمي، رأس من رؤساء الخوارج الأزارقة.

عتَّاب ومن معه من عسكرهم ما شاؤوا، وسارت الخوارج عن أصبهان إلى كرمان[١]، فأقاموا بها حتَّى اجتمع إلى أميرهم قَطَري جموع كثيرة، وجَبَى الأموال وقويَ، ثم أقبل إلى أصبهان، ثم أتى أرض الأهواز فأقام بها، فبعث مُصْعب إلى المهلَّب فأمره بقتال الخوارج، وبعث إلى عامله بالموصل والجزيرة إبراهيم بن الأشتر، فقدم الهلَّب البصرة، وانتخب الناس وسار نحو الخوارج، وأقبلوا إليه حتى التقوا بسولاف[٢]، فاقتتلوا ثمانية أشهر أشدَّ قتال رآه الناس، وذلك في سنة ثمان وستين.

هذا ما أمكن إيراده من أخبار الخوارج في أيام ابن الزُّبير فلنذكر خلاف ذلك.

ذكر خبر التوابين وما كان من أمرهم وأخبارها إلى أن قتلوا

وإنما ذكرنا خبر التوابين في هذا الموضع في أخبار عبد الله بن الزبير؛ لأن ظهورهم ومقتلهم كان في أيامه، ومن بلد داخل تحت حكمه، ونحن نذكر مبدأ أمرهم، وقد ذكرهم ابن الأثير الجزري رحمه الله في تاريخه الكامل في حوادث سنة أربع وستين، وسنة خمس وستين.

قال: ولما قُتل الحسين بن علي رضي الله عنهما كما ذكرنا تَلاَقت الشِّيعةُ بالتَّلاوُم والندم علَى ما صدَر منهم، من استدعائهم الحسين وخذلانه حتى قُتل، ورأوا أنهم لا يغسلُ عنهم العارَ والإثم الذي ارتكبوه إلاَّ قتل من قتله أو القتل فيه.

فاجتمعوا بالكوفة إلى خمس نفر من رؤوس الشِّيعة، وهم: سليمان بن صُرَد الخزاعي، وكانت له صحبة، والمسيَّب بن نَجبَة الفَزاري وكان من أصحاب عليّ وخيارهم، وعبد الله بن مسعود بن نُفيل الأزدي، وعبد الله بن وال التيمي، تيم بكر بن وائل، ورفاعة بن شداد البَجَلي، فاجتمعوا في منزل سليمان بن صُرَد فبدأهم المسيب بن نَجبَة فقال بعد حمد الله: «أما بعد، فإنا ابتلينا بطول العمر، والتعرض لأنواع الفتن، فنرغب إلى ربِّنا أن لا يجعلنا ممن يقول له غدًا: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧] وإن أمير المؤمنين قال: العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة، وليس فينا رجل إلا وقد بلغه، وقد كنا مغرمين بتزكية أنفسنا،

(١) كرمان: مدينة مشهورة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن بين فارس ومكران. راجع ياقوت جـ٤ ص٤٥٤.

(٢) سولاف: قرية في غربي دجيل من أرض خوزستان. راجع ياقوت جـ٣ ص٢٨٥.

فوجدنا اللَّهُ كاذبين في كل موطن من مواطن ابن ابنة نبيه محمد ﷺ، وقد بلغنا قبل ذلك كتبه ورسله، وأعذر إلينا فسألنا نصره عَودًا وبَدءًا، وعلانية وسرًّا، فبخلنا عنه بأنفسنا حتَّى قُتل إلى جانبنا، لا نحن نصرناه بأيدينا ولا جدلْنا[1] عنه بألسنتنا، ولا قويناه بأموالنا، ولا طلبنا له النُّصرة إلى عشائرنا، فما عُذْرنا عند ربنا وعند لقاء نبينا، وقد قُتل فينا ولده وحبيبه، وذرِّيته ونَسْلُه! لا والله لا عذرَ دُونَ أن تَقتلوا قاتله والمُوَالين عليه أو تُقتلوا في طلب ذلك، فعسَى ربُّنا أن يرضى عنا عند ذلك، وما أنا بعد لقائه لعقوبته بآمن: أيها القوم، ولُّوا عليكم رجلًا منكم، فإنه لا بُدَّ لكم من أمير تفزعون إليه، ورايةٍ تَحفُّون بها».

فقام رفاعة بن شداد فقال: «أمَّا بعْدُ فإن الله قد هداك لأصْوب القول، وبدأت بأرشد الأمور بدعائك إلى جهاد الفاسقين وإلى التوبة من الذنب العظيم، فمسموع منك مستجاب إلى قولك، وقلتَ: ولُّوا أمركم رجلًا تفزَعون إليه وتحفُّون برايته، وقد رأيْنا مثلَ الذي رأيتَ، فإن تكن أنت ذلك الرجل تكن عندنا مرْضيًّا وفينا مستنصحًا وفي جماعتنا محبًّا، وإن رأيت ورأى ذلك أصحابنا ولَّينا هذا الأمر شيخَ الشيعة صاحبَ رسول الله ﷺ وذا السابقة والقَدَم سُليمانَ بن صُرَد المحمودَ في بأسه ودينه الموثوقَ بحزمه».

وتكلم عبد الله بن وأل وعبد الله بن سعد بنحو ذلك، وأثنيا على سليمان والمُسَيَّب، فقال المسيب: قد أصبتم فولُّوا أمركم سليمان بن صرد.

فتكلم سُليمان بن صُرَد بكلام كثير حضهم فيه على القيام وطلب ثأر الحسين وقتل قَتَلته أو القتل دون ذلك.

وكتب إلى سعد بن حُذَيفة بن اليَمان يُعلمه بما عزموا علَيه ويدعوه إلى مساعدتهم هو ومن معه من الشيعة بالمدائن، فقرأ سعد الكتاب على من بالمدائن من الشيعة فأجابوا إلى ذلك.

وكتب سليمان أيضًا إلى المثَنَّى فأجابه: إننا مَعْشَرَ الشيعة حمدْنا الله علَى ما عزمتم عليه، ونحن موافوك إن شاء الله للأجل الذي ضربتَ.

قال: وكان أولُ ما ابتدؤوا به أمرهم بعد قتل الحسين في سنة إحدى وستين، فما زالوا في جمع آلة الحرب ودعاء الناس، في السر إلى أن هلك يزيد بن معاوية في سنة أربع وستين، فجاء إلى سليمانَ أصحابهُ فقالوا: قد مات هذا الطاغية، والأمرُ

---

(١) من الجدل وهو القول الطويل في أمر مخصوص.

ضعيفٌ، فإن شئتَ وثبنا على عمرو بن حريث، وكان خليفة ابن زياد على الكوفة، ثم أظهرنا الطلب بدم الحسين وتتبعنا قَتَلَته ثم ندعو الناس إلى أهل هذا البيت. فقال لهم سليمان: «لا تَعجَلوا، إني قد نظرت فيما ذكرتم، فرأيت قَتَلَةَ الحسين هم أشراف الكوفة وفرسان العرب، ومتى علموا ذلك كانوا أشدَّ عليكم، ونظرتُ فيمن تبعني منكم فعلمتُ أنهم لو خرجوا لم يدركوا ثأرهم ولم يشفوا نفوسهم وكانوا جَزَرًا[١] لعدوِّهم ولكن بثُّوا دُعاتكم وادعوا إلى أمركم»؛ ففعلوا فاستجاب لهم ناس كثير[٢].

ثم إن أهل الكوفة أخرجوا عمرو بن حريث وبايعوا لابن الزبير، فلما مضت ستة أشهر من وفاة يزيد قدم المختار بن أبي عُبيد إلى الكوفة في النصف من شهر رمضان، وقدم عبد الله بن زيد الخطمي الأنصاري أميرًا على الكوفة من قِبَل عبد الله بن الزُّبير لثمان خلَون من شهر رمضان، وقدم إبراهيم بن محمد بن طلحة معه على الخراج.

فأخذ المختار بن أبي عبيد يدعو الناس إلى قتله قَتَلة حسين ويقول: جئتكم من عند المهدي محمد ابن الحنفية وزيرًا أمينًا، فرجع إليه طائفة من الشيعة، وكان يقول: إنما يريد سليمان أن يخرج فيقتل نفسه ومن معه، وليس له خبرة بالحرب.

وبلغ الخبرُ عبدَ الله بن يزيد أن سليمان يريد الخروج بالكوفة عليه، وأُشير عليه بحبسه، وخُوِّف عاقبةَ أمره إن تركه، فقال عبد الله: إنْ هم قاتلونا قاتلناهم، وإنْ تركونا لا نطلبهم، إنَّ هؤلاء القوم يطلبون قَتَلَة الحسين، ولستُ ممن قتله، لعن الله قاتله، ثم صعدا إلى المنبر فقال: بلغني أن طائفةً منكم أرادوا أن يخرجوا علينا، فسألت عنه فقيل إنهم يطلبون بدم الحسين، فرحم الله هؤلاء القوم، فقد واللّهِ دُلِلْتُ علَى مكانهم، وأُمرت بأخذهم، فأبَيْتُ، وقلت إن قاتلوني قاتلتهم، وعَلامَ يقاتلوني؟ فواللّهِ ما أنا قتلت حسينًا، ولقد واللّهِ أُصبت بمقتله رحمة الله عليه، وإن هؤلاء القوم آمنون، فليخرجوا ظاهرين، وليسيروا إلى من قاتل الحسين، فقد أقبل إليهم، يعني عبيد الله بن زياد، فأنا لهم ظَهِير[٣]، هذا ابن زياد قاتل الحسين، وقاتل خياركم وأمثالكم، فقد توجه إليكم وقد فارقوه على ليلة من جسر مَنْبج[٤]، فقتاله والاستعداد له أولَى من أن تجعلوا بأسكم بينكم، فيقتل بعضكم بعضًا، فيلقاكم عدوكم وقد رققتم

---

(١) ضحايا.

(٢) راجع الكامل لابن الأثير بزيادة جـ٤ ص١٧٥ وما بعدها.

(٣) معين.

(٤) منبج: مدينة كبيرة بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ وبينها وبين حلب عشرة فراسخ. راجع ياقوت جـ٥ ص٢٠٥.

فنهلِك، وتلك أُمنيته، وقد قدِم عليكم أغدَى خلق الله لكم، مَن ولى عليكم هو وأبوه سبع سنين لا يُقلعان عن قتل أهل العفاف والدين، هو الذي قتلكم ومن قبَلِه أُتيتم، والذي قتل من تنادُون بدمه، قد جاءكم فاستقبلوه بحدِّكم وشَوكتكم واجعلوها به ولا تجعلوها بأنفسكم إني لكم ناصح.

وكان مروان بن الحكم قد بويع بالشام على ما نذكره، وبعث عُبيدَ الله بن زياد إلى الجزيرة، وأمره إذا فرغ منها أن يسير إلى العراق.

قال: فلما فرغ عبد الله بن يزيد من كلامه قال إبراهيم بن محمد بن طلحة: «أيها الناس، لا يغرنَّكم من السيف والغشم مقالة هذا المداهن، والله لئن خرج علينا خارج لنقتلنَّه، ولئن استيقنَّا أن قومًا يريدون الخروج علينا لنأخذن الوالد بولده والمولود بوالده والحميم بالحميم والعريف بما في عرافته، حتَّى يدِينوا للحق والطاعة».

فوثب إليه المسيب بن نَجَبة فقطع عليه منطقه، ثم قال: يا ابن الناكثين، أنت تهددنا بسيفك وحشمك! أنت والله أذلُّ من ذلك، إنّا لا نلومك علَى بغضنا وقد قتلنا أباك وجَدك، وأما أنت أيها الأمير فقد قلتَ قولاً سديدًا. فقال له إبراهيم: والله لتُقتلن، وقد داهن هذا، يعني عبد الله بن يزيد، فقال له عبد الله بن وأل: ما اعتراضك فيما بيننا وبين أميرنا؟ ما أنت علينا بأمير إنما أنت أمير هذه الجزية، فأقبل على خراجك، ولئن أفسدتَ أمر هذه الأُمة فقد أفسده والداك، وكانت عليهما دائرة السوء. فشتمهم جماعة ممَّن مع إبراهيم، ونزل الأمير عن المنبر، وتهدده إبراهيم بأنه يكتب إلى ابن الزبير يشكوه، فجاءه عبد الله في منزله فاعتذر إليه، فقبل عذره.

ثم خرج أصحاب سليمان بن صرد ينشرون السلاح ظاهرين إلى سنة خمس وستين، فعزم سليمان على الشخوص، وبعث إلى رؤوس أصحابه وتواعدوا للخروج في مستهل شهر ربيع الآخر، وخرجوا في ليلة الوعد إلى النُّخَيلة، فدار سليمان في الناس، فلم يعجبه عددهم، فأرسل إلى حكيم بن منقذ الكندي والوليد بن عضين الكناني فناديا في الكوفة يا لثَارات الحسين! فكانا أول من دعيا لثارات الحسين.

فأصبح من الغد وقد أتاه نحو مما في عسكره، ثم نظر في ديوانه فوجدهم ستة عشر ألفًا بايعه، فقال: سبحان الله! ما وافانا من ستة عشر ألفًا إلا أربعة آلاف! فقيل له إن المختار يثبط[1] الناس عنك وقد تبعه ألفان. فقال: بقي عشرة آلاف! ما هؤلاء بمؤمنين!

---

(١) ثبط عن الأمر تثبيطًا إذا شغل عنه. وأراد يضعّف ويُبعِّد.

فأقام بالنُّخيلة ثلاثًا، يبعث إلى من تخلف عنه، فخرج إليه نحو من ألف رجل، فقام إليه المسيّب بن نَجَبة، فقال: رحمك الله، إنه لا ينفعك الكلام، ولا يقاتل معك إلا من أخرجته النية، فلا تنتظرن أحدًا، وخُذ في أمرك. قال: نعم ما رأيت.

ثم قال سليمان في أصحابه فقال: «أيها الناس، من كان إنما خرج إرادة وجْه الله وثواب الآخرة فذلك منا ونحن منه، فرحمة الله عليه حيًا وميتًا، ومن كان يريد الدنيا فَوَاللّهِ ما يأتي فَيءٌ نأخذه ولا غنيمة نغنمها، ما خلا رضوانَ الله، وما معنا من ذهب ولا فضة ولا متاع، ما هو إلاّ سيوفُنا علَى عَواتقنا، وزادٌ قَدْر البُلْغة[١]، فمن كان ينوي غير هذا فلا يصحَبنا».

فتنادَى أصحابه من كل جانب: إنًا لا نطلب الدنيا، وليس لها خرجْنا، إنما خرجنا لنطلبَ التوبةَ والطلبَ بدم ابن بنت نبينا ﷺ.

فلمّا عزم على المسير قال له عبد الله بن سعد بن نفيل: إني قد رأيت رأْيًا، إن يكن صوابًا فالله الموفق، وإن يكن ليس بصواب فالرأي ما تراه، إنَّا خرجنا نطلب بدم الحسين، وقتَلَتُه كلُّهم بالكوفة، منهم عمر بن سعد ورؤُوس الأرباع والقبائل، فأين تذهب من ههنا وتدع الأوتار[٢]. فقال أصحابه: هذا هو الرأي.

فقال سليمان: أنا لا أرى ذلك، إن الذي قتله وعبَّأ الجنود إليه وقال: «لا أمانَ له عندي دُون أن يستسلم فأمضي فيه حكمي» هذا الفاسق ابن الفاسق، عُبيد الله بن زياد، فسيروا على بركة الله إليه، فإنْ يُظهركم الله علَيه رجَوْنا أن يكون مَن بعده أهْوَنَ منه، ورجوْنا أن يدين لكم أهل مصركم في عافيته، فينظرون إلى كل مَن شَرِكَ في دمِ الحسين فيقتلونه ولا يغشون، وإنْ تُستشهدُوا فإنما قاتلتم المحلِّين، وما عند الله خير للأبرار، فاستخيروا الله وسيروا.

وبلغَ عبدَ الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة خروجُ ابن صُرَد، فأتَياه في أشراف أهل الكوفة، ولم يَصحبهم مَن له شَرْكٌ في دم الحسين خوفًا منهم، فلمَّا أتياه قال له عبد الله بن يزيد: إن المسلم أخو المسلم، لا يخونه ولا يغشُّه، وأنتم إخواننا وأهل بلدنا وأحب أهل مصرٍ خلقه الله إلينا، فلا تفجعونا في أنفسكم، ولا تنقُصوا عددَنا بخروجكم من جماعتنا، أقيموا معنا حتَّى نتهيأ فإذا سار عدوُّنا إلينا خرجنا إليه بجماعتنا فقاتلناه. وجعل لسليمان وأصحابه خراج جوخى إن أقاموا، وقال إبراهيم

(١) مما يشغل الإنسان به جوعه، وهو أقل الطعام.
(٢) مفردها الوتر وهو الثأر معنى، ووتر شخصٌ شخصًا إذا أذاه بدم.

مثل ذلك، فقال سليمان: قد مَحَضْتما النصيحة واجتَهدتما في المشورة فنحن بالله وله، ونسأله العَزيمة علَى الرشد، ولا نرانا إلاَّ سائرين، فقال عبد الله: فأقيموا حتَّى نعبِّيءَ معكم جيشًا كثيرًا، فتلْقَوْا عدوَّكم بجمع كثيف، وكان قد بلغهم إقبال عُبيد الله بن زياد من الشام في الجنود.

فلم يُقم سليمان، وسار عشيَّة الجمعة لخمس مضين من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين، فتخلَّف عنه ناس كثير، فقال ما أحبَّ من تخلّف منكم معكم ولو خرجوا فيكم ما زادوكم إلاَّ خبالاً إن الله كَرِه انبعاثهم فثبطهم وخصكم بفضل ذلك.

ثم ساروا فانتهوا إلى قبر الحسين، فصاحوا صَيْحة واحدة، وبكَوا بكاءً شديدًا، وترحّموا عليه، وتابوا عنده من خِذْلانه وتَرْكِ القتالِ معه، وأقاموا عنده يومًا وليلة يبكون ويتضرعون.

ثم ساروا وقد ازدادوا حنَقًا، وأخذوا صَوْبَ الأنبار، وساروا حتَّى أتوا قَرْقيسيا على تعبئة، وبها زُفَر بن الحارث الكلابي قد تحصن بها عند فراره من وقعة مرج راهط، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار مروان بن الحكم.

فبعث إليه سليمان، وعرَّفه ما هو وأصحابه عليه من قصد ابن زياد، فبعث إليهم بجزور ودقيق وعلف، وخرج إليهم وشيّعهم وعرض عليهم أن يقيموا عنده بقرقيسيا، وقال: ابن زياد في عدد كثير، فأبَوْا المقام، وساروا مجدِّين، وقال لهم زفر إن ابن زياد قد بعث خمسة أمراء من الرقة فيهم الحصين بن نمير وشرحبيل بن ذي الكلاع وأدهم بن محرز وجبلة بن عبيد الله الخثعمي، فأبَوْا إلاَّ المسير[١].

فانتهوا إلى عَين الوردة[٢]، فنزلوا غربيّها، وأقاموا خمسًا، واستراحوا وأراحوا.

وأقبل أهل الشام في عساكرهم، حتَّى كانوا من عين الوردة علَى مَسيرة يوم وليلة، فقام سُليمان في أصحابه فخطبهم وحرّضهم على القتال وذكرهم الآخرة ثم قال: إنْ أنا قُتلتُ فأمير الناس المسيب بن نَجَبة، فإن قُتل فالأمير عبد الله بن سعد بن نفيل، فإن قتل فالأمير عبد الله بن وأل، فإن قُتل فالأمير رفاعة بن شداد، رحم الله امرأً صَدَق ما عاهد الله عليه.

---

(١) راجع ابن الأثير في الكامل باختلاف جـ٤ ص١٨٠.

(٢) عين الوردة: رأس عين مشهورة في تلك الناحية راجع ياقوت جـ٤ ص١٨٠.

وبعث المسيّب بن نَجَبة في أربعمائة فارس، وقال: سِرْ حتَّى تَلْقَى أوّل عساكرهم، فشنّ عليهم الغارة، فإن رأيت ما تحب وإلاَّ فارجع. فسار يَوْمَه وليلتَه، ثم نزل، فأُتي بأعرابي، فسأله عن أدنى العسكر منه، فقال: أدناها منك عسكر شُرَحْبيل بن ذي الكُلاع، وهو علَى ميلٍ، وقد اختلف هو والحُصَين، ادَّعَى كلٌّ واحد منهما أنه على الجماعة، وهما ينتظران أمر عُبيد الله.

فسار المسيّب ومَن معه مسرعين، حتَّى أشرفوا على القوم، وهم على غير أُهْبة، فحملوا في جانب عسكرهم، فانهزم العسكر، فأصاب المسيّب منهم رجالاً وأكثروا فيهم الجراح، وأخذوا دواب، وترك الشاميون مُعسكرهم وانهزموا، فغنم أصحاب المسيَّب ما أرادوا، ثم انصرفوا إلى سليمان.

وبلغ الخبر ابن زياد، فسرّح الحصين في اثْنَي عشر ألفًا، فخرج أصحاب سليمان إليه، لأربع بقين من جُمادَى الأولَى، وعَلَى مَيْمنتهم عبد الله بن سعد، وعَلَى مَيْسرتهم المسيّب، وسليمان في القلب. وجعل الحُصين علَى مَيْمنته جبلة بن عبد الله، وعلى مَيْسرته ربيعة بن المخارق الغنوي.

فلما دنا بعضهم من بعض دعاهم أهل الشام إلى الجماعة علَى مَرْوان بن الحكم، ودعاهم أصحاب سليمان إلى خلع مَرْوان وتسليم عُبيد الله بن زياد إليهم وأنهم يُخرجون من بالعراق من أصحاب عبد الله بن الزُّبير ثم يُرَدّ الأمر إلى أهل بيت النبي ﷺ، فأبى كل منهم، وحمل بعْضُهم على بعض، فانهزم أهل الشام وكان الظفر لأصحاب سليمان إلى الليل.

فلما كان الغد صبّح الحُصَين ثمانية آلاف أمده بهم عبيد الله، فقاتلهم أصحاب سليمان عامّة النهار قتالاً شديدًا لم يحجز بينهم إلا الصلاة حتَّى حجز بينهم الليل، وقد كثر الجراح في الفريقين.

فلما أصبح أهل الشام أتاهم أدهم بن محرز الباهلي في نحو من عشرة آلاف من قبَل ابن زياد، فاقتتلوا يوم الجمعة إلى ارتفاع الضحى، ثم كثر أهل الشام عليهم، وعطفوا من كل جانب، فنزل سليمان ونادَى: «عبادَ الله، مَن أراد البُكور إلى ربِّه والتوبَة من ذنبه فإليّ» ثم كسر جَفْنَ سيفه[1]، فنزل معه ناس كثير وفعلوا كفعله، وقاتلوا قتالاً شديدًا، فقتلوا من أهل الشام مَقْتلة عظيمة وأكثروا فيهم الجراح، فبعث الحصين الرجّالة ترميهم بالنّبل، واكتنفتهم الخيل، فقُتل سليمان بن صُرَد، رماه يزيد بن

(١) يعني غمدَ سيفه وهو كناية عن الثبات على القتال.

الحصين بسهم فوقع ثم وثبَ ثم وقع، ومات وهو ابن ثلاث وتسعين سنة، وكانوا قد سموه «أمير التوّابين».

فأخذا الراية المسيب بن نَجبَة، وترحّم على سليمان، فتقدم فقاتل حتَّى قُتل بعد أن قَتل رجالاً كثيرًا.

فأخذ الراية عبد الله بن سعد بن نفيل، وترحم عليهما، وقرأ ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣] وحَفَّ به من كان منهم معه من الأزد، فبينما هم في القتال إذ أتاهم فرسان ثلاثة من سعد بن حذيفة، يخبرون بمسيره في سبعين ومِائة من أهلْ المدائن، ويخبرون بمسير أهل البصرة مع المثنَّى بن مخرمة العبدي في ثلاثمائة، فقال عبد الله بن سعد: لو جاؤونا ونحن أحْياء! وقاتَل حتَّى قُتل، قتله ابن أخي ربيعة بن مخارق، وحمل خالد بن سعد بن نفيل على قاتل أخيه يطعنه بالسيف، فخلصه أصحابه، وقُتل خالد بن سعد.

فجيءَ بالراية إلى عبد الله بن وأل، وقد اصْطَلَى الحرب في عصابة معه، فأخذها، وقاتل مَليًا، وذلك وقت العصر، وما زال يقاتل حتَّى قَتَلَ هو وأصحابه رجالاً، ثم إن أهل الشام تعطفوا عليهم من كل جانب، فلمَّا كان عند المساء تولَّى قتالهم أدهم بن محرز الباهلي، فحمل في خيله ورجله حتَّى وصل إلى ابن وأل وهو يتلو ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩] الآيات، فغاظ ذلك أدهم، فحمل عليه وضربه فأبان يده ثم تنحى عنه، وقال: إني أظُنُّك وددتَ أنك عند أهلك، قال ابن وأل بئس ما ظَنَنْتَ، واللّهِ ما أُحِبُّ أن يَدَك مَكانها إلاَّ أن يكون لي من الأجر مثل ما في يدي، ليعظمَ وِزْرُك وأجْري، فغاظه ذلك فحمل عليه فطعنه فقتله وهو مقبل ما زال[1] عن مكانه، وكان ابن وأل من الفقهاء العباد.

فلما قتل أتَوْا رفَاعة بن شداد البجلي وقالوا خذ الراية، فقال ارجعوا بنا لعلّ الله يجمعنا ليوم شر لهم، فقال عبد الله بن عوف بن الأحمر: «هلكنا والله لئن انصرفت ليركبن أكتافنا فلا نبلغ فرسخًا حتى نهلك عن آخرنا، وإن نجا منَّا ناج أخذتْه الأعراب فتَرّبوا به إليهم فيقتَل صَبْرًا! هذه الشمس قد قاربت الغروب فنقاتلهم على خيلنا، فإذا غَسق الليل ركبنا خيولنا أوّل الليل، وسرنا حتَّى نُصبح ونسير على مهل، يحمل الرجل صاحبه وحريمه ونعرف الوجه الذي نأخذه»[2].

---

(١) أراد لم يَزل، أي بقي ثابتًا.

(٢) راجع الكامل لابن الأثير باختلاف جـ٤ ص١٨٢.

فقال رفاعة نعم ما رأيت وأخذ الراية، وقاتلهم قتالاً شديدًا.

وتقدم عبد الله بن عزيز الكناني فقاتل أهل الشام قتالاً شديدًا، ومعه ولده محمد وهو صغير، فسلّمه لبني كنانة من أهل الشام ليوصلوه إلى الكوفة، فعرضوا عليه الأمان، فأَبَى، ثم قاتلهم حتَّى قُتل.

وتقدم كريب بن زيد الحمير عند المساء في مائة من أصحابه فقاتل قتالاً شديدًا، فعرض ابن ذي الكُلاع علَيه وعلى أصحابه الأمان، فقال قد كنا آمنين في الدنيا وإنما خرجنا نطلب أمان الآخرة، وقاتلوهم حتَّى قُتلوا[١].

وتقدم صخير بن هلال المزني في ثلاثين من مُزَينة، فقاتلوا حتى قتلوا.

فلما أمسَوْا رجع أهل الشام إلى معسكرهم، وسار رفاعة بالناس ليلته، وأصبح الحصين فلم يَرَهم، فما بعث في أثرهم، وساروا حتى أَتَوْا قَرْقيسيا فأقاموا عند زفَر بن الحارث ثلاثًا، ثم زَوَّدهم وساروا إلى الكوفة.

وأما سعد بن حذيفة بن اليمان فإنه سار من المدائن بمن معه حتَّى بلغ هيت، فأتاه الخبر، فرجع فلقي المثنَّى بن مخرمة العبدي في أهل البصرة، فأخبره، فأقاموا بصندوداء[٢] حتى أتاهم رفاعة، فاستقبلوه، وبكَى بعضهم إلى بعض، وأقاموا يومًا وليلة، ثم تفرقوا، فسارت كل طائفة منهم إلى جهتهم.

قال: ولما بلغ رفاعة الكوفة كان المختار بن أبي عبيد محبوسًا، فأرسل إليه المختار: «أمّا بَعْدُ فإنكم خرجتم بالعصبة الذين عظم الله لهم الأجر حين انصرفوا ورضي فعلهم حتى قُتلوا أما ورَبِّ البيت ما خطا خاطٍ منكم خُطوة ولا رَبا ربوة[٣] إلا كان ثواب الله له أعظم من الدنيا، إن سليمان قد قضى ما عليه، وتوفَّاه الله فجعل روحه مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ولم يكن بصاحبكم الذي به تنصرون إني أنا الأمير المأمور والأمين المأمون، وقاتل الجبارين، والمنتقم من أعداء الدين، والمقيد من الأوتار، فأعدوا واستعدوا وأبْشروا، وأدعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيه، والطلب بدم أهل البيت، والدفع عن الضعفاء، وجهاد المُحلِّين، والسلام».

وكان من أمر المختار ما نذكره إن شاء الله تعالى.

تمّ الجزء العشرون، ويليه الجزء الحادي والعشرون،
وأوله: ذكر أخبار المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي

(١) راجع الكامل لابن الأثير باختلاف جـ٤ ص١٨٥.

(٢) صندوداء: على جانب الطريق بين مثلث الطرق الحجاز والعراق والشام. راجع ياقوت في معجمه جـ٣ ص٤٢٥.

(٣) أراد ارتقى، كناية عن اختلاف الزحف.

فهرس المحتويات